الجـــزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً }

إقبـــال الجنـــد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله و صحبه أجمعين.

قال الإمام الواقدي رحمه تعالى...آمين: (والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ما اعتمدت في أخبار هذه الفتوح إلا الصدق وما نقلت أحاديثها إلا عن ثقات وعن قاعدة الحق لأثبت فضائل أصحاب رسول الله ﷺ وجهادهم حتى أرغم بذلك أهل الرفض الخارجين عن السنة والفرض إذ لولاهم بمشيئة الله لم تكن البلاد للمسلمين وما انتشر علم هذا الدين، فلله درهم لقد جاهدوا في الله حق جهاده ونصروا دينه، وثبتوا للقاء الأعداء وبذلوا جهدهم ونصروا الدين حتى زحزحوا الكفر عن سريره وتقهقر، لا جرم وقد قال فيهم الملك المقتدر "مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا").

قال: حدثني أبو بكر بن الحسن بن سفيان بن نوفل بن محمد بن إبراهيم التيمي، ومحمد بن عبد الله الأنصاري، وأبو سعيد مولى هشام ومالك بن أبي الحسن وإسماعيل مولى الزبير ومازن بن عوف من بني النجار، كل حدث عن فتوح الشام بما كان، قالوا جميعاً: إنه لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف بعده أبو بكر الصديق رضي الله عنه قتل في خلافته مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة، وقاتل بني حنيفة، وأهل الردة وأطاعته العرب، فعزم أن يبعث جيشه إلى الشام وصرف وجهه لقتال الروم فجمع أصحاب رسول الله ﷺ في المسجد وقام فيهم خطيباً فحمد الله عز وجل، وقال: يا أيها الناس رحمكم الله تعالى اعلموا أن الله فضلكم بالإسلام وجعلكم من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، وزادكم إيماناً ويقيناً ونصركم نصراً مبيناً، وقال فيكم "ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا"، واعلموا أن رسول الله ﷺ كان عوّل أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه واختار له ما لديه، ألا وإنّي عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام بأهليهم ومالهم فإن رسول الله ﷺ أنبأني بذلك قبل موته، وقال: "زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها "، فما قولكم في ذلك؟ فقالوا: يا خليفة رسول الله مرنا بأمرك ووجهنا حيث شئت، فإن الله تعالى فرض علينا طاعتك. فقال تعالى: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ".

ففرح أبو بكر ﷺ ونزل عن المنبر وكتب الكتب إلى ملوك اليمن وأهل مكة وكانت الكتب فيها نسخة واحدة. وهي: بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليكم أما بعد: فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد ﷺ وقد عزمت أن أوجهكم إلى بلاد الشام لتأخذوها من أيدي الكفار والطغاة فمن عوَّل منكم على الجهاد والصدام، فليبادر إلى طاعة الملك العلام، ثم كتب "ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ"، ثم بعث الكتب إليهم وأقام ينتظر جوابهم وقدومهم، وكان الذي بعثه بالكتب إلى اليمن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ؛ فما مرت أيام حتى قدم أنس ﷺ يبشره بقدوم أهل اليمن وقال: ياخليفة رسول الله وحقك على الله ما قرأت كتابك على أحد إلا وبادر إلى طاعة الله ورسوله، وأجاب دعوتك وقد تجهزوا في العدد والعديد والزرد النضيد، وقد أقبلت إليك ياخليفة رسول الله مبشراً بقدوم الرجال، وأي رجال، وقد أجابوك شعثاً غبراً وهم أبطال اليمن وشجعانها، وقد ساروا إليك بالذراري والأموال والنساء والأطفال، وكأنك بهم وقد أشرفوا عليك ووصلوا إليك فتأهب إلى لقائهم.

فَسُرَّ أبو بكر ﷺ بقوله سروراً عظيماً، وأقام يومه ذلك حتى إذا كان من الغد أقبلوا إلى الصديق ﷺ وقد لاحت غبرة القوم لأهل المدينة. فأخبروه فركب المسلمون من أهل المدينة وغيرهم وأظهروا زينتهم وعددهم ونشروا الأعلام الإسلامية ورفعوا الألوية المحمدية فما كان إلا قليل حتى أشرفت الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضاً، قوم في أثر قوم وقبيلة في أثر قبيلة، فكان أول قبيلة ظهرت من قبائل اليمن حمير وهم بالدروع الداودية والبيض العادية والسيوف الهندية وأمامهم ذو الكلاع الحميري ﷺ. فلما قرب من الصديق ﷺ أحب أن يعرفه بمكانه وقومه وأشار بالسلام وجعل ينشد ويقول:

أتتك حمير بالأهلين والولد ... أهل السوابق والعالون بالرتب
أسد غطارفة شوس عمالقة ... يردوا الكماة غداً في الحرب بالقضب
الحرب عادتنا والضرب همتنا ... وذو الكلاع دعا في الأهل والنسب
دمشق لي دون كل الناس أجمعهم ... وساكنيها سأهويهم إلى العطب

فتبسم أبو بكر الصديق ﷺ من قوله، ثم قال لعلي بن أبي طالب ﷺ: يا أبا الحسن أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا أقبلت حمير ومعها نساؤها تحمل أولادها فأبشر بنصر الله على أهل الشرك أجمعين"؟ فقال الإمام علي: صدقت وأنا سمعته من رسول الله ﷺ. قال أنس ﷺ: وسارت حمير بكتائبها وأموالها وأقبلت من بعدها كتائب مذحج أهل الخيل العتاق والرماح الدقاق، وأمامهم سيدهم قيس بن هبيرة المرادي

ﷺ، فلما وصل إلى الصديق ﷺ جعل يقول: صلوا على طه الرسول:

أتتك كتائب منا سراعاً ... ذوو التيجان أعني من مراد
فقدِّمنا أمامك كي ترانا ... نبيد القوم بالسيف النجادي

فجزَّاه أبو بكر ﷺ خيراً، وتقدم بكتائبه ومواليه، وتقدمت من بعده قبائل طيء يقدمها حارث بن مسعد الطائي ﷺ، فلما وصل همَّ أن يترجل فأقسم عليه أبو بكر ﷺ بالله تعالى أن لا تفعل فدنا منه فصافحه وسلم عليه وأقبلت الأزد في جموع كثيرة يقدمها جندب بن عمرو الدوسي ﷺ، ثم جاءت من بعدهم بنو عبس يقدمهم الأمير ميسرة بن مسروق العبسي ﷺ، وأقبلت من بعدهم بنو كنانة يقدمهم غيشم بن أسلم الكناني وتتابعت قبائل اليمن يتلو بعضها بعضاً ومعهم نساؤهم وأموالهم، فلما نظر أبو بكر ﷺ إلى نصرتهم سرَّ بذلك وشكر الله تعالى.

وأنزل القوم حول المدينة كل قبيلة متفرقة عن صاحبتها واستمروا فأضرَّ بهم المقام من قلة الزاد وعلف الخيل وجدوبة الأرض فاجتمع أكابرهم عند الصديق ﷺ، وقالوا: يا خليفة رسول الله إنك أمرتنا بأمر فأسرعنا لله ولك رغبة في الجهاد وقد تكامل جيشنا وفرغنا من أهبتنا، والمقام قد أضرَّ بنا لأن بلدك ليست بلد جيش، ولا حافر ولا عيش، والعسكر نازل فإن كنت قد بدلت فيما عزمت عليه فأمرنا بالرجوع إلى بلدنا. وأقبل الجميع وخاطبوه بذلك، فلما فرغوا من كلامهم قال أبو بكر ﷺ: يا أهل اليمن، ومن حضر من غيرهم. أما والله ما أريد لكم الإضرار، وإنما أردنا تكاملكم! قالوا: إنه لم يبق من ورائنا أحد فاعزم على بركة الله تعالى.

وصيـــة أبي بكـــر

قال المؤلف رحمه الله تعالى: لقد بلغني أن أبا بكر الصديق ﷺ قام من ساعته يمشي على قدميه وحوله جماعة من الأصحاب منهم عمر وعثمان وعلي ﷺ أجمعين، وخرجوا إلى ظاهر المدينة ووقع النداء في الناس وكبروا بأجمعهم فرحاً لخروجهم وأجابتهم الجبال لدوي أصواتهم، وعلا أبو بكر على دابته حتى أشرف على الجيش فنظر إليهم قد ملئوا الأرض فتهلل وجهه، وقال: اللهم أنزل عليهم الصبر وأيدهم ولا تسلمهم إلى عدوهم "إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، وكان أول من دعاه أبو بكر يزيدٍ بن أبي سفيان وعقد له راية وأمره على ألف فارس من سائر الناس. ودعا بعده رجلاً من بني عامر بن لؤي يقال له ربيعة بن عامر، وكان فارساً مشهوراً في الحجاز فعقد له راية وأمّره على ألف فارس.

ثم أقبل أبو بكر على يزيد بن أبي سفيان، وقال له: هذا ربيعة بن عامر من ذوي العلى والمفاخر قد علمت صولته وقد ضممته إليك وأمّرتك عليه فاجعله في مقدمتك وشاوره في أمرك ولا تخالفه. فقال يزيد: حباً وكرامة. وأسرعت الفرسان إلى لبس السلاح واجتمع الجند وركب يزيد بن أبي سفيان، وربيعة بن عامر وأقبلا بقومهما إلى أبي بكر ﷺ فأقبل يمشي مع القوم. فقال يزيد: يا خليفة رسول الله الناجي من غضب الله ومن رضيت عنه لا نكن على ظهور خيولنا، وأنت تمشي!! فإمّا أن تركب وإمّا أن تنزل. فقال: ما أنا براكب وما أنتم بنازلين! وسار إلى أن وصل إلى ثنية الوداع فوقف هناك فتقدم إليه يزيد فقال: يا خليفة رسول الله أوصنا، فقال: إذا سرت فلا تضيّق على نفسك ولا على أصحابك في مسيرك ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك وشاورهم في الأمر واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور فإنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم، وإذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار "وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ"، وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكول، ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم، وستمرون على قوم في الصوامع رهباناً يزعمون أنهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم، وستجدون قوماً آخرين من حزب الشيطان وعبدة الصلبان قد حلقوا أوساط رؤوسهم فاعلوهم بسيوفكم حتى يرجعوا إلى الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وقد استودعتكم الله. ثم عانقه وصافحه وصافح ربيعة بن عامر، وقال: يا عامر أظهر شجاعتك على بني الأصفر! بلغكم الله آمالكم، وغفر لنا ولكم.

وسار القوم ورجع أبو بكر ﷺ بمن معه إلى المدينة قال: فجد القوم في السير، فقال ربيعة بن عامر: ما هذا السير يا يزيد، وقد أمرك أبو بكر أن ترفق بالناس في سيرك؟! فقال يزيد: يا عامر إن أبا بكر ﷺ سيعقد العقود ويرسل الجيوش فأردت أن أسبق الناس إلى الشام فلعلنا أن نفتح فتحاً قبل تلاحق الناس بنا فيجتمع بذلك ثلاث خصال: رضاء الله ﷻ، ورضاء خليفتنا، وغنيمة نأخذها. فقال ربيعة: فسر الآن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فأخذ القوم في السير على وادي القرى ليخرجوا على تبوك ثم على الجابية إلى دمشق. واتصل الخبر للملك هرقل من قوم من عرب اليمن المتنصرة كانوا في المدينة، فلما صح عند الملك ذلك جمع بطارقته في عسكره، وقال لهم: "يا بني الأصفر إن دولتكم قد عزمت على الانهزام، ولقد كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتقيمون الصلاة وتؤتون الزكاة التي أمركم بها الآباء والأجداد والقسس والرهبان، وتقيمون حدود الله التي أمركم بها في الإنجيل لا

جرم أنكم ما قصدكم ملك من ملوك الوشاة ونازعكم على الشام إلا وقهرتموه ولقد قصدكم كسرى بجنود فارس فانكسروا على أعقابهم، والآن قد بدلتم وغيرتم فظلمتم وجرتُم، وقد بعث إليكم ربكم قوماً لم يكن في الأمم أضعف منهم عندنا، وقد رمتهم شدة الجوع إلينا وأتى بهم إلى بلادنا وبعثهم صاحب نبيهم ليأخذوا ملكنا من أيدينا ويخرجونا من بلادنا!"، ثم إنه حدثهم بالذي سمعه من طرسيسه. فقالوا: "أيها الملك نردهم عن مرادهم ونصل إلى مدينتهم ونخرب كعبتهم"، فلما سمع مقالتهم وتبين اغتياظهم جرد منهم ثمانية آلاف من أشجع فرسانهم وأمّر عليهم خمسة من بطارقتهم، وهم البطاليق وأخوه جرجيس وصاحب شرطته ولوقا بن سمعان وصليب بن حنا صاحب غزة، وكانت هذه الخمسة بطارقة يضرب بهم المثل في الشجاعة والبراعة، ثم تدرعوا وأظهروا زينتهم، وصلّت عليهم الأمة صلاة النصر. فقالوا: اللهم انصر من كان منا على الحق! ويخروهم ببخور الكنائس، ثم رشوا عليهم من ماء المعمودية وودعوا الملك وساروا وأمامهم العرب المتنصرة يدلونهم على الطريق.

حدثني رفاعة عن ياسر بن الحصين قال: بلغني أن أول من وصل إلى تبوك كان يزيد بن أبي سفيان وربيعة بن عامر ومن معهما من المسلمين قبل وصول الروم بثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الرابع والمسلمون قد هموا بالرحيل إلى الشام إذ أقبل جيش الروم، فلما رآه المسلمون أخذوا على أنفسهم وكمن ربيعة بأصحابه الألف وأقبل يزيد بأصحابه الألف ووعظهم وذكر الله تعالى وقال لهم: (اعلموا أن الله وعدكم النصر وأيدكم بالملائكة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: "كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ"، وقد قال ﷺ: "الجنة تحت ظلال السيوف" -متفق عليه- وأنتم أول جند دخل الشام وتوجه لقتال بني الأصفر فكأنكم بجنود الشام، وإياكم أن تطمعوا العدو فيكم وانصروا الله ينصركم).

فبينما يزيد يعظ الناس وإذا بطلائع الروم قد أقبلت وجيوشها قد ظهرت فلما رأوا قلة العرب طمعوا فيهم وظنوا أنه ليس وراءهم أحد فبربر بعضهم على بعض بالرومية وقالوا دونكم من يريد أخذ بلادكم واستنصروا بالصليب فإنه ينصركم، ثم حملوا وتلقاهم أصحاب رسول الله ﷺ بهمم عالية وقلوب غير دانية ودار القتال بينهم وتكاثرت الروم عليهم وظنوا أنهم في قبضتهم إذ خرج عليهم ربيعة بن عامر رضي الله عنه بالكمين، وقد أعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، وحملوا على الروم حملة صادقة، فلما عاينت الروم من خرج عليهم انكسروا، وألقى الله الرعب في قلوبهم فتقهقروا إلى ورائهم ونظر ربيعة بن عامر إلى البطاليق وهو يحرض قومه على القتال فعلم أنه طاغية الروم فحمل عليه وطعنه طعنة صادقة فوقعت في خاصرته

وطلعت من الناحية الأخرى، فلما نظرت الروم إلى ذلك ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار ونزل النصر على طائفة محمد المختار. حدثنا سعد بن أوس عن السرية التي أنفذها أبو بكر الصديق ﷺ مع يزيد بن أبي سفيان وربيعة بن عامر، قال: قد اجتمعا بعساكر الروم في أرض تبوك مع البطاليق وهزمهم الله تعالى على أيدينا، وكان جملة من قتل منهم ألفاً ومائتين، ومن قتل من المسلمين مائة وعشرين رجلاً. وإن القوم لما انهزموا قال لهم جرجيس وهو أخو المقتول: يا ويلكم بأي وجه ترجعون إلى الملك، وقد عملوا فينا عملاً ذريعاً، وملئوا الأرض من قتلانا ولا أرجع حتى أخذ بثأر أخي أو ألحق به. قال: واجتمع القوم وسمعوا منه ذلك ورجع بعضهم إلى بعض وعادوا إلى القتال، فلما استقروا في خيامهم بعثوا رجلاً من العرب المتنصرة اسمه القداح، وقالوا له: امض إلى بني عمك وقل لهم يبعثوا إلينا رجلاً من كبارهم وعقلائهم حتى ننظر ما يريدون منا. فركب القداح جواده وأقبل نحو جيش المسلمين، فلما رأوه مقبلاً إليهم استقبله رجال من الأوس وقالوا له: ماذا تريد؟ قال لهم: إن البطارقة يريدون رجالاً من عقلائكم ليخاطبوهم فيما يريد الله من صلاح شأن الجمعين.

فأخبروا يزيد بن ربيعة بما قال المتنصر فقال ربيعة بن عامر: أنا أسير إلى القوم. فقال يزيد: يا ربيعة أنا أخاف عليك من القوم لأنك قد قتلت كبيرهم بالأمس. فقال ربيعة "قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ"، وإني أوصيك والمسلمين أن تكون همتكم عندي فإذا رأيتم القوم غدروا بي فاحملوا عليهم ثم ركب جواده وسار حتى أتى جيش الروم وقرب من سرادق أميرهم. فقال القداح: عظم جيش الملك وانزل عن جوادك. فقال ربيعة ﷺ: ما كنت بالذي أنتقل من العز إلى الذل ولست أسلم جوادي لغيري وما أنا بنازل إلا على باب السرادق وإلا رجعت من حيث جئت لأننا ما بعثنا إليكم، بل أنتم بعثتم إلينا! قال: فأعلم القداح الروم بما تكلم به ربيعة بن عامر. فقال بعضهم لبعض: صدق العربي في قوله دعوه ينزل حيث أراد.

فنزل ربيعة على باب السرادق وجثا على ركبته وأمسك عنان جواده بيده وسلاحه معه. فقال له جرجيس: يا أخا العرب لم تكن أمة أضعف منكم عندنا وما كنا نحدث أنفسنا أنكم تغزوننا وما الذي تريدون منا؟ فقال ربيعة: نريد منكم أن تدخلوا في ديننا، وأن تقولوا بقولنا، وإن أبيتم تعطونا الجزية عن يد وأنتم صاغرون وإلا فالسيف بيننا وبينكم. فقال جرجيس: فما منعكم أن تقصدوا الفرس وتدعون الصداقة بيننا وبينكم؟. فقال ربيعة: بدأنا بكم لأنكم أقرب إلينا من الفرس، وإن الله تعالى أمرنا في كتابه بذلك قال الله تعالى: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةً"، قال جرجيس: فهل لك أن تعقد الصلح بيننا وبينكم وأن نعطي كل رجل

منكم ديناراً من ذهب وعشرة أوسق من الطعام وتكتبوا بيننا وبينكم كتاب الصلح لا تغزون إلينا ولا نغزوا إليكم؟ قال ربيعة: لا سبيل إلى ذلك وما بيننا وبينكم إلا السيف أو أداء الجزية أو الإسلام.

قال جرجيس: أما ما ذكرت من دخولنا في دينكم فلا سبيل إلى ذلك ولو نهلك عن آخرنا لأننا لا نرى لديننا بدلاً. وأما إعطاء الجزية فإن القتل عندنا أيسر من ذلك، وما أنتم بأشهى منا إلى القتال والحرب والنزال لأن فينا البطارقة وأولاد الملوك رجال الحرب وأرباب الطعن والضرب. قال جرجيس لأصحابه: علي بـ"أنفس صقالبة" حتى يناظر هذا البدوي في كلامه. وكان الملك هرقل قد بعث معهم قسيساً عظيماً عارفاً بدينهم مجادلاً عن شرعهم.

فأتى الحاجب به، فلما استقر به الجلوس قال له جرجيس: يا أبانا أستخبر من هذا الرجل عن شريعتهم، وعن دينهم. فقال القسيس: يا أخا العرب إنا نجد في علمنا أن الله تعالى يبعث من الحجاز نبياً عربياً هاشمياً قرشياً علامته أن الله تعالى يسري به إلى السماء أكان ذلك أم لا؟ قال: نعم أسري به، وقد ذكره ربنا في كتابه العزيز بقوله تعالى: "سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ"، قال القسيس: إنا نجد في كتابنا أن ربنا يفرض على هذا النبي وأمته شهراً يصومونه يقال له شهر رمضان. قال ربيعة: نعم، وقد قرأنا في القرآن العظيم "شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ"، فقال القسيس: إنا وجدنا في كتابنا أن من أحسن حسنة تكتب بعشرة. قال ربيعة: نعم، قال الله تعالى: "مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ"، قال القسيس: إنا نجد في كتابنا أن الله يأمر أمته بالصلاة عليه. قال ربيعة: نعم، وقد قال الله في كتابه العزيز: "إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا".

فعجب جرجيس من كلامه وقال للبطارقة: إن الحق مع هؤلاء القوم! فقال بعض الحجاب: إن هذا هو الذي قتل أخاك. فلما سمع ذلك ازورّت عيناه وغضب غضباً شديداً وهمّ أن يثب على ربيعة ففهم ربيعة ذلك منه فوثب من مكانه أسرع من البرق وضرب بيده إلى قائم سيفه وعجل جرجيس بضربة فجندله صريعاً ووثب على فرسه فركبها فأسرعت البطارقة إليه وهو راكب فحمل فيهم ونظر يزيد بن أبي سفيان إلى ذلك فقال للمسلمين: إن أعداء الله قد غدروا بصاحب رسول الله ﷺ فدونكم وإياهم، فحمل المسلمون على المشركين واختلط الجيش بالجيش و صبرت الروم لقتال العرب

فبينما هم في القتال إذ أشرفت جيوش المسلمين مع شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ، فلما نظر المسلمون إلى إخوانهم في القتال حملوا على القوم حملة صادقة وحكمت سيوفهم في قمم الروم.

قال الواقدي: لقد بلغني أن الثمانية آلاف المذكورة من الروم لم ينج منهم أحد لأن العرب التقطوهم بسبق الخيل وبعد الشام من تبوك، ثم إن المسلمين أخذوا أموالهم وخيامهم، ثم سلموا على شرحبيل ومن معه وجمعوا المال والغنائم. فقالوا: نبعث الجميع إلى أبي بكر الصديق ﷺ فرضوا بذلك وبعثوا الجميع إلا العدة والسلاح، وبعثوا مع الغنائم والأموال شداد بن أوس ﷺ في خمسمائة فارس، ولما وصل بالمال إلى المدينة المنورة وعاين المسلمون أموال المشركين رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير، والصلاة على البشير النذير محمد ﷺ، وسمع الصديق بقدوم شداد بن أوس ﷺ ومن معه من المسلمين ففرح بذلك فرحاً شديداً، ثم أقبلوا إلى الصديق وأعلموه بالفتح بعد أن سلموا عليه فسجد لله ﷻ.

ثم كتب كتاباً إلى أهل مكة يستدعيهم إلى الجهاد مضمونه: بسم الله الرحمن الرحيم من أبي بكر إلى أهل مكة وسائر المؤمنين فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد ﷺ. أما بعد: فإني قد استنفرت المسلمين إلى الجهاد وفتح بلاد الشام، وقد كتبت إليكم وإلى المسلمين أن تسرعوا إلى ما أمركم به ربكم تبارك وتعالى: إذ يقول الله ﷻ "ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ"، وهذه الآية فيكم وأنتم أحق بها وأهلها، وأول من صدق وقام بحكمها من ينصر دين الله فالله ناصره، ومن بخل استغنى الله عنه والله غني حميد، فسارعوا إلى جنة عالية قطوفها دانية أعدها الله للمهاجرين والأنصار، فمن اتبع سبيلهم كتب من الأولياء الأخيار، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وختم الكتاب ودفعه إلى عبد الله بن حذافة، فأخذه وسار حتى وصل مكة وصرخ في أهلها، فاجتمعوا إليه فدفع إليهم الكتاب فقرؤوه على أصحاب رسول الله ﷺ، فلما سمعوه قال سهل بن عمرو والحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم: أجبنا داعي الله وصدقنا قول نبيه محمد ﷺ، فأما عكرمة فإنه قال: إلى متى نبسط لأنفسنا وقد سبقنا القوم إلى المواطن، وقد فاز من فاز بالصدق، وإن كنا تأخرنا عن السبق فاللحاق السباق فلعلنا نكتب في الحال.. ثم خرج عكرمة بن أبي جهل في بني مخزوم وخرج الحارث بن هشام معهم وتلاحق أهل مكة خمسمائة رجل، وكتب أبو بكر للطائف فخرجوا في أربعمائة رجل.

قال الواقدي: خرج بهم سعيد بن خالد بن سعيد بن العاص وكان غلاماً نجيباً، وذلك أن سعيد بن خالد أتى إلى الصديق ﷺ. فقال: يا خليفة رسول الله ﷺ إنك أردت أن تعقد لأبي خالد راية ويكون قائداً من قواد جيشك، فتكلم فيه المتكلمون فعزلته حين رجع من بعثتك، وقد حبس نفسه في سبيل الله ﷻ ولم أزل مجيباً دعوتك في بعثتك، فهل لك أن تقدمني على هذا الجيش، فوالله لا يراني الله وانيا أبداً ولا عاجزاً عن الحرب! قال: وكان سعيد بن خالد أنجب من أبيه وأفرس، فعقد له أبو بكر راية ودفعها إليه وأمَّره على ألفين من العرب.

فلما سمع عمر بن الخطاب كلام سعيد بن خالد وأنه خير من أن يكون أميراً كره له ذلك وأقبل على الصديق ﷺ. وقال: يا خليفة رسول الله عقدت هذه الراية لسعيد بن خالد على من هو خير منه، ولقد سمعته يقول عندما عقدتها: "على رغم الأعادي" والله لتعلم أنه ما يريد بالقول غيري، ووالله ما تكلمت في أبيه. قال: فثقل ذلك على أبي بكر وكره أن لا يعقد له، وكره أيضاً أن يخالف عمر لمحبته له ونصحه ومنزلته عند النبي ﷺ ووثب قائماً، ودخل على عائشة رضي الله عنها وأخبرها بخبر عمر بن الخطاب ﷺ، وما كان من كلامه. فقالت عائشة: قد علمت أن عمر ينصر الدين ويريد النصر لرب العالمين، وما في قلب عمر بغض للمسلمين. فقبل قول عائشة رضي الله عنها، ثم دعا بأزد الدوسي وقال له: امض إلى سعيد بن خالد وقل له: رد علينا رايتك. فردها! وقال: والله لأقاتلن تحت راية أبي بكر حيث كان، فإني قد حبست نفسي في سبيل الله.

قال الواقدي: ولقد بلغني أن الصديق حال تفكره فيمن يقدم طليعة للجيش تقدم إليه سهل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وهشام بن الحارث، وقالوا: اشهدوا أننا قد حبسنا أنفسنا في سبيل الله فلا نرجع عن القتال أبداً. فقال أبو بكر: اللهم بلغهم أفضل ما يؤملون. ثم إن أبا بكر دعا عمرو بن العاص فسلم إليه الراية وقال: قد وليتك على هذا الجيش، يعني أهل مكة والطائف وهوازن وبني كلاب فانصرف إلى أرض فلسطين، وكاتب أبا عبيدة وأنجده إذا أرادك ولا تقطع أمراً إلا بمشورته: امض بارك الله فيك وفيهم.

فأقبل عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب ﷺ وقال له: يا أبا حفص أنت تعلم شدتي على العدو وصبري على الحرب، فلو كلمت الخليفة أن يجعلني أميراً على أبي عبيدة، وقد رأيت منزلتي عند رسول الله ﷺ وإني أرجو أن يفتح الله على يدي البلاد ويهلك الأعداء. قال عمر ﷺ: ما كنت بالذي أكذبك وما كنت بالذي أكلمه في

ذلك، فإنه ليس على أبي عبيدة أمير، ولأبي عبيدة عندنا أفضل منزلة منك، وأقدم سابقة منك والنبي ﷺ قال فيه: "أبو عبيدة أمين الأمة"! قال عمرو: ما ينقص من منزلته إذا كنت والياً عليه. قال عمر بن الخطاب ﷺ: ويلك يا عمرو إنك ما تطلب بقولك هذا إلا الرياسة والشرف فاتق الله ولا تطلب إلا شرف الآخرة ووجه الله تعالى، فقال عمرو بن العاص: إن الأمر كما ذكرت! ثم أمر الناس بالمسير تحت رايته فساروا، وتقدم أهل مكة وتبعهم بنو كلاب وطئ وهوازن وثقيف وتخلف المهاجرون والأنصار ليسيروا مع أبي عبيدة بن الجراح.

وصية الصديق لعمرو بن العاص

وتقدم عمرو بن العاص وسار. قال أبو الدرداء: كنت مع عمرو بن العاص في جيشه، فسمعت أبا بكر يقول وهو يوصيه: اتق الله في سرك وعلانيتك واستحيه في صلواتك فإنه يراك في عملك، وقد رأيت تقدمتي لك على من هو أقدم منك سابقة وأقدم حرمة فكن من عمال الآخرة، وأرد بعملك وجه الله وكن والداً لمن معك وارفق بهم في السير فإن فيهم أهل ضعف، والله ناصر دينه ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وإذا سرت بجيشك فلا تسر في الطريق التي سار فيها يزيد وربيعة وشرحبيل، بل اسلك طريق إيليا حتى تنتهي إلى أرض فلسطين، وابعث عيونك يأتونك بأخبار أبي عبيدة، فإن كان ظافراً بعدوه فكن أنت لقتال من في فلسطين، وإن كان يريد عسكراً فأنفذ إليه جيشاً في أثر جيش، وقدم سهل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وسعيد بن خالد، وإياك أن تكون وانياً عما ندبتك إليه، وإياك والوهن أن تقول: جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به، وقد رأيت يا عمرو ونحن في مواطن كثيرة ونحن نلاقي ما نلاقي من جموع المشركين ونحن في قلة من عددنا ثم رأيت يوم حنين ما نصر الله عليهم.

واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل نجد، فأكرمهم واعرف حقهم ولا تتطاول عليهم بسلطانك ولا تداخلك نجدة الشيطان فتقول: إنما ولاني أبو بكر لأني خيرهم، وإياك وخداع النفس وكن كأحدهم، وشاورهم فيما تريد من أمرك. والصلاة ثم الصلاة، أذِّن بها إذا دخل وقتها ولا تصل صلاة إلا بأذان يسمعه أهل العسكر، ثم ابرز وصل بمن رغب في الصلاة معك فذلك أفضل له، ومن صلاها وحده أجزأته صلاته واحذر من عدوك وأمر أصحابك بالحرس ولتكن أنت بعد ذلك مطلعاً عليهم. وأطل الجلوس بالليل على أصحابك وأقم بينهم واجلس معهم ولا تكشف أستار الناس، واتق الله إذا لاقيت العدو، وإذا وعظت أصحابك فأوجز وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك فالإمام ينفرد إلى الله تعالى فيما يعلمه وما يفعله في رعيته وإني قد وليتك على من قد مررت من العرب فاجعل كل قبيلة على حميتها، وكن

عليهم كالوالد الشفيق الرفيق وتعاهد عسكرك في سيرك وقدِّم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك، وخلِّف على الناس من ترضاه، وإذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر فيكون ذلك منك فخراً، وألزم أصحابك قراءة القرآن وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها فإن ذلك يورث العداوة بينهم، وأعرض عن زهرة المنى حتى تلتقي بمن مضى من سلفك وكن من الأئمة الممدوحين في القرآن إذ يقول الله تعالى: "وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ"، فكان أبو بكر ﷺ يوصي عمرو بن العاص وأبو عبيدة حاضراً، ثم قال: سيروا على بركة الله تعالى وقاتلوا أعداء الله وأوصيكم بتقوى الله فإن الله ناصر من ينصره.

فسلَّم المسلمون عليه وودعوه وساروا في تسعة آلاف مع من ذكرنا يريدون أخذ فلسطين، فلما كان بعدهم بيوم واحد عقد العقود والرايات إلى أبي عبيدة بن الجراح وأمره بأن يقصد بمن معه أرض الجابية، وقال: يا أمين الأمة قد سمعت ما وصيت به عمرو بن العاص وودعه المسلمون، فلما عاد أبو بكر والمسلمون دعا بخالد بن الوليد وعقد له راية، وكانت له راية النبي ﷺ وأمره على لخم وجذام وضم له جيش الزحف وكانوا شجعاناً ما منهم إلا من شهد الوقائع مع رسول الله ﷺ وقال له: يا أبا سليمان قد وليتك على هذا الجيش فاقصد به أرض العراق وفارس وأرجو الله أن ينصركم. ثم إنه ودعه وسار خالد بمن معه يطلب العراق.

حدثني ربيعة بن قيس قال: كنت في الجيش الذي وجهه أبو بكر الصديق مع عمرو بن العاص إلى فلسطين وإيليا. وكان صاحب رايته سعيد بن خالد. وبعث أبو بكر مع كل جيش أميراً وهو يدعو لهم بالنصر وأخذه القلق على المسلمين حتى عرف ذلك في وجهه. فقال له عثمان بن عفان ﷺ: ما هذا الغم الذي نزل بك؟ فقال: اغتممت على جيوش المسلمين وأرجو الله أن ينصرهم على عدوهم. فقال عثمان: والله ما خرج جيش سررت به إلا هذا الجيش الذي سار إلى الشام، وهذا الذي أوصى الله نبيه به، وليس في قوله خلف. وإنا سنظهر على الروم وفارس ولكن ما ندري متى يكون أفي هذا البعث أو غيره ولكن أحسن الظن بالله. وبات الصدِّيق فرأى في منامه كأن عمرو بن العاص في وجهه طرمة هو وأصحابه ثم قصد عمرو أرضاً خضرة سهلة وفرجة فحمل على فرسه، ثم اتبعه أصحابه، فإذا هم في أرض واسعة فنزلوا واستراحوا وانتبه أبو بكر من منامه فرحاً بما رأى. فقال عثمان: يدل على فتح إلا أنه يوشك أن يلقى عمرو في قتال المشركين مشقة عظيمة ثم يخلص منها.

قال الواقدي: كانت الساقطة تنزل المدينة في الجاهلية والإسلام يقدمون بالبر والشعير والزيت والتين والقماش، وما يكون في الشام، فقدم بعض الساقطة إلى المدينة، وأبو بكر ينفذ الجيوش وسمعوا كلام أبي بكر لعمرو بن العاص، وهو يقول:

عليك بفلسطين وإيليا. فساروا بالخبر إلى الملك هرقل. فلما سمع ذلك جمع أرباب دولته وبطارقته وأعلمهم بالحديث الذي جرى وقال: يا بني الأصفر هذا الذي كنت حذرتكم منه قديماً وإن أصحاب هذا النبي لابد أن تملك ما تحت سريري هذا وقد قرب الوعد، وإن خليفة محمد قد أنفذ لكم الجيوش وكأنكم بهم وقد أتوكم وقصدوا نحوكم فحذروا أنفسكم، وقاتلوا عن دينكم وعن حريمكم، فإن تهاونتم ملكت العرب بلادكم وأموالكم. فبكى القوم، فقال لهم: دعوا عنكم البكاء! ثم قال له وزيره: أيها الملك قد اشتهينا أن تدعو بعض من قدم بهذا الخبر عليك فأمر هرقل بعض حجابه أن يأتي برجل من المتنصرة ممن قدم عليه بالأخبار فأتى برجل منهم، فقال له الملك: كم عهدك؟ قال: منذ خمسة وعشرين يوماً. قال: فمن المتولي عليهم؟ قال له: رجل يقال له أبو بكر الصديق وجه جيوشه إلى بلدك، قال: هل رأيت أبا بكر؟ قال: نعم وإنه أخذ مني شملة بأربعة دراهم وجعلها على كتفه وهو كواحد منهم، وهو يمشي في ثوبين ويطوف بالأسواق ويدور على الناس يأخذ الحق من القوي للضعيف.

قال هرقل: صفه لي. قال: هو رجل آدم اللون خفيف العارضين. فقال هرقل: وحق ديني هو صاحب أحمد الذي كنا نجد في كتبنا أنه يقوم بالأمر من بعده، ونجد في كتبنا أيضاً أن بعد هذا الرجل رجلاً آخر طويلاً كالأسد الوثاب يكون على يديه الدمدمة والجلاء. فشهق المتنصر من قول هرقل وقال: إن هذا الذي وصفته لي رأيته معه لا يفارقه. قال هرقل: هذا الأمر والله قد صح وقد دعوت الروم إلى الرشد والصلاح، فأبوا أن يطيعوني، وأن ملكي سوف ينهدم، ثم عقد صليباً من الجوهر، وأعطاه قائد جيوشه روبيس. وقال له: قد وليتك على الجيوش فسيروا لمنع العرب من فلسطين فإنها بلد خصب كثيرة الخير وهي عزنا وجاهنا وتاجنا، فتسلم روبيس الصليب وسار من يومه إلى أجنادين واتبعه جيش الروم.

عمرو بن العاص في فلسطين

قال الواقدي: لقد بلغني أن عمرو بن العاص توجه إلى إيليا، حتى وصل إلى أرض فلسطين هو ومن معه، فلما نزل المسلمون بفلسطين جمع عمرو المسلمين المهاجرين والأنصار وشاورهم في أمرهم فبينما هم في المشورة إذ أقبل عليهم عدي بن عامر، وكان من خيار المسلمين، وكان كثيراً ما يتوجه إلى بلاد الشام، وداس أرضهم وعرف مساكنها ومسالكها. فلما أشرف على المؤمنين داروا به وأوقفوه بين يدي عمرو بن العاص. فقال عمرو بن العاص: ما الذي وراءك يا ابن عامر؟ قال: ورائي المتنصرة وجنودهم مثل النمل. فقال له عمرو: يا هذا لقد ملأت قلوب المسلمين رعباً وإنا نستعين بالله عليهم. فقال له: فكم حزرت القوم؟ فقال: أيها الأمير إني قد علوت على شرف من الجبال عال، فرأيت من الصلبان والرماح والأعلام ما قد ملأ الأجم،

وهو أعظم جبل بأرض فلسطين وهم زيادة عن مائة ألف فارس، وهذا ما عندي من الخبر! فلما سمع عمرو ذلك قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم أقبل على من حضر من كبار المسلمين. وقال: أيها الناس أنا وإياكم في هذا الأمر بالسواء فاستعينوا بالله على الأعداء، وقاتلوا عن دينكم وشرعكم فمن قتل كان شهيداً، ومن عاش كان سعيداً، فماذا أنتم قائلون.

فتكلم كل رجل بما حضر عنده من الرأي. فقالت طائفة منهم: أيها الأمير ارجع بنا إلى البرية حتى نكون في بطن البيداء فإنهم لا يقدرون على فراق القرى والحصون. فإذا جاءهم الخبر إننا توسطنا البرية يتفرق جمعهم وبعد ذلك نعطف عليهم وهم على غفلة فنهزمهم إن شاء الله تعالى. فقال سهل بن عمرو: إن هذه مشورة رجل عاجز. فقال رجل من المهاجرين: لقد كنا مع رسول الله ﷺ نهزم الجمع الكثير بالجمع القليل، وقد وعدكم الله النصر وما وعد الصابرين إلا خيراً، وقد قال الله تعالى: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً"، قال سهل بن عمرو: أما أنا فلا رجعت عن قتال الكفرة ولا رددت سيفي عنهم، فمن شاء فلينهض، ومن شاء فليرجع، ومن نكص على عقبيه فأنا وراءه بالمرصاد.

فلما سمع المسلمون أنَّ وافقه على ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قالوا أحسنت يا أبا الفاروق، ثم إن عمرو بن العاص عقد راية وأعطاها عبد الله بن عمر بن الخطاب وضم إليه ألف فارس فيهم رجال من الطائف ومن ثقيف وأمرهم بالمسير فسار عبد الله، وجعل يجد السير بقية يومه إلى الصباح، وإذا بغبرة القوم قد لاحت. فقال عبد الله بن عمر: هذه غبرة عسكر وأظنها طليعة القوم، ثم وقف ووقف أمامه أصحابه. فقال قوم من البادية: اتركنا نرى ما هذه الغبرة. فقال: لا تتفرقوا من بعضكم حتى نرى ما هي. فوقف الناس، وإذا بالغبرة قد قربت وانكشفت عن عشرة آلاف من الروم وقد بعث معهم روبيس بطريقاً من أصحابه، وكانوا قد ساروا يكشفون خبر المسلمين. فلما نظرهم عبد الله بن عمر قال لأصحابه: لا تمهلوهم لأنهم لابد لهم منكم، والله ينصركم عليهم. واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف.

فأعلن القوم بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله. فلما جهروا بها أجابهم الشجر والمدر والدواب والحجر، وكان أول من حمل عكرمة بن أبي جهل وتبعه سهل بن عمرو والضحاك أيضاً بالجملة وصاح في رجاله وحمل المهاجرون والأنصار معهم، والتقى الجمعان، وعمل السيف في الفريقين. قال عبد الله بن عمر: وبينما أنا في الوقعة إذ نظرت من القوم بطريقاً عظيم الخلقة وهو كالحائر البليد، وهو يركض يميناً وشمالاً، فقلت: إن يكن لهذا الجيش عين فهذا عين الجيش وصاحب الطلائع

وهو مرعوب من الحرب. فلما حملت عليه ومددت قناتي إليه، نفر فرسه من الرمح فقربت منه وأوهمته أني أريد الانهزام، ثم عطفت عليه وطعنته، فوالله لقد خيل لي أنّي ضربت بسيفي حجراً، وسمعت طنين السيف حتى حسبت أن سيفي انفصل، وإذا هو صريع! ثم عطفت عليه وأخذت لأمته. فلما رأى المشركون صاحبهم مجندلاً داخلهم الفزع والهلع وصدمهم المسلمون في الضرب والقتال فلله در الضحاك والحارث بن هشام، لقد قاتلا قتالاً شديداً ما عليه من مزيد، فما كان غير قليل حتى انهزم الكفار من بين أيديهم هاربين. فرجع المسلمون واجتمع بعضهم على بعض وجمعوا الغنائم والأموال. وقال بعضهم لبعض: ما فعل الله بعبد الله بن عمر؟ قال قائل منهم: الله خبير بحسن زهده وعبادته. وقال آخرون: لقد أصبنا بابن عمر فما كان يساوي هذا الفتح شعرة من رأسه.

قال عبد الله بن عمر: وأنا مع ذلك أسمع كلامهم خلف الراية. فأعلنت بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، وهززت الراية. فلما نظر المسلمون الراية سارعوا إليّ وقالوا: أين كنت؟ فقلت: اشتغلت بقتال صاحبهم فقالوا: أفلح والله وجهك فهذا والله فتح قد رزقنا الله إياه ببركتك. قال عبد الله: وبوجوهكم، ثم حازوا الأموال والغنائم والخيل وستمائة أسير وقتل من المسلمين سبعة نفر فواروهم وصلى عليهم ابن عمر.

وانعطف الجيش إلى عمرو بن العاص وحدّثوه بما جرى ففرح وحمد الله تعالى، ثم دعا بالأسرى واستنطق منهم بالعربية فما كان فيهم غير ثلاثة نفر من أنباط الشام فسألهم عن خبرهم وخبر أصحابهم فقالوا: يا معشر العرب إن هذا روبيس قد أقبل في مائة ألف فارس، وقد أمره الملك أن لا يدع أحداً من العرب يصل إيليا.. وإنه بعث بهذا البطريق طليعة، وقد قتل وكأنكم به. فقال عمرو: إن الله يقتله كما قتل صاحبكم، ثم عرض عليهم الإسلام، فما أحد منهم أسلم. فقال عمرو للمسلمين: كأنكم بصاحبهم، وقد أتى يأخذ ثأرهم وهؤلاء تركهم علينا بلاء، ثم أمر بضرب أعناقهم، وصاح بالمسلمين استعدوا فإني أظن أن القوم سائرون، فإن أتوا إلينا فهم في شدة وقوة وسنلقى منهم تعباً في القتال وإن سرنا إليهم نرجو من الله النصر والظفر بهم كما ظفرنا بغيرهم وما عودنا الله إلا خيراً.

قال أبو الدرداء: وبتنا مكاننا. فلما جاء الله بالصباح رحلنا فما بعدنا غير قليل حتى أشرفت علينا عشرة صلبان تحت كل صليب عشرة آلاف فارس. فلما أشرف الجيش على الجيش أقبل عمرو ورتب أصحابه وجعل في الميمنة الضحاك وفي الميسرة سعيداً، وأقام على الساقة أبا الدرداء وثبت عمرو في القلب ومعه أهل مكة،

وأمر الناس يقرأون القرآن. وقال لهم: اصبروا على قضاء الله وارغبوا في ثواب الله وجنته، ثم إنه جعل يصفّهم ويعبيهم تعبية الحرب ونظر "روبيس" بطريق الروم إلى عسكر المسلمين، وقد صفّهم عمرو بن العاص لا يخرج سنان عن سنان ولا عنان عن عنان ولا ركاب عن ركاب، وهم كأنهم بنيان مرصوص، فشم منهم رائحة النصر وتبين من نفسه الجزع، وعلم أن كل من معه كذلك فوقف ينظر ما يكون من المسلمين وانكسرت حميته.

وكان أول من برز من جيش المسلمين سعيد بن خالد ﷺ، وهو أخو عمرو بن العاص من أمه. فلما برز نادى برفيع صوته: ابرزوا يا أهل الشرك، ثم حمل على الميمنة فألجأها إلى الميسرة، وحمل على الميسرة فألجأها إلى الميمنة وقتل رجالاً وجندل أبطالاً، ثم اقتحم فيهم فشوشهم وزعزع جيشهم. فاجتمعوا عليه فقتلوه رحمة الله عليه. فحزن المسلمون على قتله حزناً عظيماً وأكثرهم عمرو بن العاص. وقال: واسعيداه! لقد اشترى نفسه من الله ﷻ. ثم قال: يا فتيان من يحمل معي هذه الحملة حتى ننظر ما يكون من أمرها وأنظر حال سعيد. فأسرع بالإجابة ذو الكلاع الحميري وعكرمة بن أبي جهل والضحاك والحارث بن هشام، ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ أجمعين. قال عبد الله: وكنّا سبعين رجلاً، وحملنا حتى دنونا من القوم وهم لا يفكرون في حملتنا لأنهم جبال من حديد.

قال الواقدي رحمة الله عليه: فلما رأى المسلمون ثبات الروم صاح بعضنا ببعض: ابعجوا دوابهم فما هلاكهم غير ذلك! فبعجنا دوابهم بالأسنة فتنكسوا فبعد انتكاسهم تفرّق بعضهم عن بعض وحملوا علينا وحملنا عليهم، وكنّا فيهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الأسود وكان شعارنا يوم فلسطين: لا إله إلا الله محمد رسول الله. يا رب انصر أمة محمد ﷺ! قال أبو الدرداء: فلقد شغلتني الحرب عن مناشدة الأشعار، ولقد كان أحدنا لا يدري أهو يضرب أخاه أو عدوه من كثرة القتام فثبت المسلمون مع قلتهم وفوضوا أمرهم إلى الله ﷻ.

قال عبد الله بن عمر: فلم تزل الحرب بيننا إلى وقت الزوال وهبت الرياح والناس في القتام إذ نظرت إلى السماء وقد انفرج فيها فرج وخرجت منها خيول شهب تحمل رايات خضر أسنتها تلمع ومناد ينادي بالنصر أبشروا يا أمة محمد ﷺ فقد أتاكم الله بالنصر. فما كان غير قليل إذ نظرت إلى الروم منهزمين، والمسلمون في أعقابهم لأن خيل العرب أسبق من خيل الروم. قال ابن عمر: فقتلنا في هذه الواقعة قريباً من خمسة عشر ألف فارس وأكثر ولم نزل في آثارهم إلى الليل وعمرو بن العاص قد فرح بالنصر وقلبه متعلق بالمسلمين لإسراعهم وراء العدو، وقال عمرو بن

غياث: فنظرت إلى عمرو بن العاص والراية في يده، وقد أوفى القناة على عاتقه وهو يعركها بيده ويقول: من يرد الناس عليّ رد الله عليه ضالته؟ إذ نظرت العرب قد عطفت راجعة كعطفة الأم على ولدها فاستقبلهم عمرو، وهو يقول: هنيئاً لهذه الوجوه التي تعبت في رضا الله تعالى أما كان لكم كفاية في أن خولكم الله حتى اتبعتم العدو؟! فقالوا: ما أردنا الغنيمة، بل القتال والجهاد!

ولما رجع المسلمون لم يكن لهم همَّة إلا افتقاد بعضهم بعضاً، ففقد من المسلمين مائة وثلاثون رجلاً ختم الله لهم بالسعادة منهم سيف بن عبادة ونوفل بن دارم والأهب بن شداد والباقي من اليمن ووادي المدينة. فاغتمَّ عمرو لفقدهم، ثم راجع نفسه وقال: قد نزل بهم خير، وأنت يا عمرو تأبى ذلك! ثم ندب الناس إلى الصلاة كما أمره أبو بكر الصديق ﷺ فصلى ما فاته كل صلاة بأذان وإقامة. قال ابن عمر: ما صلى خلفه إلا قليل، بل صلى الناس في رحالهم من تعبهم ولم يجمعوا من الغنائم إلا القليل وبات الناس. فلما أصبح عمرو أذَّن وصلى بهم وأمر الناس بجمع الغنائم وأن يخرجوا إخوانهم المؤمنين من الروم فجعلوا يلتقطونهم. فأخرجوا مائة وثلاثين رجلاً ووجدوا سعيد بن خالد، فلما نظر عمرو إلى ما نزل به بكى، وقال: رحمك الله فقد نصحت لدين الله وأديت النصيحة ثم جعله في جملة المسلمين وصلى عليهم وأمر بدفنهم، وذلك قبل أن يخمس شيئاً من الغنائم ثم بعد ذلك جمعها إليه وكتب إلى أبي عبيدة كتاباً يقول فيه:

كتاب عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة

بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص إلى أمين الأمة، أما بعد: فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ وإني قد وصلت إلى أرض فلسطين ولقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له روبيس في مائة ألف فارس فمنَّ الله بالنصر وقتل من الروم خمسة عشر ألف فارس وفتح الله على يدي فلسطين بعد أن قتل من المسلمين مائة وثلاثون رجلاً فإن احتجت إلي سرت إليك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. ودفع الكتاب إلى أبي عامر الدوسي وأمره أن يسير إلى أبي عبيدة. فأسرع أبو عامر بالكتاب فوجد أبا عبيدة وهو نازل بأرض الشام وجاهر بالدخول إليها غير أنه أمره كما أمره أبو بكر. فلما وصل أبو عامر قال له أبو عبيدة: ما وراءك؟ قال: خير! هذا كتاب من عمرو بن العاص يخبرك بما فتح الله على يديه، ثم سلم إليه الكتاب، فلما قرأه خر ساجداً فرحاً بنصر الله ثم قال: والله قتل من المسلمين رجال أخيار منهم سعيد بن خالد. فكان خالد والده جالساً، فلما سمع بأن ولده قد قتل قال: واابناه وجعل يبكيه حتى بكى المسلمون لبكائه، ثم إنَّ خالداً أسرع إلى فرسه فركبها وعزم

إلى أرض فلسطين لينظر إلى قبر ولده. فقال أبو عبيدة: كيف تسير وتدعنا. فقال: إنما أنظر قبر ولدي وأرجو الله أن يلحقني به! وكتب أبو عبيدة كتاباً لعمرو بن العاص يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم إنما أنت مأمور فإن كان أبو بكر أمرك أن تكون معنا فسر إلينا، وإن كان أمرك بالثبات في موضعك فاثبت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. وطوى الكتاب وسلمه إلى خالد بن سعيد وسار مع أبي عامر إلى أن أتيا إلى جيش عمرو بن العاص فدفع له الكتاب وهو يبكي فوثب عمرو وصافح خالداً ورفع منزلته وعزاه في ولده سعيد وعزاه المسلمون.

فقال خالد: يا أيها الناس هل أروى سعيد رمحه وسيفه في الكفار؟ قالوا: نعم. فلقد قاتل وما قصر! ولقد جاهد في الدين ونصر. فقال: أروني قبره، فأروه إياه، فأقام على القبر وقال: يا ولدي رزقني الله الصبر عليك وألحقني بك وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، والله إن مكنني الله لآخذن بثأرك يا ولدي عند الله احتسبتك، ثم قال لعمرو بن العاص: إني أريد أن أسري بسرية في طلب القوم فلعلي أن أجد فيهم فرصة أو غنيمة وأكون قد أخذت بثأر ولدي، فقال عمرو: إن الحرب أمامك يا ابن الأم. فإذا رأيت الروم فلا تبق عليهم! فقال خالد: والله لأسيرن إليهم، ثم أخذ خالد أهبته للمسير وعزم أن يسير وحده فركب معه ثلاثمائة فارس من فتيان حمير فساروا يومهم ذلك أجمع وأرادوا النزول في الأودية ليعلفوا دوابهم ويسيروا ليلتهم إذ نظر خالد بن سعيد إلى أشباح على ذروة جبل هناك عال منيع. فقال لأصحابه: إني أرى أشباحاً على ذروة هذا الجبل ونحن في هذا الوادي، ثم قال: كونوا في أماكنكم ثم نزل عن فرسه وتقلد سيفه والتحف بإزاره وقال: اعلموا أن القوم ما علموا بنا ولو نظروا إلينا ما ثبتوا في أماكنهم فمن منكم يبذل نفسه ويصنع كما أصنع قالوا: كلنا لك! فطافوا في الجبل حتى أشرفوا على القوم وهم في أماكنهم.

فعند ذلك قال: خذوهم بارك الله فيكم! فأسرع إليهم المسلمون فقتلوا منهم ثلاثين وأسروا أربعة فسألهم خالد بن سعيد عن حالهم فإذا هم من أنباط الشام فقالوا: نحن من أهل هذا البقيع والجامعة وكفار القرية وقد عظم علينا دخول العرب إلى بلادنا وقد فزعنا منهم فزعاً عظيماً، وقد هرب أكثرنا إلى الحصون والقلاع، وقد اعتصمنا نحن بهذا الجبل، لأنه ليس في الرستاق أحصن منه فعلونا عليه وأنتم كبستمونا. قال خالد: فما بلغكم عن جيش الروم؟ قالوا: بأجنادين وهذا البطريق أقبل إلينا ليأخذ الميرة والعلوفة، وقد جمعوا له الدواب والبغال والحمير تحمل الميرة وهم مع ذلك خائفون أن تلحقهم خيل العرب، وهذا خبر قومنا ولا شك أنهم رحلوا من يومهم، فلما سمع خالد بن سعيد مقالتهم قال: غنيمة للمسلمين ورب الكعبة، ثم

قال: اللهم انصرنا عليهم. ثم سأل على أي طريق سار القوم قالوا: على هذه الطريق التي أنتم عليها لأنها أوسع الطرق كلها، وأما الميرة فإنها مجموعة من حول البلاد.

فلما سمع خالد كلامهم قال لهم: أسلموا! فقالوا له: ما نعرف إلا دين الصليب، ونحن فلاحون قال: فهمَّ خالد بقتلهم. فقال رجل من أصحابه: دعهم يدلونا على الطريق إلى ميرة القوم فأجابوهم إلى ذلك وساروا وهم يدلونهم إلى تل عظيم. قال: فتوافق القوم وهم يحملون دوابهم حول التل ومعهم ستمائة لابس من القوم، فلما نظر خالد إلى ذلك قال لأصحابه: اعلموا أن الله تعالى قد وعدكم بالنصر على عدوكم وفرض عليكم الجهاد وهذا جيش العدو أمامكم فارغبوا في ثواب الله تعالى واسمعوا ما قال الله ﷻ: "إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ"، وها أنا أحمل فاحملوا ولا يخرج أحد عن صاحبه. ثم إن خالداً حمل وحمل أصحابه فلما رأونا استقبلونا وانهزم من كان مع الدواب من الفلاحين وصبرت الخيل لقتالنا ساعة من النهار؛ فبينما ذو الكلاع الحميري يشجع أصحابه ويقول: يا أهل حمير أبواب الجنة فتحت والحور العين قد تزخرفت وإذا بصاحب القوم قد لقيه خالد فعرفه بلأمته وحسن زيه. فاستقبله وصرخ فيه فأرعبه ثم قال: يا لثأر ولدي سعيد وطعنه طعنة صادقة فجندله صريعاً كأنه برج من حديد.

فلما رأى الروم ذلك ولّوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وقتل منهم ثلاثمائة وعشرون فارساً وولى الباقون منهزمين وتركوا الأثقال والبغال والميرة وأخذ المسلمون الجميع بعون الله تعالى. قال: وأطلق سراح الفلاحين وعاد خالد ومن معه بالغنائم والميرة إلى عمرو بن العاص ففرح بسلامتهم وشكر فعلهم وكتب كتاباً إلى أبي بكر الصديق، وذكر له ما جرى مع الروم وبعث الكتاب مع أبي عامر الدوسي ﷺ وأخذه وقدم به المدينة وأعطاه أبا بكر الصديق ﷺ. فلما قرأه على المسلمين فرحوا وضجوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، ثم إن أبا بكر استخبر عن أبي عبيدة. فقال له عامر: إنه قد أشرف على أوائل الشام ولم يجسر على الدخول إليها وإنه سمع أن جيوش الملك قد اجتمعت من حول أجنادين وهم أمم لا تحصى وقد خاف على المسلمين أن يتوسط بهم عدوهم.

خالد بن الوليد في الشام

فلما سمع أبو بكر ذلك علم أن أبا عبيدة لين العريكة لا يصلح لقتال الروم وعوّل أن يكتب إلى خالد بن الوليد ليوليه على جيوش المسلمين وقتال الروم قال: واستشار المسلمين في ذلك فقالوا: الرأي ما تراه، وكتب كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عتيق بن أبي قحافة إلى خالد بن الوليد سلام عليك: أما

بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد ﷺ وإني قد وليتك على جيوش المسلمين وأمرتك بقتال الروم وأن تسارع إلى مرضاة الله ﷻ وقتال أعداء الله، وكن ممن يجاهد في الله حق جهاده ثم كتب "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ"، وقد جعلتك الأمير على أبي عبيدة ومن معه. وبعث الكتاب مع نجم بن مقدم الكناني فركب على مطيته وتوجه إلى العراق فرأى خالداً ﷺ قد أشرف على القادسية فدفع إليه الكتاب فلما قرأه قال: السمع والطاعة لله ولخليفة رسول الله ﷺ ثم ارتحل ليلاً وأخذ طريقه عن اليمين وكتب كتاباً إلى أبي عبيدة يخبره بعزله وبسيره إلى الشام، وقد ولاني أبو بكر على جيوش المسلمين فلا تبرح من مكانك حتى أقدم عليك والسلام. وبعث الكتاب مع عامر بن الطفيل ﷺ، وكان أحد أبطال المسلمين فأخذه وتوجه يطلب الشام.

وأما خالد فلما وصل إلى أرض السماوة قال: أيها الناس إن هذه الأرض لا تدخلونها إلا بالماء الكثير لأنها قليلة الماء ونحن في جيش عظيم والماء معكم قليل فكيف يكون الأمر؟ فقال له رافع بن عميرة الطائي ﷺ: أيها الأمير إني أشير عليك بما تصنع. فقال: يا رافع أرشدك الله بما نصنع ووفقك الله مولانا جل وعلا للخير، قال: فأخذ رافع ثلاثين جملاً وعطشها سبعة أيام ثم أوردها الماء فلما رويت حزم أفواهها، ثم ركبوا المطايا وجنبوا الخيول وساروا فكانوا كلما نزلوا منزلاً أخذوا عشرة من الإبل يشقون بطونها ويأخذون ما يجدون من الماء في بطونها فيجعلونه في حياض الأدم، فإذا برد سقوه للخيل وأكلوا اللحم ولم يزالوا كذلك حتى تمت الإبل وفرغ الماء وقطعوا مرحلتين بلا ماء وأشرف خالد ومن معه على الهلاك. فقال خالد لرافع بن عميرة: يا رافع قد أشرفنا على الهلاك والتلف أتعرف لنا ماء ننزل فيه. وكان رافع رمدت عيناه.

فقال: أيها الأمير أتاني رمد كما ترى، ولكن إذا أشرفتم على أرض سهلة فأعلموني. فلما أشرفوا عليها أعلموا رافعاً بذلك. فرفع طرف عمامته عن عينيه، وسار على راحلته يضرب يميناً وشمالاً والناس من ورائه إلى أن أقبل على شجرة من الأراك فكبر وكبر المسلمون، ثم قال: احفروا هنا. فحفرت العرب وإذ الماء قد طلع كالبحر، فنزل الناس عليه وشكروا الله تعالى وأثنوا عليه وعلى رافع خيراً، ثم وردوا الماء وسقوا خيلهم وإبلهم، ثم جدُّوا في طلب من انقطع من المسلمين ومعهم القرب بالماء. فسقوهم فارتجعت قوتهم. ثم لحقوا بالجيش وأراحوا أنفسهم، ثم في ثاني يوم جدوا في المسير إلى أن بقي بينهم وبين أركة مرحلة واحدة، فبينما هم كذلك إذ أشرفوا على حلة عامرة وأغنام وإبل قد سدت الفضاء والمستوي، فأسرع المسلمون إلى الحلة وإذا براع يشرب الخمر وإلى جانبه رجل من العرب مشدود. فتبينه

المسلمون وإذا هو عامر بن الطفيل الذي أرسله خالد بن الوليد. فأقبل خالد مسرعاً حتى وقف عليه، فلما رآه تبسم وقال: يا ابن الطفيل كيف كان سبب أسرك؟

قال عامر: أيها الأمير إني أشرفت على هؤلاء القوم في هذه الحلة وقد أصابني الحر والعطش فملت إلى هذا الراعي ليسقيني من اللبن فوجدته يشرب خمراً. فقلت له: يا عدو الله أتشرب الخمر وهي محرمة؟! فقال لي: يا مولاي إنها ليست بخمر وإنما هي ماء زلال، فانزل كي تراه واستنشق ما في الجفنة فإن كان خمراً فافعل ما بدا لك! فلما سمعت كلامه أنخت المطية ونزلت عن كورها وجلست على ركبتي في الجفنة وإذا أنا بالعبد قد طلبني بعصا كانت إلى جانبه وضربني على رأسي فشجني شجة موضحة، فانقلبت على جانبي فأسرع العبد إليَّ وشدَّني كتافاً وأوثقني رباطاً وقال لي: أظنك من أصحاب محمد بن عبد الله ولست أدعك من بين يدي أو يقدم سيدي من عند الملك. فقلت له: ومن سيدك من العرب؟ فقال: القداح بن وائلة، وإني عند هذا العبد كلما شرب الخمر أحضرني كما ترى وألقى عليَّ فضلة من كأسه. فلما سمع خالد بن الوليد كلام عامر بن الطفيل اشتد به الغضب ومال على العبد وضربه ضربة هائلة فجندله صريعاً ونهب المسلمون المال والأغنام والإبل وقلعوا الحلة بما فيها وأطلق عامراً وقال له: أين رسالتي يا عامر؟ فقال: يا مولاي هي في طرف عمامتي لم يعلم بها العبد.

فقال خالد: انطلق بها يا عامر على بركة الله تعالى. فركب عامر وسار يطلب الشام وارتحل خالد من موضعه ذلك فنزل بأركة وهي رأس الأمانة لمن يخرج من العراق، وكانت الروم تمسك بها القوافل وكان عليها بطريق من قبل الملك فأغار خالد عليها وأخذ ما كان فيها وتحصن أهلها بحصنها وكان يسكن فيها حكيم من حكماء الروم وقد طالع الكتب القديمة والملاحم، فلما رأى المسلمين وجيشهم امتقع لونه وقال: اقترب الوقت وحق ديني! فقال أهل أركة: وكيف ذلك؟ قال: إن عندي ملحمة فيها ذكر هؤلاء القوم، وإن أول راية تشرف من خيلهم هي الراية المنصورة وقد دنا هلاك الروم، فانظروا إن كانت رايتهم سوداء وأميرهم عريض اللحية طويل ضخم بعيد ما بين المنكبين واسع الهيكل في وجهه أثر جدري فهو صاحب جيشهم في الشام وعلى يديه يكون الفتح.فنظر القوم وإذا الراية على رأس خالد وهي كما قال حكيمهم.

واجتمعوا على بطريقهم وقالوا له: أنت تعلم أن الحكيم سمعان لا ينطق إلا بالحق والحكمة وقد قال كذا وكذا. والذي وصفه لنا رأيناه عياناً ونرى من الرأي أن نعقد بيننا وبين العرب صلحاً ونأمن على حريمنا وأنفسنا. فلما سمع ذلك بطريقهم

قال: أخروني إلى غد لأرى من الرأي. فانصرفوا من عنده وبات البطريق يحدث نفسه ويدبر أمره وكان عارفاً عاقلاً خبيراً بالأمور، وقال: إن أنا خالفتهم خفت أن يسلموني للعرب، وقد تحقق أن روبيس سار بجيش عظيم فهزمهم العرب ولم يزل يراود نفسه إلى أن أصبح الصباح فدعا قومه. وقال: على ماذا عوّلتم؟ قالوا: عوّلنا على أننا نقيم الصلح بيننا وبين العرب. فقال البطريق: أنا واحد منكم مهما فعلتم لا أخالفكم. فخرج مشايخ أركة إلى خالد وكلموه في الصلح، فأجابهم إلى الصلح وألان الكلام لهم وتلقاهم بالرحب والسعة ليسمع بذلك أهل السخنة ويبلغ الخبر لأهل قدمة، وكان الوالي عليهم بطريق اسمه كوكب، فجمع رعيته وقال لهم: بلغني عن هؤلاء العرب أنهم فتحوا أركة والسخنة وأن قومنا يتحدثون بعدلهم وحسن سيرتهم وأنهم لا يطلبون الفساد وهذا حصن مانع لا سبيل لأحد علينا، ولكن نخاف على نخلنا وزرعنا، وما يضرنا أن نصالح العرب، فإن كان قومنا هم الغالبين فسخنا صلحهم، وإن كان العرب ظافرين كنا آمنين. ففرح قومه بذلك وهيئوا العلوفة والضيافة حتى خرج خالد ﷺ من أركة ونزل عليهم فخرجوا إليه بالخدمة و صالحهم على ثلثمائة أوقية من الذهب وكتب لهم كتاباً بالصلح، ثم ارتحل عنها إلى حوران.

وبلّغ عامر بن الطفيل كتاب خالد إلى أبي عبيدة، فلما قرأه تبسم وقال: السمع والطاعة لله تعالى ولخليفة رسول الله ﷺ، ثم أعلم المسلمين بعزله وولاية خالد بن الوليد، وكان أبو عبيدة وجّه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ إلى بصرى في أربعة آلاف فارس. فسار على فنائها، وكان على بصرى بطريق عظيم الشأن والقدر عند الملك وعند الروم اسمه روماس، وكان قرأ الكتب السالفة والأخبار الماضية، وكان يجتمع إليه الروم من أقصى بلادها ينظرون إلى عظيم خلقته ويسمعون ألفاظ حكمته، وكانت آهلة بالخلق عامرة بالناس، وكان فيها ألف فارس، وكان العرب يقصدونها ببضائعهم وتجارتهم من أقصى اليمين وبلاد الحجاز، فإذا كان في أيام الموسم ينصب لبطريقهم كرسي ليجلس عليه ويجتمع الناس إليه، ويستفيدون من علمه وحكمته، فبينما هم قد اجتمعوا إليه وقعت الضجة بقدوم شرحبيل بن حسنة وعسكره فبادر إلى جواده فركبه و صاح في قومه فأجابوه وقال: لا تتحدثوا حتى نسمع كلام القوم وما عندهم، ثم سار حتى قرب من شرحبيل بن حسنة وجيشه، ونادى: معشر المسلمين أنا روماس وإني أريد صاحبكم. فخرج إليه شرحبيل، فلما قرب منه قال البطريق: من أنتم؟ قال شرحبيل: من أصحاب محمد ﷺ النبي الأمي القرشي الهاشمي المنعوت في التوراة والإنجيل. فقال روماس: ما فعل الله به؟ فقال شرحبيل: قبضه الله إليه. فقال البطريق: فمن ولي الأمر بعده؟ قال: عتيق بن أبي قحافة بن بكر بن

تيم بن مرة. فقال روماس: وحق ديني لقد أعلم بأنكم على الحق ولا بد لكم أن تملكوا الشام والعراق وأنا أشفق عليكم إذ أنتم في جمع يسير ونحن في جمع كثير، ولكن ارجعوا إلى بلادكم فإنَّا لا نتعرض لكم. واعلم يا أخا العرب أن أبا بكر هو صاحبي ورفيقي ولو كان حاضراً ما قاتلني. فقال شرحبيل: لو كنت ولده أو ابن عمه لما عفا عنه إلا أن يكون من أهل ملته! وليس له من الأمر شيء لأنه مكلف، وقد أمره الله أن يجاهدكم ولسنا نبرح عنكم إلا بإحدى ثلاث: إما أن تدخلوا في ديننا أو تؤدوا الجزية، أو السيف!

فقال روماس: وحق ما أعتقده من ديني: لو كان الأمر إليَّ لا أقاتلكم لأني أعلم أنكم على حق، وهؤلاء طواغيت الروم والقوم مجتمعون، وإني أريد أن أرجع إليهم وأنظر ما عندهم. فقال شرحبيل: ارجع إليهم فلابد لكم بما ذكرت. ثم عاد روماس إلى قومه وجمعهم، وقال: يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية الذي كنتم تعتقدونه في كتبكم من الخروج من بلادكم ودياركم ونهب أموالكم قد قرب وهذا وقته وزمانه ولستم بأعظم جيشاً من روبيس سار إلى شرذمة من العرب بأرض فلسطين فقتل وقتل من معه وانهزم الباقون، ولقد بلغني أن رجلاً منهم قد خرج من أرض السماوة صوب العراق اسمه خالد بن الوليد وقد فتح أركة والسخنة وتدمر وحوران، وهو عن قريب يحضر إليكم، والصواب أن تؤدوا الجزية عن يد إلى هؤلاء العرب وينصرفون عنكم.

فلما سمع قومه ذلك غضبوا وشوشوا وهموا بقتله. فقال روماس: يا قوم إنما أردت أن أختبركم، وأرى حمية دينكم والآن دونكم والقوم وأنا أولكم. قال: فرجعت الروم إلى عددها وعديدها وتظاهروا بالدروع البيض وقادوا الجنائب وتهيئوا للحملة. فلما رأى شرحبيل بن حسنة ذلك وعظ أصحابه. وقال: اعلموا رحمكم الله أن رسول الله ﷺ قال: "الجنة تحت ظلال السيوف" وأحب ما قرب إلى الله قطرة دم في سبيل الله أو دمعة جرت في جوف الليل من خشية الله؟. قال الله تعالى: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ"، ثم حمل وحمل المسلمون على جيش بصرى.

قال عبد الله بن عدي: واجتمع علينا العدو وحملوا علينا في اثني عشر ألف فارس من الروم، ونحن فيهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الأسود وصبرنا لهم صبر الكرام، ولم يزل القتال بيننا وبينهم إلى أن توسطت الشمس في قبة الفلك، وقد طمع العدو فينا، فرأيت شرحبيل بن حسنة قد رفع يده إلى السماء وهو يقول: يا حي

يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، اللهم انصرنا على القوم الكافرين. قال: فوالله ما استتم شرحبيل كلامه ودعاءه حتى جاء النصر من عند الله العزيز الحكيم، وذلك أن القوم داروا بنا فرأينا غبرة قد أشرفت علينا من صوب حوران فلما قربت لنا رأينا تحتها سوابق الخيل، فلاحت لنا الأعلام الإسلامية والرايات المحمدية، وقد سبق إلينا فارسان: أحدهما ينادي ويزعق: يا شرحبيل يا ابن حسنة أبشر بالنصر لدين الله، أنا الفارس الصنديد والبطل المجيد، أنا خالد بن الوليد، والآخر يزعق ويقول: أنا عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وأشرفت العساكر من كل جانب. وأشرفت راية العقاب يحملها رافع بن عميرة الطائي.

عن ميسرة بن مسروق العبسي قال: والله لقد خمدت أصوات الروم عند زعقة خالد ﷺ، وأقبل المسلمون يسلم بعضهم على بعض، وأقبل شرحبيل بن حسنة إلى خالد بن الوليد، وسلم عليه. فقال خالد: يا شرحبيل أما علمت أن هذه مينا الشام والعراق، وفيها عساكر الروم وبطارقتهم. فكيف غررت بنفسك وبمن معك من المسلمين؟! قال: كله بأمر أبي عبيدة. فقال خالد: أما أبو عبيدة فإنه رجل خالص النية، وليس عنده غائلة الحرب ولا يعلم بمواقعها، ثم أمر الناس بالراحة فنزلوا وارتاحوا من أوزارهم.

فلما كان في اليوم الثاني زحفت جيوش بصرى على المسلمين فقال خالد: إن الروم زحفوا لعلمهم بتعبنا وتعب خيولنا فاركبوا بارك الله فيكم، واحملوا على بركة الله تعالى. فركب المسلمون، وأخذوا أهبتهم للحرب فجعل في الميمنة رافع بن عميرة الطائي، وجعل في الميسرة ضرار بن الأزور وكان غلاماً فاتكاً في الحرب، وجعل على الدرك عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ثم قسم جيش الزحف فجعل على شطره المسيب بن نجبة الفزاري، وعلى الشطر الآخر مذعور بن غانم الأشعري، وأمرهم أن يزفُّوا الخيل إذا حملت. قال: وبقي خالد في الوسط وهو يعظ الناس ويوصيهم، وقد عزموا على الحملة، وإذا بصفوف الروم قد انشقت وخرج من وسطها فارس عظيم الخلقة كثير الزينة يلمع ما عليه من الذهب الأحمر والياقوت فلما توسط الجمعين نادى بلسان عربي كأنه بدوي: يا معشر العرب لا يبرز لي إلا أميركم، فأنا صاحب بصرى. قال: فخرج إليه خالد ﷺ كالأسد الضرغام وقرب منه. فقال له البطريق: أنت أمير القوم؟ قال: كذلك يزعمون أنِّي أميرهم مادمت على طاعة الله ورسوله، فإن عصيته فلا إمارة لي عليهم.

قال البطريق: إنِّي رجل عاقل من عقلاء الروم وملوكهم وإن الحق لا يخفى عن ذي بصيرة، واعلم أنِّي قرأت الكتب السابقة والأخبار الماضية، فوجدت أن الله تعالى

يبعث قرشياً واسمه محمد بن عبد الله. قال خالد: والله نبينا. قال: أنزل عليه الكتاب؟ قال: نعم القرآن. قال روماس البطريق: أحرَّم عليكم فيه الخمر؟ قال خالد: نعم من شربها حددناه، ومن زنى جلدناه، وإن كان محصناً رجمناه. قال: أفرضت عليكم الصلوات؟ قال: نعم خمس صلوات في اليوم والليلة. قال: أفرض عليكم الجهاد؟ قال خالد: ولولا ذلك ما جئناكم نبغي قتالكم. قال روماس: والله إني لأعلم أنكم على الحق وإني أحبكم وحذرت قومي منكم وإني خائف منكم، فأبوا. فقال خالد: فقل أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكون لك ما لنا وعليك ما علينا. فقال: إنِّي أسلمت وأخاف أن يعجل هؤلاء بقتلي وسبي حريمي، ولكن أنا أسير إلى قومي وأرغِّبهم فلعل الله أن يهديهم. فقال خالد: وإن رجعت إلى قومك بغير قتال يكون بيني وبينك خفت عليك، ولكن احمل عليَّ حتى لا يتهموك وبعد ذلك اطلب قومك. فحمل بعضهما على بعض، وأرى خالد الفريقين أبواباً من الحرب حتى أبهر روماس. فقال لخالد: شدِّد عليَّ الحملة حتى يرى الديرجان فإنِّي خائف عليك من بطريق بعث به الملك يقال له الديرجان. فقال خالد: ينصرنا الله عليه، ثم شدَّد على روماس الحملة حتى إنَّه انهزم من بين يديه إلى قومه. فلما وصل إلى قومه قالوا: ما الذي رأيت من العرب؟ قال: إن العرب أجلاد ما لكم بقتالهم طاقة ولا بد لهم أن يملكوا الشام، وما تحت سريري هذا فادخلوا تحت طاعتهم وكونوا مثل أركة والسخنة!

فلما سمعوا كلامه زجروه وأرادوا قتله، وقالوا له: ادخل المدينة والزم قصرك ودعنا لقتال العرب، فانصرف روماس، وقال: لعل الله ينصر خالداً. ثم إن أهل بصرى ولوا عليهم الديرجان، وقالوا: إذا فرغنا من المسلمين سرنا معك إلى الملك، ونسأله أن ينزع روماس ويوليك علينا. قال الديرجان: وما الذي تريدون؟ قالوا: نحمل ونطلب قتال العرب. فخرج الديرجان وطلب خالداً.

فقال عبد الرحمن لخالد: يا أمير أنا أخرج إليه. فقال: دونك يا ابن الصديق، فخرج عبد الرحمن وحمل على الديرجان، فما لبثوا غير ساعة، حتى أحس الديرجان من نفسه بالتقصير فولى منهزماً وراح إلى قومه. فلما رأوا ذلك منه نزل الرعب في قلوبهم وعلم خالد ما عند القوم من الفزع فحمل وحمل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وحمل المسلمون. فلما نظر أهل بصرى إلى حملة المسلمين حملوا وتلاقى الفريقان، وضجت الرهبان بكلمة كفرهم. فقال شرحبيل بن حسنة: اللهم إن هؤلاء الأنجاس يبتهلون بكلمة كفرهم ويدعون معك إلها آخر لا إله إلا أنت ونحن نبتهل إليك بلا إله إلا أنت، وأن محمداً عبدك ورسولك، إلا ما نصرت هذا الدين على أعدائك المشركين، ثم حملوا حملة واحدة، فلم يكن للروم ثبات مع العرب، فولى المشركون

الأدبار، وركنوا إلى الفرار. فلما حطوا داخل المدينة أغلقوا الأبواب وتحصنوا بالأسوار، ورفعوا الصلبان، وعوَّلوا أن يكتبوا للملك ليمدهم بالخيل والرجال. قال عبد الله بن رافع: فلما تحصنوا رجعنا عنهم وافتقدنا أصحابنا فوجدنا قد قتل منا مائة وثلاثون فارساً، وقتل من الأعيان بدريان. وغنم المسلمون الأموال، وصلى خالد على الشهداء، وأمر بدفنهم. فلما كان الليل تولى الحرس عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ومعمر بن راشد ومائة من جيش الزحف. فبينما هم يدورون حول العسكر، وإذا بروماس صاحب بصرى قد أقبل عليهم وقال لهم: أين خالد بن الوليد؟ فأخذوه وأتوا به إلى خالد. فلما رآه رحب به. فقال: أيها الأمير بعد أن فارقتك طردني قومي، وقالوا: الزم قصرك وإلا قتلناك فلزمت قصري، وهو ملاصق للسور ولما وقع لهم ما وقع وانهزموا تحصنوا. فلما جن الليل أمرت غلماني بحفر السور وفتحوا فيه باباً فأتيتك فأرسل معي من تعتمد عليه من أصحابك تستلمون المدينة. فلما سمع خالد هذا الكلام أمر عبد الرحمن بن أبي بكر أن يأخذ مائة من المسلمين ويسيروا مع روماس. قال ضرار بن الأزور: وكنت ممن دخل المدينة فلما صرنا في قصر روماس فتح لنا خزانة السلاح، فلبسنا من سلاحهم وقسمنا أربعة أقسام، كل جانب خمسة وعشرون رجلاً. وقال لنا عبد الرحمن: إذا سمعتم التكبير فكبروا. فلما سرنا حيث أمرنا أخذنا أنفسنا بالحملة على القوم.

قال الواقدي: بلغني ممن أثق به من الرواة أن عبد الرحمن لما فارق أصحابه لبس سلاحه وسار هو وروماس يطلبان الدرج الذي عليه الديرجان، وسار معهم ضرار ورافع وشرحبيل بن حسنة. فلما قرب عبد الرحمن من الدرج الذي فيه الديرجان، قال الديرجان: من أنتم؟ فقال: أنا روماس. فقال: لا أهلاً ولا مرحباً بك، ومن الذي معك؟ قال: معي صديق لك ومشتاق إلى رؤياك، قال: ويحك، ومن هو يا روماس؟ قال: هذا ابن أبي بكر الصديق. فلما سمع الديرجان ذلك همَّ أن يقتله فلم تطاوعه نفسه فحمل عليه عبد الرحمن، وهزَّ سيفه في وجهه وضربه على عاتقه فتجندل صريعاً يخور في دمه، وعجل الله بروحه إلى النار. وكبَّر عبد الرحمن فأجابه روماس وسمع أصحابه التكبير فكبروا من جوانب بصرى. ووضعوا السيف في الروم، وسمع خالد التكبير فصرخوا، وإذا بغلمان روماس وأولاده قد فتحوا لهم الأبواب فعبر خالد ومن معه من المسلمين. فلما نظر أهل بصرى إلى الأبواب، وقد فتحت بالسيف قهراً ضجوا بأجمعهم يقولون: الأمان الأمان. فقال خالد بن الوليد ﷺ: ارفعوا السيف عنهم، وأقام خالد إلى الصباح واجتمع إليه أهلها. وقالوا: يا أيها الأمير لو صالحناك

ما جرى شيء من ذلك، ولكن نسألك بالذي أيدك ونصرك من الذي فتح لك أبواب مدينتنا. فاستحيا خالد ﷺ أن يقول، فوثب روماس، وقال: أنا فعلت ذلك يا أعداء الله وأعداء رسوله، وما فعلته إلا ابتغاء مرضاة الله وجهاداً فيكم. فقالوا: أَوَلَست منّا؟ فقال: اللهم لا تجعلني منهم، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبالكعبة قبلة وبالقرآن إماماً، وأنا أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. ففرح خالد بذلك. وأما أهل بصرى فغضبوا وأضمروا له شراً، وعلم بذلك روماس. فقال لخالد: أنا لا أريد المقام عندهم، وإني أسير معك حيث سرت. فإذا فتح الله على يديك الشام وصار لكم الأمر ردوني إليها لأن الوطن عزيز.

قال الواقدي: حدثني معمر بن سالم عن جده قال: كان روماس يجاهد معنا جهاداً حسناً حتى فتح الله على أيدينا الشام، فكان أبو عبيدة يكاتب به عمر بن الخطاب ﷺ في أيامه فولاه على بصرى فلم يلبث إلا يسيراً حتى توفي رحمه الله، وخلف عقباً يذكر به، قال: وأمر خالد رجالاً يعينونه على إخراج رحله وماله من المدينة ففعلوا ذلك، وإذا بزوجته تخاصمه وتطلب فراقه. فقال لها المسلمون: ما الذي تريدين؟ قالت: أريد أمير جيشكم يحكم بيننا فجاءوا بها إلى خالد، فقالت له: أنا أستغيث بك من روماس. فقال لها خالد: وكيف ذلك؟ فقالت: إني كنت البارحة نائمة إذ رأيت شخصاً ما رأيت أحسن منه وجهاً كأن البدر يطلع من بين عينيه، وكأنه يقول: إن المدينة فتحت على يد هؤلاء القوم والشام والعراق. فقلت له: ومن أنت يا سيدي؟. قال: محمد رسول الله، ثم دعاني إلى الإسلام فأسلمت، ثم علمني سورتين من القرآن.

فحدث الترجمان خالد بما كان منها فقال: إن هذا لعجيب! ثم قال خالد للترجمان: قل لها أن تقرأ السورتين فقرأت الفاتحة، و"قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ"، ثم جددت إسلامها على يد خالد بن الوليد، وقالت: يا أيها الأمير إما أن يسلم روماس وإلا يتركني أعيش بين المسلمين. فضحك خالد من قولها، وقال: سبحان الله الذي وفقهما جميعاً. ثم قال للترجمان: قل لها إن روماس أسلم قبلها ففرحت بذلك. ثم إن خالداً أحضر أهل بصرى وقررهم على أداء الجزية وولى عليهم من اتفق رأيهم عليه. ثم كتب إلى أبي عبيدة كتاباً يبشره بالفتح، ويقول له: يا صاحب رسول الله قد ارتحلنا إلى دمشق فالحقنا إليها. ثم كتب كتاباً آخر إلى أبي بكر الصديق يخبره برحيله، ويقول له: يوم كتبت إليك هذا الكتاب ارتحلت إلى دمشق فادع لنا بالنصر والسلام عليك ومن معك ورحمة الله وبركاته. ثم بعث الكتابين كليهما، ثم ارتحل خالد إلى نحو دمشق حتى أشرف على موضع يقال له الثنية فوقف هناك وركز راية العقاب فسميت بذلك "ثنية

العقاب" ثم ارتحل منها إلى الدير المعروف الآن بدير خالد، وكان أهل السواد قد التجئوا إلى دمشق، وقد اجتمعت خلائق وأمم لا تحصى من الرجال. وأما أصحاب الخيل فكانوا اثني عشر ألفاً، وقد زينوا أسوارهم بالطوارق والبيارق والصلبان، وأقام خالد على الدير ينتظر قدوم المسلمين.

قال الواقدي: ووصلت الأخبار إلى الملك هرقل وما فتح خالد من الشام، وكيف قدم على دمشق فغضب وجمع البطارقة وقال: يا بني الأصفر، لقد قلت لكم وحذرتكم فأبيتم وهؤلاء العرب قد فتحوا أركة وتدمر والسخنة وبصرى، وقد توجهوا إلى الربوة ففتحوها فواكرباه لأن دمشق جنة الشام وقد سارت إليها الجيوش وهم أضعاف العرب، ثم قال: أيكم يتوجه إلى قتال العرب ويكفيني أمرهم، فإن هزمهم أعطيته ما فتحوه ملكاً؟ فقال بطريق من البطارقة اسمه كلوس بن حنا، وكان من فرسانهم، وقد عرفت شجاعته في عساكر الروم والفرس: أيها الملك أنا أكفيك وأردهم على أعقابهم منهزمين. فلما سمع الملك قوله سلم إليه صليباً من الذهب وقدمه على خمسة آلاف فارس، وقال له: قدم صليبك أمامك فإنه ينصرك.

فأخذه كلوس وسار من يومه من أنطاكية إلى أن وصل حمص فوجدها مزينة بالسلاح، فلما بلغ أهلها قدومه خرجوا إلى لقائه، وقد خرجت القسس والرهبان واستقبلوه ودعوا له بالنصر وأقام بحمص يوماً وليلة، ثم ارتحل إلى مدينة بعلبك فخرج إليه النساء لاطمات الخدود وقلن: أيها السيد إن العرب فتحوا أركة وحوران وبصرى، فقال لهن: كيف قدرت العرب على حوران وبصرى؟. فقلن: أيها السيد إن الذين ذكرتهم لم يبرحوا من أماكنهم، وإن هذا الرجل قد أقبل من العراق، وهو الذي فتح أركة. فقال: وما اسمه؟ قلن: خالد بن الوليد. قال: في كم يكون من العساكر؟ قلن: في ألف وخمسمائة فارس. فقال: وحق المسيح لأجعلن رأسه على رأس سناني. ثم رحل فلم ينزل إلا بدمشق، وكان واليها بطريقاً من قبل الملك هرقل اسمه عزازير، فلما قدم كلوس اجتمع عليه عزازير وأصحابه وقرأوا عليهم منشور الملك، ثم قال لهم: أتريدون أن أقاتل عدوكم وأصده عن بلادكم؟ قالوا: نعم. فقال: أخرجوا عزازير عنكم حتى أكون وحدي في هذا الأمر. فقالوا: أيها السيد وكيف ينبغي أن يخرج صاحبنا من بلدنا، وهذا العدو قاصد إلينا؟ فغضب عزازير في وجه كلوس من كلامه، وقد اتفق رأيهم على أن كل واحد يقاتل العرب يوماً فثبتت عداوة عزازير في قلب كلوس.

قال الواقدي: ولقد بلغني أنهم كانوا يخرجون كل يوم من باب الجابية مقدار فرسخ ينظرون قدوم أبي عبيدة بن الجراح فلم يشعروا حتى قدم إليهم خالد بن الوليد

من نحو الثنية، قال: حدثنا يسار بن محمد. قال: أخبرنا رفاعة بن مسلم قال: كنت في جيش خالد بن الوليد لما نزل على الدير المعروف به، وإذا بجيش الروم قد زحف علينا وهو كالجراد المنتشر، فلما نظر خالد ذلك تدرع بدرع مسيلمة، ثم صرخ في وجه المسلمين. وقال: هذا يوم ما بعده يوم، وهذا العدو قد زحف بخيله فدونكم والجهاد فانصروا الله ينصركم وكونوا ممن باع نفسه لله ﷻ وكأنكم بإخوانكم المسلمين قدموا عليكم مع أبي عبيدة بن الجراح، ثم بعد ذلك استقبل الجيش وصرخ بملء رأسه فأرعب المشركين من صرخته وحمل شرحبيل بن حسنة وعبد الرحمن بن أبي بكر وضرار بن الأزور، ومذ حمل ضرار لم يول عنهم بل قتل من الميمنة خمسة فرسان ومن الميسرة كذلك. ثم حمل ثاني مرة فقتل منهم ستة فرسان، ولولا سهام القوم لما رد عن قتالهم فشكره خالد بن الوليد وقال لعبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه: احمل بارك الله فيك.

فحمل عبد الرحمن وفعل كما فعل ضرار بن الأزور وقاتل قتالاً شديداً. ثم حمل من بعده خالد بن الوليد ورفع رمحه وأرى العسكر من أمور الحرب حتى جزع الروم من شجاعته. فلما نظر إليه البطريق كلوس علم أنه أمير الجيش وعلم أنه يقصده فتأخر كلوس إلى ورائه من مخافته. فلما نظر خالد إلى قهقرة كلوس إلى ورائه حمل عليه ليرده فوقعت عليه البطارقة ورموه بالسهام فلم يلتفت إليهم خالد، ولم يعبأ بهم ولم يرجع حتى قتل عشرين. ثم انثنى بجواده بين الصفين وجال بجواده بين الفريقين وطلب البراز فلم يجبه أحد، وقالوا: أخرجوا غيره منكم. فقال: ويلكم ها أنا رجل واحد من العرب وكلنا في الحرب سواء! فما منهم من فهم كلامه، فأقبل عزازير على كلوس، وقال: أليس الملك قد قدمك على جيشه وبعثك إلى قتال العرب؟! فدونك حام عن بلدك ورعيتك.

فقال كلوس: أنت أحق مني بذلك لأنك أقدم مني، وقد عزمت أنك لا تخرج إلا بإذن الملك هرقل فما بالك لا تخرج إلى قتال أمير العرب. فقال لهما العساكر: تقارعا فمن وقعت عليه القرعة فلينزل إلى قتال أمير العرب. فقال كلوس: لا بل نحمل جميعاً فهو أهيب لنا، قال: وخاف كلوس أن يبلغ الملك ذلك فيطرده من عنده أو يقتله. قال: فتقارعا فوقعت القرعة على كلوس. فقال عزازير: اخرج وبين شجاعتك، فقال كلوس لأصحابه: أريد أن تكون همتكم عندي، فإن رأيتم مني تقصيراً فاحملوا وخلّصوني. فقال أصحابه: هذا كلام عاجز لا يفلح أبداً! فقال: يا قوم إن الرجل بدوي ولغته غير لغتي فخرج معه رجل اسمه جرجيس، وقال له: أنا أترجم لك فسار معه. فقال كلوس: اعلم يا جرجيس أن هذا رجل ذو شجاعة فإن رأيته غلبني فاحمل أنت عليه

حتى نقضي يومنا معه، ويخرج له غداً عزازير فيقتله ونستريح منه وأتخذك أنا صديقي. فقال له: ما أنا أهل حرب، وإنما أخوفه بالكلام. فسكت وسارا حتى قربا من خالد فنظر إليهما.

فهمَّ أن يخرج إليهما رافع بن عميرة فصاح فيه خالد، وقال: مكانك لا تبرح فإني كفء لهما، فلما دنوا من خالد قال كلوس لصاحبه: قل له من أنت وما تريد وخوفه من سطواتنا فقرب جرجيس من خالد، وقال له: يا أخا العرب أنا أضرب لك مثلاً إن مثلكم ومثلنا كمثل رجل له غنم فسلمها إلى راع وكان الراعي قليل الجرأة على الوحوش فأقبل عليه سبع عظيم فجعل يلتقط منه كل ليلة رأساً إلى أن انقضت الأغنام والسبع ضار عليها ولم يجد له مانعاً عنها. فلما نظر صاحب الغنم ما حل بغنمه علم أنه لم يؤت إلا من الراعي فانتدب لغنمه غلاماً نجيباً فسلمه الغنم فكان كل ليلة يكثر الطوفان حول الغنم. فبينما الغلام كذلك إذ أقبل عليه السبع على عادته الأصلية واخترق الغنم فهجم الغلام على السبع وبيده منجل فضربه فقتله، ولم يقرب الغنم وحش بعدها وكذلك أنتم نتهاون بأمركم لأنه ما كان أضعف منكم لأنكم جياع مساكين ضعفاء وتعودتم أكل الذرة والشعير ومص النوى. فلما خرجتم إلى بلادنا وأكلتم طعامنا وفعلتم ما فعلتم، وقد بعث لكم الملك رجالاً لا تقاس بالرجال ولا تكترث بالأبطال ولاسيما هذا الرجل الذي بجانبي فاحذر منه أن ينزل بك ما أنزل الغلام بالأسد، وقد سألني أن أخرج إليك وأتلطف بك في الكلام فأخبرني ما الذي تريد قبل أن يهجم عليك هذا الفارس.

فلما سمع خالد منه ذلك، قال: يا عدو الله والله لا نحسبكم عندنا في الحرب إلا كقابض الطير بشبكة، وقد قبضها يميناً وشمالاً فلم يخرج إلا ما انفلت منه. وأما ما ذكرت من بلادنا وأنها بلاد قحط وجوع فالأمر كذلك إلا أن الله تعالى أبدلنا ما هو خير منه، فأبدلنا بدل الذرة الحنطة والفواكه والسمن والعسل. وهذا كله قد رضيه لنا ربنا ووعدنا به على لسان نبيه ﷺ وأما قولك: ما الذي تريدونه منا؟ فنريد منكم إحدى ثلاث خصال: إما أن تدخلوا في ديننا أو تؤدوا الجزية، أو القتال. وأما قولك: إن هذا الرجل الذليل الذي هو عندكم مسكين فهو عندنا أقل القليل وإن يكن هو ركن الملك فأنا ركن الإسلام. أنا الفارس الصنديد، أنا خالد بن الوليد. أنا صاحب رسول الله ﷺ.

معـــارك الشـــام

قال الواقدي رحمه الله تعالى: فلما سمع جرجيس كلام خالد تأخر إلى ورائه وقد تغير لونه، فقال له كلوس: يا ويلك رأيتك في بدايتك تهيم كالسبع فما لك قد تأخرت؟ فقال: وحق المسيح ما أعلم أنه الفارس الجحجاح وبطلهم الفصاح، هذا صاحب القوم الذي ملأ الشام شراً. فقال كلوس: يا جرجيس اسأله أن يؤخر الحرب بيننا إلى غد فالتفت إلى خالد، وقال له: يا سيد قومك هذا صاحبي يريد أن يرجع إلى قومه ليشاورهم. فقال خالد: ويحك أتريد أن تخدعني بالكلام وأقبل برمحه في وجه جرجيس.

فلما نظر جرجيس ذلك انعقد لسانه وولى هارباً. فلما رأى خالد ذلك طلب كلوس وحمل عليه وتطاعنا واحترز البطريق من طعنات خالد، فلما نظر خالد احتراز البطريق حط يده في أطواقه وجذبه فقلعه من سرجه. فلما نظر المسلمون فعل خالد كبروا بأجمعهم وتسابق الفرسان إلى خالد، فلما قربوا منه رمى لهم البطريق، وقال أوثقوه كتافاً فصار يبربر بلسانه فأتى المسلمون برومانس صاحب بصرى، وقالوا له: اسمع ماذا يقول؟ فقال لهم: يقول لكم لا تقتلوني فإني أجبت صاحبكم في المال والجزية! فقال خالد: استوثقوا منه ثم نزل عن جواده وركب جواداً أهداه له صاحب تدمر وعزم أن يهجم على الروم. فقال ضرار بن الأزور: أيها الأمير دعني أنا أحمل على القوم حتى تستريح أنت. فقال: يا ضرار الراحة في الجنة غداً.

ثم عوَّل خالد على الحملة فصاح به البطريق كلوس، وقال: وحق دينك ونبيك إلا ما رجعت إليَّ حتى أخاطبك! فرجع خالد إليه، وقال كلوس لروماس: اسأله ما يريد وأعلمه أني صاحب الملك، وقد بعثني إليكم في خمسة آلاف فارس لأردكم عن بلده وأهله ورعيته، وقد تحاججت أنا وعزازير متولي دمشق وقدم إليَّ معه كذا وكذا، وأنا أسألك بحق دينك إذا خرج إليك فاقتله، وإن لم يخرج إليك فاستدعه واقتله فإنه رأس القوم، فإن قتلته فقد ملكت دمشق. فقال خالد لروماس: قل له إنا لا نبقي عليك ولا عليه ولا على من أشرك بالله تعالى. ثم إنه بعد ذلك الكلام حمل، وهو ينشد ويقول:

لك الحمد مولانا على كل نعمة ... وشكراً لما أوليت من سابغ النعم
مننت علينا بعد كفر وظلمة ... وأنقذتنا من حندس الظلم والظلم
وأكرمتنا بالهاشمي محمد ... وكشفت عنا ما نلاقي من الغمم
فتمم إله العرش ما قد ترومه ... وعجل لأهل الشرك بالبؤس والنقم
وألقهم ربي سريعاً ببغيهم ... بحق نبي سيد العرب والعجم

قال الواقدي: لما ولى جرجيس هارباً من بين يدي خالد إلى أصحابه رأوه يرتعد من الفزع. فقالوا له: ما وراءك؟ فقال: يا قوم ورائي الموت الذي لا يقاتل، والليث الذي لا ينازل، وهو أمير القوم، وقد آلى على نفسه أن يطلبنا أينما كنا، وما خلصت روحي إلا بالجهد فصالحوا الرجل قبل أن يحمل عليكم بأصحابه فلا يبقي منكم أحداً، فقالوا له: ما يكفيك أنك انهزمت، وقد هموا بقتله، فبينما هم كذلك إذ أقبل أصحاب كلوس على عزازير وهم خمسة آلاف وصاحوا به وقالوا له: ما أنت عند الملك أعز من صاحبنا، وقد كان بيننا وبينك شر فاخرج أنت إلى خالد واقتله أو أسره وخلص لنا صاحبنا وإلا وحق المسيح والمذبح والذبيح شننا عليك الحرب فقال عزازير، وقد رجع به مكره ودهاؤه: ياويلكم أتظنون أني جزعت من الخروج إلى هذا البدوي من أول مرة؟! ولكني ما تأخرت عن الخروج إليه وتقاعدت عن قتاله حتى يتبين عجز صاحبكم وسوف ينظر الفريقان أينا أفرس وأشجع وأثبت في مقام القتال إذا نحن تشابكنا بالنصال. ثم إنه في الحال ترجل عن جواده ولبس لأمته وركب جواداً يصلح للجولان، وخرج إلى قتال سيدنا خالد بن الوليد ﷺ، فلما قرب منه قال: يا أخا العرب ادن مني حتى أسألك -وكان الملعون يعرف العربية-، فلما سمع خالد ذلك قال: يا عدو الله ادن أنت على أم رأسك! ثم همَّ أن يحمل عليه. فقال: على رسلك يا أخا العرب أنا أدنو منك فعلم خالد أن الخوف داخله فأمسك عنه حتى قرب منه. فقال: يا أخا العرب ما حملك أن تحمل أنت بنفسك.. أما تخشى الهلاك فلو قتلت بقيت أصحابك بلا مقدم! فقال خالد: يا عدو الله قد رأيت ما فعل الرجلان من أصحابي لو تركتهم لهزموا أصحابك بعون الله تعالى، وإنما معي رجال، وأي رجال يرون الموت مغنماً والحياة مغرماً، ثم قال له خالد: من أنت؟ فقال: أَوما سمعت باسمي؟! أنا فارس الشام أنا قاتل الروم والفرس أنا كاسر عساكر الترك. فقال خالد: ما اسمك؟ فقال: أنا الذي تسميت باسم ملك الموت اسمي عزرائيل.

قال الواقدي: فضحك خالد من كلامه، وقال: يا عدو الله تخوفني أن الذي تسميت باسمه هو طالبك ومشتاق إليك ليرديك إلى الهاوية! فقال له البطريق: ما فعلت بأسيرك كلوس؟ فقال: هو موثق بالقيود والأغلال. فقال له عزازير: وما منعك من قتله، وهو داهية من دواهي الروم. فقال خالد: منعني من ذلك أني أريد قتلكم جميعاً، فقال عزازير: هل لك أن تأخذ ألف مثقال من الذهب وعشرة أثواب من الديباج وخمسة رؤوس من الخيل وتقتله وتأتيني برأسه. فقال له خالد: هذه ديته فما الذي تعطيني أنت عن نفسك؟ فغضب عدو الله من ذلك، وقال: ما الذي تأخذ مني؟ قال: الجزية وأنت صاغر ذليل. فقال عزازير: كلما زدنا في كرامتكم زدتم في إهانتنا فخذ الآن لنفسك الحذر فإني قاتلك ولا أبالي، فلما سمع خالد كلام عزازير حمل عليه

حملة عظيمة كأنه شعلة نار فاستقبله البطريق، وقد أخذ حذره وكان عزازير ممن يعرف بالشجاعة في بلاد الشام فلما نظر خالد إلى عدو الله أظهر شجاعته وبراعته تبسم. فقال عزازير: وحق المسيح لو أردت الوصول إليك لقدرت على ذلك ولكنني أبقيت عليك لأني أريد أن أستأسرك ليعلم الناس أنك أسيري، وبعد ذلك أطلق سبيلك على شرط أنك ترحل من بلادنا وتسلم لنا ما أخذت من بلاد الشام!

فلما سمع خالد كلام عزازير قال له: يا عدو الله قد داخلك الطمع فينا، وهذه العصابة قد ملكوا تدمر وحوران وبصرى وهم ممَّن باعوا أنفسهم بالجنة، واختاروا دار البقاء على دار الفناء، وستعلم أينا من يملك صاحبه ويذل جانبه! ثم إن خالداً أرى البطريق أبواب الحرب. فندم عزازير على ما كان منه من الكلام، وقال: يا أخا العرب أما تعرف الملاعبة؟ فقال خالد: ملاعبتي الضرب في طاعة الرب! ثم إن الملعون هاجم خالداً ولوَّح إليه بسيفه وضربه به فلم يقطع شيئاً فذهل عدو الله من جولان خالد وثباته، وعلم أنَّه لا يقدر عليه ولا على ملاقاته فولَّى هارباً، وكان جواده أسبق من جواد خالد.

قال عامر بن الطفيل ﷺ: وكنت يوم حرب دمشق في القلب وشاهدنا ما جرى بين خالد وعزازير لما ولى هارباً وقصر جواد خالد عن طلبه فوقع في قلبه الطمع، وقال: كأن البدوي خاف مني وما لي إلا أن أقف حتى يلحقني وآخذه أسيراً ولعل المسيح ينصرني عليه، فلما وقع ذلك في نفسه وقف حتى لحق به خالد، وقد جلل فرسه العرق، فلما قرب منه صاح عزازير، وقال: يا عربي لا تظن أني هارب خوفاً منك، وإنما أبقيت عليك خوفاً على شبابك فارحم نفسك، وإن أردت الموت أسوقه إليك أنا قابض الأرواح أنا ملك الموت، فعندما سمع ذلك ترجل عن جواده وسحب السيف وسار إليه كأنه الأسد الضاري.

فلما نظر عزازير إلى ذلك وإلى ترجل خالد زاد طمعه فيه وحام حوله وهمَّ إليه يريد أن يعلو رأسه بالسيف فزاغ خالد عنها وصاح فيه وضرب قوائم فرسه بضربة عظيمة فقطعها فسقط عدو الله على الأرض ثم ولَّى هارباً يريد أصحابه فسبقه خالد. وقال: يا عدو الله إن الذي تسميت باسمه قد غضب عليك واشتاق إليك وها هو قد أقبل عليك يقبض روحك ليؤديك إلى جهنم، ثم هجم عليه وهمَّ أن يجلد به الأرض ونظرت الروم إلى صاحبها، وهو في يد خالد فهمُّوا أن يحملوا على خالد ويخلصوه من يده إذ قد أقبلت جيوش المسلمين، مع الأمير أبي عبيدة بن الجراح ﷺ حيث كان قد سار من بصرى فوجده، وقد أخذ عزازير في تلك الساعة، فلما نظرت عساكر دمشق إلى جيوش المسلمين قد أقبلت داخلهم الجزع والفزع فوقفوا عن الحملة.

....عن هلال القشعمي قال: لما قدم الأمير أبو عبيدة سأل عن خالد فقالوا: إنه في ميدان الحرب، وقد أسر بطريق الروم فدنا أبو عبيدة إليه وهم أن يترجل فأقسم عليه خالد أن لا يفعل وأقبل عليه وصافحه، وكان أبو عبيدة يحب خالداً لمحبة رسول الله ﷺ له. فقال أبو عبيدة لخالد: يا أبا سليمان لقد فرحت بكتاب أبي بكر الصديق حين قدمك عليَّ وأمّرك عليَّ وما حقدت في قلبي عليك لأنّي أعلم مواقفك في الحرب. فقال خالد: والله لا فعلت أمراً إلا بمشورتك ووالله لولا أمر الإمام طاعة ما فعلت ذلك أبداً لأنك أقدم مني في دين الإسلام وأنت صاحب رسول الله ﷺ، وأنت قال فيك: أبو عبيدة أمين هذه الأمة! فشكره أبو عبيدة وقدم لخالد جواده فركبه، وقال خالد لأبي عبيدة: اعلم أيها الأمير أن القوم قد خذلوا ووقع الرعب في قلوبهم، وأهينوا بأخذ كلوس وعزازير! وسار مع أبي عبيدة يحدثه بما صار من البطريقين، وكيف نصره الله عليهما إلى أن أتيا الدير فنزلا هناك، وأقبل المسلمون يسلم بعضهم على بعض. فلما كان الغد ركب الناس وتزينت المواكب وزحف أهل دمشق للقتال وقد أمّروا عليهم صهر الملك هرقل.

ولما أقبلوا قال خالد لأبي عبيدة: إن القوم قد انخذلوا ووقع الرعب في قلوبهم فاحمل بنا على القوم. قال أبو عبيدة: أفعل فحمل خالد وحمل أبو عبيدة وحمل المسلمون على عساكر الروم حملة عظيمة وكبروا بأجمعهم فارتجت الأرض من تكبيرهم ووقع القتل في الروم، وجاهد أصحاب رسول الله ﷺ جهاداً عظيماً، وذهلت منهم الكفار. قال عامر بن الطفيل: لقد كان الواحد منا يهزم من الروم العشرة والمائة. قال: فما لبثوا معنا ساعة واحدة حتى ولوا الأدبار، وركنوا إلى الفرار، وأقبلنا نقتل فيهم من الدير إلى الباب الشرقي. فلما نظر أهل دمشق إلى انهزام جيشهم أغلقوا الأبواب في وجه من بقي منهم. قال قيس بن هبيرة ﷺ: فمنهم من قتلناه، ومنهم من أسرناه، فلما رجع خالد عنهم قال لأبي عبيدة: إن من الرأي أن أنزل أنا على الباب الشرقي وتنزل أنت على باب الجابية. فقال أبو عبيدة: هذا هو الرأي السديد.

.... عن أويس بن الخطاب أن الذي قدم مع الأمير أبي عبيدة من المسلمين من أهل الحجاز واليمن وحضرموت وساحل عمان والطائف وما حول مكة كان سبعة وثلاثين ألف فارس من الشجعان، وكان مع عمرو بن العاص تسعة آلاف فارس، والذين قدم بهم خالد بن الوليد ﷺ من العراق ألف وخمسمائة فارس فكان جملة ذلك سبعة وأربعين ألفاً وخمسمائة غير ما جهز عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته، وسنذكر ذلك إذا وصلنا إليه إن شاء الله تعالى، هذا وإن خالداً نزل بنصف المسلمين على الباب الشرقي ونزل أبو عبيدة بالنصف الثاني على باب الجابية. فلما نظر

أهل دمشق إلى ذلك نزل الرعب في قلوبهم، ثم إن خالداً أحضر البطريقين بين يديه وهما كلوس وعزازير فعرض عليهما الإسلام فأبيا فأمر ضرار بن الأزور أن يضرب عنقيهما ففعل. فلما نظر أهل دمشق ما فعلوا بالبطريقين كتبوا إلى الملك كتاباً يخبرونه بما جرى على كلوس وعزازير، وقد نزلت العرب على الباب الشرقي وباب الجابية، وقد نزلوا بشبانهم وأولادهم وقد قطعوا أرض البلقاء وأرض السواد ووصفوا له ما ملك العرب من البلاد فأدركنا وإلا سلمنا إليهم البلد، ثم سلموا الكتاب إلى رجل منهم وأعطوه أوفى أجرة وأدلوه بالحبل من أعلى الأسوار في ظلمة الاعتكار.

قال الواقدي: وإن الرجل وصل إلى الملك هرقل، وهو بأرض أنطاكية فاستأذن عليه فأمر له بالدخول، فلما دخل سلم الكتاب إليه. فلما قرأه الملك رماه من يده وبكى، ثم إنه جمع البطارقة. وقال لهم: يا بني الأصفر لقد حذرتكم من هؤلاء العرب، وأخبرتكم أنهم سوف يملكون ما تحت سريري هذا فاتخذتم كلامي هزوا وأردتم قتلي وهؤلاء العرب خرجوا من بلاد الجدب والقحط وأكل الذرة والشعير إلى بلاد خصبة كثيرة الأشجار والثمار والفواكه فاستحسنوا ما نظروه من بلادنا وخصبنا وليس يزجرهم شيء لما هم فيه من العزم والقوة وشدة الحرب ولولا أنه عار عليَّ لتركت الشام ورحلت إلى القسطنطينية العظمى، ولكن ها أنا أخرج إليهم وأقاتلهم عن أهلي وديني. فقالوا: أيها الملك ما بلغ من شأن العرب أن تخرج إليهم بنفسك وقعودك أهيب قال الملك هرقل: نبعث إليهم، قالوا: عليك أيها الملك بـ"وردان" صاحب حمص لأنه ليس فينا مثله في القوة وملاقاة الرجال، ولقد بين لنا شجاعته في عساكر الفرس لما قصدونا. فأمر الملك بإحضاره.

فلما حضر وردان قال له الملك: إنّما قدمتك لأنك سيفي القاطع وسندي المانع فاخرج من وقتك وساعتك ولا تتأخر، فقد قدمتك على اثني عشر ألفاً، فإذا وصلت إلى بعلبك فأنفذ إلى من بأجنادين بأن يتفرقوا في أرض البلقاء وجبال السواد فيكونوا هناك ولا تتركوا أحداً من العرب يلحق بأصحابه، يعني عمرو بن العاص ﵁، فقال وردان: السمع والطاعة لك أيها الملك وسوف يبلغك الخبر أني لا أعود إلا برأس خالد بن الوليد ومن معه أهزمهم جميعاً وبعد ذلك أدخل الحجاز ولا أخرج حتى أهدم الكعبة ومكة والمدينة. فلما سمع الملك هرقل قوله قال: وحق الإنجيل لئن فعلت ذلك ووفيت بقولك لأعطينك ما فتحوه حرثاً وخراجاً وكتبت كتاب العهد أنك الملك من بعدي، ثم سوَّره وتوَّجه وأعطاه صليباً من الذهب وفي جوانبه أربع يواقيت لا قيمة لها، وقال: إذا لاقيت العرب فقدمه أمامك فهو ينصرك. فلما تسلم وردان الصليب من وقته دخل الكنيسة وانغمر في ماء المعمودية وبخروه ببخور الكنائس

و صلى عليه الرهبان وخرج من وقته فضرب خيامه خارج المدينة. قال: وأخذت الروم على أنفسهم بالرحيل، فلما تكاملوا ركب الملك هرقل وسار لوداعهم و صحبته أرباب دولته فوصل معهم إلى جسر الحديد بها فودعه الملك وسار إلى أن وصل إلى حماة فنزل بها وأنفذ من وقته كتاباً إلى من بأجنادين من جيوش الروم يأمرهم ليتفرقوا في سائر الطرقات ليمنعوا عمرو بن العاص ومن معه أن يصلوا إلى خالد، فلما سار الرسول بالكتاب جمع وردان إليه البطارقة وقال لهم: إني أريد أن أسير على حين غفلة على طريق مارس حتى أكبس على القوم ولا ينجو منهم أحد، فلما كان الليل رحل على طريق وادي الحياة.

.... حدثني شداد بن أوس قال: لما دخل خالد بن الوليد ﷺ بعد قتل البطريقين أمر المسلمين أن يزحفوا إلى دمشق. فزحف منّا الرجال من العرب وبأيديهم الحجف يتلقون بها الحجارة والسهام، فلما نظر أهل دمشق إلينا، ونحن قد زحفنا إليهم رمونا بالسهام والحجارة من أعلى الأسوار، وضيقنا عليهم في الحصار، وأيقن القوم بالدمار. قال شداد: فأقمنا على حصارهم عشرين يوماً، فلما كان بعد ذلك جاءنا ناوي بن مرة وأخبرنا عن جموع الروم بأجنادين وكثرة عددهم فركب خالد نحو باب المدينة الجابية إلى أبي عبيدة يخبره بذلك ويستشيره وقال: يا أمين الأمة إني رأيت أن نرحل من دمشق إلى أجنادين، ونلقى من هناك من الروم، فإذا نصرنا الله عليهم عدنا إلى قتال هؤلاء القوم. قال أبو عبيدة: ليس هذا برأي! قال خالد: ولم ذلك؟ قال أبو عبيدة: إذا رحلنا يخرج أهل المدينة فيملكون مواضعنا.

فلما سمع خالد ذلك من أبي عبيدة قال: يا أمين الأمة إنِّي أعرف رجلاً لا يخاف الموت خبيراً بلقاء الرجال قد مات أبوه وجده في القتال. قال: ومن هذا الرجل يا أبا سليمان؟ قال: هو ضرار بن الأزور بن طارق. قال أبو عبيدة: والله لقد صدقت ووصفت رجلاً باذلاً معروفاً فافعل. فرجع خالد إلى بابه واستدعى بضرار بن الأزور فجاء إليه وسلم عليه. فقال: يا ابن الأزور إني أريد أن أقدمك على خمسة آلاف قد باعوا أنفسهم لله ﷻ واختاروا دار البقاء والآخرة على الأولى، وتسيروا إلى لقاء هؤلاء القوم الذين وردوا علينا، فإن رأيت لك فيهم طمعاً فقاتلهم، وإن رأيت أنك لا تقدر عليهم فابعث إلينا رسولك.

فقال ضرار بن الأزور: وافرحتاه، والله يا ابن الوليد ما دخل قلبي مسرة أعظم من هذه فاتركني أسير وحدي. قال خالد: لعمري إنك ضرار! ولكن لا تلق نفسك إلى الهلاك وسر بمن ندب معك من المسلمين. فقام ضرار ﷺ مسرعاً فقال خالد: ارفق بنفسك حتى يجتمع عليك الجيش فقال: والله لا وقفت ومن علم الله فيه خيراً أدركني

ثم ركب ضرار وأسرع إلى أن وصل إلى بيت لهيا، وهو الموضع الذي كان يصنع فيه الأصنام فوقف هناك حتى لحق به أصحابه. فلما تكاملوا نظر ضرار، وإذا بجيش الروم ينحدر كأنه الجراد المنتشر وهم غائصون في الدروع وقد أشرقت الشمس على لاماتهم وطوارقهم. فلما نظر إليهم أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لضرار: أما والله إن هذا الجيش عرمرم والصواب أننا نرجع. فقال ضرار: والله لا زلت أضرب بسيفي في سبيل الله وأتبع من أناب إلى الله ولا يراني الله مهزوماً، ولا أولي الدبر لأن الله تعالى يقول "فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ"، وتكلم رافع بن عميرة الطائي وقال: يا قوم وما الخيفة من هؤلاء العلوج؟ أما نصركم الله في مواطن كثيرة والنصر مقرون مع الصبر ولم تزل طائفتنا تلقى الجموع الكثيرة والجموع اليسيرة فاتبعوا سبيل المؤمنين وتضرعوا إلى رب العالمين وقولوا كما قال قوم طالوت عند لقائهم جالوت "رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ" فلما سمع ضرار كلامهم وأنهم اشتروا الآخرة على الأولى كمن بهم عند بيت لهيا وأخفى أمره وجلس عاري الجسد بسراويله على فرس له عربي بغير سلاح وبيده قناة كاملة الطول وهو يوصي القوم.

قال الواقدي: هكذا حدثني تميم بن أوس عن جده عمرو بن دارم. قال: كنت يوم بيت لهيا ممن صحب ضرار بن الأزور رضي الله عنه وهو بهذه الصفة رغبة منه في الشهادة. فلما قارب العدو كان أول من برز وكبر ضرار بن الأزور قبل فأجابه المسلمون بتكبيرة واحدة رعبت منها قلوب المشركين وفاجؤوهم بالحملة ونظروا إلى ضرار بن الأزور وهو في أول القوم وهو في حالته التي وصفناها فهالهم أمره، وكان وردان في المقدمة والأعلام والصلبان مشتبكة على رأسه. فما طلب ضرار غيره لأنه علم أنه صاحبهم فحمل عليه غير مكترث به وطعن فارساً كان في يده العلم فتجندل من على فرسه قتيلاً، ثم إنه طعن آخر في الميمنة فأرداه وحمل يريد القلب، وكان قد عاين وردان والصليب على رأسه يحمله فارس من الروم والجواهر تلمع من أربع جوانبه فعارضه ضرار وطعن حامله طعنة عظيمة فخرج السنان يلمع من خاصرته. فسقط الصليب منكساً إلى الأرض. فلما نظر وردان إلى الصليب أيقن بالهلاك، وهمَّ أن يترجل لأخذه أو يميل في ركابه ليأخذه فما وجد لذلك سبيلاً لما قد أحدق به وترجل عليه قوم من المسلمين ليأخذوه وقد اشتغل كل عن نفسه ونظر ضرار إلى من ترجل لأخذ الصليب. فقال: معاشر المسلمين إن الصليب لي دونكم وأنا صاحبه فلا تطمعوا فيه فإني إليه راجع إذا فرغت من كلب الروم. فسمع ذلك وردان وكان يعرف العربية فعطف من القلب يريد الهرب. فقالت البطارقة: إلى أين أيها السيد أتفر من الشيطان فما رأينا أدنى من منظره ولا أهول من مخبره؟! ونظر إليه ضرار وقد عطف راجعاً فعلم أنه قد عزم على

الهرب فصاح بقومه ثم اقتحم في أثره ومد رمحه وهمز جواده فتصارخت به الروم وعطفت عليه المواكب من كل جانب فأنشد يقول:

الموت حق أين لي منه المفر   وجنة الفردوس خير المستقر
هذا قتالي فاشهدوا يا من حضر   وكل هذا في رضا رب البشر

ثم اخترق القوم وحمل عليهم وحمل المسلمون في أثره فأحدقوا بهم من كل مكان، ونظروا إلى ضرار وقد قصده وردان صاحب حمص عندما علم أنه اخترق القوم فمد إليه رمحه وقد أحدقت به بطارقته وضرار يمانع عن نفسه يميناً وشمالاً فما طعن أحداً إلا أباده إلى أن قتل من القوم خلقاً كثيراً، وهو يصرخ بقومه: ويقول "إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ".

وأكبت عليه جيوش الروم من كل جانب ومكان واشتعلت الحرب بينهم ووصل همدان بن وردان إلى ضرار بن الأزور ورماه بسهم فأصاب عضده الأيمن فوصل السهم إليه فأوهنه! وأحس ضرار بالألم فحمل على همدان وصمصم عليه برمحه وطعنه فأصاب بالطعنة فؤاده فوصل السنان إلى ظهره فجذب الرمح منه فلم يخرج، وإذا به قد اشتبك في عظم ظهره فخرج الرمح من غير سنان فطمعوا فيه وحملوا عليه وأخذوه أسيراً! فنظر أصحاب رسول الله ﷺ إلى ضرار وهو أسير فعظم الأمر عليهم وقاتلوا قتالاً شديداً ليخلصوه فما وجدوا إلى ذلك سبيلاً وأرادوا الهرب. فقال رافع بن عميرة الطائي: يا أهل القرآن إلى أين تريدون؟ أما علمتم أن من ولى ظهره لعدوه فقد باء بغضب من الله، وإن الجنة لها أبواب لا تفتح إلا للمجاهدين، الصبر الصبر، الجنة الجنة، يا أهل الكتاب كروا على الكفار عبَّاد الصلبان، وها أنا معكم في أوائلكم، فإن كان صاحبكم أسر أو قتل فإن الله حي لا يموت، وهو يراكم بعينه التي لا تنام، فرجعوا وحملوا معه...

ووصل الخبر إلى خالد أن ضراراً قد أسر بيد الروم، وأنه قتل من الروم خلقاً كثيراً فعظم ذلك على خالد، وقال: في كم العدو؟ قالوا: في اثني عشر ألف فارس. فقال: والله ما ظننت إلا أنهم في عدد يسير، ولقد غررت بقومي، ثم سأل عن مقدمهم من يكون؟ فقيل وردان صاحب حمص، وقد قتل ضرار ولده همدان، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم أرسل إلى أبي عبيدة يستشيره فبعث إليه أبو عبيدة يقول له: اترك على الباب الشرقي من تثق به وسر إليهم فإنك تطحنهم بإذن الله تعالى. فلما وصل الجواب إلى خالد قال: والله ما أنا ممن يبخل بنفسه في سبيل الله ثم أوقف بالمكان ميسرة بن مسروق العبسي رضي الله عنه ومعه ألف فارس، وقال له: احذر أن تنفذ من مكانك. فقال ميسرة: حباً وكرامة، وعطف خالد بالناس، وقال لهم: أطلقوا الأعنة

وقوّموا الأسنة فإذا أشرفتم على العدو فاحملوا حملة واحدة ليخلص فيها ضرار إن شاء الله تعالى إن كانوا أبقوا عليه، والله إن كانوا عجلوا عليه لنأخذن بثأره إن شاء تعالى وأرجو أن لا يفجعنا به، ثم تقدم أمام القوم وجعل يقول:

اليوم فاز فيه من صدق   لا أرهب الموت إذا الموت طرق
لأروين الرمح من ذوي الحدق   لأهتكن البيض هتكاً والدرق
عسى أرى غداً مقام من صدق   في جنة الخلد وألقى من سبق

خـــولة بـنت الأزور

فبينما خالد يترنم بهذه الأبيات، إذ نظر إلى فارس على فرس طويل وبيده رمح طويل وهو لا يبين منه إلا الحدق والفروسية تلوح من شمائله وعليه ثياب سود وقد تظاهر بها من فوق لأمته وقد حزم وسطه بعمامة خضراء وسحبها على صدره ومن ورائه وقد سبق أمام الناس كأنه نار، فلما نظره خالد قال: ليت شعري من هذا الفارس وايم الله إنه لفارس شجاع؟! ثم اتبعه خالد والناس، وكان هذا الفارس أسبق الناس إلى المشركين. وكان رافع بن عميرة الطائي ﷺ في قتال المشركين وقد صبر لهم هو ومن معه إذ نظر خالداً وقد أنجده هو ومن معه من المسلمين، ونظر إلى الفارس الذي وصفناه وقد حمل على عساكر الروم كأنه النار المحرقة فزعزع كتائبهم وحطم مواكبهم، ثم غاب في وسطهم فما كانت إلا جولة الجائل حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء من الروم، وقد قتل رجالاً وجندل أبطالاً وقد عرض نفسه للهلاك، ثم اخترق القوم غير مكترث بهم ولا خائف وعطف على كراديس الروم في الناس وكثر قلقهم عليه، فأما رافع بن عميرة ومن معه فما ظنوا إلا أنه خالداً وقالوا: ما هذه الحملات إلا لخالد!! فهم على ذلك إذ أشرف عليهم ﷺ وهو في كبكبة من الخيل، فقال رافع بن عميرة: من الفارس الذي تقدم أمامك فلقد بذل نفسه ومهجته؟! فقال خالد: والله إنني أشد إنكاراً منكم له ولقد أعجبني ما ظهر منه ومن شمائله. فقال رافع: أيها الأمير إنه منغمس في عسكر الروم يطعن يميناً وشمالاً. فقال خالد: معاشر المسلمين احملوا بأجمعكم وساعدوا المحامي عن دين الله.

فأطلقوا الأعنة وقوموا الأسنة والتصق بعضهم ببعض وخالد أمامهم إذ نظر إلى الفارس وقد خرج من القلب كأنه شعلة نار والخيل في أثره، وكلما لحقت به الروم لوى عليهم وجندل، فعند ذلك حمل خالد ومن معه ووصل الفارس المذكور إلى جيش المسلمين. فتأملوه فرأوه قد تخضب بالدماء فصاح خالد والمسلمون: لله درك من فارس بذل مهجته في سبيل الله وأظهر شجاعته على الأعداء، اكشف لنا عن لثامك. فمال عنهم ولم يخاطبهم وانغمس في الروم فتصايحت به الروم من كل جانب

وكذلك المسلمون، وقالوا: أيها الرجل الكريم، أميرك يخاطبك وأنت تعرض عنه اكشف عن اسمك وحسبك لتزداد تعظيماً فلم يرد عليهم جواباً، فلما بعد عن خالد سار إليه بنفسه وقال له: ويحك لقد شغلت قلوب الناس وقلبي بفعلك، من أنت؟ فلما لج عليه خالد خاطبه الفارس من تحت لثامه بلسان التأنيث، وقال: إنني يا أمير لم أعرض عنك إلا حياء منك لأنك أمير جليل وأنا من ذوات الخدور وبنات الستور، وإنما حملني على ذلك أني محرقة الكبد زائدة الكمد. فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا خولة بنت الأزور أخت ضرار المأسور بيد المشركين، وإني كنت مع بنات العرب وقد أتاني الساعي بأن ضرار أسير فركبت وفعلت ما فعلت. قال خالد: نحمل بأجمعنا ونرجو من الله أن نصل إلى أخيك فنفكه.

قال عامر بن الطفيل: كنت عن يمين خالد بن الوليد حين حملوا وحملت خولة أمامه وحمل المسلمون وعظم على الروم ما نزل بهم من خولة بنت الأزور وقالوا: إن كان القوم كلهم مثل هذا الفارس فما لنا بهم من طاقة. ولما حمل خالد ومن معه إذا بالروم قد اضطربت جيوشهم ونظر وردان إليهم فقال لهم: اثبتوا للقوم فإذا رأوا ثباتكم ولوا عنكم ويخرج أهل دمشق يعينونكم على قتالهم. فثبت المسلمون لقتال الروم وحمل خالد بالناس حملة منكرة وفرق القوم يميناً وشمالاً وقصد خالد مكان صاحبهم وردان عند اشتباك الأعلام والصلبان وإذا حوله أصحاب الحديد والزرد النضيد وهم محدقون به، فحمل خالد عليهم حملة منكرة واشتبك المسلمون بقتال الروم وكل فرقة مشغولة بقتال صاحبها. وأما خولة بنت الأزور فإنها جعلت تجول يميناً وشمالاً وهي لا تطلب إلا أخاها وهي لا ترى له أثراً ولا وقفت له على خبر إلى وقت الظهر وافترق القوم بعضهم عن بعض وقد أظهر الله المسلمين على الكافرين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة. وتراجعت كل فرقة إلى مكانها وقد كمدت أفئدة الروم بما ظهر لهم من المسلمين وقد هموا بالهزيمة وما يمسكهم إلا الخوف من صاحبهم وردان، فلما رجع القوم إلى مكانهم أقبلت خولة بنت الأزور على المسلمين وجعلت تسألهم رجلاً رجلاً عن أخيها فلم تر من المسلمين من يخبرها أنه نظره أو رآه أسيراً أو قتيلاً.

فلما يئست منه بكت بكاءاً شديداً وجعلت تقول: يا ابن أمي ليت شعري في أي البيداء طرحوك أم بأي سنان طعنوك أم بالحسام قتلوك، يا أخي أختك لك الفداء لو أني أراك أنقذتك من أيدي الأعداء، ليت شعري أترى أنّي أراك بعدها أبداً؟! فقد تركت يا ابن أمي في قلب أختك جمرة لا يخمد لهيبها ولا يطفأ، ليت شعري لحقت بأبيك المقتول بين يدي النبي ﷺ فعليك مني السلام إلى يوم اللقاء. فبكى الناس من قولها وبكى خالد وهمّ أن يعاود بالحملة إذ نظر إلى كردوس من الروم قد خرج من

ميمنة العقبان فتأهب الناس لحربهم وتقدم خالد وحوله أبطال المسلمين. فلما قربوا من القوم رموا رماحهم من أيديهم والسيوف وترجلوا ونادوا بالأمان. فقال خالد: اقبلوا أمانهم وائتوني بهم فأتوا إليه. فقال خالد: من أنتم؟ فقالوا: نحن من جند هذا الرجل وردان ومقامنا بحمص وقد تحقق عندنا أنه ما يطيقكم ولا يستطيع حربكم فأعطونا الأمان واجعلونا من جملة من صالحتم من سائر المدن حتى نؤدي لكم المال الذي أردتم في كل سنة، فكل من في حمص يرضى بقولنا.

فقال خالد: إذا وصلت إلى بلادكم يكون الصلح إن شاء الله تعالى إن كان لكم فيه أرب، ولكن نحن هاهنا لا نصالحكم ولكن كونوا معنا إلى أن يقضي الله ما هو قاض! ثم إن خالداً قال لهم: هل عندكم علم عن صاحبنا الذي قتل ابن صاحبكم؟ قالوا: لعله عاري الجسد الذي قتل منا مقتلة عظيمة وفجع صاحبنا في ولده. قال خالد: عنه سألتكم. قالوا: بعثه وردان عندنا أسيراً على بغل ووكل به مائة فارس وأنفذه إلى حمص ليرسله إلى الملك ويخبره بما فعل. قال ففرح خالد بقولهم، ثم دعا برافع بن عميرة الطائي وقال: يا رافع ما أعلم أحداً أخبر منكم بالمسالك وأنت الذي قطعت بنا المفازة من أرض السماوة وأعطشت الإبل وأوردتها الماء وأوردتنا أركة وما وطئها جيش قبلنا لمفازتها، وأنت أوحد أهل الأرض في الحيل والتدبير فخذ معك من أحببت واتبع أثر القوم فلعلك أن تلحق بهم وتخلص صاحبنا من أيديهم، فلئن فعلت ذلك لتكونن الفرحة الكبرى. فقال رافع بن عميرة: حباً وكرامة، ثم إنه في الحال انتخب مائة فارس شداداً من المسلمين وعزم على المسير فأتت البشارة إلى خولة بمسير رافع بن عميرة ومن معه في طلب أخيها ضرار فتهلل وجهها فرحاً وأسرعت إلى لبس سلاحها وركبت جوادها وأتت إلى خالد بن الوليد، ثم قالت له: أيها الأمير سألتك بالطاهر المطهر محمد سيد البشر إلا ما سرّحتني مع من سرّحت فلعلي أن أكون مشاهدة لهم. فقال خالد لرافع: أنت تعلم شجاعتها فخذها معك. فقال له رافع: السمع والطاعة.

وارتحل رافع ومن معه، وسارت خولة في أثر القوم ولم تختلط بهم، وسار إلى أن قرب من "سليمة" فنظر رافع فلم يجد للقوم أثراً. فقال لأصحابه: أبشروا فإن القوم لم يصلوا إلى هاهنا، ثم إنه كمن بهم في وادي الحياة، فبينما هم كامنون إذا بغبرة قد لاحت. فقال رافع لأصحابه: أيقظوا خواطركم وانتبهوا، فأيقظ القوم هممهم وبقوا في انتظار العدو وإذا بهم قد أتوا وهم محدقون بضرار، فلما رأى رافع ذلك كبر وكبر المسلمون معه وحملوا عليهم فلم يكن غير ساعة حتى خلص الله ضراراً وقتلوهم جميعاً وأخذوا سلبهم. وإذا بعساكر الروم قد أقبلت منهزمة وأولهم لا يلتفت إلى آخرهم، فعلم رافع أن القوم انهزموا فأقبل يلتقطهم بمن معه.

وكان خالد لما أرسل رافع بن عميرة في طلب ضرار ليخلصه ومعه المائة فارس صدم وردان صدمة من يحب الشهادة ويبتغي دار السعادة و صدم المسلمون الروم، فما لبثوا أن ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وكان أولهم وردان واتبعهم المسلمون وأخذوا أسلابهم وأموالهم ولم يزالوا في طلبهم إلى وادي الحياة، فاجتمع المسلمون برافع بن عميرة الطائي وضرار بن الأزور و سلموا عليهم وفرحوا بضرار ﷺ وهنأوه بالسلامة. وأثنى خالد على رافع خيراً ورجعوا إلى دمشق وفرح المسلمون بالنصر واتصل الخبر إلى الملك هرقل أن وردان قد انهزم وقتل ولده همدان. فأيقن بزوال ملكه من الشام فكتب إلى وردان كتاباً يقول فيه: أما بعد فإني قد بلغني أن جياع الأكباد عراة الأجساد قد هزموك وقتلوا ولدك رحمه المسيح ورحمك، ولولا أني أعلم أنك فارس الحرب ومجيد الطعن والضرب وليس النصر آتيك لحل عليك سخطي والآن مضى ما مضى، وقد بعثت إلى أجنادين تسعين ألفاً، وقد أمَّرتك عليهم فسر نحوهم وانجد أهل دمشق وأنفذ بعضهم ليمنعوا من في فلسطين من العرب وحل بينهم وبين أصحابهم وانصرِ دينك و صاحبك. وأنفذ إليه الكتاب مع خيل البريد، فلما ورد عليه الكتاب وقرأه سرى عنه بعض ما كان يجده وأخذ الأهبة إلى أجنادين فسار فوجد الروم قد تجمعوا وأظهروا العدد والزرد وخرجوا إلى لقائه وسلموا عليه وتقدموا بين يديه وعزوه في ولده، فلما استقر قراره قرأ عليهم منشور الملك فأجابوا بالسمع والطاعة وأخذوا على أنفسهم.

حدثني روح بن طريف قال: كنت مع خالد بن الوليد على باب شرقي حين رجعنا من هزيمة وردان وإذ قد ورد علينا عباد بن سعد الحضرمي، وكان قد بعثه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ من بصرى يعلم خالداً بمسير الروم إليه من أجنادين في تسعين ألف فارس فخذ أهبتك للقائهم. فلما سمع خالد ذلك ركب إلى أبي عبيدة وقال له: يا أمين الأمة هذا عباد بن سعد الحضرمي قد بعث به شرحبيل بن حسنة يخبر أن طاغية الروم هرقل قد ولى وردان على من تجمع بأجنادين من الروم وهم تسعون ألفاً فما ترى من الرأي يا صاحب رسول الله؟ فقال أبو عبيدة: اعلم يا أبا سليمان أن أصحاب رسول الله ﷺ متفرقون مثل شرحبيل بن حسنة بأرض بصرى، ومعاذ بن جبل بحوران، ويزيد بن أبي سفيان بالبلقاء، والنعمان بن المغيرة بأرض تدمر وأركة، وعمرو بن العاص بأرض فلسطين، والصواب أن تكتب إليهم ليقصدونا حتى نقصد العدو ومن الله نطلب المعونة والنصر. قال فكتب خالد إلى عمرو بن العاص كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإن إخوانكم المسلمين قد عوَّلوا على المسير إلى أجنادين فإن هناك تسعين ألفاً من الروم يريدون المسير إلينا

"يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ"، فإذا وصل إليك كتابي هذا فاقدم علينا بمن معك إلى أجنادين تجدنا هناك إن شاء الله تعالى والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته، وكتب نسخة الكتاب إلى جميع الأمراء الذين ذكرناهم ثم أمر الناس بالرحيل فرفعت القباب والهوادج على ظهور الجمال وساقوا الغنائم والأموال.

فقال خالد لأبي عبيدة: قد رأيت رأياً أن أكون على الساقة مع الغنائم والأموال والبنين والولدان وكن أنت على المقدمة مع خاصة أصحاب رسول الله ﷺ. فقال أبو عبيدة: بل أكون أنا على الساقة وأنت على المقدمة مع الجيش. فإن وصل إليك جيش الروم مع وردان يجدوك على أهبة فتمنعهم من الوصول إلى الحريم والأولاد فلا يصلون إلينا إلا وأنت قتلت فيهم وإلا كنت أنا ومن معي غنيمة لهم إذا كنت أنا في المقدمة. فقال خالد: لست أخالفك فيما ذكرت. ثم إن خالداً قال: أيها الناس إنكم سائرون إلى جيش عظيم فأيقظوا هممكم، وإن الله وعدكم النصر وقرأ عليهم قوله تعالى: "كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ". ثم إن خالداً أخذ الجيش وسار في المقدمة وبقي أبو عبيدة في ألف من المسلمين، ونظر إلى ذلك أهل دمشق فعطفوا عليهم وأقبلوا بسيوفهم وهم يظنون أنهم منهزمون لأجل ما بلغهم من الجيش العظيم الذي هو بأجنادين. فقال لهم عقلاؤهم: إن كانوا سائرين على طريق بعلبك فإنهم يريدون فتحها وفتح حمص، وإن كانوا على طريق مرج راهط فالقوم لا شك هاربون إلى الحجاز ويتركون ما أخذوا من البلاد.

وكان بدمشق بطريق يقال له بولص وكان عظيماً عند النصرانية، وكان إذا قدم على الملك يعظِّمه، وكان الملعون فارساً وذلك أنهم كان عندهم شجرة فرماها بسهم فغاص السهم في الشجرة من قوة ساعده. ثم إن من عجبه كتب عليها: إن كل من يدَّعي الشجاعة فليرم بسهمه إلى جانب سهمي! وكان قد شاع ذكره بذلك ولم يحضر قتال المسلمين منذ دخلوا دمشق، فلما اجتمعوا عليه قال لهم بولص: ما الذي حل بكم؟ فأعلموه بما جرى عليهم من المسلمين وقالوا له: إن كنت تريد حياة الأبد عند الملك وعند المسيح وعند أهل دين النصرانية فدونك والمسلمين فاخرج إليهم واخطف كل من تخلف منهم، وإن رأيت لنا فيهم مطمعاً قاتلناهم. فقال بولص: إنما كان سبب تخلفي عن نصرتكم لأنكم قليلو الهمة لقتال عدوكم فتخلفت عنكم والآن لا حاجة لي في قتال العرب. فقالوا: وحق المسيح والإنجيل الصحيح لئن سرت في مقدمتنا لنثبتن معك وما منا من يولي عنك وقد حكمناك فيمن ينهزم أن تضرب عنقه ولا يعارضك في ذلك أحد. فلما استوثق منهم دخل إلى منزله ولبس لأمته. فقالت له

زوجته: إلى أين عزمت؟ قال: أخرج في أثر العرب فقد ولآني أهل دمشق عليهم. فقالت: لا تفعل والزم بيتك ولا تطلب ما ليس لك به حاجة فإني رأيت لك في المنام رؤيا. فقال لها: وما الذي رأيت؟ قالت: رأيتك كأنك قابض قوسك وأنت ترمي طيوراً وقد سقط بعضها على بعض، ثم عادت صاعدة فبينما أنا متعجبة إذ أقبلت نحوك سحابة من الجو فانقضت عليك من الهواء وعلى من معك فجعلت تضرب هاماتهم ثم وليتم هاربين، ورأيتها لا تضرب أحداً إلا صرعته ثم إني انتبهت وأنا مذعورة باكية العين عليك. فقال لها: ومع ذلك رأيتني فيمن صرع. قالت: نعم وقد صرعك فارس عظيم. فلطم وجهها وقال: لا بشَّرك المسيح بخير لقد دخل رعب العرب في قلبك حتى صرت تحلمين بهم في النوم فلابد أن اجعل لك أميرهم خادماً وأجعل أصحابه رعاة الغنم والخنازير. فقالت له زوجته: افعل ما تريد فقد نصحتك. فلم يلتفت إلى كلامها وخرج من عندها وركب وسار معه من كان في دمشق من الروم، فعرضهم فإذا هم ستة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل من أهل النجدة والحمية وسار يطلب القوم.

معركة حول دمشق

وكان حنا أسد في المقدمة وأبو عبيدة يمشي مع الأموال والأغنام والجمال إذ نظر رجل من أصحابه، وهو يتأمل الغبرة من ورائهم، فسأله أبو عبيدة عن ذلك فقال: أظنها غبرة القوم. فقال أبو عبيدة: إن أهل الشام قد طمعوا فينا، وهذا العدو قاصد إلينا. فما استتم كلامه حتى بدت الخيل كأنها السيل وبولص في أوائلهم. فلما نظر إلى أبي عبيدة قصد ومعه الفرسان وأخوه بطرس قصد الحريم والمال فاقتطعوا منها قطعة. فلما احتوى عليها رجع بها بطرس نحو دمشق. فلما بعد جلس هناك لينظر ما يكون من أمر أخيه. وأما أبو عبيدة فإنه لما نظر إلى ما فاجأه من الروم. قال: والله لقد كان الصواب مع خالد لما قال دعني في الساقة فلم أدعه وإنه قد وصل إليه بولص وقصده والأعلام والصلبان على رأسه مشتبكة والنساء يولولن والصبيان يصيحون! والألف من المسلمين قد اشتغلوا بالقتال، وقد قصد عدو الله بولص أبا عبيدة واشتدت بينهم الحرب ووقع القتال بين أصحابه والروم وارتفعت الغبرة عليهم وهم في كرٍ وفرٍ على أرض سحورا. وقد بلى أبو عبيدة بالقتال وصبر صبر الكرام.

قال سهيل بن صباح: وكان تحتي جواد محجل من خيل اليمن شهدت عليه اليمامة فقومت السنان وأطلقت العنان فخرج كأنه الريح العاصف، فما كان غير بعيد حتى لحقت بخالد بن الوليد والمسلمين فأقبلت إليهم صارخاً وقلت: أيها الأمير أدرك الأموال والحريم. فقال خالد: ما وراءك يا ابن الصباح؟ فقلت: أيها الأمير الحق أبا عبيدة والحريم فإن نفير دمشق قد لحق بهم، وقد اقتطعوا قطعة من النسوان

والولدان وقد بلي أبو عبيدة بما لا طاقة لنا به. فلما سمع خالد ذلك الكلام من سهيل بن صباح قال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، قد قلت لأبي عبيدة دعني أكون على الساقة، فما طاوعني ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ثم أمر رافع بن عميرة على ألف من الخيل وقال له: كن في المقدمة! وأمر عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق على ألفين وقال له: أدرك العدو، وسار خالد في أثره ببقية الجيش.

فبينما أبو عبيدة في القتال مع بولص -لعنه الله- إذ تلاحقت به جيوش المسلمين وحملوا على أعداء الله وداروا بهم من كل مكان، فعند ذلك تنكست الصلبان، وأيقن الروم بالهوان، وتقدم ضرار بن الأزور كأنه شعلة نار وقصد نحو بولص. فلما رآه عدو الله تبلبل خاطره ووقعت الرعدة في فرائصه، وقال لأبي عبيدة: يا عربي وحق دينك إلا ما قلت لهذا الشيطان يبعد عني وكان بولص قد سمع به ورآه من سورِ دمشق وما صنع بعسكر كلوس وعزازير وسمع بفعاله في بيت لاهيا، فلما رآه مقبلاً إليه عرفه. فقال لأبي عبيدة: قل لهذا الشيطان لا يقربني! فسمعه ضرار ﷺ فقال له: أنا شيطان إن قصرت عن طلبك، ثم إنه فاجأه وطعنه، فلما رأى بولص أن الطعنة واصلة إليه رمى نفسه عن جواده وطلب الهرب نحو أصحابه فسار ضرار في طلبه. وقال له: أين تروح من الشيطان وهو في طلبك؟ ولحقه وهمَّ أن يعلوه بسيفه. فقال بولص: يا بدوي ابق عليَّ ففي بقائي بقاء أولادكم وأموالكم. فلما سمع ضرار قوله أمسك عن قتله وأخذه أسيراً، هذا والمسلمون قد قتلوا من الروم مقتلة عظيمة.

عن أبي رفاعة بن قيس قال: كنت يوم وقعة سحورا مع المسلمين وكنت في خيل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﷺ. فدرنا بالروم من كل جانب وبذلنا أسيافنا في القوم، وكانوا ستة كتائب في كل كتيبة ألف فارس. قال رفاعة بن قيس: فوالله لقد حملنا يوم فتح دمشق وأنه ما رجع منهم فوق المائة ووجه خبر لضرار أن خولة مع النسوان المأسورات فعظم ذلك عليه وأقبل على خالد وأعلمه بذلك، فقال له خالد: لا تجزع، لقد أسرنا منهم خلقاً كثيراً، وقد أسرت أنت بولص صاحبهم وسوف نخلص من أسر من حريمنا ولابد لنا من دمشق في طلبهم، ثم أمر خالد أن يسيروا بالناس على مهل حتى ننظر ما يكون من أمر حريمنا. ثم إنه سار في ألف فارس جريدة وبعث العسكر كله إلى أبي عبيدة مخافة أن يلحقهم وردان بجيوشه فسار القوم وتوجه خالد بمن معه في طلب المأسورات، وقد قدم أمامه رافع بن عميرة الطائي وميسرة بن مسروق العبسي وضرار بن الأزور.

.... سمعت حبيب بن مصعب يقول: لما اقتطعوا من ذكرنا من نساء العرب سار بهم بطرس أخو بولص إلى أن نزل بهم إلى النهر الذي ذكرناه، ثم قال بطرس:

أنا لا أبرح من هاهنا حتى أنظر ما يكون من أمر أخي، ثم إنه عرض عليه النساء المأسورات فلم يعجبه منهن إلا خولة بنت الأزور أخت ضرار. قال بطرس: هذه لي وأنا لها لا يعارضني فيها أحد، فقال له أصحابه: هي لك وأنت لها. وكل من سبق إلى واحدة يقول هي لي حتى قسَّموا الغنيمة على ذلك، ووقفوا ينتظرون ما يكون من أمر بولص وأصحابه. وكان في النساء عجائز من حمير وتبع من نسل العمالقة والتبابعة وكن قد اعتدن ركوب الخيل فقالت لهن خولة بنت الأزور: يا بنات حمير بقية تبع أترضين بأنفسكن علوج الروم، ويكون أولادكن عبيداً لأهل الشرك، فأين شجاعتكنَّ وبراعتكنَّ التي نتحدث بها عنكن في أحياء العرب ومحاضر الحضر ولا أراكنَّ إلا بمعزل عن ذلك؟! وإني أرى القتل عليكنَّ أهون من هذه المصائب وما نزل بكنَّ من خدمة الروم الكلاب!

فقالت عفرة بنت غفار الحميرية: صدقت والله يا بنت الأزور! نحن في الشجاعة كما ذكرت، وفي البراعة كما وصفت، لنا المشاهد العظام والمواقف الجسام، ووالله لقد اعتدنا ركوب الخيل وهجوم الليل غير أن السيف يحسن فعله في مثل هذا الوقت، وإنما دهمنا العدو على حين غفلة، وما نحن إلا كالغنم، فقالت خولة: يا بنات التبابعة والعمالقة خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ونحمل بها على هؤلاء اللئام فلعل الله ينصرنا عليهم أو نستريح من معرة العرب، فقالت عفرة بنت غفار والله ما دعوت إلا إلى ما هو أحب إلينا مما ذكرت، ثم تناولت كل واحدة عموداً من أعمدة الخيام وصحن صيحة واحدة وألقت خولة على عاتقها عمود الخيمة وسعت من ورائها عفرة وأم أبان بنت عتبة وسلمة بنت زارع ولبنى بنت حازم ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت النعمان، ومثل هؤلاء رضي الله عنهن.

فقالت لهن خولة: لا ينفك بعضكن عن بعض، وكنَّ كالحلقة الدائرة ولا تتفرقن فتملكن فيقع بكنَّ التشتيت وحطمن رماح القوم واكسرن سيوفهم. فهجمت خولة أمامهن، فأول ما ضربت رجلاً من القوم على هامته بالعمود فتجندل صريعاً والتفت الروم ينظرون ما الخبر، فإذا هم بالنسوة، وقد أقبلن والعمد بأيديهنَّ فصاح بطريق: يا ويلكنَّ ما هذا؟ فقالت عفرة: هذه فعالنا فلنضربنَّ القوم بهذه الأعمدة ولابد من قطع أعماركم وانصرام آجالكم يا أهل الكفر. فجاء بطرس وقال: تفرَّقوا عن النسوة ولا تبذلوا فيهنَّ السيوف ولا أحد منكم يقتل واحدة منهنَّ وخذوهنَّ أسارى ومن وقع منكم بصاحبتي فلا ينلها بمكروه، فتفرق القوم عليهنَّ وحدقوا بهنَّ من كل جانب وراموا الوصول إليهنَّ فلم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ولم تزل النساء لا يدنو إليهنَّ أحد من الروم إلا ضربن قوائم فرسه فإذا تنكَّس عن جواده بادرت النساء بالأعمدة فيقتلنه ويأخذن سلاحه..

قال الواقدي: ولقد بلغني أن النسوة قتلن ثلاثين فارساً من الروم، فلما نظر بطرس إلى ذلك غضب غضباً شديداً وترجل وترجلت أصحابه نحو النساء، والنساء تحرض بعضهن بعضاً ويقلن متن كراماً ولا تمتن لئاماً، وأظهر بطرس رأسه وتلهفه عندما نظر إلى فعلهن، ونظر إلى خولة بنت الأزور، وهي تجول كالأسد وتقول:

نحن بنات تبع وحمير ... وضربنا في القوم ليس ينكر
لأننا في الحرب نار تسعر ... اليوم تسقون العذاب الأكبر

فلما سمع بطرس ذلك من قولها، ورأى حسنها وجمالها، قال لها: يا عربية أقصري عن فعالك فإنّي مكرمك بكل ما يسرك! أما ترضين أن أكون أنا مولاك وأنا الذي تهابني أهل النصرانية ولي ضياع ورساتيق وأموال ومواش ومنزلة عند الملك هرقل، وجميع ما أنا فيه مردود إليك! أما ترضين أن تكوني سيدة أهل دمشق، فلا تقتلي نفسك؟! فقالت له: يا ملعون ويا ابن ألف ملعون والله لئن ظفرت بك لأقطعن رأسك! والله ما أرضى بك أن ترعى لي الإبل فكيف أرضاك أن تكون لي كفؤاً؟! فلما سمع كلامها حرّض أصحابه على القتال، وقال: أترون عاراً أكبر من هذا في بلاد الشام أن النسوة غلبنكم؟! فاتقوا غضب الملك.

فافترق القوم وحملوا حملة عظيمة وصبر النساء لهم صبر الكرام، فبينما هم على ذلك إذ أقبل خالد بن الوليد ﷺ ومن معه من المسلمين، ونظروا إلى الغبار وبريق السيوف، فقال لأصحابه: من يأتيني بخبر القوم؟ فقال رافع بن عميرة الطائي: أنا آتيك به. ثم أطلق جواده حتى أشرف على النسوة وهنّ يقاتلن قتال الموت فرجع وأخبر خالداً بما رأى، فقال خالد: لا أعجب من ذلك إنهنّ من نسل التبابعة، وما بينهن وبين تبع إلا قرن واحد، وتبع بن بكر بن حسان الذي ذكر رسول الله ﷺ قبل ظهوره، وشهد له بالرسالة قبل أن يبعث، وقال:

شهدت بأحمد أنه رسول ... من الله بارئ كل النسم
وأمّته سميت في الزبور ... بأمة أحمد خير الأمم
فلو مد عمري إلى عصره ... لكنت وزيراً له وابن عم

بطـــولة النســـــاء

قال خالد: لا تعجب يارافع واعلم أن هؤلاء النسوة لهن الحروب المذكورات والمواقف المشهورات وإن يكن فعلهن ما ذكرت، فلقد سدن على نساء العرب إلى آخر الأبد، وأزلن عنهن العار، فتهللت وجوه النساء فرحاً ووثب ضرار بن الأزور عندما سمع كلام رافع، فقال خالد: مهلاً ياضرار ولا تعجل فإنه من تأنى نال ما تمنى.

فقال ضرار: أيها الأمير لا صبر لي عن نصرة بنت أبي وأمي، فقال خالد: قد قرب الفرج إن شاء الله تعالى. ثم إن خالداً وثب ووثب أصحابه، وقال معاشر الناس إذا وصلتم إلى القوم فتفرقوا عليهم وأحدقوا بهم، فعسى أن نخلِّص حريمنا. فقالوا: حباً وكرامةً. ثم تقدَّم خالد. فبينما القوم في قتال شديد مع النسوة إذ أشرفت عليهم المواكب والكتائب والأعلام والرايات، فصاحت خولة: يا بنات التبابعة قد جاءكم الفرج ورب الكعبة!

ونظر بطرس إلى الكتائب المحمدية وقد أشرفت فخفق فؤاده وارتعدت فرائصه، وأقبل القوم ينظر بعضهم بعضاً. فصاح بطرس: يا معاشر النسوة إن الشفقة والرحمة قد دخلت في قلبي، لأن لنا أخوات وبنات وأمهات، وقد وهبتكن للصليب. فإذا قدم رجالكن فأخبروهن بذلك. ثم عطف يريد الهرب إذ نظر إلى فارسين قد خرجا من قلب العسكر، أحدهما قد تكمى في سلاحه والآخر عاري الجسد، وقد أطلقا عنانهما كأنهما أسدان وكانا خالداً وضراراً، فلما رأت خولة أخاها قالت له: إلى أين يا ابن أمي أقبل؟ فصاح بها بطرس انطلقي إلى أخيك فقد وهبتك له، ثم ولى يطلب الهرب. فقالت له خولة وهي تهزأ به: ليس هذا من شيم الكرام! تظهر لنا المحبة والقرب، ثم تظهر الساعة الجفاء والتباعد! وخطت نحوه. فقال: قد زال عنى ما كنت أجد من محبتك. فقالت له خولة: لابد لي منك على كل حال، ثم أسرعت إليه، وقد قصده ضرار. فقال له بطرس: خذ أختك عنى فهي مباركة عليك وهي هدية منى إليك. فقال له ضرار: قد قبلت هديتك وشكرتها، وإني لا أجد لك على ذلك إلا سنان رمحي فخذ هذه مني إليك. ثم حمل عليه ضرار، وهو يقول: "وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ"، ثم همهم إليه بالطعنة ووصلت إليه خولة فضربت قوائم فرسه فكبا به الجواد، ووقع عدو الله على الأرض فأدركه ضرار قبل سقوطه وطعنه في خاصرته فأطلع السنان من الجانب الآخر، فتجندل صريعاً إلى الأرض، فصاح به خالد: لله درك يا ضرار هذه طعنة لا يخيب طاعنها! ثم حملوا في أعراض القوم وجميع المسلمين معهم؛ فما كانت إلا جولة جائل حتى قتل من الروم ثلاثة آلاف رجل.

قال حامد بن عامر اليربوعي: لقد عددت لضرار بن الأزور في ذلك اليوم ثلاثين قتيلاً، وقتلت خولة خمسة، وعفراء بنت غفار الحميرية أربعة. وانهزم بقية القوم ولم يزالوا في إدبارهم والمسلمون على أثرهم، إلى أن وصلوا إلى دمشق، فلم يخرج إليهم أحد بل زاد فزعهم واشتد الأمر عليهم، فرجع المسلمون وجمعوا الغنائم والخيل والسلاح والأموال. ثم قال خالد: الحقوا بأبي عبيدة لئلا يكون وردان وجيوشه قد لحقوا به، فسار ضرار والقوم، وقيل جعل ضرار رأس البطريق على سنان رمحه،

ولم يزل القوم سائرين إلى أن لحقوا بأبي عبيدة في مرج الصفر، وقد تخلف أبو عبيدة حتى أشرف المسلمون عليه فكبر وكبر خالد بن الوليد ﷺ ومعه المسلمون. فلما اجتمع الناس سلم بعضهم على بعض ورأوا المأسورات وقد خلصن، وأخبر خالد أبا عبيدة بما فعلت خولة وعفرة وغيرهن من الصحابيات، فاستبشر بنصر الله وعلموا أن الشام لهم. ثم دعا خالد ببولص فقال له: أسلم وإلا فعلت بك كما فعلت بأخيك! فقال له: وما الذي صنعت بأخي؟ قال: قتلته، وهذه رأسه، ورماها ضرار قدامه. فلما رأى رأس أخيه بكى، وقال له: لا بقاء لي بعده حياً، فألحقوني به. فقام له المسيب بن نجبة الفزاري ﷺ فضرب عنقه بأمر خالد ثم رحل القوم.

.... حدثنا سعيد بن مالك قال: لما بعث خالد الكتب إلى شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ وإلى يزيد بن أبي سفيان وإلى عمرو بن العاص قرأ كل واحد من الأمراء كتابه. قال فساروا بأجمعهم إلى أجنادين لعون إخوانهم وجاءوا بعددهم وعديدهم. قال سفينة مولى رسول الله ﷺ: كنت في خيل معاذ بن جبل، فلما أشرفنا بأجمعنا على أجنادين كنا كلنا على سيارة واحدة في يوم واحد، وذلك في شهر صفر سنة **20** من الهجرة وتبادر المسلمون يسلم بعضهم على بعض، ورأينا جيوش الروم في عدد لا يحصى. فلما أشرفنا عليهم أظهروا لنا زينتهم وعددهم واصطفوا مواكب وكتائب ومدوا صفوفهم، فكانوا ستين صفاً في كل صف ألف فارس، قال الضحاك بن عروة: والله لقد دخلنا العراق ورأينا جنود كسرى فما رأينا أكثر من جنود الروم ولا أكثر من عددهم وسلاحهم. فنزلنا بإزائهم فلما كان من الغد بادرت الروم نحونا. قال الضحاك: فلما رأيناهم، وقد ركبوا أخذنا على أنفسنا وتأهبنا، وأن خالداً ركب، وجعل يتخلل الصفوف: ويقول: اعلموا أنكم لستم ترون للروم جيشاً مثل هذا اليوم، فإن هزمهم الله على أيديكم فما يقوم لهم بعدها قائمة أبداً فاصدقوا في الجهاد وعليكم بنصر دينكم وإياكم أن تولوا الأدبار فيعقبكم ذلك دخول النار وأقرنوا المواكب ومكنوا المضارب ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة وأيقظوا هممكم.

قال الواقدي: ولقد بلغني ممن أثق به أن وردان لما رأى أصحاب رسول الله ﷺ قد أجمعوا وعوّلوا على حربهم جمع إليه الملوك والبطارقة وقال لهم: يا بني الأصفر اعلموا أن الملك يعوّل عليكم، وإذا انكسرتم لا تقوم لكم بعدها قائمة أبداً وتملك العرب بلادكم وتسبي حريمكم فعليكم بالصبر ولتكن حملتكم واحدة ولا تتفرقوا واعلموا أن كل ثلاثة منا بواحد منهم واستعينوا بالصليب ينصركم، فهذا ما كان من هؤلاء. وأما خالد ﷺ فإنه مشى على أصحابه وقال: معاشر المسلمين من فيكم يحذر لنا القوم وينفرهم. فقال ضرار بن الأزور: أنا أيها الأمير. فقال خالد: أنت لها

والله، ولكن يا ضرار إذا أشرفت على القوم فإياك أن تحمل نفسك ما لا تطيق، وأن تغرر بنفسك وتحمل على القوم فما أمرك الله بذلك، فقد قال الله تعالى: "وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ"، قال فأطلق ضرار عنان جواده حتى أشرف على جيش الروم فرأى أثاثهم وخيامهم وشعاع البيض والطوارق كأجنحة الطيور.

وكان وردان ينظر نحو جيش المسلمين إذ نظر إلى ضرار، وهو مشرف على القوم، فقال للبطارقة: إني أرى فارساً قد أقبل ولست أشك أنه طليعة القوم فأيكم يأتيني به؟ فانتدب من القوم ثلاثين فارساً طلبوا ضراراً، فلما نظر إليهم ضرار ولى من بين أيديهم فتبعوه وظنوا أنه قد انهزم، وإنما أراد بذلك أن يبعدهم عن أصحابهم، فلما بعدوا علم أنه تمكن منهم فلوى رأس جواده إليهم وصوب السنان عليهم، فأول من طعن فارساً من القوم أرداه وثنى على الآخر فأعدمه الحياة وصال فيهم صولة الأسد على الغنم ودخل رعبه في قلوبهم فولّوا منهزمين فتبعهم، وهو يصرع منهم فارساً بعد فارس إلى أن صرع منهم تسعة عشر فارساً. فلما رأوا ذلك وقرب هو من جيوش الروم لوى راجعاً إلى خالد ومعه أسلابهم وخيولهم وأعلمه بما كان، فقال له خالد: ألم أقل لك لا تغرر بنفسك ولا تحمل عليهم، فقال: إن القوم طلبوني فخفت أن يراني الله منهزماً فجاهدت بإخلاص ولا جرم أن الله ينصرنا عليهم والله لولا خوفي من ملامك لأحملن على الجميع. واعلم أن القوم غنيمة لنا. فرتب خالد عسكره ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين فجعل في القلب معاذ بن جبل وفي الميمنة عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وفي الميسرة سعيد بن عامر وفي الجناح الأيسر شرحبيل بن حسنة، وفي الساقة يزيد بن أبي سفيان في أربعة آلاف فارس حول الحريم والبنات والأولاد، ثم التفت إلى النسوة وهن عفراء بنت غفار الحميرية وأم أبان ابنة عتبة وكانت عروساً قد تزوج بها في هذا اليوم أبان بن سعيد بن العاص والخضاب في يدها والعطر في رأسها، وخولة بنت الأزور ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت زارع وغيرهن من النسوة ممن عرفن بالشجاعة والبراعة.

نصيحة خالد

فقال لهنَّ خالد: يا بنات العمالقة وبقية التبابعة قد فعلتنَّ فعلاً أرضيتن به الله تعالى والمسلمين، وقد بقي لكن الذكر الجميل، وهذه أبواب الجنة قد فتحت لكنَّ، وأبواب النار قد أغلقت عنكنَّ وفتحت لأعدائكنَّ، واعلمن أني أثق بكنَّ. فإن حملت طائفة من الروم عليكنَّ فقاتلن عن أنفسكنَّ، وإن رأيتنَّ أحداً من المسلمين قد ولى هارباً فدونكنَّ وإياه بالأعمدة وارمين بولده وقلن له: أين تولي عن أهلك ومالك وولدك وحريمك؟! فإنكنَّ ترضين بذلك الله تعالى. فقالت عفراء بنت غفار: أيها الأمير والله لا

يفرحنا إلا أن نموت أمامك، فلنضربن وجوه الروم ولنقاتلنٍ إلى أن لا تبقى لنا عين تطرف، والله ما نبالي إذا رمينا الروم كلهم. فجزّاهن خيراً، ثم عاد إلى الصفوف فجعل يطوف بينهم بفرسه، ويحرض الناس على القتال، وهو ينادي برفيع صوته: يا معاشر المسلمين: انصروا الله ينصركم، وقاتلوا في سبيل الله واحتسبوا نفوسكم في سبيل الله ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة، ولتكن السهام إذا خرجت من كباد القسي كأنها من قوس واحدة. فإذا تلاصقت السهام رشقاً كالجراد لم يخل أن يكون منها سهم صائب، و"ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ"، واعلموا أنكم لن تلقوا بعد هذا عدواً مثله، وأن هذه الفئة جملتهم وأبطالهم وملوكهم فجرِّدوا السيوف وأوتروا القسي وفوِّقوا السهام. ثم إن خالداً أقبل ووقف في القلب مع عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر وقيس بن هبيرة ورافع بن عميرة وذي الكلاع الحميري وربيعة بن عامر ونظائرهم. قال فلما نظر وردان إلى جيش المسلمين قد زحف، زحفوا وكانوا ملء تلك الأرض في الطول والعرض من كثرتهم فترامى الجمعان وتلاقى الفريقان، وقد أظهر أعداء الله الصلبان والأعلام، ورفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير.

فلما قرب القوم بعضهم من بعض خرج من علوج الروم شيخ كبير وعليه قلنسوة سوداء فلما قرب من المسلمين نادى بلسان عربي: أيكم المقدم فليخاطبني وليخرج إليَّ وعليه أمان. فخرج إليه خالد بن الوليد. فقال له القس: أنت أمير القوم؟ فقال خالد: كذلك يزعمون ما دمت على طاعة الله وسنة رسوله، وإن أنا غيَّرت أو بدَّلت فلا إمارة لي عليهم ولا طاعة. قال القس: بهذا نصرتم علينا، ثم قال: اعلم أنك توسطت بلاداً ما جسر ملك من الملوك أن يتعرض لها ولا يدخلها، وأن الفرس دخلوها ورجعوا خائبين، وأن التبابعة أتوها وأفنوا أنفسهم عليها وما بلغوا ما أرادوا، ولكنكم أنتم نصرتم علينا وإن النصر لا يدوم لكم وصاحبي وردان قد أشفق عليكم وقد بعثني إليكم وقال: إنه يعطي كل واحد منكم ديناراً وثوباً وعمامة ولك أنت مائة دينار ومائة ثوب ومائة عمامة وارحل عنا بجيشكم فإن جيشنا على عدد الذَّر ولا تظن أن هؤلاء مثل من لقيت من جموعنا، فإن الملك ما أنفذ في هذا الجيش إلا عظماء البطارقة والأساقفة.

قال خالد: والله ما نرجع إلا بإحدى ثلاث خصال: إما أن تدخلوا في ديننا، أو تؤدوا الجزية، أو القتال. وأما ما ذكرت من أنكم عدد الذَّر فإن الله تعالى قد وعدنا النصر على لسان محمد ﷺ وأنزل ذلك في كتابه العزيز. وأما ما ذكرت من أن صاحبكم يعطي كل واحد منَّا ديناراً وعمامة وثوباً فعن قريب إن شاء الله نرى ثيابكم

وبلادكم وعمائمكم كل ذلك في ملكنا وبأيدينا. فقال الراهب: إني راجع إلى صاحبي أخبره بجوابك، ثم لوى راجعاً وأخبر وردان بما كان من جواب خالد. فقال وردان: أيظن أننا مثل من لقيه من قبل وإنما هؤلاء لحقهم الطمع إذ تقاصرنا عن قتالهم والملك قد أرسل إليهم أكابر البطارقة وما بيننا وبينهم إلا جولة الجائل ثم نتركهم صرعى، ثم رتب أصحابه وزحف وقدم أمامه الرجالة صفاً أمام القوم والخيالة وبأيديهم المزاريق والقسي.

فصاح معاذ بن جبل ﷺ: معاشر الناس إن الجنة قد زخرفت لكم والنار قد فتحت لأعدائكم والملائكة عليكم قد أقبلت والحور العين قد تزينت للقائكم فأبشروا بالجنة السرمدية، ثم قرأ "إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ"، بارك الله فيكم الحملة. فقال خالد: مهلاً يامعاذ حتى أوصي الناس! ومشى في الصفوف ورتبها وقال: اعلموا أن هؤلاء أضعافكم فطاولوهم إلى وقت العصر، فإنها ساعة نرزق فيها النصر، وإياكم أن تولوا الأدبار فيراكم الله منهزمين، ازحفوا على بركة الله تعالى.

فلما تقارب الجمعان رمت الأروام سهامهم رمية واحدة فقتلوا رجالاً وجرحوا أناساً، وخالد قد منع الناس من الحملة. فقال ضرار بن الأزور: وما لنا والوقوف والحق ﷻ قد تجلى علينا، والله ما يظن أعداء الله إلا أننا قد فشلنا عنهم وجزعنا، فأمرنا بالحملة حتى نحمل معك. قال: فأنت لها يا ضرار، فخرج ضرار بن الأزور، وقال: والله ما من شيء أشهى إلى قلبي من ذلك. ثم حمل ضرار وقد تدرع بدرع كان لبطرس أخي بولص، وألقى الزرد على وجهه وركب جواده، وكان عليه يومئذ جبتان من جلود الفيلة كان قد أخذهما أيضاً من بطرس، وقد أخفى نفسه عن الروم بلباسه ذلك، وقد أطلق عنانه وقوم سنانه وحمل في صفوف الروم فرشقوه بالسهام فلم يصل إليه منهم أذى، وهو يخترق صفوفهم، فما كان قدر ساعة حتى قتل من الروم عشرين فارساً ومثلها رجالة.

قال عنان بن عوف النجبي: كنت ممن يعد قتلى ضرار بن الأزور، وكنت كلما قتل فارساً من الروم أعده، فكان جملة من قتل ضرار في حملته هذه فرساناً ورجالاً ثلاثين فارساً. قال عمر بن سالم: هكذا حدثني نوفل بن زياد. ثم إنه رمى البيضة عن رأسه والزرد عن وجهه ونادى بأعلى صوته: أنا الموت الأصفر.. أنا ضرار بن الأزور..أنا صاحبكم.. أنا قاتل همدان بن وردان.. أنا البلاء المسلط عليكم وعلى من أشرك بالرحمن. فلما سمعت الروم كلامه عرفوه وتقهقروا إلى ورائهم، فطمع فيهم وحمل على أثرهم، فعند ذلك انطبقت عليه الروم. فقال وردان: من هذا البدوي؟

فقالوا: أيها الملك هذا الذي بقي طول عمره عاري الجسد، ومرة برمح ومرة بنبل. فلما سمع ذلك ويذكر ضرار بن الأزور تنفس الصعداء وقال: هذا قاتل ولدي! ولقد اشتهيت من يأخذ منه بثأري وله مني ما يريد. قال: فبرز إليه بطريق وكان صاحب طبرية، وقال لوردان: أنا آخذ لك بالثأر! ثم لوى عنانه وحمل على ضرار فجالا أكثر من ساعة، ثم طعنه ضرار طعنة صادقة خرق بها كبد عدو الله، فتجندل صريعاً، وقال وردان لهم: ما أتى به ولو أتي به عيناً ما صدقته، فإن هذا لا تطيق الإنس أن تقاتله، وأنا ما أرى لهذا غيري، ثم ترجل وغير لأمته، وألقى عليه درعاً، وجعل على رأسه التاج، وركب جواداً من الخيول العربية وهمَّ أن يخرج إلى ضرار بن الأزور، فتقدم إليه بطريق اسمه "أصطفان" وهو صاحب عمان وباس ركاب وردان وقال: أيها السيد إن آخذ بثأرك من هذا الذميم أو أسرته لك أتزوجني ابنتك؟ فقال له وردان: هي لك وأشهد عليه من حضر من ملوك الشام. فلما سمع أصطفان ذلك خرج كأنه شعلة نار وحمل على ضرار وقال له: ويلك قد نزل بك ما لا قدرة لك به. فلم يدر ضرار ما يقول غير أنه أخذ حذره منه، وقد أخرج أصطفان صليباً من الذهب، وجعله في عنقه في سلسلة من الفضة، وجعل يقبله ويرفعه على رأسه، فعلم ضرار أنه يستنصر به عليه، فقال ضرار: إن كنت تستنصر عليَّ به فأنا أستنصر بالقريب المجيب الذي هو ممن دعاه قريب! ثم حمل عليه وأريا الناس أبواباً من الحرب، حتى ضج الناس من قتالهما.

فصاح خالد: يا ابن الأزور ما هذا التكاسل والتغافل والجنة قد فتحت لك والنار قد فتحت لأعدائك؟! وإياك والكسل فإن الله ﷻ يعينك. فأيقظ ضرار نفسه وانقض من سرجه وحمل على خصمه، وتصايحت الروم بصاحبها تشجعه، وكلاهما في ضرب عظيم، وقد حميت الشمس، وتعب الجوادان. فأشار البطريق إلى ضرار أن ترجل حتى نتقابل، فهمَّ ضرار أن يترجل شفقة على الجواد، وإذا بصفوف الروم قد خرجت ورجل يقود جنيباً أمامهم وكان ذلك غلام البطريق، فلما نظر إليه ضرار صاح في جواده وقال له: اجلد معي ساعة وإلا شكوتك إلى رسول الله ﷺ! فحمحم الجواد وشمر أجنحته جرياً واستقبل ضرار غلام البطريق بطعنة فقتله وأخذ الجنيب فركبه وأطلق جواده نحو عساكر المسلمين فتناولوه وعاد ضرار نحو البطريق. فلما رآه أقبل إليه بعدما قتل غلامه وركب جواده أيقن عدو الله بالهلاك وعلم أنه إن ولى قتله بلا محالة، وأن وقف أهلكه. فلما نظر ضرار إلى عدو الله علم ما عنده فهجم عليه إذ نظر إلى الروم وقد خرج منهم كردوس، وذلك أن وردان لما نظر إلى صاحبه وقد أشرف على الموت علم أنه إن لم يدركه هلك، فقال لقومه: يا قوم إن هذا الشيطان قد أكل من كبدي قطعة، وإذا لم أقتله قتلت نفسي ولابد لي من الخروج إليه!

فخرج في عشرة من البطارقة وهم مدرّعون، وفي أرجلهم أخفاف من الحديد وسواعد من الحديد، وبأيديهم أعمدة من الحديد، ووردان قد لبس لأمته وعلى رأسه تاج عظيم. فخرجوا ووردان أمامهم كأنه شعلة نار، ونظر أصطفان إلى من خرج فصرخ بضرار فلم يلتفت إلى من خرج إليه إلا أنّه تأهب. فبينما هم كذلك إذ نظر خالد إلى القوم وخروجهم ونظر إلى التاج، وهو يلمع على رأس صاحبهم. فقال: إن التاج لا يكون إلا على رأس الملك ولا شك أنه صاحب القوم قد خرج إلى صاحبنا فما الذي يقعدنا عن نصرته؟ ثم قال لأصحابه: لا يخرج إلا عشرة حتى نساوي القوم. فخرج خالد في عشرة من أصحابه، ووصل الروم إلى ضرار فاستقبلهم بقلب أقوى من الحجر الجلمود، فناداه خالد: أبشر يا ضرار فقد أسعدك الجبار ولا تجزع من الكفار. فقال ضرار ﷺ: ما أقرب النصر من الله! وجاء خالد ومن معه والتقت الرجال بالرجال وانفرد كل واحد بصاحبه وطلب خالد وردان، ولم يبرح ضرار عن خصمه أصطفان، وقد كلّ ساعده وارتعدت فرائصه عندما نظر إلى خالد ومن معه، فنظر يميناً وشمالاً ليطلب الهرب، فعلم ضرار منه ذلك فهجم عليه بسنانه، فلما أيقن بالموت ألقى نفسه إلى الأرض وولى هارباً، فبادر إليه ضرار وألقى نفسه عن جواده وطلب عدو الله حتى لحقه وتقابضا على وجه الأرض، وكان عدو الله كالصخر الجلمود، وكان ضرار نحيف الجسم غير أن الله تعالى أعطاه قوة الإيمان.

فلما طال بهم العراك ضرب بيده إلى مراق بطنه وقلعه من الأرض بحيلة وجلد به الأرض فصاح عدو الله وجعل يستنجد بوردان وقال بالرومية: أيها السيد انجدني مما أنا فيه فقد هلكت! فصاح وردان: يا ويلك ومن ينقذني أنا من هؤلاء السباع الكاسرة؟! فسمع خالد ذلك فطمع فيه وحمل على وردان، وهمَّ ضرار بخصمه ونظر إليهما الفريقان، وأقبل ضرار فلم يمهل على خصمه دون أن برك على صدره وذبحه مثل البعير، وكل واحد مشتغل عن نصرة صاحبه. فأخذ ضرار رأس عدو الله وهو ملطخ بالدماء وركب جواده وحملت الروم على المسلمين ونادى سعيد بن زيد: يا معشر الناس اذكروا الوقوف بين يدي الله الملك الجبار فإياكم أن تولوا الأدبار فتستوجبوا دخول النار، يا أهل الإيمان يا حملة القرآن اصبروا. فزاد الناس بقوله نشاطاً وتزاحم الفريقان. وجاء وقت العصر فافترقوا وقد قتل من الروم ثلاثة آلاف، وعشرة من ملوكهم منهم رومان صاحب الأميرة، ودمر صاحب نوى، وكوكب صاحب أرض البلقاء، ولاوي بن حنا صاحب غزة. ثم افترق القوم ورجع وردان إلى مكانه وقد امتلأ قلبه رعباً مما ظهر له من المسلمين من شدة صبرهم وقتالهم. فجمع البطارقة وقال لهم: يا

أهل دين النصرانية ما تقولون في هؤلاء العرب فإني أراهم غالبين علينا وقد رأيت أسيافهم قاطعة وخيلهم صابرة وسواعدكم بليدة، وإن القوم أطوع منكم لربكم وما خذلتم إلا بالظلم والجور والغدر، وما مرادي منكم إلا أن تتوبوا إلى ربكم، فإن فعلتم ذلك رجوت لكم النصر من عدوكم، وإن لم تفعلوا ذلك فأذنوا بحرب من المسيح وبهلاك أنفسكم، فإن الله عاقبكم أشد عقوبة إذ سلط عليكم أقواماً لا نفكر بهم ولا نعدهم، لأن أكثرهم جياع وعبيد وعراة ومساكين أخرجهم إلينا قحط الحجاز وجوعه وشدة الضرر والبلاء، والآن قد أكلوا من خبز بلادنا وفواكه أرضنا وأكلوا العسل والتين والعنب، وأعظم ذلك سبي نسائكم وأموالكم.

فلما سمع القوم ذلك بكوا وقالوا: نقتل عن آخرنا ولا يصل إلينا هؤلاء القوم وإنا نرى أن نقاتلهم بالرماح. فلما سمع وردان ذلك منهم صاح بالبطارقة وقال لهم: ما عندكم من الرأي؟ فقال رجل منهم: يا وردان اعلم أنك قد بليت بقوم لا تقوم لقتالهم، وقد رأيت الواحد منهم يحمل على عسكرنا ولا يبالي من أحد ولا يرجع حتى يقتل منهم، وقد قال لهم نبيهم إن من قتل منكم صار إلى الجنة ومن قتل من الروم صار إلى النار، والموت والحياة عندهم سواء وما أرى لكم من القوم مطمعاً إلا أن تتحيل على صاحبهم فنقتله فإن قتلتموه ينهزم القوم وإنك لا تصل إليه إلا بحيلة توقعه فيها. فقال وردان: وأي حيلة ندخل بها على القوم والحيل والخداع والمكر منهم؟! فقال له البطريق: أنا أقول لك شيئاً إن صنعته وصلت به إلى أمير العرب من حيث لا يصل إليك شيء ولا أذى، وذلك أنك تنتخب عشرة من الفرسان من ذوي الشدة والبأس ويكمنون في مكمن من جهة العسكر قبل خروجك إليه وبعد ذلك تخرج إليه وتشاغله بالحديث ثم اهجم عليه وأخرج قومك يبادرون من المكمن ويقطعونه إرباً إرباً وتستريح منه وبعد ذلك تتفرق أصحابه ولا يجتمع منهم أحد.

فلما سمع وردان ذلك من البطريق فرح فرحاً عظيماً وقال: ما هذا إلا رأي سديد فنعم ما أشرت به وقد أصبت فيما ذكرت غير أن هذا الأمر يعمل في جنح الليل ولا يأتي الصباح إلا وقد فرغنا مما نريد، ثم إن وردان دعا برجل من العرب المتنصرة اسمه داود وكان في سكنه. وقال له: يا داود أنا أعلم أنك فصيح اللسان وإني أريد أن تخرج إلى هؤلاء العرب وتسألهم أن يقطعوا الحرب بيننا وبينهم، وقل لهم لا يخرجون لنا بكرة النهار حتى أخرج بنفسي إليهم منفرداً عن قومي ولعلنا نصطلح مع العرب. فقال داود: ويحك وتخالف أمر الملك هرقل فيما أمرك به من الحرب وتصطلح أنت والعرب فإن الملك ينسبك إلى الجزع والفزع وما كنت بالذي أخاطب العرب في ذلك أبداً فيبلغ الملك أني كنت السبب في ذلك فيقتلني. فقال له وردان: يا ويلك إنما

دبرت حيلة على أمير العرب حتى أصل بها إليه فأقتله وتتفرق هؤلاء العرب عنا ثم إنه حدثه بما عزم عليه من المكر بخالد بن الوليد. فقال لوردان: إن الباغي مخذول في كل فعل، فالق الجمع بالجمع واترك ما عزمت عليه. فقال وردان وقد غضب: ويلك أنت تعاندني فيما أمرتك به دع عنك المحاججة! فقال: حباً وكرامة، ثم إنه مضى وقال في نفسه: إن وردان قد عزم أن يلحق بولده، ثم أقبل حتى إنه وقف قريباً من المسلمين ونادى برفيع صوته، وقال: يا معاشر العرب حسبكم من القتل وسفك الدماء فإن الله تعالى يسألكم عن سفكها، وأريد أن يخرج إليَّ أمير العرب حتى أخاطبه بما أرسلت به. قال فما استتم كلامه حتى خرج إليه خالد ﷺ وهو كأنه شعلة نار.

فلما نظر إليه داود النصراني قال له: يا عربي على رسلك فما خرجت أحارب ولا أنا من رجال الحرب وما أنا إلا رسول. فلما سمع خالد مقالته قرب منه. وقال: اذكر مسألتك واستعمل الصدق تنج فمن صدق نجا ومن كذب هلك! فقال: صدقت يا عربي، إن أميرنا وردان كاره سفك الدماء، وقد رأى شدتكم ولا يريد حربكم، وقد نظر إلى من قتل من جماعته فكره أن يحاربكم، وقد رأى أن يدفع لكم مالاً ويحقن به دماء الناس لكن بشرط أن يكون بينك وبينه كتاب وتشهد عليك كبراء قومك أنك لا تتعرض له ولا لأحد من أصحابه ولا لحصن من حصونه، فإن فعلت ذلك وثق بقولك وهو يسألك أن تقطع الحرب بقية يومك، فإذا أصبحت فاخرج بنفسك ولا يكن معك أحد ويخرج هو أيضاً منفرداً فننظر ما تتفقان عليه عسى أن تحقنا دماء الناس بيننا وبينكم. فلما سمع خالد ما نطق به داود قال له: إن كان ما أخبر به صاحبكم يريد به حيلة أو مكيدة فنحن والله جرثومة الخداع وما مثلنا يؤتى بحيلة ولا بخديعة، فإن كان ذلك ضميره واعتقاده فما هو إلا قرب أجله وانقطاع عمره وهلاك جموعكم والانفصال بيننا وبينكم، وإن كان ذلك حقاً من قوله فلست أصالحه إلا إذا أدى الجزية عن جماعته. وأما المال فلست براغب فيه إلا على ما ذكرته لكم وعن قريب نأخذ أموالكم ونملك بلادكم.

فقال داود وقد عظم عليه كلام خالد: ما يكون الأمر إلا كما ذكرت فإذا توافقتم كان الانفصال بيننا، وها أنا راجع فأذكر له ما ذكرت ثم لوى راجعاً وقد امتلأ قلبه رعباً من خالد وفزع منه فزعاً شديداً، ثم قال في نفسه: صدق والله أمير العرب وأنا أعلم والله أن وردان أول مقتول ونحن من بعده وما لي إلا أن أصدق أمير العرب وآخذ لي ولأهلي منه أماناً. ثم رجع إلى خالد وقال له: يا أمير إني قد أضمرت على سر وأريد أن أبديه لك لأني أعلم أن البلاد لكم، إن وردان قد نوى على شيء! فقال خالد: وما هو؟ فقال: خذ لنفسك الحذر وكن مستيقظاً فإنه قد أضمر لك كيداً، ثم أخبره بالقصة

من أولها إلى آخرها، ثم قال لخالد: أريد منك الأمان لي ولأهلي. فقال خالد: الأمان لك ولأهلك ولأولادك إن أنت لم تخبر القوم ولم تغدر قال داود: لو أردت أن أغدر لما حدثتك. فقال خالد: وأين كمين القوم؟ قال: عند كثيب عن يمين عسكرهم. ثم إنه خلاه ورجع وأعلم وردان ففرح وقال: الآن أرجو أن يظفرني الصليب بهم، ثم إنه دعا بعشرة من الأبطال، وقال لهم: امضوا رجالة وأكمنوا وأمرهم أن يفعلوا ما دبروه.

وأما خالد فإنه رجع فلقيه أمين الأمة أبو عبيدة فرآه ضاحكاً. فقال: يا أبا سليمان أضحك الله سنك ما الخبر؟ فحدثه بما جرى. فقال أبو عبيدة: على ماذا عزمت؟ قال: عزمت أن أخرج إلى القوم وحدي. فقال: يا أبا سليمان لعمرك إنك لكفء ولكن ما أمرك الله أن تلقي بنفسك إلى التهلكة والله تعالى يقول: "وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ"، وقد أعد لك عشرة، وهو حادي عشر وما آمن عليك من اللعين ولكن اندب له رجالة كما ندب لك رجالة ويكمنون قريباً من القوم، فإذا صرخ اللعين بقومه فاصرخ أنت بقومك ونكون نحن متأهبين على خيولنا، فإذا فرغت من عدو الله حملنا جميعاً ونرجو من الله النصر.

والمسلمون هم رافع بن عميرة الطائي، ومعاذ بن جبل، وضرار بن الأزور، وسعيد بن زيد، وقيس بن هبيرة، وميسرة بن مسروق العبسي، وعدي بن حاتم حتى استتم العشرة وأخبرهم خالد بما قد عزم عليه الروم من الحيلة والمكيدة التي قد دبرها وردان. وقال: اخرجوا رجالة بحيث لا يدري بكم أحد حتى إنكم تأتون الكثيب الذي عن يمين العسكر فاكمنوا هناك، فإذا صرخت بكم فبادروا وانفروا للقوم كل واحد لواحد واتركوني لعدو الله فإنني إن شاء الله تعالى كفء له فقال ضرار: أيها الأمير أخاف أن يكثر عليك الجمع الكثير فلا نأمن أن يصلوا بشرهم إليك، وقد كنت أدبر لك حيلة أننا نسير من وقتنا هذا إلى مكمن القوم فإذا وجدناهم رقوداً قتلناهم وفرغنا منهم قبل الصباح ونكمن نحن في مواضعهم فإذا خلوت أنت بعدو الله خرجنا عليكم بغير مقالة.

فقال خالد: افعل يا أبا الأزور ما ذكرت إن وجدت إلى ذلك سبيلاً وخذ معك هؤلاء الذين ندبتهم وأنت الأمير عليهم، وأرجو أن يبلغك الله ما تطلبه، وخرج هو وأصحابه في جنح الليل رجالة وبأيديهم أسلحتهم وودعوا الناس، وكان وقت خروجهم قد مضى ثلث الليل، ثم سار ضرار حتى وصل الكثيب فأوقف أصحابه وقال: على رسلكم حتى أستخبر لكم خبر القوم. فلما أشرف عليهم من بعيد سمع غطيطهم وهم نيام سكارى غرقوا في النوم لما نالهم من التعب والنصب وقد أمنوا من أحد ينظرهم.

فقال ضرار في نفسه: إن أنا دنوت من القوم لأقتلهم خشيت أن يوقظ بعضهم بعضاً! فرجع إلى أصحابه وقال لهم: أبشروا فقد أتاكم الله بما تريدون، وأذهب عنكم ما تحذرون، فجردوا سيوفكم وسيروا إلى القوم فاقتلوهم كيف شئتم. ثم تقدم ضرار أمامهم وهم في أثره إلى أن وصل بهم إليهم فوجدوهم نياماً كل واحد منهم سلاحه عند رأسه فانفرد كل واحد منهم بواحد، فلم يلبثوا إلا وقد فرغوا منهم عن آخرهم وأخذ كل واحد سلاح غريمه وأخذوا كل ما معهم من الزاد وغيره، فقال لهم ضرار: أبشروا فإن هذا أول النصر إن شاء الله تعالى، وأقبلوا بقية ليلتهم يصلون ويدعون الله أن ينصرهم على عدوهم ولم يزل كل واحد منهم في مصلاه إلى أن أضاء الفجر فصلوا صلاة الفجر. فلما فرغوا من الصلاة لبس كل واحد ثياب غريمه ولباسه وغيبوا القتلى مخافة أن يرسل إليهم وردان خبراً..

معركة أجنادين

فلما أصبح الصباح صلى خالد بالناس ورتب أصحابه لأهبة الحرب، فبينما هم كذلك إذ خرج من القلب فارس وقال: يا معاشر العرب أريد أميركم ليخرج إلى صاحبنا وردان لننظر ما يتفقان عليه من أمر الجيشين وحقن الدماء بينهما. فخرج إليه خالد بن الوليد فقال له الفارس: إن وردان يريد أن تنتظره حتى تتكلم معه. فقال خالد: نعم ارجع وأخبره. فعند ذلك خرج وردان وقد تزين بقلادة جوهر وعلى رأسه تاج. فقال خالد عندما رآه: هذه غنيمة للمسلمين إن شاء الله تعالى! فلما نظر عدو الله إلى خالد ترجل عن جواده وكذلك خالد وجلس كلاهما، وقد جعل عدو الله سيفه على فخذه فقال له خالد: قل ما تشاء، واستعمل الصدق والزم طريق الحق، واعلم أنك جالس بين يدي رجل لا يعرف الحيل. فقل ما تريد.

فقال وردان: يا خالد اذكر لي ما الذي تريدون وقرب الأمر بيني وبينكم، فإن كنت تطلب منا شيئاً فلا نبخل به عليك صدقة منا عليكم لأننا ليس عندنا أمة أضعف منكم، وقد علمنا أنكم كنتم في بلاد قحط وجوع تموتون جوعاً فاقنع منا بالقليل وارحل عنا. فلما سمع منه خالد هذا الكلام قال له: يا كلب الروم إن الله ﷻ أغنانا عن صدقاتكم وأموالكم وجعل أموالكم نتقاسمها بيننا وأحل لنا نساءكم وأولادكم إلا أن تقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، وإن أبيتم فالحرب بيننا وبينكم، أو الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وبالله أقسم أن الحرب أشهى لنا من الصلح. وأما قولك يا عدو الله لم تكن أمة أضعف منا عندكم فأنتم عندنا بمنزلة الكلاب؟ وإن الواحد منا يلقى ألفاً منكم بعون الله تعالى وما هذا خطاب من يطلب الصلح، فإن كنت ترجو أن تصل إليَّ بانفرادي عن قومي وقومك فدونك وما تريد.

فلما سمع وردان مقالات خالد وثب من مكانه من غير أن يجرد سيفه وتشابكا وتقابضا وتعانقا. فصاح عدو الله عندما وثق من خالد وقال لأصحابه: بادروا الآن الصليب قد مكنني من أمير العرب! فما استتم كلامه حتى بادر إليه الصحابة كأنهم عقبان يتقدمهم ضرار بن الأزور، وقد رموا النشاب عنهم وجردوا سيوفهم وضرار عاري الجسد بسراويله قابض على سيفه وهو يزأر كالأسد وأصحابه من ورائه فالتفت عدو الله ونظر إلى القوم وهم يتسابقون إليه وهو يظن أنهم قومه حتى إذا وصلوا إليه ونظر في أوائلهم ضرار بن الأزور قال لخالد: سألتك بحق معبودك أن تقتلني أنت بيدك ولا تدع هذا الشيطان يقتلني! فقال خالد: هو قاتلك لا محالة! فهز ضرار سيفه وقال: يا عدو الله أين خديعتك من خديعة أصحاب رسول الله ﷺ؟! فقال خالد: اصبر يا ضرار حتى آمرك بقتله. ثم وصل إليه أصحاب رسول الله ﷺ فهزوا سيوفهم في وجهه ومرادهم أن يقتلوه ونظر عدو الله إلى ما دهمه فوقع إلى الأرض وهو يشير بإصبعه الأمان الأمان. فقال خالد: يا عدو الله لا نعطي الأمان إلا لأهل الأمان وأنت أظهرت لنا المكر والخديعة "وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ"، فلما سمع ضرار كلام خالد لم يمهله دون أن ضربه على عاتقه فخرج السيف يلمع من علائقه، ثم أخذ التاج من على رأسه وقال: من سبق إلى شيء كان أولى به! ولقد أدركته سيوف المجاهدين فقطعوه إرباً إرباً وتبادروا إلى سيفه فأخذوه، ثم إن خالداً قال لأصحابه: إني أريد أن تحملوا على الروم لأنهم مشتاقون إلى أصحابهم. فأخذوا رأس عدو الله وردان وتوجهوا نحو عسكر الروم. فلما وصل خالد الصفوف نادى: يا أعداء الله هذا رأس صاحبكم وردان.. أنا خالد بن الوليد أنا صاحب رسول الله ﷺ، ثم إنه رمى الرأس وحمل عليهم وحمل المسلمون.

فلما رأى الروم رأس وردان ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار، ولم يزل السيف يعمل فيهم من وقت الصباح إلى الغروب. قال عامر بن الطفيل الدوسي: كنت مع أبي عبيدة ونحن نتبع المنهزمين إلى طريق غزة إذ أشرف علينا خيل فظننا أنها نجدة من عند الملك هرقل فأخذنا على أنفسنا وإذا بالغبرة قد قربت منا، فإذا هي عسكر قد أرسلها أبو بكر الصديق، وما رأوا أحداً من المنهزمين إلا قتلوه ونهبوا جميع ما معه.

قال الواقدي: وكان الروم بأجنادين تسعين ألفاً فقتل منهم في ذلك اليوم خمسون ألفاً وتفرق من بقي منهم، فمنهم من انهزم إلى دمشق، ومنهم من انهزم إلى قيسارية وغنم المسلمون غنيمة لم يغنم مثلها وأخذوا منهم صلبان الذهب والفضة، فجمع خالد ذلك كله مع تاج وردان إلى وقت القسمة وقال خالد: لست أقسم عليكم

شيئاً إلا بعد فتح دمشق إن شاء الله تعالى، وكانت الوقعة بأجنادين لليلة ست خلت من جمادى الأول سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية، وذلك قبل وفاة أبي بكر بثلاث وعشرين ليلة.

ثم إن خالداً ﷺ كتب كتاباً إلى أبي بكر يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد المخزومي إلى خليفة رسول الله ﷺ، سلام عليك. أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد ﷺ، وأزيد حمداً وشكراً على المسلمين ودماراً على المتكبرين المشركين وانصداع بيعتهم، وإنا لقينا جموعهم بأجنادين وقد رفعوا صلبانهم وتقاسموا بدينهم أن لا يفروا ولا ينهزموا... فخرجنا إليهم واستعنا بالله ﷻ متوكلين على الله خالقنا فرزقنا الله الصبر والنصر، وكتب الله على أعدائنا القهر فقاتلناهم في كل واد وسبسب، وجملة من أحصيناهم ممن قتل من المشركين خمسون ألفاً وقتل من المسلمين في اليوم الأول والثاني أربعمائة وخمسون رجلاً ختم الله لهم بالشهادة منهم عشرون رجلاً من الأنصار ومن أهل مكة ثلاثون رجلاً ومن حمير عشرون والباقي من أخلاط الناس، ويوم كتبت لك الكتاب كان يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الآخر، ونحن راجعون إلى دمشق إن شاء الله تعالى فادع لنا بالنصر والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته، وطوى الكتاب وسلمه إلى عبد الرحمن بن حميد وأمره بالمسير إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام، وسار خالد بالمسلمين طالباً دمشق.

قال الواقدي رحمة الله عليه: ولقد بلغني أن أبا بكر الصديق كان يخرج كل يوم بعد صلاة الفجر إذ أقبل عبد الرحمن بن حميد. فلما رآه تسابقت إليه أصحابه وقالوا له: من أين أقبلت؟ قال: من الشام وإن الله قد نصر المسلمين فسجد أبو بكر الصديق لله شكراً، وأقبل عبد الرحمن بن حميد إلى أبي بكر وقال: يا خليفة رسول الله ارفع رأسك فقد أقر الله عينك بالمسلمين فرفع أبو بكر رأسه وقرأ الكتاب سراً، فلما فهم ما فيه قرأه على المسلمين جهراً، فتزاحم الناس يسمعون قراءة الكتاب، فشاع الخبر في المدينة فهرعت الناس من كل مكان، فقرأه أبو بكر ثاني مرة.

وتسامع الناس من أهل مكة والحجاز واليمن بما فتح الله على أيدي المسلمين وما ملكوا من أموال الروم فتسابقوا بالخروج إلى الشام ورغبوا في الثواب والأجر، وأقبل إلى المدينة من أهل مكة وأكابرهم بالخيل والرماح وفي أوائلهم أبو سفيان والغيداق بن وائل، وأقبلوا يستأذنون أبا بكر في الخروج إلى الشام فكره عمر بن الخطاب خروجهم إلى الشام وقال لأبي بكر: لا تأذن للقوم فإن في قلوبهم حقائد وضغائن، والحمد لله الذي كانت كلمته هي العليا وكلمتهم هي السفلى وهم على

كفرهم وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ونحن مع ذلك نقول: ليس مع الله غالب. فلما أن أعزّ الله ديننا ونصر شريعتنا أسلموا خوفاً من السيف فلما سمعوا أن جند الله قد نصروا على الروم أتونا لنبعث بهم إلى الأعداء ليقاسموا السابقين الأولين، والصواب أن لا نقرهم. فقال أبو بكر: لا أخالف لك قولاً ولا أعصي لك أمراً.

وبلغ أهل مكة ما تكلم به عمر بن الخطاب فأقبلوا جميعهم إلى أبي بكر الصديق في المسجد فوجدوا حوله جماعة من المسلمين وهم يتذاكرون ما فتح الله على المسلمين وعمر بن الخطاب عن يساره وعلي بن أبي طالب عن يمينه والناس حوله، فأقبلت قريش إلى أبي بكر فسلموا عليه وجلسوا بين يديه وتشاوروا فيمن يكون أولهم كلاماً؟ فكان أول من تكلم أبو سفيان بن حرب فأقبل على عمر بن الخطاب وقال: يا عمر كنت لنا مبغضاً في الجاهلية، فلما هدانا الله تعالى إلى الإسلام هدمنا ما كان في قلوبنا لأن الإيمان يهدم الشرك وأنت بعد اليوم تبغضنا فما هذه العداوة يا ابن الخطاب قديماً وحديثاً؟ أما آن لك أن تغسل ما بقلبك من الحقد والتنافر؟! وإنا لنعلم أنك أفضل منا وأسبق في الإيمان والجهاد، ونحن عارفون بمرتبتكم غير منكرين.

فسكت عمر ﷺ واستحيا من هذا الكلام. فقال أبو سفيان: إني أشهدكم أنّي قد حبست نفسي في سبيل الله، وكذلك تكلم سادات مكة. فقال أبو بكر: اللهم بلغهم أفضل ما يؤملون، واجزهم بأحسن ما يعملون وارزقهم النصر على عدوهم ولا تمكن عدوهم فيهم "إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" آل عمران: **26**. فما تمت أيام قلائل حتى جاء جمع من اليمن وعليهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي ﷺ يريد الشام فما لبثوا حتى أقبل مالك بن الأشتر النخعي ﷺ فنزل عند الإمام علي ﷺ بأهله، وكان مالك يحب سيدنا علياً، وقد شهد معه الوقائع وخاض المعامع في عهد رسول الله ﷺ وقد عزم على الخروج مع الناس إلى الشام.

كتاب أبو بكر إلى خالد

قال الواقدي: واجتمع بالمدينة نحو تسعة آلاف، فلما تم أمرهم كتب أبو بكر كتاباً إلى خالد بن الوليد يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي بكر خليفة رسول الله إلى خالد بن الوليد ومن معه عن المسلمين. أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد ﷺ وأوصيكم وآمركم بتقوى الله في السر والعلانية، وقد فرحت بما أفاء الله على المسلمين من النصر وهلاك الكافرين وأخبرك أن تنزل إلى دمشق إلى أن يأذن الله بفتحها على يدك فإذا تم لك ذلك فسر إلى

حمص وأنطاكية والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته، وقد تقدم إليك أبطال اليمن وأبطال مكة ويكفيك ابن معد يكرب الزبيدي ومالك بن الأشتر وانزل على المدينة العظمى أنطاكية، فإن بها الملك هرقل فإن صالحك فصالحه وإن حاربك فحاربه ولا تدخل الدروب، وأقول هذا وإن الأجل قد قرب ثم كتب "كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ"، ثم ختم الكتاب وطواه ودفعه إلى عبد الرحمن، وقال له: أنت كنت الرسول من الشام وأنت ترد الجواب فأخذه عبد الرحمن وسار على مطيته يطوي المنازل والمناهل إلى أن وصل إلى دمشق.

حدثني نافع بن عميرة قال: لما بعث خالد بن الوليد الكتاب إلى أبي بكر الصديق ارتحل يريد دمشق، وكان أهلها قد سمعوا بقتل بطريقهم وأبطالهم وانهزام جيوشهم ومن أرسلهم الملك بأجنادين فخافوا وتحصنوا بدمشق وأعدوا آلة الحصار ورفعوا السيوف والطوارق وعلوا على الأسوار ونشروا الأعلام والصلبان، فلما أخذوا على أنفسهم أشرف عليهم الأمير خالد بن الوليد والجيش قد زاد عمرو بن العاص في تسعة آلاف ويزيد بن أبي سفيان في ألفين وشرحبيل بن حسنة وعامر بن ربيعة في ألفين، وأقبل السواد من ورائهم معاذ بن جبل في ألفين، فلما رأى أهل دمشق عسكر المسلمين مثل البحر الزاخر أيقنوا بالهلاك، وأقبل خالد في جيش الزحف فنزل على الدير المعروف به، وبينه وبين المدينة أقل من ميل، فلما نزل هناك دعا بالأمراء فأحضرهم، فقال لأبي عبيدة: أنت تعلم ما ظهر لنا من غدر هؤلاء القوم عند انصرافنا عنهم وخروجهم في أثرنا فامض بمن معك من أصحابك وانزل بهم على باب الجابية ولا تسمح للقوم بالأمان فيأخذوك بمكرهم ولتكن متباعداً عن الباب وابعث إليهم فوجاً بعد فوج، واجعل قتال الناس دولاً ولا يضق صدرك من كثرة المقام ولا تبرح من مكانك واحذر من القوم الكافرين. فقال أبو عبيدة: حباً وكرامة، ثم إنه خرج حتى نزل بباب الجابية ونصب له بيتاً من الشعر بالبعد من الباب.

حـــول دمشـــق

.... عن حجاج الأنصاري قال: قلت لجدي رفاعة بن عاصم، وكان ممن قاتل بدمشق، وكان في خيل أبي عبيدة فقلت: يا جداه ما منع أبا عبيدة أن ينصب له قبة من بعض قبب الروم مما أخذه من أجنادين ومن بصرى، فقد كان عندهم ألوف من ذلك؟! فقال: يا بني منعهم من ذلك التواضع ولم يتنافسوا في زينة الدنيا وملكها حتى ينظروا الروم أنهم لا يقاتلون طلباً للملك، وإنما يقاتلون رجاء ثواب الله تعالى وطلب الآخرة ونصرة للدين ولقد كنا ننزل فننصب خيامنا وخيام الروم بالبعد. فلما نزل أبو عبيدة على

باب الجابية أمر أصحابه بالقتال. ثم إن خالداً استدعى بيزيد بن أبي سفيان، وقال له: يا يزيد خذ أصحابك وانزل على الباب الصغير واحفظ قومك، وإن خرج إليك أحد لا يكون لك به طاقة فابعث إليَّ حتى أنجدك إن شاء الله تعالى. ثم استدعى بشرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ وقال له: انزل على باب توما. ثم توجه بقومه واستدعى بعمرو بن العاص وأمره أن يسير إلى باب الفراديس. ثم استدعى بعده بقيس بن هبيرة، وقال له: اذهب بقومك إلى باب الفرج. ثم نزل خالد إلى الباب الشرقي. ودعا بضرار بن الأزور ﷺ وضم إليه ألفي فارس، وقال له تطوف حول المدينة بعسكرك، وإن دهمك أمر أو لاحت لك عيون القوم فأرسل إلينا. ثم سار ضرار واتبعه قومه وبقي خالد على الباب الشرقي. ثم قدم عبد الرحمن بن حميد من المدينة بكتاب أبي بكر الصديق ﷺ وعدل إلى ناحية خالد بن الوليد على الباب الشرقي وقد تقدم للقتال طائفة من أصحابه مع رافع بن عميرة. فلما رفع إليه الكتاب فرح بعد أن قرأه على المسلمين واستبشر بقدوم عمرو بن معد يكرب الزبيدي وأبي سفيان بن حرب. قال وشاع الخبر عند جميع الناس وبعث خالد كتاب أبي بكر إلى كل باب فقرئ على الناس وبات الناس متأهبين للحرب يتحارسون إلى الصباح وضرار يطوف حولهم ولا يقف في مكان واحد مخافةً أن يكبسهم العدو.

قال الواقدي: ولقد بلغني أن أهل دمشق اجتمعوا إلى كبارهم من البلد وتشاوروا فيما بينهم فقال بعضهم: ما لنا إلا الصلح ونعطي العرب جميع ما طلبوه منا! وقال آخرون: ما نحن بأكثر من جموع أجنادين. فقال لهم بطريق من الروم: اطلبوا لنا صهر الملك توما نتشاور في هذا الأمر لنسمع ما يقول ونطلب منه أن يكشف عنا ما نحن فيه فإما أن يصالحهم، وإما أن يحامي عنا. فمضى القوم إلى توما وعليه رجال موكلون بالسلاح، فقالوا لهم: ما الذي تريدون؟ فقالوا: نريد صهر الملك نشاوره في هذا الأمر.

فأذنوا لهم فدخلوا عليه وقبَّلوا الأرض بين يديه. فقال لهم: ما الذي تريدون؟ فقالوا: أيها السيد انظر ما نزل ببلادنا، وقد جاءنا ما لا طاقة لنا به. فإما أن نصالح العرب على ما طلبوا. وإما أن نرسل إلى الملك فينجدنا أو يمانع عنا فقد أشرفنا على الهلاك! فلما سمع ذلك منهم تبسم ضاحكاً وقال: يا ويلكم أطمعتم العرب فيكم وحق رأس الملك ما أرى القوم أهلاً للقتال ولا هم خاطرون لي على بال فلو فتح لهم الباب ما جسروا أن يدخلوا. فقالوا: أيها السيد إن أكبرهم وأصغرهم يقاتل العشرة والمائة وصاحبهم داهية لا تطاق. فإن كان ولابد فاخرج بنا لقتالهم! فقال لهم توما: إنكم أكثر منهم ومدينتنا حصينة ولكم مثل هذا العدد والسلاح، وأما القوم فهم حفاة عراة. فقالوا له: أيها السيد إن معهم من عددنا وأسلحتنا كثيراً مما أخذوه من واقعة فلسطين ومما

أخذوه من بصرى ومن يوم لقائهم بكلوس وعزازير ومما أخذوه من أجنادين، وأيضاً إن نبيهم قال لهم: إن من قتل منكم صار إلى الجنة فلأجل ذلك يبقون عراة الأجساد ليصلوا إلى ما قال لهم نبيهم. فضحك من قولهم، وقال لهم: لأجل ذلك أطمعتم العرب فينا ولو صدقتم في الحرب والصدام لقتلتموهم لأنكم أضعافهم مراراً.

فقالوا: أيها السيد اكفنا مؤونتهم كيف شئت، واعلم أنك إن لم تمنعهم عنا فتحنا لهم الأبواب و صالحناهم. فلما سمع توما كلامهم فكر طويلاً وخشي أن يفعل القوم ذلك. فقال: أنا أصرف عنكم هؤلاء العرب، وأقتل أميرهم وأريد منكم أن تقاتلوا معي. قالوا: نحن معك وبين يديك نقاتل حتى نهلك عن آخرنا. فقال لهم: باكروا القوم بالقتال فانصرفوا عنه وهم له شاكرون ولأمره منتظرون، وباتوا بقية ليلتهم على الحصن وأصحاب رسول الله ﷺ في مواضعهم ولهم ضجة بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، وخالد بن الوليد عند الدير ومعه النساء والعيال والأموال والغنائم التي غنموها من أعدائهم، ورافع بن عميرة على الباب الشرقي في عسكر الزحف وغيرهم ولم يزل الناس في الحرس إلى أن برق الصباح وصلى كل أمير بمن معه من قومه وصلى أبو عبيدة بمن معه. ثم أمر أصحابه بالزحف، وقال لهم: لا تخلوا عن القتال واركبوا الخيل.

.... حدثني رفاعة بن قيس قال: سألت والدي قيسا، وكان ممن حضر فتوح دمشق الشام فقلت له: أكنتم تقاتلون في دمشق خيالة أو رجالة يوم حصار المسلمين؟ قال: ما كان أحد منّا فارساً إلا زهاء ألفي فارس مع ضرار بن الأزور، وهو يطوف بهم حول العسكر وحول المدينة وكلما أتى باباً من الأبواب وقف عنده وحرض أهله على القتال، وهو يقول صبراً صبراً لأعداء الله. وأقبل توما من بابه الذي يدعى باسمه، وكان عندهم عابداً راهباً وكان معظماً عند الروم فخرج ذلك اليوم من قصره والصليب الأعظم على رأسه وعلا به فوق البرج وأوقف البطارقة حوله والإنجيل تحمله ذوو المعرفة ونصبوه بالقرب من الصليب ورفع القوم أصواتهم، وتقدم توما ووضع يده على أسطر من الإنجيل. وقال: اللهم إن كنّا على الحق فانصرنا ولا تسلمنا لأعدائنا واخذل الظالم منا فإنك به عليم! اللهم إننا نتقرب إليك بالصليب ومن صلب على دينه، وأظهر الآيات الربانية والأفعال اللاهوتية انصرنا على هؤلاء الظالمين. وأمّن الناس على دعائه. قال رفاعة بن قيس: هكذا حدثني شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ والذي فسر لنا هذا الكلام روماس صاحب بصرى، وكان في جيش شرحبيل بن حسنة يقاتل على باب توما، وكلما قال الروم شيئاً بلغتهم فسره لنا. ونهض شرحبيل وقصد الباب بحملته، وقد عظم عليه قول توما اللعين، وقال له: يا لعين لقد كذبت إن

مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب. أحياه متى شاء ورفعه متى شاء. ثم إن روماس ناوشه بالقتال، فقاتل توما قتالاً شديداً وهشم الناس بالحجارة ورمى النشاب رمياً متداركاً فجرح رجالاً. وكان ممن جرح أبان بن سعيد بن العاص أصابته نشابة، وكانت مسمومة فأحس بلهيب السم في بدنه فتأخر وحمله إخوانه إلى أن أتوا به إلى العسكر فأرادوا حل العمامة. فقال: لا تحلوها فان حللتم جرحي تبعتها روحي أما والله لقد رزقني الله ما كنت أتمناه. قال فلم يسمعوا قوله وحلوا عمامته. فلما حلوها شخص إلى السماء وصار يشير بإصبعيه أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، فما استتمها حتى توفي إلى رحمة الله تعالى.

بطـــولة المـــرأة

وكانت زوجته بنت عمه، وكان قد تزوجها بأجنادين، وكانت قريبة العهد من العرس ولم يكن الخضاب ذهب من يدها، ولا العطر من رأسها، وكانت من المترجلات البازلات من أهل بيت الشجاعة والبراعة، فلما سمعت بموت بعلها أتته تتعثر في أذيالها إلى أن وقعت عليه، فلما نظرته صبرت واحتسبت، ولم يسمع منها غير قولها هنئت بما أعطيت ومضيت إلى جوار ربك الذي جمع بيننا ثم فرّق، ولأجهدن حتى ألحق بك فإني لمتشوقة إليك، حرام علي أن يمسني بعدك أحد وإني قد حبست نفسي في سبيل الله عسى أن ألحق بك وأرجو أن يكون ذلك عاجلاً!

ثم حفر له ودفن مكانه فقبره معروف، وصلى عليه خالد بن الوليد، فلما غيب في التراب لم تقف على قبره دون أن أتت إلى سلاحه ولحقت الجيش من غير أن تعلم خالداً بذلك، وقالت: على أي باب قتل بعلي؟ فقيل لها: على باب توما والذي قتله هو صهر الملك! فسارت إلى أصحاب شرحبيل بن حسنة فاختلطت بهم، وقاتلت مع الناس قتالاً لم ير مثله، وكانت أرمى الناس بالنبل، وكان قد جعل لها قوس وكنانة. قال شرحبيل بن حسنة: رأيت يوم حصار دمشق رجلاً على باب توما يحمل الصليب وهو أمام توما، وهو يشير إليه "اللهم انصر هذا الصليب ومن لاذ به، اللهم أظهر له نصرته وأعل درجته" وأنا أنظر إليه إذ رمته زوجة أبان بنبلة فلم تخطئ رميتها، وإذا بالصليب قد سقط من يده وهوى إلينا وكأني أنظر لمعان الجوهر من جوانبه فما فينا إلا من بادر إليه ليأخذه وقد استتر بالدرق وتزاحم بعضنا على بعض كل منا يسبق إليه ليأخذه، ونظر عدو الله توما إلى ذلك من تنكس الصليب الأعظم وإهوائه إلى المسلمين، فعند ذلك كفر وعظم عليه الأمر، وقال: يبلغ الملك أن الصليب الأعظم أخذ مني وملكته العرب، لا كان ذلك أبداً ثم إنه حزم وسطه وأخذ سيفه، وقال: من

شاء منكم فليتبعني ومن شاء فليقعد فلابد لي من القوم عسى أن أشفي صدري، ثم انحدر مسرعاً وأمر بفتح الباب، وكان هو أول مبادر. فلما نظرت الروم إلى ذلك لم يكن فيهم إلا من انحدر في أثره لما يعلمون من شجاعته وخرجوا كالجراد المنتشر.

هذا والمسلمون محيطون بالصليب، فلما خرج الروم ووقع صياحهم حذر الناس بعضهم بعضاً، فلما نظر المسلمون إلى الروم سلموا الصليب إلى شرحبيل بن حسنة وانفردوا لأعدائهم وحملوا في أعراضهم وأخذهم النشاب والحجارة ومن كل مكان من أعلى الباب، فصاح شرحبيل بن حسنة: معاشر المسلمين تقهقروا إلى ورائكم لتأمنوا النشاب من أعداء الله العالين على الباب. قال: فتقهقر الناس إلى ورائهم إلى أن أمنوا من ضرب النشاب فاتبعهم عدو الله توما، وهو يضرب يميناً وشمالاً وحوله أبطال المشركين من قومه، وهو يهدر كالجمل فلما نظر شرحبيل بن حسنة ذلك صرخ بقومه، وقال: معاشر الناس كونوا آيسين من آجالكم طالبين جنة ربكم وأرضوا خالقكم بفعلكم. فإنه لا يرضى منكم بالفرار ولا أن تولوا الأدبار فاحملوا عليهم واقربوا إليهم بارك الله فيكم.

فحمل الناس حملة منكرة واختلط بعضهم ببعض وعملت بينهم السيوف وتراموا بالنبل، وتسامع أهل دمشق أن توما خرج إلى العرب من بابه وأن صليبه الأعظم سقط إليهم من كف حامله فجعلوا يهرعون إلى أن تزايد أمرهم وجعل عدو الله ينظر يميناً وشمالاً وينظر الصليب فحانت منه التفاتة فنظر فرآه مع شرحبيل بن حسنة، فلما نظر إليه لم يكن له صبر دون أن حمل وصاح: هات الصليب لا أم لك، فقد لحقتك بوائقه.

ونظر شرحبيل بن حسنة إلى عدو الله، وهو مقبل فرمى الصليب من يده وصادمه. فلما رأى عدو الله الصليب مرمياً على الأرض صرخ بأصحابه صرخة هائلة ونظرت زوجة أبان بن سعيد إلى حملة عدو الله على شرحبيل. فقالت: من هذا؟ قيل: هو صهر الملك، وهو قاتل بعلك أبان، فلما سمعت ذلك منهم حملت حملة منكرة إلى أن قاربته ورمته بنبلة، وكان الروم أرهبوها فلم تلتفت إليهم دون أن حققت نبلتها على صاحبها، وقالت: بسم الله وبركة رسول الله ﷺ ثم أطلقتها، وكان عدو الله واصلاً إلى شرحبيل إذ جاءته النبلة فأصابت عينه اليمنى فسكنت النبلة فيها فتقهقر إلى ورائه صارخاً وهمت بأن ترميه بأخرى فتبادرت إليها الرجال واستتروا بالطوارق وتبادر إليها قوم من المسلمين يحامون عنها، فلما أمنت من شر الأعداء أخذت ترمي بالنبل. ثم إنها رمت علجاً من الروم فأصابت صدره فسقط هاوياً إلى الأرض، وكان عدو الله توما أول من تقهقر ذلك اليوم هارباً من شدة حرارة النبلة

و صرخ صرخة عظيمة إلى أن دخل الباب ونظر شرحبيل إلى ذلك فصرخ بأ صحابه: يا ويلكم دونكم وكلب الروم احملوا على الكلاب عسى أن تدركوا عدو الله.

فحمل الناس على الروم إلى أن أو صلوهم إلى الباب فحماهم قومهم من أعلى الباب بالحجارة والنشاب. قال فتراجع الناس إلى مواضعهم، وقد قتلوا من الروم مقتلة عظيمة وأخذوا أسلابهم وأموالهم و صليبهم. و دخل عدو الله توما إلى المدينة وأغلقوا الأبواب وجاء الحكماء يعالجون في قلع النبلة من عينه فلم تطلع فجذبوها فلم تنجذب، وهو يضج بالصراخ فلما طال على القوم ذلك ولم يجدوا حيلة في إخراجها نشروها وبقي النصل في عينه ولم تزل في مكانها و سألوه المسير إلى منزله فأبى وجلس داخل الباب إلى أن سكن ما به وخف عنه الألم، فقالوا له: عد إلى منزلك بقية ليلتك، فقد نكبنا في يومنا هذا نكبتين نكبة الصليب ونكبة عينك كل هذا مما و صل إلينا من النبال، وقد علمنا أن القوم لا يصطل لهم بنار، وقد سألناك أن نصالح القوم على ما طلبوه منا! فغضب توما من قولهم، وقال: يا ويلكم يؤخذ الصليب الأعظم وأ صاب بعيني وأغفل عن هذا ويبلغ الملك عني ذلك فينسبني للوهن والعجز ولابد من طلبهم على كل حال وآخذ صليبي وآخذ في عيني ألف عين منهم وسأوقع حيلة أ صل بها إلى كبيرهم وآخذ جميع ما غنموه وبعد ذلك أسير إلى صاحبهم الذي هو في الحجاز وأقطع آثاره وأخرب دياره وأهدم مساكنه، وأجعل بلده مسكناً للوحوش. ثم إن الملعون سار إلى أعلى السور، وهو معصوب العين و صار يحرض الناس لكي يزيل عن قلوبهم الرعب وأقبل يقول لهم: لا تفزعوا ولا تجزعوا مما ظهر لكم من العرب ولابد للصليب أن يرميهم وأنا الضامن لكم. فثبت القوم من قوله وحاربوا حرباً شديدة!

وبعث شرحبيل بن حسنة إلى خالد بن الوليد يخبره بما صنع مع القوم. فقال الرسول: إن عدو الله توما قد ظهر لنا منه ما لم يكن في الحساب ونطلب منك رجالاً لأن الحرب عندنا أكثر من كل باب، فلما سمع خالد ذلك الخبر حمد الله، وقال: كيف أخذتم الصليب من الروم. فقال الرسول: كان يحمل صليب الروم رجل وهو أمام توما صهر الملك فرمته زوجة أبان بنبلة فوقع الصليب إلينا وخرج عدو الله فرمته زوجة أبان بنبلة فا شتبكت في عين توما اليمنى. فقال خالد: إن توما عند الملك معظم وهو الذي يمنعهم عن الصلح ونرجو من الله أن يكفينا شره. ثم قال للرسول: عد إلى شرحبيل وقل له كن حافظاً ما أمرتك به فكل فرقة مشغولة عنك ولم تؤت من قبلهم وأنا بالقرب منك، وهذا ضرار بن الأزور يطوف حول المدينة وكل وقت عندك. فرجع الرسول فأخبره بذلك فصبر وقاتل بقية يومه وو صل الخبر إلى أبي عبيدة بما نزل بشرحبيل بن حسنة من توما وبما غنم من صليبه فسر بذلك.

ولما أصبح الصباح بعث توما إلى أكابر دمشق وأبطالهم. فلما حضروا بين يديه قال لهم: يا أهل دين النصرانية إنه قد طاف عليكم قوم لا أمان لهم ولا عهد لهم وقد أتوا يسكنون بلادكم فكيف صبركم على ذلك وعلى هتك الحريم وسبي الأولاد وتكون نساؤكم جواري لهم وأولادكم عبيداً لهم وما وقع الصليب إلا غضباً عليكم مما أضمرتم لهذا الدين من مصالحة المسلمين وإذلالكم للصليب وأنا قد خرجت ولولا أنّي أصبت بعيني لما عدت حتى أفرغ منهم ولابد من أخذ ثأري وأن أقلع ألف عين من العرب ثم لابد أن أصل إلى الصليب وأطالبهم به عن قريب. فلما سمعوا كلامه قالوا له: ها نحن بين يديك وقد رضينا بما رضيت لنفسك، فإن أمرتنا بالخروج خرجنا معك وإن أمرتنا بالقتال قاتلنا! فقال توما: اعلموا أن من خاض الحروب لم يخف من شيء! وإني قد عزمت على أن أهجم هذه الليلة وأكبسهم في أماكنهم فإن الليل مهيب وأنتم أخبر بالبلد من غيركم فلا يبقى الليلة منكم أحد حتى يتأهب للحرب ويخرج من الباب وأرجو أن لا أعود حتى تنقضي الأشغال فإذا فرغت من القوم أخذت أميرهم أسيراً وأحمله إلى الملك يأمر فيه بأمره، فقالوا: حباً وكرامة فعند ذلك فرق القوم على الباب الشرقي فرقة وعلى باب الجابية فرقة وعلى كل باب جماعة، وقال لهم: لا تجزعوا، فإن أمير القوم متباعد عنكم وليس هناك إلا الأراذل والموالي فاطحنوهم طحن الحصيد.

ودعا بفرقة أخرى إلى باب الفراديس إلى عمرو بن العاص وخرج توما من بابه وأخذ معه أبطال القوم ولم يترك بطلاً يعرف بالشجاعة إلا أخذه معه ورتب على الباب ناقوساً، وقال لهم: إذا سمعتم الناقوس فهي العلامة التي بيننا فافتحوا الأبواب واخرجوا مسرعين إلى أعدائكم ولا تجدوا رجالاً نياماً إلا وتضعون السيف فيهم. فإن فعلتم ذلك فرقتم جمعهم في هذه الليلة وانكسروا كسرة لا يجبرون بعدها أبداً. ففرح القوم بذلك وخرجوا إلى حيث أمرهم وقعدت كل فرقة على بابها وأقاموا ينتظرون صوت الناقوس ليبادروا إلى المسلمين، ودعا توما برجل من الروم، وقال له: خذ ناقوساً واعل به على الباب فإذا رأيتنا قد فتحنا الباب فاضرب الناقوس ضربة خفيفة يسمعها قومنا، وقد سار توما بقطعة من جيشه عليهم الدروع وبأيديهم السيوف وتوما في أوائلهم وبيده صفيحة هندية وألقى على رأسه بيضة كسروية كان هرقل قد أهداها له، وكانت لا تعمل فيها السيوف القواطع حتى وصل إلى الباب، ثم وقف حتى تكامل القوم، فلما نظر إليهم قال: يا قوم إذا فتحنا لكم الباب فأسرعوا إلى عدوكم وجدوا في سعيكم إلى أن تصلوا إلى القوم، فإذا وصلتم إليهم فاحملوا ومكنوا السيوف فيهم ومن صاح منهم بالأمان فلا تبقوا عليه إلا أن يكون أمير القوم ومن أبصر منكم الصليب فليأخذه! فقالوا: حباً وكرامة.

القتـــال من فـوق الأســـوار

ثم أمر رجلاً من أصحابه أن يسير إلى الذي بيده الناقوس ويأمره أن يضربه ضربة خفيفة ثم فتح الباب وتبادر الرجال إلى أصحاب رسول الله ﷺ وهم في غفلة مما دبر القوم لهم إلا أنهم في يقظة، فلما سمعوا الصوت أيقظ بعضهم بعضاً وتواثبت الرجال من أماكنهم كالأسود الضارية فلم يصل إليهم العدو إلا وهم على حذر وحملوا عليهم وهم في غير ترتيب فتقاتل القوم في جنح الظلام وعمل السيف وسمع خالد بن الوليد فقام ذاهل العقل مما سمع من الزعقات فصاح: واغوثاه واإسلاماه! كيد قومي ورب الكعبة، اللهم انظر لهم بعينك التي لا تنام وانصرهم يا أرحم الراحمين. وسار خالد ومن معه وهم أربعمائة فارس من أصحابه، وهو بغير درع قد لبس ثوب كتان من عمل الشام مكشوف الرأس. ثم جد في السير والفرسان معه كأنهم الليوث العوابس إلى أن وصلوا إلى الباب الشرقي وإذا بالفرقة التي هناك قد هاجمت أصحاب رافع بن عميرة الطائي. وأصوات المسلمين عالية بالتهليل والتكبير، والقوم من أعلى الأسوار قد أشرفوا وتصايحوا عندما استيقظ لهم المسلمون فحمل خالد بن الوليد على الروم ونادى برافع صوته أبشروا يا معشر المسلمين أتاكم الغوث من رب العالمين، أنا الفارس الصنديد، أنا خالد بن الوليد. وحمل في أوساط الناس بمن معه فجندل أبطالاً وقتل رجالاً، وهو مع ذلك مشتغل القلب على أبي عبيدة والمسلمين الذين على الأبواب وهو يسمع أصواتهم وزعقاتهم، قال وتصايح الروم والنصارى واليهود.

قال سنان بن عوف: قلت لابن عمي قيس: هل كانت اليهود تقاتلكم؟ قال: نعم يقاتلوننا من أعلى الأسوار ويرمون بالسهام وخشي خالد على شرحبيل بن حسنة مما وصل إليه من عدو الله توما لأنه ملازم الباب. ولقي شرحبيل بن حسنة من عدو الله توما أمراً عظيماً لم يلق أحد مثله وذلك أنه هجم عليه في تلك الليلة، وكان هو أول من وصل إلى المسلمين. فصبروا له صبر الكرام وقاتل عدو الله قتالاً شديداً وهو ينادي: أين أميركم الذميم الذي أصابني؟! أنا ركن الملك الرحيم، أنا ناصر الصليب. فلما سمع شرحبيل صوته قصد جهته، وقد جرح رجالاً من المسلمين، وقال: ها أنا صاحبك وغريمك، أنا مبيد جمعكم وآخذ صليبكم، أنا كاتب وحي رسول الله ﷺ! فعطف عليه توما عطفة الأسد ورأى من شرحبيل بن حسنة أمراً هائلاً ولم يزالوا كذلك إلى أن زال من الليل شطره وكل قرن مع قرنه وكانت زوجة أبان مع شرحبيل وكانت في تلك الليلة أحسن الناس صبراً ورمت بنبالها، وكانت لا تقع نبلة من نبالها إلا في رجل من المشركين إلى أن قتلت من الروم مقتلة عظيمة بالنبال والروم يتحايدون

عنها إلى أن لاح رجل من الروم فرمته بنبلة فبقيت معلقة في نحره. فصرخ بالروم فهاجموها وأخذوها أسيرة ومات عدو الله الذي رمته. ولقي شرحبيل من الروم ما لا يلقاه أحد وإنه ضرب توما ضربة هائلة فتلقاها الملعون بدرقته فانكسر سيف شرحبيل فطمع عدو الله فيه وحمل عليه وظن أنه يأخذه أسيراً وإذا بفارسين قد أشرفا من ورائهما مع كبكبة من الفرسان فهجموا على الروم ونظروا وإذا بزوجة أبان قد خلصت وهجمت على الروم وهتفت فلحقها فارسان فبرز لهما عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﷺ، وأبان بن عثمان بن عفان ﷺ فقتلا الرجلين ورجع عدو الله توما هارباً إلى المدينة.

.... حدثني تميم بن عدي، وكان ممن شهد الفتوحات قال: كنت في خيمة أبي عبيدة وذلك أن أبا عبيدة كان يصلي فيها إذ سمع الصياح. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم لبس سلاحه ورتب قومه ودنا من القوم فنظر إليهم وهم في المعمعة والحرب وعدل عنهم ميسرة وميمنة إلى أن جاوزهم وعطف نحو الباب وكبر وكبر المسلمون، فلما سمع المشركون تكبيرهم ظنوا أن المسلمين قد دهموهم من ورائهم في جمع كثير فولوا راجعين فتلقاهم أبو عبيدة وقومه وأخذوا عليهم المجاز وبذل أبو عبيدة السيف فيهم.

قال الواقدي: ولقد بلغني أنه ما سلم من الروم تلك الليلة أحد من الذين هم غرماء أبي عبيدة ولقد قتلوا عن آخرهم فبينما هم في القتال إذ أشرف عليهم ضرار بن الأزور، وهو ملطخ بالدماء. فقال له خالد: ما وراءك يا ضرار؟ فقال: أبشر أيها الأمير ما جئتك حتى قتلت في ليلتي هذه مائة وخمسين رجلاً وقتل قومي ما لا يعد ولا يحصى، وقد كفيتكم مؤنة من خرج من الباب الصغير إلى يزيد بن أبي سفيان، ثم عطفت إلى سائر الأبواب فقتلت خلقاً كثيراً! فسرَّ بذلك خالد بن الوليد، ثم ساروا جميعاً حتى أتوا شرحبيل بن حسنة وشكروا فعله وكانت ليلة مقمرة ولم يلق مثلها الناس فقتلوا في تلك الليلة ألوفاً من الروم.

فاجتمع كبار أهل دمشق إلى توما وقالوا له: أيها السيد إنا قد نصحناك فلم تسمع لقولنا وقد قتل منا أكثر الناس وهذا أمير لا يطاق، -يعني خالداً بن الوليد- فصالح فهو أصلح لك ولنا وإن لم تصالح صالحنا وأنت وشأنك. فقال: يا قوم أمهلوني حتى أكتب إلى الملك وأعلمه بما نزل بنا، فكتب من وقته وساعته كتاباً يقول فيه: إلى الملك الرحيم من صهرك توما، أما بعد فإن العرب محدقون بنا كإحداق البياض بسواد العين، وقد قتلوا أهل أجنادين ورجعوا إلينا وقد قتلوا منا مقتلة عظيمة، وقد خرجت إليهم وأصيبت عيني، وقد عزمت على الصلح ودفع الجزية للعرب فإما

أن تسير بنفسك، وإما أن ترسل لنا عسكراً تنجدنا بهم، وإما أن تأمرنا بالصلح مع القوم، فقد تزايد الأمر علينا ثم طوى الكتاب وختمه وبعث به قبل الصباح...

فلما أصبح الصباح باكرهم المسلمون بالقتال... وبعث خالد لكل أمير أن يزحف من مكانه فركب أبو عبيدة ووقع القتال واشتد الأمر على أهل دمشق فبعثوا لخالد أن أمهلنا فأبى إلا القتال ولم يزل كذلك إلى أن ضاق بهم الحصار وهم ينتظرون أمر الملك واجتمع أهل البلد وقالوا لبعضهم: ما لنا صبر على ما نحن فيه من الأمر وإن هؤلاء إن قاتلناهم نصروا علينا وإن تركناهم أضرَّ بنا الحصار فاطلبوا من القوم صلحاً على ما طلبوه منكم.

فقال لهم شيخ كبير من الروم وقد قرأ الكتب السالفة: يا قوم والله إني أعلم أنه لو أتى الملك في جيشه جميعاً لما منعوا عنكم هؤلاء لما قرأت في الكتاب إن صاحبهم محمداً خاتم المرسلين سيظهر دينه على كل دين فأطيعوا القوم وأعطوهم ما طلبوا منكم فهو أوفق لكم، فلما سمع القوم مقالات الشيخ ركنوا إليه لما يعلمون من علمه ومعرفته بالأخبار والملاحم. فقالوا: كيف الرأي عندك؟ فنحن نعلم أن هذا الأمير الذي على باب شرقي رجل سفاك للدماء. فقال لهم: إن أردتم تقارب الأمر فامضوا إلى الذي على باب الجابية، وليتكلم رجل يعرف بالعربية، ويقول بصوت رفيع، يا معاشر العرب الأمان حتى ننزل إليكم ونتكلم مع صاحبكم.

قال أبو هريرة ﷺ: وكان أبوعبيدة قد أنفذ رجالاً من المسلمين مكثوا بالقرب من الباب مخافة الكبسة مثل الليلة التي خلت، وكانت النوبة تلك الليلة لبني دوس والأمير عليها عامر بن الطفيل الدوسي. فبينما نحن جلوس في مواضعنا من الباب إذ سمعنا أصوات القوم وهم ينادون، فلما سمعت بادرت إلى أبي عبيدة وبشرته بذلك فاستبشر وقال: امض وكلم القوم وقل لهم لكم الأمان، قال فأتيت القوم وبشرتهم بالأمان فقالوا: من أنت؟ فقلت: أنا أبو هريرة صاحب رسول الله ﷺ ولو أن عبيداً أعطوكم الأمان والذمام ونحن في الجاهلية لما غدرنا فكيف وقد هدانا الله إلى دين الإسلام؟! فنزل القوم وفتحوا الباب وإذ هم مائة رجل من كبرائهم وعلمائهم فلما قربوا من عسكر أبي عبيدة تبادر إليهم المسلمون وأزالوا عنهم الصلبان إلى أن وصلوا خيمة أبي عبيدة فرحب بهم وأجلسهم وقال: إن نبينا محمداً ﷺ قال: "إذا أتاكم عزيز قوم فأكرموه" وتكلموا في أمر الصلح وقالوا: إنا نريد منكم أن تتركوا كنائسنا ولا تنقضوا علينا منها كنيسة، فقال لهم أبو عبيدة: جميع الكنائس لا يؤمر بهدمها. وكان في دمشق كنائس واحدة تسمى كنيسة مريم وكنيسة حنا وكنيسة سوق الليل وكنيسة إنذار، وهي عند دار عبد الرحمن ذرة فكتب لهم أبو عبيدة كتاب الصلح والأمان ولم

يسم فيه اسمه ولا أثبت شهوداً وذلك لأنه لم يكن أمير المؤمنين، فلما كتب لهم الكتاب تسلموه منه وقالوا له: قم معنا إلى البلد. فقام أبو عبيدة وركب معه أبو هريرة ومعاذ بن جبل ونعيم بن عمرو و.... وجملتهم خمسة وثلاثون صحابياً من أعيان الصحابة ﷺ، وخمسة وستون من أخلاط الناس فلما ركبوا وتقدموا نحو الباب قال أبو عبيدة: أريد منكم رهائن حتى ندخل معكم فأتوه برهائن، وقيل إن أبا عبيدة رأى في منامه أن رسول الله ﷺ يقول له: تفتح المدينة إن شاء الله تعالى في هذه الليلة، فقلت: يا رسول الله أراك على عجل قال: "لأحضر جنازة أبي بكر الصديق". فاستيقظت من المنام.

قال الواقدي: وقد بلغني أن أبا عبيدة لما دخل دمشق بأصحابه سارت القسس والرهبان بين يديه على مسرح الشعر وقد رفعوا الإنجيل والمباخر بالند والعود، ودخل أبو عبيدة من باب الجابية ولم يعلم خالد بن الوليد بذلك لأنه شد عليهم بالقتال. وكان هناك قسيس من قسس الروم اسمه يونس بن مرقص وكانت داره ملاصقة للسور مما يلي باب شرقي الذي عنده خالد وكان عنده ملاحم دانيال عليه السلام وكان فيها: إن الله تعالى يفتح البلاد على يد الصحابة ويعلو دينهم على كل دين، فلما كانت تلك الليلة نقب يونس من داره وحفر موضعاً وخرج على حين غفلة من أهله وأولاده وقصد خالداً وحدثه أنه خرج من داره وحفر موضعاً والآن أريد أماناً لي ولأهلي ولأولادي! فأخذ خالد عهده على ذلك وأنفذ معه مائة رجل من المسلمين أكثرهم من حمير، وقال لهم: إذا وصلتم المدينة فارفعوا أصواتكم بأجمعكم واقصدوا الباب واكسروا الأقفال وأزيلوا السلاسل حتى ندخل إن شاء الله تعالى. ففعل القوم ما أمرهم به خالد رضي الله عنه وساروا ومضى أمامهم يونس بن مرقص حتى دخل بهم من حيث خرج. فلما حطوا في داره تدرعوا واحترسوا ثم خرجوا وقصدوا الباب وأعلنوا بالتكبير. فلما سمع المشركون التكبير ذهلوا وعلموا أن أصحاب رسول الله ﷺ حطوا معهم في المدينة، وأن أصحاب رسول الله ﷺ قصدوا الباب وكسروا الأقفال وقطعوا السلاسل، ودخل خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين ووضعوا السيف في الروم وهم مختلفون بين يديه إلى أن وصل إلى كنيسة مريم وخالد بن الوليد يأسر ويقتل.

قال الواقدي: والتقى الجمعان عند الكنيسة جيش خالد وجيش أبي عبيدة وأصحابه سائرون والرهبان سائرون بين أيديهم وما أحد من أصحاب أبي عبيدة جرد سيفه، فلما نظر خالد إليهم ورأى أن لا أحد منهم جرد سيفه بهت وجعل ينظر إليهم متعجباً. فنظر إليه أبو عبيدة وعرف في وجهه الإنكار. فقال: أبا سليمان! قد فتح الله على يدي المدينة صلحاً وكفى الله المؤمنين القتال.

قال الواقدي: ما خاطب أبو عبيدة خالداً يوم فتح دمشق إلا بالإمارة فقال: أيها الأمير قد تم الصلح. فقال خالد: وما الصلح؟ لا أصلح الله بالهم وأنى لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف، وقد خضبت سيوف المسلمين من دمائهم وأخذت الأولاد عبيداً وقد نهبت الأموال. فقال أبو عبيدة: أيها الأمير اعلم أني ما دخلتها إلا بالصلح. فقال له خالد بن الوليد: أنا ما دخلتها إلا بالسيف عنوة وما بقي لهم حماية فكيف صالحتهم؟! قال أبو عبيدة: اتق الله أيها الأمير، والله لقد صالحت القوم ونفذ السهم بما هو فيه وكتبت لهم الكتاب وهو مع القوم. فقال خالد: وكيف صالحتهم من غير أمري وأنا صاحب رايتك والأمير عليك ولا أرفع السيف عنهم حتى أفنيهم عن آخرهم. فقال أبو عبيدة: والله ما ظننت أنك تخالفني إذا عقدت عقداً ورأيت رأياً فالله الله في أمري، فوالله لقد حقنت دماء القوم عن آخرهم وأعطيتهم الأمان من الله ﷻ وأمان رسول الله ﷺ وقد رضي من معي من المسلمين، والغدر ليس من شيمنا. وارتفع الصياح بينهما وقد شخص الناس إليهما وخالد مع ذلك لا يرجع عن مراده، ونظر أبو عبيدة إلى ذلك فرأى أصحاب رسول الله ﷺ مع خالد وهم جيش البوادي من العرب مشتبكون على قتال الروم ونهب أموالهم.

فنادى أبو عبيدة: واثكلاه خفرت والله ونقض عهدي!! وجعل يحرّك جواده ويشير إلى العرب مرة يميناً ومرة شمالاً وينادي: معاشر المسلمين أقسمت عليكم برسول الله ﷺ أن لا تمد أيديكم نحو الطريق الذي جئت منه حتى نرى ما نتفق أنا وخالد عليه، فلما دعاهم بذلك سكتوا عن القتل والنهب واجتمع إليهما فرسان المسلمين والأمراء وأصحاب الرايات مثل معاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وربيعة بن عامر وعبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ أجمعين ونظرائهم، والتقوا عند الكنائس واجتمع هناك الفرسان للمشورة والمناظرة.

فقالت طائفة من المسلمين منهم معاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان: الرأي أن تمشوا إلى ما أمضاه أبو عبيدة بن الجراح وتكفوا عن القتال للقوم. فإن مدن الشام لم تفتح بعد، وهرقل في أنطاكية كما تعلمون، وإن علم أهل المدن أنكم صالحتم وغدرتم لم تفتح لكم مدينة صلحاً ولأن تجعلوا هؤلاء الروم في صلحكم خير من قتلهم، ثم قالوا لخالد: أمسك عليك ما فتحت بالسيف ويعينك أبو عبيدة بجانبه واكتبا إلى الخليفة وتحاكما إليه، فكل ما أمر به فعلناه، فقال لهم خالد بن الوليد: قد أجبت إلى ذلك وقبلت مشورتكم، فأما أهل دمشق فقد أمنتهم إلا هذين اللعينين توما وهربيس، وكان هربيس هو المؤمر على نصف البلدة ولاه توما حين خرج الأمر إليه. فقال أبو عبيدة: إن هذين أول من دخل في صلحي فلا تخفر ذمتي رحمك الله تعالى.

فقال خالد: والله لولا ذمامك لقتلتهما جميعاً، ولكن يخرجان من المدينة فلعنهما الله حيث سارا. قال أبو عبيدة: وعلى هذا صالحتهما.

ونظر توما وهربيس إلى خالد وهو يتنازع مع أبي عبيدة فخافا الهلاك فأقبلا على أبي عبيدة ومعهما من يترجم عنهما وقالا له: ما يقول هذا -يعني خالداً-؟ قال الترجمان لأبي عبيدة: ما تقول أنت و صاحبك فيه من المشاورة؟ إن صاحبك هذا يريد غدرنا فنحن وأهل المدينة دخلنا في عهدكم ونقض العهد ما هو من شيمكم، وإني أسألكم أن تدعوني أن أخرج أنا وأصحابي وأسلك أي طريق أردت. فقال: أنت في ذمتنا فاسلك أي طريق شئت، فإذا صرت في أرض تملكونها فقد خرجت من ذمتنا أنت ومن معك. فقال توما وهربيس: نحن في ذمتكم وجواركم ثلاثة أيام أي طريق سلكنا، فإذا كان بعد ثلاثة أيام فلا ذمة لنا عندكم، فمن لقينا منكم بعد ثلاثة أيام وظفر بنا فنحن لهم عبيد إن شاء أسرنا وإن شاء قتلنا. فقال خالد: قد أجبناك إلى ذلك، لكن لا تحملوا معكم من هذا البلد إلا الزاد الذي تتقوتون به.

قال أبو عبيدة لخالد: هذا كلام داع لنقض العهد والصلح إنما وقع بيننا أنهم يخرجون برجالهم وأموالهم. فقال خالد: سمحت لهم بذلك إلا الحلقة يعني السلاح فإني لا أطلق لهم شيئاً من ذلك. فقال توما: لابد لنا من السلاح نمنع به عن أنفسنا في طريقنا إن طرقنا طارق حتى نصل إلى بلدنا، وإلا فنحن بين أيديكم فاحكموا فينا بما أردتم. فقال أبو عبيدة: أطلق لكل واحد قطعة من السلاح إن أخذ سيفاً فلا يأخذ رمحاً، وإن أخذ رمحاً فلا يأخذ سيفاً، وإن أخذ قوساً فلا يأخذ سكيناً. فقال توما لما سمع منهم ذلك الكلام: قد رضينا بذلك وما يريد كل واحد منا إلا قطعة من السلاح لا غير!

ثم قال توما لأبي عبيدة: إني خائف من هذا الرجل -أعني خالداً بن الوليد- فليكتب لي بذلك قال أبو عبيدة: ثكلتك أمك إنا معاشر العرب لا نغدر ولا نكذب وإن الأمير أبا سليمان قوله قول وعهده عهد ولا يقول إلا الصدق. قال فانطلق توما وهربيس يجمعان قومهما ويأمرانهم بالخروج. قال وكان الملك له خزانة ديباج في دمشق فيها زهاء من ثلاثمائة حمل ديباج وحلل مذهبة فعزم على إخراجها وأمر توما فضربت له خيمة من القزّ ظاهر دمشق، وأقبلت الروم تخرج الأمتعة والأموال والأحمال حتى أخرجوا شيئاً عظيماً! فنظر خالد بن الوليد إلى كثرة أحمالهم. فقال: ما أعظم رحالهم، ثم قرأ قوله تعالى: "وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ"، ثم نظر خالد إلى القوم كأنهم حمر مستنفرة ولم يلتفت أحد إلى أخيه من شدة عجلتهم، فلما نظر خالد إلى ذلك رفع يديه إلى

السماء، وقال: "اللهم اجعله لنا وملكنا إياه واجعل هذه الأمتعة قوتاً للمسلمين" آمين إنك سميع الدعاء، ثم أقبل على أصحابه وقال لهم: إني رأيت أنا رأياً فهل أنتم تتبعوني عليه. فقالوا: نتبعك ولا نخالف لك أمراً، فقال خالد: قوموا بخيلكم حق القيام وأحسنوا إليها ما استطعتم وأنجزوا سلاحكم فإني أسير بكم بعد ثلاثة أيام في طلب هؤلاء القوم وأرجو من الله أن يغنمنا هذه الغنيمة والأموال التي رأيتموها. وإن نفسي تحدثني أن القوم ما تركوا في دمشق متاعاً ولا ثوباً حسناً إلا وقد أخذوه معهم.

فقالوا: افعل ما تريد فما نخالف لك أمراً، ثم أخذوا في إصلاح شأنهم، وتوما وهربيس قد جمعوا مال الرساتيق وجميع المال، فلما جمعوه جاءوا به إلى أبي عبيدة. فقال لهم: وفيتم بما عليكم فسيروا حيث شئتم فلكم الأمان منا ثلاثة أيام. قال يزيد بن ظريف: فلما سلموا المال لأبي عبيدة ارتحلوا سائرين كأنهم سواد مظلم، وكان قد خرج من القوم خلق كثير من أهل دمشق بأولادهم وكرهوا أن يكونوا في جوار المسلمين. واشتغل خالد عن اتباعهم بخلاف وقع بينهم وبين أهل دمشق في حنطة وشعير وجدوا في المدينة منه شيئاً كثيراً. فقال أبو عبيدة: هو للقوم دخل في صلحهم فكادت الفتنة أن تثور بين أصحاب خالد وبين أصحاب أبي عبيدة، واتفق رأيهم أن يكتبوا كتاباً إلى أبي بكر الصديق ﷺ في ذلك وليس عندهم خبر أنه مات يوم دخولهم دمشق.

قال عطية بن عامر: كنت واقفاً على باب دمشق في اليوم الذي سارت فيه الروم مع توما وهربيس ومعهم ابنة الملك هرقل. قال فنظرت إلى ضرار بن الأزور وهو ينظر إلى القوم شزراً ويتحسر على ما فاته منهم، فقلت له: يا ابن الأزور ما لي أراك كالمتحسر أما عند الله أكثر من ذلك؟ فقال: والله ما أعني مالاً وإنما أنا متأسف على بقائهم وانفلاتهم منا، ولقد أساء أبو عبيدة فيما فعل بالمسلمين! فقلت: يا ابن الأزور ما أراد أمين الأمة إلا خيراً للمسلمين أن يحقن دمائهم وأزواجهم من تعب القتال فإن حرمة رجل واحد خير مما طلعت عليه الشمس، وإن الله ﷻ أسكن الرحمة في قلوب المؤمنين وإن الرب يقول في بعض الكتب المنزلة إنَّ الرَّب لا يرحم من لا يرحم. وقال تعالى: "وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ". فقال ضرار: لعمري إنك لصادق! ولكن اشهدوا علي أنِّي لا أرحم من يجعل له زوجة وولداً.

.... عن واثلة بن الأسقع قال: كنت مع خالد بن الوليد في جيش دمشق، وكان قد جعلني مع ضرار بن الأزور في الخيل التي تجوب من باب شرقي إلى باب توما إلى باب السلامة إلى باب الجابية إلى باب الصغير إلى باب قيان إذ سمعنا صرير الباب وذلك قبل فتوح الشام وإذا به قد خرج منه فارس فتركناه حتى قرب منا فأخذناه

قبضاً بالكف وقلنا: إن تكلمت قتلناك فسكت وإذا قد خرج فارس آخر قام على الباب وجعل ينادي بالذي قد أخذناه، فقلنا له: كلمه حتى يأتي. فرطن له بالرومية إن الطير في الشبكة فعلم أنه قد أسر فرجع وأغلق الباب. فأردنا قتله، فقال بعضنا: لا تقتلوه حتى نمضي به إلى خالد الأمير.

فأتينا به خالداً، فلما نظر إليه قال له: من أنت؟ قال له: أنا من الروم وإنّي تزوجت بجارية من قومي قبل نزولكم عليهم وكنت أحبها، فلما طال علينا حصاركم سألت أهلها أن يزفوها عليّ فأبوا ذلك، وقالوا إن بنا شغلاً عن زفافك وكنت أحب أن ألقاها ولنا في المدينة ملاعب نلعب فيها فوعدتها أن نخرج إلى الملاعب فخرجت وتحدثنا فسألتني أن أخرج بها إلى خارج المدينة ففتحنا الباب وخرجت أنظر أخباركم فأخذني أصحابك فنادتني. فقلت: إن الطير وقع في الشبكة أحذرها منكم مخافة عليها ولو كان غيرها لهان عليّ ذلك. فقال خالد: ما تقول في الإسلام؟ فقال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله! فكان يقاتل معنا قتالاً شديداً، فلما دخلنا المدينة صلحاً أقبل يطلب زوجته. فقيل له: إنها لبست ثياب الرهبانية فأقبل إليها وهي لا تعرفه. فقال لها: ما حملك على الرهبانية. قالت: حملني على ذلك أنّي غررت بزوجي حتى أخذته العرب وترهبت حزناً عليه. قال: أنا زوجك وقد دخلت في دين العرب. فلما سمعت ذلك قالت: وما تريد؟ قال: أن تكوني في الذّمة. فقالت: وحق المسيح لا كان ذلك أبداً وما لي إلى ذلك سبيل! وخرجت مع البطريق توما، فلما نظر إلى امتناعها أقبل إلى خالد بن الوليد فشكا له حاله.

فقال له خالد: إن أبا عبيدة فتح المدينة صلحاً ولا سبيل لك إليها! ولما علم أن خالداً يسير وراء القوم قال: أسير معه لعلي أقع بها. وأقام خالد بدمشق إلى اليوم الرابع، ثم أقبل إليه يونس الدمشقي زوج الجارية وقال: أيها الأمير قد عزمت على المسير في طلب هذين اللعينين توما وهربيس وأخذ ما معهما؟ قال: بلى. فقال له: وما الذي أقعدك عن ذلك؟ قال: بعد القوم وبيننا وبينهم أربعة أيام بلياليها وهم يسيرون سير الخوف ما يمكن اللحاق بهم. فقال يونس: إن كان تخلفك لبعد المسافة بيننا وبينهم فأنا أعرف الديار وأسلك طريقاً فنلحقهم إن شاء الله تعالى، ولكن البسوا زي لخم وجذام -وهم العرب المتنصرة- وخذوا الزاد وسيروا. فسار خالد وأخذ عساكر الزحف وهم أربعة آلاف فارس فأمرهم أن يسيروا ويخففوا حمل الزاد ففعلوا ذلك، وخالد ومن معه قد صاروا ويونس الدليل أمامهم وهو يتبع آثار القوم وقد أوصى خالد أبا عبيدة على المدينة والمسلمين. قال زيد بن طريف: وكان يونس دليلنا. فرأى آثار القوم وأنهم إذا سقط منهم حمل جمل تركوه، وسار خالد ومن معه كلما دخلوا بلد من بلاد

الروم يظنون أنهم من العرب المتنصرة من لخم وجذام حتى أشرف بهم الدليل على ساحل البحر ونوى أن يطلب الأثر وإذا بالقوم قد عدوا أنطاكية ولم يدخلوها خيفة الملك.

فوقع للدليل عند ذلك حيرة في أمره فعدل إلى قرية هناك، وسأل بعضاً من الناس فأخبروه أن الخبر قد اتصل إلى الملك بأن توما وهربيس قد سلما دمشق للعرب فنقم عليهما ولم يدعهما يأتيان إليه، وذلك أنه جمع الجيوش وأرسلها إلى اليرموك فخاف أن يتحدثوا بشجاعة العرب وأصحاب رسول الله ﷺ فتضعف قلوبهم فبعث إلى توما ومن معه أن يسيروا إلى القسطنطينية، فلما علم يونس أن القوم عدلوا وأخذوا في طلب التحيز فكر في ذلك وغاب عن المسلمين فوقف خالد وصلى بالناس وإذا بيونس قد أقبل وقال: أيها الأمير إنِّي والله قد غررت بكم وبلغت الغاية في الطلب. قال خالد: وكيف الأمر؟ قال: أيها الأمير بعثتني في آثارهم في هذا المكان رجاء أن ألحقهم، وأن الملك منعهم من الدخول إلى أنطاكية لئلا يرعبوا عسكره وأمرهم أن يطلبوا القسطنطينية، وقد قطع بينكم وبينهم هذا الجبل العظيم وأنتم في جبل هرقل وهو يجمع عسكره ويسير إلى حربكم وإني خائف عليكم إن تركتم هذا الجبل خلف ظهوركم هلكتم وبعد هذا فالأمر إليك وكل ما أمرتني به فعلت.

قال ضرار بن الأزور: فرأيت خالداً وقد امتقع لونه كالخضاب... وكان ذلك منه جزعاً وما عهدت به ذلك. فقلت: يا أمير على ماذا عوَّلت؟ فقال: يا ضرار والله ما فزعت من الموت ولا من القتل، وإنما خفت أن يؤتى المسلمون من قبلي وإني رأيت قبل فتح دمشق مناماً أفزعني وأنا منتظر تأويله وأرجو أن يجعل الله لنا خيراً وينصرنا على عدونا. فقال ضرار: خيراً رأيت وخيراً يكون إن شاء الله تعالى فما الذي رأيت؟ قال: رأيت المسلمين في برية قفرة ونحن سائرون فبينما نحن كذلك وإذا بقطيع من حمر الوحش كثيرة عظيمة أجسامها مهزولة أخفافها وهي لا تكدم برماحنا ونحن نضربها بأسيافنا وهي لا تكترث فيما نزل بها من الأذى ولا تهلع مما ينزل فلم نزل مثل ذلك حتى اجتهدنا واجتهدت خيولنا وأني أقبلت على أصحابي وفرقتهم عليها من أربعة جوانب البرية وحملت عليهم فجفلت من أيدينا إلى مضايق وتلال وأودية خصبة فلم نأخذ منها إلا اليسير فبينما نحن نطبخ ونشوي لحومها وإذا هي قد رجعت تطلب الحرب منا، فلما نظرت إليها وقد طرحت المضايق والآجام صحت بالمسلمين اركبوا في طلبها بارك الله فيكم فاستوى المسلمون على خيولهم وركبت معهم وطلبناها حتى وقعت بها وتصيدت منها بعيراً عظيماً فقتلته فجعل المسلمون يقتلون ويتصيدون فما بقي منها إلا اليسير فبينما أنا فرح وأنا أريد الرجوع بالمسلمين إلى وطنهم إذ عثرت فرسي

فطارت عمامتي من على رأسي فهويت لآخذها فانتبهت من منامي وأنا فزع مرعوب، فهل فيكم أحد يفسره؟ فإني أقول الرؤيا ما نحن فيه.

فصعب ذلك على القوم وجعل خالد يراود نفسه على الرجوع فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أما تفسير الوحوش فهؤلاء الأعاجم الذين نحن في طلبهم، وأما سقوطك عن فرسك فإنه أمر تنحط عليه من رفعة إلى خفضة، وأما سقوط العمامة عن رأسك فالعمائم تيجان العرب وهي معرة تلحقك. فقال خالد: أسأل الله العظيم إن كان ذلك تأويل ما رأيته أن يجعله من أمر الدنيا ولا يجعله من أمر الآخرة وبالله أستعين وعليه أتوكل في كل الأمور. ثم سار خالد والدليل أمامهم حتى قطعوا الجبل، فلما كانت الليلة التي أردنا أن نصبح فيها القوم أتى مطر كأفواه القرب وكان من توفيق الله عز وجل أن حبس القوم عن المسير. قال روح بن طريف رضي الله عنه: ولقد رأيتنا ونحن نسير والمطر ينزل علينا كأفواه القرب طول ليلتنا، فلما أصبح الصباح وطلعت الشمس قال يونس: أيها الأمير قف حتى أنظر القوم لأنهم لا شك بالقرب منا وقد سمعت صياحهم. فقال له خالد بن الوليد: أحقاً سمعت صياحهم يا يونس. قال: نعم أيها الأمير وأريد منك أن تأذن لي بالمسير إليهم وآتيك بخبرهم. قال فعند ذلك التفت خالد بن الوليد إلى رجل اسمه المفرط بن جعدة وقال له: يا مفرط سر مع يونس وكن له مؤنساً واحذر أن يأخذ خبركما القوم! فقال المفرط: السمع والطاعة لله ولك أيها الأمير، ثم انطلقا إلى أن صعدا على جبل يقال له الأبرش والروم تسميه جبل باردة. قال المفرط: فلما علونا عليه وجدنا مرجاً واسعاً كثير الجنبات كثير النبات وفيه خضرة عظيمة، وإن القوم قد أصابهم المطر حتى بل رحالهم وقد حميت عليهم الشمس فخافوا إتلافها فأخرجوها وأخرجوا الديباج ونشروها في طول المرج، وقد نام أكثرهم من شدة السير والتعب والمطر الذي أصابهم.

قال المفرط بن جعدة: فلما رأيت ذلك فرحت فرحاً شديداً ورجعت إلى خالد بن الوليد وتركت صاحبي يونس، فلما رآني خالد وحدي أسرع إلي وظن أن صاحبي كيد. فقال: ما وراءك يا ابن جعدة أخبرني وعجِّل بالخبر؟ فقلت: الخير والغنيمة يا أمير وإن القوم خلف هذا الجبل وقد أصابهم المطر وقد وجدوا الراحة بطلوع الشمس وقد نشروا أمتعتهم. فقال: بشرك الله بالخير! ثم ظهر لي من وجهه الخير والفرح والسرور.

فبينما نحن كذلك وإذا بيونس قد أقبل فقال له خالد: خيراً! فقال له: أبشر أيها الأمير فإن القوم أمنوا على أنفسهم، ولكن أوص أصحابك أن كل من وقع بزوجتي فليحفظها فما أريد من الغنيمة سواها. فقال له خالد: هي لك إن شاء الله تعالى، ثم

إن خالداً قسم أ صحابه أربع فرق فأمَّر ضرار بن الأزور على ألف فارس، وعلى الألف الثاني رافع بن عميرة الطائي، وعلى الألف الثالث عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وبقي هو في الفرقة الرابعة. وقال: سيروا على بركة الله تعالى وإياكم أن تخرجوا إليهم دفعة واحدة، بل يخرج كل أمير منكم بينه وبين صاحبه قدر ساعة، ثم افترق القوم وحمل ضرار بن الأزور والروم مطمئنون وحمل من بعده رافع بن عميرة الطائي، ثم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ثم خالد بن الوليد سار في آخر القوم حتى و صلوا المرج. قال عبيد بن سعيد: والله لقد كدنا أن نفتن من حسن منظره فزعق فينا خالد بن الوليد وقال: عليكم بأعداء الله ولا تشتغلوا بالغنائم ولا بالنظر إلى المرج فإنها لكم إن شاء الله تعالى.

ثم عطف خالد بن الوليد ﷺ على الروم، وقد نظرت الروم إلى الخيل وقد خرجت عليهم وخالد أمامهم، فعلموا أنها خيول المسلمين فبادروا إلى السلاح وركبوا الخيل وقال بعضهم لبعض: إنها خيلٍ قليلة ساقها المسيح إليكمٍ وجعلها غنيمة لكم فبادروا إليها. قال فتبادر الروم وهم يظنّون أن ليس وراء خالد أحداً، وإذا بضرار بن الأزور قد خرج عليهم في ألف فارس وطلع رافع بن عميرة الطائي بعده وطلع عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بعدهم وطلبت كل كتيبة فرقة من الروم وتفرقوا من حولهم وطلبوا ما في أيديهم وقد رفعوا أصواتهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله وانصبت خيل المسلمين على الروم كأنها السيل المنحدر ونادى "هربيسٍ" برجاله قاتلوا عن نعمكم فما لهؤلاء القوم حيلة ولا يخلصون من هذا المكان أبداً. فانقسمت الروم طائفة معه وطائفة مع "توما" فكانٍ من طلب خالداً "توما" وقد أحدق به خمسمائة فارس وقد رفع بين عينيه صليباً من الجوهر مقمعاً بالذهب الأحمر فعدل خالد وحمل عليه وقال: يا عدو الله أظننتم أنكم تفلتون منَّا والله تعالى يطوي لنا البلاد؟! وكان توما أعور عورته امرأة أبان! فحمل عليه وطعنه في عينه الأخرى ففقأها وأرداه عن جواده، وحمل أصحابه على رجال توما ولله در عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﷺ، فإنه لما نظر إلى توما وقد سقط عن جواده نزل وجلس على صدره واحتزّ رأسه ورفعها على السنان ونادى قد قتل والله توما اللعين فاطلبوا هربيس. ففرح المسلمون بذلك.

قال رافع بن عميرة الطائي: كنت في الميمنة مع خالد بن الوليد إذ نظرت إلى فارس زيه زي الروم، وقد نزل عن جواده، وهو يقاتل علجة من نساء الروم وهي تظهر عليه مرة فدنوت أنظرها. فإذا هو يونس الدليل وهو يقاتل زوجته ويصارعها صراع الأسد. قال رافع: فدنوت أن أتقدم إليهما فأعينه فقصد إليَّ عشرة من النساء يرمين قوسي بالحجارة فخرج حجر كبير من امرأة حسناء عليها ثياب الديباج. قال فوقع

الحجر في جبهة جوادي فانكب على رأسه، وكان جواداً شهدت عليه اليمامة فسقط الجواد "ميتا". قال فأسرعت في طلبها فهربت من بين يدي كأنها ظبية القناص وهربت النساء من ورائها فلحقتهن وقصدت قتلهن وزعقت عليهن وكنت أريد قتلهن وما لي قصد إلا الجارية التي قتلت حصاني فدنوت منها وعلوت بالسيف على رأسها فجعلت تقول الغوث الغوث فرجعت عن قتلها وأقبلت إليها، وإذا عليها ثياب الديباج وعلى رأسها شبكة من اللؤلؤ فأخذتها أسيرة من النساء وأوثقتها كتافاً، ورجعت على أثري فركبت جواداً من خيل الروم.

ثم قلت: والله لأمضين وأنظر ما كان من أمر يونس فوجدته، وهو جالس وزوجته بجانبه وقد تلطخت بدمائها وهو يبكي عليها، فلما رأيتها قلت لها أسلمي، فقالت: لا وحق المسيح لا اجتمعت أنا وأنتم أبداً. ثم أخرجت سكيناً كانت معها فقتلت بها نفسها. فقلت: إن الله ﷻ أبدلك من هي أعظم منها وعليها ثياب الديباج وشبكة من اللؤلؤ وهي كأنها القمر فخذها لك بدلاً عن زوجتك. فقال: أين هي؟ فقلت: ها هي معي. فلما نظر إليها وإلى ما عليها من الحلي والزينة وتبين حسنها وجمالها راطنها بالرومية وسألها عن أمرها فرطنت عليه وهي تبكي فالتفت إليّ، وقال لي: أتدري من هذه؟ قلت: لا. فقال: هذه ابنة الملك هرقل زوجة توما وما مثلي يصلح لها، ولابد لهرقل من طلبها ويفديها بماله.

وافتقد المسلمون خالداً فلم يجدوا له أثراً فقلقوا عليه قلقاً عظيماً وخالد ﷺ غائص في المعركة وقصد اللعين هربيس بعد قتل توما، فبينما هو يحمل يميناً وشمالاً إذ نظر علجاً من علوج الرومان عظيم الخلقة أحمر اللون فظن خالد أنه اللعين فأطلق جواده نحوه وطلبه طلباً شديداً ليقتله، فلما نظر إليه العلج وإلى حملته فر هارباً من بين يديه فوكزه خالد بالرمح، وإذا هو واقع على الأرض على أم رأسه فانقض عليه خالد كالأسد، وهو يقول: ويلك يا هربيس أظننت أنك تفوتني وذلك العلج يعرف العربية. فقال: يا عربي ما أنا هربيس فأبق علي ولا تقتلني. فقال خالد: ما لك من يدي خلاص إلا إذا كنت تدلني على هربيس. فإذا دللتني عليه أطلقتك. فقال له العلج: أئذا دللتك عليه تطلقني؟ فقال خالد: نعم لك ذلك. فقال العلج: يا أخا العرب قم من على صدري حتى أدلك عليه، فقام خالد من على صدره فوثب العلج ونظر يميناً وشمالاً، ثم قال لخالد: أترى هذا الجبل وهذه الخيل الصاعدة اقصدها فإن هربيس فيها. قال فوكل خالد بالعلج واحداً، وهو ابن جابر ثم أطلق عنان جواده حتى لحق بهم وصرخ عليهم، وقال: يا ويلكم أنى لكم مني خلاص. فلما سمع هربيس ذلك ظنه من بعض العرب فزعق فيه ورجع ورجعت البطارقة بالسلاح. فقال لهم خالد: يا ويلكم ظننتم أن

الله لا يمكننا منكم أنا الفارس الصنديد أنا خالد بن الوليد. ثم طعن فارساً فرماه وآخر فأرداه. فلما سمع هربيس كلام خالد، قال لأصحابه: يا ويلكم هذا الذي قلب الشام على أصحابه، هذا صاحب بصرى وحوران ودمشق وأجنادين دونكم وإياه قال فطمع القوم فيه لانفراده عن أصحابه، وكان المسلمون في قتال الروم ونهب الأموال وكل منهم مشتغل بنفسه.

فترجلت البطارقة حول خالد لأنهم في جبل كثير الوعر وأحاطوا بخالد بن الوليد فعندها ترجل عن جواده وأخذ سيفه وحجفته وصبر لقتالهم وقال: قد صحت الرؤيا! فلما ترجل أقبل يقاتل بنفسه وأقبل إليه هربيس، وهو مشتغل بالقتال وأتاه من ورائه وضرب خالداً بالسيف فوقع السيف على البيضة فقدّها، وقدّ عمامته وانقض السيف من يد هربيس وخاف خالد أن يلتفت إلى ورائه فتهجم عليه الروم وخاف أن يفلت هربيس من بين يديه فعند ذلك صاح بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير كأنه مستبشر بشيء أغاثه أو أدركه وذلك خديعة منه وحيلة يريد بها أن يتمكن من الأعلاج. فبينما هو كذلك إذ سمع من المسلمين زعقات، وقد أخذت الروم من ورائهم وهم يصيحون بالتهليل والتكبير وقائل يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله أتاك النصر من رب العالمين أنا عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق. فلما سمع خالد صوته لم يلتفت إلى عبد الرحمن ولا إلى من معه ومضى يفرق الأعلاج ذات اليمين وذات الشمال، ولما أن سمع اللعين هربيس أصوات المسلمين أراد الهرب فلحقه سيدنا خالد وضربه ضربة فأرداه قتيلاً وعجل الله بروحه إلى النار. واستطال أصحاب رسول الله ﷺ على أصحاب هربيس ونزلوا فيهم بالسيف حتى أبادوهم عن آخرهم، وكان أكثرهم قتلى بيد ضرار بن الأزور.

فلما انكشف الكرب عن خالد ونظر إلى ما فعل ضرار. قال: أفلح الله وجهك يا ابن الأزور فما زلت مباركاً في كل أفعالك أنجح الله أعمالك وأصلح ربي حالك. ثم سلم على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعلى المسلمين، وقال: من أين علمتم مكاني هذا؟ فقال عبد الرحمن: يا أمير بينما نحن في قتال الروم، وقد نصرنا الله عليهم والمسلمون قد اشتغلوا بالغنائم إذ سمعنا هاتفاً من الهواء يقول: اشتغلتم بالغنائم وخالد قد أحاطت به الروم. فلما سمعنا ذلك لم ندر أي مكان أنت فيه، وفقدنا شخصك فدلنا عليك علج كان بيد رجل من أصحابك، وقال: إن صاحبكم أنا الذي دللته على هربيس وإنه معه في هذا الجبل فسرنا إليك. فقال خالد: لقد دلنا على عدونا؟ ودل علينا المسلمين، وقد وجب له الحق علينا! ورجع خالد وأصحابه إلى المسلمين، فلما رأوه بادروا وسلموا عليه فرد عليهم السلام. ثم إن خالداً رضي الله عنه دعا

بذلك العلج الذي دله على هربيس، وقال له: إنك وفيت لنا ونريد أن نوفي لك بما وعدناك لأنك نصحت لنا فهل لك أن تكون من أصحاب دين الصلاة والصيام وملة محمد ﷺ فتكون من أهل الجنة، فقال: ما أريد بديني بدلاً! فأطلق خالد سبيله. قال نوفل بن عمرو: فرأيته قد استوى على ظهر جواده يطلب بلاد الروم وحده.

ثم إن خالداً ﷺ أمر بجمع الغنائم والأسارى فجمع ذلك إليه، فلما رأى كثرته حمد الله تعالى وشكره وأثنى عليه ودعا بدليله يونس النجيب. ثم قال له: ما فعلت بزوجتك؟ فحدثه بحديثه معها، وما كان من أمرها فعجب من ذلك، فقال رافع بن عميرة: أيها الأمير إني أسرت ابنة الملك هرقل، وقد سلمتها إليه بدلاً من زوجته. فقال خالد: وأين ابنة الملك هرقل؟ فمثلت بين يديه فنظر إلى حسنها وجمالها وما منحها الله به من الجمال فصرف وجهه عنها، وقال: سبحانك اللهم وبحمدك تخلق ما تشاء وتختار. ثم قرأ قوله تعالى: "وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ" القصص: **68**، ثم قال ليونس: أتريدها بدلاً من زوجتك؟ قال: نعم ولكني أعلم أن الملك هرقل لابد له أن يفديها بالأموال أو يخلصها بالقتال. فقال خالد: خذها لك الآن فإن لم يطلبها فهي لك، وإن طلبها فالله يعوضك خيراً منها. فقال يونس: أيها الأمير إنك في مكان ضيق ومكان صعب فاعزم على الخروج قبل أن يلحق نفير القوم. فقال خالد: الله لنا ومعنا وعطف راجعاً يجد في مسيره والغنائم أمامه والمسلمون في أثره فرحين بالغنيمة والسلامة والنصر.

قال روح بن عطية: فقطعنا الطريق كلها وما عرض لنا من الروم أحد ونحن نخوض في وسط ديار القوم خوضاً، فلما وصلنا مرج الصغير عند قنطرة أم حكيم نظرنا إلى غبرة من ورائنا. فلما عايناها أنكرنا ذلك فأسرع رجال من المسلمين إلى خالد يخبرونه بالغبرة. قال: أيكم يأتيني بخبرها؟ فبادر بالإجابة رجل من غفار يقال له صعصعة بن يزيد الغفاري. قال: أنا أيها الأمير. ثم نزل عن جواده، وكان بجريه يسبق الفرس الجواد لقوة عزمه فورد الغبرة واختبرها ورجع على عقبه، وهو ينادي: أيها الأمير أدركنا الصلبان من ورائنا وهم مصفدون في الحديد لم يبن منهم غير حماليق الحدق، فدعا خالد بيونس الدليل عندما قاربته الخيل وقال: يا يونس اقصد نحو الخيل وانظر ما يريدون. فقال: السمع والطاعة. ثم دنا من الخيل وقاربهم، ثم رجع إلى خالد، وقال له: ألم أقل لك أيها الأمير إن هرقل لا يغفل عن طلب ابنته وقد أنفذ هذه الخيل يريدون أن يأخذوا الغنيمة من أيدي المسلمين، فلما لحقوك هاهنا قريباً من دمشق بعثوا رسولاً يسألك في الجارية إما بيعها وإما هدية، فبينما خالد يتحدث إذ أقبل إليه شيخ عليه لبس المسوح فأقبل حتى دنا من المسلمين فأوقفوه أمام خالد، وقال له: قل ما تشاء. فقال الشيخ: أنا رسول الملك هرقل وإنه يقول لك بلغني ما

فعلت برجالي وقتلت توما زوج ابنتي وهتكت حرمتي، وقد ظفرت وسلمت فلا تفرط بمن معك، والآن إما أن تبيع ابنتي أو تهديها إليَّ فالكرم شيمتكم وطبعكم ولا يرحم من لا يرحم وإني أرجو أن يقع بيننا الصلح! فلما سمع خالد ذلك قال للشيخ: قل لصاحبك والله لا رجعت عنه وعن أهل ملته حتى أملك سريره وما تحت قدميه، كما في علمك، وأما إبقاؤك علينا فلو وجدت إلى ذلك من سبيل فما قصرت، وأما ابنتك فهي لك هدية منا! ثم إن خالداً أطلق ابنة الملك هرقل وسلمها للشيخ ولم يأخذ في فدائها شيئاً، فلما بلَّغ ذلك الرسول إلى الملك هرقل قال لعظماء الروم: هذا الذي أشرت عليكم فلم تقبلوه وأردتم قتلي وسيكون الأمر أعظم، ولكن ليس هذا منكم بل هو من رب السماء!فبكت الروم بكاءً شديداً!

وسار خالد حتى أتى دمشق، وكان المسلمون وأبو عبيدة قد أيسوا من خالد ومن معه فهم في أعظم القلق والإياس إذ قدم عليهم خالد ﷺ والمسلمون فخرجوا إلى لقائه وهنئوه بالسلامة وسلم المسلمون بعضهم على بعض ووجد خالد في دمشق عمرو بن معد يكرب الزبيدي ومالك بن الأشتر النخعي ومن كان معهما وأقبل خالد إلى جانب أبي عبيدة، وهو يحدثه بما لاقى في غزوته وأبو عبيدة يتعجب من شجاعته وجسارته، فلما استقر بخالد مكانه أخذ الخمس من الغنائم وفرق الباقي على المسلمين ثم إن خالداً أعطى من ماله ليونس، وقال: خذ هذا فتزوج به أو اشترِ به جارية لك من بنات الروم. قال يونس: والله لا أتزوج في هذه الدار الدنيا زوجة أبداً وما أريد إلا أن أتزوج في الآخرة بعيناء من الحور العين. قال رافع بن عميرة الطائي: فشهد معنا القتال إلى يوم اليرموك فما كنت أراه في حرب إلا ويجاهد جهاداً عظيماً، وقد أبلى في الروم بلاء حسنا فأتاه سهم في لبته فخرَّ "ميتا" رحمه الله تعالى. قال رافع: فحزنت عليه وأكثرت من الترحم عليه فرأيته في النوم وعليه حلل تلمع وفي رجليه نعلان من ذهب وهو يجول في روضة خضراء، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأعطاني بدلاً من زوجتي سبعين حوراء لو بدت واحدة منهن في الدنيا لكفَّ ضوء وجهها نور الشمس والقمر فجزاكم الله خيراً! فقصصت الرؤيا على خالد، فقال: ليس والله سوى الشهادة، طوبى لمن رزقها.

كتب خـــالد بالفتـــح

قال الواقدي: ولقد بلغني أن خالداً ﷺ لما رجع من غزوته ومسيره غانماً ظن أن الخليفة أبا بكر الصديق ﷺ حي لم يقبض فهم أن يكتب له كتاباً بالفتح والبشارة وما غنم من الروم، وأبو عبيدة لا يخبره بذلك ولا يعلمه أن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ،

فدعا خالد بدواة وبياض وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله خليفة رسول الله ﷺ من عامله على الشام خالد بن الوليد. أما بعد سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ ثم إنا لم نزل في مكابدة العدو على حرب دمشق حتى أنزل الله علينا نصره وقهر عدوه وفتحت دمشق عنوة بالسيف من باب شرقي، وكان أبو عبيدة على باب الجابية فخدعته الروم فصالحوه على الباب الآخر ومنعني أن أسبي وأقتل ولقيناه على كنيسة يقال لها كنيسة مريم وأمامه القسس والرهبان ومعهم كتاب الصلح، وإن صهر الملك توما وآخر يقال له هربيس خرجا من المدينة بمال عظيم وأحمال جسيمة فسرت خلفها في عساكر الزحف وانتزعت الغنيمة من أيديهما وقتلت الملعونين وأسرت ابنة الملك هرقل، ثم أهديتها إليه ورجعت سالماً، وأنا منتظر أمرك والسلام عليك، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وطوى الكتاب وختمه بخاتمه، ودعا برجل من العرب يقال له عبد الله بن قرط فدفع إليه الكتاب وسار إلى مدينة رسول الله ﷺ فوردها والخليفة عمر بن الخطاب ﷺ فقرأ عنوان الكتاب، وإذا هو: من خالد إلى خليفة رسول الله ﷺ فقال عمر: أما عرف المسلمون وفاة أبي بكر ﷺ؟! فقال: لا يا أمير المؤمنين، فقال: قد وجهت بذلك كتاباً إلى أبي عبيدة وأمرته على المسلمين وعزلت خالداً وما أظن أبا عبيدة يريد الخلافة لنفسه، فسكت وقرأ الكتاب.

قال أصحاب السير في حديثهم ممن تقدم ذكرهم وإسنادهم في أول الكتاب جميعاً في أخبارهم: إنه لما قبض أبو بكر الصديق ﷺ وولي الأمر بعده عمر بن الخطاب ﷺ وله من العمر اثنتان وخمسون سنة بايعه الناس في مسجد رسول الله ﷺ بيعة تامة ولم يتخلف عن مبايعته أحد لا صغير ولا كبير، وانقطع في إمارته الشقاق والنفاق، وانحسم الباطل وقام الحق، وقوي السلطان في إمارته وضعف كيد الشيطان وظهر أمر الله وهم كارهون، ومن أمره أنه كان يجلس مع الفقير ويتلطف بالناس والمسلمين ويرحم الصغير ويوقر الكبير ويعطف على اليتيم وينصف المظلوم من الظالم حتى يرد الحق إلى أهله ولا تأخذه في الله لومة لائم، وكان في إمارته يدور في أسواق المدينة وعليه مرقعة وبيده درته وكانت درته أهيب من سيف الملوك وسيوفكم هذه، وكان قوته في كل يوم خبز الشعير وأدمه الملح الجريش، وربما أكل خبزه بغير ملح تزهداً واحتياطاً وترفقاً على المسلمين ورأفة ورحمة لا يريد بذلك إلا الثواب من الله ﷻ ولا يشغله شاغل عن أداء الفريضة وما أوجب الله عليه من حقوقه وسنة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام.

قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد تولى والله عمر بن الخطاب الخلافة فجد في التشمر وترك عن نفسه التكبر، ولقد كان أحرقه خبز الشعير والملح وأرا د أكل الزيت واليابس من التمر، وربما أخذ شيئاً من السمن، ويقول: أكلت الزيت وخبز الشعير والملح والجوع أهون غداً من نار جهنم، من حل بها لم يمت ولم يجد فيها راحة أبداً، قرارها بعيد وعذابها شديد و شرابها الصديد لا يؤ ذن لهم فيعتذرون! جنّد الجنو د في إمارته وبعث العساكر وفتح الفتوحات ومصّر الأمصار، وكان يخاف عذاب النار، ﷺ.

قال الواقدي رحمه الله تعالى: ولقد بلغني أن هرقل لما بلغه أن عمر بن الخطاب ﷺ قد ولي الأمر من بعد أبي بكر الصديق ﷺ جمع الملوك والبطارقة وأرباب دولته وقام فيهم خطيباً على منبر قد نصب له في كنيسة القسيسين، وقال: يا بني الأ صفر، هذا الذي كنت أحذركم منه فلم تسمعوا مني، وقد ا شتد الأمر عليكم بولاية هذا الرجل الأ سمر وقد دنا موعد صاحب الفتوح المشبه بنوح، والله ثم والله لابد أن يملك ما تحت سريري هذا، الحذر ثم الحذر قبل وقوع الأمر ونزول الضرر، وهدم القصور وقتل القسس وتبطيل الناقوس، هذا صاحب الحرب والجالب على الروم والفرس الكرب، هذا الزاهد في دنياه، وهذا الغليظ على من اتبع في غير ملته هواه، وإني أرجو لكم النصر إن أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر وتركتم الظلم، واتبعتم المسيح في أداء المفروضات ولزوم الطاعات، وترك الزنا وأنواع الخطايا، وإن أبيتم إلا الفسا د والفسوق والعصيان والركون إلى شهوات الدنيا يسقط الله عليكم عدوكم ويبلوكم بما لا طاقة لكم به، ولقد أعلم أن دين هؤلاء سيظهر على كل دين ولا يزال أهله بخير ما لم يغتروا ويبدّلوا، فإما أن ترجعوا إليه، وإما أن تصالحوا القوم على أداء الجزية، فلما سمع القوم ذلك نفروا وبا دروا إليه وهمُّوا بقتله فسكّن غضبهم بلين كلامه ولاطفهم. وقال لهم: إنما أر دت أن أرى حميتكم لدينكم وهل تمكن خوف العرب في قلوبكم أم لا؟

ثم ا ستدعى برجل من المتنصرة يقال له طليعة بن ماران وضمن له مالاً، وقال له: انطلق من وقتك هذا إلى يثرب وانظر كيف تقتل عمر بن الخطاب، فقال له طليعة: نعم أيها الملك. ثم تجهز و سار حتى ورد مدينة رسول الله ﷺ وكمن حولها، وإذا بعمر بن الخطاب ﷺ خرج يشرف على أموال اليتامى ويتفقد حوائجهم فصعد المتنصر إلى شجرة ملتفة الأغصان فا ستتر بأوراقها، وإذا بعمر ﷺ قد أقبل إلى أن قرب من الشجرة التي عليها المتنصر ونام على ظهره وتو سد بحجر، فلما نام همَّ المتنصر أن ينزل إليه ليقتله، وإذا بسبع أقبل من البرية فطاف حوله وأقبل يلحس قدميه، وإذا

بهاتف يقول: يا عمر عدلت فأمنت، فلما ا ستيقظ عمر ﷺ ذهب السبع ونزل المتنصر وترامى على عمر ﷺ فقبَّل يديه، وقال: بأبي أنت وأمي أفدي من الكائنات من السباع تحرسه والملائكة تصفه والجن تعرفه، ثم أعلمه بما كان منه وأسلم على يديه.

قال الواقدي: ثم إنَّ عمراً ﷺ كتب كتاباً لأبي عبيدة بن الجراح يقول فيه: قد وليتك على الشام وجعلتك أميراً على المسلمين وعزلت خالد بن الوليد والسلام. ثم سلم الكتاب إلى عبد الله بن قرط وأقام قلقاً على ما يرد عليه من أمور المسلمين وصرف همته إلى الشام.

توليـــة أبي عبيـــدة

قال الواقدي: حدثني عبد الله بن سالم الثقفي عن أشياخه الثقات قال: لما كانت الليلة التي مات فيها أبو بكر الصديق ﷺ رأى عبد الرحمن بن عوف الزهري ﷺ رؤيا قصها على عمر ﷺ، وكانت تلك الليلة بعينها، قال: رأيت دمشق والمسلمون حولها وكأني أسمع تكبيرهم في أذني وعند تكبيرهم وزحفهم رأيت حصناً قد ساخ في الأرض حتى لم أر منه شيئاً ورأيت خالداً، وقد دخلها بالسيف وكأن ناراً أمامه وكأنه وقع على النار فانطفأت، فقال الإمام ﷺ: أبشر فقد فتح الشام هذه الليلة أو قال: يومك هذا إن شاء الله تعالى.

فبعد أيام قدم عقبة بن عامر الجهني صاحب رسول الله ﷺ ومعه كتاب الفتح، فلما رآه قال: يا ابن عامر كم عهدك؟ قال: قلت يوم الجمعة. قال: ما معك من الخبر؟ فقلت: خير وبشارة وإني سأذكرها بين يدي الصديق ﷺ. فقال: قبض والله حميداً وصار إلى رب كريم، وقلدها عمر الضعيف في جسمه فإن عدل فيها نجا وإن ترك أو خلط هلك. قال عقبة بن عامر: فبكيت وترحمت على أبي بكر الصديق ﷺ، وأخرجت الكتاب فدفعته إليه، فلما قرأه نظر فيه وكتم الأمر إلى وقت صلاة الجمعة. فلما خطب وصلى ورقى المنبر واجتمع المسلمون إليه قرأ عليهم كتاب الفتح، فضج المسلمون بالتهليل والتكبير وفرحوا، ثم نزل عن المنبر وكتب إلى أبي عبيدة ﷺ بتوليته وعزل خالد، ثم سلمني الكتاب وأمرني بالرجوع.

فرجعت إلى دمشق فوجدت خالداً قد سار خلف توما وهربيس فدفعت الكتاب إلى أبي عبيدة فقرأه سراً ولم يخبر أحداً بموت أبي بكر الصديق ﷺ ثم كتم أمره وكتم عزل خالد وتوليته على المسلمين حتى ورد خالد من السرية فكتب الكتاب بفتح دمشق ونصرهم على عدوهم وبما ملكوا من مرج الديباج وإطلاق بنت الملك هرقل وسلم الكتاب إلى عبد الله بن قرط، فلما ورد به إلى عمر بن الخطاب ﷺ، وقرأ عنوان

الكتاب من خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق ﷺ أنكر الأمر ورجعت حمرته إلى البياض، وقال: يا ابن قرط أما علم الناس بموت أبي بكر ﷺ وتوليتي أبا عبيدة بن الجراح؟ قال عبد الله بن قرط: قلت: لا، فغضب وجمع الناس إليه وقام على المنبر. ثم قال: يا معاشر الناس إني أمَّرت أبا عبيدة الرجل الأمين، وقد رأيته لذلك أهلاً، وقد عزلت خالداً عن إمارته، فقال رجل من بني مخزوم: أتعزل رجلاً قد أشهر الله بيده سيفاً قاطعاً ونصر به دينه، وإن الله لا يعذرك في ذلك ولا المسلمين إن أنت أغمدت سيفاً وعزلت أميراً أمَّره الله لقد قطعت الرحم! ثم سكت الرجل، فنظر عمر ﷺ إلى الرجل المخزومي فرآه غلاماً حدث السن، فقال شاب حدث السن غضب لابن عمه، ثم نزل عن المنبر وأخذ الكتاب وجعله تحت رأسه، وجعل يؤامر نفسه في عزل خالد.

فلما كان من الغد صلى صلاة الفجر وقام فرقي المنبر خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وذكر الرسول ﷺ فصلى عليه وترحم على أبي بكر الصديق ﷺ، ثم قال: أيها الناس إني حملت أمانة عظيمة وإني راع وكل راع مسؤول عن رعيته، وقد جئت لإصلاحكم والنظر في معايشكم وما يقربكم إلى ربكم أنتم ومن حضر في هذا البلد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من صبر على أذاها وشرها كنت له شفيعاً يوم القيامة" وبلادكم بلاد لا زرع فيها ولا ضرع ولا ما أوقر به الإبل إلا من مسيرة شهر، وقد وعدنا الله مغانم كثيرة وإني أريدها للخاصة والعامة لأولي الأمانة والتوقير للمسلمين... وما كرهت ولاية خالد على المسلمين إلا لأن خالداً فيه تبذير المال يعطي الشاعر إذا مدحه ويعطي للمجاهد والفارس بين يديه فوق ما يستحقه من حقه ولا يبقي لفقراء المسلمين ولا لضعفائهم شيئاً! وإني أريد عزله وولاية أبي عبيدة مكانه والله يعلم أني ما وليته إلا أميناً فلا يقول قائلكم: عزل الرجل الشديد وولى الأمين اللين للمسلمين فإن الله معه يسدده ويعينه.

ثم نزل عن المنبر وأخذ جلد أدم منشور وكتب إلى أبي عبيدة كتاباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد ﷺ وبعد، فقد وليتك أمور المسلمين فلا تستحي فإن الله لا يستحي من الحق، وإني أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه والذي استخرجك من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، وقد استعملتك على جند ما هنالك مع خالد فاقبض جنده واعزله عن إمارته ولا تنفذ المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ولا تنفذ سرية إلى جمع كثير ولا تقل إني أرجو لكم النصر فإن النصر إنما يكون مع اليقين والثقة بالله، وإياك والتغرير بإلقاء المسلمين إلى الهلكة، وغض عن الدنيا عينيك وألْهِ عنها قلبك.

وإياك أن تهلك كما هلك من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم وخبرت سرائرهم وإنما بينك وبين الآخرة ستر الخمار وقد تقدم فيها سلفك وأنت كأنك منتظر سفراً ورحيلاً من دار قد مضت نضرتها وذهبت زهرتها! فأحزم الناس فيها الراحل منها إلى غيرها ويكون زاده التقوى. وراع المسلمين ما استطعت، وأما الحنطة والشعير الذي وجدت بدمشق وكثرت في ذلك مشاجرتكم فهو للمسلمين، وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس والسهام، وأما اختصامك أنت وخالد في الصلح أو القتال فأنت الولي وصاحب الأمر وإن صلحك جرى على الحقيقة أنها للروم فسلم إليهم ذلك والسلام ورحمة الله وبركاته عليك وعلى جميع المسلمين. وأما هديتك ابنة الملك هرقل فهديتها إلى أبيها بعد أسرها تفريط، وقد كان يأخذ في فديتها مالاً كثيراً يرجع به على الضعفاء من المسلمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وطوى الكتاب وختمه بخاتمه، ثم دعا بعامر بن أبي وقاص أخي سعد ودفع الكتاب إليه، وقال له: انطلق إلى دمشق وسلم كتابي هذا إلى أبي عبيدة وأمره أن يجمع الناس إليه واقرأه أنت على الناس يا عامر وأخبره بموت أبي بكر الصديق رضي الله عنه ثم دعا عمر رضي الله عنه بشداد بن أوس فصافحه، وقال له: امض أنت وعامر إلى الشام فإذا قرأ أبو عبيدة الكتاب فأمر الناس يبايعونك لتكون بيعتك بيعتي.

فانطلقا يجدّان في السير إلى أن وصلا إلى دمشق والناس مقيمون بها ينتظرون ما يأتيهم من خبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه وما يأمرهم به فأشرف صاحبا عمر رضي الله عنه على المسلمين، وقد طالت أعناقهم إليهما وفرحوا بقدومهما فأقبلا حتى نزلا في خيمة خالد رضي الله عنه وقال له عامر بن أبي وقاص: تركته -يعني عمر- بخير ومعي كتاب وإنه أمرني أن أقرأه على الناس بالاجتماع فاستنكر خالد ذلك واستراب الأمر وجمع المسلمين إليه فقام عامر بن أبي وقاص فقرأ الكتاب فلما انتهى إلى وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ارتفع للناس ضجة عظيمة بالبكاء والنحيب وبكى خالد رضي الله عنه، وقال: إن كان أبو بكر قد قبض وقد استخلف عمر فالسمع والطاعة لعمر وما أمر به وقرأ عامر الكتاب إلى آخره، فلما سمع الناس بما فيه من أمر المبايعة لشداد بن أوس بايعوه، وكانت المبايعة بدمشق لثلاث خلت من شهر شعبان سنة ثلاث عشر من الهجرة.

قال الواقدي رحمه الله تعالى: قد بلغني أن خالداً كان على العدو بعد عزله أشد فظاعة وأصعب جهاداً لا سيما في حصن أبي القدس.

ذكر حديث وقعة أبي القدس

قال الواقدي: سألت من حدث بهذا الحديث عن حصن أبي القدس قال: ما بين عرقا وطرابلس مرج يقال له مرج السلسلة وكان بإزائه دير وفيه صوامع وفيه صومعة راهب عالم بدين النصرانية وقد قرأ الكتب السالفة وأخبار الأمم الماضية المتقدمة وكانت تقصده الروم وتقتبس من علمه وله من العمر ما ينوف عن مائة سنة، وكان في كل سنة يقوم عند ديره عيد آخر صيام الروم وهو عيد الشعانين فتجتمع الروم والنصارى وغيرهم من جميع النواحي والسواحل ومن قبط مصر ويحدقون به فيطلع عليهم من ذروة له فيعلمهم ويوصيهم بوصايا الإنجيل، وكان يقوم في ذلك العيد سوق عظيم من السنة إلى السنة، وكان يحمل له الأمتعة والذهب والفضة ويبيعون ويشترون ثلاثة أيام، وما كان المسلمون يعلمون بذلك ولا يعرفونه حتى دلهم عليه رجل نصراني من المعاهدين وقد اصطفاه أبو عبيدة وأمَّنه وأهله.

فلما ولي أبو عبيدة أمر المسلمين أراد ذلك المعاهد أن يتقرب إلى أبي عبيدة ﷺ فعسى أن يكون فتح الدير والسوق على يديه فأقبل إليه وأبو عبيدة قد أطال الفكر فيما يصنع وأي بلد من بلاد الروم يقصد، فمرة يقول: أسير إلى بيت المقدس بالجيش فإنها أشرف بلدهم وكرسي مملكة الروم بها قيام دينهم، ووقتاً يقول: أسير إلى أنطاكية وأقصد هرقل وأفرغ منه، وبينما هو يفكر في أمره وقد جمع المسلمين إذ أقبل ذلك المعاهد وكان من نصارى الشام. فقال: أيها الأمير إنك قد أحسنت إليَّ وأمنتني ووهبتني أهلي ومالي وولدي وقد أتيتك ببشارة وغنيمة يغنمها المسلمون ساقها الله إليهم، فإن أظفرهم الله بها استغنوا غنى ولا فقر بعده. فقال أبو عبيدة: أخبرنا ما هذه الغنيمة وأين تكون؟ فما علمتك إلا ناصحاً! فقال: أيها الأمير إنها بإزائك على دير الساحل وهو حصن يعرف بأبي القدس وبإزائه دير فيه راهب تعظمه النصرانية ويتبركون بدعائه ويقتبسون من علمه وله في كل سنة عيد يجتمعون إليه من كل النواحي والقرى والأمصار والضياع والأديرة ويقوم عنده سوق عظيم يظهرون فيه فاخر ثيابهم من الديباج والذهب والفضة يقيمون عنده ثلاثة أيام أو سبعة وقد قرب وقت قيام السوق فتأخذون جميع ما فيه وتقتلون الرجال وتسبون النساء والذراري، وهذه غنيمة يفرح بها المسلمون ويوهن لها عدوكم.

قال الواقدي: فلما سمع أبو عبيدة ما قاله المعاهد فرح رجاء أن يكون ما قاله المعاهد غنيمة للمسلمين. فقال للمعاهد: كم بيننا وبين هذا الدير؟ قال: عشرة فراسخ للمجد السائر. قال أبو عبيدة: وكم بقي إلى قيام السوق؟ قال: أيام قلائل. قال أبو

عبيدة: فهل يكون لهم حامية يلي أمرهم ويصد عنهم؟ قال المعاهد: لسنا نعرف ما ذكرت في بلاد الملك لأنه لا يصيب بعضنا بعضاً لهيبة هرقل في قلوبهم، فلما سمع أبو عبيدة ذلك قال: هل بالقرب منه شيء من مدائن الشام؟ قال: نعم بالقرب من السوق مدينة تسمى طرابلس وهي مينا الشام إليها تقدم المراكب من كل مكان وفيها بطريق عظيم كثير التجبر وقد أقطعه الملك إياها من تجبره وهو يحضر السوق وما كنت أعهد أن لهذا السوق حامية من الروم إلا أن يكون الآن لخوفهم منكم ولو سار إلى الدير والسوق أدنى المسلمين لرجوت لهم الفتح إن شاء الله تعالى.

فقال أبو عبيدة: أيها الناس أيكم يهب نفسه لله تعالى وينطلق مع جيش أبعثه فتحا للمسلمين فسكت الناس ولم يتكلم أحد، فنادى أبو عبيدة ثانية وإنما يريد خالداً بقوله واستحيا أن يواجهه في ذلك لأجل عزله، فقام من وسط الناس غلام شاب نبت شعر عارضيه واخضرّ شاربه وكان ذلك الشاب عبد الله بن جعفر ﷺ، وكانت أمه أسماء بنت عميس الخثعمية وكان أبوه جعفر ﷺ قد مات في غزوة تبوك وخلف ولده عبد الله صغيراً فتزوجها أبو بكر الصديق ﷺ، فلما كبر وترعرع كان يقول لأمه: يا أماه ما فعل أبي؟ فتقول: يا ولدي قتله الروم وكان يقول: لئن عشت لآخذن بثأره، فلما مات أبو بكر وتولى عمر ﷺ جاء عبد الله إلى الشام في بعث بعثه عمر مع عبد الله بن أنيس الجهني وكان فيه مشابهة من رسول الله ﷺ في خلقه وخلقه وهو أحد الأصحاب الأسخياء، فلما قال أبو عبيدة ﷺ: أيها الناس من ينطلق إلى هذا الدير وثب عبد الله بن جعفر الطيار ﷺ وقال: أنا أول من يسير مع هذا البعث يا أمين الأمة. ففرح أبو عبيدة وجعل يندب له رجالاً من المسلمين وفرسان الموحدين وقال له: أنت الأمير يا ابن عم رسول الله ﷺ وعقد له راية سوداء وسلمها إليه، وكان على الخيل خمسمائة فارس منهم رجال من أهل بدر، وكان من جملة من سيره مع عبد الله أبو ذر الغفاري وعبد الله بن أبي أوفى وعامر بن ربيعة و.... ومثل هؤلاء السادات ﷺ أجمعين. ولما أن اجتمع الخمسمائة فارس تحت راية عبد الله بن جعفر وما منهم إلا من شهد الوقائع وخاض المعامع عوّلوا على المسير. وقال أبو عبيدة لعبد الله بن جعفر: يا ابن عم رسول الله ﷺ لا تقدم على القوم إلا في أول قيام السوق، ثم إنه ودعهم وساروا.

وكان في هذه السرية مع عبد الله بن جعفر واثلة بن الأسقع وكان خروجهم من أرض الشام وهي دمشق إلى دير أبي القدس في ليلة النصف من شعبان وكان القمر زائد النور. وقال وأنا إلى جانب عبد الله بن جعفر. فقال لي: يا ابن الأسقع ما أحسن قمر هذه الليلة وأنوره، فقلت: يا ابن عم رسول الله ﷺ هذه ليلة النصف من شعبان وهي ليلة مباركة عظيمة، وفي هذه تكتب الأرزاق والآجال وتغفر فيها الذنوب والسيئات

وكنت أردت أن أقومها. فقلت: إن سيرنا في سبيل الله خير من قيامها والله جزيل العطاء. فقال: صدقت ثم إننا سرنا ليلتنا، فبينما نحن سائرون إذ أشرفنا على صومعة راهب وعليه برنس أسود، فجعل يتأملنا وينظر في وجوهنا فتفقدنا واحداً بعد واحد، ثم جعل يطيل النظر في وجه عبد الله، ثم قال: أهذا الفتى ابن نبيكم؟ فقلنا: لا قال: إن نور النبوة يلوح بين عينيه فهل يلحق به؟ فقلنا: هو ابن عمه. فقال الراهب: هو من الورقة والورقة من الشجرة. فقال عبد الله: أيها الراهب وهل تعرف رسول الله ﷺ؟ فقال: وكيف لا أعرفه واسمه وصفته في التوراة والإنجيل والزبور، وإنه صاحب الجمل الأحمر والسيف المشهر. فقال عبد الله: فلم لا تؤمن به وتصدقه؟! فرفع يده إلى السماء وقال: حتى يشاء صاحب هذه الخضراء! فأعجبنا كلامه. وسرنا والدليل بين أيدينا إذ أتى بنا إلى واد كثير الشجر والماء أمرنا أن نكمن فيه، ثم قال لعبد الله بن جعفر: إني ذاهب أجس لكم الخبر. فقال له عبد الله: أسرع في مسيرك وعد إلينا بالخبر. قال فانطلق مسرعاً وأقام عبد الله بن جعفر يحرس المسلمين بنفسه إلى الصباح.

فلما أصبحنا صلينا صلاة الصبح وجلسنا ننتظر رجوع الرسول فلم يأت وأبطأ خبره علينا فقلق المسلمون عليه لاحتباسه وخافوا من المكيدة ووسوس لهم الشيطان وساءت بالدليل الظنون فما من المسلمين إلا من ظن بالمعاهد شراً إلا أبا ذر الغفاري رضي الله عنه فإنه قال: ظنوا بصاحبكم خيراً ولا تخافوا منه كيداً ولا مكراً إن له شأناً تعلمونه. قال فسكت الناس بعد ذلك وإذا بصاحبهم قد أقبل. قال واثلة بن الأسقع: فلما رأيناه فرحنا به وظننا أنه يأمر بالنهوض إلى العدو فأقبل حتى وقف وسط المسلمين. وقال: يا أصحاب محمد وحق المسيح ابن مريم أني لا أكذبكم فيما أحدثكم به وإني رجوت لكم الغنيمة وقد حال بينكم وبينها ماء.

فقال له عبد الله رضي الله عنه: وكيف حيل بيننا وبينها؟ قال: حال بينكم وبينها بحر عجاج، وذلك أنّي أشرفت على السوق وقد قام فيه البيع والشراء، فاجتمع فيه أهل دين النصرانية وقد دار أكثرهم بالدير دير أبي القدس واجتمع إليه القسس والرهبان والملوك والبطارقة، فلما نظرت إلى ذلك لم أرجع حتى اختبرت ما السبب الذي تجمعت له الخلق زيادة على كل سنة، وذلك أني مضيت، واختلطت بالقوم وإذا بصاحب طرابلس قد زوج ابنته ملكاً من ملوك الروم، وقد أتوا بالجارية إلى الدير ليأخذوا لها من راهبهم قرباناً وقد دار بها فرسان الروم المتنصرة في عددهم وعديدهم، كل ذلك خوفاً منكم لأنهم يعلمون أنكم بأرض الشام يا معاشر المسلمين وما أرى لكم صواباً أن تصلوا إلى القوم لأنهم خلق كثير وجم غفير وجمع غزير. فقال

عبد الله بن جعفر ﷺ: في كم يكون القوم وكم حزرتهم؟ فقال: أما السوق ففيه أكثر من عشرين ألفاً من عوام الروم والأرمن والنصارى والقبط واليهود من مصر والشام وأهل السواد والبطارقة والمتنصرة، وأما المستعدون للحرب فخمسة آلاف فارس فما لكم بالقوة طاقة، وإن وقع الصائح في بلادهم انضاف إليهم أمثالهم فإن بلادهم متصلة بهم، وأما أنتم فعددكم يسير، والعرب منكم بعيد.

قال الواقدي: فصعب ذلك على عبد الله بن جعفر وعلى المسلمين وسقط في أيديهم وهموا بالرجوع. فقال عبد الله بن جعفر: معاشر المسلمين! ما الذي تقولون في هذا الأمر؟ فقالوا: نرى أن لا نلقي بأيدينا إلى التهلكة كما أمر ربنا في كتابه العزيز، ونرجع إلى الأمير أبي عبيدة ﷺ والله لا يضيع أجرنا. قال فلما سمع عبد الله قولهم قال: أما أنا فأخاف إن فعلت ذلك أن يكتبني الله من الفارين وما أرجع أو أبدي عذراً عند الله تعالى، فمن ساعدني فقد وقع أجره على الله، ومن رجع فلا عتب عليه! فلما سمعوا ذلك من عبد الله بن جعفر أميرهم وبذْل مهجته استحيوا منه وأجابوه بأجمعهم وقالوا: افعل ما تريد فما ينفع حذر من قدر! ففرح بإجابتهم، ثم عمد إلى درعه فأفرغه عليه ووضع على رأسه بيضة وشد وسطه بمنطقة وتقلد بسيف أبيه واستوى على متن جواده وأخذ الراية بيده وأمر الناس بأخذ الأهبة فلبسوا دروعهم واشتملوا بسلاحهم وركبوا خيولهم وقالوا للدليل: سر بنا نحو القوم فستعاين من أصحاب رسول الله ﷺ عجباً.

قال واثلة بن الأسقع: فرأيت الدليل قد اصفرَّ وجهه وتغير لونه وقال: سيروا أنتم برأيكم وما عليَّ من أمركم! وخرج. قال أبو ذر الغفاري فرأيت ابن جعفر يتلطف به حتى سار بين يديه يدله على القوم ساعة، ثم وقف وقال: أمسكوا عليكم فإنكم قد قربتم من القوم فكونوا في مواضعكم كامنين إلى وقت السحر ثم أغيروا على القوم. قال واثلة: فبتنا ليلتنا حيث أمرنا ونحن نطلب النصر من الله تعالى، فلما أصبح النهار صلى بهم عبد الله بن جعفر الصبح، فلما فرغوا من صلاتهم قال: ما ترون في الغارة؟ فقال عامر بن عميرة بن ربيعة: أدلكم على أمر تصنعونه؟ قالوا: قل. قال: اتركوا القوم في بيعهم وشرائهم وإظهار أمتعتهم، ثم اكبسوا عليهم على حين غفلة وغرَّة من أمرهم. فصوَّب الناس رأيه وصبروا إلى وقت قيام السوق، ثم أظهروا السيوف من أغمادها وأوتروا القسي وشرعوا لأماتهم، وعبد الله بن جعفر أمامهم والراية بيده، فلما طلعت الشمس عمد عبد الله إلى المسلمين فجعلهم خمسة كراديس كل كردوس مائة فارس وجعل على كل مائة نقيباً وقال: تأخذ كل مائة منكم قطراً من أقطار سوقهم ولا تشتغلوا بنهب ولا غارة، ولكن ضعوا السيوف في المفارق والعواتق! وتقدم عبد الله بن جعفر

بالراية وطلع على القوم فنظر إلى الروم متفرقين في الأرض كالنمل لكثرتهم وقد أحدق منهم بدير الراهب خلق كثير، والراهب قد أخرج رأسه من الدير وهو يعظ الناس ويوصيهم ويعلمهم معالم ملتهم وهم إليه شخوص بأبصارهم وابنة البطريق عنده في الدير والبطارقة وأبناؤهم عليهم الديباج المثقل بالذهب، ومن فوقهم دروع وجواشن تلمع وبيض وهم ينظرون صيحة بين أيديهم أو طارقاً يطرقهم من خلفهم.

ونظر عبد الله إلى الدير وإلى ما أحدق به، وإلى الراهب وما حول صومعته فهاله ذلك من أمرهم وصاح فيهم قبل الحملة وقال: يا أصحاب رسول الله ﷺ احملوا بارك الله فيكم، فإن كانت غنيمة وسرور فالفتح والسلامة ويكون الاجتماع تحت صومعة الراهب، وإن كان غير ذلك فهو وعدنا الجنة ونلتقي عند حوض رسول الله ﷺ مع الصحابة. قال وطلب عبد الله الجم العظيم فغاص فيهم وجعل يضرب بسيفه ويطعن برمحه ويحمل المسلمون من ورائه، وسمع الروم أصوات المسلمين مرتفعة بالتهليل والتكبير فتيقنوا أن جيوش المسلمين قد أدركتهم وكانوا لذلك منتظرين وعلى يقظة من أمرهم، فأما السوقة فإنهم تبادروا إلى أسلحتهم والمنع عن أنفسهم وأموالهم وأخرجوا السيوف من الأغمدة وانعطفوا على قتال المسلمين عطفة الأسد الضاري، وطلبوا صاحب الراية ولم يكن في المسلمين راية غيرها فأحدقوا بالراية من كل جانب ومكان وقامت الحرب على ساق وثار الغبار وانعقد، وأحدق الروم بالمسلمين، فما كان المسلمون فيهم إلا كشامة بيضاء في جلد بعير أسود، وما كان أصحاب رسول الله ﷺ يعرف بعضهم بعضاً إلا بالتهليل والتكبير، وكل واحد مشتغل بنفسه عن غيره.

قال أبو سبرة، وكان من السابقين والمتقدمين بإيمانهم في الإسلام وصاحب الهجرتين جميعاً قال: شهدت قتال الحبشة مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وشهدت المشاهد مع رسول الله ﷺ في بدر وفي أحد وفي حنين، وقلت إني لا أشهد مثلها، فلما قبض رسول الله ﷺ حزنت عليه ولم أستطع أن أقيم بالمدينة بعد فقده فقدمت مكة فأقمت بها فعوتبت في منامي من التخلف عن الجهاد، فخرجت إلى الشام وشهدت أجنادين والشام وسرية خالد خلف توما وهربيس وشهدت سرية عبد الله بن جعفر وكنت معه على دير أبي القدس فأنستني وقعتها ما شهدت قبلها من الوقائع بين يدي رسول الله ﷺ، وذلك أني نظرت إلى الروم حين حملنا عليهم في كثرتهم وعددهم وقلنا ما ثم غيرهم وليس لهم كمين عظيم. فرأينا أجسادهم هائلة وعليهم الدروع وما يبين منهم إلا حماليق الحدق لهم طقطقة وزمجرة عندما يحملون حتى نظرت إلى المسلمين قد غابوا في أوساطهم ولا أسمع منهم إلا الأصوات تارة يجهرون

بها وتارة أقول هلكوا. ثم أنظر إلى الراية بيد عبد الله بن جعفر ﷺ مرفوعة بذلك، وعبد الله يقاتل بالراية ويكر على المشركين ولا ينثني... ويجاهد على صغر سنه! ولم تزل الحرب بيننا كلما طال مكثها اشتد ضرامها وعلا قتامها والتهبت نارها، وصار عبد الله في وسط القوم وهم حوله كالحلقة الدائرة والروم يحدقون به! فجعل كلما حمل يميناً حملت يميناً وإن حمل شمالاً حملت شمالاً ولم نزل في الحرب والقتال حتى كلت منا السواعد وخدرت المناكب. وعظم الأمر علينا وهالنا الصبر وتثلم سيف عبد الله في يده وكادت تقع فرسه من تحته فالتجأ بأصحابه في موضع، فاجتمع أصحابه إليه فنظر المسلمون إلى رايته فقصدوها، وما منهم إلا مكلوم من المشركين! فضاق لذلك ذرعه وما نزل به في نفسه مثل ما نزل بالمسلمين فألجأ إلى الله تعالى أمره وفوض إلى صاحب السماء شأنه ورفع يده إلى السماء وقال في دعائه: "يا من خلق خلقه وأبلى بعضهم ببعض وجعل ذلك محنة لهم أسألك بجاه محمد النبي ﷺ إلا ما جعلت لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً"، ثم عاد إلى القتال وأصحاب رسول الله ﷺ يقاتلون معه تحت رايته، فلله در أبي ذر الغفاري ﷺ فإنه نصر ابن عم رسول الله ﷺ وجاهد بين يديه. قال عمرو بن ساعدة: فلقد رأيته مع كبر سنه يضرب بسيفه ضرباً شديداً في الروم وينتمي إلى قومه ويذكر عند حملاته اسمه ويقول: أنا أبو ذر، والمسلمون يفعلون كفعله إلى أن بلغت القلوب الحناجر وظنوا أن في ذلك الموضع قبورهم.

قال الواقدي رحمه الله تعالى: حدثني عبد الله بن أنيس الجهني قال: كنت أحب جعفراً وأحب من أولاده عبد الله، فلما قبض أبو بكر ﷺ وكان قائماً مقام أبيه نظرت إلى أمه أسماء بنت عميس حزينة فكرهت أن أنظر إليها في ذلك الحزن، وأيضاً أن أبا بكر ﷺ كان يحب عبد الله حباً شديداً فاستأذن عبد الله بن جعفر عمر بن الخطاب ﷺ في المسير إلى الشام، وقال لي: يا ابن أنيس الجهني أشتهي أن ألحق بالشام ومعنا عشرون فارساً أكون مجاهداً أفتصحبني؟ فقلت: نعم. فودَّع عمه علياً ﷺ وودع عمر ﷺ وسار يريد الشام ومعنا عشرون فارساً حتى أتينا تبوك. فقال: يا ابن أنيس أتدري موضع قبر أبي؟ فقلت: نعم. فقال: أشتهي أن أرى الموضع. فما زلنا حتى أتينا الموضع فأريته موضع مصرع أبيه وموضع الوقعة وقبر أبيه جعفر رحمه الله تعالى وعليه حجارة، فلما نظر إليه نزل ونزلنا معه وبكى وترحم فأقمنا عنده إلى صبيحة اليوم الثاني.

فلما رحلنا رأيت عبد الله يبكي ووجهه مثل الزعفران فسألته عن ذلك. فقال: رأيت أبي البارحة في النوم وعليه حلتان خضراوان وتاج وله جناحان وبيده سيف مسلول أخضر فسلمه إليَّ وقال: يا بني قاتل به أعداءك فما وصلت إلى ما ترى إلا

بالجهاد، وكأني أقاتل بالسيف حتى تثلَّم. قال عبد الله بن أنيس وسرنا حتى أتينا عسكر أبي عبيدة ﷺ بدمشق، فبعثه أمير تلك السرية إلى دير أبي القدس. فلما رأيت ما بينه وبين الروم، قلت يوشك أن يذهب عبد الله فسرت كالبرق ورجعت إلى أبي عبيدة ﷺ، فلما رآني قال: أبشارة يا ابن أنيس أم لا؟ فقلت: أنفذ المسلمين إلى نصرة عبد الله بن جعفر ومن معه، ثم حدثته بالقصة فقال أبو عبيدة ﷺ: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون أيصاب عبد الله بن جعفر ومن معه تحت رايتك يا أبا عبيدة وهي أول إمارتك.

ثم التفت إلى خالد بن الوليد ﷺ فقال له: يا أبا سليمان سألتك بالله الحق عبد الله بن جعفر فأنت المعد لها! فقال خالد: أنا لها إن شاء الله وما كنت أنتظر إلا أن تأمرني! فقال أبو عبيدة ﷺ: استحييت منك يا أبا سليمان! فقال: والله لو أمر عليَّ طفل صغير لأطيعن له، فكيف أخالفك وأنت أقدم مني إيماناً وأسبق إسلاماً سبقت بإسلامك مع السابقين وسارعت بإيمانك مع المسارعين وسماك رسول الله بالأمين، فكيف ألحقك أو أنال درجتك، والآن أشهدك أني قد جعلت نفسي حسيباً في سبيل الله تعالى لا أخالفك أبداً، ولا وليت إمارة بعدها أبداً! فاستحسن المسلمون قوله، فقال أبو عبيدة ﷺ: يا أبا سليمان الحق إخوانك رحمك الله. فوثب خالد ﷺ كأنه الأسد وسار إلى رحله فأفرغ عليه درع مسيلمة الكذاب، وألقى بيضة على رأسه وأردفها قلنسوة وتقلد بحسامه وانصب في سرجه كأنه السيل، ونادى بجيش الزحف هلموا إلى جذب السيوف، فأجابوه مسرعين كأنهم العقبان وبادروا إلى طاعة الرحمن وأخذ خالد الراية بيده وهزها على ركابه ودار به عساكر الزحف من كل جانب وودع المسلمون بعضهم بعضاً وساروا وسار خالد وعبد الله بن أنيس يدلهم على الطريق.

قال رافع بن عميرة الطائي: كنت يومئذ من أصحاب خالد بن الوليد ﷺ ولم يزل مجداً في السير والله ﷻ يطوي لنا البعيد، فلما كان عند غروب الشمس أشرفنا على القوم والروم كالجراد المنتشر قد غرق المسلمون في كثرتهم. فقال خالد: يا ابن أنيس في أي جانب أطلب ابن عم رسول الله ﷺ فقلت له إنه واعد أصحابه أن يلتقوا عند دير الراهب أو موعدهم الجنة. فنظر خالد نحو الدير فشاهد الراية الإسلامية، وهي بيد عبد الله بن جعفر، وما من المسلمين إلا وقد أصيب بجرح، وقد أيسوا من الحياة الفانية وطمعوا في الحياة السرمدية، والروم تناوشهم بالحرب وتكثر الطعن والضرب وعبد الله بن جعفر يقول لأصحابه: دونكم والمشركين واصبروا لقتال المارقين واعلموا أنه قد تجلى عليكم أرحم الراحمين، ثم قرأ الآية قوله تعالى: "كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ"، فلما نظر خالد ﷺ إلى صبرهم وتجلدهم على قتال أعدائهم لم يطق الصبر دون أن حمل عليهم وهزَّ رايته، وقال

لأصحابه: دونكم القوم القباح فأرووا من دمائهم السلاح، وأبشروا بالنجاح يا أهل حي على الفلاح!

فبينما أصحاب عبد الله بن جعفر في أشد ما يكونون فيه إذ خرجت عليهم خيل المسلمين وكتائب الموحدين؛ فلما نظر عبد الله وأصحابه إلى ذلك ظنوا أنها نجدة الأعداء فأيقنوا بالهلاك والفناء وجعلوا ينظرون إلى الخيل التي رأوها وإذا هي قاصدة إليهم ففزعوا وجزعوا وظنوا أن كميناً من الروم قد خرج لقتالهم فعظم عليهم الأمر، وإذا بفارس على المقدمة ينادى بأعلى صوته: أبشروا يا معاشر حملة القرآن بالنصر المشيد أنا خالد بن الوليد! فلما نظر المسلمون الراية وسمعوا صوت خالد ﷺ كأنهم كانوا في لجة وأخرجهم فأجابوه بالتهليل والتكبير، وكانت أصواتهم كالرعود القواصف والرياح العواصف، ثم حمل خالد بن الوليد ﷺ بجيش الزحف الذي لا يفارقه ووضع السيف في الروم. قال عامر بن سراقة: فما شبهت حملته إلا حملة الأسد في الغنم ففرقهم يميناً وشمالاً. فثبت المسلمون، وكل علج من الروم شديد يمانع عن نفسه وخالد يطلب أن يصل إلى عبد الله بن جعفر.

قال واثلة بن الأسقع: لقد كنا آيسنا من أنفسنا وأيقنا بالهلاك حتى أتتنا المعونة من الله ﷻ، فحملنا بحملة إخواننا. فما اختلط الظلام حتى نظرت إلى خالد بن الوليد ﷺ والراية بيده، وهو يسوق المشركين بين يديه سوق الغنم إلى المراعي والمسلمون يقتلون ويأسرون فلله در أبي ذر الغفاري وضرار بن الأزور والمسيب بن نجبة الفزاري لقد قرنوا المواكب وهزوا المضارب وقتلوا الروم من كل جانب والتقى ضرار بعبد الله بن جعفر ﷺ فنظر إليه والدم على أكمام درعه كأكباد الإبل! فقال: شكراً لله تعالى لك يا ابن عم رسول الله ﷺ والله إنك لقد أخذت بثأر أبيك وشفيت غليلك! فقال عبد الله بن جعفر ﷺ: من الرجل المخاطب لي؟ وكان الظلام قد اعتكر وضرار ملثم لا يبين منه إلا الحدق فلم يعرفه عبد الله. فقال: أنا ضرار بن الأزور صاحب رسول الله ﷺ فقال: مرحباً بطلعتك وبأخ منا عدل لنا وقام لنصرتنا.

معركـــة ضــــرار

قال عبد الله بن أنيس: فبينما هم على ذلك إذ أقبل خالد بن الوليد ﷺ وجيش الزحف. فقال: شكر الله لك وأحسن جزاءك! ثم قال عبد الله: يا ضرار اعلم أن حامية الروم والبطارقة عند الدير لأجل ابنة صاحب طرابلس وما معها من الأموال، وقد أحاط بها كل فارس من الروم، فهل لك يا ابن الأزور أن تحمل معي؟ فقال: وأين هم؟ فقال: أما تنظر إليهم؟ فمد عينه، وإذا بحامية الروم وبطريق طرابلس وقد أحدقوا

بالدير يمنعون عن الجارية والنيران مشتعلة والصلبان تلمع كضوء النار وكأنهم سد من حديد. فقال: أرشدك الله للخيرات فنعم المرشد أنت! احمل حتى أحمل معك بحملك.

فحمل عبد الله بن جعفر من جهته وحمل ضرار بن الأزور من جهته واتبعتهما الرجال وزعقوا في الروم وحماة المشركين وهم يمانعون عن أنفسهم وكان أشدهم منعة بطريقهم فبرز أمام القوم وهو يهدر كالبعير ويزأر زئير الأسد يصيح بكلمة الكفر ويحمل حملات الشجعان فقصده ضرار بن الأزور وباطشه في الضرب والتقت الأقران ونظر ضرار إلى العلج وعظم خلقته وتمكنه في سرجه وشدة ضربه وحسن احترازه فأخذ ضرار منه حذره، واحترز منه البطريق وطلبه أشد الطلب وكل واحد منهما طامع في صاحبه، فانفرد ضرار بن الأزور مع صاحب القوم وكل قرن مع قرنه، وليس مع ضرار أحداً من المسلمين فانبسط ضرار بين أيديهم ليمكر بهم وطلبه البطريق وأصحابه وقصدوه بحملتهم.

فلما نظر ضرار إلى ذلك قصد موضعاً يصلح لمجال الخيل فاعترضه واحد منهم في ظلمة الليل فكبا به الجواد فسقط على الأرض هاوياً ثم ثار من سقطته يروم أخذ الفرس فلم يجد إلى ذلك سبيلاً فوقف مكانه وسيفه وجحفته بيده وجعل يجاهدهم بسيفه، فخفق عليه بطريق الروم وأقبل يضربه بعموده فلما لازمه ورمى العمود عليه زاغ ضرار عن الضربة، ثم وثب إليه وثبة الأسد وضربه ضربة أزعجت فرس البطريق من تحته وقام على رجليه وشد بيديه، وضربه الثانية فوقعت ضربة ضرار في عين جواده فانتكس الجواد إلى الأرض، ووقع العلج على ظهره، ولم يقدر أن يقوم لأنه مزرد في سرجه، فعالجه ضرار قبل وصول غلمانه إليه وضربه على حبل عاتقه فنبا سيفه ولم يعمل شيئاً فناهضه العلج وقد أيقن بالهلاك وقبض عليه وكان كالجبل العظيم فرماه ضرار تحته وملك صدره واستوى على نحره، وكان مع ضرار سكين من صنعة اليمن لا تفارقه فاستلها من غمدها وضرب صدر عدو الله إلى سرته فسقط قتيلاً.

ثم وثب ضرار وملك جواد عدو الله واستوى في سرجه، وكان على الجواد كثيراً من الذهب والفضة والفصوص التي تساوي ثمناً كثيراً، فلما صار على ظهر الجواد حمل وكبر على المشركين ففرقهم يميناً وشمالاً، وكان ضرار لما انبسط أمام القوم ملك عبد الله بن جعفر الدير ومن فيه ومن معه من المسلمين وأحدقوا به ولم يأخذوا منه شيئاً حتى رجع خالد ﷺ من اتباع الروم، وذلك أن خالداً اتبعهم إلى نهر عظيم كان بينهم وبين طرابلس الشام، والروم يعرفون مخاوضه فوقف خالد ورجع إلى أصحاب رسول الله ﷺ فوجدهم قد ملكوا الدير وقتلوا العلج وانتشر الناس في

جمع الغنائم وما كان في السوق من المتاع والفراش والقماش والثياب والطعام وغيره. قال واثلة بن الأسقع: فجعلنا نجمعه ونأكل من الخيرات وأخرجوا ما كان في الدير من آنية الذهب والفضة والستور والمراتب وأخرجوا ابنة البطريق ومعها أربعون جارية لهن حلي وحلل، والمال على البراذين والبغال والحمير فانقلب أصحاب رسول الله ﷺ بالغنيمة والأموال الجسيمة.

قال الواقدي: فنسبت تلك السرية لثلاث: عبد الله بن جعفر صاحبها، وعبد الله بن أنيس مدركها، وخالد بن الوليد منجدها ولقي خالد فيها مشقة وجراحاً مؤلمة، فلما ساروا أقبل خالد إلى الدير فصاح بصاحبه يا راهب فلم يكلمه فهتف به مرة أخرى وهدده فاطلع عليه وقال: قل ما تشاء وحق المسيح ليطالبنك صاحب هذه الخضراء بدماء من قتلت. فقال خالد: كيف يطالبنا وقد أمرنا أن نقاتلكم ونجاهدكم ووعدنا على ذلك الثواب، ووالله لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن نتعرض لكم لما تركتك في صومعتك بل كنت قتلتك أشر قتلة! فسكت الراهب عنه ولم يجبه وانقلب خالد والمسلمون بالغنائم إلى دمشق وأبو عبيدة رضي الله عنه فيها فشكر لهم وسلم على خالد وعلى عبد الله بن جعفر رضي الله عنه ورجع إلى مكانه فخمّس الغنيمة وقسمها على الناس فدفع لضرار بن الأزور فرس البطريق وسرجه وما عليه من حلي الذهب والفضة والجواهر والفصوص فأتى به ضرار إلى أخته خولة رضي الله عنها فرأيتها تنزع فصوص الجوهر فتفرقها على نساء المسلمين وإن الفص منها ليساوي الثمن الكثير! وعرض السبي على أبي عبيدة رضي الله عنه وفي الجملة ابنة البطريق، فقال عبد الله بن جعفر: أريدها. قال أبو عبيدة: حتى استأذن أمير المؤمنين في ذلك فكتب إليه يعلمه بها وبمسألة عبد الله بن جعفر فكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هي له، فأخذها عبد الله وأقامت زماناً عنده وعلمها الطبخ، وكانت من قبل تعرف طبخ الفرس والروم وأقامت عنده إلى أيام يزيد فأخبر بها فاستهداها منه فأهداها له، وكانت عنده.

فلما رجع جيش المسلمين غانماً كتب أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتاباً يخبره بما فتح الله على يديه وما غنم المسلمون من دير أبي القدس ويمدح خالداً ويشكره ويثني عليه ويخبره بما قال فيه وما تحلم به وسأله في كتابه أن يكتب إلى خالد يستشيره في المسير إلى هرقل أو إلى بيت المقدس وكتب إليه أيضاً أن بعض المسلمين يشربون الخمر، قال عاصم بن ذؤيب العامري، وكان ممن شهد قتال الروم بالشام وفتح دمشق من العرب الوافدين من اليمن فأخذوا في الشرب واستطابوا ذلك فأنكر ذلك الأمير أبو عبيدة. فقال رجل من العرب أظنه سراقة بن عامر: يا معاشر المسلمين خلوا شرب الخمور فإنها تزيل العقول وتكسب الإثم، وإن رسول الله ﷺ لعن شارب الخمر حتى لعن حاملها والمحمولة إليه.

.... عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف الغفاري قال: كنت مع أبي عبيدة بالشام فكتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ يخبره بفتح الشام وفي الكتاب: أن المسلمين يشربون الخمر واستقلوا الحد فقدمت المدينة فوجدت عمر ﷺ في مسجد رسول الله ﷺ جالساً وعنده نفر من الصحابة وهم عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف يتحدثون فدفعت الكتاب إليه، فلما قرأه جعل يفكر في ذلك ثم قال: إن رسول الله ﷺ جلد من شربها، ثم سأل عمر علياً ﷺ في ذلك وقال: ما ترى في هذا؟ فقال علي ﷺ: إن السّكْران إذا سكر هذِي، وإذا هذي افترى فكتب إليه عمر أن من شرب الخمر فعليه ثمانون جلدة ولعمري ما يصلح لهم إلا الشدة والفقر، ولقد كان حقهم يراقبوا ربهم ﷻ ويعبدوه ويؤمنوا به ويشكروه! فمن عاد فأقم عليه الحد.

قال الواقدي: فلما ورد كتاب عمر ﷺ وقرأه نادى في المسلمين من كان في نفسه حد فليعط ذلك من نفسه وليتب إلى الله ﷻ ففعل ذلك كثير من الناس ممن كان شرب الخمر وأعطى الحد من نفسه، ثم قال أبو عبيدة ﷺ: إني عزمت على المسير إلى أنطاكية وقصد قلب الروم لعل الله يفتح فتحاً على أيدينا. فقال المسلمون: سر حيث شئت فنحن تبع لك نقاتل أعدائك. فسرّ بقولهم وقال: تأهبوا للرحيل فإني سائر بكم إلى حلب فإذا فتحناها توجهنا منها إن شاء الله تعالى إلى أنطاكية، فأسرع المسلمون في إصلاح شأنهم وأخذوا أهبتهم، فلما فرغ أبو عبيدة ﷺ من جميع شغله أمر خالد بن الوليد ﷺ أن يأخذ راية العقاب التي عقدها أبو بكر الصديق ﷺ وأمره أن يسير أمام الجيش بعسكر الزحف فسار خالد على المقدمة ومعه ضرار بن الأزور ورافع بن عميرة الطائي والمسيب بن نجبة الفزاري والناس يتبع بعضهم بعضاً وترك على دمشق صفوان بن عامر السلمي وترك عنده خمسمائة رجل وسار أبو عبيدة بالمسلمين ومعه ناس من اليمن ومضر.

ذكر فتح حمص

قال الواقدي: وسار أبو عبيدة على طريق البقاع واللبوة، فلما وصل إلى هناك بعث خالد بن الوليد ﷺ إلى حمص قال: يا أبا سليمان انهض على بركة الله تعالى وعونه، ونازل القوم وشن الغارة على أرض العواصم وقنسرين وأنا أسير إلى بعلبك فلعل الله أن يسهل علينا فتحها، ثم ودعه وسار خالد ﷺ بمن معه إلى حمص وتوجه أبو عبيدة ﷺ إلى بعلبك إذ ورد بطريق جوسيه ومعه الهدايا والتحف وصالح المسلمين سنة كاملة وقال: إن فتحتم بعلبك فأنا بين أيديكم ولا نخالف لكم قولاً فصالحهم أبو عبيدة ﷺ على أربعة آلاف درهم وخمسين ثوباً من الديباج.

فلما انبرم الصلح سار أبو عبيدة ﷺ، يطلب بعلبك. فما بعد من اللبوة إلا وقد أشرف عليه راكب نجيب فإذا هو أسامة بن زيد الطائي، فقال: يا أسامة من أين أقبلت؟ فأناخ نجيبه وسلم على أبي عبيدة ﷺ وعلى المسلمين وقال: أتيت من المدينة وسلم إليه كتاباً من عمر بن الخطاب ﷺ ففضه أبو عبيدة ﷺ، وإذا فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أمين الأمة: سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ، أما بعد فلا مرد لقضاء الله وقدره، ومن كتب في اللوح المحفوظ كافراً فلا إيمان له، وذلك أن جبلة بن الأيهم الغساني كان قدم علينا ببني عمه وسراة قومه، فأنزلتهم وأحسنت إليهم وأسلموا على يدي وفرحت بذلك إذ شد الله عضد الإسلام والمسلمين بهم، ولم أعلم ما كمن في الغيب وإنا سرنا إلى مكة حرسها الله تعالى وعظمها نطلب الحج، فطاف جبلة بالبيت أسبوعاً فوطئ رجل من فزارة إزاره فسقط إزاره عن كتفه فالتفت إلى الفزاري، وقال: يا ويلك كشفتني في حرم الله تعالى، فقال: والله ما تعمدتك!

فلطم جبلة بن الأيهم الفزاري لطمة هشم بها أنفه وكسر ثناياه الأربع! فأقبل الفزاري إلي مستعيناً على جبلة، فأمرت بإحضاره وقلت له: ما حملك على أن لطمت أخاك في الإسلام وكسرت ثناياه الأربع وهشمت أنفه؟ فقال جبلة: إنه وطئ إزاري برجله فحله، والله لولا حرمة هذا البيت لقتلته، فقلت له: قد أقررت على نفسك فإما أن يعفو عنك وإما أن آخذ له منك القصاص. فقال: أيقتص مني وأنا ملك وهو من السوقة؟! قلت: قد شملك وإياه الإسلام فما تفضله إلا بالعافية. فقال: أتتركني إلى غد وتقتص مني؟ فقلت للفزاري: أتتركه إلى غد؟ قال: نعم. فلما كان الليل ركب في بني عمه وتوجه إلى الشام إلى كلب الطاغية، وأرجو أن الله تعالى يظفرك به. فانزل على حمص ولا تنفذ عنها فإن صالحك أهلها فصالحهم، وإن أبوا فقاتلهم وابعث عيونك إلى أنطاكية وكن على حذر من المتنصرة والسلام عليك ورحمة الله وعلى جميع المسلمين.

قال الواقدي: فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب في سره جهر به مرة أخرى ثم لوى يطلب حمص، وكان خالد ﷺ سبقه إليها بثلث الجيش فنزل عليها يوم الجمعة من شوال سنة أربع عشرة من الهجرة النبوية، وكان عليها والياً بطريق من قبل هرقل اسمه "لقيطا" وكان قد مات قبل نزول خالد والمسلمين ﷺ أجمعين فاجتمع المشركون في كنيستهم العظمى، وقال كبيرهم: اعلموا أن صاحب الملك قد مات وليس عند الملك خبر من هؤلاء العرب وقد نزلوا علينا وما ظننا ذلك، ولقد حسبنا أنهم لا ينزلون علينا

حتى يفتحوا جوسيه ويعلبك وإن أنتم قاتلتموهم وكاتبتم الملك أن يسيِّر إليكم والياً وجيشاً، فإن العرب لا تمكن أحداً من جنود الملك أن يسير إليكم ولا يصل لكم، وليس عندكم طعام يقوم بكم للحصار، فقالوا: أيها السيد فما الذي ترى؟ قال: تصالحون القوم على ما أرادوا وتقولون نحن لكم وبين أيديكم إن فتحتم حلب وقنسرين وهزمتم جيش الملك، فإذا توجه القوم عنا بعثنا إلى الملك أن يمدنا بجيش عرمرم ويولي من أراد علينا ويستوثق لنا من الطعام والعمد، وبعد ذلك نقاتلهم فاستصوب القوم رأيه وقالوا: دبرنا بحسن رأيك وتدبيرك، فبعث البطريق إلى أبي عبيدة ﷺ جاثليقاً كان عندهم معظماً ليعقد الصلح بينهم وبين المسلمين فخرج الجاثليق ووصل إلى أبي عبيدة ﷺ وتكلم في الصلح معه بما تحدث به البطريق من أمر سير المسلمين إلى حلب وقنسرين والعواصم وأنطاكية فأجابهم أبو عبيدة ﷺ إلى ذلك وصالح أهل حمص على عشرة آلاف دينار ومائتي ثوب من الديباج وعقد الصلح معهم سنة كاملة أولها ذو القعدة وآخرها شوال سنة أربع عشرة من الهجرة. وانبرم الصلح وخرجت السوقة من حمص إلى عسكر المسلمين فباعوا واشتروا ورأى أهل حمص سماحة العرب في بيعهم وشرائهم وربحوا منهم ربحاً وافياً.

ذكر حديث سرية خالد بن الوليد

قال الواقدي: إن أبا عبيدة دعا بخالد وضم إليه أربعة آلاف فارس وقال: يا أبا سليمان شن الغارة بهذه الكتيبة واقصد بها المعرة واقرب من معرة حلب وشن بها الغارة على بلدة العواصم وارجع على أثرك وأنفذ عيونك وانظر إن كان للقوم نجدة أو ناصر من قومهم أم لا. فأجابه خالد إلى ذلك وأخذ الراية وتقدم أمام الكتيبة، وسار إلى شيزر ونزل على النهر المقلوب، ودعا بمصعب بن محارب اليشكري وضم إليه خمسمائة فارس وأمره أن يشن الغارة على العواصم وقنسرين... وسار خالد بن الوليد إلى كفرطاب والمراه وإلى دير سمعان وجعلت خيل المسلمين تغير يميناً وشمالاً على القرى والرساتيق ويأخذون الغنائم والأسارى فرجعوا إلى خالد بن الوليد بالأسارى فسار بهم إلى أبي عبيدة ﷺ، فلما نظر إلى خالد وما معه من الغنائم والأموال فرح فرحاً شديداً وإذا خلف خالد سواد عظيم قد ارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير. فقال أبو عبيدة ﷺ: ما هؤلاء يا أبا سليمان؟ فقال خالد: هذا مصعب بن محارب اليشكري وقد عقدت له راية على خمسمائة فارس من قومه، ومن أهل اليمن وإنه أغار بهم على العواصم وقنسرين وقد أتى بالغنائم والسبي والأموال، فالتفت الأمير أبو عبيدة فنظر إلى سرح عظيم من البقر

والغنم وبراذين عليها رجال ونساء و صبيان ولهم دوي عظيم وبكاء شديد فقصدهم أبو عبيدة ﷺ وإذا برجال مقرونين في الحبال وهم يبكون على عيالهم ونهب أموالهم، وخراب ديارهم. فقال أبو عبيدة ﷺ لترجمانه: قل لهم ما بالكم تبكون ولم لا تدخلون في دين الإسلام وتطلبون الأمان والذمام لتأمنوا على أنفسكم وأموالكم؟! فقال لهم الترجمان ذلك. فقالوا: أيها الأمير نحن كنا بالبعد منكم وكانت أخباركم تأتينا وما ظننا أنكم تبلغون إلينا فما شعرنا حتى أشرف علينا أصحابكم فنهبوا أموالنا وأولادنا وساقونا في الحبال كما ترى.

قال الواقدي: وكانت الأعلاج زهاء من أربعمائة علج. فقال لهم الأمير: إن مننا عليكم وأطلقناكم من أسركم ورددنا عليكم أموالكم وأهاليكم فهل تكونون في طاعتنا وتؤدون الجزية إلينا والخراج؟ فقالوا: أوف لنا بذلك ونحن نفعل جميع ما شرطته علينا، فعند ذلك أقبل أبو عبيدة ﷺ إلى المسلمين، وقال لهم: قد رأيت من الرأي أن أؤمن هؤلاء من القتل وأرد عليهم أموالهم وعيالهم فيكونوا عبيداً لنا ويعمروا الأرض والبلاد ونأخذ خراجهم وجزيتهم فما أنتم قائلون فما كنت بالذي أقطع أمراً إلا بمشورتكم؟ فقالوا: الرأي رأيك في ذلك أيها الأمير إن رأيت صلاحاً للمسلمين. ففرض على كل واحد أربعة دنانير وبذلك كتب إليه عمر بن الخطاب ﷺ، فعند ذلك رد عليهم أموالهم وأولادهم وأقرهم على بلادهم وكتب أسماءهم وأمرهم بالرجوع إلى أوطانهم، فلما استقروا في خيامهم أخبروا من كان بالقرب منهم بحسن سيرة العرب وما عاملوهم به من الجميل وقالوا: لقد ظننا أنهم يقتلوننا ويستعبدون أولادنا والآن قد رحمونا وأقرونا في بلادنا على أداء الجزية والخراج. فسمعت الروم ذلك فأقبلوا إلى أبي عبيدة ﷺ في طلب الأمان وأداء الجزية والخراج.

ذكر فتح قنسرين

قال الواقدي: وبلغ الخبر إلى أهل قنسرين أن الأمير أبا عبيدة يعطي الأمان من قصده فأحبوا أن يأخذوا الأمان من أبي عبيدة ﷺ وأجمعوا رأيهم على ذلك وأن ينفذوا رسولاً من غير علم بطريقهم. وكان على قنسرين والعواصم بطريق من بطارقة الملك من أهل الشدة والبأس اسمه لوقا، وكان أهل قنسرين يخافون منه، وصاحب حلب عسكره مثل عسكره وسطوته مثل سطوته، وكان الملك هرقل قد دعا بهما إليه، فقالا له: أيها الملك ما كنا نترك ملكنا من غير أن نقاتل قتالاً شديداً فشكرهما الملك هرقل على ذلك ووعدهما أن يبعث إليهما جيشاً عرمرماً وكانا منتظرين ذلك، وكان مع كل واحد منهما عشرة آلاف فارس إلا أنهما لا يجتمعان في موضع واحد.

فلما سمع صاحب قنسرين ما قد عزم عليه أهل قنسرين من الصلح مع أبي عبيدة غضب غضباً شديداً وعزم أن يمكر بهم فجمع أهل قنسرين إليه وقال لهم: يا بني الأصفر ما تريدون أن أصنع مع هؤلاء العرب وكأنكم بهم وقد أقبلوا إلينا يفتحون بلادنا كما فتحوا أكثر بلاد الشام. فقالوا: أيها السيد قد بلغنا أنهم أصحاب وفاء وذمة وقد فتحوا أكثر البلاد بالصلح والعدل، ومن قاتلهم قاتلوه واستعبدوا أهله وأولاده، ومن دخل تحت طاعتهم أقروه في بلده وكان آمنا من سطوتهم، والرأي عندنا أن نصالح القوم ونكون آمنين على أنفسنا وأموالنا. فقال لهم البطريق: لقد أشرتم بالصواب والأمر الذي لا يعاب، لأن هؤلاء العرب قوم منصورون على من قاتلهم، وها أنا أعقد لكم الصلح معهم سنة كاملة إلى أن توافينا جيوش الملك هرقل ونعطف عليهم وهم آمنون فنبيدهم عن آخرهم. فقالوا: افعل ما فيه الصلاح.

واتفق أهل قنسرين والبطريق على صلح المسلمين وفي قلوبهم الغدر. وإن لوقا البطريق دعا برجل من أصحابه اسمه اصطخر، وكان قسيساً عالماً بدين النصرانية فصيح اللسان قوي الجنان يعرف العربية والرومية، وقد عرف الدينين اليهودية والنصرانية. فقال لوقا: يا أبانا سر إلى العرب وقل لهم يصالحونا سنة كاملة حتى نبعد القوم بالحيلة والخداع. ثم كتب الكتاب إلى الأمير أبي عبيدة ﷺ فقال بعد كلمة كفره: أما بعد يا معاشر العرب إن بلدنا منيع كثير العدد والرجال فما تأتونا من قبله ولو أقمتم علينا مائة سنة ما قدرتم علينا، وإن الملك هرقل قد استنجد عليكم من حد الخليج إلى رومية الكبرى ونحن قد بعثنا إليكم نصالحكم سنة كاملة حتى نرى لمن تكون البلاد، ونحن نريد منكم أن تجعلوا بيننا وبينكم علامة من حد أرض قنسرين والعواصم حتى إذا همت العرب بالغارة بدت العلامة تريكم حد أرضنا، ونحن نصالحكم خفية من الملك هرقل لئلا يعلم فيقتلنا والسلام.

ثم خلع على اصطخر خلعة سنية وأعطاه بغلة من مراكبه وعشرة غلمان، وسار حتى وصل إلى حمص فرأى الأمير أبا عبيدة ﷺ يصلي بالمسلمين صلاة العصر فوقف اصطخر ينظر ما يفعلون ويعجب من ذلك، فلما فرغوا من صلاتهم ونظروا إلى القسيس وثبوا إليه، وقالوا له: من أنت؟ ومن أين أقبلت؟ فقال: أنا رسول ومعي كتاب، فمثلوه بين يدي أبي عبيدة فهم القسيس بالسجود له فمنعه أبو عبيدة ﷺ، من ذلك، وقال له: نحن عبيد الله ﷻ فمنا شقي ومنا سعيد "فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ"، فلما سمع اصطخر ذلك بهت وبقي لا يرد جواباً، وهو متعجب مما تكلم به الأمير أبو عبيدة ﷺ. فناداه خالد بن الوليد ﷺ وقال له: ما شأنك أيها الرجل ورسول من أنت؟ فقال اصطخر:

أأنت أمير القوم؟ فقال خالد: لا بل هذا أميرنا، وأشار إلى أبي عبيدة ﷺ. فقال اصطخر: أنا رسول صاحب قنسرين والعواصم، ثم أخرج الكتاب ودفعه إلى أبي عبيدة ﷺ فأخذه وقرأه على المسلمين.

فلما سمع خالد بن الوليد ﷺ ما في الكتاب من صفة مدينتهم وكثرة عددهم ورجالهم وتهديدهم بجيوش الملك هرقل حرك رأسه وقال لأبي عبيدة: وحق من أيدنا بالنصر وجعلنا من أمة محمد ﷺ الطاهر إن هذا الكتاب من عند رجل لا يريد الصلح بل يريد حربنا! ثم قال لاصطخر: تريدون أن تخدعونا حتى إذا جاءت جنود صاحبكم ورأيتم القوم وقد جاؤوكم نقضتم صلحنا وكنتم أول من يقاتلنا، وإن رأيتم الغلبة لنا هربتم إلى طاغيتكم هرقل! فإن أردتم ذلك فنواعدكم الحرب مواعدة من غير أن يكون صلحاً سنة كاملة، فإن لحق بكم جيش هذه السنة من الملك هرقل، فلابد من قتاله فمن أقام في المدينة ولم يقاتل مع الجيش فهو على صلحنا لا نتعرض له. قال اصطخر: قد أجبناكم إلى ذلك فاكتبوا لنا كتاباً بذلك.

فقال خالد بن الوليد ﷺ: أيها الأمير اكتب لهم كتاباً بمواعدة الحرب سنة كاملة أولها مستهل شهر ذي القعدة سنة أربع عشرة من الهجرة النبوية. فكتب له أبو عبيدة ﷺ بذلك، فلما فرغ من الكتاب قال له اصطخر: أيها الأمير حد بلادنا معروف ويإزائنا صاحب حلب وبلاده بحد بلادنا ونريد أن تجعل لنا علامة فيما بيننا وبينكم حتى إذا طلب أصحابكم الغارة لا يتجاوزون ذلك. فرضي أبو عبيدة ﷺ بذلك، وقال: أنا أبعث من يحدد لكم ذلك، قال اصطخر: أيها الأمير ما نريد معنا أحداً من أصحابك نحن نصنع عموداً وننصبه ويكون عليه صورة الملك هرقل، فإذا رآه أصحابك لا يجاوزونه. فقال أبو عبيدة ﷺ: افعل ذلك، ثم دفع إليه الكتاب ونادى في عساكر المسلمين وأصحاب الغارات من نظر إلى العمود فلا يتعداه ولا يتجاوزه بل يشن الغارة على أرض حلب وحدها ولا يتجاوز العمود فليبلغ الشاهد الغائب. ورجع اصطخر إلى البطريق قنسرين وأعلمه بما جرى له مع خالد بن الوليد ﷺ ودفع له الكتاب، ففرح بذلك وقصد إلى عمود عظيم وصنع عليه صورة الملك هرقل كأنه جالس على كرسي مملكته.

وكانت خيل المسلمين تضرب غارتها إلى أقصى بلاد حلب والعمق وأنطاكية ويحيدون عن حد قنسرين والعواصم ولا يقربون العمود. قال عمر بن عبد الله الغبري عن سالم بن قيس عن أبيه سعد بن عبادة ﷺ قال: كان صلح المسلمين لأهل قنسرين والعواصم على أربعة آلاف دينار ملكية ومائة أوقية من الفضة وألف ثوب من متاع حلب وألف وسق من طعام.

قال الواقدي: حدثنا عامر قال: كنا في بعض الغارات إذ نظرنا إلى العمود وعليه صورة الملك هرقل فجئنا عنده وجعلنا نجول حوله بخيولنا ونعلمها الكر والفر، وكان بيد أبي جندلة قناة تامة فقرب به الجواد من الصورة، وهو غير متعمد ذلك ففقأ عين الصورة، وكان عندها قوم من الروم وهم غلمان صاحب قنسرين يحفظون العمود فرجعوا إلى البطريق وأعلموه بذلك فغضب غضباً شديداً ودفع صليباً من الذهب إلى بعض أصحابه وضم إليه ألف فارس من أعلاج الروم وعليهم الديباج الرومي وعليهم المناطق المجوفة وأمر اصطخر أن يسير معهم وقال له: ارجع إلى أمير العرب وقل له غدرتم بنا ولم توفوا بذمامكم، ومن غدر جندِل، فأخذ اصطخر الصليب وسار مع ألف فارس من الروم حتى أشرف على أبي عبيدة ﷺ، فلما نظر المسلمون إلى الصليب وهو مرفوع أسرعوا إليه ونكسوه فاستقبل أبو عبيدة القوم وقال: من أنتم؟ قال اصطخر: أنا رسول صاحب قنسرين إليك، وهو يقول لك غدرتم ونقضتم العهد الذي بيننا وبينكم! فقال أبو عبيدة ﷺ: وحق رسول الله ﷺ ما علمت بذلك وسوف أسأل عنه! ثم نادى: يا معاشر الناس من فقأ عين التمثال فليخبرنا بذلك، فقالوا: أيها الأمير أبو جندلة وسهل بن عمرو صنعا ذلك من غير أن يتعمداه.

فقال أبو عبيدة ﷺ لاصطخر: إن صاحبنا فعل ذلك من غير أن يتعمد فما الذي يرضيك منا؟ فقالت الأعلاج: لا نرضى حتى نفقأ عين ملككم يريدون بذلك أن يتطرقوا إلى رقاب المسلمين. فقال أبو عبيدة ﷺ: ها أنا فاصنعوا بي مثل ما صنع بصورتكم. قالوا: لا نرضى بذلك إلا بعين ملككم الأكبر الذي يلي أمر العرب كلها. فقال: إن عين ملكنا تمنع من ذلك. وغضب المسلمون حين ذكر الأعلاج عين عمر بن الخطاب ﷺ وهموا بقتل الأعلاج، فنهاهم أبو عبيدة ﷺ عن ذلك فقال المسلمون: أيها الأمير نحن دون إمامنا فنفديه بأنفسنا ونفقأ عيوننا دون عينه. فقال اصطخر عندما نظر إلى المسلمين وقد هموا بقتله وقتل من معه من الأعلاج: لا نفقأ عين عمر ولا عيونكم، ولكن نصور صورة أميركم على عمود ونصنع به مثل ما صنعتم بصورة ملكنا. فقال المسلمون: إن صاحبنا فعل ذلك من غير تعمد وأنتم تريدون العمد. فقال أبو عبيدة ﷺ: مهلاً يا قوم، فإذا رضي القوم بصورتي فقد أجبتهم إلى ذلك ولا يتحدث القوم عنَّا أننا عاهدنا وغدرنا فإن هؤلاء القوم لا عهد لهم ولا عقل، ثم أجابهم إلى ذلك. فصوروا أبا عبيدة ﷺ على عمود وجعلوا له عينين من زجاج وأقبل فارس منهم حنقاً ففقأ عين الصورة، ثم رجع اصطخر إلى صاحب قنسرين وأخبره بذلك، فقال لقومه: بهذا نالهم ما يريدون.

وأقام أبو عبيدة على حمص يغير يميناً وشمالاً ينتظر خروج السنة لينظر ما بعد ذلك، وأبطأ خبره على عمر بن الخطاب ﷺ ولم يرد عليه شيء من الكتب والفتح، فأنكر عمر ذلك وظن به الظنون وحسب أنه قد داخله خبر وقد ركن إلى القعود عن الجهاد، فكتب إليه عمر بن الخطاب ﷺ كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أمين الأمة أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ وآمرك بتقوى الله ﷻ سراً وعلانية، وأحذركم عن معصية الله ﷻ وأحذركم وأنهاكم أن تكونوا ممن قال الله في حقهم "قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ....الآية"، وصلى الله على خاتم النبيين وإمام المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

فلما وصل الكتاب إلى أبي عبيدة ﷺ قرأه على المسلمين، فعلموا أن أمير المؤمنين عمر يحرضهم على القتال، وندم أبو عبيدة ﷺ على صلح قنسرين ولم يبق أحد من المسلمين إلا بكى من كتاب عمر بن الخطاب ﷺ. وقالوا: أيها الأمير ما يقعدك عن الجهاد؟! فدع أهل شيزر وقنسرين واطلب بنا حلب وأنطاكية، فلعل الله أن يفتحهما على أيدينا وقد انقضى أجل الصلح وما بقي إلا القليل، وما البقاء إلا للملك الجليل، فعزم أبو عبيدة على المسير إلى حلب وعقد راية لسهل بن عمرو، وعقد راية أخرى لمصعب بن محارب اليشكري، وأمر عياض بن غانم أن يسير على مقدمتهم واتبعه خالد بن الوليد وسار أبو عبيدة ﷺ إلى أن نزل على الرشين وصالح أهلها وسار إلى حماة فخرج أهلها إليه ومعهم الإنجيل وقد رفعه الرهبان على أكفهم والقسس أمام القوم يطلبون منه الصلح والذمام، فلما رآهم أبو عبيدة ﷺ وقف، وقال لهم: ما الذي تريدون؟ فقالوا: أيها الأمير نريد أن نكون في صلحكم وذمامكم فأنتم أحب إلينا. فصالحهم أبو عبيدة وكتب لهم كتاب الصلح والذمام وخلف رجلاً من المؤمنين وسار حتى نزل إلى شيزر فاستقبلوه فصالحهم وقال لهم: أسمعتم للطاغية هرقل خبراً؟ فقالوا: ما سمعنا له خبراً غير أنه اتصل بنا الخبر أن بطريق قنسرين قد كتب إلى الملك هرقل يستنجده عليكم، وقد بعث بجبلة بن الأيهم الغساني من بني غسان والعرب المتنصرة ومعه بطريق عمورية في عشرة آلاف فارس وقد نزلوا على جسر الحديد فكن منهم على حذر أيها الأمير. فقال أبو عبيدة ﷺ: حسبنا الله ونعم الوكيل.

قال الواقدي: وأقام الأمير أبو عبيدة على شيزر وبقي مرة يقول: أسير إلى حلب ومرة يقول أسير إلى أنطاكية فجمع أمراء المسلمين إليه. وقال: أيها الناس قد بلغني أن بطريق قنسرين قد نقض العهد وأرسل للملك هرقل والخبر كذا وكذا فما أنتم قائلون؟

فقالوا: أيها الأمير دع أهل قنسرين والعواصم وسر بنا إلى حلب وأنطاكية. فقال: خذوا أهبتكم رحمكم الله. وكان قد بقي من الصلح والعهد الذي بينهم وبين أهل قنسرين شهر أو أقل من ذلك، فأقام أبو عبيدة ﷺ ينتظر انفصال العهد.

وكانت عبيد العرب يأتون بجراثيم الشجر من الزيتون والرمان وغير ذلك من الأشجار التي تطعم الثمار فعظم ذلك على الأمير أبي عبيدة ﷺ فدعا العبيد إليه وقال: ما هذا الفساد؟ فقالوا: أيها الأمير إن الأحطاب متباعدة منا وهذه الأشجار قريبة. فقال الأمير أبو عبيدة: عزيمة مني على كل حر وعبد قطع شجرة لها طعم وثمر لأجازينه ولأنكلن به، فلما سمع العبيد ذلك النكال جعلوا يأتون بالأحطاب من أقصى الديار. قال سعيد بن عامر وكان معي عبد نجيب وكان اسمه "مهجعاً" وقد شهد معي الوقائع والحروب، وكان جريء القلب في القتال. وكان إذا خرج في غارة أو في طلب حطب يتوغل ويبعد فخرج هو وجماعة من العبيد ممن شهد الوقائع في طلب الحطب، فأبطأ خبره على سيده سعيد بن عامر، فركب جواده وخرج في طلبه وجعل يقفو أثره إذ لاح له شخص وقد سال دمه على وجهه وصبغ سائر جسده وما يكاد يمشي خطوة واحدة إلا ويهوي على وجهه. قال سعيد بن عامر: فنزلت إليه وقلت له: ما وراءك من الأخبار؟ فقال: هلكة ودمار يا مولاي! فقلت: عليك يا ابن الأسود حدثني بخبرك.

قال سعيد: فلم يكد يقف حتى سقط على وجهه، فنضحت على وجهه ماء فسكن ما به. فقال: يا مولاي انج بنفسك وإلا أدركك القوم يصنعون بك مثل ما صنعوا بي. فقلت: من القوم الذين صنعوا بك ما أرى؟ فقال: خرجت يا مولاي أنا وجماعة من الموالي لنحتطب حطباً، فتباعدنا كثيراً في البر وإذا نحن بكتيبة من الخيل زهاء عن ألف فارس كلهم عرب وفي أعناقهم صلبان الذهب والفضة وهم معتقلون بالذهب والفضة والرماح، فلما نظروا إلينا أسرعوا نحونا وداروا بنا وعزموا على قتلنا. فقلت لأصحابي: دونكم وإياهم! فقالوا: ويحك ومن يقاتل وليس لنا طاقة بقتال هذه الكتيبة والخيل وما لنا إلا أن نلقي بأيدينا إلى الأسر فهو أهون من القتال. فقلت: لا والله ما سلمت نفسي إليهم دون أن أقاتل قتالاً شديداً، فلما رأوا مني الجد فعلوا مثل فعلي فقاتلنا القوم وقاتلونا فقتلوا منا عشرة وأسروا عشرة، وأما أنا فأثخنت بالجراح حتى سقطت على وجهي فرجعوا عني وبقيت كما ترى. قال سعيد: فغمني والله ما نزل بالعبيد فأردفته ورائي ورجعت على أثري وإذا بالخيل قد طلعت من ورائي كأنها الريح الهبوب أو الماء إذا اندفق من ضيق الأنبوب، وإذا بخيل غسان أحدقت بالرماح الطوال وهم يقولون: نحن بنو غسان من حزب الصليب والرهبان. قال سعيد: فناديتهم أنا من أصحاب محمد المختار ﷺ، فأسرع بعضهم إليّ وهمّ أن يعلوني بالسيف

فناديته: يا ويلك أتقتل رجلاً من قومك؟ فقال: من أي الناس أنت؟ قلت: أنا من الخزرج الكرام. فرد السيف وقال: أنت طلبة سيدنا جبلة بن الأيهم وحق المسيح، فقلت: ومن أين يعرفني جبلة حتى يطلبني؟ فقال: إنه يطلب رجلاً من أهل اليمن من أنصار محمد بن عبد الله، ثم قال: سر بنا طائعاً وإلا سرت كرهاً. قال سعيد بن عامر: فسرت والجيش معي حتى أشرفنا على جيش عرمرم وعنده أعلام و صلبان قد رفعت فلم أزل مع القوم حتى أتوا بي إلى مضرب جبلة بن الأيهم وإذا به جالس على كرسي من ذهب أحمر وعليه ثياب الديباج الرومي وعلى رأسه شبكة من اللؤلؤ وفي عنقه صليب من الياقوت. فلما وقفت بين يديه رفع رأسه إليَّ وقال: من أي عرب أنت؟ قلت: أنا من اليمن. قال: أكرمت! من أيها؟ فقلت: أنا من ولد حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عبد الله بن الأزور بن عوف بن مالك بن كهلان بن سبأ. فقال جبلة: من أي الملأ أنت نسباً؟ فقلت: أنا من ولد الخزرج بن حارثة من أنصار محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. فقال جبلة: وأنا من قومك من بني غسان. فقلت: أنا من القبيلة التي نسبت إليها! فقال: أنا جبلة بن الأيهم الذي رجعت عن الإسلام فما رضي صاحبكم عمر بن الخطاب أن يكون مثلي لهذا الدين ناصراً حتى يأخذ مني القود لعبد حقير وأنا ملك اليمن وسيد غسان! فقلت: يا جبلة إن حق الله أوجب من حقك وديننا لا يقوم إلا بالحق والنصفة، وإن عمر بن الخطاب ﷺ لا يخاف ولا تأخذه في الله لومة لائم، فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: سعيد بن عامر الأنصاري، فقال: أوطئ يا سعيد. قال: فجلست. فقال: ألك عهد بحسان بن ثابت الأنصاري؟ فقلت: شاعر رسول الله ﷺ ومن قال فيه المصطفى: "أنت حسان ولسانك حسام". فقال لي: كم لك منذ فارقته؟ فقلت: عهدي به قريب وقد دعاني إلى دعوة صنعها وأمر مولاته أن تنشد لي شعراً فيك فأنشدت:

لله در عصابة نادمتهم ... يوماً بجلق في الزمان الأول
يغشون حتى ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أنسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول
الملحقين فقيرهم بغنيهم ... المشفقين على اليتيم الأرمل
أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

ثم خرجنا إلى الشام وهذا آخر عهدي به. قال جبلة بن الأيهم: أَوَحفظ لي هذه المكرمة؟! قلت: نعم. قال: فأمر لي بثوب من الكتان الرومي وفيه شيء من الورِق. وقال: أنا أمرت لك بالكتان كي تلبسه ولا تحرِّمه، ثم قال لي: بحق ذمة العرب ما كنت تصنع في المكان الذي أسرت فيه؟ فقلت: إن الصدق أوفى ما استعمله الرجل، أنا من

أصحاب الأمير أبي عبيدة بن الجراح وقد قصدنا نريد حلب وأنطاكية. فقال جبلة: اعلم أن الملك قد بعثني أنا وهذا البطريق صاحب عمورية حتى ننصر صاحب قنسرين، فإنه قد كادكم بصلحه لكم وأنا منتظر أن يلاقينا بهذا المكان ولكن ارجع إلى صاحبك أبي عبيدة وحذره من أسيافنا وقل له يرجع من حيث قدم ولا يتعرض لبلاد هرقل وسوف ينزع من أيديكم ما قد ملكتموه من الشام. قال سعيد بن عامر: فركبت وأردفت غلامي وسرت حتى أتيت عسكر المسلمين، فأسرع الناس إليَّ وقالوا: أين كنت يا ابن عامر؟ فأتيت خيمة الأمير أبي عبيدة ﷺ وحدثته بقصتي مع جبلة بن الأيهم فقال لي: لقد خلصك الله بذكرك لحسان بن ثابت الأنصاري!

ثم جمع أصحاب رسول الله ﷺ للمشورة، ثم قال: أيها الناس ما ترون من قصة هذا البطريق وقد وفينا له وكادنا. فقال خالد بن الوليد ﷺ: إن البغي مصرعة وإن كادنا كان الله من ورائه بالمرصاد وسوف نكيده أعظم مكيدة وأنا أسير إلى لقائه بعشرة رجال من أصحاب رسول الله ﷺ. فقال أبو عبيدة: أنت لها يا أبا سليمان ولكل كريهة فخذ من أحببت من أصحاب رسول الله ﷺ. فقال خالد بن الوليد ﷺ: أين عياض بن غنم الأشعري؟ أين عمرو بن سعيد؟ أين مصعب بن محارب اليشكري؟ أين أبو جندلة بن سعيد المخزومي؟ أين سهل بن عمرو العامري؟ أين رافع بن عميرة الطائي؟ أين المسيب بن نجبة الفزاري؟ أين سعيد بن عامر الأنصاري؟ أين عمرو بن معد يكرب الزبيدي؟ أين عاصم بن عمرو القيسي؟ أين عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﷺ؟ فأجابوه بالتلبية.

قال الواقدي: وكان ضرار بن الأزور ﷺ رمد العينين لم يحضر هذه الوقعة، فقال لهم خالد بن الوليد: هلموا فوجدوه قد تدرع بدرع مسيلمة واشتمل بلأمة حربه وركب جواده، وقال لعبده همام: سر معي حتى ترى مني عجباً! فسار معه وسار خالد بن الوليد ﷺ والعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ وهو يقول: يا سعيد أما أخبرك جبلة بن الأيهم من أين يأتي البطريق صاحب قنسرين إليه؟ فقال: نعم يا أبا سليمان أخبرني. فقال له: خذنا في الطريق إلى جبلة بن الأيهم حتى نكمن له فيه، فإذا أتى البطريق صاحب قنسرين كدناه كما كادنا ودمرناه ومن معه! فسار سعيد أمام القوم يدلهم ويجد السير طالباً عسكر جبلة بن الأيهم، وكان مسيرهم ليلاً فلما وصلوا إلى قرب النيران وسمعوا أصوات القوم عدل بهم سعيد إلى صوب طريق البطريق وكمن بمن معه من الرجال إلى وقت الصباح فلم يأت أحد فصلى خالد بأصحابه صلاة الفجر وهم في المكمن؛ فبينما هم فيه إذ أشرف عليهم جيش جبلة بن الأيهم والعرب المتنصرة وصاحب عمورية وهم طالبون أرض العواصم وقنسرين. فقال المسلمون

لخالد: يا أبا سليمان! أما ترى هذا الجيش الذي قد أشرف علينا في عدد الشوك والشجر؟ فقال خالد بن الوليد ﷺ: فما يكون من كثرتهم إذا كان النصر لنا والله معنا؟! فاختلطوا بهم أنتم وكونوا في جملتهم كأنكم من جيشهم إلى أن نلتقي بالبطريق صاحب قنسرين ويفعل الله تعالى ما يشاء ويختار. فعند ذلك اختلطوا بهم وصاروا في جملتهم وهم لا يفترقون.

قال رافع بن عميرة الطائي: فلما أشرفنا على حد صلحنا ولاح لنا بلد العواصم وقنسرين إذا ببطريقها قد استقبلنا وقد رفع أمامه الصليب وأخرج بين يديه القسوس والرهبان وهم يقرأون الإنجيل وقد ارتفعت أصواتهم بكلمة الكفر ودنا بعضهم من بعض. وخرج البطريق أمام الصحابة ليأتي إلى جبلة بن الأيهم يسلم عليه فاستقبله خالد بن الوليد ﷺ مواجهاً له وحوله أصحاب رسول الله ﷺ فلما قرب البطريق منهم. قال: سلمكم المسيح وأبقاكم الصليب. فقال خالد: يا ويلك ما نحن من عبّاد الصليب، بل نحن من أصحاب رسول الله ﷺ محمد الحبيب وكشف خالد بن الوليد ﷺ وجهه ونادى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله يا عدو الله أنا خالد بن الوليد أنا المخزومي صاحب رسول الله ﷺ، وضرب بيده البطريق وقبض عليه وانتزعه من سرجه!

ويرز أصحاب رسول الله ﷺ وسلوا السيوف على أصحابه وارتفعت الضجة والجلبة وأعلن العدو بكلمة الكفر، وضج المسلمون بكلمة التوحيد وسمع جبلة وصاحب عمورية أصوات المسلمين وقد ارتفعت بالتهليل والتكبير، فانزعجوا لذلك ونظروا إلى السيوف وقد جردت، والرماح وقد شرعت فبرزوا نحو أصحاب رسول الله ﷺ وأحاطوا بهم من كل جانب ومكان، فلما نظر خالد إلى ما دهمه ونزل بأصحابه الذين معه، والبطريق صاحب قنسرين لا يفارقه وقد ملك قيده وهو خائف أن ينفلت من يديه أو تجري عليه حادثة قبل أن يقتله همَّ خالد أن يقتله ورفع السيف ليعلوه به فتبسم البطريق من فعاله وعجب خالد من ضحكه، وقال: ويلك مم ضحكك؟! فقال البطريق: لأنك مقتول أنت ومن معك وتريد قتلي! وإن أنت أبقيت عليَّ فهو أصوب. فتركه خالد ولم يقتله ثم صاح بأصحابه: أصحاب رسول الله ﷺ كونوا حولي واحموا عني واصبروا على ما نزل بكم ولا يكثر عليكم من أحدق بكم فإن أشد ما تخافون منه القتل! والموت منية خالد في سبيل الله وإني والله أهديت نفسي للقتل مراراً لعلي أرزق الشهادة، واعلموا رحمكم الله أن حجتنا واضحة ومفوضة إلى الله ﷻ وكأني بكم، وقد وصلتم إلى ربكم وسكنتم داراً لا يموت ساكنها، ثم قرأ "لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ".

جبـــلة يحـــارب خـــالداً

قال الواقدي: فاجتمع أصحاب رسول الله ﷺ إلى خالد رضي الله عنه وداروا من حوله وسار عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن يمينه ورافع بن عميرة عن يساره وعبده همام من ورائه وأصحابه محدقون به وسلم خالد البطريق صاحب قنسرين إلى عبده همام وقال: أوثقه إلى جانبك ولا تبرح من مكانك وأبشر بالنصر من الله عز وجل. وأقبلت إليهم العرب المتنصرة يقدمهم جبلة بن الأيهم في عنقه صليب من الذهب الأحمر وفيه طوق من الجوهر وعليه ثياب الديباج المزركش ومن فوقه درع مذهب الزرد وعلى رأسه بيضة من الذهب وعلى أعلاها صليب من الجوهر، وفي يده رمح طويل وسنانه يضيء كالقنديل وصاحب عمورية كالبرج المشيد ومن حوله الأعلاج المدلجة وقد أحدق بهم الجيش من كل جانب. فلما نظر صاحب عمورية إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه وقد ملك صاحب قنسرين وهو في يده أسير خاف أن يعجل عليه خالد. فأقبل إلى جبلة وقال له: وحق المسيح ما هؤلاء العرب إلا شياطين! ألا ترى إلى هذا العربي ومن معه وهم عشرة رجال وقد أحدق بهم هذا الجيش العظيم وما يفكرون فيه وقد ملكوا صاحبنا وهو معهم أسير ولا يخلص من أيديهم وإني خائف عليه أن يقتلوه وهو عزيز عند الملك هرقل فاخرج إلى هذا العربي، وقل له يخلي صاحبنا ويوصله إلينا حتى نجود لهم بأنفسهم، فإذا أطلقوا صاحبنا حملنا عليهم وقتلناهم عن آخرهم.

قال رافع بن عميرة الطائي: فبينما نحن وقوف حول خالد بن الوليد رضي الله عنه وجيش الروم والعرب المتنصرة محدقون بنا ونحن لا نفكر في كثرتهم لأنا واثقون بالله عز وجل وإذا بجبلة بن الأيهم وهو ينادي برفيع صوته، ويقول: من أنتم من أصحاب محمد المعروفين؟ من أنتم من العرب التابعين؟ أخبرونا من قبل أن ينزل بكم الدمار! فكان المكلم له خالد وبادره بالخطاب وقال له: بل نحن من أصحاب محمد المختار المعروفين بأهل القبلة والإسلام والإكرام والإنعام. وأما سؤالك عن أنسابنا فنحن الآن من قبائل شتى وقد جعل الله كلمتنا واحدة ونحن مجتمعون عليها، وهي قول لا إله إلا الله محمد رسول الله زاده الله تعالى شرفاً.

فلما سمع جبلة كلام خالد بن الوليد غضب غضباً شديداً إذ لم يفكر فيه ولا فيمن معه، ثم قال: يا فتى أنت أمير هؤلاء العرب؟ فقال خالد: لست أميرهم بل أخوهم في الإسلام، وهم إخواني المؤمنون. فقال جبلة: من أنت من أصحاب محمد بن عبد الله ﷺ؟ فقال خالد: أنا المعروف بكبش بني مخزوم، أنا خالد بن الوليد صاحب رسول الله ﷺ، وهذا الرجل الذي عن يميني هو عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهذا الذي عن شمالي من أهل اليمن من كرام طيء، وهو رافع بن

عميرة الطائي صهري وفؤادي، وذلك أني أخذت من كل قبيلة شجاعها المعروف، وبطلها الموصوف، فلا تزدري بقتالنا، ولا تفرح بكثرتكم، فما أنتم في القتال إلا كطيور وقع عليها صائدها وهي كامنة في أوكارها فألقى القانص الشبكة عليها فما انفلت منها إلا النجيب.

قال الواقدي: فزاد غضب جبلة من كلام خالد، وقال له: ستعلم أن كلامك عليك ميشوم إذا دارت بك الأسنة وبقيت أنت ومن معك طعاماً للوحوش في هذه الفلاة تمزقكم بكرةً وعشياً! فقال له خالد: ذلك لا يكثر علينا وهو سهل لدينا. فأنت من العرب التي قد نسبت لعبادة الصليب. فقال: أنا سيد بني غسان ومن ملوك همدان، أنا ملك غسان وتاجها، أنا جبلة بن الأيهم! فقال خالد: أنت المرتد عن دين الإسلام ومن اختار الضلالة على الهدى، وسلك سبيل الغي وضل وغوى. فقال جبلة: لست كذلك أنا الذي اخترت العزَّ على الذل والهوان. فقال خالد: فإنك على ذل نفسك حريص، وإنما الكرامة غداً في دار البقاء والبعد عن دار الشقاء. فقال جبلة: يا أخا بني مخزوم لا تفرط علينا في المقال فإنما بقائي عليك وعلى أصحابك بسبب هذا الأسير الذي في يدك لأني أخاف إن حملت عليكم قتلته قبل قتلك وهو معظَّم عند الملك هرقل وقريب عنده في النسب، فأطلقه من يدك حتى أجودِ عليكم بأنفسكم. فقال خالد: أما أسيري فلا أطلقه من يدي حتى أقتله ولا أبالي بما صنع بي بعده! وأما قولك تحمل عليَّ وعلى من معي بهذه الجموع فما أنصفت في المقال! فإذا أردت النصفة في القتال فجمعكم عظيم وعددكم كثير، ونحن عشرة رجال وقد أحدقت بنا أعنة خيولكم وأسنة رماحكم وطيال سيوفكم فأبرزوا فارساً لفارس وهذا أميركم، فإن قتلتمونا فقد خلصتم أسيركم، وإن أظفرنا الله بكم -وما النصر إلا من عند الله- فما يعظم عليكم هلاك أسيركم إذا هلكت أنفسكم قبله.

قال الواقدي: فعند ذلك نكس جبلة رأسه وأقبل يحدث صاحب عمورية بجواب خالد بن الوليد ﷺ فغضب صاحب عمورية غضباً شديداً وانتضى سيفه فلما نظر خالد بن الوليد إلى البطريق وقد جرد سيفه علم أنه يريد القتال، فلما همَّ صاحب عمورية بالحملة أمسكه جبلة ومنعه من الحملة وأوقفه تحت صليبه وأقبل جبلة على خالد بن الوليد، وقال: يا أخا بني مخزوم إن الحرب كما ذكرت تحتمل النصفة وهؤلاء بنو الأصفر أعلاج الروم غنم ما يعرفون النصفة في البراز وقد حدثتهم بحديثك معي وقد رضوا منك بالمبارزة فمن أرادها منكم فليبرز.

قال رافع بن عميرة الطائي: فعزم خالد بن الوليد أن يبرز فمنعه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﷺ، وقال: يا أبا سليمان و..... لا يبرز لهؤلاء القوم غيري وأبذل

المجهود فيهم فلعلي ألحق بأبي بكر الصديق! فتركه خالد وقال: اخرج شكر الله مقالك وعرف لك فعالك. فخرج عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﭬ، وهو على فرس كان لعمر بن الخطاب ﭬ وكان دفعه له من قسمة غنيمة وقعة أجنادين، وكان الجواد كالطود العظيم وعبد الرحمن غارقاً في الحديد والزرد النضيد وبيده قناة تامة الطول، فجال عبد الرحمن بجواده بين عساكر الروم والعرب المتنصرة وقال: دونكم والقتال فأنا ابن الصديق ثم طلب البراز وجعل يقول:

أنا ابن عبد الله ذي المعالي ... والشرف الفاضل ذي الكمال
أبي المجيد الصادق المقال ... أدين هذا الدين بالفعال

قال رافع بن عميرة: فخرج إليه خمسة فوارس من شجعان الروم فما كان يجول عبد الرحمن على الفارس إلا جولة واحدة فيصرعه قتيلاً فلما قتل الخمسة فوارس توقفوا عنه فهمّ بالحملة على عسكر الروم فخرج إليه جبلة بن الأيهم وقد اشتد في الغضب، فلما قرب من عبد الرحمن قال له: يا غلام قد تعديت علينا في فعالك وبغيت علينا في قتالك! قال عبد الرحمن: وكيف ذلك وما البغي من شيمتنا؟! قال جبلة: لأنك قد ملأت الأرض من قتلانا وما خرجت إليك أقاتلك لأنك لست لي كفؤاً في القتال، وإنما خرجت إليك لأن رجلاً من أصحابك قد خرج يعينك، وليس هذا من شيم الأشراف والإنصاف! فلما سمع عبد الرحمن كلام جبلة تبسَّم، وقال: يا ابن الأيهم تريد أن تخدعني وأنا تربية الإمام علي بن أبي طالب ﭬ، وقد شهدت معه الوقائع والقتال! فقال جبلة: لست مخادعاً وما قلت إلا حقاً. فقال عبد الرحمن: فأخرج بإزاء من خرج معي فارساً من قومك إن كنت صادقاً في مقالتك واحمل عليّ فإني كفء كريم. فلما نظر جبلة بن الأيهم إلى عبد الرحمن وأنه لا يؤتى من قبل الخداع والحيل. قال: هل لك يا غلام أن تلقي بيدك إلينا وأغمسك في ماء المعمودية غمسة تخرج منها نقياً من الذنوب كما خرجت من بطن أمك وتكون من حزب الصليب والإنجيل وتأكل القربان وتأخذ الجائزة العظيمة من الملك هرقل وأزوجك ابنتي وأقاسمك نعمتي وأتفضل عليك بإكرامي وإنعامي، وأنا الذي مدحني شاعر نبيكم حيث يقول:

إن ابن جفنة من بقية معشر ... لم تغذهم آباؤهم باللوم
يعطي الجزيل ولا يراه بأنه ... إلا كبعض عطية المذموم
لم ينسني بالشام إذ هو بارح ... يوماً ولا متنصراً بالروم
إن جئته يوماً تقر بمنزل ... تسقى براحته من الخرطوم

فأسرع إلى ما عرضته عليك لتنجو من المهالك وتكون في النعم والعيش السليم. فقال عبد الرحمن: لا إله إلا الله وحده لا شريك له يا ويلك يا ابن اللئام أتدعوني من الهدى إلى الضلال ومن الإيمان إلى الكفر والجهالة، وأنا ممن وقر الإيمان في قلبه وعرف رشده من غيه و صدَّق نبي الله وأبغض من كفر بالله، فدونك والقتال ودع عنك الخديعة والمحال وتقدم إلى ما عزمت عليه حتى أضربك ضربة أعجل بها حمامك وأرغم بها أنفك وتستريح العرب من أن تنسب إليك لأنك كافر بالرحمن وعابد للصلبان. فغضب جبلة من كلام عبد الرحمن وحمل عليه وهمَّ به ورفع رمحه يريد أن يطعنه فزاغ عبد الرحمن من الطعنة، وحمل على جبلة حملة عظيمة، وتطاعنا بالرماح حتى كلَّ عبد الرحمن من حمل قناته فرماها من يده وانتضى سيفه وتعاركا في الحرب، فهجم عبد الرحمن على جبلة وضرب رمحه فبراه فرمى جبلة باقي الرمح من يده وانتضى سيفه من غمده وكان من سيوف كندة من بقايا عاد كأنه صاعقة بارقة ما ضرب منها شيئاً إلا براه وحمل على عبد الرحمن ﷺ حملة عظيمة.

قال رافع بن عميرة الطائي: فعجبنا والله من عبد الرحمن و صبره على قتال جبلة ومنازلته على صغر سنه وقلة أعوانه، ثم التقيا بضربتين وا صلتين فسبقه عبد الرحمن بالضربة فأخذها جبلة في حجفته فقطع الدرق ونزل السيف إلى البيضة فانثنى سيف عبد الرحمن عنها لأنها ذات سقاية عظيمة فجرحه جرحاً واضحاً أسال دمه وضربه جبلة ضربة وا صلة فقطع ما كان عليه من الزرد والدروع والثياب وو صلت الضربة إلى منكبه فجرحته، فلما أحس عبد الرحمن ﷺ الضربة قد و صلت إليه ثبت نفسه وأرى قرينه كأن الضربة لم تصله وحرك جواده وأطلق عنان فرسه حتى لحق بخالد بن الوليد ﷺ وأصحابه، فلما و صل إليهم قال له خالد: قد و صل إليك عدو الله بضربته؟ فقال: نعم، وأظهر له ضربته وما لحقه فأخذوه عن فرسه وسدوا جراحه. فقال: يا ابن الصديق إن كان جبلة قد و صل إليك بضربته لأفجعنهم في أسيرهم كما فجعوني بك!

ثم صاح خالد بعبده همَّام وقال: قدِّم هذا العلج فقدَّمه بين يديه فضربه بسيفه فأطاح رأسه عن جسده، فلما نظرت الروم إلى صاحبهم وقد قتله خالد فجعهم ذلك، وغضب جبلة وقال: أبيتم إلا الغدر وقتلتم صاحبنا ثم صاح في الروم والعرب المتنصرة وهموا بالحملة ونظر خالد إليهم وقد حملوا على المسلمين فقال لعبده همام قف أنت عند عبد الرحمن فامنع عنه من أراده بسوء، ثم قال لأصحابه: أصحاب رسول الله ﷺ لا يخرج أحد منكم عن صاحبه وكونوا حولي فما أسرع الفرج والنصر من الله ﷻ، فوقف أصحاب رسول الله ﷺ حول خالد بن الوليد ﷺ كما أمرهم وما قصدهم إلا من آيس من نفسه وحملت الروم والعرب المتنصرة بأجمعهم

وثبت لهم المسلمون الأخيار وعظم بينهم القتال ودارت بهم الأهوال. قال ربيعة بن عامر: والله لقد كان خالد بن الوليد كلما كثرت الخيل حولنا وازدحمت علينا يتقيها بنفسه ويفرقها بسيفه ولم نزل كذلك حتى أخذنا العطش والظمأ. قال رافع بن عميرة الطائي: فلما رأيت ذلك قلت لخالد بن الوليد: يا أبا سليمان لقد نزل بنا القضاء. فقال: والله لقد صدقت يا أبا عميرة لأني نسيت القلنسوة المباركة ولم أصحبها معي. وقد عظم عليهم الأمر وعزَّ منهم الصبر والأرض قد ملئت من قتلى المشركين وهم بين الروم كأنهم أسرى وإذ قد نادى بهم مناد وهتف بهم هاتف وهو يقول: خذل الآمن ونصر الخائف أبشروا يا حملة القرآن جاءكم الفرج من الرحمن ونصرتم على عبدة الأوثان.

.... عن إسحاق بن عبد الله قال: كنت مع أبي عبيدة ﷺ فبينما نحن في شيزر وأبو عبيدة في مضربه وإذا به قد خرج في بعض الليل وهو ينادي: النفير النفير يا معشر المسلمين لقد أحيط بفرسان الموحدين! فأسرعنا إليه من كل جانب ومكان وقلنا له: ما نزل بك أيها الأمير؟ فقال: الساعة كنت نائماً إذ طرقني رسول الله ﷺ وجرّني وقال لي معنفاً: يا ابن الجراح أتنام عن نصرة القوم الكرام، فقم والحق بخالد بن الوليد فقد أحاط به القوم اللئام؟! وإنك تلحق به إن شاء الله تعالى رب العالمين.

فلما سمع المسلمون قول أبي عبيدة ﷺ تبادروا إلى لبس السلاح والزرد وركبوا خيولهم وساروا يريدون خالداً ومن معه! فبينما الأمير أبو عبيدة ﷺ على المقدمة في أوائل الخيل إذ نظر إلى فارس يسرع به جواده وهو أمام الخيل ويكر في سيره كراً! فأمر أبو عبيدة ﷺ رجالاً من المسلمين أن الحقوا به فلم يقدروا على ذلك لسرعة جواده! فلما كلّت الخيل عن إدراكه نظر أبو عبيدة إليه وظن أنه من الملائكة قد أرسله الله أمامهم غير أنه نادى به الأمير أبو عبيدة: على رسلك أيها الفارس المجد والبطل المكد ارفق بنفسك يرحمك الله! فوقف الفارس حين سمع النداء. فلما قرب أبو عبيدة منه إذا هي أم تميم زوجة خالد بن الوليد ﷺ! فقال لها أبو عبيدة: ما حملك على المسير أمامنا؟ فقالت: أيها الأمير إني سمعتك وأنت تصيح وتضج بالنداء وتقول إن خالداً أحاطت به الأعداء فقلت إن خالداً ما يخذل أبداً ومعه ذؤابة المصطفى ﷺ إذ حانت مني التفاتة إلى القلنسوة المباركة وقد نسيها فأخذتها وأسرعت إليه كما ترى. فقال أبو عبيدة: لله درك يا أم تميم سيري على بركة الله وعونه.

قالت أم تميم: كنت في جماعة نسوة من مذحج وغيرهم من نساء العرب والخيل تطير بنا طيراً حتى أشرفنا على الغبرة والقتال ونظرنا الأسنة والصوارم تلوح في القتال كأنها الكواكب وما للمسلمين حس يسمع، فأنكرنا ذلك وقلنا: إن القوم قد

وقع بهم عدوهم! فعند ذلك كبَّر الأمير أبو عبيدة ﷺ وحمل وحمل المسلمون. قال رافع بن عميرة: فبينما نحن قد أيسنا من أنفسنا إذ سمعنا التهليل والتكبير فلم تكن إلا ساعة حتى أحاط جيش المسلمين بعسكر الكافرين ووضعوا السيوف من كل جانب وعلت الأصوات وارتفعت الزعقات.

قال مصعب بن محارب اليشكري: فرأيت عبدة الصلبان وهم هاربون ورأيت خالد بن الوليد ﷺ وهو ثابت في سرجه متشوف إلى الأصوات من أين هي، وإذا بفارس قد خرج من الغبار وهو يسوق فرسان الروم بين يديه ويهربون منه حتى أزاح من حوت الكتائب والرجال فأسرع خالد بن الوليد إليه، وقال: من أنت أيها الفارس الهمام والبطل الضرغام؟ فقالت: أنا زوجتك أم تميم يا أبا سليمان، وقد أتيتك بالقلنسوة المباركة التي تنصر بها على أعدائك فخذها إليك فوالله ما نسيتها إلا لهذا الأمر المقدر! ثم سلمتها إليه فلمع من ذؤابة رسول الله ﷺ نور كالبرق الخاطف.

قال الواقدي: و.... ما وضع خالد القلنسوة على رأسه وحمل على الروم إلا قلب أوائلهم على أواخرهم وحمل المسلمون حملة عظيمة، فما كان غير بعيد حتى ولت الروم الأدبار وركنوا إلى الفرار ولم يبق من القوم إلا قتيل وجريح وأسير، وكان جبلة أول من انهزم والعرب المتنصرة أثره. فلما رجع المسلمون من اتباعهم اجتمعوا حول راية الأمير أبي عبيدة ﷺ وسلموا عليه وعلى المسلمين وشكروا الله على سلامتهم، ونظر أبو عبيدة ﷺ إلى خالد بن الوليد وأصحابه وهم كأنهم قطعة أرجوان فصافحه وهنأه بالسلامة، وقال: لله درك يا أبا سليمان قد أشفيت الغليل وأرضيت الملك الجليل! ثم قال الأمير أبو عبيدة ﷺ: يا معاشر الناس قد رأيت أن نسير من وقتنا هذا ونغير على قنسرين والعواصم ونقتل الرجال وننهب الأموال، فقال المسلمون: نعم ما رأيت يا أمين الأمة. فانتخب أبو عبيدة ﷺ فرساناً فجعلهم في المقدمة مع عياض بن غنم الأشعري وساروا حتى أشرفوا على قنسرين والعواصم فقال لأصحاب رسول الله ﷺ: شنُّوا الغارات! فشنُّوا الغارات عليهم وسبوا الذراري وقتلوا الرجال، فلما نظر أهل قنسرين إلى ذلك غلقوا مدينتهم وأذعنوا بالصلح وأداء الجزية، فأجابهم أبو عبيدة ﷺ إلى ذلك وكتب لهم كتاب الصلح وفرض على كل رأس منهم أربعة دنانير.

قال الواقدي: لما فتح أبو عبيدة ﷺ قنسرين والعواصم قال لأصحاب رسول الله ﷺ: أشيروا عليَّ برأيكم رحمكم الله، فإن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: "وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ"، فهل أسير إلى حلب وقلاعها وأنطاكية وملوكها

وعساكرها أو نرجع إلى ورائنا؟ فقالوا: أيها الأمير كيف نرجع إلى حلب وأنطاكية، وهذه أيام انقضاء الصلح الذي بيننا وبين أهل شيزر وأرمين وحمص وجوسيه ولا شك أنهم قد أخذوا الحصار وقووا بلادهم بالأطعمة والرجال ونخاف أن يتغلبوا علينا فيما أخذناه من البلاد ويغيروا علينا لا سيما بعلبك وحصنها، فإنهم أولو شدة وعديد، ونرى من الرأي أنّا نرجع إليهم ونقاتلهم فلعل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يفتح على أيدينا. فاستصوب ذلك ورجع على طريقه، فوجدوا البلاد كما قالوا، قد تحصنت بالعدد والرجال والطعام ولم يكن لأبي عبيدة قصد إلا حمص، وقد بعث إليها الملك هرقل بطريقاً من أهل بيته اسمه "هربيس"، وكان من أهل الشدة والبأس ومعه جيش عرمرم، فلما نظر أبو عبيدة إلى ذلك ترك على حمص خالد بن الوليد رضي الله عنه، وسار هو إلى بعلبك.

فلما قرب منها، وإذا بقافلة عظيمة فيها جمع من الناس ومعهم البغال والدواب وعليها من أنواع التجارات، وقد أقبلت من الساحل يريدون بعلبك، فلما نظر أبو عبيدة رضي الله عنه إلى سوادها قال لمن حوله من الفرسان: ما هذا إلا جمع كثير أمامنا! فقالوا: لا علم لنا بذلك. فقال: عليَّ بخبرهم. فسارت الخيل إليهم وأخذت أخبارهم ورجع البعض بخبرها والقافلة من قوافل الروم محملة متاعاً. قال شداد بن عدي: وكانت أحمال القافلة أغلبها سكر، وكانت لأهل بعلبك، فلما سمع أبو عبيدة ذلك قال: إن بعلبك لنا حرب وليس بيننا وبينهم عهد فخذوا ما قد ساقه الله إليكم، فإنها غنيمة من عند الله. فاحتوينا على القافلة، وكان فيها أربعمائة حمل من السكر والفستق والتين وغير ذلك وأخذنا أهلها أسارى، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: كفوا عن القتل واطلبوا منهم الفداء فابتعناهم أنفسهم بالذهب والفضة والثياب والدواب وصنعنا من السكر العصيدة والفالوذج بالسمن والزيت ودعس المسلمون دعساً وبتنا حيث حوتنا القافلة، فلما أصبح الصباح أمرنا أبو عبيدة رضي الله عنه بالمسير إلى بعلبك والنزول عليها، وكان قد هرب قوم من القافلة وأخبروا أهل بعلبك بها.

قال الواقدي: وكان على بعلبك بطريق عظيم يقال له "هربيس" وكان شديد البأس شجاع القلب، فلما أتاه الخبر بقدوم عساكر المسلمين جمع رجاله وأهل الحرب وأمرهم بلبس السلاح والعدد وخرج بعسكره وجعل يسير، وهو يعلم أن الأمير أبا عبيدة رضي الله عنه سائر إليهم بجيوش المسلمين، فلما انتصف النهار وتراءى الجمعان، وكان مع هربيس سبعة آلاف فارس سوى من اتبعه من سواد بلده، فلما نظر طوالع جيش أبي عبيدة رضي الله عنه، ونظر المسلمون إليه نادوا النفير النفير فعندها تبادرت الفرسان وشرعوا رماحهم وجردوا سيوفهم، وصفَّ هربيس رجاله وعبأهم تعبئة الحرب. فقال له بعض بطارقته: ما الذي تريد أن تصنع مع العرب؟ فقال: أقاتلهم لئلا يطمعوا فينا

فينزلوا على مدينتنا! فقالوا له: الرأي عندي أن لا تقاتل العرب وارجع سالماً أنت ورجالك! فإن أهل دمشق الشام ما قدروا عليهم ولا ردهم عساكر أجنادين ولا جيوش فلسطين، وقد بلغك ما فيه كفاية مما جرى لهم بالأمس مع صاحب قنسرين وصاحب عمورية والعرب المتنصرة، وكيف ردهم هؤلاء العرب على أعقابهم منهزمين والصواب أنك تفوز بنفسك وبمن معك وارجع.

فقال هربيس: لست أفعل ذلك ولا أنهزم أمام العرب، وقد بلغني أن عسكرهم الكبير على حمص مع خالد بن الوليد الذي كان فيه الأمير أبي عبيدة وهذه غنيمة ساقها المسيح لنا! فقال ذلك البطريق الناصح: أما أنا فلست أتبع رأيك ولا أقاتل العرب. ثم لوى عنان فرسه راجعاً إلى بعلبك واتبعه خلق كثير من القوم، وأما هربيس فإنه صفَّ رجاله وزحف يريد القتال، فلما نظر أبو عبيدة ﷺ ذلك وأنهم قد عوَّلوا على الحرب قال: أيها الناس اعلموا -رحمكم الله تعالى- أن الله قد وعدكم وأيدكم بالنصر حتى هزم أكثر هؤلاء القوم وهذه المدينة التي أنتم قاصدون إليها وسط ما فتحتموه من البلاد وأهلها قد أكثروا من الزاد والعدد والقوة، فإياكم والعجب وانصروا الله ينصركم واعلموا أن الله معكم. ثم حمل الأمير أبو عبيدة وحمل المسلمون.

قال عامر بن ربيعة: ..... ما كان بيننا وبينهم إلا جولة الجائل حتى ولوا الأدبار وطلبوا الأسوار ودخل "هربيس" المدينة مع أصحابه وفيه سبع جراحات فتلقاه الذي أشار عليه لا تقاتل العرب، وقال له: وأين غنائم العرب التي غنمتموها؟ فقال "هربيس": قبحك المسيح أتهزأ بي، وقد قتلت العرب رجالي، وقد جرحت هذه الجراحات! فقال له البطريق: ألم أقل لك إنك مهلك نفسك ورجالك.

قال الواقدي: ثم إن الأمير أبا عبيدة سار حتى نزل على بعلبك فنظر إلى مدينة هائلة وحصن حصين والقوم قد أغلقوا الأبواب، وقد أحرزوا أموالهم ومواشيهم في جوفها واطلع المسلمون على الأموال كأنها الجراد المنتشر. فلما نظر الأمير أبو عبيدة ﷺ إلى البلد وتحصينه وامتناعه وكثرة رجاله وشدة برده وذلك أنه بلد لا يزايله البرد في الشتاء والصيف قال لخواص أصحاب رسول الله ﷺ: ما الرأي في ذلك؟ فاجتمع رأيهم على شورى واحدة، وهو أن يحاصروا القوم ويضيِّقوا عليهم. فقال معاذ ابن جبل ﷺ: أصلح الله الأمير إني أعلم أن الروم ازدحم بعضهم ببعض من كثرتهم وأظن أن المدينة لا تسعهم، وإن طاولناهم رجونا من الله النصر وأن يفتحها الله على أيدينا، فقال الأمير: يا ابن جبل من أين علمت أن القوم يتضايقون في مدينتهم؟ فقال: أيها الأمير إني كنت أول من أسرع بجواده قبل وأشرفت على هذه المدينة والقلعة البيضاء

ورجوت أن نلحق سوابق الخيل فرأيت القوم يدخلون المدينة من جميع الأبواب مثل السيل المنحدر والمدينة مشحونة بأهل السواد والقرى والمواشي ودوابهم فيها، وقد ضاقت بهم وهذه أصوات القوم في المدينة كأنهم النحل من كثرتهم! فقال أبو عبيدة: صدقت يا معاذ ونصحت وايم الله ما عرفتك إلا مبارك الرأي سديد المشورة.

قال الواقدي: وبات المسلمون تلك الليلة يحرس بعضهم بعضاً إلى الصباح. ثم كتب أبو عبيدة ﷺ إلى أهل بعلبك كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من أمير جيوش المسلمين بالشام وخليفة أمير المؤمنين فيهم أبو عبيدة بن الجراح إلى أهل بعلبك من المخالفين والمعاندين، أما بعد فإن الله ﷻ وله الحمد أظهر الدين وأعز أولياءه المؤمنين على جنود الكافرين وفتح عليهم البلاد وأذل أهل الفساد، وإن كتابنا هذا معذرة بيننا وبينكم وتقدمة إلى كبيركم و صغيركم لأنا قوم لا نرى في ديننا البغي وما كنا بالذين نقاتلكم حتى نعلم ما عندكم. وإن دخلتم فيما دخلت فيه المدن من قبلكم من الصلح والأمان صالحناكم، وإن أردتم الذمام ذممناكم وإن أبيتم إلا القتال استعنا عليكم بالله وحاربناكم فأسرعوا بالجواب والسلام على من اتبع الهدى. ثم كتب "إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ"، وطوى الكتاب وسلمه إلى رجل من المعاهدين وأمره أن يسير به إلى أهل بعلبك ويأتيه بالجواب فأخذ المعاهد الكتاب وأتى به إلى السور وخاطبهم بلغتهم، وقال: إنِّي رسول إليكم من هؤلاء العرب فدلوا حبلاً فربطوه في وسطه، وأخذه القوم إليهم وأتوا به إلى بطريقهم هربيس فناوله الكتاب فجمع هربيس أهل الحرب والبطارقة وقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة ﷺ، وقال: أشيروا عليّ برأيكم!

فقال له بطريق من بطارقته، وهو صاحب مشورة الرأي: عندي أن لا نقاتل العرب لأنَّ ليس لنا طاقة بقتالهم ومتى صالحناهم كنا في أمن وخصب ودعة كما قد صار أهل أركة وتدمر وحوران وبصرى ودمشق، وإن نحن قاتلناهم وأخذونا في الحرب قتلوا رجالنا واستعبدونا وسبوا حريمنا والصُّلْحُ خيرٌ من الحرب، فقال هربيس: لا رحمك المسيح فما رأيت أجبن منك ولا أقل جلداً؟! يا ويلك كيف تأمرنا أن نسلم مدينتنا إلى أوباش العرب! ولاسيما وقد عرفت حربهم وقتالهم واختبرت نزالهم وإنِّي في هذه النوبة لو حملت في ميسرتهم كنت هزمتهم! فقال له البطريق: نعم كانت الميسرة والقلب يخافون منك! ثم تخاصما وتشاتما وافترق أهل بعلبك فرقتين فرقة يطلبون الصلح وفرقة يطلبون القتال ورمى هربيس الكتاب إلى المعاهد بعد أن مزقه وأمر غلمانه أن يدلوه إلى ظاهر المدينة ففعلوا ذلك. ووصل المعاهد إلى عسكر المسلمين وأتى أبا عبيدة ﷺ وحدثه بما كان من القوم، وقال: أيها الأمير إن أكثر القوم

عوَّلوا على القتال، فقال أبو عبيدة ﷺ للمسلمين: شدوا عليهم، واعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم، فإن بقيت كانت وبالاً على من صالحتم ولا تقدرون على سفر ولا على غيره، فلبس أصحاب رسول الله ﷺ السلاح والعدد ورجعوا إلى الأسوار وعطف أهل بعلبك عليهم وتراموا بالسهام والأحجار، وإن هربيس قد نصب كرسيه وسريره على برج من أبراج القلعة من ناحية النملة، وقد عصب جراحته ولبس سلاحه ولأمته ولبس على رأسه صليباً من الجواهر وحوله البطارقة والديرجانية بالدروع المذهبة والعدد الكاملة وفي أعناقهم صلبان الذهب والجوهر وبأيديهم القسي والسهام.

قال عامر بن وهب اليشكري: شهدت حرب بعلبك، وقد زحف المسلمون إلى سورها، ونشاب الروم كالجراد المنتشر، وكان أناس من العرب بلا سلاح فأصابهم سهام القوم. ورأيت القوم يتساقطون علينا من السور تساقط الطير على الحب فذهبت إلى رجل سقط لأضرب عنقه فصاح: الغوث الغوث وكنَّا قد عرفنا من الحرب أن من قال: الغوث يعني الأمان، فقلت له: يا ويلك لك الأمان فما الذي ألقاك إلينا من سوركم؟ فجعل يكلمني بالرومية، وأنا لا أدري ما يقول. فسحبته إلى خيمة أبي عبيدة، وقلت له: أيها الأمير، اطلب من يعرف لغة هذا العلج فإني رأيتهم يرمي بعضهم بعضاً!

فقال أبو عبيدة ﷺ لمن حضر من المترجمة: أخبرنا بخبر هذا العلج وما قضيته، ولم يرمي بعضهم بعضاً؟! فقال له الترجمان: يا ويلك قد أعطيناك الأمان فاصدقنا في الكلام وقل لنا لم يرمي بعضكم بعضاً؟ قال: إن بعضنا لا يرمي بعضاً ولكنا من أهل السواد والقرى، فلما سمعنا بمسيركم ورجوعكم عن أهل قنسرين التجأنا إلى هذه المدينة من جميع الرساتيق لنتحصن فيها لما نعلم من كثرة ما بها من الجيش فضيق بعضنا على بعض وسددنا طرقات المدينة ومضى بعضنا إلى السور، فإذ ليس لنا موضع نأوي إليه ولا مسكن نسكن فيه فجعلنا الأبراج والأسوار مسكناً لنا. فلما زحفتم إلى القتال برز إليكم أهل الحرب والنزال من هذه المدينة فجعلوا يدوسوننا بأرجلهم، وإذا اشتدت الحرب عليهم والقتال يدفع الرجل منهم الرجل منَّا فيلقيه إليكم.

فلما سمع الأمير أبو عبيدة ﷺ ذلك فرح فرحاً شديداً وقال: أرجو من الله أن يجعلهم غنيمة لنا! وأخذت الحرب مأخذها وطحنت رجالها وعلا الضجيج وحمى الروم أسوارهم فلم يقدر أحد من المسلمين أن يصل إليها من كثرة السهام والحجارة. قال غياث بن عدي الطائي: حاربنا أهل بعلبك في أول يوم فأصيب من المسلمين اثنا عشر رجلاً، وأصيب من الروم على السور خلق كثير من أهل الحرب وغيرهم،

وانصرف المسلمون إلى رحالهم وما لهم همة إلى الطعام ولا الشراب ولا يريد أحد منا إلا الاصطلاء بالنار من شدة البرد. وبتنا ليلتنا نوقد النار ونتناوب في الحرس إلى الصباح، فلما صلينا الفجر نادى مناد من قبل أبي عبيدة ﷺ يقول: عزيمة مني على كل رجل من المسلمين لا يبرز إلى حرب هؤلاء القوم حتى ينفذ إلى رحله ويصلح له طعاماً حاراً يأكله ليكون بذلك شديداً على لقاء العدو.

فابتدرنا لإصلاح أمورنا، فلما نظر أهل بعلبك إلى تأخرنا عن حربهم وقتالهم طمعوا فينا وظنوا أن ذلك فشل منا وعجز، فصاح هربيس في الروم وقال: اخرجوا لهم بارك المسيح فيكم. قال غياث بن عدي: فلم يشعر المسلمون إلا والأبواب قد فتحت والخيل والرجال قد طلعت إلينا كالجراد المنتشر. قال: وكان بعضنا قد مد يده إلى الطعام وبعضنا ينضج له القرص وإذا بمناد ينادي: يا خيل الله اركبي وللجهاد تأهبي، فدونكم والقوم قبل أن يدهموكم. قال حمدان بن أسيد الحضرمي: وكان لي قرص خبزته وقدمت شيئاً من الزيت لأجعله أدامي للقرص وإذا بالمنادي ينادي: النفير النفير! فوالله ما راعني ذلك حتى أخذت قطعة وغمستها في الزيت وهويت بها إلى فمي، سمعت النفير فقمت مسرعاً وركبت جوادي عرياناً من دهشتي لسرعة الإجابة وضربت بيدي على عمود من أعمدة الخيام وحملت على القوم، فوالله ما شعرت بما صنعت ولا عقلت على نفسي حتى صرت في الروم فجعلت أحطمهم حطماً وأهبرهم بالسيف هبراً.

فنظرتُ إلى خيل الروم متفرقة والأمير أبو عبيدة قد نصب رايته والناس يهرعون إليها، ونادى أبو عبيدة ﷺ برفيع صوته: اليوم يوم له ما بعده. وعندما نظر إلى شدة ضرب الروم و صبرهم على قتال المسلمين، حمل عليهم بالخيل العربية وأحاط بالروم من كل ومكان، وكان في جملة خيله عمرو بن معد يكرب الزبيدي وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وربيعة بن عامر ومالك بن الأشتر وضرار بن الأزور وذو الكلاع الحميري ﷺ فلله درهم فلقد قاتلوا قتالاً شديداً وأبلوا بلاءً حسناً، فلما نظرت الروم إلى فعلهم رجعوا على أعقابهم طالبين الأسوار وغلقوا الأبواب! ورجع المسلمون إلى عسكرهم وأضرموا نيرانهم ودفنوا من استشهد منهم، وأقبل رؤساء المسلمين إلى الأمير أبي عبيدة ﷺ وقالوا: أيها الأمير ما الذي قد عزمت عليه وما عندك من الرأي يرحمك الله؟ فقال أبو عبيدة ﷺ: اعلموا أن الرأي أن نتأخر عن المدينة مقدار فرسخ ليكون ذلك مجالاً لخيلكم ومنعة لحريمكم والنصر من عند الله تعالى..ثم دعا أبو عبيدة ﷺ بسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعقد له راية وأمّره على خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل وأمرهم أن يهبطوا إلى الوادي وأن يقاتلوا القوم على الأبواب وأن يشغلوهم عن

المسلمين. ثم دعا ضرار بن الأزور وعقد له راية وأمره على خمسمائة فارس ومائة راجل وسرحه إلى باب الشام، وقال: يا ابن الأزور أظهر شجاعتك على بني الأصفر فقاتل من هناك من الروم! فقال: حباً وكرامة. ومضت كل فرقة إلى جهة من الجهات، فلما أصبح الصباح فتح الروم الأبواب وخرجوا في خلق كثير إلى أن تكاملوا حول بطريقهم هربيس. فقال لهم البطريق: اعلموا يا معاشر النصرانية أن أهل هذا الدين من قبلكم قد فشلوا عن قتال هؤلاء العرب وعجزوا عن قتالهم ونزالهم. فقالوا: أيها السيد طب نفساً وقر عيناً فإنا كنا نخاف من العرب قبل أن نختبرهم ونعلم قتالهم، وقد علمنا أنهم إذا لاقوا حربنا لم يكونوا أصبر منا على الحرب، لأن أحدهم يلقى الحرب وعليه ثوب خلق خام أو فروة خلقة، ونحن علينا الدروع والزرد وقد وهبنا أنفسنا للمسيح.

قال الواقدي: فلما نظر أبو عبيدة إلى كثرتهم نادى برفيع صوته: يا معاشر المسلمين لا تفشلوا فتذهب ريحكم واصبروا إِنَّ اللَّهَ مع الصَّابِرِين. قال: وإن الروم داخلهم الخوف لما كانوا قد نالوه من غرة المسلمين بالأمس فحملوا حملة عظيمة.

قال سهل بن صباح العبسي: شهدت قتال أهل بعلبك، وقد خرج إلينا أهلها في اليوم الثاني وهم أطمع مما كانوا في اليوم الأول وقد حملوا علينا حملة عظيمة شديدة منكرة وكنت في ذاك اليوم أصابني جرح في عضدي الأيمن وما أطيق أن أحرك يدي ولا أحمل سيفاً فترجلت عن جوادي وجريت بين أصحابي وقلت في نفسي: إذا قصدني أحد من هؤلاء الأعلاج لم يكن لي أن أدفع عن نفسي فطلعت إلى ذروة الجبل فعلوته وأشرفت على العسكرين وجعلت أنظر إلى حربهم وقتالهم وقد طمعت الروم في العرب والمسلمون ينادون بالنصر، وأبو عبيدة يدعو لهم بالنصر والتحمت القبائل وافتخرت العشائر.

قال سهل بن صباح: وأنا على الجبل من وراء حجر أنظر إلى ضرب السيوف على البيض والحجف والشرر يطير من شعاعها وقد التقى الفريقان واختلط الجمعان فقلت في نفسي: ويحي وما عسى أن ينفع المسلمين مقام سعيد بن زيد وضرار بن الأزور على الأبواب والأمير أبو عبيدة في مثل هذه الحرب؟! وإنهم والله على وجل أن ينكشفوا من عظم شدتهم وحربهم وهول ما يلقونه! فأسرعت إلى جراثيم الشجر فجعلت أكسرها وأعبي الحطب بعضه على بعض وعمدت إلى زناد كان معي فأوقدت النار وأضرمتها فيه وعبيت عليه حطباً أخضر ويابساً حتى علا منه دخان عظيم وكانت علامتنا إذا أردنا أن يجتمع بعضنا إلى بعض بأرض الشام في الليل وقود النار وإثارة الدخان. فما هو إلا أن علا الدخان وتصاعد إلى الأفق حتى نظر إليه سعيد بن زيد وضرار بن الأزور وأصحابهما فنادى بعضهم بعضاً الحقوا الأمير أبا عبيدة رحمكم الله

فإن هذا الدخان ما هو إلا من شيء عظيم، والصواب أن نكون بخيلنا في موضع واحد، فأسرعوا بخيلهم وساروا حتى أشرفوا على المسلمين وهم في شدة الحرب وأعظم الكرب وقد بلغت القلوب الحناجر وعملت السيوف البواتر وإذا بمناد هتف بهم: يا حملة القرآن جاءكم النصر من الرحمن ونصرتم على عبدة الصلبان، وإذا قد أشرف عليهم سعيد بن زيد وضرار بن الأزور في أوائل خيلهم وقد شرعا سنانهما وحملا في الروم وقد أيقن الروم أنهم الغالبون إذ ظهرت عليهم رايات المسلمين وكتائب الموحدين فالتفتوا ينظرون ما الخبر، وإذا بالمسلمين من ورائهم وقد حالوا بينهم وبين مدينتهم فنادوا بالويل والخراب وظنوا أنه قد أتى للمسلمين نجدة ومدد وقد غرر بهم البطريق، فلما نظر البطريق إلى تبلدهم زعق فيهم وقال: يا ويلكم لا ترجعوا إلى المدينة قد حيل بينكم وبينها وهذه مكيدة من مكايد العرب!

فلما سمعت الروم ذلك أحاطوا ببطريقهم كالحلقة المستديرة يحمي بعضهم بعضاً فعدل بهم البطريق نحو الجبل ذات الشمال. وكان سعيد بن زيد وضرار بن الأزور قد أقبلا بجيشيهما عن يمين الحصن وشماله فحملوا عليهم واتبعوا آثارهم حتى طلعوا إلى الجبل والتجأت الروم إلى ضيعة في الجبل حصينة خالية من أهلها فاستند الروم إليها وتحصنوا فيها وتبعهم سعيد بن زيد في الخمسمائة فارس الذين كانوا معه. وذلك أن الأمير أبا عبيدة رضي الله عنه لما نظر إلى هزيمة الروم نادى في المسلمين: معاشر الناس لا يتبعهم أحد ولا يفترق جمعكم لأني أخشى أن تكون هزيمة القوم مكيدة لكم حتى إذا تفرق جمعكم زحفوا عليكم، قال وإن سعيد بن زيد لم يكن يسمع النداء، ولو سمع النداء ما تبع القوم.

قال الواقدي: لما تحصنت الروم في الضيعة قال سعيد بن زيد: هذه طائفة قد أراد الله هلاكها فدوروا بهم وحاصروا في كل مكان ولا تدعوا أحداً يطلع رأسه إلى أن تلحق بكم المسلمون ويأتي إليكم أمر من الأمير أبي عبيدة ثم أقبل إلى رجل من عظماء المسلمين وقال له: اخلفني في قومي حتى أنظر رأي الأمير أبي عبيدة ومن معه ثم أخذ معه زهاء من عشرين فارساً من أصحابه وسار حتى لحق بجيش المسلمين. فلما نظر إليه الأمير أبو عبيدة ومن معه قال: يا سعيد أين رجالك وما صنعت بهم؟ قال: أبشر أيها الأمير فإن المسلمين في خير وسلامة وقد حاصروا أعداء الله في ضيعة في هذا الجبل ثم أخبره بالقصة من أولها إلى آخرها. فقال أبو عبيدة: الحمد لله الذي هزمهم عن أوطانهم وجعلهم أشتاتاً، ثم أقبل أبو عبيدة على سعيد بن زيد وعلى ضرار بن الأزور وقال لهما: ما هذه المخالفة رحمكم الله ألم آمركم بالإقامة على أبواب المدينة والمشاغلة للقوم فما الذي ردكم إليَّ وقد أرعبتم قلبي وقلب من كان معي

وظننت أن أهل المدينة كادوكم وهو الذي منعنا أن نتبع المنهزمين! فقال سعيد بن زيد: أيها الأمير والله ما عصيت لك أمراً ولا خالفتك في قول وإني قد وقفت حيث أمرتني إذ رأينا دخاناً قد علا قتامه ولاح لنا بيانه فقلنا: والله ما هذه إلا داهية من دواهي الروم أو نفير قد استدعانا به المسلمون فأسرعنا نحوك! فعندها نادى الأمير أبو عبيدة في المسلمين معاشر الناس: أيكم أوقد ناراً أو دخن دخاناً في هذا الجبل فليجب الأمير أبا عبيدة. قال سهل بن الصباح: فلما سمعت النداء أجبت المنادي وأتيت الأمير أبا عبيدة. فقال: ما الذي جرأك على ذلك؟ فقصصت عليه قصتي. فقال أبو عبيدة: لقد وفقك الله تعالى إلى الجنة فإياك بعدها أن تحدث حديثاً من غير إذن أميرك.

قال الواقدي: فبينما الأمير كذلك يحدث سهل بن صباح وإذا برجل من المسلمين منحدر من الجبل وهو ينادي: النفير النفير يا أمة البشير النذير أدركوا إخوانكم المسلمين فقد أحاط بهم الروم وهم في أشد ما يكون من القتال، وإنه قد دنا البطريق من المسلمين ونادى بأصحابه ورجاله وقال: يا عباد المسيح إليكم هذه الشرذمة اليسيرة والعصابة الحقيرة التي قد أحاطت بكم فاقتلوهم وادخلوا المدينة فإنكم إن قتلتم القوم كسرتم بذلك حدة العرب وانصرفوا عنكم. قال مصعب بن عدي: وكنت في بعلبك من أصحاب سعيد بن زيد، وقد جعلنا محاصرين البطريق والروم في الضيعة ونحن دون الخمسمائة رجل فما شعرنا إلا والبطريق والروم قد تبادروا إلينا من كل مكان فنادى بعضنا بعضاً واجتمعنا، والله لقد كبوا علينا الخيل وأحاطوا بنا بعدما كنا أحطنا بهم وكان شعارنا في ذلك اليوم الصبر الصبر! فبينما نحن كذلك في أشد الحرب وأعظم الكرب إذ سمعنا صوتاً عالياً قد ملأ الجبل ومنادياً ينادي ويقول: أما من رجل يهب نفسه في الله ويستنفر المسلمين فإنهم بالقرب منا ولا يعلمون ما نزل بنا. قال مصعب بن عدي: فلما سمعت الصوت همزت جوادي بكعبي، وكان جواداً عتيقاً يسبق الريح، والله لقد خرج من تحتي كأنه البرق ولم تلحق منه الروم إلا الغبار بعدما قتلت منهم رجلين، ولقد نظرت إلى فرسي، وهو يشب إلى الصخرة ويسلك الوعرة حتى أشرفت على عساكر المسلمين فناديت النفير النفير يا أمة البشير النذير.

فلما سمع أبو عبيدة ذلك صاح بالرماة، فأجابه خمسمائة رام من أصحاب القسي العربية فضمهم إلى سعيد بن زيد، وقال له: أسرع يرحمك الله والحق بأصحابك قبل أن يأتي العدو عليهم. ثم نادى بضرار بن الأزور وأصحابه، وقال له: أدرك أخاك سعيد بن زيد. فسار المسلمون مثل الجراد المنتشر حتى علوا على شلة الجبل وأشرفوا على الروم وهم محدقون بأصحاب رسول الله ﷺ. قال أبو زيد بن

ورقة بن عامر الزبيدي: وكنت ممن شهد القتال على الضيعة مع أصحاب سعيد بن زيد، وقد أحاطت بنا الروم، وقد صبرنا لهم صبر الكرام. وقد صرع منا سبعون رجلاً ما بين جريح وقتيل، ونحن في أشد ما يكون من القتال والجراح، وقد طمعت الروم فينا حتى سمعنا التهليل والتكبير ولحقنا النفير، فلما أشرفت علينا راية المسلمين ورجعت الروم على أعقابهم مدبرين إلى الضيعة راجعين لحقنا من تأخر منهم وكثر فيهم القتل والجراح لكثرتهم وتحصن القوم في الضيعة فأحطنا بهم من كل جانب وما تركنا منهم أحداً يخرج رأسه من كثرة النبل!

وورد الخبر إلى الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه بمن استشهد من المسلمين ومن قتل من الكافرين، وأن القوم قد لزمهم الحصار، وأن لا زاد عندهم ولا ماء، فقال أبو عبيدة: الحمد لله. ثم قال للمسلمين: معاشر الناس ارجعوا إلى أموالكم واضربوا خيامكم حول المدينة، فإن الله عز وجل كاد عدوكم، وهو منجز لنا ما وعدنا من نصره. فعندها رجع المسلمون إلى أموالهم ومواضعهم التي كانوا فيها أول مرة وضربوا خيامهم وأنفذوا طوالعهم وأرسلوا إلى المرعى خيولهم وإبلهم وسرحوا إلى الحطب عبيدهم وأضرموا النيران في عسكرهم وذهب منهم الخوف وأتاهم الأمان، وإن أهل بعلبك افترقوا على السور وجعلوا يضربون على وجوههم ويصيحون بلغتهم، فقال الأمير أبو عبيدة لبعض التراجمة: ما يقول هؤلاء؟ فقال له الترجمان: أيها الأمير إنهم يقولون: يا ويلهم ويا عظم ما أصابهم ويا خراب ديارهم ويا فناء رجالهم حتى ظفرت العرب ببلادهم.

قال الواقدي: فلما دنا المساء أرسل الأمير أبو عبيدة إلى سعيد بن زيد يقول له: يا ابن زيد الحذر الحذر على من معك من المسلمين واجتهد رحمك الله أن لا يفوتك من الروم أحد ولا تفسح لهم قدماً واحداً فيخرج منهم واحد... فيتبع أولهم آخرهم، فتكون كمن حصل في يده شيء فأضاعه! فلما وصل الرسول إلى سعيد بن زيد بهذه الرسالة، أمر المسلمين أن يحيطوا بالضيعة من كل جانب، وأن لا يخرجوا إلى الحطب إلا مائة بالسلاح ففعلوا ذلك وأضرموا نيرانهم وباتوا طول ليلتهم يهللون ويكبرون وبالضيعة يطوفون، فلما نظر البطريق "هربيس" إلى ذلك أقبل على أصحابه ورجاله وقال لهم: يا ويلكم لقد أيسنا من التدبير وأخطأنا الرأي وما لنا مدد ولا نجدة ولا نصير ولو اجتهدنا لما اجتهدت العرب على أن يحبسونا في هذه الضيعة، والآن قد حبسنا أنفسنا في حبس ليس فيه طعام ولا شراب، وإن دام علينا هذا يوماً ثانياً أو ثالثاً ضعف قوينا ومات ضعيفنا وبطلت حيلتنا وسلمنا أنفسنا كارهين فنقتل عن آخرنا!

فقالت البطارقة: فما الذي ترى أيها السيد؟ فقال: قد رأيت من الرأي أن أخدع العرب وأحتال عليهم وأسألهم الصلح لنا ولأهل مدينتنا كما قد طلبوا وأضمن أن أفتح لهم المدينة، ونكون في ذمامهم فإذا دخلنا المدينة حاربناهم على سورنا ولعلنا نرسل إلى صاحب عين الجوز وإلى صاحب جوسية فلعلهما يقدمان إلى نصرتنا فيكونان لقتال العرب من خارج المدينة ونحن من أعلى الأسوار، ويكفينا المسيح هذه النوبة. فقالت البطارقة: اعلم أيها السيد أن صاحب جوسية لا يجيبك إلى نجدة أبداً لأنه مشتغل بنفسه وربما يكون محاصراً مثل حصارنا هذا، فلقد بلغنا قبل نزول هؤلاء العرب علينا أنهم صالحوهم وليس لهم من القدرة والقوة أن يقاتلوا العرب، وأما أصحاب عين الجوز فإنهم في تجارتهم متفرقون في أقصى الشام وما أظن إلا أنهم في صلح العرب، فانظر لنفسك ورعيتك ما فيه الصلاح. فلما سمع البطريق هربيس قولهم أجابهم إلى ذلك.

فلما أصبح الصباح طلع البطريق على جدار الضيعة ونادى برفيع صوته: يا معاشر العرب أما فيكم رجل يعرف كلامي أنا هربيس البطريق! فلما سمعه بعض التراجمة أقبل على سعيد بن زيد وقال له: يا مولاي إن هذا العلج هربيس صاحب القوم وهو يستدعي كلامك. فقال له سعيد بن زيد: ادن منه وانظر ماذا يريد وما يقول. فدنا الترجمان منه، فقال له: ما الذي تريد؟ قال: أريد أن يؤمنني أميركم هذا في ذمامه وذمام أصحابه ويدنو مني حتى أخاطبه بما يعود صلاحه على الفريقين. فقال الترجمان ذلك لسعيد بن زيد، فقال سعيد بن زيد: لا كرامة له حتى أدنو منه وأمشي إليه حتى يخاطبني فإن كانت له حاجة فليأت إليَّ خاضعاً ذليلاً صاغراً حتى أسمع كلامه وأعلم مراده. فأعلم الترجمان هربيس بكلام سعيد بن زيد، فقال هربيس: فكيف أنزل إليه وأنا محارب له فأنا أخاف أن يقتلني؟! فقال له الترجمان: أنا أخذ لك منه الذمام فإن العرب لا تخون إذا أمنت. فقال البطريق: نعم قد تناهت إلينا أخبارهم ولكني أريد أن أستوثق لنفسي ولأصحابي وأهل بلدي لأنهم قوم قد لحقهم الحقد علينا وقد أصبنا منهم دماً كثيراً وإني أريد أن أرسل له شخصاً يأخذ لي منه أماناً. فقال الترجمان: أنا أعرفه ذلك. ثم أقبل الترجمان على سعيد بن زيد وقال له: إن البطريق هربيس يريد أن يوجه إليك رجلاً من أصحابه يأخذ له منك أماناً. فقال سعيد بن زيد دعه يوجه من يريد وأعلمه أن رسوله منّا في أمان حتى يرجع إليه. فأعلمه الترجمان بذلك فأقبل البطريق على رجل من عظماء أصحابه، وقال له: ترى ما قد نزل بنا وكيف قد ملك العرب علينا الطريق وأن بلاد الشام قد أذن المسيح بخرابها وقد نصرت العرب علينا وأنا في شدة شديدة وإن لم نأخذ من القوم الأمان وإلا هلكنا وهلكت خيلنا، وبعد ذلك يتحكمون في أولادنا وحريمنا ويقتسمون أموالنا وذرارينا وليس لنا نجدة لأن كل

بلد مشتغل بنفسه عن نصرتنا فانزل إلى هؤلاء العرب وخذ لنا منهم أماناً واستوثق لنا منهم، حتى أنزل أنا إليهم فلعلنا نجري معهم صلحاً ولعلي أمكر بهم حتى نرجع إلى المدينة، ولعلي أرغِّب صاحبهم في شيء من المال فلعله يرغب وينصرف عنَّا إلى أن نرى ما يكون بينهم وبين الملك هرقل.

قال الواقدي: فنزل الرجل ووقف أمام الأمير سعيد بن زيد وهمَّ أن يسجد له فمنعه من ذلك وتبادرت إليه المسلمون فأمسكوه ففزع الرجل وقال: لم تمنعوني أن أعظِّم صاحبكم؟! فقال الترجمان ذلك لسعيد بن زيد، فقال: إنما أنا وهو عبدان لله تعالى ولا يجوز السجود والتعظيم إلا لله الملك المعبود القديم! فقال الرجل: بهذا نصرتم علينا وعلى غيرنا من الأمم! فقال سعيد بن زيد: فما الذي جاء بك؟ قال: جئت لآخذ منك أماناً لبطريقنا أن لا تنقض لنا عهداً. فقال سعيد بن زيد: ليس من أخلاق الأمراء ومن يقود الجيوش أن يغدر بعد الأمان، ولسنا بحمد الله ممن ينقض عهداً، وقد أعطيت صاحبك أماناً ولمن معه ممن ألقى السلاح وخرج يطلب الأمان مستسلماً. فقال الرجل: نريد منك الأمان ومن أميرك وممن معك. فقال سعيد: لكم ذلك. فعند ذلك رجع الرجل إلى البطريق وأعلمه بجواب سعيد. وقال له: اخرج وإياكم والغدر فإنه يهلك صاحبه، وإن هؤلاء العرب لا يخونون أمانهم وعهدهم.

قال الواقدي: ولقد بلغني أن البطريق هربيس خلع ما كان عليه من الثياب والديباج وألقى السلاح ولبس ثياب الصوف وخرج حافياً حاسراً ذليلاً ومعه رجال من قومه حتى وقف بين يدي سعيد بن زيد فخرَّ سعيد لله ساجداً وقال: الحمد لله الذي أزال عنا الجبابرة وملكنا بطارقتهم وملوكهم! ثم أقبل عليه وقال له: ادن مني. فدنا إلى أن جلس إلى جانبه وقال له: أهذا لباسك دائماً أم غيرته؟! فقال: لا وحق المسيح والقربان ما لبست الصوف أبداً غير الحرير والديباج وما لبست هذا إلا في وقتي هذا فإني ما أريد حربكم ولا قتالكم، ثم قال لسعيد: هل لك أن تصالحني على أصحابي هؤلاء وعلى أهل المدينة ومن فيها. فقال سعيد: أما أصحابك هؤلاء فإني أوفيهم على شرط أن من دخل في ديننا فله ما لنا، ومن اختار الإقامة على دينه وألقى السلاح كان آمناً من القتل وعليه العهد أنه لا يحمل علينا سلاحاً ولا يكون لنا حرباً أبداً، وأما المدينة فالأمير أبو عبيدة عليها وقد فتحها إن شاء الله تعالى، ثم قال: إن أحببت أن تسير معي إلى أبي عبيدة حتى يسمع كلامك وتصالح عن قومك فسر وأنت في ذمامي، فإن اتفق بينكما الأمر؛ وإلا رددتك إلى موضعك هذا ومن أراد الرجوع معك من رجالك إلى أن يحكم الله وهو خير الحاكمين. فقال البطريق: أنا أفعل ذلك. فعندها دعا سعيد بن زيد بابن أبي وقاص بن عوف العدوي، وقال: يا ابن أبي وقاص كن

بشيراً للأمير أبي عبيدة بما سمعت وأسرع بالجواب. فأسرع ابن أبي وقاص وركب جواده وكان حصاناً شديد العدو وجعل يسير سيراً حثيثاً حتى أشرف على الأمير أبي عبيدة ﷺ ووقف بين يديه وسلم عليه، وقال: أصلح الله تعالى شأن الأمير أبشرك بأن البطريق هربيس قد أخذ الأمان من سعيد بن زيد وهو يريد أن يقبل به عليك يسألك الصلح والأمان له ولأهل مدينته. فلما سمع الأمير ذلك سجد لله شكراً ورفع رأسه، وقال: أيها الناس تقدموا الآن إلى قتال أهل المدينة وأظهروا أسلحتكم عليها وكبروا تكبيرة واحدة لكي ترعبوا بها القوم. ففعل المسلمون ذلك فارتجت المدينة وفزع أهل بعلبك وتداعوا للقتال وأحاط المسلمون بالمدينة من كل جانب، وكان أول من سبق إلى المدينة وأعطاهم خبر البطريق؛ المرقال ابن عتبة وقال: حصنوا أنفسكم وأولادكم وأموالكم بالصلح فإن أبيتم ذلك فقد وعدنا الله تبارك وتعالى على لسان نبينا محمد ﷺ أن يفتح لنا بلادكم وأمصاركم وغيرها وإن الله تعالى منجز أمره. فلما سمع أهل بعلبك ذلك فزعوا فزعاً شديداً واغبرت وجوههم ورعبت قلوبهم وكلّت من الحرب أيديهم، وقالوا: أهلكنا البطريق وأهلك نفسه ولو كنا صالحنا العرب من قبل أن يوجد بنا هذا الحصار لكان خيراً لنا! وشدد المسلمون عليهم القتال.

فلما علم أبو عبيدة أن نيران الحرب قد أضرمت على المدينة أرسل إلى سعيد بن زيد يقول له أسرع بالبطريق إلينا وله الأمان الذي أمنت أنت، فنحن لا ننقض لك عهداً! فلما ورد رسول أبي عبيدة على سعيد بن زيد استخلف على الضيعة رجلاً من أصحابه وسار سعيد مع البطريق حتى وردا على الأمير أبي عبيدة ﷺ فلما وقف البطريق بين يديه ونظر إلى زيه وزي من معه وشهد قتالهم وعظم ما تلقى المدينة من حربهم وقتالهم حرّك البطريق رأسه وعضّ على أنامله.

فقال أبو عبيدة لترجمانه: ما لهذا يحرك رأسه ويعض أنامله كأنه يتأسف على شيء فاته؟ فأعلمه الترجمان بذلك فأقبل على الترجمان، وقال له: وحق المسيح وما مسح وحق البيعة والمذبح لقد ظننت أنكم أكثر عدداً من الحصى وأكثر مدداً! ولقد كان يخيل لنا عند حربكم وشدة ما نلقى منكم أنكم على عدد الحصى والرمل من كثرتكم، ولقد كنا نرى خيلاً شهباً وعليها رجال وبأيديهم رايات صفر وعليهم ثياب خضر فلما صرت بينكم لم أر من ذلك شيئاً وما أراكم إلا في قلة عدد وما أدري ما فعل جمعكم أبعثتموه إلى عين الجوز أو إلى جوسية أو مكان آخر؟ فأخبر الأمير الترجمان بذلك. فقال أبو عبيدة للترجمان: قل له يا ويلك نحن معاشر المسلمين يكثّرنا الله تعالى في أعين المشركين ويمدنا بالملائكة كما فعل بنا يوم بدر، وبذلك فتح الله تعالى بلادكم وحصونكم علينا وأذل ملوككم! فلما سمع البطريق كلام أبي عبيدة ﷺ

على لسان الترجمان قال: لقد وطئتم الشام الذي عجزت عنه ملوك الفرس والترك والجرامقة وما ظننا أن يكون ذلك أبداً، وأما مدينتنا فهي حصينة لا تعبأ بالحصار لأنها مدينة ليس بالشام مثلها، بناها سليمان بن داود -عليهما السلام- لنفسه وعملها دار مقامه وخزانة لملكه ولولا ما سبق من تفريطنا وخروجنا عنها إليكم وانحرافنا عنها ما صالحناكم أبداً ولا هالنا حربكم ولو أقمتم علينا مائة سنة، والآن فقد كان ذلك فهل لكم أن تصالحونا حتى نصالحكم فتعدل فينا فهو أقرب رشداً لنا ولكم، فوحق المسيح والإنجيل الصحيح لئن فتحنا لكم هذه المدينة لا يصعب عليكم في الشام حصن ولا مدينة!

فلما أخبر الترجمان الأمير أبا عبيدة ﷺ بما قاله، قال أبو عبيدة للترجمان: قل له الحمد لله تعالى الذي ملكنا أرضكم ودياركم فلابد أن تؤدوا الجزية، وقد ظننت لنفسك أماناً كاذباً حتى أراك الله الذل والصغار بعد العز والاقتدار ولا بد لنا أن نملك مدينتكم إن شاء الله تعالى ونقتل الرجال ونأسر الأبطال، فمن أراد حربنا وقتالنا فلا يدخل في صلحنا أبداً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فقال البطريق لما سمع ذلك على لسان الترجمان: لقد تيقنت أن المسيح قد غضب على أهل هذه المدينة إذ بعث بكم إليها وملككم عليها، وقد اجتهدت في حربكم ومكرت بكم وما نفع مكري واجتهادي لأنكم قوم مسلطون، إنما طلبت منكم السلم وألقيت يدي في أيديكم بعد جهد مني، لا شفقة مني على نفسي ولا بقاء مني على ملكي ولكن أردت صلاح البلاد لأن الله تعالى لا يحب الفساد، والآن فهل لكم أن تصالحوا على المدينة وما فيها وعلى أصحابي هؤلاء. فقال له أبو عبيدة ﷺ: فما الذي تبذل لنا في صلحك؟ قال له البطريق: أيها الأمير انظر ما الذي تريده! فقال أبو عبيدة: لو أن الله فتح على المسلمين من الصلح على هذه المدينة بملئها ذهباً وفضة ما كان أحب إليَّ من سفك دم رجل واحد، لكن الله تعالى أعطى الشهداء في الآخرة أكثر من ذلك. فقال البطريق: أنا أصالحكم على ألف أوقية من الفضة البيضاء وألف ثوب من الديباج.

قال الواقدي: فتبسم الأمير أبو عبيدة من كلامه وأقبل على المسلمين وقال لهم: أما تسمعون ما يقول هذا البطريق؟ قالوا: نعم. قال: فما رأيكم فيما شرط على نفسه؟ فقالوا: يزيد عليه وشرطه يرضينا، فأقبل الأمير على البطريق وقال له: أنا أصالحكم على ألفي أوقية من الذهب الأحمر وألفي أوقية من الفضة البيضاء وألفي ثوب من الديباج وخمسة آلاف سيف من مدينتكم وسلاح أصحابك الذين هم في الضيعة محاصرون، ولنا عليكم خراج أرضكم في العام الآتي وأداء الجزية في كل عام وأنتم بعد ذلك لا تحملون علينا سلاحاً ولا تكاتبون ملكاً ولا تحدثون حدثاً ولا كنيسة وترون

النصح للمسلمين. فلما سمع البطريق ذلك من شرط الأمير أبي عبيدة ﷺ قال: لك ذلك كله علينا إلا أني أريد أن أشرط عليك وعلى أصحابك شرطاً. فقال له الأمير أبو عبيدة: وما شرطك؟ فقال: لا يدخل إلينا من أصحابك أحد وتنزل صاحبك الذي تستخلفه علينا خارج المدينة بأصحابه ويكون له الخراج والجزية وتدعني أنا من داخل المدينة من قبل الإصلاح بين الناس والنظر في أحوالهم، ونحن نخرج إلى من تخلفه علينا من أصحابك سوقاً يكون فيه من جميع ما في مدينتنا، ولا يدخلون إلينا مخافة أن يغلظوا بكلامهم على كبرائنا ويفسد الأمر بيننا وبينكم ويكون سبباً للغدر ونقض العهد.

قال أبو عبيدة: فإذا صالحناكم نجاهد عدوكم لأنكم تصيرون في ذمتنا ويكون الرجل الذي نخلفه عليكم مثل الواسطة والسفير بيننا وبينكم. قال البطريق هربيس: يكون خارج المدينة ويفعل ما يشاء أن يفعله من المحاماة. فقال أبو عبيدة: لكم ذلك وما لنا في الدخول إلى مدينتكم من حاجة. فقال البطريق: تم الصلح على ذلك، ثم سار البطريق إلى المدينة وأبو عبيدة معه، فلما وصل إلى الباب حسر البطريق عن رأسه ورطن عليهم بلغة الروم فعرفوه عند ذلك، فقالوا له: وأين أصحابك ورجالك؟ فقص عليهم قصته وأخبرهم بخبره وخبر أصحابه وأعلمهم بالصلح، فبكى القوم وقالوا: تلفت النفوس وذهبت الأموال. فقال لهم البطريق: يا قوم وحق المسيح ما صالحتهم ولي وجه غير الصلح، فقالوا له: اذهب أنت وصالح عن نفسك، وأما نحن فلن نصالح العرب أبداً ولن ندع أحداً منهم يملكنا ولا يدخل بلادنا ومدينتنا وهي أحصن مدينة في الشام..

وكان الأمير أبو عبيدة ﷺ قد أعلم المسلمين بمصالحة البطريق وأمرهم أن يكفوا عن القتال والحرب. فلما سمع الترجمان كلام أهل بعلبك لبطريقهم أخبر الأمير أبا عبيدة ﷺ بذلك، فأقبل البطريق فقال له أبو عبيدة: هات ما عندك وإلا نرد الحرب كما كان. فقال البطريق: دعني والقوم، فوحق الإنجيل الصحيح وعيسى المسيح لو لم يقبلوا مني لأدخلنك بالكثرة إليهم فتضع السيف فيهم وتقتل رجالهم وتسبي نساءهم وتنهب أموالهم لأني خبير بعورات بلدهم وبطرقاتها. قال أبو عبيدة ﷺ: ما شاء الله كان. وكانت الروم على سورهم يسمعون كلام البطريق لأبي عبيدة ﷺ فدخل الرعب في قلوبهم، فعند ذلك أقبل البطريق على الروم وقال لهم: ما تقولون في صلح العرب. فإني أسير في أيديهم ورجالكم وبنو عمكم في قبضتهم، فإن لم تصالحوا العرب وإلا يقتلونا جميعاً ويرجعوا إليكم من بعدنا. فقالوا: أيها السيد إنا لا نطيق هذا المال! فقال: يا ويلكم عليَّ وحدي ربع ما طلبوا! فطابت قلوبهم بذلك وقالوا: إنا لا نفتح الباب إلا لك وحدك ولا يدخل معك أحد من العرب حتى نصلح مدينتنا ونرفع رحالنا ونخفي

حريمنا. فقال البطريق: ويحكم فإني قد صالحت القوم على أن لا يدخل مدينتكم أحد منهم، وإن الرجل الذي يخلفونه عليكم يكون هو وأصحابه خارج المدينة وتخرجون إليه سوقاً يتسوقون منه. ففرحت الروم بذلك وفتحوا له الباب فدخل إليهم. وبعث الأمير أبو عبيدة إلى سعيد بن زيد أن يخلي عن الرجال المحاصرين في الضيعة، فخلى سعيد بن زيد سبيلهم وجاء بهم عند الأمير أبي عبيدة وأخذ سلاحهم وتركهم عنده رهائن على المال الذي عندهم لأنه خاف إن تركهم أن يرجعوا إلى المدينة ويغدروا بالمسلمين. فتركهم عنده في عساكره. هذا والبطريق في المدينة يجبي المال بعد اثني عشر يوماً، وهم مع ذلك يحملون إلى عسكر المسلمين الزاد والميرة والعلوفة حتى كملت الأموال والثياب والسلاح وحملها البطريق إلى أبي عبيدة ﷺ وقال له: تسلم الأموال على ما وافقتك عليه وخل عن الرجال، وانظر إلى من تخلفه علينا من أصحابك فأحضره لنا حتى نشرط عليه بحضرتك أن لا يجور علينا ولا يطالبنا بما لا نطيق ولا يدخل مدينتنا!

فدعا أبو عبيدة برجل من سادات قريش اسمه رافع بن عبد الله السهمي وقال له: يا رافع بن عبد الله استعملتك على هذه المدينة، وضم إليك خمسمائة فارس من بني عمك وعشيرتك وأربعمائة فارس من أخلاط المسلمين، وإني آمرك بما أمرك الله به فاتق الله حق تقاته ولا تكن إلا من الولاة العادلين، وإياك والظلم والجور فتحشر مع الظالمين. واعلم أن الله تعالى سائلك عنهم ومطالبك بما تصنع بغير الحق. واعلم أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى بن عمران ﷺ: أن يا موسى لا تظلم عبادي أخرب بيتك من نفسك" فأقم الأرصاد في أطراف البلاد فإنك بين أعدائك، وبعد هذا ما عرفتك إلا مستيقظاً، وأحذرك من السواحل وشن الغارة عليهم، ولتكن غارتك في المائة والمائتين، ولا تمكن أحداً من المدينة يختلط بأصحابك في غارة حتى لا يطمع عدوكم فيه، وأحسن معاملة من ساعدك، وأصلح بينهم، وأمرهم بالعدل، وكن بينهم كأحدهم، وأمر أصحابك ومن معك أن يكفوا أيديهم عن الفساد والظلم للرعية، والله تعالى خليفتي عليك، والسلام عليك.

ذكر حديث نزول المسلمين على حمص

قال الواقدي: ثم همَّ أبو عبيدة ﷺ بالرحيل إلى حمص، وإذ قد ورد عليه صاحب عين الجوز يطلب منه الصلح فصالحه على نصف ما صالحه عليه أهل بعلبك وولى عليهم سالم بن ذؤيب السلمي وأوصاه بمثل ما أوصى به رافع بن عبد الله ورحل الأمير أبو عبيدة ﷺ يطلب حمص، فلما وصل إلى بين الرأس والكفيلة لاقاه

صاحب الجوسية ومعه هدية كثيرة فقبلها منه وجدد معه صلحاً، وسار الأمير أبو عبيدة ﷺ حتى نزل على حمص.

قال الواقدي: حدثنا حبان بن تميم الثقفي قال: كنت فيمن أقام مع رافع بن عبد الله السهمي في جملة أصحابه، وذلك أننا نصبنا بيوت الشعر على العمد وأقمنا خارج المدينة لا يدخل إليها أحد منا، ونحن مع ذلك نشن الغارة على سواحل الروم ونكبس على العرب التي لم تكن في صلحنا، وكنا إذا خرجنا في سرية نبيع الغنائم في بعلبك، ففرح أهلها ببيعنا وشرائنا ووجدونا قوماً ليس فينا كذب ولا خيانة ولا نريد ظلم أحد وطابت قلوبهم وربحوا في تلك المدة اليسيرة مالاً عظيماً. فلما نظر البطريق هربيس إلى ما ربح أهل بعلبك منَّا في تجارتهم ورخص ما يشترونه منَّا جمعهم إليه في كنيسة المدينة -وهي الجامع اليوم- وكان ذلك بميعاد وعدهم فيه الاجتماع، فلما اجتمعوا عنده أقبل عليهم وقال للتجار والباعة والسوقة: لقد علمتم أني قد اجتهدت في أموركم وحرصت على سلامة نفوسكم وأهاليكم وأولادكم وأنتم تعلمون ما ذهب مني من المال، وأنا اليوم واحد منكم وقد سلمت مالي وسلاحي وقتل أكثر غلماني ورجالي وبنو عمي وأنتم قوم قد أصبتم مع هؤلاء العرب خيراً كثيرا في هذه التجارات وقد أديت وحدي ربع المال! فقالوا: صدقت أيها البطريق وقد عرفنا كل ما وصفت فما الذي تريد الآن؟ فقال: يا قوم إنما كنت قبل هذا اليوم بطريقكم وأنا اليوم واحد منكم وأريد أن تردوا علي بعض ما بذلت من المال للعرب.

فقالوا: أيها البطريق وأنَّى لك بذلك؟ فقال البطريق: يا قوم لست أكلفكم أن تخرجوا من أموالكم ولا مما حوته منازلكم شيئاً، وإنما أريد أن تجعلوا في هذه البيوع والأشربة العشر مما تأخذون وتعطون. قال فاضطرب القوم اضطراباً شديداً لذلك وعظم عليهم وأقبل بعضهم على بعض وقالوا: يا قوم هذا رجل منا وصاحب ملكنا وقد اجتهد في أمورنا وحامى بماله ونفسه عنا وما عسى يصيب منا في مالنا. قال فأجابوه إلى ذلك وجعلوا له عليهم العشر فنصَّب عليهم من قِبله عشاراً ، يأخذ منهم أعشارهم ويجمعها ويحملها إليه فأقام على ذلك أربعين يوماً، فلما نظر هربيس إلى كثرة ما قد اجتمع له من مال العشر قال: أنا أعلم أن هذه المدينة في كسب عظيم وتجارة رابحة ما رأى أهل بعلبك مثل هذا أبداً! ثم جمعهم في الكنيسة مرة ثانية وقال لهم: يا قوم قد علمتم ما بذلت من المال على صلحكم وهذا الذي تعطوني إياه من العشر ليس يجزيني، فإن أردتم أن تردوا علي مالي وتجعلوني كأحدكم اجعلوا لي الربع في أموالكم حتى يرجع إليَّ مالي سريعاً وإلا فمتى أخلف من هذا العشر مالي وسلاحي وغلماني.

قال الواقدي: فأبى القوم وضجوا عليه وأشهروا عددهم ووقفوا في الطريق بغلمانه وقطَّعوهم إرباً إرباً وارتفع ضجيجهم، فجزع المسلمون لذلك وهم لا يعلمون بالقصة فاجتمعوا إلى أميرهم رافع بن عبد الله السهمي وقالوا: أيها الأمير أما تسمع أصوات هؤلاء القوم في مدينتهم؟ فقال: يا قوم قد سمعت كما سمعتم فما عسى أن أصنع بهم ولا يحل لنا الدخول إليهم، وبهذا جرى الشرط بيننا وبينهم، ونحن أحق بمن أوفى بعهد الله تعالى، فإن هم خرجوا إلينا وأعلمونا بأمرهم صالحنا بينهم ونظرنا في أمورهم. فما استتم الأمير رافع بن عبد الله كلامه حتى خرج أهل بعلبك يهرعون إليه، فلما وقفوا بين يديه قالوا: إنا بالله وبك أيها الأمير، ثم أعلموه بقصتهم وما فعل البطريق بهم أول مرة وما فعل بهم ثاني مرة. قال رافع بن عبد الله: إنَّا لا نمكِّنه من ذلك، فقالوا: أيها الأمير إنا قد قتلناه وجميع غلمانه فصعب ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ. فقال لهم رافع: فما الذي تريدون؟ فقالوا: نريد أن تدخلوا إلى المدينة فإنا قد أطلقنا لكم الدخول إليها. فقال رافع بن عبد الله: أنا لا أقدر أن أدخل المدينة إلا بإذن الأمير أبي عبيدة لأنه ما أذن لي بذلك، ثم كتب رافع بن عبد الله إلى الأمير أبي عبيدة يعلمه بالقصة وبحديث البطريق وبحديثهم الذي قالوه، فكتب له بالدخول إلى المدينة كما قد أذنوا له فدخل رافع وأصحابه.

.... حدثنا سالم بن عدي عن جده عبد الرحمن بن مسلم الربيعي، وكان ممن حضر فتوح الشام أوله وآخره قال: لما فتح الله بعلبك على يد المسلمين وترك أبو عبيدة رافع بن عبد الله وتوجه إلى حمص للحوق بخالد بن الوليد، فلما قرب من حمص وموضع يقال له الزراعة وجه على مقدمة جيشه ميسرة بن مسروق العبسي وعقد له راية سوداء معلمة بالبياض، وضم إليه خمسة آلاف فارس من المسلمين، فلما سار ميسرة حتى وصل إلى حمص خرج خالد بن الوليد ﷺ إلى لقائه وسلم عليه وعلى من معه من المسلمين، ثم بعث أبو عبيدة بعده ضرار بن الأزور في خمسة آلاف فارس وبعث بعده عمرو بن معد يكرب الزبيدي. وقدم أبو عبيدة ﷺ ببقية الجيش فلما أشرف عليها قال: "اللهم عجل علينا فتحها واخذل من فيها من المشركين".

واستقبلهم المسلمون بأجمعهم وسلموا عليه وعلى من معه، ونزل أبو عبيدة ﷺ على النهر المقلوب، فلما استقر به القرار كتب إلى أهل حمص وبطريقها الجديد وهو هربيس كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي عبيدة عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ على الشام وقائد جيوشه: أما بعد فإن الله تعالى قد فتح علينا بلادكم ولا يغرنَّكم عظم مدينتكم وتشييد بنيانكم وكثرة رجالكم، فما مدينتكم عندنا إذا أتاكم الحرب إلا كالبرمة قد نصبناها في وسط عسكرنا وألقينا اللحم فيها وجميع

العساكر يتوقع الأكل منها وقد داروا بها ينتظرون نضجها وأكل ما فيها، ونحن ندعوكم إلى دين ارتضاه لنا ربنا ﷻ، فإن أجبتم إلى ذلك ارتحلنا عنكم وخلفنا عندكم رجالاً منا يعلمونكم أمر دينكم وما فرض الله تعالى عليكم، وإن أبيتم الإسلام قررناكم على أداء الجزية، وإن أبيتم الإسلام والجزية فهلموا إلى الحرب والقتال حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

ثم طوى الكتاب وسلمه إلى رجل من المعاهدين، وكان ذلك الرجل يحفظ بالعربية والرومية وقال له: انطلق إلى حمص وائتنا بالجواب، فأخذ المعاهد الكتاب وسار حتى وصل إلى السور فهم أهل حمص أن يرموه بالسهام والحجارة. فقال لهم بالرومية: يا قوم أمسكوا عليكم فأنا رجل معاهد وقد جئتكم بكتاب من هؤلاء العرب. فدلوا له حبلاً فربط وسطه به وشالوه إليهم وأتوا به إلى بطريقهم، فلما وقف بين يديه خضع له وناوله الكتاب. فقال له البطريق: أرجعت عن دينك إلى دين هؤلاء العرب؟ قال: لا، ولكني في ذمتهم وعهدتهم أنا وأولادي وأهلي ومالي وما رأينا من القوم إلا خيراً والصواب عندي أن لا تقاتلوهم، فإن القوم أولو بأس شديد لا يخافون ولا يرهبون الموت قد تمسكوا بدينهم والموت عندهم أفضل من الحياة، وقد أقسم القوم بدينهم لا يبرحون عن مدينتكم حتى تسلموها إليهم أو يفتحها الله على أيديهم، وحق ديني إنكم أحب إلي من العرب وأريد النصر لكم دون القوم، ولكني خائف عليكم من بأسهم وسطوتهم فسلموا تسلموا ولا تخالفوا تندموا.

فلما سمع البطريق هربيس كلامه غضب غضباً شديداً، وقال: وحق المسيح والإنجيل الصحيح لولا أنك رسول لأمرت بقطع لسانك على جراءتك علينا، فلما قرأ الكتاب وعلم ما فيه أمر كاتبه أن يكتب إلى الأمير أبي عبيدة بجواب كتابه، فكتب كلمة الكفر. ثم قال: يا معاشر العرب إنه وصل إلينا كتابكم وعلمنا ما فيه من التهديد والوعد والوعيد ولسنا كمن لاقيتم من أهل الشام ولم يزل الملك هرقل يستنصر بنا على من عاداه وعلى من قصد إليه من العساكر والآن فلا بد لنا من الحرب والقتال، فإن سورنا شديد وأبوابنا حديد وحربنا عتيد والسلام. وطوى الكتاب وسلمه إلى المعاهد وأمر غلمانه أن يدلوه بالحبال من السور وسار حتى وصل إلى الأمير أبي عبيدة وسلمه الكتاب، ففضه وقرأه... فلما سمع المسلمون ما فيه عولوا على الحرب والقتال وقسّم الأمير أبو عبيدة عسكر المسلمين أربع فرق، فبعث فرقة مع المسيب بن نجبة الفزاري فنزل بهم على باب الجبل مما يلي باب الصغير، وبعث فرقة أخرى مع المرقال بن هاشم بن عقبة بن أبي وقاص فنزل بهم على باب الرستق، وبعث فرقة أخرى مع يزيد بن أبي سفيان فنزل على باب الشام ونزل الأمير أبو عبيدة وخالد بن الوليد على باب

الصغير وزحف المسلمون إليهم من كل مكان وقاتلوهم بقية يومهم هذا وسهام الروم تصل إليهم فيتلقونها بالحجف، ونبال العرب تصل إليهم وإلى من بأعلى السور فأثرت لأجل ذلك ضراً فانفضوا عند المساء.

فلما كان الغد جمع خالد بن الوليد كل عبد كان في عسكر المسلمين وأمرهم أن يتقلدوا بالسيوف ويتنكبوا بالحجف ويزحفوا إلى سور حمص ويضربوا السور بأسيافهم ويتلقوا السهام بحجفهم. فقال الأمير أبو عبيدة: وما عسى أن يغني عنا هذا يا أبا سليمان؟! فقال خالد ﷺ: على رسلك أيها الأمير ولا تخالفني فيما صنعت فإني عزمت أن أقاتلهم بالعبيد ونعلمهم أن ليس لهم عندنا من القدر شيء فما نقاتلهم بأنفسنا إلا أن يخرجوا إلينا! فقال أبو عبيدة ﷺ: افعل ما شئت فالله تعالى يوفقك، فعند ذلك أمرهم خالد بن الوليد ﷺ بالزحف على الأسوار وكانوا أربعة آلاف عبد، وأمر خالد ألفاً من العرب أن تترجل معهم ففعلوا ذلك وزحفوا على السور، وقد استتروا بالحجف والعرب من ورائهم فرموا بالنبل وضربوا بسيوفهم فمنها ما تثلم، ومنها ما انكسر. وأشرف عليهم هربيس صاحب حمص، وقد دارت بطارقته وأصحاب الرتب فجعلوا يتأملون إلى أفعالهم، فقال هربيس: يا معاشر البطارقة وحق المسيح ما ظننت أن العرب بهذه الصفة وإذا هم كلهم سودان.

فقال له بعض من لحقه بأجنادين وسائر المواطن: لا أيها السيد بل هؤلاء عبيدهم وهذه من بعض مكايد العرب في الحرب وقد قدم هؤلاء السودان والعبيد إلى حربنا وقتالنا معناه أن ليس لنا عندهم من القدر أن يلقونا بأنفسهم أو نخرج إليهم، فقال هربيس: وحق المسيح إن هؤلاء أشد من العرب بأساً وأقوى مراساً واعلموا أنه ما لزق قوم بسور مدينتنا ولا دنوا منها إلا وقد هان عليهم أمرها واقترب على أيديهم فتحها.

قال الواقدي: ولقد بلغني أن العبيد قاتلوا يومهم قتالاً شديداً وهجموا على الأبواب مراراً ولم يزالوا بقية يومهم حتى أقبل الليل ورجعت الموالي إلى عسكر المسلمين وبعث هربيس من ليلته رسولاً إلى الأمير أبي عبيدة ﷺ فأقبل الرسول والظلام معتكر فأحس جيش المسلمين به فهموا به، فقال: أنا رسول من البطريق هربيس صاحب حمص وأريد الجواب عن هذا الكتاب، فسلم إليهم كتاب هربيس فأخذه أبو عبيدة ﷺ وقرأه، فإذا فيه: يا معاشر العرب أنا ظننا أن عندكم عقلاً تدبرون به الحرب وتستعينون به على الأمور، وإذا أنتم بخلاف ذلك لأنكم في أول حربكم لنا تفرقتم على الأبواب، فقلنا: هذا أشد ما يكون من الحصار وأعظم ما يقدرون عليه من الإضرار.. فلما كان الغد تأخرتم عن حربنا وبعثتم هؤلاء المساكين إلى حربنا يقطعون أسيافهم ويكسرون سلاحهم فيا ليت شعري هل تصبر سيوفهم على فساد سورنا، وقد

بان لنا عجز رأيكم وتدبيركم في القتال وملاقاة الرجال والآن فأنا أشير عليكم بأمر فيه الصلاح لنا ولكم، وهو أن تسيروا إلى الملك هرقل وتفتحوا ما بين أيديكم كما فتحتم ما وراءكم وإياكم واللجاج والبغي فإنهما قاتلان لمن اتبعهما وراجعان على من بدأ بهما أو نحن نخرج إليكم صبيحة هذه الليلة والله ينصر من يشاء منا ومنكم ممن على الحق.

فلما قرأ الأمير أبو عبيدة كتاب هربيس صاحب حمص استشار المسلمين فيما يصنع، وكان قد حضر عنده رجل كبير من أكابر خثعم وسيد من ساداتهم اسمه عطاء بن عمرو الخثعمي، وكان كبير السن قديم الهجرة سديد الرأي قد قاد الرجال وولى أمر الجيش وحزم العساكر، فلما سمع كتاب هربيس وثب قائماً على قدميه، وقال للأمير أبي عبيدة ﷺ: أقسمت عليك أيها الأمير برسول الله ﷺ إلا ما سمعت مقالي، فإن فيه صلِاحاً للمسلمين فالله وفقني لمقالة وأيد المسلمين بها، قال أبو عبيدة ﷺ: قل يا ابن عمْرٍ فأنت عندنا ناصح للمسلمين. فدنا من الأمير أبي عبيدة وساره، وقال له: أصلح الله الأمير اعلم أن خبرك عند هؤلاء منذ نزلت على هؤلاء اللئام وهذا البطريق أشد منعة وأعظم جولة ممن كان قبله، وقد علم بفتوح بعلبك وأنك لابد أن تنزل على حصارها، وقد استدعى بالطعام والعلوفة وآلة الحصار، وقد شحنها بالرجال وما ترك في رساتيقها وقراها طعاماً إلا وقد خزنوه عندهم ما يكفيهم أعواماً، وإن نحن حاصرناهم يطول الأمر كما طال أمرنا على دمشق، والرأي عندي أن تخدعهم بخديعة وتحتال عليهم بحيلة. فإنْ تمت لنا عليهم الحيلة فتحنِا المدينة عن قريب إن شاء الله تعالى. قال أبو عبيدة ﷺ: وما الحيلة عندك يا ابن عمْرٍ؟ فقال: الرأي عندي أن نكتب إلى هؤلاء القوم أن يجبرونا بالزاد والعلوفة ونضمن لهم أن نرتحل عنهم إلى أن يفتح الله تعالى عليك غير مدينتهم ونرجع إليهم، وقد قل زادهم وانتشروا في سوادهم وتفرقوا في أمصارهم وتجاراتهم ونشن عليهم غارة فنملك ما ظهر منهم ويهون عليك أمرِ من بقي في حمص مع قلة الزاد والعلوفة، فقال أبو عبيدة: أصبت الرأي يا ابن عمرٍ إني سوف أفعل ما ذكرته ونرجو من الله التوفيق والعون.

ثم دعا أبو عبيدة ﷺ بدواة وبياض وكتب جواب الكتاب يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد فإني رأيت في قولك صلاحاً لنا ولكم ولسنا نريد البغي على أحد من عباد الله ﷻ. وقد علمت أن عسكرنا كثير وخيلنا وإبلنا كثير، فإن أردتم أن نرتحل عنكم فابعثوا لنا ميرة خمسة أيام وأنتم تعلمون أن الطريق الذي أمامنا بعيد وما نلقى بعدكم إلا كل حصن منيع وأبواب حديد فإذا مرتمونا رحلنا عنكم إلى بعض مدائن الشام، فإذا فتح الله علينا بعض مدائن الشام رجعنا عنكم كما زعمتم، فإن فعلتم ذلك كان صلاحاً لكم. وطوى الكتاب وسلمه إلى الرسول وسار إلى حمص،

فلما قرأ هربيس الكتاب فرح بذلك وجمع الرؤساء والرهبان، وقال لهم: اعلموا أن العرب قد بعثوا يطلبون منكم الزاد والميرة حتى يرحلوا عنكم فإن العرب مثلهم كمثل السبع إذا وجد فريسته لم يرجع إلى غيرها، وهم قد لحقهم الجوع في مدينتكم، وإذا أشبعناهم انصرفوا عنَّا. فقالوا: أيها الأمير نخاف من العرب أن يأخذوا الزاد والعلوفة ولا يرحلوا عنَّا. فقال: إنا نأخذ لكم عليهم العهود والمواثيق أنكم إذا مرتموهم يرحلون عنكم. فقالوا: افعل ما بدا لك، واستوثق لنا ولك. فبعث هربيس وأحضر القسوس والرهبان وأمرهم أن يخرجوا إلى الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه ويأخذوا عليهم العهود والمواثيق إذا مرناهم يرحلون عنا.

فخرجوا وقد فتح لهم باب الرستق فساروا حتى وصلوا إلى الأمير أبي عبيدة وأخذوا عليهم ميثاقاً وعهداً أن يرحلوا عنهم إذا هم ماروهم ولا يرجع عليهم حتى يفتح الله على يديه مدينة من مدائن الشام شرقاً أو غرباً، سهلاً كان أو جبلاً، فقال الأمير أبو عبيده رضي الله عنه: "قد رضيت بذلك وتم الصلح على ذلك"، وأخرج لهم أهل حمص مما كانوا قد ادخروه من الزاد والعلوفة شيئاً عظيماً له ولعسكره ما يكفيهم مدة خمسة أيام، فأقبل أبو عبيدة عليهم، وقال: يا أهل حمص قبلنا ما حملتموه لنا من الزاد والعلوفة، فإذا رأيتم الآن أن تبيعوا من الزاد والعلوفة، فقالوا: نحن نفعل ذلك! فعندها نادى الأمير أبو عبيدة بشراء الزاد والعلوفة ولتكثروا من ذلك، فإن قدامكم طريقاً واسعاً قليل الزاد والعلوفة، فقالوا: أيها الأمير بماذا نشترى الزاد، وعلى أي شيء نحمله؟ فقال أبو عبيدة: من كان معه شيء من الذي غنمتموه من الروم فليشتر به الزاد والعلوفة. قال حسان بن عدي الغطفاني: خفف الله عن أبي عبيدة الحساب كما خفف عنا ما كنا نحمله من البسط والطنافس مما كان قد أثقلنا وأثقل دوابنا فأخذنا به الزاد والعلوفة من القوم! وكانت العرب تسمح لهم في البيع والشراء ويشتري منهم أهل حمص ما يساوي عشرين ديناراً بدينارين، ورغب أهل حمص في شراء الرخيص، ولم يزل أهل حمص كذلك ثلاثة أيام وهم فرحون برحيل العرب عنهم.

وكان للروم في عسكر العرب جواسيس وعيون يأخذون لهم الأخبار، فلما نظرت الجواسيس إلى أهل حمص، وقد فتحوا مدينتهم وهم يميرون العرب ظنُّوا أنهم دخلوا في طاعتهم فسارت الجواسيس إلى أنطاكية طالبين وجعلوا كلما اجتازوا ببلد من البلد أو حصن من الحصون يقولون: إن أهل حمص قد دخلوا في طاعة العرب وفتحوا مدينتهم صلحاً فكان يعظم ذلك على الروم ويزيدهم خوفاً ورعباً، وكان ذلك توفيقاً من الله عز وجل للمسلمين، وكانت الجواسيس أربعين رجلاً فدخل ثلاثة منهم إلى شيزر فأشاعوا فيها ذلك.

ذكر فتـــــح الرســـــتن

وسار الأمير أبو عبيدة بالعسكر حتى نزل على الرستن فرآها حصناً منيعاً وماؤها غزير، وهي مشحونة بالرجال والعدد والعديد؛ فبعث إليهم رسولاً يأمرهم أن يكونوا في ذمته فأبوا ذلك، وقالوا: لا نفعل حتى نرى ما يكون من أمركم مع الملك هرقل، وبعد ذلك يكون ما شاء الله تعالى! فقال الأمير أبو عبيدة ﷺ: فإنا متوجهون إلى قتال الملك هرقل ومعنا رجال وأمتعة وقد أثقلتنا واشتهينا أن نودعها عندكم إلى وقت رجوعنا، قال: فأتى أهل الرستن إلى بطريقهم، وكان اسمه "نقيطاس" وشاوروه في ذلك، فقال: يا قوم ما زالت الملوك والعساكر يودع بعضهم بعضاً وما يضرنا ذلك! ثم بعث إلى الأمير أبي عبيدة يقول له: مهما كان لك من حاجة فنحن نقضيها ونريد منكم المراعاة لأهل سوادنا حتى نرى ما يكون من أمركم مع الملك هرقل. فقال الأمير أبو عبيدة: ونحن نفعل إن شاء الله تعالى.

.... عن ثابت بن قيس بن علقمة قال: كنت ممن حضر عند أبي عبيدة ﷺ، فعند ذلك دعا أهل الرأي والمشورة من أصحاب رسول الله ﷺ وقال لهم: إن هذا حصن شديد منيع ليس لنا إلى فتحه سبيل إلا بالحيلة والخديعة وأريد أن أجعل منكم عشرين رجلاً في عشرين صندوقاً وتكون الأقفال عندهم من باطنها، فإذا صاروا في المدينة فثوروا على اسم الله تعالى فإنكم تنصرون على من فيها من المشركين. فقال خالد بن الوليد: فإذا عزمت على ذلك فلتكن الأقفال ظاهرة ويكون أسفل الصناديق أنثى في ذكر من غير شيء يمسكها فإذا حل أصحابنا في حصن من هؤلاء القوم يخرجون جملة واحدة ويكبرون. فإن النصر مقرون بالتكبير. فأجابه أبو عبيدة إلى ذلك وأخذ صناديق الطعام المنتخبة عند الروم ففض أسافلها وجعلها ذكراً في أنثى، فأول من دخل في الصناديق ضرار بن الأزور ثم المسيب بن نجبة وذو الكلاع الحميري وعمرو بن معد يكرب الزبيدي و....... وعبد الله بن جعفر الطيار وجعله أميراً عليهم، وسلّموا الصناديق إلى الروم! فلما حطت الصناديق في الرستن ألقاها نقيطاس في قصر إمارته، وارتحل الأمير أبو عبيدة ﷺ وسار حتى نزل في قرية يقال لها السودية، فلما أظلم الليل بعث خالد بن الوليد ﷺ بجيش الزحف إلى الرستن ينظر ما يكون من أصحابه وما فعلت الصحابة ﷺ وسار خالد بن الوليد برجاله حتى وصل القنطرة وإذا بالصياح قد علا والتهليل والتكبير من داخل مدينة الرستن.

قال الواقدي: كان من أمر الصحابة أنه لما تركهم نقيطاس في دار إمارته ركب إلى البيعة مع بطارقته وأهل مدينته ليصلوا صلاة الشكر، لأجل رحيل المسلمين عنهم وارتفعت أصواتهم بقراءة الإنجيل وسمع أصواتهم أصحاب رسول الله ﷺ فخرجوا

من الصناديق وشدوا على أنفسهم، وشهروا سلاحهم وقبضوا على امرأة نقيطاس وحريمه وقالوا: نريد مفاتيح الأبواب فسلمتها إليهم، فلما حصلت المفاتيح في أيديهم رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير وكبس القوم على أبواب مدينتهم فلم يجسروا عليهم لأنهم بدون عدة وسلاح وبعث عبد الله بن جعفر الطيار ربيعة بن عامر والأصيد بن سلمة وعكرمة بن أبي جهل وعتبة بن العاص والفارع بن حرملة وسلم إليهم المفاتيح، وقال: افتحوا الأبواب وارفعوا أصواتكم بالتهليل والتكبير، فإن إخوانكم المسلمين من حول المدينة كامنون فتبادر الخمسة إلى الباب القبلي وهو باب حمص وفتحوه ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير وإذا هم بعسكر الزحف، وعلى المقدمة خالد ﷺ فأجابوهم بالتهليل والتكبير ودخلوا المدينة وسمع أهل الرستن أصوات أصحاب رسول الله ﷺ فعلموا أنهم في قبضتهم وأن مدينتهم قد أخذت من أيديهم فاستسلموا جميعاً وخرجوا إليهم وقالوا لهم: إنا لا نقاتلكم ونحن الآن أسرى لكم فاعدلوا فينا فأنتم أحب إلينا من قومنا. ف

عرض خالد ﷺ الإسلام عليهم فأسلم منهم كثير وبقي الأكثر يؤدون الجزية، وأما أميرهم نقيطاس فإنه قال: لا أريد بديني بدلاً. فقال له خالد: الآن فاخرج بأهلك عنا وحدث قومك بعدلنا فأخرجوه من الرستن فتوجه بأهله وأمواله إلى حمص، وأعلم أهلها بفتح الرستن فصعب ذلك على أهلها وعلموا أن العرب تصبحهم أو تمسيهم بالغارة وبعث عبد الله بن جعفر الطيار إلى أبي عبيدة يخبره بالفتح والنصر، فسجد لله شكراً وبعث إليهم ألف رجل من اليمن ووصاهم بحفظ الرستن وأمّر عليهم هلال بن مرة اليشكري. فلما استقروا بالرستن رحل خالد بن الوليد ﷺ وعبد الله بن جعفر وأهلهم وعساكرهم وتوجهوا إلى حماة وكان أهل حماة في صلح المسلمين كما ذكرنا وكذلك أهل شيزر إلا أن بطريق أهل شيزر مات وبعث إليهم الملك هرقل بطريقاً عاتياً جباراً اسمه "نكس" ففسخ الصلح وأذاق أهل شيزر ضراً وشراً، وكان يصادر أموالهم ويحتجب عنهم لاهياً في أكله وشربه! فلما بلغ الخبر الأمير أبا عبيدة بعث خيلاً جريدة إلى شيزر فغارت الخيل على بلدهم ووقعت الضجة بشيزر وسمع البطريق "نكس" الضجة فنزل إليهم من قلعته وأظهر لهم بعض حجابه وجلس في بيعتهم المعظمة عندهم وجمع الرؤساء منهم وقال لهم: "يا أهل شيزر أنتم تعلمون أن الملك هرقل قد استخلفني عليكم لحفظ مدينتكم وأمنع عن حريمكم وأموالكم"، ثم فتح خزانة السلاح وفرّق عليهم العدد وأمرهم بالحرب والقتال، فبينما القوم كذلك إذ أشرف عليهم خالد في أصحابه ومعه جيش الزحف فنزلوا بإزائهم، وأشرف بعده يزيد بن أبي سفيان بأصحابه فنزل عليهم، وأشرف بعده الأمير أبو عبيدة في عساكره جميعهم!

فلما نظر أهل شيزر تلاحق العساكر بهم هالهم ذلك وعظم عليهم وحارت أبصارهم! فلما رأى أبو عبيدة ﷺ ذلك كتب إلى أهل شيزر كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد يا أهل شيزر فإن حصنكم ليس بأمنع من حصن بعلبك ولا من الرستنٍ ولا رجالكم أشجع فإذا قرأتم كتابي هذا فادخلوا في طاعتي ولا تخالفوني فيكون وبالاً عليكم وقد بلغكم عدلنا وحسن سيرتنا فكونوا مثل سائر من صالحنا ودخل في طاعتنا من سائر بلاد الشام والسلام. وطوى الكتاب وسلمه إلى رجل من المعاهدين وبعثه إليهم، فلما وصل الكتاب إليهم أعطوه بطريقهم نكس فقرئ عليه، فلما فهم ما فيه قال: ما تقولون يا أهل شيزر فيما ذكرت العرب؟ فقالوا: صدقت العرب أيها البطريق الكبير فإن حصننا ليس بأمنع من الرستن ولا بعلبك ولا دمشق ولا بصرى وأنت أعلم بشدة أهل حمص وحدة شجاعتهم، وقد صالحوا العرب وكذلك أهل فلسطين ومدنها والأردن وحصنها، فكيف تمنع عنهم شيزر وهي حصن لطيف فإن عصيت هؤلاء العرب فإنك معوِّل على هلاكنا وخراب مدينتنا.

قال الواقدي: وكثر فيهم الخطاب وعلا الكلام وأقبل البطريق "نكس" يسب أهل شيزر وأمر غلمانه بضربهم، فلما نظر أهل شيزر ذلك غضبوا وأظهروا سلاحهم عليه وعلى غلمانه ووقع القتال بين الفريقين فعرف المسلمون ذلك وقالوا: اللهم أهلكهم ببأسهم... ولم يزل أهل شيزر في القتال حتى نصروا على البطريق وعلى غلمانه وقتلوهم عن آخرهم، ثم أخرجوا إلى الأمير أبي عبيدة ﷺ رجالاً إلى لقائه بغير سلاح، فلما وقفوا بين يدي الأمير أبي عبيدة سلموا عليه وقالوا: أيها الأمير إنا قتلنا بطريقنا في محبتكم، قال: يا أهل شيزر بيض الله وجوهكم وأدر رزقكم فقد كفيتمونا الحرب والقتال، ثم قال للمسلمين: ألا ترون إلى حسن طاعة هؤلاء الروم وفعالهم ببطريقهم في محبتكم والدخول في طاعتكم، وقد رأيت من الرأي أن أحسن إلى القوم وأنعم عليهم! فقال المسلمون: نعم ما رأيت حتى يصل ما تصنع إلى غيرهم ويفتح الله علينا البلاد إن شاء الله تعالى.

قال الواقدي: فأقبل على أهل شيزر، وقال: أبشروا فإنِّي لست أكره أحداً منكم! فمن أحب منكم الدخول في ديننا فله ما لنا وعليه ما علينا، والخراج موضوع عنكم سنتين ومن أقام على دينه فعليه الجزية وقد وضعنا عنه الخراج سنة كاملة، ففرح الروم بذلك، وقالوا: أيها الأمير سمعنا وأطعنا وهذا قصر بطريقنا فأنت أحق بما فيه وهو هدية منا إليك فدونك وإياه وما فيه من الرجال، والآنية والأموال، فأخرج أبو عبيدة ﷺ منها الخمس وقسم الباقي على المسلمين بالسوية، ونادى أبو عبيدة ﷺ: يا معاشر المسلمين قد فتح الله على أيديكم هذه المدينة أيسر فتح وأهونه، وقد خرج أهل

حمص من ذمتكم ووفيتم لهم ما عاهدوكم عليه فارجعوا بنا عليهم رحمكم الله تعالى. فركب المسلمون ظهور خيولهم وهمُّوا بالمسير وإذ قد لاح لهم غبرة مرتفعة من وراء النهر المقلوب وهي منقلبة من طريق أنطاكية وقد أخذت عرضاً فأسرعت خيل المسلمين إليها، فإذا معها قسيس كبير من قسوس الروم ومعه مائة برذون موسوقة بالأحمال ومن حولها مائة علج من علوج الروم يحفظونها.

ولم يكن للقسيس خبر بنزول المسلمين على شيزر فصاح بهم خالد بن الوليد ﷺ وكبر المسلمون معه وأحدقوا بهم من كل جانب وأخذوا العلوج أسرى وأخذوا البراذين، وأقبل خالد على القسيس، وقال له: يا ويلك من أين أقبلت بهذه الأحمال؟ قال: فرطن القسيس بالرومية فلم يدر خالد ما يقول هذا القسيس الميشوم، فبدا إليه رجل من أهل شيزر وقال: يا أيها الأمير إنه يذكر أنه من القسوس المعظمة عند الملك هرقل، وقد بعثه وبعث معه إلى هربيس هذه الأحمال فيها ديباج أحمر منسوج بقضبان الذهب وعشرة أحمال مملوءة دنانير وباقي الأحمال مملوءة من الثياب والدنانير. فأخذوها وأخرجوا منها مالاً عظيماً وغنم المسلمون غنيمة عظيمة لم يغنموا مثلها، وساق خالد بن الوليد الأحمال إلى الأمير أبي عبيدة ﷺ فوجده على النهر المقلوب مما يلي شيزر وتحته عباءة قطوانية وعلى رأسه مثلها تظله من حر الشمس فأقبل خالد ﷺ بالقسيس فأوقفه بين يديه. فقال أبو عبيدة: ما هذا يا أبا سليمان؟ فقال خالد: إنهم قوم من أنطاكية ومعهم هدية لهربيس صاحب حمص من ملك الروم هرقل.

وعرض عليه الغنيمة ففرح الأمير أبو عبيدة بها فرحاً شديداً وقال: يا أبا سليمان لقد كان فتح شيزر علينا مباركاً، ثم دعا بترجمان كان معه لا يفارقه، وقال: اسأل هؤلاء عن ملك الروم الطاغية هرقل هل هو في جمع كثير أم لا. فكلم الترجمان القسيس ساعة فقال القسيس: قل للأمير إن الملك هرقل قد بلغه أنكم فتحتم دمشق وبعلبك وجوسية وأنكم لم تنزلوا على حمص فبعث معي هذه الهدية إلى هربيس البطريق وكتب إليه يأمره بقتالكم ويعده بالنجدة وقدوم العساكر إليه لأن الملك هرقل قد استنجد عليكم كل من يعبد الصليب ويقرأ الإنجيل فأجابته الرومية والصقالبة والإفرنج والأرمن والدقس والمغليط والكرج واليونان والعلف والغزانة وأهل رومية وكل من يحمل صليباً والعساكر قد وصلت إلى الملك هرقل من كل جانب ومكان!

فحدَّث الترجمان الأمير أبا عبيدة ﷺ بكل ما أعلمه القسيس به فعظم ذلك على الأمير أبي عبيدة وعرض على القسيس الإسلام، فقال القسيس للترجمان: قل للأمير أبي عبيدة إني البارحة رأيت رسول الله ﷺ في المنام وقد أسلمت على يديه! ففرح الأمير أبو عبيدة بذلك وعرض على الأعلاج الإسلام فأبوا فضربت رقابهم، ورحل أبو

عبيدة ﷺ متوجهاً إلى حمص، وقد سيَّر الخيل جريدة في مقدمته فما شعر أهل حمص إلا والخيل قد أغارت عليهم فرجع القوم إلى المدينة وقد غلقوا الأبواب، وقالوا: غدرت العرب وحق المسيح. ونزل المسلمون حول المدينة وداروا بها من كل جانب ومكان، وقد نفذ الزاد من المدينة وأكثر أهلها قد خرجوا إلى تجارتهم وفي طلب الميرة، وقد تفرقوا في البلاد.

فلما نزل الأمير أبو عبيدة ﷺ على المدينة، دعا بالعبيد والموالي وأمرهم أن يتفرقوا على الطرقات والمحارس وقال لهم: كل من وجدتموه قد رجع إلى حمص بزاد أو تجارة فائتوني به، ففعل العبيد ذلك، وصعب ذلك على هربيس صاحب حمص وكتب إلى الأمير أبي عبيدة كتاباً يقول فيه: أما بعد يا معاشر العرب فإنا لم نخبر عنكم بالغدر ولا بنقض العهد، ألستم صالحتمونا على الميرة فمرناكم، فطلبتم منا البيع فابتعناكم فلم نقضتم ما عاهدناكم عليه؟ فكتب الأمير أبو عبيدة ﷺ يقول: أريد أن ترسل إليَّ القسوس والرهبان الذين أرسلتهم إليَّ حتى أوقفهم على ما عاهدتهم عليه ليعلموك أننا لم نغدر ولا مثلنا من يفعل ذلك إن شاء الله تعالى.

فلما قرأ هربيس الكتاب أحضر القسوس والرهبان وبعث بهم إلى الأمير أبي عبيدة، فخرجوا إليه وفتح لهم باب حمص وساروا إلى أن وصلوا للأمير أبي عبيدة، فسلموا عليه وجلسوا بين يديه، فقال لهم أبو عبيدة ﷺ: ألم تعلموا أني عاهدتكم وحلفت لكم أني منصرف عنكم حتى أفتح مدينة من مدائن الشام سهلاً كان أو جبلاً، ثم يكون الرأي لي إن شئت رجعت إليكم أو سرت إلى غيركم؟ فقالوا: بلى وحق المسيح! فقال لهم: إن الله تعالى قد فتح علينا شيزر والرستن في أهون وقت، وقد غنمنا الله مال بطريقهم "نكس" وغيره مما لم نؤمله في هذه المدة اليسيرة والآن فلا عهد لكم عندنا ولا صلح إلا أن تصالحونا على فتح المدينة وتكونوا في ذمتنا وأماننا! فقال القسوس والرهبان: لقد صدقت أيها الأمير ليس عليكم لوم وقد وفيتم بذمتكم، وقد بلغنا فتحكم شيزر والرستن والخطأ كان منَّا إذ لم نستوثق لأنفسنا والآن الأمر بيد بطريقنا ونحن نرجع إليه ونعلمه بذلك. ثم رجعوا إلى مدينتهم، ودعا الأمير أبو عبيدة ﷺ بالرجال والأبطال وأهل الحرب، وقال: خذوا أهبتكم فإن القوم بلا زاد ولا مدد يأتي إليهم من عند طاغيتهم ولا نجدة فاستعينوا بالله وتوكلوا عليه...

فلبس المسلمون السلاح والعدد ورجعوا إلى الأبواب والأسوار واجتمع أهل حمص ببطريقهم هربيس وقالوا: ما عندك من الرأي في أمر هؤلاء العرب؟ فقال: الأمر عندي أن نقاتلهم ولا نريهم منَّا ضعفاً! قالوا: فإن الزاد قد نفد من مدينتنا، وقد أخذه القوم منا وما سمعنا بمثل هذه الحيلة! فقال هربيس: ما لكم تعجزون عن حرب عدوكم

وما قتل منكم قتيل ولا جرح منكم جريح ولم تصبكم شدة ولا جوع؟! وإنما أصابوا منكم على غرة ولو دخلوا المدينة لما قدروا عليكم وأقل الرجال على السور يكفيكم إياهم وعندي من الزاد في قصري ما يعم كثيركم المدة الطويلة وما أحسب أن الملك هرقل يغفل عنا وسيبلغه خبركم ويوجه العساكر.

قال الواقدي: وكان عند البطريق هربيس في قصره جب عظيم مملوء طعاماً ففتحه وفرق الطعام على أهل حمص فسكنت بذلك نفوسهم وجعل البطريق يفرق على كبيرهم وصغيرهم بقية يومهم ذلك، وقد انحصر أهل حمص جميعهم فنفد ذلك اليوم نصف ما في الجب وقال لهم: اقنعوا بما أعطيتكم ثلاثة أيام وابرزوا إلى حرب عدوكم. ثم أخذوا أهبة الحرب وعرض عسكره وانتخب منهم خمسة آلاف فارس من أولاد الزراوز والعمالقة لا يساويهم غيرهم، فيهم ألف مدبجة ملكية وفتح خزانة جده جرجيس وفرق عليهم الدروع والجواشن والبيض والمغافر والقسي والنشاب والحراب وأقبل يحرضهم على القتال ويعدهم بالمدد والنجدة من الملك هرقل... ثم دعا بالقسوس والرهبان وقال لهم: خذوا أهبتكم وادعوا المسيح أن ينصرنا على العرب فإن دعاءكم لا يحجب ولا يرد. فدخلوا كنيستهم المعظمة عندهم وهي كنيسة جرجيس - وهي الجامع اليوم- ونشروا المزامير وأقبلوا يبتهلون بكلمة الكفر وباتوا بقية ليلتهم على مثل ذلك.

فلما كان الصباح دخل هربيس إلى البيعة وتقرب وصلوا عليه صلاة الموتى فدخل قصره وقدم له خنوص مشوي فأكله حتى أتى على آخره وقدم بين يديه باطية الذهب والفضة فشرب حتى انقلبت عيناه في أم رأسه ثم لبس ديباجاً محشواً بالفرو والزرد الصغار المضعف العدد ولبس فوقها درعاً من الذهب الأحمر وعلق في عنقه صليباً من الياقوت وتقلد بسيف من صنعة الهند وقدم له مهر كالطود العظيم فاستوى على ظهره، وخرج من قصره طالباً باب الرستن فأحاطت به بطارقته من الروم من كل جانب، وفتحت أبواب حمص وخرجت الروم من كل مكان في عددهم وعديدهم وراياتهم وصلبانهم وبين يدي هربيس خمسة آلاف فارس من علوج الروم، فصفَّهم أمام المدينة كأنهم سد من حديد، أو قطع الجلمود، وقد وطَّنوا نفوسهم على الموت دون أموالهم وذراريهم! فتبادر المسلمون إليهم مثل الجراد المنتشر، وحملوا عليهم حملة عظيمة والعلوج كأنهم حجارة ثابتة ما ولَّوا عن مواضعهم ولا فكروا فيما نزل بهم، فعندها صاح البطريق هربيس على رجاله وزجرهم فتبادرت الروم وصاح بعضهم ببعض وركب المسلمون وحملوا عليهم ورشقوا الرجال بالسهام واشتبكت الحرب واختلط الفريقان واقتتلوا قتالاً شديداً ما عليه من مزيد، إلا أن المسلمين رجعوا القهقرى، وقد فشا فيهم القتل والجراح...

فلما نظر الأمير أبو عبيدة إلى ذلك من هزيمة المسلمين عظم عليه وكبر لديه وصاح فيهم بصوته: يا بني القرآن الرجعة الرجعة بارك الله فيكم فهذا يوم من أيام الله تعالى فاحملوا معي بارك الله فيكم فتراجع الناس وحملوا على أهل حمص حملة عظيمة وشدوا عليهم الحملة، وحمل خالد بن الوليد ﷺ في جمع كثير من بني مخزوم وجعلوا يضربون فيهم بسيوفهم ويطعنون برماحهم حتى طحنوهم طحن الحصيد ووضع المسلمون فيهم السيف، وحمل ابن مسروق العبسي في طائفة من قومه من بني عبس، وقد رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير وصدموا الروم صدمة عظيمة فتراجعت الروم إلى الأسوار وقد فشا فيهم القتل، فبربرت الروم بلغاتها وتراجعت على المسلمين وأحاطوا بهم من كل جانب ومكان ورشقت العلوج بالنشاب وطعنوا في المسلمين بالحراب، وقد استتروا بالدرق والطوارق. قال فلما نظر خالد بن الوليد إلى ذلك برز باللواء وكان هو صاحب اللواء يوم حمص وصاح بأصحابه وقال: شدوا عليهم بالحملة بارك الله فيكم فإنها والله غنيمة الدنيا والآخرة.

فبينما خالد يحرِّض أصحابه على القتال إذ حمل عليه بطريق من عظماء الروم وعليه لأمة مانعة وهو يهدر كالأسد فحمل خالد بن الوليد عليه وضربه على رأسه فوقع سيفه على البيضة فطار السيف من يد خالد بن الوليد وبقيت قبضته في يده فطمع العلج فيه وحمل عليه ولاصقه حتى حك ركابه بركاب خالد وتعانقا جميعاً بالسواعد والمناكب فضم خالد العلج إلى صدره واحتضنه بيده وشد عليه بقوته فطحن أضلاعه وأدخل بعضها في بعض فأرداه قتيلاً، وأخذ خالد سيف العلج وهزه في يده حتى طار منه الشرر ووضع رأسه في قربوس سرجه وحمل وصاح في بني مخزوم فحملوا حملة عظيمة وهاجوا في أوساطهم وخالد بن الوليد ﷺ يفرقهم يميناً وشمالاً وهو ينادي برفيع صوته: أنا الفارس الصنديد، أنا خالد بن الوليد صاحب رسول الله ﷺ، ولم يزالوا في القتال الشديد حتى توسطت الشمس في كبد السماء وحمي الدرع على خالد ﷺ فخرج من المعركة وبنو مخزوم يتقاطرون من خلفه والدم يسيل ملء دروعهم وسواعدهم كأنها شقائق الأرجوان، وخالد بن الوليد ﷺ في أوائلهم وهو يقول:

ويل لجمع الروم من يوم شغب ... إني رأيت الحرب فيه تلتهب
وكم لقوا منا مواقع النصب ... وكم تركت الروم في حال العطب

فناداه الأمير أبو عبيدة: لله درك يا أبا سليمان! لله درك لقد جاهدت في الله حق جهاده! فلما نظر المرقال بن هاشم إلى غفلة الروم صاح في بني زهرة وحملوا في ميمنة الروم، وحمل ميسرة بن مسروق العبسي في قومه، وحمل عكرمة بن أبي جهل

وحوله جمع كثير من بني مخزوم، وحمل المسلمون بأجمعهم وقد اطلعوا على الشها دة وأيقنوا بالعناية.

معـــركة حمـــص

قال الواقدي: فلم يكن يوم حمص أشد حرباً ولا أقوى جلداً من بني مخزوم! غير أن عكرمة بن أبي جهل كان أشدهم بأساً وإقداماً وهو يقصد الأسنة بنفسه فقيل له: اتق الله وارفق بنفسك. فقال: "يا قوم أنا كنت أقاتل عن الأصنام، فكيف اليوم وأنا أقاتل في طاعة الملك العلام؟! وإنِّي أرى الحور متشوقات إليَّ، ولو بدت واحدة منهنَّ لأهل الدنيا لأغنتهم عن الشمس والقمر، ولقد صدقنا رسول الله ﷺ فيما وعدنا"، ثم سل سيفه وغاص في الروم ولم يزدد إلا إقداماً وقد عجبت الروم من حسن صبره وقتاله. فبينما هو كذلك إذ حمل عليه البطريق "هربيس" صاحب حمص وبيده حربة عظيمة تضيء وتلتهب وهزها في كفه وضربه بها فوقعت في قلبه ومرقت من ظهره فانجدل صريعاً وعجل الله تعالى بروحه إلى الجنة، فلما نظر خالد بن الوليد إلى ابن عمه وقد وقع صريعاً أقبل حتى وقف عليه وبكى، وقال: يا ليت عمر بن الخطاب نظر إلى ابن عمي صريعاً حتى يعلم إنا إذا لاقينا العدو ركبنا الأسنة ركوباً.

ولم يزالوا في الأهوال الشديدة حتى هجم الليل عليهم وتراجعت الروم إلى مدينتهم وغلقوا الأبواب وطلعوا على الأسوار ورجع المسلمون إلى رحالهم وخيامهم وباتوا ليلتهم يتحارسون، فلما أصبح الصباح قال الأمير أبو عبيدة ﷺ: يا معاشر المسلمين ما بالكم قد صدكم هؤلاء القوم؟ وبعد الطمع فيهم ما بالكم هزمتم وجزعتم منهم والله ألبسكم عافية مجللة وسلامة سابغة وأظفركم على بطارقة الروم وفتح لكم الحصون والقلاع، فما هذا التقصير والله تعالى مطلع عليكم؟! فقال خالد بن الوليد ﷺ: هؤلاء فرسان الروم أشد الرجال ليس فيهم سوقة ولا جبان، وقد تعلم أنهم يكونون أشد في الحرب لأنهم يمنعون عن الذراري والنسوان! فقال أبو عبيدة ﷺ: فما الرأي عندك يا أبا سليمان يرحمك الله؟ فقال خالد بن الوليد ﷺ: أيها الأمير قد رأيت من الرأي أننا ننكشف للقوم غداً وندع لهم سوائمنا وإبلنا فإذا تباعدنا عن مدينتهم وتبعتنا خيلهم وتباعدوا عن مدينتهم وصاروا معنا عطفنا عليهم ومزَّقناهم بالأسنة ونقطع ظهورهم لبعدهم عن مدينتهم. فقال أبو عبيدة: نعم الرأي ما رأيت يا أبا سليمان ولقد أشرت وأحسنت! وتواعد المسلمون على أن ينكشفوا بين أيدي الروم وأن يتركوا لهم سوائمهم، فلما أصبح الصباح فتحت أبواب حمص وخرجت الروم من جميع الأبواب وزحفوا يريدون القتال، فسألهم العرب أن يكفوا القتال وأروهم التقصير والخوف، وأطمعوهم في أنفسهم، وجعلوا ينحرفون عن قتالهم حتى تضاحى النهار

وانبسطت الشمس وطابت الحرب، وطمعت الروم في المسلمين لما بان لهم من تقصيرهم فشدَّ الروم بالحملة عليهم، فانهزمت العرب من بين أيديهم وتركوا سوائمهم.

.... عن سراقة النخعي وكان ممن حضر يوم حمص قال: لما انهزمت العرب أمام الروم وتبعنا هربيس البطريق في خمسة آلاف شاب وكانوا أشد الروم، وانهزمنا أمام القوم كأننا نطلب الزراعة وجوسية، وأدركتنا البطارقة وبعضهم مال إلى السواد طمعاً في الزاد والطعام. وكان بحمص قسيس كبير السن عظيم القدر عند الروم قد حنكته التجارب وعرف أبواب الحيل والخداع، وكان عالماً من علماء الروم، فلما أشرف ذلك القسيس ونظر إلى العرب وقد ملك الروم سوادهم جعل يصيح وينادي: وحق المسيح إن هذه خديعة ومكر ومكيدة من مكايد العرب، وإن العرب لا تسلم أولادها وإبلها ولو قتلوا عن آخرهم. وجعل القسيس يصيح وأهل حمص قد وقعوا في النهب وليس يغنيهم سوى الزاد والطعام! والبطريق هربيس قد ألح في طلب المسلمين في خمسة آلاف فارس، فلما أبعدوا عن المدينة صاح الأمير أبو عبيدة ﷺ برفيع صوته: اعطفوا على الروم كالسباع الضارية والعقبان الكاسرة فردوا عليهم كردوساً واحداً حتى أحاطوا بالبطريق وأصحابه من كل جانب وداروا بهم مثل الحلقة المستديرة وأحدقوا بهم كإحداق البياض بسواد العين، وبقيت الروم في أوساطهم كالشامة السوداء في الثور الأبيض فعند ذلك نصبت العلوج نشابها على العرب، والمسلمون يكرون عليهم مثل الأسود الضارية ويحومون عليهم كما تحوم النسور ويضربونهم بالسيوف ويصرعونهم يميناً وشمالاً حتى انكسر أكثرهم.

قال عطية بن فهر الزبيدي: فلما نظرت الروم إلى فعلنا بهم تكالبت علينا، فلما حميت الحرب ابتدر خالد ﷺ من وسط العسكر وهو على جواد أشقر وعليه جوشن مذهب كان لصاحب بعلبك أهداه له يوم فتح المدينة، وكان خالد ﷺ قد عمَّم نفسه بعمامته الحمراء وجعل يهدر كالأسد الحردان وقد انتضي سيفه من غمده وهزه حتى طار منه الشرر ونادى برفيع صوته: رحم الله رجلاً جرَّد سيفه وقوَّى عزمه وقاتل أعداءه! فعندها انتضب المسلمون سيوفهم وصدموا الروم صدمة عظيمة ونادى الأمير أبو عبيدة: يا بني العرب قاتلوا عن حريمكم ودينكم وأموالكم فإن الله مطلع عليكم وناصركم على عدوكم.

وكان معاذ بن جبل ﷺ قد انفرد في خمسمائة فارس إلى السواد والأموال وانقض على الروم فما شعرت الروم والعلوج ممن انغمس في الغارة وحمل الزاد والرحال والأمتعة إلا والطعن قد أخذهم بأسنة الرماح من كل جانب كأنها ألسنة النار

المضرمة ونادى مناد: يا فتيان العرب اطلبوا الباب لئلا ينجو أحد من الروم برجالنا وأولادنا، فجعل المسلمون يطلبون الأبواب وكانت علوج الروم قد غرقت في رحال المسلمين، فلما نظروا إلى معاذ وقد حمل عليهم في رجاله عادت وقد رمت الرحال وطلبت الهرب فانفلت منهم من انفلت وقتل من قتل. قال صهيب بن سيف الفزاري: فوالله ما انفلت من الخمسة آلاف الذين كانوا مع هربيس صاحب حمص إلا ما ينوف عن مائة فارس. قال واتبعنا القوم إلى الأبواب فكان أعظم المصيبة قتلنا إياهم على الأبواب، لأن أكثر الرجال من العواصم وغيرهم كانوا في المدينة.

قال سعيد بن زيد: شهدت يوم حمص وكنت ممن أولع بعدد القتلى فعددت خمسة آلاف وستة غير أسير وجريح؛ فدنوت من الأمير أبي عبيدة ﷺ وقلت: البشارة أيها الأمير فإني عددت خمسة آلاف وستة غير أسير وجريح. فقال الأمير أبو عبيدة: بشرت بخير يا ابن زيد فهل ترى قتل بطريقهم هربيس؟ فقال سعيد: أيها الأمير إذا كان بطريقهم هربيس قد قتل فما قتله غيري! فقال الأمير أبو عبيدة: وكيف علمت أنه قتيلك يا سعيد. فقال سعيد: أيها الأمير إني رأيت فارساً عظيم الخلقة طويلاً ضخماً أحمر اللون وبيده سيف وعليه لأمة حربه صفتهما كذا وكذا وهو في وسط الروم كأنه البعير الهائج فحملت عليه وقلت في حملتي: اللهم إني أقدم قدرتك على قدرتي وغلبتك على غلبتي: اللهم اجعل قتله على يدي وارزقني أجره. فقال له أبو عبيدة: أما أخذت سلبه يا سعيد؟ قال: لا، ولكن علامتي فيه نبلة من كنانتي أثبتها في قلبه فخر يهوي عن جواده ونفرت عنه أصحابه فلحقته فضربته بسيفي ضربة فصرمت حقوته ونبلتي في قلبه. قال أبو عبيدة ﷺ: أدركوه رحمكم الله وسلموا سلبه إلى سعيد ففعلوا ذلك.

قال الواقدي: فلما أخذت الحرب أوزارها أخذ المسلمون الأسلاب والدروع والشهابي ومثلوا الجميع أمام الأمير أبي عبيدة ﷺ فأخرج منها الخمس لبيت مال المسلمين وقسم الباقي على المجاهدين. قال ووقع الصياح والبكاء في حمص على من قتل منهم من فرسان الكفار ورجالهم. قال واجتمع مشايخ حمص ورؤساؤهم إلى بيعتهم وتحدثوا مع القسوس والرهبان على أن يسلموا حمص إلى المسلمين، وخرج علماء دينهم ورؤساؤهم إلى أبي عبيدة ﷺ وصالحوه على تسليم المدينة إليه وأن يكونوا تحت ذمامه وأمانه، فصالحهم أبو عبيدة ﷺ، وقال: لست أدخل مدينتكم حتى نرى ما يكون بيننا وبين الملك هرقل وأراد أهل حمص أن يكرموا المسلمين بالإقامة والعلوفة فنهاهم الأمير أبو عبيدة عن ذلك ولم يدخل أحد من المسلمين إلى حمص إلا بعد وقعة اليرموك كل ذلك ليتقرب المسلمون إلى الروم بالعدل وحسن الصحبة.

.... حدثنا النجار وكان ممن يعرف فتوح الشام، قال: لما صالحنا أهل حمص بعد قتل هربيس خرج أهل حمص ودفنوا قتلاهم فافتقدنا القتلى الذين استشهدوا من أصحاب رسول الله ﷺ فوجدنا من استشهد من المسلمين مائتين وخمسة وثلاثين فارساً كلهم من حمير وهمدان ومن أخلاط الناس، إلا ثلاثين رجلاً من أهل مكة: منهم عكرمة بن أبي جهل وصابر بن جرئ والريس بن عقيل ومروان بن عامر والمنهال بن عامر السلمي ابن عم العباس رضي الله عنه، وجمح بن قدم، وجابر بن خويلد الربعي.

ذكر وقعة اليرموك

قال الواقدي: واتصلت الأخبار إلى الملك هرقل أن المسلمين قد فتحوا حمص والرستن وشيزر، وقد أخذوا الهدية التي بعثها إلى هربيس البطريق فبلغ ذلك منه دون النفس وأقام ينتظر الجيوش والعساكر من أقصى بلاد الروم لأنه قد كان كاتب كل من يحمل الصليب فما مضى عليه إلا أيام قلائل حتى صار أول جيوشه عنده بأنطاكية وآخرها في رومية الكبرى وأنه بعث جيشاً إلى قيسارية ساحل الشام يكون حفظه على عكاء وطبرية وبعث بجيش آخر إلى بيت المقدس وأقام ينتظر قدوم ماهان الأرمني ملك الأرمن، وقد جمع من الأرمن ما لا يجمعه أحد من أهالي الملك هرقل، وبعد أيام قدم على الملك هرقل للقائه في أرباب دولته، فلما قرب منه ترجل ماهان وجنوده وكفروا بين يديه ورفعوا أصواتهم بالبكاء والنحيب مما وصل إليهم من فتح المسلمين بلادهم فنهاهم عن ذلك، وقال: يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية قد حذرتكم وخوفتكم من هؤلاء العرب ولم تقبلوا مني فوحق المسيح و..... لابد لهؤلاء العرب أن يملكوا ما تحت سريري هذا والآن البكاء لا يصلح إلا للنساء، وقد اجتمع لكم من العساكر ما لم يقدر عليه ملك من ملوك الدنيا، وقد بذلت مالي ورجالي كل ذلك لأذب عنكم وعن دينكم وعن حريمكم، فتوبوا للمسيح من ذنوبكم، وانووا للرعية خيراً ولا تظلموا، وعليكم بالصبر في القتال، ولا يخامر بعضكم بعضاً، وإياكم والعجب والحسد فإنهما ما نزلا بقوم إلا ونزل عليهم الخذلان! وإني أريد أن أسألكم وأريد منكم الجواب عما أسألكم عنه! فقالت العظماء من الروم والملوك: اسأل أيها الملك عما شئت.

قال: إنكم اليوم أكثر عدداً وأغزر مدداً من العرب وأكثر جمعاً وأكثر خياماً وأعظم قوة فمن أين لكم هذا الخذلان وكانت الفرس والترك والجرامقة تهاب سطوتكم وتفزع من حربكم وشدتكم، وقد قصدوا إليكم مراراً ورجعوا منكسرين والآن قد علا عليكم العرب وهم أضعف الخلق عراة الأجساد جياع الأكباد ولا عدد ولا سلاح، وقد غلبوكم على بصرى وحوران وأجنادين ودمشق وبعلبك وحمص؟! قال:

فسكت الملوك عن جوابه، فعندها قام قسيس كبير عالم بدين النصرانية، وقال: أيها الملك أما تعلم لمٍ نصرت العربٍ علينا؟! قال: لا وحق المسيح. فقال القسيس: أيها الملك لأن قومنا بدّلوا دينهم وغيّروا ملتهم وجحدوا بإجابة المسيح عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه، وظلموا بعضهم، وليس فيهم عدل ولا إحسان، ولا يفعلون الطاعات،، وأكلوا الربا وارتكبوا الزنا وفشت فيهم المعاصي والفواحش! وهؤلاء العرب طائعون لربهم متبعون دينهم وليس فيهم ظلم ولا عدوان ولا يتكبر بعضهم على بعض! وإن حملوا علينا لا يرجعون، وإن حملنا عليهم فلا يولون، وقد علموا أن الدنيا دار الفناء، وأن الآخرة هي دار البقاء!

قال الواقدي: فلما سمع الملك هرقل ما قاله القسيس، قال: وحق المسيح لقد صدقت، بهذا نصرت العربٍ علينا لا محالة، وإذا كان فعل قومنا ما ذكرت فلا حاجة لي في نصرتهم وإنّي قد عوّلت أن أصرف هذه الجيوش والعساكر إلى بلادها وآخذ أهلي ومالي وأنزل من أرض سورية وأرحل إلى أسبوك -يعني القسطنطينية- فأكون هناك آمناً من العرب! فلما سمع القوم ذلك من الملك صفّوا بين يديه، وقالوا: أيها الملك لا تفعل ولا تخذل دينٍ المسيح فيطالبك بذلك يوم القيامة وتعيرك الملوك بذلك ويستضعفون رأيك وأيضاً تشمت بنا أعداؤنا إذا أنت خرجت من جنة الشام وسكن بعدنا فيها العرب، وقد اجتمع لنا مثل هذا الجيش الذي ما اجتمع لملك من ملوك الدنيا، ونحن نلقى العرب ونصبر على قتالهم ولعل المسيح أن ينصرنا عليهم فاعزم وقدِّم من شئت واتركنا ننهض إلى قتال العرب.

ففرح الملك هرقل بقولهم ونشاطهم وعوّل على أن يبعث الجيش مع خمسة ملوك من الروم، فأول ما عقد لواء من الديباج المنسوج بالذهب الأحمر وعلى رأسه صليب من الجوهر وسلمه إلى قناطير ملك الروسية وضم إليه مائة ألف فارس من الصقالبة وغيرهم وخلع عليه وتوجه ومنطقه وسوّره، ثم عقد لواء آخر من الديباج الأبيض فيه شمس من الذهب الأحمر وعلى رأسه صليب من الزبرجد الأخضر وسلمه إلى جرجير وهو ملك عمورية وملورية وخلع عليه وسوره ومنطقه وضمٍ إليه مائة ألف فارس من الروم والفردانة ومن سائر الأجناس الرومية، ثم عقد لواء ثالثاً من الدستري الملون وعليه صليب من الذهب الأحمر وسلمه إلى الديرجان صاحب القسطنطينية وضم إليه مائة ألف فارس من المغليط والإفرنج والقلن وخلع عليه ومنطقه وسوّره.

ثم عقد لواء رابعاً مرصعاً بالدر والجوهر عليه قبضة من الذهب وعليه صليب من الياقوت الأحمر وسلمه إلى ماهان ملك الأرمن وكان يحبه محبة عظيمة لأنه كان من

أهل الشجاعة والتدبير، وقد قاتل عساكر الفرس والترك وهزمهم مراراً فلما عقد له لواء خلع عليه الثياب التي كانت عليه وتوجه وسوّره ومنطقه وقلده بالقلائد التي لا يتقلد بها إلا الملوك الأكابر، وقال له: "يا ماهان قد وليتك على هذا الجيش كله ولا أمر على أمرك ولا حكم على حكمك". ثم قال لقناطير وجرجير والديرجان وقورين وهم ملوك الجيش: "اعلموا أن صلبانكم تحت صليب ماهان وأمركم إليه فلا تصنعوا أمراً إلا بمشورته ورأيه واطلبوا العرب حيث كانوا ولا تفشلوا، وقاتلوا عن دينكم القديم وشرعكم المستقيم وافترقوا على أربع طرق فإنكم إن أخذتم على طريق واحدة لم تسعكم وتهلكوا الأرض ومن عليها". ثم خلع على جبلة بن الأيهم الغساني وضم إليه العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام، وقال لهم: كونوا في المقدمة، فإن هلاك كل شيء بجنسه والحديد لا يقطعه إلا الحديد، ثم أمر القسوس أن يغموسهم في ماء المعمودية ويقرءوا عليهم ويصلوا عليهم صلاة الموتى.

وحدثنا جرير بن عبد الله عن يونس بن عبد الأعلى أن جملة من بعث الملك هرقل سوى جيش أنطاكية إلى اليرموك سبعمائة ألف فارس. قال راشد بن سعيد الحميري: كنت أحضر اليرموك من أوله إلى آخره، فلما أشرفت علينا عساكر الروم باليرموك صعدت على محل من الأرض مرتفع وأقبلت الروم بالرايات والصلبان فعددت عشرين راية. فلما استقرت الروم باليرموك بعث الأمير أبو عبيدة ﷺ روماس صاحب بصرى ليحزر عدد القوم. فتنكر روماس وغاب عنا يوماً وليلة، ثم عاد إلينا. فلما رأيناه اجتمعنا عنده وسأل أبو عبيدة روماس عن ذلك. فقال: أيها الأمير سمعت القوم يذكرون أن عددهم ألف ألف فلا أدري أهم يتحدثون بذلك ليسمع جواسيسنا ويحدثوا بذلك أم لا؟ فقال أبو عبيدة: يا روماس كم عهدك بهم وكم يكون تحت كل راية من عساكر الروم؟ فقال أيها الأمير: أما ما عهدت في عساكر الروم فتحت كل راية خمسون ألف فارس، فلما سمع أبو عبيدة ذلك. قال: الله أكبر أبشروا بالنصر على الأعداء، ثم قرأ الآية، "كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ".

قال الواقدي: ثم إن الملك هرقل لما قلد أمر جيوشه ماهان ملك الأرمن وأمره بالنهوض إلى قتال المسلمين ركب وركبت الروم وضربوا بوق الرحيل وخرج الملك هرقل ليتبع عساكره على باب فارس وسار معهم يوصيهم، وقال لقناطير وجرجير والديرجان وقورين: ليأخذ كل رجل منكم طريقاً، وأمر كل واحد منكم نافذ على جيشه. فإذا لقيتم العرب فالأمر فيكم لماهان، ولا يد على يده، واعلموا أنه ليس بينكم وبين هؤلاء إلا هذه الوقعة، فإن غلبوكم فلا يقنعوا ببلادكم بل يطلبونكم حيث سلكتم ولا يقنعون بالمال دون النفس ويتخذون حريمكم وأولادكم عبيداً فاصبروا على القتال

وانصروا دينكم و شرعكم. ثم وجه قناطير بجيشه على طريق جبلة واللاذقية، وبعث جرجير على طريق الجادة العظمى وهي أرض العراق وسومين، وبعث قورين على طريق حلب وحماة، وبعث الديرجان على أرض العوا صم وسار ماهان في أثر القوم بجيوشه والرجال أمامه ينحتون له الأرض ويزيلون من طريقهم الحجارة، وكانوا لا يمرون على بلد ولا مدينة إلا أضروا بأهلها ويطالبونهم بالعلوفة والإقامات ولا قدرة لهم بذلك فيدعون عليهم ويقولون لا ردكم الله سالمين. وجبلة بن الأيهم في مقدمة ماهان ومعه العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام.

قال الواقدي: حدثني من أثق به أن الطاغية هرقل لما بعث جيوشه إلى قتال المسلمين، كان للأمير أبي عبيدة في جيوش الروم عيون وجواسيس من المعاهدين يتعرفون له الأخبار، فلما وصل جيش الروم إلى شيزر فارقتهم عيون أبي عبيدة وساروا طالبين عسكر المسلمين فلم يجدوهم على حمص فسألوهم عنهم فأخبروهم أنهم رحلوا لأن الأمير أبا عبيدة ﷺ لما فتح حمص ترك عندهم من يأخذ الخراج والذي تركه عندهم من كبرائهم ورؤسائهم، وجعل الجواسيس يسيرون حتى وصلوا إلى الجابية وحضروا بين يدي الأمير أبي عبيدة ﷺ وأخبروه بما رأوه من عظم الجيوش والعساكر، فلما سمع أبو عبيدة ذلك عظم عليه وكبر لديه، وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وبات قلقاً لم تغمض له عين خوفاً على المسلمين، فلما طلع الفجر أذن فصلى بالمسلمين.

فلما فرغ من صلاته أقسم على المسلمين أن لا يبرحوا حتى يسمعوا ما يقول، ثم قام فيهم خطيباً وحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر النبي ﷺ، وترحم على أبي بكر الصديق ﷺ ودعا للمسلمين بالنصر، وقال: يا معاشر المسلمين اعلموا رحمكم الله أن الله ابتلاكم ببلاء حسن لينظر كيف تعملون وذلك عندما صدقكم الوعد وأيدكم بالنصر في مواطن كثيرة، واعلموا أن عيوني أخبروني أن عدو الله هرقل استنجد علينا من كبار بلاد الشرك، وقد سيرهم إليكم وأثقلهم بالزاد والسلاح "يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ" الصف **8**، واعلموا أنهم قد ساروا إليكم في طرق مختلفة ووعدهم طاغيتهم أن يجتمعوا بإزائكم على قتالكم، واعلموا أن الله معكم وليس بكثير من يخذله الله تعالى وليس بقليل من يكون الله تعالى معه فما عندكم من الرأي رحمكم الله تعالى؟ ثم قال لبعض عيونه: قم وأخبر المسلمين بما رأيت فقام الرجل وأخبر الناس بما رأى من الجيوش الثقيلة وعددها وعديدها، فعظم ذلك على المسلمين وداخل قلوب رجال منهم الهيبة والجزع، وجعل بعضهم ينظر إلى بعض ولم يرد أحد منهم جواباً، فقال أبو عبيدة ﷺ: ما هذا السكوت عن جوابي رحمكم

الله فأشيروا عليَّ برأيكم! فإنَّ الله ﷻ يقول لنبيه محمد ﷺ "وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ". فتكلم رجل من أهل السبق وقال: أيها الأمير أنت رجل لك رفعة ومكان وقد نزلت فيك آية من القرآن، وأنت الذي جعلك رسول الله ﷺ أمين هذه الأمة فقال ؑ: "لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح"، أشر أنت علينا بما يكون فيه الصلاح للمسلمين. فقال الأمين أبو عبيدة ؓ: إنما أنا رجل منكم تقولون وأقول وتشيرون وأشير والله الموفق في ذلك. فقام إليه رجل من أهل اليمن، وقال: أيها الأمير الذي نشير به عليك أن تسير من مكانك وتنزل في فرجة من وادي القرى، فيكون المسلمون قريباً من المدينة والنجدة تصل إلينا من الخليفة عمر بن الخطاب ؓ وإذا طلب القوم أثرنا وأقبلوا إلينا كنا عليهم ظاهرين. فقال الأمير أبو عبيدة ؓ: اجلسوا رحمكم الله فقد أشرتم بما عندكم من الرأي وإني إن برحت من موضعي هذا كره لي عمر بن الخطاب ذلك وأخذ يعنفني ويقول تركت مدائن فتحها الله على يديك ونزحت عنها، وكان ذلك هزيمة منك، ثم قال: أشيروا علي برأيكم رحمكم الله تعالى.

فقام إليه قيس بن هبيرة المرادي وقال: يا أمير المؤمنين لا ردنا الله إلى أهلنا سالمين إن خرجنا من الشام، وكيف ندع هذه الأنهار المتفجرة والزروع والأعناب والذهب والفضة والديباج ونرجع إلى قحط الحجاز وجدبه وأكل خبز الشعير ولباس الصوف ونحن في مثل هذا العيش الرغد؟! فإن قتلنا فالجنة وعدنا ونكون في نعيم لا يشبه نعيم الدنيا. فقال أبو عبيدة ؓ: صدق والله قيس بن هبيرة وبالحق نطق، ثم قال: يا معاشر المسلمين أترجعون إلي بلاد الحجاز والمدينة وتدعون لهؤلاء الأعلاج قصوراً وحصوناً وبساتين وأنهاراً وطعاماً وشراباً وذهباً وفضة مع ما لكم عند الله ﷻ في دار البقاء من حسن الطعام؟! ولقد صدق قيس بن هبيرة في قوله لنا ولسنا بارحين منزلنا هذا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. قال فوثب قيس بن هبيرة وقال: صدَّق الله قولك أيها الأمير وأعانك على ولايتك ولا تبرح من مكانك وتوكل على الله وقاتل أعداء الله، فإن فاتنا فتح عاجل فما يفوتنا ثواب آجل.

فقال أبو عبيدة ؓ: شكر الله فضلك وغفر لنا ولك والرأي رأيك وتتابع قول المسلمين بحسن رأيه إلا خالد بن الوليد ؓ فإنه ساكت لا يقول شيئاً. فقال أبو عبيدة ؓ: يا أبا سليمان أنت الرجل الجريء والفارس الشهم ومعك رأي وعزم فما تقول فيما قال قيس بن هبيرة؟ فقال خالد ؓ: نعم ما أشار به قيس إلا أن الرأي عندي غير رأيه ولكن لا أخالف المسلمين، فقال: إن كان عندك رأي فيه صلاح فائت به وكلنا لرأيك تبع، فقال خالد ؓ: اعلم أيها الأمير أنك إن أقمت في مكانك هذا فإنك تعين

على نفسك، لأن هذه الجابية قريبة من قيسارية وفيها قسطنطين ابن الملك هرقل في أربعين ألف فارس وأهل الأردن قد اجتمعوا إليه خوفاً منكم، والذي أشير به عليكم أن ترحلوا من منزلكم هذا وتجعلوا أذرعات خلف ظهوركم حتى ينزلوا اليرموك، ويكون الملأ من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قريباً منكم متلاحقاً بكم وأنتم على فتح لقتال عدوكم وهي أرض واسعة لمجال الخيل. قال: فلما نطق خالد بن الوليد بهذا الكلام قال المسلمون: نعم ما أشار به خالد! وقال أبو سفيان بن حرب: أيها الأمير افعل برأي خالد ﷺ وابعثه إلى ما يلي الرمادة فيكون بين عساكرنا وعساكر الروم المقيمة بالأردن لئلا ندهى منهم عند رحيلنا؛ فإنه سيكون لرحيلنا ورحيل عسكرنا بين هذه الأشجار ضجة عظيمة وجلبة هائلة فيداخل عدوكم فيكم الطمع فإن أقبلوا يريدون غارة ومكيدة لقيهم خالد بن الوليد ﷺ بمن معه. فقال خالد بن الوليد: والله يا ابن حرب لقد نطقت عن ضميري وهكذا الرأي عندي.

فعند ذلك أمر أبو عبيدة ﷺ الناس بالرحيل من الجابية فرحلوا ودعا أبو عبيدة بجيش الزحف الذي أقبل به خالد من أرض العراق وهو يومئذ أربعة آلاف فارس، وأمر خالداً ﷺ أن يسير بهم ويكون على طلائع المسلمين وحرسهم من وراء ظهورهم. ووقعت الضجة للمسلمين عند رحيلهم حتى سمع ضجيجهم من مسيرة فرسخين وطلبوا اليرموك وسمعت الروم المجتمعة بالأردن ضجة المسلمين عند رحيلهم فظنوا أنهم هاربون إلى الحجاز لما بلغهم من جيش هرقل فطمعوا فيهم وهموا بالغارة على أطرافهم فلقيهم خالد ﷺ فصاح في رجاله وقال: دونكم والقوم فهذه علامة النصر! فانتضى المسلمون السيوف ومدوا الرماح وحمل خالد وضرار بن الأزور والمرقال وطلحة بن نوفل العامري ﷺ وغير هؤلاء من الفرسان المعدودين! والمسلمون يقتلون ويأسرون، فلم يكن للروم طاقة بهم فولّوا منهزمين حتى وصلوا إلى الأردن فغرق منهم خلق كثير، ورجع خالد ﷺ.

وأما الأمير أبو عبيدة فإنه نزل باليرموك وجعل أذرعات من خلفه وكان هناك تل عظيم فعمد أبو عبيدة ﷺ إلى نساء المسلمين وأولادهم فأصعدهم على ذلك الجبل وأقام الحراس والطلائع على سائر الطرقات، فلما وصل خالد ﷺ بالأسارى والغنائم فرح أبو عبيدة ﷺ فرحاً شديداً، وقال: أبشروا رحمكم الله تعالى هذه علامة النصر والظفر! وأقام المسلمون باليرموك وهم مستعدون لقتال عدوهم كأنهم ينتظرون وعداً وعدوا به. وبلغ الخبر إلى قسطنطين ابن الملك هرقل بأن المسلمين قد نزلوا باليرموك، وأن ملوك الروم سائرون لقتالهم فبعث رسولاً إلى الملوك يستضعف رأيهم في إبطاء أمرهم ويحثهم على قتال المسلمين.

فلما ورد رسوله إلى ماهان دعا بالملوك والبطارقة وقرأ عليهم كتاب قسطنطين ابن الملك هرقل وأمرهم بالمسير، فسارت جيوش الروم يتلو بعضها بعضاً لا يمرون ببلد من مدائن الشام التي فتحها المسلمون إلا ويعنفون أهلها ويقولون لهم: يا ويلكم تركتم أهل دينكم وملتكم وملتم إلى العرب. فيقولون لهم: أنتم أحق بالملامة منَّا لأنكم هربتم منهم وتركتمونا للبلاء فصالحنا عن أنفسنا! فيعرفون الحق فيسكتون ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى اليرموك فنزلوا بدير يقال له دير الجبل وهو بالقرب من الرمادة والجولان وجعلوا بينهم وبين عسكر المسلمين ثلاثة فراسخ طولاً وعرضاً، فلما تكاملت الجيوش باليرموك أشرفت سوابق الخيل على أصحاب رسول الله ﷺ وكان جبلة بن الأيهم في المقدمة في ستين ألف فارس من العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام وهم على مقدمة ماهان، فلما نظر أصحاب رسول الله ﷺ إلى كثرة جيوش الروم قالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال عطية بن عامر: فوالله ما شبهت عساكر اليرموك إلا كالجراد المنتشر إذا سد بكثرته الوادي. ونظرت إلى المسلمين قد ظهر منهم القلق وهم لا يفترون عن قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأبو عبيدة ﷺ يقول: "رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ"، وأخذ المسلمون أهبتهم ودعا الأمير أبو عبيدة بجواسيسه من المعاهدين وأمرهم أن يدخلوا عساكر الروم يجسون له خبر القوم وعددهم وعديدهم وسلاحهم، وقال أبو عبيدة ﷺ: أنا أرجو من الله تعالى أن يجعلهم غنيمة لنا. فلما نزل ماهان بعساكره بإزاء المسلمين على نهر اليرموك أقام أياماً لا يقاتل ولا يثير حرباً.

جبلة بن الأيهم

قال الواقدي: وكان تأخير ماهان لأمر، وذلك أن رسولاً ورد عليه من الملك هرقل يقول له: لا تنجز الحرب بينك وبين المسلمين حتى نبعث إليهم رسولاً ونعدهم منَّا كل سنة بمال كثير وهدايا لصاحبهم عمر بن الخطاب ولكل أمير منهم، ويكون لهم من الجابية إلى الحجاز، فلما وصل الرسول إلى ماهان قال: هيهات هيهات إن كانوا يجيبون إلى ذلك أبداً! فقال له جرجير وهو أحد ملوك الجيش: وما عليك في هذا الذي ذكره الملك هرقل من المشقة؟! فقال ماهان: اخرج أنت إليهم وادع منهم رجلاً عاقلاً وخاطبه بالذي سمعت واجتهد في ذلك. فلبس جرجير ثياب الديباج وتعصب بعصابة من الجوهر وركب شهباء عالية بسرج من الذهب الأحمر المرصع بالدر والجوهر وخرج معه ألف فارس من المدبجة، وسار حتى أشرف على عساكر

المسلمين، وأوقف جرجير أصحابه وقرب من المسلمين ووقف بإزائهم وقال: يا معاشر العرب أنا رسول من الملك ماهان فليخرج إليَّ أميركم والمقدم عليكم حتى نعرض عليه مقالنا ولعلنا نصطلح ولا نسفك دم بعضنا. فسمعه المسلمون فأعلموا الأمير أبا عبيدة ﷺ بذلك فخرج بنفسه إليه وعليه ثوب من كرابيس العراق وعلى رأسه عمامة سوداء وهو متقلد بسيفه وسار إلى أن وصل إلى جرجير ورفس فرسه حين التقت عنق فرسيهما والناس ينظرون إليهما.

فقال أبو عبيدة ﷺ: يا أخا الكفر قل ما أنت قائل واسأل عما تريد. فقال جرجير: يا معاشر العرب لا يغرنَّكم أن تقولوا هزمنا عساكر الروم في مواطن كثيرة وفتحنا بلادهم وعلونا أكثر أرضهم، فانظروا الآن ما قد أتاكم من العساكر فإن معنا من سائر الأجناس المختلفة، وقد تحالف الروم أن لا يفروا ولا ينهزموا وأن يموتوا عن آخرهم، وليس لكم على ما ترون من طاقة فانصرفوا إلى بلادكم وقد نلتم ما نلتم من بلاد الملك هرقل، وقد عوَّل الملك أن يتعود الإحسان إليكم وهو يهب لكم ما أخذتم من بلادهم منذ ثلاث سنين! وقد أخذتم السلاح والذهب والفضة. وقد كنتم حين قدمتم الشام منكم على رجله ومنكم عريان فأجيبوا إلى ما دعوتكم إليه وإلا كنتم من الهالكين.

فقال الأمير أبو عبيدة: أما ما ذكرت من عساكر الروم وأنهم لا يفرون ولا ينهزمون، فلو رأت الروم شفار سيوفنا هربت ناكصة على أعقابها، وأما تهويلك لنا بكثرة عددكم فقد رأيت قلتنا وضعف أجسامنا، وكيف لقينا جموعكم وكثرتها وعظم عددها وسلاحها وأحب الأشياء إلينا يوم مشاجرتكم بالحرب والقتال حتى يعرف من الذي يثبت للحرب؟ فلما سمع جرجير كلام الأمير أبو عبيدة التفت إلى رجل من أصحابه يقال له بهيل. فقال يا بهيل: الملك هرقل كأنه أعرف بهؤلاء العرب منا، ثم لوى رأس جواده ورجع إلى ماهان وأخبره بما قال أبو عبيدة... فقال له ماهان: دعوتهم إلى الموعد. فقال: لا وحق المسيح إني لم أفاتحه في شيء من ذلك لكن ابعث لهم بعض العرب المتنصرة، فإن العرب يميل بعضهم إلى بعض. فعندها دعا ماهان بجبلة بن الأيهم الغساني. وقال: يا جبلة اخرج إلى هؤلاء وخوفهم من كثرتنا وتواتر عددنا وألق في قلوبهم الرعب وأحط بهم مكرك. فخرج جبلة بن الأيهم وسار حتى قرب من عساكر المسلمين ونادى برفيع صوته: يا معاشر العرب ليخرج إليَّ رجل من ولد عمرو بن عامر لأخاطبه بما أرسلت به. فلما سمع الأمير أبو عبيدة ﷺ كلام جبلة بن الأيهم قال: قد بعث إليكم القوم بأبناء جنسكم يريدون الخديعة بصلة الرحم والقرابة فابعثوا إليه رجلاً من الأنصار من ولد عمرو بن عامر.

فأسرع بالخروج إليه عبادة بن الصامت الخزرجي ﷺ وقال لأبي عبيدة: أيها الأمير أنا أخرج إليه وأنظر ماذا يقول فأجيب عنه. ثم خرج عبادة نحوه بجواده إلى أن وقف أمام جبلة بن الأيهم فنظر جبلة إلى رجل أسمر طويل شديد السمرة كأنه من رجالِ شنوءة فهابه ودخل الرعب في قلبه من عظم خلقته! وكان عبادة بن الصامت من الخطَّاط ﷺ. فقال له جبلة: يا فتى من أي الناس أنت؟ فقال عبادة: أنا من ولد عمرو بن عامر. فقال جبلة: حييت فمن أنت؟ فقال: عبادة بن الصامت صاحب رسول الله ﷺ، فاسأل عما تريد. فقال جبلة: يا ابن العم إنما خرجت إليكم لأني أعلم أن أكثركم من الرحم والقرابة فخرجت إليكم ناصحاً ومشيراً، واعلم أن هؤلاء القوم الذين قد نزلوا بازائكم معهم جنود لا قبل لكم بها وخلفهم عساكر وحصون وقلاع وأموال ولا تقولوا كسرنا وهزمنا عساكر الروم، واعلم أن الحرب دول وسجال، وإن هزمكم هؤلاء القوم لا يكون لكم ملجأ غير الموت، وهؤلاءِ القوم إن انهزموا يرجعون إلى بلادهم وعساكرهم والخزائن والحصون، وما قد نلتم نيلاً فخذوه وامضوا إلى بلادكم سالمين.

قال عبادة بن الصامت: يا جبلة أما علمت ما لقينا من جموعكم المتقدمة بأجنادين وغيرها وكيف نصرنا الله عليكم وهرب طاغيتكم ونحن نعلم من بقي من جموعكم قد تيسر علينا أمره ونحن لا نخاف ممن يقدم علينا من جموعكم وقد ولغنا في الدماء فلم نجد أحلى من دماء الروم، وأنا يا جبلة أدعوك إلى دين الإسلام وأن تدخل مع قومك في ديننا وتكون على شرفك في الدنيا والآخرة ولا تكون تابع علج من علوج الروم تفديه بنفسك من المهالك وأنت رجل من سادات العرب وملوكهم! وإن ديننا ظهر أوله وآخره يظهر كما ظهر أوله فاتبع سبيل من أناب إلى الحق وصدق به، فقل: لا إله إلا الله محمد رسول الله اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه وسلم. فغضب جبلة بن الأيهم من كلام عبادة بن الصامت، وقال: لست مفارقاً ديني. فقال عبادة بن الصامت: فإن أبيت إلا ما أنت عليه من الكفر فإياك أن تلقاني في الموعد الأول فإن لنا وقعة عظيمة، فإن أخذتك شفار سيوفنا فلا تخلص من شفارها ودعنا وعساكر الروم فهم أهون علينا فإن أبيت إلا ما أنت عليه حل بك مثل ما حل بهم! فغضب جبلة بن الأيهم وقال: لماذا تخوِّفني من سيوفكم؟ أما نحن عربٍ مثلكم رجل لرجل؟! فقال عبادة بن الصامت: قد علمنا أنك إنما خرجت إلينا مخادعاً ومعيناً ولسنا مثلكم! يا ويلكم نحن على قلتنا نوحِّد ربنا ﷻ ونتبع سنة نبينا محمد ﷺ وإن وراءنا عسكراً يعلو الأقطار ويسد القفار.

فقال جبلة: لست أعرف وراءكم جيشاً غير هذا الجيش ولا من ينصركم غيرهم؟ فقال عبادة بن الصامت: كذبت والله يا ابن الأيهم في قولك وإن وراءنا رجالاً أنجاداً

وأبطالاً شداداً يرون الموت مغنماً والحياة مغرماً كل واحد بنفسه يلقي جيشاً حافلاً! يا ويلك أنسيت علياً وسطوته، وعمر وشدته، وعثمان وبراعته، والعباس وطلعته، والزبير ﷺ مع ما يجتمع إليهم من فرسان المسلمين من مكة والطائف واليمن وغير ذلك؟! قال: فلما سمع جبلة ذلك من كلام عبادة بن الصامت قال: يا ابن العم أنا ما خرجت إلا أريد النصيحة لكم فإن أبيتم ذلك فاسأل قومك يجيبونا إلى الصلح. فقال عبادة بن الصامت: لا صلح بيننا إلا بأداء الجزية أو الإسلام أو السيف وهو حكم بيننا وبينكم، والله لولا أن الغدر يقبح بنا لعلوتك بسيفي هذا! فلما سمع جبلة كلام عبادة وإنه قد حاف عليه في الكلام لم يرد عليه جواباً.. غير أنه ثنى رأس جواده وأتى إلى ماهان فزعاً مرعوباً وقد امتلأ قلبه رعباً من كلام عبادة بن الصامت، فلما وقف بين يدي ماهان تبين في وجهه الجزع والفزع. فقال لجبلة: ما وراءك؟ فقال: أيها الملك إني خوفت وأرعبت ومنيت فكان ذلك كله عندهم بالسواء وقالوا: ما بيننا إلا الحرب والقتال. فقال له ماهان: فما هذا الفزع الذي أراه في وجهك وهم عرب مثلكم وأنتم عرب مثلهم وقد بلغني أنهم ثلاثون ألف فارس، وأنتم ستون ألف فارس أما يقاتل الرجلان منكم الرجل الواحد منهم؟! دونك يا جبلة فسر أنت وأبناء عمك من العرب المتنصرة إلى قتالهم وأنا وراءكم، فإن ظفرتم بهم كان الملك مشتركاً بيننا وبينكم وتكون أقرب الناس إلينا ويسلم إليكم ما فتحه العرب من بلاد الشام.

قال الواقدي: وجعل ماهان يرغِّب جبلة في العطاء ويلينه ويحرضه على قتال المسلمين حتى أجابه إلى ذلك، وأخبر قومه وبني عمه من بني غسان ولخم وجذام وغيرهم من العرب المتنصرة وأمرهم بأخذ الأهبة للحرب والقتال ففعل القوم ذلك وركبوا في سابغ الحديد وهم ستون ألف فارس ما يخالطهم من غير العرب أحد يقدمهم جبلة بن الأيهم وعليه درع من الذهب الأحمر متقلد بسيف من عمل التبابعة وعلى رأسه الراية التي عقدها له الملك هرقل، فسار جبلة نحو الصحابة في جيشه حتى أشرف على عساكر المسلمين وأبو عبيدة يتحدث مع عبادة بن الصامت بما جرى بينه وبين جبلة بن الأيهم إذ أشرفت عليهم العرب المتنصرة. فلما رآهم المسلمون صاح بعضهم على بعض: يا معاشر المسلمين قد أقبلت عليكم العرب المتنصرة لقتالكم فما أنتم قائلون؟ قالوا: نقاتلهم ونرجو من الله تعالى الظهور والمعونة عليهم وعلى غيرهم، وهمُّوا بالحملة فصاح فيهم خالد بن الوليد ﷺ وقال: اصبروا رحمكم الله ولا تعجلوا حتى أكيدهم بمكيدة يهلكون بها! وقال لأبي عبيدة ﷺ: أيها الأمير إن القوم قد استعانوا علينا بالعرب المتنصرة وهم أضعاف عددنا وإن نحن نقاتلهم بجمعنا

كله كان ذلك وهناً منا وضعفاً، وأريد أن أبعث لهم رسولاً من بني عمهم يكلمهم في شأن ردهم عنَّا فإن فعلوا كان ذلك كسراً لهم وللمشركين ووهناً عظيماً، وإن أبوا إلا الحرب والقتال خرج منَّا نفر يسير يردونهم على أعقابهم بعزة الله ﷻ. قال: فتعجب أبو عبيدة ﷺ وقال: يا أبا سليمان افعل ما تريد. فعند ذلك دعا خالد بن الوليد بقيس بن سعد وعبادة بن الصامت الخزرجي وجابر بن عبد الله وأبي أيوب (خالد بن يزيد) ﷺ أجمعين، فلما وقفوا بين يديه قال لهم: يا أنصار الله تعالى ورسوله ﷺ هؤلاء العرب المتنصرة يريدون قتالكم وهم غسان ولخم وجذام وهم بنو عمكم في النسب فاخرجوا إليهم وخاطبوهم واجتهدوا في ردهم عن حربكم وقتالكم فإن فعلوا ذلك وإلا أخذهم السيف منا ومنكم وكنا لقتالهم كفؤاً.

قال الواقدي: فخرج أصحاب رسول الله ﷺ إلى العرب المتنصرة فوجدوا جبلة بن الأيهم قد نزل بإزاء المسلمين يريد حربهم وقتالهم. فلما قربوا من بني غسان نادى جابر بن عبد الله وقال: يا معاشر العرب من لخم وغسان وجذام إننا بنو عمكم ونريد الدنو إليكم. فأذن لهم جبلة بالدنو إليه فدخلوا عليه. فإذا هو في مضرب من الديباج، وقد فرش بالحرير الأصفر وهو جالس وحوله ملوكه وملوك جفنة فحيوه بتحية ملوك العرب فرفع جبلة أقدارهم وأدنى مزارهم وقال: يا بنى العم أنتم من الرحم من القرابة! وأني خرجت إليكم من جهة هذا الجيش الذي يرهقكم فخرج إليَّ رجل منكم فأفرط علي في المقال فما الذي أتى بكم إليَّ؟

فكان أول من كلمه جابر بن عبد الله وقال: يا ابن العم لا تؤاخذنا فيما تكلم به صاحبنا فإن ديننا لا يقوم إلا بالحق والنصيحة وإن النصيحة لك منا واجبة لأنك ذو قرابة ورحم، وقد أتينا إليك ندعوك إلى دين الإسلام وتكون من أهل ملتنا، ويكون لك ما لنا وعليك ما علينا فإن ديننا شريف ونبينا شريف فقال: ما أحب ذلك ولا غيره إنني ضنين بديني وأنتم يا معاشر الأوس والخزرج رضيتم لأنفسكم أمراً ونحن رضينا لأنفسنا أمراً لكم دينكم ولنا ديننا. فقال له الأنصاري: إن كنت لا تحب أن تفارق دينك الذي أنت عليه فاعتزل عن قتالنا لتنظر لمن تكون العاقبة والغلبة فإن كانت لنا وأردت الدخول في ديننا قبلناك وكنت منا وأخانا، وإن أقمت على دينك قنعنا منك بالجزية وأقررناك على بلدك وعلى مواطن كثيرة لآبائك وأجدادك.

فقال جبلة: أخشى إن تركت حربكم وقتالكم وكانت الدائرة للقوم لا آمن أن يتقووا على بلدي، لأن الروم لا ترضى مني إلا أن أكون مقاتلاً لكم وقد رأسوني على جميع العرب وأنا لو دخلت دينكم كنت دنيئاً ولا أتبع، فقال الأنصاري: فإن أبيت ما

عرضناه عليك فإن ظفرنا بك قتلناك فاعتزل عنا وعن سيوفنا فإنها تفلق الهام وتبري العظام فتكون الوقعة بغيرك أحب إلينا من الوقعة بك وبمن معك قال: وكانت الأنصار يريدون بهذا الكلام تخويفه وترغيبه كي ينصرف عنهم وجبلة يأبى ذلك. فقال: وحق المسيح والصليب لابد أن أقاتل عن الروم ولو كان لجميع الأهل والقرابة. فقال له قيس بن سعد: يا جبلة أبيت إلا أن يحتوي الشيطان على قلبك فيهوي بك في النار فتكون من الهالكين، وإنما أتينا لندعوك إلى دين الإسلام لأن رحمك متصلة برحمنا فإن أبيت فستعاين منا حرباً شديداً يشيب فيه الطفل الصغير! ثم وثب قيس بن سعد وقال لقومه: انهضوا على بركة الله تعالى وعونه وحسن طاعته فبعداً له وسحقاً! فقام جبلة فاستعد للقتال بعدته. قال: فركب الأنصار خيولهم ورجعوا إلى الأمير أبي عبيدة وخالد بن الوليد رضي الله عنهما وأعلموهما بمقالة جبلة وأنه ما يريد إلا القتال.

فقال خالد ﷺ: أبعده الله تعالى، .... لينظرن منّا جبلة ما ينظر. ثم قال ﷺ: اعلموا معاشر المسلمين أن القوم في ستين ألف فارس من العرب المتنصرة وهم حزب الشيطان، ونحن ثلاثون ألف فارس من حزب الرحمن، ونريد أن نلقى هذا الجمع الكبير! فإن قاتلنا جبلة بجمعنا كله كان ذلك وهناً منّا، ولكن ينتدب منّا أبطال ورجال إلى قتال هؤلاء العرب المتنصرة. فقال أبو سفيان صخر بن حرب: لله درك يا أبا سليمان، فلقد أصبت الرأي فاصنع ما تريد وخذ من الجيش ما أحببت. فقال: إني قد رأيت من الرأي أن ننتدب من جيشنا ثلاثين فارساً فيلقى كل واحد ألفي فارس من العرب المتنصرة! فلم يبق أحد من المسلمين إلا عجب من مقالة خالد ﷺ وظنّوا أنه يمزح بمقالته، وكان أول من خاطبه في ذلك أبو سفيان وقال: يا ابن الوليد هذا كلام منك جد أو هزل؟! فقال خالد ﷺ: لا ..... ما قلت إلا جداً. فقال أبو سفيان: فتكون مخالفاً لأمر الله تعالى ظالماً لنفسك! وما أظن أن لك في هذه المقالة مساعداً، ولو قاتل الرجل منّا مائتين كان ذلك أسهل من قولك يقاتل الرجل منّا ألفين، وإن الله ﷻ رحيم بعباده فرض علينا أن الرجل منّا يقاتل الرجلين والمائة المائتين والألف الألفين، وإنك تريد أن تقود ثلاثين رجلاً منّا تلقى الستين ألف فارس! فما يجيبك أحد إلى ذلك وإن أجابك رجل لما قلته فإنه ظالم لنفسه معين على قتلها!

فقال خالد ﷺ: يا أبا سفيان كنت شجاعاً في الجاهلية فلا تكن جباناً في الإسلام وانظر لمن أنتخب من رجال المسلمين، وأبطال الموحّدين! فإنك إذا رأيتهم علمت أنهم رجال قد وهبوا أنفسهم لله ﷻ وما يريدون بقتالهم غير الله تعالى، ومن علم الله ﷻ ذلك من ضميره كان حقاً على الله أن ينصره ولو سلك مقطعات النيران. فقال أبو سفيان: يا أبا سليمان الأمر كما ذكرت وما أردت بقولي إلا شفقة على

المسلمين فإذا قد صح عزمك على ذلك فاجعل القوم ستين رجلاً ليقاتل الرجل منهم ألف فارس من العرب المتنصرة.

فقال الأمير أبو عبيدة ﵁: نعم ما أشار به أبو سفيان يا أبا سليمان! فقال خالد ﵁: والله يا أيها الأمير ما أردت بفعلي هذا إلا مكيدة لعدونا لأنهم إذا رجعوا إلى أصحابهم منهزمين بقوة الله ﷻ ويقولون لهم من لقيكم فيقولون لقينا ثلاثين رجلاً يداخلهم الرعب منا ويعلم ماهان أن جيشنا كفء له. فقال أبو عبيدة ﵁: إن الأمر كما ذكرت إلا أنه إذا كان ستون رجلاً منا يكونون عصبة ومعيناً بعضهم بعضاً. فقال خالد ﵁: أنا أنتدب من المسلمين رجالاً أعرف صبرهم وقرارهم وإقدامهم في الحرب وأعرض عليهم هذه المقالة فإن أحبوا لقاء الله ورغبوا في ثواب الله ﷻ فإنهم يستجيبون إلى ذلك وإن أحبوا الحياة الدنيا والبقاء فيها ولم يكن فيهم من تطيب نفسه للموت فما بخالد إلا أن يبذل مهجته لله ﷻ والله الموفق لما يحبه ويرضاه.

.... حدثنا عمرو بن سالم عن جده برعي بن عدي قال: كنت بين يدي خالد بن الوليد ﵁ فدعا بستين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فأول ما دعا خالد قال: أين عمرو التميمي؟ أين شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ؟ أين خالد بن سعيد بن العاص؟ أين يزيد بن أبي سفيان الأموي؟ أين صفوان بن أمية الجمحي؟ أين سهل بن عمرو العامري؟ أين ضرار بن الأزور الكندي؟ أين رافع بن عميرة الطائي؟ أين ....؟ أين الصابرون يوم أحد، وقد ذكرهم الله تعالى في كتابه "فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ". قال الواقدي: وقد سمى خالد ﵁ الرجال الذين دعاهم لقتال جبلة بن الأيهم، إلا أنّي اختصرت في ذكرهم وقدمت ذكر الأنصار ﵃ لأن خالداً ﵁ انتخب أكثر الرجال من الأنصار. فلما كثر النداء فيهم قالت الأنصار: إن خالداً اليوم يقدم ذكر الأنصار ويؤخر المهاجرين من ولد المغيرة بن قصي، ويوشك أنه يختبرهم أو يقدمهم للمهالك، ويشفق على ولد المغيرة! فلما سمع خالد ﵁ ذلك من قولهم، أقبل يخطو بجواده حتى توسط جميع الأنصار؟ وقال لهم: والله يا أولاد عامر ما دعوتكم إلا لما ارتضيته منكم وحسن يقيني بكم وبإيمانكم فأنتم ممن رسخ الإيمان في قلبه، فقالوا: إنك صادق في قولك يا أبا سليمان، ثم صافحه القوم.

قال الواقدي: فلما انتخب خالد من فرسان المسلمين ستين رجلاً كل واحد منهم يلقى جيشاً بنفسه قال لهم: يا أنصار الله ما تقولون في الحملة معي على هذا الجيش الذي قد أتى يريد حربكم وقتالكم، فإن كان لكم صبر وأيدكم الله بنصره مع صبركم وهزمتم هؤلاء العرب المتنصرة، فاعلموا أنكم لجيش الروم غالبون، فإذا هزمتم هؤلاء العرب وقع الرعب في قلوبهم فينقلبون خاسرين. فقالوا: يا أبا سليمان

افعل بنا ما تريد والق ما تشاء فوالله لنقاتلن أعداءنا قتال من ينصر دين الله ونتوكل على الله تعالى وقوته ونبذل في طلب الآخرة مهجنا. فجزاهم خالد ﷺ خيراً، وكذلك الأمير أبو عبيدة ﷺ، وقال لهم: تأهبوا رحمكم الله وخذوا أسلحتكم وعدتكم وليكن قتالكم بالسيف ولا يأخذ أحد منكم رمحاً فإن الرمح خوان ربما زاغ عن الطعن ولا تأخذوا السهام فإنها منايا منها المخطئ ومنها المصيب، والسيف والحجف عليهما تدور دوائر الحرب واركبوا خيولكم السبق النواجي ولا يركب الرجل منكم إلا جواده الذي يصبر به، وتواعدوا أن الملتقى عند حوض المصطفى ﷺ.

فقدموا على أهاليهم وودعوهم. فأما ضرار بن الأزور فإنه عمد إلى خيمته ليستعد بما يريد، ويسلم على أخته خولة بنت الأزور رضي الله عنها. فلما لبس لأمة حربه قالت له أخته خولة: يا أخي ما لي أراك تودعني وداع من أيقن بالفراق أخبرني ماذا عزمت عليه. فأخبرها ضرار بما قد عزم عليه وأنه يريد أن يلقى العدو مع خالد بن الوليد ﷺ فبكت خولة وقالت: يا أخي افعل ما تريد أن تفعل والقِ عدوكم وأنت موقن بالله تبارك وتعالى، فإنه لكم ناصر وإن عدوك لا يقرب إليك أجلاً بعيداً ولا يبعد عنك أجلاً قريباً فإن حدث عليك حدث أو لحقك من عدوك نائبة فوالله العظيم شأنه لا هدأت خولة على الأرض أو تأخذ بثأرك فبكى ضرار بن الأزور لبكائها وأعد آلة الحرب وكذلك الستون من أصحاب رسول الله ﷺ ولم يناموا طول ليلتهم، حتى ودعوا أولادهم وأهاليهم وباتوا في بكاء وتضرع وهم يسألون الله تعالى النصر على الأعداء إلى أن أصبح الصباح فصلى بهم الأمير أبو عبيدة ﷺ صلاة الفجر، فلما فرغ من صلاته كان أول من أسرع إلى الخروج خالد بن الوليد ﷺ وحرض أصحابه على الخروج وهو ينشد ويقول:

هبوا جميع إخوتي أرواحا   نحو العدو نبتغي الكفاحا
نرجو بذاك الفوز والنجاحا   إذا بذلنا دونه أرواحا
ويرزق الله لنا صلاحا   في نصرنا الغدو والرواحا

وخرج أمام المسلمين وأصحابه يقدمون إليه واحداً بعد واحد حتى اجتمع إليه الستون رجلاً وكان آخر من أقبل عليه الزبير بن العوام ﷺ ومعه زوجته أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها وهي سائرة إلى جانب أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﷺ وهي تدعو لهم بالسلامة والنصر وتقول لأخيها: يا أخي لا تفارق ابن عمة رسول الله ﷺ ووقت الحملة اصنع كما يصنع ولا تأخذكم في الله لومة لائم. وودع المسلمون الستين أصحابهم، وساروا بأجمعهم وخالد ﷺ وسطهم كأنه أسد قد احتوشته الأسود ولم يزالوا حتى وقفوا بإزاء العرب المتنصرة فظنوا أنهم رسل يطلبون الصلح والمواعدة فصاح جبلة بالعرب المتنصرة وحرضهم ليرهب المسلمين

ونادى يا آل غسان أسرعوا إلى نصرة الصليب وقاتلوا من كفر به! فبادروا بالإجابة وأخذوا الأهبة للحرب ورفعوا الصليب واصطفوا للقتال ووقفوا ينتظرون ما يصنع أصحاب رسول الله ﷺ إلى أن قاربوا صلبان العرب المتنصرة ونادى خالد بن الوليد ﵁: يا عبدة الصلبان ويا أعداء الرحمن هلموا إلى الحرب والطعان، فلما سمع جبلة كلام خالد ﵁ علم أنهم ما خرجوا رسلاً، وإنما خرجوا للقتال فخرج جبلة من بين أصحابه وقد اشتمل بلأمة حربه وهو يقول:

إنَّا لَمَنْ عبدوا الصليب ومن به ... نسطو على من عابنا بفعالنا
ولقد علونا بالمسيح وأمه ... والحرب تعلم أنها ميراثنا
إنا خرجنا والصليب أمامنا ... حتى تبددكم سيوف رجالنا

ثم قال جبلة: من الصائح بنا والمستنهض لنا في قتالنا؟ فقال خالد بن الوليد ﵁: أنا فاخرج إلى حومة الحرب. فقال جبلة: نحن قد رتبنا أمورنا لحربكم وقتالكم وأنتم تتربصون عن قتالنا فوحق المسيح لا أجبناكم إلى الصلح أبداً فارجعوا إلى قومكم وأخبروهم أننا ما نريد إلا القتال. فأظهر خالد التعجب من قوله وقال له: يا جبلة أتظن أننا خرجنا رسلاً إليك؟ فقال جبلة: أجل. فقال خالد ﵁: لا تظن ذلك أبداً فوالله ما خرجنا إلا لحربكم وقتالكم فإن قلتم إننا شرذمة فإن الله ينصرنا عليكم. فقال جبلة: يا فتى قد غررت بنفسك وبقومك إذ خرجت إلى قتالنا ونحن سادات غسان ولخم وجذام. فقال خالد بن الوليد ﵁: لا تظن ذلك وإننا قليلون فقتالكم رجل منا لألف منكم وتخلف منا رجال أشهى إليهم الحرب من العطشان إلى الماء البارد.

فقال جبلة: يا أخا بني مخزوم أغد كنت أفضلك في عقلك وأروم بك مرام الأبطال حتى سمعت منك هذا الكلام إنك أنت والستين رجلاً ترومون قتالنا ونحن سادات غسان وأبطال الزمان ها أنا أحمل بهذه الستين ألف فارس فلا يبقى منكم أحد، ثم صاح جبلة بقومه: يا آل غسان الحملة، فلما سمعوا كلام سيدهم حمل الستون ألف فارس في وجه خالد بن الوليد والستين رجلاً فثبت لهم أصحاب رسول الله ﷺ واشتبكت الحرب بينهم؛ فما كنت تسمع إلا زئير الرجال وزمجرة الأبطال ووقع السيف على البيض الصقال حتى ما ظن أحد من المسلمين ولا من المشركين أن خالداً ومن معه ينجو منهم أحد فبكى المسلمون وأخذهم القلق على إخوانهم وجعل بعضهم يقول: لقد غرر خالد بأصحاب رسول الله ﷺ وأهلكهم والروم تقول: إنْ أهلك جبلة هؤلاء القوم فهلاك العرب حاصل بأيدينا لا محالة! ولم يزل القوم في الحرب والقتال حتى قامت الشمس في كبد السماء.

قال عبادة بن الصامت ﷺ: فلله در خالد بن الوليد والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق والفضل بن العباس وضرار بن الأزور وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضوان الله عليهم أجمعين، لقد رأيت هؤلاء الستة قد قرنوا مناكبهم في الحرب وقام بعضهم بجنب بعض وهم لا يفترقون وزادت الحرب اشتعالاً وخرقت الأسنة صدور الليوث حتى بلغت إلى خزائن القلوب لانقطاع الآجال ولم يزالوا في القتال الشديد الذي ما عليه من مزيد. قال عبادة بن الصامت: فحملت معهم وكنت في جملتهم، وقلت: يصيبني ما يصيبهم! ونادى خالد بن الوليد وقال: يا أصحاب رسول الله ﷺ هاهنا المحشر وقد أعطى خالد القلب مناه! فلما حمي بينهم القتال حمل خالد بن الوليد وهاشم والمرقال وتكاثرت عليهم الرجال فلله در الزبير بن العوام والفضل بن العباس وهم ينادون: أفرجوا يا معاشر الكلاب وتباعدوا عن الأصحاب نحن الفرسان هذا الزبير بن العوام، وأنا الفضل بن العباس أنا ابن عم رسول الله ﷺ.

قال عبادة ﷺ: لقد أحصيت للفضل بن العباس عشرين حملة يحملها عن خالد بن الوليد حتى أزال عنه الرجال والأبطال وحملوا على المشركين حملة عظيمة ولم يزالوا في القتال يومهم إلى أن جنحت الشمس إلى الغروب، والمسلمون قد جهدهم القلق على إخوانهم. أما الأمير أبو عبيدة ﷺ فإنه صاح بالمسلمين وقال: يا أصحاب رسول الله ﷺ هلك خالد بن الوليد ومن معه لا محالة وذهبت فرسان المسلمين فاحملوا بارك الله فيكم لننظر ما كان من أمر إخواننا فكل أجاب إلى قوله وإشارته إلا أبا سفيان ﷺ فإنه قال للأمير أبي عبيدة ﷺ: لا تفعل أيها الأمير فإنه لابد للقوم أن يتخلصوا ونرى ما يكون من أمرهم! فلم يلتفت أبو عبيدة ﷺ إلى كلامه وهمَّ أن يحمل وقد أخذه القلق! فبينما هو كذلك وإذا جيش العرب المتنصرة منهزمون وأصوات الصحابة ﷺ قد ارتفعت بالتهليل والتكبير كل ينادي: أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. والعرب المتنصرة منهزمة على أعقابهم كأنَّما صاح بهم صائح من السماء فبدد شملهم، وأقبل خالد بن الوليد ﷺ من وسط المعمعة يلتهب مما لحقه من التعب، وكذا أصحابه الذين كانوا معه.

وإن خالداً افتقد أصحابه الستين فلم يجد منهم إلا عشرين! فجعل يلطم على وجهه وهو يقول: أهلكت المسلمين يا ابن الوليد فما عذرك غداً عند الرحمن وعند الأمير عمر بن الخطاب ﷺ؟! فبينما هو متحير في ذلك إذ أقبل عليه الأمير أبو عبيدة ﷺ وفرسان المسلمين وأبطال الموحِّدين فنظر أبو عبيدة ﷺ إلى خالد وما يصنع بنفسه، وقد اشتغل عن متابعة المشركين، فقال أبو عبيدة: يا أبا سليمان الحمد لله على نصر المسلمين ودمار المشركين. فقال خالد: اعلم أيها الأمير إن الله قد هزم الجيش،

ولكن أعقبتك الفرحة ترحة! فقال أبو عبيدة: وكيف ذلك؟ فقال خالد: أيها الأمير فقدت أربعين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله ﷺ وفيهم الفضل بن العباس وجعل خالد بن الوليد ﷺ يسمي فرسان المسلمين واحداً بعد واحد حتى سمى أربعين رجلاً فاسترجع أبو عبيدة ﷺ، وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقال لخالد: لابد لعجبك يهلك المسلمون. فقال سلامة بن الأحوص السلمي: أيها الأمير دونك والمعركة فاطلب فيها أصحاب رسول الله ﷺ فإن رأيتموهم وإلا فالقوم أسرى أو قد تبعوا المشركين فأمر أبو عبيدة فأتوا بهوادئ النيران، وكان الظلام قد اعتكر فافتقدوا المعركة بين القتلى فإذا قتل من العرب المتنصرة خمسة آلاف فارس وسيدان من ساداتهم وهما رفاعة بن مطعم الغساني والآخر شداد بن الأوس ووجدوا من قتلى المسلمين عشرة رجال منهم اثنان من الأنصار أحدهما عامر الأوسي والآخر سلمة الخزرجي.

فقال أبو عبيدة ﷺ: يوشك أن بعض الصحابة قد تبع المشركين! ثم قال: "اللهم ائتنا بالفرج القريب ولا تفجعنا بابن عمة نبيك الزبير بن العوام ولا بابن عمه الفضل بن العباس"، ثم قال: معاشر المسلمين من يقفو لنا أثر القوم ويتعرف خبر الصحابة وأجره على الله ﷻ. فكان أول من أجابه خالد ﷺ. فقال له الأمير أبو عبيدة: لا تفعل يا أبا سليمان لأنك تعبت من شدة الحرب. فقال خالد: والله لا يمضي في طلبهم غيري! ثم غيّر جواده بفرس حازم بن جبير بن عدي من بني النجار فركبه وطلب آثار القوم وتبعه جماعة من المسلمين! فما سار خالد بعيداً حتى سمع التهليل والتكبير فأجابهم بمثله فأقبل القوم وفي أوائلهم الزبير بن العوام والفضل بن العباس وهاشم والمرقال، فلما نظر خالد إليهم فرح فرحاً شديداً ورحب بهم وسلم عليهم وقال خالد للفضل بن العباس: يا ابن عم رسول الله ﷺ ما كان أمركم؟ فقال: يا أبا سليمان هزم الله المشركين وردّهم على أدبارهم خائبين فتبعنا آثارهم وإنّ رجالاً منّا أسروا فرجونا خلاصهم فلم نرهم ولاشك أنهم قتلوا! فقال خالد ﷺ: إن القوم في الأسر لا محالة! فقال الزبير بن العوام: من أين علمت ذلك يا أبا سليمان؟ فقال خالد ﷺ: إنّا لم نجد في قتلى المعركة غير عشرة رجال ونحن عشرون وأنتم خمسة وعشرون، وقد أسر خمسة رجال لا محالة! وكان الأسرى رافع بن عميرة وربيعة بن عامر وضرار بن الأزور وعاصم بن عمرو ويزيد بن أبي سفيان فعظم ذلك على المسلمين ورجعوا إلى أبي عبيدة ﷺ.

فلما نظر إلى الفضل بن العباس وإلى الزبير بن العوام والمرقال بن هاشم وقد رجعوا سالمين فرحين بما نصرهم الله على الكافرين سجد على قربوس سرجه شكراً

لله تعالى. فقال خالد ﷺ: معاشر المسلمين، لقد بذلت مهجتي أن أقتل في سبيل الله تعالى فلم أرزق الشهادة فمن قتل من المسلمين كان أجله قد حضر ومن أسر كان خلاصه على يدي إن شاء الله تعالى. قال: وباتت الفرسان في فرح وسرور، وبات الروم في نوح عظيم حين كسرت حامية عسكرهم.

قال الواقدي: حدثني من أثق به أن الأمير أبا عبيدة ﷺ لما نظر إلى عساكر الروم معوّلة على قتاله كتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أبي عبيدة عامر بن الجراح عامله، سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ. واعلم يا أمير المؤمنين أن كلب الروم هرقل قد استفز علينا كل من يحمل الصليب، وقد سار القوم إلينا كالجراد المنتشر وقد نزلنا باليرموك بالقرب من أرض الرماة والخولان والعدو في ثمانمائة ألف مقاتل غير التبع وفي مقدمتهم ستون ألفاً من العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام.

فأول من لقينا جبلة بن الأيهم في ستين ألف فارس وأخرجنا إليه ستين رجلاً، فهزم الله تعالى المشركين على أيديهم "وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ"، وقتل من أصحابنا عشرة رجال، منهم راعلة وجعفر بن المسيب ونوفل بن ورقة وقيس بن عامر وسلمة بن سلامة الخزرجي، وغيرهم، وأسر منهم خمسة رجال وهم: رافع بن عميرة وربيعة بن عامر وضرار بن الأزور وعاصم بن عمرو ويزيد بن أبي سفيان ونحن على نية الحرب والقتال فلا تغفل عن المسلمين وأمدنا برجال من الموحدين، ونحن نسأل الله تعالى أن ينصرنا وينصر الإسلام وأهله والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته. وطوى الكتاب وسلمه إلى عبد الله بن قرط الأزدي وأمره أن يتوجه إلى مدينة يثرب.

قال عبد الله بن قرط: فركبت من اليرموك يوم الجمعة بعد العصر، وقد مضى من شهر ذي الحجة اثنا عشر يوماً والقمر زائد النور فوصلت يوم الجمعة في الساعة الخامسة والمسجد مملوء بالناس فأنخت ناقتي على باب جبريل ﷺ، وأتيت الروضة وسلمت على رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر الصديق ﷺ وصليت فيها ركعتين، ونشرت الكتاب إلى عمر بن الخطاب ﷺ. فضج المسلمون عند رؤيته وتطاولت إلى عمر بن الخطاب ﷺ، وقبلت يديه وسلمت عليه، فلما فتح عمر الكتاب امتقع لونه وتزعزع كونه، وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. فقال عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وغيرهم من الصحابة: يا أمير المؤمنين أطلعنا على ما في هذا الكتاب من أمر إخواننا المسلمين! فقام عمر ﷺ ورقى المنبر خطيباً

وقرأ الكتاب على الناس، فلما سمعوا ما فيه ضجُّوا بالبكاء شوقاً إلى إخوانهم وشفقة عليهم، وكان أكثر الناس بكاءً عبد الرحمن بن عوف ﷺ، وقال: يا أمير المؤمنين ابعث بنا إليهم ولو قدمت أنت إلى الشام لشدَّت بك ظهور المسلمين، فوالله ما أملك إلا نفسي ومالي وما أبخل بهما على المسلمين. فلما سمع عمر بن الخطاب كلام عبد الرحمن بن عوف ونظر إلى إشفاق المسلمين وجزعهم على إخوانهم أقبل على عبد الله وقال: يا ابن قرط من المقدم على عساكر الروم؟ فقلت: خمسة بطارقة أحدهم ابن أخت الملك هرقل وهو قورين والديرجان وقناطير وجرجير وصلبانهم تحت صليب ماهان الأرمني وهو الملك على الجميع وجبلة بن الأيهم الغساني مقدم على ستين ألف فارس من العرب المتنصرة فاسترجع عمر وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم قرأ عمر: "يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ".

ثم قال: ما تشيرون به عليَّ رحمكم الله تعالى؟ فقال له علي بن أبي طالب ﷺ: أبشروا رحمكم الله تعالى فإن هذه الوقعة يكون فيها آية من آيات الله تعالى يختبر بها عباده المؤمنين لينظر أفعالهم وصبرهم فمن صبر واحتسب كان عند الله من الصابرين واعلموا أن هذه الوقعة هي التي ذكرها لي رسول الله ﷺ التي يبقى ذكرها إلى الأبد هذه الدائرة المهلكة! فقال العباس: على من هي يا ابن أخي؟ فقال: يا عماه على من كفر بالله واتخذ معه شريكاً ولذا فثقوا بنصر الله ﷻ! ثم قال لعمر: يا أمير المؤمنين اكتب إلى عاملك أبي عبيدة كتاباً وأعلمه فيه أن نصر الله خير له من غوثنا ونجدتنا فيوشك أنه في أمر عظيم! فقام عمر ورقى المنبر وخطب خطبة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وذكر فضل الجهاد ثم نزل وصلى بالمسلمين.

فلما فرغ من صلاته كتب إلى أبي عبيدة كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح ومن معه من المهاجرين والأنصار سلام عليكم فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ أما بعد فإن نصر الله خير لكم من معونتنا، واعلموا أنه ليس بالجمع الكثير يهزم الجمع القليل وإنما يهزم بما أنزل الله من النصر وأن الله ﷻ يقول: "وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ"، وربما ينصر الله العصابة القليل عددها على العصابة الكثيرة وما النصر إلا من عند الله، وقد قال تعالى: "فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا"، يا طوبى للشهداء ويا طوبى لمن يتكل على الله. فالق العدو بمن معك من المسلمين ولا تيأس بمن صرع من المسلمين، فقد رأيت من صرع بين يدي رسول الله ﷺ وما عجزوا عن عدوهم في مواطن كثيرة حتى قتلوا في سبيل الله، ولم يهابوا لقاء الموت في جنب الله تعالى بل جاهدوا في سبيل الله حق

جها ده "وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ"، فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقرأه على المسلمين وأمرهم أن يقاتلوا العدو في سبيل الله ﷻ واقرأ عليهم "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

ثم طوى الكتاب وسلمه إلى عبد الله بن قرط، وقال له: يا ابن قرط إذا أشرفت على المسلمين وقد استوت الصفوف فسر بين صفوف الموحدين وقف على أصحاب الرايات منهم وخبرهم أنك رسولي إليهم وقل لهم إن عمر بن الخطاب يسلم عليكم ويقول لكم: يا أهل الإيمان اصدقوهم الحرب عند اللقاء وشدوا عليهم شد الليوث واضربوا هاماتهم بالسيوف وليكونوا عليكم أهون من الذباب فإنكم المنصورون عليهم إن شاء الله تعالى، ثم اقرأ عليهم "وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ". قال عبد الله بن قرط: قلت له: يا أمير المؤمنين ادع الله تعالى لي بالسلامة والسرعة في السير. فقال عمر بن الخطاب ﷺ: "اللهم ارحمه وسلمه واطو له البعيد إنك على كلِّ شيْءٍ قدير".

قال عبد الله بن قرط وخرجت من المسجد من باب الحبشة، فقلت في نفسي: لقد أخطأت في الرأي إذ لم أسلم على قبر رسول الله ﷺ فما أدري أراه بعد اليوم أم لا! قال عبد الله: فقصدت حجرة رسول الله ﷺ وعائشة ﷺا جالسة عند قبره، وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه والعباس جالسان عند القبر والحسين في حجر علي والحسن في حجر العباس ﷺ وهم يتلون سورة الأنعام وعلي ﷺ يتلو سورة هود، فسلمت على رسول الله ﷺ فقال علي ﷺ: يا ابن قرط عوّلت على المسير إلى الشام؟ فقلت: نعم يا ابن عم رسول الله ﷺ وما أظن أن أصل إليهم إلا والجيش قد التقى والحرب دائرة وإذا أشرفت عليهم لا يرون معي مدداً ولا نجدة خشيت عليهم أن يهنوا ويجزعوا وكنت أحب أن أصل إليهم قبل التقائهم بعدوهم حتى أعظهم وأصبرهم. فقال علي ﷺ: فما منعك أن تسأل عمر بن الخطاب أن يدعو لك، أما علمت يا ابن قرط أن دعاءه لا يرد ولا يحجب وأن رسول الله ﷺ قال فيه: "لو كان نبي ثان بعدي لكان عمر بن الخطاب" أليس هو الذي يوافق حكمه حكم الكتاب حتى قال المصطفى ﷺ: "لو نزل من السماء إلى الأرض عذاب ما نجا منه إلا عمر بن الخطاب" أما علمت أن الله تعالى أنزل فيه آيات بينات، أما هو الزاهد التقي، أما هو العابد، أما هو المشبه بنوح النبي فإن كان هو قد دعا لك فقد قرن دعاؤه بالإجابة. فقال عبد الله بن قرط: ما ذكرت شيئاً إلا وأنا عارف به من فضل عمر بن الخطاب ﷺ ولكني أردت

الزيادة من دعائك ودعاء العباس عم رسول الله ﷺ ولاسيما عند قبر الرسول المعظم المكرم. فرفع العباس ﷺ يديه وعلي ﷺ كذلك وقالا: اللهم إنا نتوسل بهذا النبي المصطفى والرسول المجتبى الذي توسل به آدم فأجبت دعوته، وغفرت خطيئته إلا سهلت على عبد الله طريقه وطويت له البعيد وأيدت أصحاب نبيك بالنصر إنك سميع الدعاء، ثم قال: سر يا عبد الله بن قرط فالله تعالى أكرم من أن يرد دعاء عمر وعباس وعلي والحسن والحسين وأزواج رسول الله ﷺ وقد توسلوا إليه بأكرم الخلق عليه.

قال عبد الله بن قرط: فخرجت من الحجرة وأنا فرح مستبشر واستويت على كور المطية وركبت الفلاة وأنا فرح بدعاء علي والعباس وعمر ﷺم أجمعين. قال عبد الله: خرجت من المدينة بعد العصر من يومي ذلك الذي دخلت فيه المدينة وأنا أرقب الطريق، فلما اختلط الظلام وأسبل الليل سجفه أرخيت زمام المطية فحسبت أنها تطير بي ولم أزل سائراً ثلاثة أيام. فلما كانت صلاة العصر من اليوم الثالث أشرفت على اليرموك وسمعت ضجيج أذان المسلمين. قال عبد الله فقصدت خيمة الأمير أبي عبيدة ﷺ وأنخت ناقتي وسلمت عليه وكان لي منذ فارقته عشرة أيام فأخبرته بدعاء عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والعباس والحسن والحسين ﷺ. فقال أبو عبيدة: صدقت يا ابن قرط وإنهم لكرام على الله ﷻ وأن دعاءهم لا يرد، ثم قرأ الكتاب على المسلمين فطابت قلوبهم بذلك، وقالوا: أيها الأمير ما منّا إلا من يطلب الشهادة فالله تعالى يبلغنا إياها.

.... حدثنا ماجد عن الثقات قال: سار عبد الله بن قرط من المدينة يوم الجمعة، فلما كان يوم السبت وقد صلينا الصبح خلف عمر بن الخطاب ﷺ ونحن نقرأ من القرآن ما تيسر، إذ سمعنا ضجة عظيمة وجلبة هائلة ففزعت قلوبنا فخرجنا مبادرين وإذا نحن بقوم من اليمن من صدوان وأرض سبأ وحضرموت واجتمعوا للجهاد، وهم ستة آلاف يقدمهم جابر بن خول الربعي، فترجلت ساداتهم وسلموا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فأمرهم بالنزول، فلما أقبل الظلام جاء ألف فارس من مكة والطائف ووادي نخلة وثقيف يقدمهم سعيد بن عامر وسلموا على عمر ونزلوا بإزاء أهل اليمن، فلما كان يوم الأحد حمل عمر ضعيفهم وزودهم وعقد راية حمراء على قناة تامة وسلمها إلى سعيد بن عامر.

قال سعيد بن عامر: فهممت بالمسير، فقال عمر: على رسلك يا ابن عامر حتى أوصيك. ثم أقبل عمر بن الخطاب يمشي راجلاً ومعه عثمان بن عفان والعباس وعلي

بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف، فلما قربوا من الجيش وقف عمر والناس حوله، وقال لسعيد بن عامر: يا سعيد إني وليتك على هذا الجيش ولست بخير رجل منهم إلا أن تتقي الله فإذا سرت فارفق بهم ما استطعت، ولا تشتم أعراضهم ولا تحتقر صغيرهم ولا تؤثر قويهم ولا تتبع هواك ولا تسلك بهم المفاوز واقطع بهم السهل ولا ترقد بهم على جادة الطريق والله تعالى خليفتي عليك وعلى من معك من المسلمين. فقال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: اسمع وصية إمامك أمير المؤمنين الذي ختم الله تعالى به الأربعين وسميت به الأمة مؤمنين وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: "إن تطيعوه تهتدوا وترشدوا" فسر يا سعيد وإذا وصلت إلى أبي عبيدة والتقى بكم الجيش الذي لا تلقون مثله، وصعب عليكم أمره فاكتبوا إلى أمير المؤمنين عمر حتى يوجهني إليكم حتى أقلب أرض الشام على من فيها من المشركين إن شاء الله تعالى. فسار ابن عامر يجد السير وهو يقول:

نسير بجيش من رجال أعزة ... على كل عجعاج من الخيل يصبر
إلى شبل جراح وصحب نبينا ... لننصره والله للدين ينصر
على كل كفار لعين معاند تراه ... على الصلبان بالله يكفر

قال سعيد بن عامر: وكنت عارفاً ببلاد الشام وطرقه وكنت أسير إليه في السنة مرة أو مرتين عسفاً من غير جادة طريق أسير على الكواكب، فلما سرت من المدينة وأنا بين يدي المسلمين سلكت بهم على طريق بصرى فضللت عن الطريق وعدلت عن الجادة وأنا محترز من العدو وخائف على المسلمين فجعلت أحيد عن العمارات وأسلك الفلاة توفيقاً من الله وإكراماً ولطفاً بعباده المؤمنين، فلما ضللت أشكل علي الطريق كأني ما سلكته يوماً قط فوقفت حائراً حتى تلاحق بي المسلمون فلم أعلمهم بأمري، ولا أني ضللت عن الطريق، وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فسرت يومين وليلتين وأنا أتيه بالناس والمسلمون يسألونني عن ذلك، وأنا أقول لهم إني على طريق، فلما كان في اليوم العاشر من مسيرنا من المدينة لاح لي جبل عظيم فنظرت إليه وحققته فلم أعرفه، فقلت: غررت والله بالمسلمين، وأنا أقول في نفسي: أترى هذا جبل بعلبك وقد سهل علينا الطريق، وكان الجبل قد لاح لنا من بعيد من أول النهار وما أدركناه إلا والليل قد أقبل، فلما صرنا بقربه اعترضنا واد عظيم فيه شجرة عظيمة كبيرة فلما تأملتها عرفتها، وقلت لأصحابي: أبشروا فقد وصلنا إلى بلاد الشام! وفرح المسلمون ودخلنا الوادي؛ وإذا به وعر ليس فيه جادة ولا طريق فلحق المسلمين من هوله تعب عظيم. قال سعيد وكان أكثر المسلمين رجالة، وإنما كان يحمل بعضهم بعضاً ويتعقبون على ظهور الخيل والإبل.

فلما نظر المسلمون إلى وحشة ذلك الوادي ووعورة مسلكه قالوا: يا سعيد إنَّا نظن أنك قد أخطأت الطريق وسلكت بنا غير طريقنا فأرحنا في هذا الوادي قليلاً فقد أضر بنا المسير قال فأجبتهم إلى ذلك، وكان في الوادي عين ماء غزيرة فنزل المسلمون عليها فشربوا وسقوا خيلهم وإبلهم ورعت الخيل والجمال ورق الشجر ونام أكثر الناس وبعضهم يصلي على محمد ﷺ. قال سعيد: وكنت جلست في آخر الناس أحرسهم، وأنا أتلو القرآن العظيم، وأدعو الله لنا بالسلامة إذ غلبتني عيني فنمت فرأيت في منامي كأني في جنة خضراء كثيرة الأشجار والثمار وكأني آكل من ثمرها وأشرب من أنهارها وأجني من ثمرها وأناول أصحابي وهم يأكلون، وأنا فرح مسرور. فبينما أنا كذلك إذ خرج من بين تلك الشجر أسد عظيم فزأر في وجهي وهمَّ أن يفترسني. وأنا من ذلك فزع مرعوب إذ خرج على الأسد أسدان عظيمان فصرعاه في موضعه فسمعت له خواراً عظيماً فانتبهت من نومي وحلاوة ذلك الثمر في فمي، والأسود تتمثل بين يدي. قال سعيد: ففسرتها أنها غنيمة يأخذها المسلمون ويمنعنا منها مانع ونظفر به. فقلت في نفسي: الجنة هي الشهادة. قال سعيد: ولم أزل جالساً أتلو القرآن، وأنا قلق إذ سمعت هاتفاً يهتف بي عن يمين الوادي، وهو يقول:

يا عصبة الهادي إلى الرشاد ... لا تفزعوا من وعر هذا الوادي
ما فيه من جن ولا معادي ... ستعلمون معشر العباد
لطف الذي يرفق بالأولاد ... ويطرح الرحمة في الأكباد
سيصنع الله بكم رشاد ... وتغنموا المال مع الأولاد

قال سعيد: فلما سمعت شعر الهاتف وما يشير به من الغنيمة سجدت لله تعالى شكراً واستيقظ المسلمون لصوت الهاتف وفرحوا بما سمعوا منه وطابت قلوبهم بالغنيمة، وأقام المسلمون في الوادي حتى أصبح الصباح وصلى بهم سعيد صلاة الفجر. فلما طلعت الشمس خرج المسلمون من الوادي وحققت تلك الأرض والجبل، وإذا به جبل الرقيم، فلما رأيته عرفته فرفعت صوتي بالتكبير وقلت: الله أكبر وكبرت المسلمون لتكبيري، وقالوا: ما الذي رأيت يا ابن عامر؟ فقلت: وصلنا إلى بلاد الشام، وهذا جبل الرقيم. قال سعيد: وأكثر من معي جماعة العرب. قالوا: يا سعيد وما الرقيم أما تعرفه؟ فحدثتهم بحديث الرقيم، قال سعيد: فعجبوا من ذلك. ثم أقبلت بهم إلى الغار فصلُّوا فيه، ثم سرنا حتى أشرفنا على بلاد عمان.

فعدلتُ إلى قرية هناك يقال لها الجنان فنظرت إلى دهاقين القرية وهم خارجون منها ومعهم الأهل والأولاد، فلما رآهم المسلمون حملوا عليهم من غير إذن لهم وأخذوا بعضهم أسارى فرجع القوم إلى القرية، وكان فيها حصن منيع فتحصَّنوا فيه

منّا، قال سعيد: فقربت من الحصن وصحت بهم وقلت: ياويلكم ما بالكم كنتم خارجين من قريتكم فرجعتم؟ فأشرف عليَّ واحد منهم وقال لي: يا معاشر العرب اعلموا أننا كنا خارجين من المدينة ففزعنا منكم وذلك أن صاحب عمان بعث إلينا وأمرنا بالمسير إلى عمان لنكون تحت كنفه في عمان، والآن يا معاشر العرب هل لكم أن نكون في ذمامكم وأمانكم. قال سعيد: نعم فوقع الصلح بيننا على عشرة آلاف دينار وكتبت لهم كتاب الصلح، فلما هممت بالمسير، قالوا: يا معاشر العرب قد صالحناكم ونحن خائفون من قومنا واعلموا أن نقيطاس صاحب عمان لابد أن نلقى منه شدة عظيمة فلو ظفرتم به لكان خيراً لنا ولكم! فقلت: فكيف نظفر به؟ فقالوا: إن الملك ماهان مقدم العساكر قد بعث بذلك إليه، وإن أنتم ظفرتم بصاحب عمان ملكتم غنيمة جسيمة. فقال سعيد: وفي كم يكون جيش عمان؟ فقالوا: في خمسة آلاف فارس، ولكن قد وقع خوفكم في قلوبهم فلن يفلحوا إذاً أبداً. فقال سعيد: يا معاشر المسلمين ما تقولون في لقاء هذا البطريق صاحب عمان وأخذ غنيمته؟ فقالوا: افعل ما تريد فإن قتله الله على أيدينا كان ذلك صلاحاً للمسلمين ووهناً على المشركين.

فقال سعيد لأهل القرية: على أي طريق يأتي القوم؟ فقالوا: على هذا الطريق. فدلونا على طريق عمورية. فسرنا إلى واد عظيم وكمنَّا فيه يوماً وليلة فلم يأتنا أحد، فلما أصبح الصباح قال سعيد: يا معاشر المسلمين إن الذي وجهنا إليه عمر بن الخطاب من نجدة أبي عبيدة والمسلمين أفضل من مقامنا هنا فاخرجوا -رحمكم الله- فإنا إن أشرفنا على المسلمين في سبعة آلاف فارس كان ذلك وهناً على المشركين وذلة للكافرين! فقال المسلمون: يا ابن عامر إن قلوبنا توقن بالغنيمة فلا تحرمنا ذلك. قال: فبينما هم في المحاورة إذا أشرف عليهم جماعة من القسوس والرهبان وعليهم ثياب الشعر وفي أيديهم الصلبان، وقد حلقوا أوساط رؤوسهم فابتدر المسلمون إليهم وأخذوهم وأوقفوهم بين يدي سعيد، فقال لهم: من أنتم؟ وكان فيهم قس كبير فكلم سعيداً وقال: نحن رهبان هذه الأديرة والصوامع ونريد أن نصل إلى قسطنطين ولد الملك هرقل حتى ندعو للعساكر بالنصر. قال سعيد: فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال! فما وراءكم من الأخبار؟ قالوا: وراءنا صاحب عمان في خمسة آلاف فارس من فرسان النصرانية وعباد الصليب. فقال سعيد: اللهم اجعلهم غنيمة لنا.

ثم قال سعيد للقسيس الذي خاطبه: اسمع أيها الشيخ إن نبينا ﷺ أمرنا أن لا نتعرض لراهب حبس نفسه في صومعة ولولا أنكم تنصرون العدو لخلينا سبيلكم، ثم أمر المسلمين أن يوثقوهم كتافاً فأوثقوهم بزنانيرهم التي في أوساطهم، فبينما نحن كذلك إذ أشرف علينا جيش عمان والرجالة أمامهم يعزلون لهم الحجر من الدروب،

فلما أشرفوا على المسلمين حمل عليهم المسلمون من غير أهبة ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ووضعوا فيهم السيف فقتلوا الرجالة عن آخرهم فأخبر صاحب عمان بذلك، فلما نظر إلى صنع المسلمين أمر أصحابه بالحملة فحملوا عليهم حملة عظيمة واقتتلوا قتالاً شديداً، قال سعيد: ونظرت إلى المسلمين وهم يقتلون الروم قتلاً ذريعاً ويضجون بالتهليل والتكبير، فلما نظر البطريق صاحب عمان ما صنع المسلمون بأصحابه ولى منهزماً طالباً عمان وتبعه قومه وتبعهم المسلمون وبعضهم مال إلى الغنيمة والبطريق نقيطاس صاحب عمان في الهرب، وكان قد سبق فوقف حتى تلاحق به المنهزمون من قومه.

فبينما هم كذلك إذ أشرفت عليهم خيل من ورائهم تسرع بركابها، وهم زهاء من ألف فارس يقدمهم فارسان كأنهما أسدان أحدهما الزبير بن العوام والآخر الفضل بن العباس فحملوا على الروم فقتلوهم قتلاً ذريعاً وحمل الزبير بن العوام على "نقيطاس" بطريق عمان وهو واقف تحت الصليب فطعنه الزبير فقلبه عن جواده! وأقبل الفضل بن العباس يجندل الفرسان وينكس الأبطال. وأشرف سعيد على الموضع فرأى الحرب قائمة فظن أنه وقع بينهم الخلف، فلما قربوا منهم سمعوا التهليل والتكبير، فقالوا: هذه دعوة الحق لمن قالها فاقتحم سعيد المعركة فسمع الفضل بن العباس، وهو ينتمي باسمه، ويقول: أنا ابن عم رسول الله ﷺ.

قال سعيد بن عامر فقلت له: لله درك يا ابن العباس ومن معك من أصحاب رسول الله ﷺ! فقال: معي الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله ﷺ. قال سعيد: فوالله ما انفلت من القوم أحد إلا بين أسير وقتيل وغنم المسلمون غنيمة عظيمة! وسلم بعضهم على بعض، وأقبل الزبير على سعيد وقال: يا ابن عامر ما الذي حبسك عن المسير جهتنا، وقد جاءنا سالم بن نوفل العدوي وأخبرنا بمسيرك إلينا؟! وقد ساءت بك ظنوننا فأرسلنا أبو عبيدة لنغير على عمان والحمد لله على سلامة المسلمين ودمار المشركين. ثم أمر الزبير برؤوس القتلى فسلخت وحملتها العرب على أسنة الرماح فكانت الرؤوس أربعة آلاف رأس والأسرى ألف أسير. وأطلق سعيد الرهبان وسار المسلمون حتى أشرفوا على أبي عبيدة رضي الله عنه، ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير وأجابهم جيش المسلمين بمثل ذلك فانزعجت قلوب الروم لذلك ونظروا إلى ثمانية آلاف فارس والرؤوس معهم على الأسنة فبهتوا لذلك وحدّث سعيد بن عامر أبا عبيدة بالنصر وغنيمتهم من الروم فسجد شكراً لله عز وجل وأمر بالألف أسير فضربت أعناقهم والروم ينظرون إليهم. وأخبرت الروم أنه لم ينج أحد من جيش عمان.

قال الواقدي: لما أسر الخمسة من أصحاب رسول الله ﷺ اغتمَّ لفقدهم أصحاب رسول الله ﷺ وكان أكثرهم غمّاً أبو عبيدة بن الجراح وأقبل على البكاء والتضرع يدعو لمن أسر بالخلاص! وأما الخمسة فإنهم مثلوا بين يدي ماهان -لعنه الله-، فلما نظر إليهم استحقر شأنهم، وقال لجبلة بن الأيهم: من هؤلاء؟ قال: أيها الملك هؤلاء قوم من جيش المسلمين، وقد كانوا ستين رجلاً فقتلت أكثرهم وأسرت هؤلاء! وما بقي في عسكرهم من تخاف غائلته إلا رجل واحد وهو الذي يثبتهم ويرمي بهم كل المرامي، وهو الذي فتح أركة وتدمر وحوران وبصرى ودمشق، وهو الذي كسر عساكر أجنادين وتبع توما وهربيس وقتلهم في مرج الديباج وأسر ابنة الملك هرقل وهو خالد بن الوليد. فلما سمع ماهان ذلك قال: لابد لي أن أحتال على هذا الرجل حتى أحصله عندي وأقتله مع هؤلاء الخمسة الأسرى!

ثم دعا ماهان برجل من الروم اسمه جرجة وكان حكيماً فاضلاً عند الروم فصيحاً بلسان العرب. فقال: يا جرجة أريد أن تمضي إلى هؤلاء العرب وتقول لهم يبعثوا لنا رسولاً وليكن هذا الرسول الرجل المسمى بخالد. فركب جرجة وسار نحو عساكر المسلمين فالتقي بخالد فقال له: ما الذي تريد؟ فقال: إن الملك ماهان قد بعثني إليكم حتى تبعثوا رجلاً منكم فلعل الله أن يحقن دماءنا ودماءكم فقال خالد ﷺ: أنا أكون الرسول إليه! وأوقف رسول الروم بين يديه ويدي أبي عبيدة ﷺ وأخبره أنه يريد المسير إلى ماهان. فقال أبو عبيدة: امض يا أبا سليمان سلمك الله تعالى فلعل الله تعالى أن يهديهم أو يدعونا للصلح وأداء الجزية، فتحقن الدماء على يدك فحقن دم رجل واحد أحب إلى الله تعالى من أهل الشرك جميعاً. فقال خالد بن الوليد ﷺ: أنا أطلب من الله تعالى العون.

ثم وثب خالد ﷺ إلى خيمته ولبس خفين حجازيين وتعمَّم بعمامة سوداء، وشد وسطه بمنطقة من الأديم، وتقلد سيفه الذي استلبه من مسيلمة الكذاب، وأمر عبده همَّاماً أن يأخذ قبته الحمراء وكانت من الأديم الطائفي وفيها شمعات من الذهب الأحمر وحليتها من الفضة البيضاء وكان خالد قد اشتراها من امرأة ميسرة بن مسروق العبسي بثلثمائة دينار فحملها على بغل وركب خالد جواده. فلما همَّ بالمسير قال له أبو عبيدة: يا أبا سليمان خذ معك رجالاً من المسلمين يكونون لك عوناً. فقال خالد: أيها الأمير أحب ذلك ولكن لا إكراه في الدين، وليس لي عليهم طاعة فأمر من شئت، فلما سمع المسلمون كلام خالد بن الوليد ﷺ. قال معاذ بن جبل: يا أبا سليمان إنك من أهل الفضل ولو أمرتنا بأمر امتثلناه لأنك سائر في طاعة الله تعالى ورسوله.فاستركب معه مائة فارس من المهاجرين والأنصار منهم المرقال بن عتبة بن

أبي وقاص وشرحبيل بن حسنة و....... ولم يزل خالد ينتخب مثل هؤلاء السادات ﷺ حتى كمل منهم مائة فارس، كل فارس منهم يرد جيشاً وحده، فأخذوا زينتهم واشتملوا بلباس الحرب، وتوشحوا بالأبراد، وتعمموا بالعمائم، وتمنطقوا بالخناجر، وتقلدوا بالسيوف، وركبوا الخيل العتاق، وسار خالد بن الوليد ﷺ وعن يمينه معاذ بن جبل وعن شماله المقداد بن الأسود الكندي والمائة فارس محدقون به.

قال معاذ بن جبل ﷺ: وسرنا ونحن نعلن بالتهليل والتكبير. قال نصر بن سالم المازني: فنظرت إلى أبي عبيدة ﷺ حين سار خالد بمن معه يقرأ آية من القرآن ودموعه جارية على خده. فقلت: أيها الأمير ما يبكيك؟ فقال: يا ابن سالم هؤلاء والله أنصار الدين فإن أصيب رجل منهم في إمارة أبي عبيدة فما يكون عذري عند رب العالمين وعند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ؟!

فلما أشرف خالد بن الوليد ﷺ ومن معه على عساكر الروم نظر المسلمون إلى عساكر الروم وهم خمسة فراسخ في العرض، وعن نوفل بن دحية أن خالداً لما ترجّل عن جواده وترجّل المائة جعلوا يتبخترون في مسيرهم، ويجرون حمائل سيوفهم، ويخترقون صفوف الحجاب والبطارقة، ولا يهابون أحداً، إلى أن وصلوا إلى النمارق والفراش والديباج، ولاح لهم ماهان وهو جالس على سريره، فلما نظر أصحاب رسول الله ﷺ إلى ما ظهر من زينته وملكه عظموا الله تعالى وكبروه وطرحت لهم الكراسي فلم يجلسوا عليها، بل رفع كل واحد منهم ما تحته وجلسوا على الأرض، فلما نظر ماهان إلى فعلهم تبسم وقال: يا معاشر العرب لم تأبون كرامتنا ولم أزلتم ما تحتكم من الكراسي وجلستم على الأرض ولم تستعملوا الأدب معنا ودستم على فراشنا. فقال خالد بن الوليد: إن الأدب مع الله تعالى أفضل من الأدب معكم وبساط الله أطهر من فرشكم لأن نبينا محمداً ﷺ قال: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ثم قرأ قوله تعالى: "مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ".

.... عن طرفة بن شيبة الخولاني عن عمه جرير وكان محالفاً لخالد بن الوليد ﷺ قال: قال خالد يا ماهان إني أكره أن أبدأك بالكلام فتكلم أنت بما تريد فإني لست أبالي بما تتكلم ولكل كلام جواب فإن شئت فتكلم وإن شئت بدأتك! قال ماهان: أنا أبدؤكم، الحمد لله الذي جعل سيدنا الروح المسيح كلمته وملكنا أفضل الملوك وأمتنا خير الأمم. فعظم ذلك على خالد بن الوليد فقطع كلامه، فقال الترجمان: لا تقطع كلام الملك يا أخا العرب واستعمل حسن الأدب! فأبى خالد أن يسكت وقال: الحمد لله الذي جعلنا نؤمن بنبينا ونبيكم وجميع الأنبياء، وجعل أميرنا الذي وليناه أمورنا كبعضنا لو زعم أنه يملك علينا لعزلناه، فلسنا نرى أن له فضلاً علينا إلا أن يكون أتقى لله

ﷻ منَّا، وقد جعل الله أمتنا تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتقِّر بالذنب وتستغفر منه وتعبد الله تعالى وحده لا شريك له!

فا صفرَّ وجه ماهان وسكت قليلاً. ثم قال: الحمد لله الذي أبلانا وأحسن البلاء إلينا وعافانا من الفقر ونصرنا على الأمم وأعزنا ومنعنا من الضيم ولسنا فيما خولنا الله فيه من نعيم الدنيا بطرين ولا باغين على الناس. وقد كان يا معاشر العرب طائفة منكم يغشوننا ويلتمسون نائلنا ورفدنا وجوائزنا، ونحن نحسن إليهم ونكرمهم، ونكرم ضعيفهم، ونعظِّم قدرهم ونتفضل عليهم، ونفي لهم بالوعد! وكنا نظن أن العرب كلها تعرف لنا ذلك من جميع القبائل وتشكرنا عليه لما أسدينا من عطايانا الجميلة لهم! فما شعرنا حتى جئتمونا بالخيل والرَّجْل وظنَّنا أنكم تطلبون منَّا طلب إخوانكم؛ فإذا أنتم على خلاف رأي أولئك، جئتم تقتلون الرجال وتسبون النساء وتغنمون الأموال وتهدمون الأطلال! وتطلبون أن تخرجونا من أرضنا وتغلبونا على بلادنا! وقد طلب منَّا ذلك من كان قبلكم ممَّن هو أكثر منكم عدداً وأكثر أموالاً وسلاحاً وظهراً فرددناهم خائفين وجلين خائبين بين قتيل وجريح وطريد وطريح؛ فأول ما فعلنا ذلك بملك فارس فرده الله على عقبيه بالخيبة والذل، وكذلك فعلنا بملك الترك وملك الجرامقة وغيرهم، وأنتم لم تكن أمة من الأمم أصغر منكم مكاناً ولا أحقر شأناً! لأنكم أهل الشعر والوبر والبؤس والشقاء، وإنَّكم مع ذلك تظلمون في بلادكم وبلادنا، وحوالينا أمة كثيرة العدد، وشوكتنا شديدة، وعصبتنا عظيمة، وإنما أقبلتم علينا لأنكم خرجتم من جدوبة الأرض وقحط المطر! فانجلبتم إلى بلادنا وأفسدتم كل الفساد، وركبتم مراكب ليست كمراكبكم، ولبستم ثياباً ليست كثيابكم، وتمتعتم ببنات الروم البيض الأوانس فجعلتموهنَّ خدماً لكم! وأكلتم طعاماً ليس كطعامكم، وملئت أيديكم من الذهب والفضة والمتاع الفاخر! ولقد لقيناكم الآن ومعكم أموالنا وما غنمتموه من قومنا وأهل ديننا وقد تركناه لكم لا نطالبكم به ولا ننازعكم فيه ولا نعتب عليكم فيما تقدم من فعالكم والآن فاخرجوا من بلادنا فإن أبيتم الانصراف عنا عزمنا عليكم عزمة فنتركم كأمس الدابر، وإن جنحتم للصلح نأمر لكل واحد من عسكركم بمائة دينار وثوب ولأميركم أبي عبيدة بألف دينار ولخليفتكم عمر بن الخطاب بعشرة آلاف دينار على أنكم تحلفون لنا أن لا تعودوا إلى حربنا.

قال الواقدي: وماهان يرغِّب تارة ويرهِّب أخرى وخالد مطرق لا يتكلم حتى فرغ ماهان من كلامه. فقال خالد: إن الملك قد تكلم فأحسن وسمعنا كلامه ونتكلم ويسمع كلامنا. ثم قال خالد بن الوليد ﷺ: الحمد لله الذي لا إله إلا هو، فلما سمع ماهان

ذلك مد يده إلى السماء وقال: نعم ما قلت يا عربي. فقال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المرتضى ونبيه المجتبى ﷺ. فقال ماهان: ما أدري أمحمد رسول الله أم لا؟ ولعله كما تقول وتزعم وتذكر. فقال خالد رضي الله عنه: حسب الرجل دينه، ثم قال: أفضل الساعات وخيرها الساعات التي يطلع فيها الله رب العالمين فالتفت ماهان إلى قومه وقال بلسانه: إنه رجل عاقل يتكلم بالحكمة. فقال خالد: ما الذي قلت لقومك؟ فأخبره بمقالته. فقال خالد: إن كنت أوتيت العقل فالله تعالى المحمود على ذلك، وقد سمعنا نبينا محمداً ﷺ يقول: (لما خلق الله تعالى العقل وصوَّره وقدَّره قال: أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر. فقال الله تعالى: "وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إليَّ منك بك تنال طاعتي وتدخل جنتي"). فقال ماهان: إذا كنت بهذا العقل والفهم فلم جئت بهؤلاء معك؟! قال خالد بن الوليد رضي الله عنه: جئت بهم لأشاورهم.

قال ماهان: وأنت مع جودة عقلك وحسن رأيك وبصيرتك تحتاج إلى مشورة غيرك. قال خالد: نعم بهذا أمر الله عز وجل نبينا محمداً ﷺ. فقال الله تعالى في كتابه العزيز: "وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ"، وقال ﷺ: "ما ضاع امرؤ عرف قدره، ولا ضاع مسلم استشار" فأنا وإن كنت ذا رأي وعقل كما تزعم وكما بلغك، فإني لا أستغني عن رأي ذي رأي ومشورة أصحابي. قال ماهان: وهل في عسكركم من له رأي مثل رأيك وحزم مثل حزمك؟ قال: نعم، إن في عسكرنا أكثر من ألف فارس لا يستغنى عن رأيهم ولا عن مشورتهم فقال له ماهان: ما كنا نظن ذلك فيكم، وإنما كان يبلغنا عنكم أنكم طمّاعون جهال لا عقول لكم! يغير بعضكم على بعض وينهب بعضكم أموال بعض.

فقال له خالد رضي الله عنه: ذلك كان شأن أكثرنا حتى بعث الله عز وجل فينا نبينا محمداً ﷺ فهدانا لرشدنا وعرفنا سبيلنا، وفهمنا الخير من الشر، والهدى من الضلال. فقال ماهان: يا خالد إنك قد أعجبتني بما أراه من رأيك وبصيرتك، وقد أحببت أن أؤاخيك لتكون أخي وخليلي. فقال خالد رضي الله عنه: وافرحاه إن تمم الله مقالتك، فتكون إذاً سعيداً ولا نفترق. فقال ماهان: وكيف ذلك؟ قال خالد: تقول أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله الذي بشر به عيسى ابن مريم: فإذا فعلت ذلك كنت أخي وكنت أخاك وتكون خليلي وأكون خليلك ولا نفترق إلا لأمر يحدث. فقال ماهان: أما ما دعوتني إليه من الترك لديني والدخول في دينكم فما لي إلى ذلك من سبيل. فقال خالد: وكذلك أيضاً لا سبيل إلى مؤاخاتي لك وأنت مقيم على دينك دين الضلال. قال ماهان: أريد أن ألقي الحشمة بيني وبينك وأكلمك كلام الأخ لأخيه: فأجبني عن كلامي الذي دعوتك إليه حتى أسمع ما تقول.

قال خالد: أما بعد فإنك تعلم أن الذي ذكرته مما فيه قومك من الغنى والعز ومنع الحريم والظهور على الأعداء والتمكن في البلاد، فنحن عارفون به، وكل ما ذكرته من إنعامكم على جيرانكم من العرب فقد عرفناه، ولكن إنما فعلتم ذلك إبقاء لنعمتكم ونظراً منكم لأنفسكم وذراريكم وزيادة لكم في مالكم وعزاً لكم فتستكثرون جموعكم وتلقون الشوكة على من أرادكم! وأما ما ذكرته من فقرنا ورعينا الإبل والشاة فما منَّا من لم يرع! وأكثرنا رعاة، ومن رعى منَّا كان له الفضل على من لم يرع. وأما قولك بأننا أهل فقر وفاقة وبؤس وشقاء، فنحن لا ننكر ذلك، وإنّما ذلك من أجل أنا معاشر العرب أنزلنا الله تعالى منزلاً ليس فيه أنهار ولا أشجار ولا زرع إلا قليل؛ وكنا أهل جاهلية جهلاء لا يملك الرجل منَّا إلا فرسه وسيفه وأباعره وشياهه! ويأكل قوينا ضعيفنا، ولا يأمن بعضنا بعضاً إلا في الأربع الأشهر الحرم! نعبد دون الله الأصنام والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ونحن عليها مكبُّون ولها حاملون.

فبينما نحن كذلك على شفا حفرة من النار: من مات منَّا مات مشركاً وصار إلى النار، ومن بقي منَّا كان كافراً بربه قاطعاً لرحمه؛ حتى بعث الله لنا نبياً نعرف حسبه ونسبه، هادياً مهدياً رسولاً نبياً وإماماً تقياً، أظهر الإسلام بدعوته ودحض المشركين بكلمته! جاءنا بقرآن مبين وصراط مستقيم. ختم الله تعالى به النبيين، وأمرنا بعبادة رب العالمين نعبده ولا نشرك به شيئاً ولا نتخذ من دونه ولياً، ولا نجعل لربنا صاحبة ولا ولداً لا شريك له ولا ضد ولا ند له، ولا نسجد للشمس ولا للقمر ولا للنور ولا للنار ولا للصليب ولا للقربان، ولا نسجد إلا لله وحده لا شريك له ونقر بنبوة نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أنزل الله عليه كلامه الذي هدانا به مولانا فاستجبنا له وأطعنا أمره، فكان مما أمرنا به أن نجاهد من لا يدين بديننا ولا يقول بقولنا ممن كفر بالله واتخذ معه شريكاً جل ربنا وتعالى عن ذلك لا تأخذه سنة ولا نوم فمن اتبعنا كان أخانا وصار له ما لنا وعليه ما علينا ومن أبى الإسلام كانت عليه الجزية يؤديها إلينا عن يد وهو صاغر فإذا أداها حقن بها ماله ودمه وولده ومن أبى الإسلام وأن يؤدي الجزية فالسيف حكم بيننا وبينه حتى يقضي الله ﷻ بحكمه، وهو خير الحاكمين، ونحن ندعوكم إلى هذه الخصال الثلاث ليس غيرها إمَّا أن تقولوا: نشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أو الجزية في كل عام على كل محتلم من الرجال وليس على من لم يبلغ الحلم جزية ولا على امرأة ولا على راهب منقطع في صومعته!

قال ماهان: فهل بعد قول: لا إله إلا الله غير هذا؟ فقال خالد: نعم، أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتحجوا البيت الحرام، وتجاهدوا من كفر بالله تعالى، وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر، وتوالوا في الله تعالى وتعادوا في الله، فإن أبيتم ذلك

فالحرب بيننا وبينكم حتى يورث الله أرضه من يشاء والعاقبة للمتقين. قال ماهان: فافعل ما تشاء فإننا لا نرجع عن ديننا ولا نؤدي الجزية، وأما ما ذكرت من أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده فلقد صدقت فإنها لم تكن لنا ولا لكم بل كانت لقوم غيرنا وغيركم فقاتلناهم عليها حتى ملكناها منهم والحرب بيننا وبينكم فابرزوا على اسم الله تعالى، فقال خالد بن الوليد ﷺ: ما أنتم بأشهى منَّا إلى الحربِ وكأنِّي بجيوشكم وقد انهزمت، والنصر يقدمنا، وتساق أنت والحبل في عنقك ذليلاً حقيراً وتقدم بين يدي عمر بن الخطاب ﷺ فيضرب عنقك. فلما سمع ماهان كلام خالد غضب غضباً شديداً! قال: فلما نظرت البطارقة والحجاب والهرقلية والقياصرة إلى غضب ماهان همُّوا بقتل خالد إلا أنهم صبروا ينظرون أمره، فقال ماهان لخالد وقد استشاط غضباً: وحق المسيح لأحضرن أصحابك الخمسة الأسارى وأضربن أعناقهم وأنت تنظر إليهم! فقال له خالد: اسمع ما أقول لك يا ماهان! أنت أقل وأذل وأحقر من ذلك واعلم أن هؤلاء الذين في يدك هم منَّا ونحن منهم، فـ .... لئن قتلتهم لأقتلنك بسيفي هذا ويقتل كل رجل منَّا من قومك بعددهم وزيادة! ثم وثب خالد ﷺ من وضعه وانتضى سيفه من غمده وفعل أصحاب رسول الله ﷺ كفعله، وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله وجرَّدوا سيوفهم وهاجوا كالجمال أو كالسباع الضواري واستقتلوا وأيقنوا بالشهادة في ذلك المكان.

قال الواقدي: والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ما اعتمدت في أخبار هذه الفتوح إلا الصدق وما نقلت أحاديثها إلا عن ثقات وعن قاعدة الحق لأثبت فضائل أصحاب رسول الله ﷺ وجهادهم حتى أرغم بذلك أهل الرفض الخارجين عن السنة والفرض إذ لولاهم بمشيئة الله لم تكن البلاد للمسلمين وما انتشر علم هذا الدين، فلله درهم لقد جاهدوا في الله حق جهاده ونصروا دينه، وثبتوا للقاء الأعداء وبذلوا جهدهم ونصروا الدين حتى زحزحوا الكفر عن سريره وتقهقر، لا جرم وقد قال فيهم الملك المقتدر "فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً".

قال الواقدي: حدثني مسلم بن عبد الحميد عن جده رافع بن مازن قال: كنت مع خالد يوم سرنا إلى ماهان وكنا في سرادقه، فلما جذبنا السيوف وهممنا بالقوم وما في أعيننا من جيوش الروم شيء، وقد أيقنا بالحشر من ذلك الموضع. فلما رأى ماهان الحقيقة منَّا ومن خالد وتبين الموت في شفار سيوفنا نادى: مهلاً يا خالد لا تكن بهذه العجلة تهلك! وأنا أعلم أنك ما قلت ذلك القول إلا أنك رسول والرسول يحمى ولا يقتل، وأنا إنَّما تكلمت بما تكلمت لاختبركم وأنظر ما عندكم، والآن فما أؤاخذك فارجع إلى عسكرك واعزم على القتال حتى يعطي الله تعالى النصر لمن يشاء، فلما

سمع خالد ذلك أغمد سيفه، وقال: يا ماهان ما تصنع في هؤلاء الأسرى؟ فقال ماهان: أطلقهم كرامةً لك وأخلي سبيلهم فيكونون عوناً لك ولن تعجزونا في الحرب غداً! ففرح خالد بذلك! وأمر ماهان بتخلية أصحاب رسول الله ﷺ، فأطلقوا من وثاقهم وهمّ خالد بالمسير، فقال ماهان: يا خالد إني كنت أحب أن يصلح الأمر بيني وبينكم وإني أسألك حاجة، فقال خالد: سل ما تريده! فقال: إنّ قبّتك هذه الحمراء قد أعجبتني وإني أريد أن تهبها لي وانظر في عسكري ما أعجبك من شيء فأهبه لك. فقال خالد: والله لقد فرحتني إذ طلبت ما أملكه وهي موهوبة لك، وأما ما عرضت علي من عسكرك فلا حاجة لي فيه، فقال ماهان: لله درك أنت تكرمت وأجملت. فقال خالد ﷺ: وأنت أيضاً قد تكرمت علينا بما صنعت من إطلاق أصحابي من الأسر، ثم انثنى خارجاً من عند ماهان وأصحابه من حوله، وقدم له جواده فركبه وركب أصحابه أصحاب رسول الله ﷺ وأمر ماهان أصحابه وحجابه أن يسيروا معهم حتى يبلغوهم. قال: ففعل القوم ذلك ووصل خالد وأصحابه إلى الأمير أبي عبيدة ﷺ أجمعين وسلموا عليه، وفرح المسلمون بخلاص أصحاب رسول الله ﷺ وحدث خالد أبا عبيدة بكل ما جرى لهم. ثم قال خالد: .... ما كان ماهان ليطلق لنا أصحابنا إلا فزعاً من سيوفنا.

فقال أبو عبيدة حين سمع ما مر لخالد ولماهان من الخطاب والجدال: هذا رجل حكيم إلا أن الشيطان غلب على عقله فعلام افترقتم؟ قال: على أننا نلتقي معهم ويعطى الله النصر لمن يشاء، فلما سمع أبو عبيدة ﷺ ذلك جمع عظماء المسلمين وقام فيهم خطيباً فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر النبي ﷺ وأخبرهم أن العدو ينوي القتال في غداة غد وأمرهم بالأهبة، وأقبل فرسان المسلمين يحرض بعضهم بعضاً وأقبل خالد على أصحابه وهم عسكر الزحف، وقال لهم: اعلموا أن هؤلاء الكفرة الذين نصركم الله عليهم في المواطن الكثيرة قد حشدوا لكم جموع بلادهم، وإني دخلت إلى عسكرهم ونظرت إليهم فكأنهم النمل ولكنهم أصحاب عدة بلا قلوب ولا لهم من ينصرهم عليكم وهذه الوقعة بيننا وبينهم، وقد أيقنا أن القتال في غداة غد وأنتم أهل البأس والشدة فما عندكم رحمكم الله تعالى؟ فتكلم أصحاب خالد وقالوا: أيها الأمير القتال بغيتنا والقتل في سبيل الله تعالى مسرتنا ولا نزال نصبر لهم على الحرب والطعن والضرب حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين ففرح خالد بقولهم، وقال لهم: وفقكم الله تعالى وأرشدكم.

قال الواقدي: فلم يبق أحد منهم تلك الليلة إلا وقد أخذ عدته وأهبته واستعد بآلة الحرب والقتال وباتوا فرحين بالجهاد والثواب وخائفين من العقاب. فلما أصبح القوم ولاح الفجر أذن المؤذنون في عسكر المسلمين حتى ارتفعت لهم جلبة عظيمة

بالتوحيد وأسبغوا الوضوء لصلاتهم خلف أبي عبيدة، فلما صلوا ركبوا خيولهم إلى قتال عدوهم وعبوا صفوفهم للقتال وكانوا ثلاثة صفوف متلاصقة أول الصف لا يرى آخره، وأقبل خالد بن الوليد على أبي عبيدة ﷺ، وقال: أيها الأمير من تجعل في الميسرة؟ قال كنانة بن مبارك الكناني أو قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي والله أعلم أيهما كان فولاه وأمره أن يكون مكانه في الميسرة ففعل وضم إلى كنانة قيساً.

.... حدثني موسى بن عوف عن جده يوسف بن معن قال: كان هذا الغلام من كنانة عارفاً بالحرب صاحب شجاعة وغارة، وقد ذكر أنه كان من شجاعته وشدة فراسته أنه كان يخرج من حي قومه بني كنانة وحده ويسير حتى يأتي أحياء العرب المعادين له، فإذا أشرف عليهم صرخ بهم وانتمى باسمه فتثور الرجال على أعناق الخيل، فلا يزال يقاتلهم ويقاتلونه، فإن ظفر بهم كان مراده وإن رأى منهم غلبة وعظم عليه أمرهم نزل عن جواده وسعى بين أيديهم فلا يلحقون منه إلا الغبار. فلما ولاه أبو عبيدة وقف حيث أمره أبو عبيدة ﷺ. والتفت أبو عبيدة إلى خالد، وقال: يا أبا سليمان قد وليتك على الخيل والرجل فول أمر الرجالة من شئت. فقال خالد ﷺ: سأولي أمرهم رجالاً لا يؤتى المسلمون من قبلهم. ثم نادى بهاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وقال له: ولاك الأمير على الرجالة، فقال أبو عبيدة ﷺ: انزل يا هاشم وكن معهم رحمك الله وأنا أوافقك.

قال الواقدي: ورتب أبو عبيدة صفوف المسلمين وعبأهم. قال خالد بن الوليد ﷺ: ابعث الآن إلى أصحاب الرايات وقل لهم يسمعوا مني، فدعا أبو عبيدة ﷺ بالضحاك بن قيس، وقال له: يا ابن قيس أسرع إلى أصحاب الرايات، وقل لهم إن الأمير أبا عبيدة يأمركم أن تسمعوا لخالد وتطيعوا أمره! ففعل الضحاك ذلك، وجعل يدور على أصحاب الرايات حتى انتهى إلى معاذ بن جبل وقال له مثل ذلك. قال معاذ بن جبل: سمعاً وطاعة، ثم أقبل معاذ على الناس، وقال: أما إنكم قد أمرتم بطاعة رجل ميمون الغرة مبارك الطلعة، فإن أمركم بأمر فلا تخالفوه فيما يأمركم به، فما يريد غير صلاح المسلمين والأجر من رب العالمين! قال: فقلت لمعاذ بن جبل: إنك لتقول في خالد قولاً عظيماً، فقال: ما أقول إلا ما قد عرفته فلله دره، وقال الضحاك: فرجعت إلى خالد وأخبرته بما تكلم به معاذ بن جبل وبما أثنى به عليه فأثنى عليه، وقال: هو أخي في الله تعالى، ولقد سبقت له ولأصحابه سوابق لا يفعلها خالد بن الوليد فمن يناله؟ قال الضحاك: فرجعت إلى معاذ بن جبل وأخبرته بما قال خالد وبما أثنى به عليه وما ذكره من أمره وبما أورده من علو شأنه، فقال معاذ: والله إني أحبه في الله تعالى، وأرجو من الله أن يكون قد أثابه بحسن نيته ونصيحته للمسلمين.

فلما وصى الضحاك بن قيس أصحاب الرايات بقول أبي عبيدة بالطاعة لخالد بن الوليد ﷺ جعل خالد يسير بين الصفوف ويقف على كل راية، ويقول: يا أهل الإسلام إن الصبر قد عزم إن شاء الله تعالى على صحبتكم، والفشل والجبن سببان من أسباب الخذلان، فمن صبر كان حقاً على الله نصره على عدوه لأن الله معه، ومن صبر على حد السيوف فإنه إذا قدم على الله تعالى أكرم منزلته وشكر له فعله وسعيه والله يحب الشاكرين. قال: وما زال خالد ﷺ يقول هذا الكلام لأهل كل راية حتى مر بجماعة الناس. ثم إن خالداً جمع إليه خيل المسلمين من أهل الشدة والصبر ومن شهد معه الزحف، فقسمهم أربعة أرباع فجعل على أحدهم قيس بن هبيرة المرادي، وقال له: أنت فارس العرب فكن على هذه الخيل واصنع كما أصنع، وجعل على الربع الآخر ميسرة بن مسروق العبسي وأوصاه بمثل ذلك، ودعا عامر بن الطفيل على الربع الثالث وأوصاه بمثل ذلك ووقف خالد مع عسكر الزحف.

فلم تطلع الشمس إلا وقد فرغوا من تعبية صفوفهم للحرب. وأما ماهان فإنه أمر الروم بالزينة والأهبة للحرب ففعلوا ذلك، إلا أن المسلمين كانوا أسرع في التعبية. وزحف الروم إلى أصحاب رسول الله ﷺ ونظروا إلى تعبيتهم فكان عسكر المسلمين صفوفاً كالبنيان المرصوص، وكأن الطير تظلهم والصفوف متلاصقة والرماح مشرعة مشتبكة. فلما رأى الروم ذلك داخلهم الفزع والجزع وألقى الله الرعب في قلوبهم، ثم إن ماهان عبى عسكره فجعل العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام في مقدمة الصفوف، وجعل عليهم جبلة وقدم أمامهم صليباً من الفضة وزنه خمسة أرطال وهو مطلي بالذهب، وفي أربعة أركانه أربع جواهر تضيء كأنها الكواكب.

.... حدثني عدي بن الحارث الهمذاني، وكان ممن حضر الفتوح من أولها إلى آخرها. وكانت الصفوف التي صفها ماهان ثلاثين صفاً كل صف منها مثل عسكر المسلمين كله، وقد أظهر ماهان بين الصفوف القسوس والرهبان وهم يتلون الإنجيل ويترنمون وأكثر من الرايات والأعلام والصلبان، فلما تكاملت صفوفهم وإذا ببطريق عظيم الخلقة قد برز وعليه درع مذهب ولأمة حرب مليحة وفي عنقه صليب من الذهب مرصع بالجوهر وتحته فرس أشهب، وكان البطريق من عظماء الروم ممن يقف عند سرير الملك، فلما برز جعل يرطن بكلام الروم بصوت كالرعد فعلم المسلمون أنه يطلب البراز، فتوقف المسلمون عن الخروج إليه فصاح خالد، وقال: يا أصحاب رسول الله هذا العلج الأغلف يدعوكم لقتاله وأنتم تتأخرون، فإن لم تخرجوا إليه وإلا خرج خالد! وهمَّ بالخروج وإذا بفارس قد خرج من المسلمين على برذون أشهب عظيم الخلقة يشبه برذون المشرك وعلى المسلم لأمة حسنة وعدة سابغة وقصد نحو البطريق فلم يكن في رجال خالد من يعرف الفارس الذي خرج!

فقال خالد لهمَّامٍ مولاه: اخرج إلى هذا الفارس وانظر من هو من المسلمين؟ فمضى همام إليه وقد همَّ أن يقرب من البطريق فصاح به: من أنت يا ذا الرجل من المسلمين -رحمك الله-؟ فقال: أنا روماس صاحب بصرى! فلما أخبر خالد به قال: اللهم بارك فيه وزد في نيته! فلما صار بإزاء العلج كلمه بلسانه، فقال الرومي وقد عرفه: يا روماس كيف تركت دينك وصبأت إلى دين هؤلاء القوم؟ فقال روماس: هذا الدين الذي دخلت فيه دين جليل شريف، فمن تبعه كان سعيداً ومن خالفه فقد ضل. ثم حمل روماس على العلج وحمل العلج على روماس وتقاتلا ساعة حتى عجب الجمعان منهما، فوجد العلج من روماسٍ غفلة فضربه ضربة أسال دمه. فأحس روماس بالضربة، وقد وصلت إليه فانثنى راجعاً نحو المسلمين فأتبعه العلج طالباً له لا يقصر عن طلبه، وكاد أن يدركه فصاح به فرسان المسلمين من الميسرة والميمنة فقوي قلب روماس وداخل العلج الجزع والخوف من صياحهم والهلع وقصر عن طلبه، ودخل روماس عسكر المسلمين والدم على وجهه فائر فأخذه جماعة من المسلمين فشدوا جراحه وشكروه على فعله ووعدوه بالغفران من الله تعالى وهنئوه بالسلامة.

ولما رجع روماس منهزماً أعجب العلج بنفسه وأظهر عناده وأغلظ في كلامه وطلب البراز فهم أن يخرج إليه ميسرة بن مسروق العبسي، فقال له خالد: يا ميسرة إن وقوفك في مكانك أحبَّ إلي من خروجك إلى هذا العلج وأنت شيخ كبير وهذا علج عظيم الخلق، والشاب شجاع ولا أحب أن تخرج إليه، فإنه لا يكاد الشيخ الكبير يقاوم الشاب الحدث، ولاسيما أن شعرة من مسلم أحب إلى الله تعالى من جميع أهل الشرك! فرجع ميسرة إلى مكانه وهم أن يخرج إليه عامر بن الطفيل، وقال: أيها الأمير إنك قد عظمت قدر هذا الرومي الذميم وأدخلت في قلوب المسلمين منه الرعب فقال خالد: إن الفرسان تعرف أكفاءها في الحرب وما يخفى علي ما هو فيه من الشجاعة والشدة وأنت لا تقاومه لأنه ما برز بين أصحابه وبين شجاعته إلا وهو فارس في قومه فقف في مكانك. فوقف عامر بن الطفيل في مكانه ولم يخالف! والعلج يدعو إلى البراز والحرب.

فأقبل إلى خالد الحارث بن عبد الله الأزدي، فلما وقف بين يديه قال: أيها الأمير أخرج إليه؟ قال خالد: لعمري إن لك جسارة وقوة وشدة، فإن شئت أن تخرج فاخرج على اسم الله واعزم فأخذ الأزدي أهبته وهمَّ أن يخرج. فقال خالد ﷺ: على رسلك يا عبد الله حتى أسألك. فقال: اسأل. قال خالد: هل بارزت أحداً قبله؟ قال: لا. قال: فارجع يا ابن أخي ولا تخرج فإنك غير مجرب الحروب وهذا فارس قد جرب الحرب وجربته وعرف مصادرها؟ وما أحب أن يخرج إليه إلا رجل مثله بصير

بالحروب! وجعل خالد يقول ذلك وينظر إلى قيس بن هبيرة... فقال: يا أبا سليمان! إني أظنك تعرض بي وإياي تعني أن أبرز إليه.. قال خالد: ابرز على اسم الله تعالى فإنه كفء والله تعالى يعينك عليه. وخرج قيس بن هبيرة وأجرى جواده حتى لين عريكته وكسر حدته ثم سرحه نحو البطريق وهو يقول: بسم الله وعلى بركة رسول الله ﷺ وقرب من البطريق فلما نظر العلج إلى فعاله علم أنه فارس شديد من فرسان المسلمين فعدل نحوه وقصد إليه وتحاملا قال فبادره قيس بن هبيرة وضربه على هامته فتلقاها العلج في حجفته فقدَّ سيف ابن هبيرة الحجفة ووصل إلى البيضة فاشتبك فيها وهمَّ أن يخرج سيفه فامتنع عليه!

وضرب العلج قيس بن هبيرة على حبل عاتقه فثبت للضربة والتقيا بعد الضربتين فطرح العلج نفسه عليه يريد أسره وهو جبار من الجبابرة! وكان قيس بعد رجوعه من قتال أهل الردة قد عود نفسه الصيام والقيام وهو نحيف الجسم، فلما نظر قيس إلى العلج وقد ظهر عليه انجذب من يده وبعد عنه وجعل ينظر إليه شزراً ويضمه له مكراً إلا أن سيفه قد خرج من يده فثنى عنان فرسه يريد عسكر المسلمين ليأخذ سيفاً ويعود إلى القتال وقد أيس من نفسه، فلما عطف راجعاً صاح العلج في أثره وسعى في طلبه فقصر قيس في سيره وقال في نفسه: أنت مرادك الشهادة وتهرب من هذا العلج فرجع إلى العلج فصاح به خالد: يا قيس سألتك بالله ورسوله إلا رجعت وتركت حدتها عليَّ! فقال قيس: يا خالد لقد أقسمت عليَّ بعظيمين ولكن إن رجعت إليك أتزيد في أجلي؟ قال: لا، قال: فلم اختار الفرار وأكون من أصحاب النار؟! بل أصبر وأفوز بالغفران من الله تعالى؛ ثمَّ إنه عطف على قرنه وليس في يده سيف بل استل خنجراً كان معه على وسطه.

ونظر خالد إلى قيس بن هبيرة وليس في يده سيف فقال: من يأخذ هذا السيف ويدفعه إلى قيس ابتغاء ثواب الله تعالى. قال عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنا يا أبا سليمان. فقال خالد: أنت والله لها يا ابن الصديق! ثم أخذ عبد الرحمن سيفه ولحق قيس بن هبيرة يريد أن يناوله السيف، فلما نظرت الروم إلى عبد الرحمن وقد لحق بقيس ظنوا أنه يريد أن يعاون قيساً على صاحبهم فخرج عليه بطريق آخر وأقبل إلى صاحبه ووقف بإزائه، فدفع عبد الرحمن السيف إلى ابن هبيرة ووقف معه وجعل البطريق الآخر يتكلم بكلام لا يفهمه عبد الرحمن. فقال عبد الرحمن: يا ويلك ما الذي تقول فما نعرف كلامك؟! فخرج إليه ترجمان وقال له: يا معشر العرب ألستم ذكرتم أنكم أصحاب نصفة وحق؟ قال عبد الرحمن: بلى. فقال الترجمان: فما رأينا من نصفتكم شيئاً يخرج فارسان إلى فارس؟! قال عبد الرحمن: إنما خرجت لأعطي

صاحبي هذا السيف وأرجع ولو خرج إلينا منكم مائة لواحد ما كبر علينا ولا عظم لدينا! وها أنتم ثلاثة وأنا واحد وأنا لكم كفء! فأخبر الترجمان صاحبه بذلك فجعل ينظر إليه شزراً، فقال عبد الرحمن: يا قيس قد تعبت فقف وتفرج عليَّ وانظر ما يكون مني ومنهم. ثم حمل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﷺ على الذي كان يخاطبه فطعنه في نحره فأخرج السنان يلمع من ظهره فوقع مجندلاً ونظر العلجان إلى صاحبهما مجندلاً فحملا على عبد الرحمن وقصداه فأراد قيس بن هبيرة أن يعاونه عليهما فقال له عبد الرحمن: سألتك برسول الله ﷺ وبحق أبي بكر إلا تركت عبد الرحمن يصطلي بهما فإن قتلت فأنت شريكي في الثواب وأقرئ عائشة مني السلام وقل لها أخوك قد لحق ببعلك وأبيك، فتأخر قيس عنه وقد عجب من فعاله! فحمل عبد الرحمن على أحد العلجين وهو الأول فطعنه برمحه فاشتبك السنان في درعه فرمى عبد الرحمن الرمح من يده وانتضى سيفه. وقام في الركاب وضرب العلج بسيفه ضربة طرحه بها نصفين. ونظر العلج الثالث إلى عبد الرحمن وجراءته فبقي حائراً متعجباً من حاله ونظر إلى البطريق وهو متحير باهت فبانت له فيه غفلة. فقال: ما يوقفك يا قيس؟! وحمل على البطريق وضربه ضربة هشم بها هامته فسقط إلى الأرض صريعاً، فلما نظرت الروم إلى أصحابهم قال بعضهم لبعض: ما هؤلاء العرب إلا شياطين.

وأخبر ماهان بفعالهم فقال لقومه: إن الملك كان أخبر بهؤلاء القوم وحق المسيح لقد أعلم أن لكم أمراً فإن لم تحملوا عليهم بكثرتكم وإلا فما تقوم لكم قائمة! فأتاه بطريق من البطارقة وسارَّ ماهان في أذنه طويلاً ثم انزاح عنه، وقد أصفرَّ وجه ماهان وسكت كأنه أخرس! فاستخبروا ماهان عما حدَّثه البطريق فلم يخبرهم! قال: فحدَّث من رأى ذلك أنه سأل جبلة بن الأيهم فقال: لما أخبر ماهان بخبر الثلاثة وفيهم البطريق الأول. قال ماهان: إنهم منصورون عليكم! فقال له البطريق في أذنه: أيها الملك الحق ما قلت اعلم أني رأيت البارحة في منامي كأن رجالاً نزلوا من السماء إلى الأرض وهم على دواب بلق وشهب وعليهم كامل السلاح، وأحدقوا بهؤلاء العرب ونحن قيام بإزائهم، لا يخرج أحد من عسكرنا إلا قتلوه حتى أتوا على أكثرنا، وأظنُّ أنَّهم هؤلاء الذين نراهم في اليقظة، لأن واحداً منهم قتل ثلاثة منَّا وما هم إلا منصورون علينا من السماء! فكسر بهذا قلب ماهان فلم يرد جواباً. فاجتمع القوم يسألونه عما قاله البطريق فلم يخبرهم، فلما أكثروا عليه السؤال تكلم فيهم كالخطيب، وقال: يا أهل هذا الدين إنكم إن لم تقاتلوا كنتم من الخاسرين وغضب عليكم المسيح وإن الله ﷻ لم يزل لدينكم ناصراً ومظهراً وإن لله الحجة عليكم إذ بعث فيكم رسولاً وأنزل عليه كتاباً ولم يتبع رسولكم الدنيا وأمركم أن لا تتبعوها وفي كتابه لا تظلموا فإنه لا يحب الظلم ولا الظالمين، فلما اتبعتم الدنيا وظلمتم وخالفتم نصر أعداؤكم عليكم فما

عذركم عند خالقكم وقد تركتم أمر نبيكم وما أنزل عليكم في كتاب ربكم؟ وهؤلاء العرب بإزائكم يريدون قتل فرسانكم وسبي ذراريكم ونسائكم وأنتم على المعاصي والذنوب ولا تخافون من علام الغيوب؟ فإن نزع الله سلطانكم من أيديكم وأظهر عدوكم عليكم فذلك بحق منه وعدل لأنكم لا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر!

وكان ماهان لما سمع كلام البطريق الذي رآه في المنام أمره أن يكتمه، وأما قيس بن هبيرة وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فأخذا سلاح القتلى وأسلابهم ورجعا إلى المسلمين فدفعا السلب إلى أبي عبيدة فقال هو لكما، ومن قتل فارساً فله سلبه فكذا عهد إلينا عمر بن الخطاب ﷺ. فأخذا السلب ووقف قيس في موضعه الذي أقامه خالد فيه. ورجع عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق إلى ميدان الحرب فجال بين الصفين، وكان قد ركب أشهب البطريق الذي قتله فرآه لا ينبعث تحته كما عهد من خيل العرب فرجع وغيره بفرس غيره وحمل على ميمنة الروم فشوش صفوفهم وقتل منهم فارسين! ورجع فحمل على القلب ثم انثنى على الميسرة فرشق بالسهام فخرج إليه علج من علوج الروم فما جال غير ساعة حتى قتله فخرج إليه آخر فقتله. فقال خالد: اللهم ارعه بعينك واحفظه فإن عبد الرحمن قد اصطلى اليوم الحرب بنفسه، ثم إن خالداً صاح به: يا عبد الرحمن بحق شيبة أبيك وبيعته إلا رجعت إلى مكانك فرجع حين أقسم عليه! قال حزام بن غنم: قلت لرجل ممن شهد اليرموك: أكانت النساء معكم مشاهدات القتال. قال: نعم إحداهن أسماء بنت أبي بكر زوجة الزبير بن العوام وخولة بنت الأزور ونسيبة بنت كعب وأم أبان زوجة عكرمة بن أبي جهل وعزة بنت عامر بن عاصم الضمري مع زوجها مسلمة بن عوف الضمري ورملة بنت طليحة الزبيري ورعلة وأمامة وزينب وهند ويعمر ولبنى وأمثالهن -رضي الله عنهن- فلقد كن يقاتلن قتالاً يرضين به الله ورسوله.

نساء المسلمين في المعركة

قال الواقدي: حدثني عبد الملك بن عبد الحميد وكان قد شهد وقعة اليرموك وقال: أولها شرر نار وآخرها ضرام الحرب، وإن كل يوم يأتي من القتال أصعب من اليوم الآخر، قال عمرو بن جرير: فشهدنا في اليوم الأول حرباً يسيراً وذلك أن ماهان أمر عشرة من الصفوف أن تحمل على المسلمين بعد أن قتل عبد الرحمن من قتل وحمل المسلمون عليهم فالتقت الرجال بالرجال فنظر أبو عبيدة وكان واقفاً إلى ماهان ولم يحمل على المسلمين فعلم أن الأمر يصعب فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وجعل يتلو قوله تعالى: "ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ".

ولم تزل الحرب بين الفريقين من قيام الشمس في قبة السماء إلى أن همَّت بالغروب ولم ينفصل الجمعان حتى فرَّق الليل بينهم، وهم ما يعرفون إلا بالشعار، وخرج كل قوم من العرب يهتفون بشعارهم وينادون بأنسابهم، ورجعت كل فئة إلى مكانها. واستقبل المسلمين نساؤهم فصارت تجعل المرأة مرطها تمسح به عن وجه زوجها وتقول له: "أبشر بالجنة يا ولي الله"، وبات المسلمون في خير وسرور وأوقدوا النيران. وذلك أن القتل في أول يوم لم يتبين في الفريقين، بل قتل من الروم يسير، ومن المسلمين عشرة: رجلان من حضرموت أحدهما يقال له مازن والثاني يقال له صارم، وثلاثة من عسفان: رافع ومجلي وعلي، وواحد من الأنصار وهو عبد الله بن الأخرم، وثلاثة من بجيلة، وواحد من مراد وهو سويد ابن أخي قيس بن هبيرة فحزن عليه قيس لما فقده فعلم أنه في القتلى!

فخرج قيس وخرج معه رجال من قومه حتى أتوا موضع المعركة وفتشوا عليه فلم يروه فلما همَّ بالرجوع نظر إلى نار قد أقبلت من جهة الروم يطلبون مكان الوقعة وهم يطلبون بطريقاً كان معظماً عندهم. فقال قيس لجماعته: اخمدوا ناركم فوالله لآخذن بثأر ابن أخي من هؤلاء القوم. فأخمدوا نارهم ورقدوا بين القتلى وتأهبوا للقتال، وإذا بالروم قد أتوا وهم نحو مائة وهم في زينة عظيمة وآلة وعدة وكان مع قيس سبعة من قومه فقالوا له: إن القوم مائة ونحن سبعة وقد تولانا التعب! فقال قيس: ارجعوا أنتم وإني والله أطلب الموت لا أريد غيره وأجاهد في الله حق جهاده. فعجبوا من قوله ووقفوا معه وقفة الكرام. وأقبلت الأعلاج يدورون بين القتلى، وقد وقفوا بالعلج الذي برز أولاً وقتله ابن أبي بكر الصديق، فلما احتملوه وولوا يريدون عسكرهم صاح فيهم قيس من ورائهم وتابعه أصحابه بالصياح فذهلوا ورموا البطريق، ووضع المسلمون السيف فيهم، وجعلوا يقتلونهم قتلاً ذريعاً! وكان قيس إذا ضرب فيهم يقول: هذا عن ابن أخي. فقتل منهم ستة عشر رجلاً وقتل أصحابه أكثر القوم وانفلت الباقون.

فلما فرغ قيس من القوم عاد يطلب ابن أخيه نحو عسكر الروم فسمع أنيناً فأقبل نحوه، فإذا هو ابن أخيه سويد بن بهرام المرادي، فلما عرفه بكى، فقال: ما أبكاك يا ابن أخي؟ فقال: يا عمَّاه إني تبعت القوم فرجع إليَّ واحد منهم وطعنني في صدري وإني لأعالج منها أمراً عظيماً، وهؤلاء الحور العين في حذائي ينتظرون خروج روحي، فبكى قيس وقال: يا ابن أخي لكل أجل كتاب ولعل أن يكون في أجلك طول! فقال: هيهات والله يا عم! أفتقدر أن تحملني إلى عسكر المسلمين فأموت هناك؟ قال: أجل. قال: ثم احتملته على ظهري وأقبلت به إلى عسكر المسلمين وقصدت به إلى رحله

وسجيته. وسمع أبو عبيدة بمجيء قيس فأتى إليه ورأى الغلام يجود بنفسه فجلس عند رأسه وبكى وبكت المسلمون فقال له أبو عبيدة: كيف تجدك يا ابن أخي؟ فقال: بخير والله وغفران. وجزى الله محمداً عنّا خيراً، ولقد صدقنا في قوله وهذه الحور تنادي! وتشخّص فمات، فما برحنا حتى واريناه بالتراب. وخبّره قيس بمن قتل في تلك الليلة من المشركين ففرح فرحاً شديداً وعلم أن ذلك علامة النصر. وبات الناس في ليلتهم يقرؤون القرآن ويصلّون ويسألون الله المعونة والنصر.

وأما ماهان فإنه لما رجع إلى عسكره اجتمع إليه البطارقة والرهبان والقسوس فقدموا له طعاماً ومدوا له سماطاً فلم يأكل منه شيئاً مما وقع في نفسه من الرؤيا التي رآها البطريق وكان ماهان يود لو ترك الأمر وصالح على أداء الجزية ولكنه كان مغلوباً على أمره! وأقبلت الملوك والقسوس والبطارقة والرهبان على ماهان وقالوا: ما بال الملك امتنع من الطعام؟ فإن كان ذلك من غصة على من مات وعلى ما جرى عليه من الحرب فإن الحرب سجال فيوم لك ويوم عليك. واعلم أيها الملك أن القوم بنا ظافرون وما نملكهم إلا أن نحمل عليهم فلا يبقى منهم أحد. قال ماهان: ما أظنكم غير منصورين إلا من تغير أديانكم والجور في سلطانكم فبهذا نصرت العرب عليكم، فقام إليه رجل وقال: أيها الملك عشت الدهر وأنا رجل من أهل دينكم وكان لي مائة رأس غنم وكان فيها ولدي يرعاها فضرب عظيم من عظماء أصحابك الفسطاط إلى جانبها ثم إنه عدا عليها فأخذ منها حاجته وأخذ بقيتها أصحابه فجاءته زوجتي تشكو إليه انتهاب غنمي، فلما رآها أمر بها فأدخلت إليه فطال مكثها عنده فلما رأى ولدها ذلك دنا من الفسطاط فإذا هو يجامع أمه فصاح الغلام فأمر البطريق بقتل الغلام فقتل فأتيت أريد خلاص ولدي وزوجتي فأمر بي فضربت بالسيف فتلقيت الضربة بيدي فقطعها، ثم إنه أخرج يده فإذا هي مقطوعة!

فغضب ماهان عند ذلك غضباً شديداً وقال للمعاهد: أتعرف هذا البطريق الذي فعل بك ذلك؟ قال: نعم هو هذا وأومأ بيده إلى بطريق من البطارقة فنظر إليه ماهان مغضباً! فغضب البطريق وغضب البطارقة لغضبه ومالوا على المعاهد فضربوه بأسيافهم حتى قطعوه وماهان ينظر إليهم فزاد غضبه وقال: خذلتم وهلكتم وحق المسيح يا ويلكم ترجون النصر وأنتم تفعلون هذه الفعال أما تخافون القصاص غداً وأن الله ينتقم منكم وينزع منكم صالح ما أعطاكم ويعطيه غيركم ممن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، فوالله أنتم الآن عندي كالكلاب وسوف ترون عاقبة هذا كله وإلى أي مصير يكون مصيركم. ثم إنه قام وتركهم، فلما انصرف القوم ولم يبق عنده إلا بطريق واحد قال له: أيها الملك والله إن القوم لكما تقول وما أظن إلا أننا مغلوبون! فأقبل ماهان يفكر طول

ليلته فيما يصنع في أمر المسلمين، فلما أصبح الصباح عبى المسلمون صفوفهم ونظروا إلى عسكر الروم وإذا فيه ارتعاد وانزعاج فعلموا أن لهم أمراً. قال أبو عبيدة: دعوهم ولا تبقوا عليهم فإن الباغي مخذول.

واجتمعت البطارقة والملوك الأربعة إلا ماهان، وهم قناطير وجرجير والديرجان وقورين وهم أصحاب الجيش يستأذنونه في الحرب فقال ماهان: وكيف لي أن أقاتل بقوم يظلمون؟! إن كنتم أحراراً فقاتلوا عن سلطانكم وامنعوا عن حريمكم! فقالوا: الآن أحببنا الحرب فوحق المسيح لا نفارقهم حتى ننفيهم من الشام إلى بلادهم أو يقتلونا أو نقتلهم فثق بقولنا وانهض بنا إليهم، فإذا عزمت على القتال فدع كل واحد منا يقاتل يوماً حتى تعرف منا من هو أفرس وأشد ويضجر المسلمون من المطاولة ونجمع عيالنا وأطفالنا وأموالنا، فإن كانت على العرب رددنا كل شيء إلى مكانه، وإن كانت للعرب علينا ألحقوا ببلادهم وقومهم ويكون الأمر بيننا وبينهم في يوم واحد أو يومين. فقال لهم ماهان -لعنه الله-: هذا هو الرأي أمهلوا إلى أن أكتب إلى الملك بمثل ذلك.

ثم إنه كتب إلى هرقل: أما بعد فأسأل الله لك أيها الملك ولجيشك النصر ولأهل سلطانك العز والنصر. وإنك بعثتني فيما لا يحصى من العدد. وإني قدمت على هؤلاء العرب فنزلت بساحتهم وأطمعتهم فلم يطمعوا وسألتهم الصلح فلم يقبلوا. وجعلت لهم جعلاً على أن ينصرفوا فلم يفعلوا! وقد فزع جند الملك منهم فزعاً شديداً، وإني خشيت أن يكون الفشل قد عمهم والرعب قد دخل في قلوبهم وذلك لكثرة الظلم فيهم! وقد جمعت ذوي الرأي من أصحابي وذوي النصيحة للملك وقد أجمع رأينا على النهوض إليهم جميعاً في يوم واحد ولا نزايلهم حتى يحكم الله بيننا فإن أظهر الله عدونا علينا فارض بقضاء الله، واعلم أن الدنيا زائلة عنك فلا تأسف على ما فات منها ولا تغتبط منها بشيء في يدك، والحق بمعاقلك وبدار ملكك بالقسطنطينية. وأحسن إلى رعيتك يحسن الله إليك، وارحم ترحم، وتواضع لله يرفعك الله فإنه لا يحب المتكبرين. ولقد عملت حيلة في إحضار أميرهم خالد ومنيته ورغبته فما أجابِ! ورأيته على الحق مقيماً فأردت أن أفتك به وأمكر فخفت عاقبة المكر والغدر وما نصِر هؤلاء إلا بالعدل واتباع الحق بينهم، والسلام، ثم طوى الكتاب وبعث به مع أصحابه من العلوج.

قال الواقدي: وبقي ماهان سبعة أيام أخر بعد الوقعة الأولى لم يقاتل المسلمين ولم يقاتلوه، وبعث أبو عبيدة برجل من عيونه ينظر ما الذي أخر الروم عن القتال؟ فغاب الرجل يوماً وليلة ثم عاد وأخبر أبا عبيدة أن ماهان قد كاتب الملك وهو منتظر الجواب. فقال خالد بن الوليد: ما تأخر ماهان عن قتالنا إلا وقد وقع الفزع في قلبه

فازحف بنا إليهم. فقال أبو عبيدة ﷺ: لا تعجل فإن العجلة من الشيطان. وكان أبو عبيدة رجلاً ليّن العريكة يحب الرفق. فلما كان في اليوم الثامن نظر ماهان إلى تلهف أصحابه على الحرب والقتال فعزم أن يلقى بهم المسلمون وقد فرح بنشاطهم فدعا برجل من المتنصرة من لخم وقال له: اذهب فادخل هؤلاء العرب وتجسس لي أخبارهم وانظر ما عندهم. فمضى اللخمي حتى دخل عسكر أصحاب رسول الله ﷺ فأقام فيهم يوماً وليلة يطوف في عسكرهم وليس أحد من المسلمين ينكره وهم آمنون، وليس لهم همة إلا إصلاح شأنهم والصلاة والقرآن والتسبيح، وليس فيهم عدوان ولا ظلم ولا أحد يتعدى على أحد! وقصد الموضع الذي فيه أبو عبيدة ﷺ فنظر إليه كأنه أضعف ضعيف في العرب: ساعة يجلس على الأرض، وساعة ينام عليها، فإذا كان وقت الصلاة قام وأسبغ الوضوء، وأذن المؤذنون وصلى بالناس!

ونظر المتنصر إلى المسلمين وهم يصنعون كصنعه، فقال المتنصر: إن هذه طاعة حسنة ويوشك أنهم ينصرون! فرجع إلى ماهان وحدّثه بما رأى من القوم وما عاينه، وقال: أيها الملك إني جئتك من عند قوم يصومون النهار ويقومون الليل، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولو سرق واحد منهم ولو كان كبيرهم قطعوه، ولو زنى رجموه! لا يغلب هواهم على الحق، بل الحق عندهم غالب، وأميرهم كأضعف من فيهم إلا أنه مطاع عندهم: إذا قام قاموا وإن قعد قعدوا. مناهم القتال، ومرادهم أن يموتوا شهداء في قتالكم؟ ما تأخروا عن قتالكم إلا ليكون البغي منكم إذا بدأتموهم. فقال ماهان: هؤلاء القوم منصورون غير أنّي قد وجدت حيلة أعملها عليهم فقال المتنصر: ما الحيلة أيها الملك؟ فقال ماهان: ألست زعمت أنهم لا يبدؤون بالقتال حتى نقاتلهم فنكون نحن الباغين؟ قال: نعم. قال: فإنا لا نطلب الحرب بل نطول بيننا وبينهم وندهمهم على حين غفلة دون عدة منهم ولا أخذ حذرهم فعسى أن نظفر بهم.

ثم إن هامان جمع الملوك وجعل يعقد لهم الرايات والصلبان حتى عقد ستين ومائة صليب تحت كل صليب عشرة آلاف، وكان أول صليب عقد لقناطير وكان نظيره في الرتبة وأمره أن يكون في الميمنة. ثم عقد صليباً للديرجان وضم إليه الأرمن والنجد والنوبة والروسية والصقالبة. ثم عقد لابن أخت الملك صليباً على الإفرنج والهرقلية والقياصرة واليرفل والدوقس، وعقد لجبلة بن الأيهم عقداً وضم إليه المتنصرة من لخم وجذام وغسان وضبة وأمره أن يكون على المقدمة، وقال: أنتم عرب وأعداؤنا عرب والحديد لا يقطعه إلا الحديد، ثم فرّق الأعلام في أجناد عسكره. فما بان الصباح وأضاء بنوره ولاح حتى فرغ من تعبية جيوشه وترتيب طلائعه وأمر بمضرب له فضرب على كثيب عال على جانب اليرموك يشرف منه على العسكرين، وأوقف عن

يمينه ألف فارس عتاة حماة الروم شاكين السلاح وعن يساره كذلك وهم الملكية وأصحاب السرير وأمرهم باليقظة. وقال: أي كرب يكون على العرب أعظم من هذا فإنكم على تعبية وهم على غير أهبة، فإذا طلعت الشمس ورأيتم المسلمين على غير تعبية فاحملوا عليهم من كل جانب ومكان، فما هم في عسكرنا إلا كالشامة البيضاء في جلد الثور الأسود.

.... حدثني جواد بن أسيد السكاسكي عن أبيه أسد بن علقمة قال: فلما انشق الفجر أذّن المؤذّن وتقدم أبو عبيدة و صلى بالناس وهو لا يعلم بمكيدة ماهان فقرأ في أول ركعة "وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ"، حتى قرأ "إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ"، إذ هتف بهم هاتف وهم في الصلاة وهو يقول: "ظفرتم بالقوم ورب العزة وما يغني عنهم كيدهم شيئاً وما أجرى الله هذه الآية على لسان أميركم إلا بشارة لكم". فلما سمع المسلمون كلام الهاتف عجبوا مما سمعوا، ثم قرأ في الركعة الثانية "وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا" إلى قوله: "فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا"، وإذا بالهاتف يقول: تم الفأل وصح الزجر وهذه علامة النصر. فلما فرغ أبو عبيدة من صلاته قال: يا معاشر المسلمين، هل سمعتم الهاتف؟ قالوا: نعم، سمعنا قائلاً يقول كذا وكذا، فقال أبو عبيدة: والله هذا هاتف النصر وبلوغ الأمل فأبشروا بنصر الله ومعونته فوالله لينصرنكم الله وليرسلن عليهم سوط عذاب كما أنزل على القرون الأول، ثم قال أبو عبيدة: معاشر القوم إني رأيت الليلة في منامي رؤيا تدل على النصر على الأعداء والمعونة من الملأ الأعلى. فقالوا: أصلح الله شأن الأمير فما الذي رأيت؟ قال: رأيت كأني واقف بإزاء أعدائنا من الروم إذ حف بنا رجال وعليهم ثياب بيض لم أر كهيئتها حسناً، لبياضها إشراق ونور يغشى الأبصار، وعلى رؤوسهم عمائم خضر وبأيديهم رايات صفر وهم على خيول شهب، فلما اجتمعوا حولي قالوا: تقدموا على عدوكم ولا تهابوهم فإنكم غالبون، فإن الله ناصركم، ثم دعوا برجال منكم وسقوهم بكأس كان معهم فيه شراب، وكأني أنظر عسكرنا وقد دخل في عسكر الروم فلما رأونا ولوا بين أيدينا منهزمين!

فقال رجل من المسلمين: أصلحك الله أيها الأمير وأنا رأيت الليلة رؤيا! فقال أبو عبيدة: خيراً تكون إن شاء الله تعالى ما الذي رأيت -يرحمك الله-؟ فقال: رأيت كأنا خرجنا نحو عدونا فصاففناهم للحرب، وقد انقضت عليهم من السماء طيور بيض لها أجنحة خضر ومخاليب كمخاليب النسور، فجعلت تنقض عليهم كانقضاض العقبان، فإذا جاءت للرجل ضربته ضربة فيقع قطعاً. ففرح المسلمون بتلك الرؤيا وقال بعضهم لبعض: أبشروا فقد أمنكم الله وأيدكم بالنصر وأمدكم بملائكته تقاتل معكم كما

فعل بكم يوم بدر. فسُرَّ أبو عبيدة بذلك، وقال: هذه رؤيا حسنة، وهي حق وتأويلها النصر وإني أرجو من الله تعالى النصر وعاقبة المتقين! فقال رجل من المسلمين: أيها الأمير ما وقوفنا عن هؤلاء الكلاب الأعلاج وما انتظارك للحرب وعدو الله يريد كيدنا بمطاولته وما تأخر عنا إلا لبلية يريد أن يوقعنا بها. قال أبو عبيدة: إن الأمر أقرب مما تظنون. قال سعيد بن رفاعة الحميري: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا الأصوات قد علت والزعقات قد ارتفعت من كل جانب يهتفون بالقتال وأن الروم قد زحفت إلينا فظن أبو عبيدة أن المسلمين قد كبسوا في وجه السحر فقام ليرى وكان على حرس المسلمين تلك الليلة سعيد بن زيد وعمرو بن نفيل العدوي رضي الله عنهما. إذ أقبل سعيد وهو ينادي: النفير النفير حتى وقف أمام أبي عبيدة ومعه رجل من المتنصرة، فقال: أيها الأمير! ماهان كاد المسلمين بتخلفه عن الحرب، وها هو قد عبى عساكره وصف جيوشه وزحف علينا زحف من يريد الكبسة بنا، ونحن على غير أهبة ولا عدة، وهذا الرجل قد أقبل إلينا راغباً في الإسلام محذراً لنا من بأسه ويزعم أن ماهان قد قدم إلينا حماة البطارقة، وقد اتفق رأيهم على أن يقاتلنا كل ملك من ملوكهم بمن معه وهذا أصعب القتال. ونظر المسلمون إلى رايات الروم تقرب منهم والصلبان تدنو. فقال أبو عبيدة: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم قال: أين أبو سليمان؟ فأجابه تلبيةً، فقال له: أنت لي يا أبا سليمان فابرز في أبطال المسلمين وصد عن الحريم إلى أن تأخذ الرجال صفوفها وتستعد بآلات حربها، فقال: حباً وكرامة... فنادى خالد: أين الزبير بن العوام، أين عبد الرحمن بن أبي بكر، أين الفضل بن العباس، أين يزيد بن أبي سفيان؟ أين ....؟ وجعل خالد يدعوهم رجلاً بعد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ وكل رجل منهم يلقى جيشاً فاجتمعوا إلى خالد بأجمعهم واشتغل أبو عبيدة بترتيب الصفوف وتعبية العساكر.

فأقبل أبو سفيان إلى أبي عبيدة، وقال له: أيها الأمير مر نساءنا أن يعلون على هذا التل. قال: نعم الرأي ما رأيت! فأمرهنَّ بذلك ففعلن وعلون على التل وحصنَّ أنفسهن وأولادهن ومعهن الأطفال والأولاد، فقال لهن أبو عبيدة: خذن بأيديكن أعمدة البيوت والخيام واجعلن الحجارة بين أيديكن وحرضن المؤمنين على القتال، فإن كان الأمر لنا والظفر فكن على ما أنتن عليه وإن رأيتن أحداً من المسلمين منهزماً فاضربن وجهه بأعمدتكنَّ واحصبنه بحجارتكنَّ وارفعنَّ إليه أولادكن وقلن له: قاتل عن أهلك وعن دين الإسلام، فقالت النساء: أيها الأمير أبشر بما يسرك. فلما حصَّن أبو عبيدة النساء على التل أقبل يعبي جيشه وقد ابتدر الناس القتال بعدما عبَّاهم ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين وقدم أصحاب الرايات وكانت راية المهاجرين صفراء وفيها أبيض وأخضر

وأسود وسائر القبائل أيضاً راياتهم مختلفة، وجعل المهاجرين والأنصار في القلب وأظهر المسلمون العدة والسلاح، وجعل عسكره ثلاثة صفوف؛ فصف فيه النبلة من أهل اليمن، وصف فيه أصحاب الخيل والعدة، وقسَّم الخيالة ثلاثة فرق فجعلها في الثلاثة صفوف، واستعمل عليهم ثلاثة من المسلمين، أحدهم غياث بن حرملة العامري، والثاني مسلمة بن سيف اليربوعي، والثالث القعقاع بن عمرو التميمي ووقف المسلمون تحت راياتهم ووقف أبو عبيدة تحت رايته التي عقدها له أبو بكر الصديق ﷺ يوم مسيره إلى الشام، وهي راية رسول الله ﷺ الصفراء التي سار بها يوم خيبر. ومع خالد راية العقاب وكانت سوداء وجعل على الرجالة شرحبيل بن حسنة، وعلى الجناح الأيمن يزيد بن أبي سفيان، وعلى الأيسر قيس بن هبيرة. فلما ترتبت الصفوف سار أبو عبيدة بين الصفوف وجعل يحرض المؤمنين على القتال ويقول "إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ"، والزموا الصبر فإن الصبر منجاة من الكرب ومرضاة للرب، ومقمعة للعدو فلا تزايلوا صفوفكم ولا تنقضوا نيتكم ولا تخطوا خطوة إلا وأنتم تذكرون الله ولا تبدؤوهم بالقتال حتى يبدؤوكم وشرعوا الرماح واستتروا بالدرق والزموا الصمت إلا من ذكر الله ولا تحدثوا حدثاً حتى آمركم، ثم رجع إلى مقامه من القلب فوقف فيه.

ثم خرج من بعده معاذ بن جبل ﷺ فطاف على الناس محرضاً لهم يقول: يا أهل الدين ويا أنصار الهدى والحق اعلموا رحمكم الله تعالى أن رحمة الله لا تنال إلا بالعمل والنية ولا تدرك بالمعصية والتمني بغير عمل مرضي، ولا تدخل الجنة إلا بالأعمال الصالحة مع رحمة الله، ولا يؤتي الله الرحمة والمغفرة الواسعة إلا الصابرين والصادقين، ألم تسمعوا قوله جل من قائل: "وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا"، واستحيوا من الله أن يراكم في فرار من عدوكم وأنتم في قبضته ليس لكم ملجأ من دونه! ولم يزل معاذ يقول ذلك إلى أن رجع إلى مقامه.

ثم خرج سهل بن عمرو فمشى بين الصفوف وهو شاكي السلاح راكب فرسه متقلداً سيفه وهو يقول مثله، ثم رجع وخرج من بعده أبو سفيان فطاف بين الصفوف وهو شاكي السلاح راكب فرسه متقلداً سيفه معتقلاً رمحه وهو يقول: معاشر العرب الكرام السادة العظام قد أصبحتم في ديار الأعلاج منقطعين عن الأهل والأوطان، ووالله لا ينجيكم منهم إلا الطعن الصائب في أعينهم والضرب المتدارك في هاماتهم، وبذلك تبلغون أربكم وتنالون الفوز من ربكم. واعلموا أن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الغم فاصدقوا القتال فإن النصر ينزل مع الصبر فإن

صبرتم ملكتم بلادهم وأمصارهم واستعبدتم أبناءهم ونساءهم، وإن وليتم فليس بين أيديكم إلا مفاوز لا تنقطع إلا بالزاد الكثير والماء الغزير ولا ترجعوا إلى دور ولا إلى قصور فامنعوا بسيوفكم وجاهدوا في اللّه حقّ جهاده ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون، ثم خرج من بين الصفوف وأقبل على النساء وهنّ على التل وفيهنّ المهاجرات وبنات الأنصار وغيرهنّ من نساء المسلمين ومعهنّ أولادهن. فقال لهنّ: إنّ رسول الله ﷺ قال: "إنّ النساء ناقصات عقل ودين" فكنّ ممن احتفظن بأديانهنّ وقدمن في ذلك النية، وحرضن أزواجكنّ على القتال، ومن رجع منهم منهزماً فاحصبن وجهه بالحجارة واضربن جواده بالعمد وأظهرن أولادكنّ لأزواجكنّ حتى يرجعوا.

فوقفت النساء وهنّ مستعدات متنمرات مرتجزات بأشعارهنّ، ورجع أبو سفيان إلى موضعه وهو يقول: معاشر المسلمين قد حضر ما ترون وهذا رسول الله ﷺ والجنة أمامكم والشيطان والنار وراءكم وأقبل حتى وقف مكانه! ولم تغن مكيدة ماهان شيئاً ورجعت الروم إلى ورائها حين نظروا خالداً زحف إليهم في خمسمائة فارس، فخافوا لذلك ورجعوا حتى اصطفت الصفوف وعبى المسلمون كتائبهم. فقال ماهان: ما يوقفكم عن قتالهم فازحفوا إليهم! فزحف الروم إلى المسلمين فنظر خالد إلى جيش عرمرم. وكان ماهان قد أنفذ ثلاثين ألفاً من عظمائهم فحفروا لهم في الميمنة حفائر ونزلوا فيها وشدوا أرجلهم بالسلاسل واقترن كل عشرة في سلسلة التماساً لحفظ عسكرهم وحلفوا بعيسى ابن مريم والصليب والقسيسين والرهبان والكنائس الأربع أن لا يفروا حتى يقتلوا عن آخرهم، فلما نظر خالد إلى ما صنعوا قال لمن حوله من جيش الزحف هذا يوشك أن يكون يوماً عظيماً، ثم قال: اللهم أيد المسلمين بالنصر. ثم أقبل على أبي عبيدة وقال: أيها الأمير إن القوم قد اقترنوا في السلاسل وزحفوا إلينا بالقواضب ويوشك أن يكون على الناس يوماً عظيماً. فقال لهم: إن العدو عدده كثير وما ينجيكم إلا الصبر، ثم قال لخالد: فما الذي ترى من الرأي يا أبا سليمان؟

قال الواقدي: وكان ماهان قدم من الروم من عرفت شجاعته وعلمت براعته واشتهر بالثبات في بلادهم وهم مائة ألف. فلما نظر خالد إليهم شهد لهم بالفروسية وأنهم من أهل الشدة وقال لأبي عبيدة: إن الرأي عندي أن توقف في مكاننا الذي أنت فيه سعيد بن زيد وتقف أنت من وراء الناس في مائتين أو ثلثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ، فإذا علم الناس أنك من ورائهم استحيوا من الله ثم منك أن يفروا. قال فقبل أبو عبيدة مشورته ودعا سعيد بن زيد وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة فأوقفه أبو عبيدة مكانه، ثم انتخب أبو عبيدة مائتي فارس من اليمن وفيهم رجال من المهاجرين والأنصار ووقف بهم من وراء الجيش بحذاء سعيد بن زيد.

.... حدثني ورقة بن مهلهل التنوخي -وكان صاحب راية أبي عبيدة يوم اليرموك- قال: وكان أول من فتح باب الحرب يوم اليرموك في جيش السلاسل غلاماً من الأزد حدثاً كيساً. فقال لأبي عبيدة: أيها الأمير إني أردت أن أشفي قلبي وأجاهد عدوي وعدو الإسلام وأبذل نفسي في سبيل الله تعالى لعلي أرزق الشهادة، فهل تأذن لي في ذلك، وإن كان لك حاجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرني بها. فبكى أبو عبيدة وقال: اقرئ رسول الله ﷺ السلام مني وأخبره أنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً. ثم دفع الغلام الأزدي جواده وحمل يريد الحرب فخرج إليه علج من الروم قام من الرجال على فرس أشهب، فلما رآه الغلام قصد نحوه وقد احتبس نفسه في سبيل الله تعالى فلما قرب منه قال:

لابد من طعن وضرب صائب ... بكل لدن وحسام قاضب
عسى أنال الفوز بالمواهب ... في جنة الفردوس والمراتب

وبعد شعره حمل كل منهما على صاحبه وابتدأ الغلام الأزدي الرومي بطعنة فجندله صريعاً وأخذ عدته وجواده وسلم ذلك لرجل من قومه وعاد إلى البراز فخرج إليه آخر فقتله وثالث ورابع فقتلهم فخرج إليه خامس فقتل الأزدي فغضبت الأزد عند ذلك ودنت من صفوف المشركين؛ فعندها أقبلت الروم وزحفت كالجراد المنتشر حتى دنا طرفهم من ميمنة المسلمين. فقال أبو عبيدة: إن أعداء الله قد زحفوا عليكم فنكلوهم واعلموا أن الله معكم وثبتوا نفوسكم بالصبر والصدق واللقاء والنصر من الله، ثم رمق إلى السماء بطرفه وقال: "اللهم إياك نعبد وإياك نستعين ولك نوحد ولا نشرك بك شيئاً! وأن هؤلاء أعداؤك يكفرون بك وبآياتك ويتخذون لك ولداً! اللهم زلزل أقدامهم وأرجف قلوبهم وأنزل علينا السكينة وألزمنا كلمة التقوى وآمنا عذابك يا من لا تخلف الميعاد"، اللهم انصرنا عليهم يا من قال في كتابه العزيز: "وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ". فبينما هو يدعو بهذه الدعوات إذ حملت الروم على ميمنة المسلمين وكان فيها الأزد ومذحج وحضرموت وخولان فحملت عليهم الروم حملة منكرة فصبروا لهم صبر الكرام وقاتلوا قتالاً شديداً وثبتوا ثباتاً حسناً! وحملت عليهم كتيبة ثانية فصبروا صبراً جميلاً! وحملت عليهم كتيبة ثالثة فأزالوا المسلمين عن الميمنة، فابتدر منهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي وهو المقدم على زبيد والأمير عليهم وهم يعظِّمونه لما سبق من شجاعته في الجاهلية وكان يوم اليرموك قد مر له من العمر مائة وعشرون سنة إلا أن همَّته الشجاعة!

فلما نظر إلى قومه وقد انكشفوا صاح فيهم: يا آل زبيد يا آل زبيد! تفرون من الأعداء وتفزعون من شرب كأس الردى؟! أترضون لأنفسكم بالعار والمذلة فما هذا

الانزعاج من كلاب الأعلاج؟! أما علمتم أن الله مطّلع عليكم وعلى المجاهدين والصابرين، فإذا نظر إليهم وقد لزموا الصبر في مرضاته وثبتوا لقضائه أمدهم بنصره وأيدهم بصبره فأين تهربون من الجنة؟! فلما سمعت زبيد كلام سيدهم عمرو بن معد يكرب رجعوا إليه وعطفوا عليه عطفة الإبل على أولادها فاجتمعوا حوله زهاء من خمسمائة فارس وراجل وشدوا على القوم شدة واحدة وحملت معهم حمير وحضرموت وخولان وحملوا حملة صعبة فأزالوا الروم عن أماكنهم وحملت دوس مع أبي هريرة وهز رايته وهو يحرض قومه على القتال ويقول: أيها الناس سارعوا إلى معانقة الحور العين في جوار رب العالمين، وما من موطن أحب إلى الله من هذا الموطن: ألا وان الصابرين قد فضلهم الله على غيرهم الذين لم يشهدوا مشهدهم!

فلما سمعت دوس كلامه طافوا به وحملوا على الروم حملة منكرة ودارت بينهم الحرب كما تدور الرحى وتكاثرت جموع الروم على ميمنة المسلمين، فعادت الخيل تنكص بأذنابها راجعة على أعقابها منكشفة كانكشاف الغنم بين أيدي الأسد! ونظرت النساء خيل المسلمين راجعة على أعقابها فنادت النساء: يا بنات العرب دونكنّ والرجال ردوهم من الهزيمة حتى يعودوا إلى الحرب. قالت سعيدة بنت عاصم الخولاني كنت في جملة النساء يومئذ على التل، فلما انكشفت ميمنة المسلمين صاحت بنا عفيرة بنت غفار وكانت من المترجلات البازلات ونادت: يا نساء العرب دونكنّ والرجال واحملن أولادكنّ على أيديكنّ واستقبلنهم بالتحريض! فأقبلت النسوة يرجمن وجوه الخيل بالحجارة، وجعلت ابنة العاص بن منبه تنادي: قبّح الله وجه رجل يفر عن حليلته! وجعل النساء يقلن لأزواجهن: لستم لنا ببعولة إن لم تمنعوا عنّا هؤلاء الأعلاج.

قال العباس بن سهل الساعدي: كانت خولة بنت الأزور وخولة بنت ثعلبة الأنصارية وكعوب ابنة مالك بن عاصم وسلمى ابنة هاشم ونعم ابنة فياض وهند ابنة عتبة بن ربيعة ولبنى ابنة جرير الحميرية متحزمات وهن أمام النساء والمزاهر معهن، وخولة تقول هذه الأبيات:

يا هارباً عن نسوة ثقات ... لها جمال ولها ثبات
تسلموهن إلى الهنات ... تملك نوا صينا مع البنات
أعلاج سوء فسق عتات ... ينلن منا أعظم الشتات

ورجعت الفرسان تحرض الفرسان على القتال، فرجع المنهزمون رجعة عظيمة عندما سمعوا تحريض النساء وخرجت هند ابنة عتبة وبيدها مزهر ومن خلفها نساء من المهاجرات وهي تقول الشعر الذي قالته يوم أحد وهو هذا:

نحن بنات طارق ... نمشي على النمارق
مشي القطا الموافق ... قيدي مع المرافق
ومن أبى نفارق ... أن تغلبوا نمالق
أو تدبروا نفارق ... فراق غير وامق
هل من كريم عا شق ... يحمي عن العواتق

ثم ا ستقبلت خيل ميمنة المسلمين فرأتهم منهزمين فصاحت بهم: إلى أين تنهزمون أين تفرون من الله ومن جنته وهو مطلع عليكم ونظرت إلى زوجها أبي سفيان منهزماً فضربت وجه حصانه بعمودها، وقالت له: إلى أين يا ابن حرب! ارجع إلى القتال وابذل مهجتك حتى تمحص ما سلف من تحريضك على رسول الله ﷺ. قال الزبير بن العوام: فلما سمعت كلام هند لأبي سفيان ذكرت يوم أحد ونحن بين يدي رسول الله ﷺ. فعطف أبو سفيان عندما سمع كلام هند وعطف المسلمون معه ونظرت إلى النساء، وقد حملن معهم وقد رأيتهن يسابقن الرجال وبأيديهن العمد بين أرجل الخيل ولقد رأيت منهن امرأة وقد أقبلت إلى علج عظيم وهو على فرسه فتعلقت به وما زالت به حتى نكسته عن جواده وقتلته! وهي تقول: هذا بيان نصر الله المسلمين.

قال الزبير بن العوام: وحمل المسلمون حملة منكرة لا يريدون غير رضا الله ورسوله، وقاتلت الأزد مع أبي هريرة وفشا فيهم القتل وأصيب منهم خلق كثير لأنهم تلقوا الصدمة الأولى بأنفسهم واستشهد منهم ما لم يستشهد من غيرهم.

قال سعيد بن زيد: كان القتال في الميمنة شديداً وكان المسلمون ينهزمون تارة ويعودون تارة وساعة نصبر وساعة نتأخر. ونظر خالد بن الوليد إلى الميمنة، وقد وصلت إلى القلب فصاح بمن معه من الخيل ومال عليهم فمالوا وكانوا زهاء ستة آلاف فكبر وحمل على الروم فنكى بهم نكاية عظيمة حتى كشف أعداء الله عن الميمنة والقلب إلى أن ردت إلى مواضعها ووقف خالد أمامهم يطارد من كان قريباً للمسلمين، فانكسر الروم أمام خالد! ونظر خالد إلى فرسانه فرآهم متبددين فنادى: يا أهل الإسلام والإيمان ويا حملة القرآن ويا أصحاب محمد ﷺ قد تبينت في الروم الكسرة العظيمة ولم يبق عند القوم من الجلد والقتال إلا ما رأيتم وقد كسر الله حدتهم فردوا عليهم الكسرة وشدوا عليهم الكرة رحمكم الله، فوالذي نفس خالد بيده إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم! فنادى المسلمون من كل جانب احمل حتى نحمل معك. فانتضى خالد سيفه وحمل وحملت أصحابه معه. قال عبد الرحمن بن الحميدي الجمحي: كنت ممن حمل مع خالد فوالله لقد انكشفت الروم بين أيدينا وولت كما تولي الغنم

بين يدي الأسد وتبعهم المسلمون وكانت الحملة على ميمنة الروم فانكشفوا انكشافاً قبيحاً، وأما المسلسلة فما برحوا من مواضعهم وكانوا يرمون بالسهام وهم حماة القوم.

الشـــــعار

قال عبد الرحمن: وكان خالد أمامنا في حملته ونحن من ورائه، وكان شعارنا: يا محمد يا منصور أمتك أمتك فلم يزل خالد في حملته ونحن من ورائه حتى وصل إلى الديرجان وكان قائماً في موضعه الذي أقامه فيه ماهان معه صليب من الجوهر ومعه أصحابه ينتظرون حملته فيحملون معه، فلما وصلت خيل خالد إلى موضعه. قال له البطارقة: أيها الملك أما آن لك أن تحمل فنحمل معك أو تولي فقد خالطتنا خيل العرب. فقال لأصحابه: اعلموا أن يوم السوء لا أحبه ولا أحب أن أراه ولا أحضره، وقد أحضرني الملك إلى هذا الموقف وأنا كارهه ولكن لفوا وجهي ورأسي في هذا الثوب حتى لا أرى الحرب. فلفوا وجهه ورأسه في ثوب ديباج والناس يقتتلون حتى انهزمت الروم بين أيدي المسلمين ووصلوا إلى الديرجان وهو ملفوف الرأس فحمل عليه ضرار بن الأزور فقتله.

قال الواقدي: وكان من حسن صنع الله تعالى بالمسلمين أن جرجير وقناطير اختلفا وتنازعا وكان جرجير في الميمنة مع الأرمن وقناطير في الميسرة تحته، فقال جرجير لقناطير: احمل على العرب فما هذا وقت الوقوف؟ فقال قناطير: تأمرني أن أحمل وكيف لا تحمل أنت؟ فقال جرجير لقناطير: وكيف لا آمرك، وأنا أمير عليك. فقال قناطير: كذبت أنت أمير وأنا أمير عليك وفوقك وأنت مأمور لي بالطاعة! فاختلفا وغضب جرجير من قول قناطير فحمل على المسلمين حملة شديدة وكانت حملته على كنانة وقيس وخثعم وجذام وقضاعة وعاملة وغسان وهم يومئذ فيما بين الميسرة والقلب! فكشف الروم المسلمين حتى زالوا عن مصافهم ولم يبق منهم إلا أصحاب الرايات فقاتلوا من يليهم قتالاً شديداً! وركب الروم أكتاف المسلمين المنهزمين إلى أن دخلوا معهم إلى معسكرهم، فاستقبلهم النساء بالعمد يضربن وجوه الخيل ويرمين وجوهها بالحجارة وينادين بهم: إلى أين تنهزمون يا أهل الإسلام عن الأمهات والأخوات والبنين والبنات أتريدون أن تسلمونا للأعلاج؟!

قال منهال الدوسي: فلقد كانت النساء أشد علينا غلظة من الروم فرجع المسلمون عن الهزيمة ونادى بعضهم بعضاً "وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ"، وعطفوا على الروم عطفة عظيمة. وكان قتامة بن أيشم الكناني أمام المسلمين يضرب في عراض المشركين تارة بالسيف وتارة بالرمح حتى كسر ثلاثة رماح، وهو يقول:

سأحمل في الروم الكلاب النوابح ... وأضربهم ضرباً بحد الصفائح
وأرضي رسول الله خير مؤمل ... نبي الهدى للدين أشرف ناصح

ثم حمل حتى كسر سيفين وجعل كلما كسر رمحاً أو سيفاً يقول: من يعيرني سيفاً أو رمحاً في سبيل الله وأجره على الله، ثم نادى: يا معاشر قيس خذوا نصيبكم من الأجر والصبر، فإن الصبر في الدنيا عز ومكرمة وفي الآخرة رحمة وفضيلة "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" فأجابه قومه ونشطوا للقتال.

قال قتامة: فما رأيت مثل حملة قناطير وقومه ولقد اختلطوا بنا واختلطنا بهم. ورجع خالد من دهمته ومعه ألفان من أصحابه، وقد وضعوا السيوف في الروم وقتلوهم قتلاً ذريعاً والقتل لا يبين فيهم لكثرتهم، وأقبل خالد على الناس من كرته فرأى الناس يقولون جزى الله قتامة بن الأيشم خيراً عن الإسلام فشكره وجزّاه خيراً. وأقبلت ذرعة ابنة الحارث منحدرة عن التل وهي تقول: ما فعل خالد حتى وقفت بين يديه، وقالت: يا ابن الوليد أنت من العرب الكرام، وإنما الرجال بأمرائها، فإن ثبتوا ثبتت الرجال معهم وإن انهزموا انهزمت الرجال معهم، فقال لها خالد: ما كنت من المنهزمين وما كنا إلا نقاتل في الأعلاج. فقالت: قبح الله وجه عبد ينظر إلى أميره ثابتاً وهو منهزم عنه.

قال الواقدي: ونظر ماهان -لعنه الله- إلى الميمنة من عسكره وقد عركت عراك الأديم بعث إليهم يحرضهم على القتال. فعندها خرج علج من الروم وعليه درع سابغ السلاح كأنه قطعة جبل وهو على شهباء عظيمة الخلقة فبرز بين الصفين وجال على شهبائه وسأل القتال! فخرج إليه غلام من الأزد فما جال معه جولة حتى قتله العلج ثم دعا بالبراز فهمّ أن يخرج إليه معاذ بن جبل، فقال أبو عبيدة: يا معاذ سألتك بحق رسول الله ﷺ إلا ما ثبت مكانك ولزمت رايتك ولزومك الراية أحبُّ إليَّ من بروزك إلى هذا العلج! فوقف معاذ بالراية ونادى: يا معاشر المسلمين من أراد فرساً يقاتل عليه في سبيل الله فهذا فرسي وسلاحي! فجاءه ولده عبد الرحمن فقال: أنا يا أبت! وكان غلاماً لم يحتلم، فلبس السلاح وركب الجواد وقال: يا أبت أنا خارج إلى هذا العلج، فإن صبرت فالمنّة لله عليَّ، وإن قتلت فالسلام عليك وإن كان لك إلى رسول الله ﷺ حاجة فأوصني بها. فقال له معاذ: يا بني أقرئه مني السلام وقل له: جزاك الله عن أمتك خيراً. ثم قال: يا بني اخرج وفقك الله لما يحب ويرضى! فخرج عبد الرحمن إلى العلج كأنه شعلة نار وحمل على العلج وضربه بالسيف فمال عنه العلج ومال إليه وضربه على رأسه فقطع العمامة وشجه شجة فاضحة أسالت دمه، فلما رأى العلج ذلك الدم ظنّ أنه قتل فتأخر إلى ورائه لينظر كيف يسقط عن جواده، فلما نظر

عبد الرحمن إلى العلج وقد تأخر عنه انثنى راجعاً إلى المسلمين، فقال له معاذ: ما بك يا بني؟ قال: قتلني العلج! قال له: ما الذي تريد من الدنيا يا بني؟ ثم إنه شدَّ جرحه. فعندها صال العلج وحمل فردته الأزد.

قال أبو عبيدة: فمن له منكم؟ فخرج إليه عامر بن الطفيل الدوسي وكان من أصحاب الرايات ممن شهد اليمامة مع خالد بن الوليد وكان قد رأى يوم اليمامة في منامه في قتال مسيلمة الكذاب كأن امرأة لقيته ففتحت له فرجها فدخل فيه! ونظر إليه ابنه فأسرع ليدخل مكانه. ثم استيقظ وقص ذلك على المسلمين فلم يدر أحد ما تأويله، فقال ابن الطفيل: أمَّا أنا فأعرف تأويلها قالوا: وما تأويلها يا ابن الطفيل؟ قال: تأويله أني أقتل لأن المرأة التي أدخلتني فرجها هي الأرض وابني سيصيبه جراح ويوشك أن يلتقي بي. فقاتل يوم اليمامة وأبلى بلاءً حسناً وسلم ولم يلحقه أذى، فلما كان يوم اليرموك شهد فيه الحرب وخرج إلى قتال العلج وهو كأنه شعلة حريق أو صاعقة وطعن البطريق، وكانت قناته قد شهدت معه المشاهد فاندقت بين يديه وانتضى سيفه وهزه وضرب به العلج على عاتقه فخالط أمعاءه فتنكس العلج صريعاً عن جواده وأسرع عامر بن الطفيل فرمى به إلى المسلمين وسلمه إلى ولده، وانثنى راجعاً نحو الروم وحمل على الميمنة وعلى الميسرة وعلى القلب. ثم قصد المتنصرة فقتل منهم فارساً ودعا للبراز وخرج إليه جبلة بن الأيهم وعليه درع من الديباج المثقل بالذهب وتحتها درع من دروع التبابعة وعليه بيضة تلمع كشعاع الشمس وتحته فرس من نسل خيول عاد.

فلما خرج جبلة إلى عامر بن الطفيل قال له: من أي الناس أنت؟ قال: أنا من دوس. قال جبلة: إنك من القرابة فأبق على نفسك وارجع إلى قومك ودع عنك الطمع! فقال له عامر: قد أخبرتك من أنا ومن قبيلتي فأنت من أي العرب؟ قال: أنا من غسان وأنا سيدها جميعها أنا جبلة بن الأيهم الغساني، وإنَّما خرجت إليك حين نظرت إليك، وقد قتلت هذا البطريق الشديد وهو نظير ماهان وجرجير في الشجاعة فعلمت أنك كفء فخرجت لأقتلك وأحظى عند ماهان وهرقل بقتلك. فقال عامر: أما ما ذكرت من شدة القوم وعظم خلقهم فالله أشد منعة، وهو مهلك الجبابرة، وأما قولك إنك تحظى بقتلي عند مخلوق مثلك فإني أريد أن أحظى بجهادي عند رب العالمين بقتلك، وحمل عامر على جبلة بن الأيهم والتقيا بضربتين فخرجت ضربة عامر بن الطفيل غير ممكنة وخرجت ضربة جبلة ممكنة فقطعت من قرنه إلى كتفه فسقط عامر قتيلاً فجال جبلة على مصرعه ووقف يعجب بنفسه وبما صنع وطلب البراز فخرج إليه ولد المقتول، وهو جندب بن عامر بن الطفيل وكانت معه راية أبيه فأقبل إلى أبي عبيدة،

وقال: أيها الأمير إن أبي قد قتل وأريد أن آخذ بثأره أو أقتل فادفع رايتك لمن شئت من دوس فأخذ أبو عبيدة الراية ودفعها لرجل من دوس فحملها وخرج جندب إلى قتال جبلة بن الأيهم، وهو ينشد ويقول:

سأبذل مهجتي أبداً لأني ... أريد العفو من رب كريم
وأضرب في العدا جهدي بسيفي ... وأقتل كل جبار لئيم
فإن الخلد في الجنات حق ... تباح لكل مقام سليم

ودنا من جبلة، وقال له: اثبت يا قاتل أبي لأقتلك به! فقال جبلة: ومن أنت من المقتول، قال: ولده. قال جبلة: ما الذي حملكم على قتل نفوسكم وأولادكم وقتل النفوس محرم؟ قال جندب: إن قتل النفس في سبيل الله محمود عند الله وننال به الدرجة العالية، فقال له جبلة: إني لا أريد قتلك، فقال جندب: وكيف أرجع وأنا المفجوع بأبي والله لا رجعت أو آخذ بثأر أبي أو ألحق به ثم حمل على جبلة وجعلا يقتتلان وقد شخصت نحوهما الأبصار، ونظر جبلة إلى الغلام وما أبدى من شجاعة فعلم أنه شديد البأس صعب المراس فأخذ منه حذره وغسان ترمق صاحبها فرأت الغلام جندباً وقد ظهر على صاحبهم وقارنه في الحرب، فصاح بعضهم على بعض وقالوا: إن هذا الغلام الذي برز إلى سيدكم غلام نجيب وإن تركتموه ظهر عليه فانجدوه ولا تدعوه فتأهبت غسان للحملة ليستنقذوه ونظر المسلمون إلى جندب وما قد ظهر منه ومن شجاعته وشدته ففرحوا بذلك ونظر الأمير أبو عبيدة إلى ذلك وما فعل. فبكى وقال: هكذا يكون من يبذل مهجته في سبيل الله اللهم تقبل منه فعله.

قال جابر بن عبد الله: شهدت قتال اليرموك فما رأيت غلاماً كان أنجب من جندب بن عامر بن الطفيل حين قاتله جبلة وبعد ذلك حمل على جبلة وضربه ضربة أوهنه بها وضربه جبلة فقتله وعجل الله بروحه إلى الجنة وتحقق منام أبيه عامر بن الطفيل، وجال جبلة على مصرعه وطلب البراز فصاح به قومه ارجع إلينا فقل قضيت ما يجب عليك فرجع وهو معجب بنفسه حتى وقف تحت صليبه. وبعث إليه ماهان يشكره. وأصيب المسلمون بعامر بن الطفيل ﷺ وولده جندب؛ فعندها صاحت دوس: الجنة الجنة خذوا بثأر سيدكم عامر وساعدتها الأزد وكانوا أحلافهم وحملوا على غسان ولخم وجذام وتناشدوا الأشعار فصاح أبو عبيدة بالمسلمين، وقال: أيها الناس "وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ"، ومعانقة الحور العين في جنات النعيم فما من موطن أحب إلى الله من هذا الموطن ألا وإن الصابرين فضلهم الله على غيرهم ممن لم يشهد مشهدهم، هذا ولما سمعت الأزد ذلك حملت مع دوس وكان شعارهم يومئذ الجنة الجنة.

.... عن عطاء بن مراد قال: سألت رجالاً عدة ما كان شعار المسلمين يوم اليرموك فأخبرت أن شعار أبي عبيدة أمت أمت وشعار عبس: يا لعبس، وشعار اليمن من أخلاط الناس: يا أنصار الله، وشعار خالد ومن معه: يا حزب الله، وشعار حمير: الفتح الفتح، وشعار دارم والسكاسك: الصبر الصبر، وشعار بني مراد: يا نصر الله انزل، فهذه كانت شعارات المسلمين يوم اليرموك. فلما حملت دوس تبعها الأزد وقصدت العرب المتنصرة وطلبت صليبهم وفرقتهم تفريقاً صعباً حتى وصلوا إلى الصليب، فطلب رجل منهم حامل العلم الذي لغسان فأرداه عن فرسه ووقع الصليب من يده منكوساً وقتل من الأزد ودوس رجال إلا أنهم كانوا مثل الشامة البيضاء في جلد البعير الأسود. ثم كرت غسان تريد أخذ صليبهم فاقتتلوا عنده قتالاً شديداً حتى قتلوا خلقاً كثيراً.

.... عن عبد الله بن عدي قال: شهدت اليرموك فكان المسلمون خمسة وعشرين ألفاً، فغضب الحويرث وقال: كذب من حدثك بهذا الحديث. فإن المسلمين كانوا يوم اليرموك أحداً وأربعين ألفاً وقد أديت إليك ما سمعته ممن أثق به من الرواة. وهذا أثبت الأقاويل لأن المسلمين كانوا يوم أجنادين اثنين وثلاثين ألفاً وجاءت الأمداد بعد ذلك.

.... عن عبد الحميد بن سهل عن جده قال: لما حملت الأزد يوم اليرموك ودوس ودوخت المشركين دوخة عظيمة وحمل المشركون حملة هائلة انكشف المسلمون وكان صاحب لوائهم عياض بن غنم الأشعري فولى منهزماً واللواء بيده، فصاح به الناس: إنما ثبات القوم وأهل الحرب بألويتهم، فابتدر لأخذه عمرو بن العاص وخالد بن الوليد كلاهما يتسابق إليه فأخذه عمرو ولم يزل يقاتل به حتى انهزمت الروم وفتح الله على أيدي المسلمين، وكان اليوم الثالث من اليرموك يوماً شديداً انهزمت فيه فرسان المسلمين ثلاث مرات كل مرة تردهم النساء بالحجارة والعمد ويلوحون بالأطفال إليهم فيرجعون إلى القتال! ولم يزل القتال قائماً إلى أن أقبل الليل بسواده، ورجعت الروم إلى مواضعها والقتل فيهم كثير وفي المسلمين قليل، إلا أن الجراح فيهم فاشية من النشاب، فلما دخل الليل بسواده رجعت كل فرقة إلى أماكنها وباتوا تحت السلاح.

وأما المسلمون فما كانت همتهم إلا الصلاة وبعد ذلك شدوا الجراح، وصلى أبو عبيدة ﷺ وقال: أيها الناس إذا عظم البلاء فانتظروا الفرج فإنه يأتي من عند الله فأضرموا نيرانكم وتحارسوا وأظهروا التهليل والتكبير، وقام أبو عبيدة يمشي في الناس هو وخالد بن الوليد يتفقدان الجرحى ويقولان: أيها الناس إن عدوكم يألم كما تألمون

وترجون من الله ما لا يرجون وباتا طول ليلهم كله وهما طائفان على المسلمين إلى أن أصبح الصباح. وانحازت الروم إلى جانب اليرموك مع ماهان الأرمني فجمع بطارقته ووبخهم وزجرهم. وقال لهم: قد علمت أنَّ هذا يكون منكم، وقد رأيت فشلكم وخوفكم وجزعكم من هؤلاء العرب الضعاف! فاعتذروا إليه وقالوا غداً نبارزهم فإن فينا فرساناً وشجعاناً لم يقاتلوا أصلاً وغداً نصدقهم الحرب فتكون لنا العاقبة. فسكت عن توبيخهم وأمرهم أن يتأهبوا لذلك وبات الفريقان يتحارسون، وقد رعبت الروم من كثرة القتل فيهم، وأما المسلمون فإنهم أقوى قلوباً لشدة دينهم ويقينهم.

فلما أصبح الصباح صلى بهم أبو عبيدة صلاة الخوف وإذا بالصلبان قد بدت وبرايات القوم قد طلعت في عدد الشوك والشجر كأنهم لم يلاقوا قتالاً قط فوقفوا في مصافهم ونصب ماهان سريره على الكثيب الذي كان عليه بالأمس وهو يشرف منه على العساكر فأمرهم أن يعبوا مصافهم، فلما نظر أمير المؤمنين إلى سرعة الروم صاح كل أمير برجاله وحرضهم على القتال فانقلبوا من الصلاة إلى خيولهم ولبسوا السلاح وركبوا خيولهم ورجع كل أمير إلى مكانه وهو يعظ أصحابه ويوصيهم ويعدهم من الله بالنصر.

وسار أبو عبيدة بين الصفوف وهو يصف لهم فضل الجهاد وما أعد الله للمجاهدين الصابرين وخلف على الذراري والنساء والأموال والأولاد عمرو بن سعيد بن عبد الله وجعل من الرماة خمسمائة في الميمنة وخمسمائة في الميسرة وخمسمائة في القلب وطاف أبو عبيدة عليهم، وقال لهم: معاشر الرماة الزموا مراكزكم فإن رأيتم القوم زحفوا إلينا فارشقوهم بالنبال واذكروهم عند رميكم ولا تتركوها مفرقة ولتخرج سهامكم كأنها من كبد قوس واحد، فإن هم زحفوا إليكم فاثبتوا مكانكم حتى يأتيكم أمري ففعلوا ما أمرهم به الأمير.

وتقدم أبو سفيان إلى ولده يزيد والراية في يده وحوله أصحابه وقد عزم على الحملة والجهاد. فقال: يا بني إن أحسنت أحسن الله إليك عليك بتقوى الله والصبر فاتق الله حق تقاته وانصر دين الله وشرع نبيه ﷺ، وإياك والجزع فما قضاه ربنا قد أمضاه فاصبر مع أصحابك صبر أولي العزم، وإياك ثم إياك أن يراك الله منهزماً فتبوء بغضب من الله. قال يزيد: سأصبر جهدي وطاقتي والله أسأله أن يكون معيناً لي وناصراً. ثم صاح يزيد برجاله وهز الراية وندبهم إلى القتال وحمل على من يليه من الروم فقاتلوا قتالاً عظيماً ولم يزالوا حتى نكوا في العدو نكاية عظيمة وأبلوا بلاء حسناً، وكان قتالهم من جانب القلب ولم يزالوا كذلك حتى برز إليهم بطريق من البطارقة وبيده رمح عظيم وعليه صليب من الذهب وحوله زهاء من عشرة آلاف فارس من

الروم فحملوا على الميمنة وكان فيهم عمرو بن العاص ومن معه فرجعوا على أعقابهم منهزمين حتى دخلت الروم في أوائل عسكر المسلمين مما يلي عمراً ومن معه وهم يتراجعون على الرجال فيكرون تارة ويرجعون تارة حتى تكاثرت عليهم الروم فكشفوهم حتى ألصقوهم بالتل الذي عليه النساء وأحاطوا بالتل فصاحت امرأة: أين أنصار الدين أين حماة المسلمين؟ وكان الزبير بن العوام جالساً عند زوجته أسماء بنت أبي بكر الصديق يداوي عينه وكان أرمد، فلما سمع صوت المرأة وهي تنادي: أين أنصار الدين. قال: يا أسماء ما لهذه المرأة تصيح أين أنصار الدين؟ فقالت له عفرة ابنة عثمان: يا ابن عمة رسول الله ﷺ انهزمت ميمنة المسلمين حتى ألجأهم الروم إلينا وأحاط بنا الأعلاج، وهذه نساء الأنصار مستصرخة بأنصار الدين. فقال الزبير: والله إني أنا من أنصار الدين ولا يراني الله جالساً في مثل هذا الوقت. ثم طرح الخرقة عن عينه واستوى جالساً على متن جواده فأخذ قناته وتسمى باسمه وقال في حملته: أنا الزبير بن العوام، أنا ابن عمة رسول الله ﷺ، وجعل يطعن فيهم طعناً متداركاً حتى ردهم على أعقابهم وخيلهم تنكص بأذنابها.

قال ليث بن جابر: فلله در الزبير بن العوام لقد رد الروم بنفسه وحما إذ حمل عليهم وما كان معه من العرب أحد حتى ردهم إلى عسكرهم وتراجعت خيل عمرو ورجاله وهو ينادي: الرجعة الرجعة الحزم الحزم يا أهل الإسلام الصبر الصبر فتراجعوا بعد إدبارهم.

قال الواقدي: وحمل جرجير الأرمني في ثلاثين ألفاً من الأرمن على شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ فانكشف أصحاب شرحبيل بن حسنة ولم يثبت غيره لقتال الروم في عصبة من قومه دون الخمسمائة فجعل شرحبيل يحمل على الأرمن وهو يقول: يا أهل الإسلام لا فرار من الموت الصبر الصبر. قال فتراجع أصحابه إليه وحملوا على الأرمن فردوهم على أعقابهم وجعلوا يضربون فيهم حتى أصابوا من الأرمن مالم يصبه الأرمن منهم، فرجع شرحبيل إلى مكانه ودار به أصحابه فجعل يعنفهم بالقتال ويقول لهم: ما الذي أصابكم حتى انهزمتم أمام هؤلاء الكفرة وأنتم الحماة البررة وأهل القرآن وعباد الرحمن أما سمعتم قوله ﷻ: "وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ"، وقال الله تعالى: "إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ"، وأنتم تهربون! فقالوا: يا صاحب رسول الله ﷺ زلة من الشيطان مثل يوم أحد وحنين وها نحن معك فاحمل حتى نحمل معك! فجزَّاهم خيراً ووقف مكانه. وكان موقفه مما يلي سعيد بن زيد وقد لزموا مواقفهم لم يتحركوا التماساً للحفيظة.

ونظر قيس بن هبيرة إلى خيل شرحبيل وقد تراجعت فحمل بمن معه ونادى هو وأصحابه بشعارهم وكان شعارهم يا نصر الله انزل يا منصور أمت أمت وكان هذا شعارهم يوم بدر وأحد، وحملٍ خالد بن الوليد بمن معه ذات اليمين، وحمل قيس من ذات الشمال فقاتلوهم قتالاً شديداً ولله در الزبير بن العوام وهاشم بن المرقال وخالد بن الوليد: لقد حملوا حملة عظيمة حتى قربوا من سرادقات ماهان وتواقعت الروم على سرادقات ماهان وخيامه. فلما نظر ماهان إلى ذلك نزل عن سريره هارباً وصاح بالروم وعنفهم فتراجعوا يطلبون القتال وصاح أبو عبيدة بسعيد بن زيد فحملٍ بمن معه وهو ينادي: لا إله إلا الله يا منصور أمت أمت فأقبلوا يقتلون في الروم قتلاً ذريعاً، فبينما المسلمون في حملتهم إذ سمعوا قائلاً يقول: يا نصر الله انزل يا نصر الله اقرب أيها الناس الثبات الثبات.

قال عامر بن أسلم: فتأملنا الصارخ فإذا هو أبو سفيان وتحت رايته ابنه يزيد. وشدت الأمراء بأجمعهم على من يليهم وقاتلوا قتالاً شديداً ولم يكن في الروم أثبت من أصحاب السلاسل فإنهم ثبتوا في أماكنهم يمنعون من أتاهم، وأما الرماة وهم مائة ألف رام فكانوا إذا رشقوا سهامهم نحو العرب يسترون الشمس، فلولا النصر والمعونة من الله لكان المسلمون هلكوا وانفصل المسلمون فرحين مستبشرين والمشركون قد هلك أكثرهم وبرز علج من أعلاج الروم كأنه نخلة باسقة وعليه درع مذهب وعلى رأسه بيضة مذهبة وعليها صليب من ذهب مرصع بالجوهر وهو راكب على شهباء وعليه زرد من حديد وبيده رمح، فجال وأشهر نفسه وسأل البراز، فنظر المسلمون إلى عظم خلقته وهول جثته فجعلوا ينظرون إليه. فقال أبو عبيدة: لا يهولنكم ما ترون من خلقته فكم رأيتم من هو عظيم خلقة ولا قلب له فمن له منكم يخرج إليه واستعينوا بالله عليه.

فخرج إليه عبد من عبيد العرب وبيده سيفه وحجفته وهو راجل، فلما أراد أن يدنو من العلج صاح به مولاه ذو الكلاع الحميري، فلما رجع خرج إليه ذو الكلاع وجالٍ عليه وكان ذو الكلاع من أهل الشدة والبأس فتواقعا وكل منهما رامح فتطاعنا طعناً شديداً أشد من الجمر، ثم إنهما تجاذبا سيفيهما والتقيا فضربٍ ذو الكلاع العلج ضربة وضرب العلج ضربة، وكان سيف العلج قاطعاً وساعده قوياً فقطع سيفه درقة ذي الكلاع ودرعه وما تحته من الثياب ووصلت الضربة إلى عضده الأيسر فجرحته جرحاً بليغاً وثقلت يده. فلما نظر ذو الكلاع إلى ما لحقه من العلج عطف بجواده يريد المسلمين ونظر العلج إلى ذي الكلاع سابقاً فلم يلحقه حتى لحق بالمسلمين فأتى قومه والدم يفور من جرحه، فاجتمع فرسان قومه فقال لهم: يا فرسان

حمير إياكم أن تتكلوا في قتالكم على السلاح ومنعته ولكن اتكلوا في قتالكم على الله ﷻ. قالوا: وكيف ذلك أيها السيد؟ قال: لأني رددت عبدي عن القتال شفقة عليه إذ ليس معه لأمة حرب وقلت: إني أفرس منه وأجود عدة ولأمة، فصنع بي هذا الأغلف ما ترون! والله ما لحقني قبلها في حرب مثلها قط فشدوا جرحه ووقف مكانه.

ثم إنه صاح بقومه: يا رجال حمير إن كان سيدكم قد رجع كلالاً فمن منكم يأخذ بثأره؟ فانتدب فارس من فرسان حمير وعليه صبائغ اليمن من الأبراد والحبر كأنه جمرة نار وحمل نحو العلج مصمصماً وجال جولة عظيمة وطعنه طعنة أثبتها في صدره فأرداه قتيلاً وعجل الله بروحه إلى النار، فهمَّ الحميري أن ينزل عن جواده ويأخذ سلبه فحمل عليه كردوس من الروم ليكشفوه عنه فردهم الحميري صاغرين، ثم رجع إليه وأخذ سلبه وأقبل به على أبي عبيدة فأعطاه إياه. فدفع السلب إلى قومه ورجع إلى مقامه في القتال، فخرج إليه آخر فقتله، وآخر فقتله، فخرج إليه علج رابع فقتل الحميري ونزل ليأخذ سلب الحميري فرماه رجل من رماة الأنصار بنبلة فوضعها في لبته فجندله صريعاً وعجل الله بروحه إلى النار.

فانقلبت الروم على وجوهها وهابوا جميع المسلمين، وكان ذلك البطريق الذي قتل بالنبلة من عظمائهم ويقال إنه كان صاحب نابلس فصاح بهم ماهان وسكنهم عن اضطرابهم وخرج إلى القتال ملك اللان واسمه مريوس وعليه لأمة الملوك وعليه ديباجة وفي وسطه منطقة مرصعة بالجوهر فجال بين الصفين وشهر نفسه وقال: أنا ملك اللان فلا يبرز لي إلا أميركم، فخرج إليه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ وبيده لواؤه وعليه درع من حديد وهو ممنطق بمنطقة من الأديم وهو على جواده. فقال أبو عبيدة: من هذا الذي خرج. قالوا له: شرحبيل بن حسنة فبعث إليه أبو عبيدة يقول له: ادفع الراية لمن شئت واخرج من غير راية، فلما سمع ذلك سلم الراية لرجل من قومه وقال له: قف بها موضعي، فإن قدر عليَّ فسلم الراية إلى الأمير أبي عبيدة يدفعها لمن يريد، وإن رجعت أخذتها فأخذها الرجل وخرج شرحبيل كاتب وحي رسول الله ﷺ نحو ملك اللان وهو يقول:

سأحملُ في اللئام بني الأعادي ... بكل مثقفٍ لدن حداد
فيا بؤساً لقيصر يوم نأتي ... وجمع الروم شرِّد في البلاد

فسمع البطريق شعر شرحبيلٍ فلم يفهمه وكان يفهم قليلاً بالعربية. فقال له: يا عربي ما الذي تقول؟ قال: أقول كلاماً تقوله العرب عند الحرب تشجع به نفوسها وتثق بوعد الله الذي وعد به نبينا. فقال ملك اللان: وما الذي وعدكم به نبيكم؟ فقال شرحبيل: وعدنا الله أن يفتح لنا الأرض في الطول والعرض ونملك الشام ونكون من الظافرين بنصر الله

لنا. قال ملك اللان: إن الله لا ينصر من يبغي وأنتم تبغون علينا وتطلبون ما ليس لكم بحق. فقال شرحبيل: نحن قوم أمرنا الله أن نفعل ذلك والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، وإني أراك تعرف كلام العرب فلو تركت ما أنت عليه من عبادة الصليب ودخلت في دين الإسلام كنت من أهل الجنة وسعدت. فقال ملك اللان: ما أترك دين المسيح أبداً فإن دينه حق. فقال شرحبيل: لا تقل إنه إله معبود ولا تقل صلب وقتل، فإن الله ﷻ أحياه في الأرض ما شاء ثم رفعه إلى السماء ثم قال ملك اللان: لن أرجع عن قولي، ثم استخرج صليباً من عنقه فرفعه ووضعه على عينه وأقبل يستنصر به فغضب شرحبيل من فعاله. فقال له: يا ويلك تباً لك ولمن معك ولمن يقول بقولك، ثم حمل عليه وأخذا في القتال وجالا جولاناً عظيماً فرمقتهما الأبصار وجعل المسلمون يدعون لشرحبيل بالنصر والمعونة، ونظر شرحبيل إلى شدة الكافر ففر بين يديه كأنه منهزم فتبعه عدو الله، فلما علم شرحبيل أنه قد قاربه ثنى عنان جواده فطعنه بقناته يريد أن يجعلها في نحره فزاغ المشرك عن الطعنة ونجا منها سالماً، ثم قال: معاشر العرب أنتم لا تدعون الخديعة والمكر! فقال شرحبيل: ويلك أما علمت أن الحرب خدعة والمكر رأسه؟! فقال العلج: فما الذي نفعك من حيلتك؟ قال: فتضاربا حتى انقطع السيفان في أيديهما فاعتنقا معانقة شديدة وكان المشرك أعظم جثة وأشد منعة! وكان شرحبيل نحيف الجسم من كثرة الصيام والقيام؛ فضغط عليه المشرك ضغطة أوجعه بها وهمَّ أن يقتله في سرجه، والفريقان ينظران إليهما! قال ضرار بن الأزور: فداخلني والله الغيظ فقلت في نفسي: ويحك يا ضرار يقتل هذا العلج كاتب وحي رسول الله ﷺ وأنت تنظر إليه فما يمنعك من نصرته؟!

فخرج ضرار نحوهما يسعى على قدميه كالظبية الخمصاء حتى قرب منهما ولا يعلمان به جميعاً وكان في يده خنجر فضرب به العلج من ورائه فأطلع الخنجر من قلبه فسقط العلج قتيلاً وخلص شرحبيل من الضغطة. قال: فلما سقط العلج عن ظهر جواده نزل إليه شرحبيل وسلب ما كان عليه من لأمة حربه، وركب ضرار جواده وانثنى راجعاً هو وشرحبيل نحو المسلمين فهنأ المسلمون شرحبيل وشكروا ضراراً على فعله. وقال: ثم إن شرحبيل أخذ سلب العلج فنازعه ضرار فيه. فقال: السلب لي وأنا قتلته، وقال شرحبيل: أنا آخذ السلب، فأتيا أبا عبيدة فخاف أبو عبيدة أن يحكم بينهما فلا يرضون بحكمه، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: يا أمير المؤمنين إن رجلاً خرج إلى البراز وقاتل علجاً من الأعلاج وبلغ معه الجهد جهيد، فخرج آخر من المسلمين فأعان الرجل وقتل العلج، ولم يسم أبو عبيدة الرجلين فلمن السلب منهما؟ فجاء الجواب من عمر بن الخطاب إن السلب للقاتل فأخذ السلب أبو عبيدة من شرحبيل وأعطاه ضراراً. فقال "ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ".

ولما قتل ضرار ملك اللان غضبت الروم، فخرج فارس شجاع وطلب البراز فخرج إليه الزبير بن العوام ﷺ فقتله وأخذ سلبه وخرج إليه ثان وثالث ورابع فقتلهم وأخذ أسلابهم. فقال خالد لأبي عبيدة: إن الزبير قد تجرد للروم وبذل نفسه لله ولرسوله وأخاف عليه من التعب! فصاح عليه أبو عبيدة وأقسم عليه، فرجع الزبير إلى مقامه. وخرج من الروم بطريق فخرج إليه خالد بن الوليد وكان ملك الروسية فقتله خالد وكان زوج بنت ملك اللان فقوم سلبه وتاجه ومنطقته و صليبه و درعه بخمسة عشر ألفاً. فأخبر ماهان بذلك فغضب وقال: سيدان منا قتلا في يوم واحد وإني أظن أن المسيح لا ينصرنا ثم أمر الرماة أن يرموا عن يد واحدة فرموا سهامهم وأطلقوا نحو المسلمين دفعة واحدة مائة ألف سهم، فكان النشاب يقع في عساكر المسلمين كسقوط البرد من السماء فكثرت الجراح في الناس واعورّ من المسلمين سبعمائة عين فسمى ذلك اليوم "يوم التعوير". وكان ممن أصيب بعينه المغيرة بن شعبة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل التميمي وأبو سفيان صخر بن حرب وراشد بن سعيد وكان الرجل بعد ذلك يلقي الرجل فيقول له: ما الذي أصاب عينك؟ فيقول الآخر: لا تقل مصيبة بل هي محنة من الله. وعظم وقع السهام في عسكر المسلمين حتى ما كنت تسمع إلا من يصيح واعيناه وابصراه واحدقتاه وعظم اضطراب المسلمين من ذلك. فجذبت العرب أعنة خيولها راجعة.

ونظر ماهان اللعين إلى اضطراب جيش المسلمين فحرّض الرماة والروم و صاح برجاله وزحفت المسلسلة نحو المسلمين فهالهم ذلك وحمل جرجير وقناطير وقورين، وقال ماهان: اثبتوا على الحملة وارموا العرب بالنشاب فزادت الرماة في رميها وزحفت المسلسلة بحديدها والبوارق تلمع من أكف الرجال كمقاييس النيران والحرب قائمة على ساق، وأخذ المسلمون على أنفسهم إشفاقاً مما نزل بهم وو صل إليهم من قلع الأحداق، قال عباد بن عامر: فنظرت إلى جيش الشرك وهو نحونا سائر وفرسان المسلمين متأخرة وخيولهم ناكصة. فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم: "اللهم أنزل علينا نصرك الذي نصرتنا به في المواطن كلها"، ثم صحت في رجال حمير تهربون من الجنة إلى النار ما هذا الفرار أما تخافون العار؟! أَمَا أنتم بين يدي الجبار؟! قال: فما أجابني والله أحد كأنَّهم صم لا يسمعون. فقلت: كأن قبيلتك خرست عن الجواب! فجعلت أهتف بقبائل العرب فكل قد شغل بنفسه عن إجابتي! فجعلت أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فما كان غير بعيد حتى نزل النصر من الله. وذلك أن المسلمين قد انقلبوا راجعين نحو تل النساء ولم يثبت غير أصحاب الرايات.

قال عبد الله بن قرط الأسدي: شهدت القتال كله فلم أر قتالاً أشد من يوم التعوير ورجعت الخيل على أذنابها وقاتلت الأمراء بأنفسها والرايات بأيديهم حتى كان أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والمسيب بن نجبة الفزاري وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق والفضل بن العباس يقاتلون قتالاً شديداً قال عبد الله بن قرط: فقلت في نفسي: وكم مقدار ما يقاتل هؤلاء وهم نفر يسير؟! حتى ساعدتنا النساء اللاتي شهدن مع رسول الله ﷺ المشاهد يداوين الجرحى ويسقين الماء ويبرزن إلى القتال، ولم أر امرأة من نساء قريش قاتلت بين يدي رسول الله ﷺ ولا في اليمامة مع خالد مثل ما قاتلت نساء قريشٍ يوم اليرموك حين دهمهنَّ القتال وخالط الرومِ المسلمين فضربنَّ بالسيوف ضرباً وجيعاً، وكان قد انضم النساء المهاجرات لغيرهنَّ وقامت الحرب على ساق! وتنادى النساء بأنسابهنَّ وأمهاتهنَّ وألقابهنَّ، وجعلن يقاتلنَ قتال الموت ويضربن وجوه الخيل بالعمد ويلوحن بالأطفال، وجعلت النساء بعضهنَّ يقاتلنَ المشركين وبعضهنَّ يقاتل المسلمين حتى رجعوا إلى قتال المشركين! وبعضهنَّ يسقي الماء، وبعضهنَّ يشد الجراح.

فبينما هنَّ يقاتلنَ وقد هجمت الرجال؛ إذ انهزمت نساء لخم وجذام وخولانِ فخرجت خولة بنت الأزور وأم حكيمٍ بنت الحارث وسلمى بنت لؤي وجعلن يضربن في وجوههنَّ ورؤوسهنَّ بالعمد ويقلن: اخرجن من بيننا فأنتنَّ توهنَّ جمعنا! فرجعت نساء لخم وجذام يقاتلنَ قتال الموت، وقاتلت أم حكيم بنت الحارث أمام الخيل بالسيف! وما نسمع يومئذ صوت واحدة من النساء غير صوت واعظة تعظ. وأمَّا أم حكيم فإنها جعلت تنادي: يا معاشر العرب احصدوا الغلف بالسيوف. وأمَّا أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما فإنها قرنت عنانها بعنان زوجها الزبير بن العوام ﷺ فما كان يضرب إلا ضربت مثله! فتراجع المسلمون إلى القتال حين رأوا النساء يقاتلنَ قتال الموت! ويقول الرجل لمن يليه: إن لم نقاتل نحن هؤلاء.. وإلا فنحن أحق بالخدور من النساء! فلله در نساء قريش يوم اليرموك.

قال أبو عامر: وحملت خولة بنت الأزور على علج من الأعلاج كان قد حمل علينا فاستقبلته وجعلت تناوشه بالسيف فضربها العلج بسيفه على قصتها فأسال دمها وسقطت إلى الأرض فصاحت عفيرة بنت عفان حين نظرتها صريعة ونادت: فجع والله ضرار في أخته فأخذت رأسها على ركبتها والدم قد صبغ شعرها كالشقائق فقالت لها: كيف تجدك؟ قالت: أنا بخير إن شاء الله تعالى ولكني هالكة لا محالة فهل لك عليَّ بأخي ضرار؟ فقالت عفيرة: يا ابنة الأزور ما رأيته! فقالت خولة: اللهم اجعلني فداء لأخي ولا تفجع به الإسلام.

قالت عفيرة فجهدت أن تقوم معي فلم تقم فحملناها إلى أن أتينا بها موضعها، فلما كان الليل رأيتها وهي تدور تسقي الرجال وكأن ليس لها ألم قط ونظر إليها أخوها والضربة في رأسها. فقال لها: ما بك؟ فقالت: ضربني علج قتلته عفيرة. فقال لها: يا أختاه أبشري بالجنة فقد أخذت لك بثأر الضربة مراراً وقتلت منهم أعداداً. قال: ولم يزل الحرب من أول النهار وكلما قرب الليل يزيد ويشتعل ضرامها، وأبو عبيدة يقاتل برايته والأمراء يفعلون كفعله، إلى أن فصل بينهما الظلام، وقد قتل من الروم يوم التعوير أربعون ألفاً أو يزيدون! ونقل عن خالد أنه انقطع في يده ذلك اليوم تسعة أسياف ولقد أخبرنا عن خالد بن الوليد ممن حضر قتال اليرموك وشاهده قال: كان يعد قتال خالد بمائة رجل من شجعان الرجال.

قال حازم بن معن: وبرز من المشركين في قلب الوقعة أصحاب الديباج والحرير والتجافيف على الخيول الشهب والبلق كأنها من الجبال الراسيات، فلما برزوا غاصوا في القلب وكروا كرة واحدة ورفعوا في وسطهم صليباً من الجوهر وحملت ميمنتهم على ميسرتنا وميسرتهم على ميمنتنا، وقد شردوا إلى النساء والنساء يضربن وجوههن فجعلن يصحن بهم الله لا تغموا الإسلام بهزيمتكم واتقوا ربكم. قال كان بين يدي أبي عبيدة رجل من محرز اسمه نجم بن مفرح وكان من خطباء العصر وأفصح العرب لساناً وأجرئها جناناً وكان رفيع الصوت حسنه جداً فقصده العرب والفصحاء يسمعون ما ينطق به من نظمه ونثره.

.... عن موسى بن عمران اليشكري قال: رأيت نصر بن مازن وهو بجامع النيل يحدث عن وقعة اليرموك قال: ما رد الناس عن الهزيمة بعد قضاء الله إلى نصرة الإسلام إلا غلام رجل من بني محارب يقال له نجم بن مفرح وكان لا يتكلم إلا بالسجع يؤلفه بحسن نظمه ولقد حفظنا منه يوم اليرموك ما نحن نذكره عنه، ولقد بلغني أن البلغاء الفصحاء المتأخرين مثل الأصمعي وأبي عبيدة اللغوي ينسجان على منواله في حسن كلامه فكان من جملة ما وعظ به المسلمين يوم اليرموك وقت هزيمتهم: أيها الناس هذا اليوم له ما بعده وقد عاينتم قربه من بعده ولن تنال الجنة إلا بالصبر على المكاره وتالله لا ينالها من هو للجهاد كاره وينشد:

ولله في عرض السموات جنة ... ولكنها محفوفة بالمكاره

وأعلى الدرجات درجة الشهادة فأرضوا عالم الغيب والشهادة وهذا الجهاد قد قام على ساقه وكسد النفاق في أسواقه وأخفى نفاقه في نفاقه وأنتم أصحاب نبي العصر فأيستم من الثبات والنصر بشروا روح المصطفى بثباتكم وقوموا العزم بصفاء نياتكم

وإياكم أن تولوا الأدبار فتستوجبوا عذاب النار وغضب الجبار، فوالذي قدر الأقدار، وأدار الفلك الدوار، وكل شيء عنده بمقدار لقد تزينت لكم الحور العين بأيديهن أباريق وكأس من معين، فمن طلب دار البقا هان عليه ما يلقى، فحققوا حملتكم تنالوا بغيتكم، واطعنوا الصدور تنالوا الحور، وشرِّعوا الأسنة تنالوا الجنة، واغتنموا الصبر يكتب لكم الأجر، بشِّروا المؤمنين بحسن عملكم، وإياكم أن تضلوا عن سبيلكم، لا توافقوا الكفار في جهنم واعدلوا عن طريق قولهم، ووافقوا من سلف من أسلافكم في فعلهم، واسمعوا ما نزل في القرآن من أجلهم "وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا"، سيروا فقد سبق المفردون، واجتهدوا فقد فاز المجتهدون "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ".

وحمل خالد بن الوليد بعصابة حمراء وهو يفزع الروم باسمه ويقول: أنا خالد بن الوليد! فبرز إليه بطريق يقال له النسطور وعليه الديباج فأقبل يدعو خالداً ويهمهم، وخالد في القتال لا يشعر به ولا يدري ما يقول! فعندما سمعه يرطن عطف عليه فاقتتلا قتالاً شديداً؛ فبينما هما في أشد القتال إذ كبا بخالد الجواد فوقع الفرس على يديه وهوى خالد على أم رأسه فقال الناس: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وخالد يقول: حي حي فعلا البطريق على ظهر خالد في عثرته وقد سقطت قلنسوته من رأسه فصاح: قلنسوتي رحمكم الله فأخذها رجل من قومه من بني مخزوم وناوله إياها فأخذها خالد ولبسها فقيل له فيما بعد: يا أبا سليمان أنت في مثل هذا الحال من القتال وأنت تقول قلنسوتي! فقال خالد: إن رسول الله ﷺ لما حلق رأسه في حجة الوداع أخذت من شعره شعرات. فقال لي: ما تصنع بهؤلاء يا خالد. فقلت: أتبرك بها يا رسول الله وأستعين بها على قتال أعدائي! فقال لي النبي ﷺ: "لا تزال منصوراً ما دامت معك" فجعلتها في مقدمة قلنسوتي فلم ألق جمعاً قط إلا انهزموا ببركة رسول الله ﷺ.

ثم شدها بعصابة حمراء وحمل على النسطور وضربه على عاتقه فأخرج السيف من علائقه! وانحسر من بقي من ملوكهم وكرهوا البراز بعد ذلك! فكان يدعوهم إلى البراز فلا يخرج إليه أحد، ولم يزل يضرب فيهم بسيفه حتى كلَّ فأشفق عليه الحارث بن هشام المخزومي فقال لأبي عبيدة: أيها الأمير لقد قضى خالد ما يجب عليه وأدى السيف حقه فلم لا أمرته أن يريح نفسه قال فمشى أبو عبيدة إليه وجعل يعزم عليه أن لا يتقدم ويسأله أن يريح نفسه. فقال خالد: أيها الأمير: أما والله لأطلبن الشهادة بكل وجه فإن أخطأتني فالله يعلم نيتي وحمل فلم يرجع عن حملته حتى جلاها، وذلك أن كل المسلمين استعفوه في حملته وأقبلوا على القتال من بعد هزيمتهم والنساء أمام الرجال

ولم يزل الحرب بين الفريقين حتى انقلبت الروم على أعقابها وقد قتل منهم ألوف عديدة، وأما أصحاب السلاسل فانحطم أكثرهم ووطئتهم الخيل بحوافرها ولم يزل القتال بينهم حتى مالت الشمس بغروبها وانفصل الجمعان وقد جرت الدماء بينهم وفرشت الأرض بالقتلى والجراح فاشية في الجمعين لكن في الروم أكثر ورجع كل قوم إلى إصلاح شأنهم ومداواة جرحاهم.

وأما النساء فأصلحن الطعام وشددن الجروح وداوين السقام، ولم يقل أبو عبيدة لأحد من المسلمين من يكون الليلة على حرس المسلمين لما عندهم من التعب بل إنه تولى الحرس بنفسه ومعه جماعة من المسلمين، قال فبينما هو يدور إذ رأى فارسين قد لقياه وهما يدوران بدورانه فكلما قال: لا إله إلا الله قالا محمد رسول الله فقرب أبو عبيدة منهما فإذا هما الزبير بن العوام وزوجته أسماء بنت أبي بكر الصديق فسلم عليهما وقال: يا ابن عمة رسول الله ﷺ ما الذي أخرجكما؟ قال الزبير: نحرس المسلمين، وذلك أن أسماء قالت لي: يا ابن عمة رسول الله ﷺ إن المسلمين مشتغلون بأنفسهم في هذه الليلة عن الحرس بما لحقهم من التعب في الجهاد طول يومهم فهل لك أن تساعدني على حرس المسلمين؟ فأجبتها إلى ذلك. فشكرهما أبو عبيدة وعزم عليهما أن يرجعا فلم يفعلا ولم يزالا كذلك إلى الصباح.

قال الواقدي: .... كان أبو الجعيد رئيساً من رؤساء أهل حمص، فلما اجتمعت الروم على المسلمين في اليرموك دخلوا على حمص ونزلوا في بلدة تسمى الزراعة، وكان أبو الجعيد هذا قد جعلها مسكنه لطيب هوائها ومائها وانتقل من حمص إليها فنزل عسكر الروم على الزراعة عنده وكان فيها عرس لأبي الجعيد وزوجته تزف عليه في تلك الليلة. فتكلف أبو الجعيد بضيافة الروم وأكرمهم وأطعمهم وسقاهم الخمر، فلما فرغوا من أمورهم قالوا: هات امرأتك إلينا فأبى ذلك وسبهم فأبوا إلا أخذ العروس، فلما شنّع عليهم بذلك عمدوا إلى العروس وأخذوها كرهاً منه وعبثوا بها بقية ليلتهم. فبكى أبو الجعيد من حزنه ودعا عليهم فقتلوا أولاده، وكان له ولد من زوجة غيرها! فأقبلت أم الفتى فأخذت رأس ولدها في خمارها وأقبلت به إلى مقدم ذلك الجيش ورمت الرأس إليه وشكت حالها، وقالت له: انظر ما صنع أصحابك بولدي فخذ بحقي! فلم يعبأ بكلامها. فقالت له أم الفتى: والله لتنصرن العرب عليكم ورجعت وهي تدعو عليه! فما كان إلا يسير حتى هلكوا في أيدي المسلمين.

فلما كان يوم اليرموك بعدما قتل النسطور أتى أبو الجعيد إلى عساكر المسلمين، وقال لخالد: اعلم أن هذا الجيش النازل بازائكم جيش عظيم ولو سلموا أنفسهم إليكم للقتل لما فرغتم من قتلهم إلا في المدة الطويلة فإن كدتهم لكم في هذه

الليلة مكيدة تظفرون بها عليهم ما ذا تعطوني. قالوا: نعطيك كذا وكذا ولا تؤدي جزية أنت وولدك وأهل بيتك ونكتب لك بذلك عهداً إلى آخر عقبك. فلما استوثق منهم لنفسه مضى إلى الروم وهم لا يعلمون وأتى إلى واد عظيم مملوء ماء فأنزل الروم إلى جانبه، وقال لهم: إن هذا المنزل به العرب وأنا سأكيد لكم العرب بمكيدة يهلكون بها. قال وجعل الناقوصة فيما بين الروم والعرب ولم يعلم أحد من الروم ما عمقها. قال فلما كان يوم التعوير وعلم أبو الجعيد أن النصر للعرب وأن العرب هم المنصورون، جاء أبو الجعيد إلى أبو عبيدة فوجده يطوف تلك الليلة هو وجماعة من المسلمين المهاجرين. فقال لهم: ما قعودكم؟ قالوا: وما نصنع؟ قال: إذا كان ليلة غد فأكثروا من النيران. ثم رجع إلى الروم لينصب عليهم حيلة.

فلما كانت الليلة الثانية أوقد المسلمون أكثر من عشرة آلاف نار، فلما اشتعلت النيران أقبل إليهم أبو الجعيد، فقالوا: قد أشعلنا النيران كما أردت فما بعد ذلك؟ قال: أريد منكم خمسمائة رجل من أبطالكم حتى أشير عليهم بما يصنعون. فاختار من المسلمين خمسمائة رجل من جملتهم ضرار بن الأزور وعياض ورافع وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وغانم بن عبد الله ومثل هؤلاء السادات، فلما اجتمعوا سار بهم أبو الجعيد على غير المخاضة وقصد بهم عسكر الروم، فلما كادوا يخالطونهم أخذ أبو الجعيد منهم رجالاً ودلهم على المخاضة ولم يكن يعلم بها أحد سواه ممن سكن اليرموك وقال لهم: ناوشوهم الحرب، ثم انهزموا ودعوني وإياهم! ففعلوا ذلك وصاحوا فيهم وحملوا ثم انهزموا قدامهم نحو المخاضة، فعند ذلك صاح أبو الجعيد برفيع صوته: يا معاشر الروم دونكم ومن انهزم فهؤلاء المسلمون، قد أوقدوا نيرانهم وعولوا على الحرب. فأقبلت الروم على حال عجلة يظنون أن ذلك حق، فبعضهم ركب جواده عرياناً وبعضهم راجل وساروا في طلب المنهزمين وأبو الجعيد يعدو بين أيديهم إلى أن أوقفهم على الناقوصة وقال لهم: هذه المخاضة دونكم وإياهم فأقبلوا يتساقطون في الماء كتساقط الجراد حتى هلك في الماء ما لا يعد ولا يحصى عدداً ولا يدركه جنان فسمتها العرب "الناقوصة" لنقص الروم.

قال الواقدي: هذا ما جرى للروم، ولا يعلم الأول بما جرى للآخر حتى أصبحوا، فنظروا المسلمين في أماكنهم فعلموا أنهم قد دهموا في الليل وقل عددهم وتبدد شملهم فقال بعضهم لبعض: من كان الصائح في ليلتنا. قال الرجل الذي عبثتم بزوجته وقتلتم ولده وقد أخذ بثأره منكم! فلما أصبح ماهان وعلم الحقيقة وعلم ما نزل بأصحابه علم أنه هالك لا محالة وأن العرب ظافرون عليه، فبعث إلى قورين، فقال: ما ترى أن أصنع وقد ظهرت العرب علينا وإن حملوا علينا حملة لم ينفلت منّا أحد؟!

فهل لك أن تسألهم أن يؤخروا القتال حتى نحتال لخلاص أنفسنا؟ قال قورين: أفعل ذلك. فدعا ماهان برجل من لخم وبعثه إلى المسلمين يقول لهم: اعلموا أن الحرب سجال والدنيا زوال وقد مكرتم بنا فلا تبغوا فالبغي له مصرع وأخروا الحرب عنا يومنا هذا، فإذا كان غد يكون الانفصال بيننا وبينكم. فأقبل اللخمي إلى أبي عبيدة وبلغه الرسالة فهمّ أبو عبيدة أن يجيبهم إلى ذلك فمنعه خالد وقال له: لا تفعل أيها الأمير فما عند القوم خير بعد ذلك. فقال أبو عبيدة: ارجع إلى صاحبك وقل له لا نؤخر عنك القتال وإنّا على عجل من أمرنا! فرجع الرسول إلى ماهان فأعلمه بجواب أبي عبيدة فعظم عليه وكبر لديه وكفر وتجبر وقال: لقد كنت أتربص بنفسي عن العرب أرجو بذلك الصلح فوحق الصليب لا يبرز لهم غيري! ثم صرخ بالروم وأصحاب سرير الملك، ومن كان يتكل عليه في الشدائد وأمرهم أن يأخذوا الأهبة فاستعدوا، وخرج ماهان في مقدمة الجيش والصليب أمامه وإذا بالمسلمين أخذوا مصافهم للقتل.

وذلك أن أبا عبيدة صلى بالمسلمين صلاة الفجر وأمرهم بالسرعة للقتال وأخذوا مواضعهم للحرب ففعلوا وقد أيقنوا أنهم منصورون على عدوهم. وصف أبو عبيدة أصحاب الرايات ووقف هو وخالد في الخيل المعروفة بخيل الزحف وطلعت الشمس وخرج جرجير هو وبعض ملوك الروم ودعا بالبراز وقال: لا يبرز لي إلا أمير العرب! فسمعه أبو عبيدة فسلم الراية إلى خالد، وقال: أنت للراية يا أبا سليمان فإن عدت من قتاله فالراية لي وإن هو قتلني فأمسك رايتك حتى يرى عمر رأيه. فقال خالد: أنا لقتاله دونك! فقال أبو عبيدة: لا.. هو طلبني ولابد لي من الخروج إليه وأنت شريكي في الأجر! فخرج أبو عبيدة وما أحد من المسلمين إلا وهو كاره لذلك فأقبلوا يسألونه فأبى إلا الخروج فتركوه ورأيه، فلما قرب أبو عبيدة من جرجير وعاينه قال له: أنت أمير هذا الجيش؟ فقال أبو عبيدة: أنا ذلك وقد أجبتك إلى ما طلبت من أمر البراز فدونك وعرض الميدان، فإما هزمتك أو قتلتك وأقتل ماهان بعدك. فقال جرجير: أمة الصليب تغلبكم!

وحمل جرجير على أبي عبيدة وحمل أبو عبيدة على جرجير وطال بينهما القتال. وبقي خالد ينظر إلى أبي عبيدة ويدعو له بالسلامة والنصر وجميع المسلمين يدعون له. وفرّ جرجير أمام أبي عبيدة وأخذ في عرض الجيش وطلب في فراره جيش المشركين في الميمنة، وتبعه أبو عبيدة على أثره. فعندها عطف عليه جرجير وخرج كأنه البرق والتقيا بضربتين فكان أبو عبيدة أسبق فوقعت الضربة على عاتق جرجير فخرجت من علائقه! فكبّر عند ذلك أبو عبيدة وكبّر المسلمون! ووقف أبو عبيدة على مصرع جرجير وجعل يتعجب من عظم جثته ولم يأخذ من سلبه شيئاً! فنادى به خالد: لله درك أيها

الأمير ارجع إلى رايتك فقد قضيت ما يجب عليك فلم يرجع أبو عبيدة فأقسم عليه المسلمون أن يرجع فرجع وأخذ الراية من يد خالد ونظر ماهان إلى جرجير فعظم ذلك عليه وكبر لديه لأنه كان ركناً من أركانهم فهم بالهزيمة، ثم قال في نفسه: ماذا يكون عذري عند هرقل ولابد أن أبرز إلى الحرب، فإن قتلت فقد استرحت من العار وإن سلمت كان لي عند الملك عذر أحسن من أن أولي الأدبار! ثم إنه أعلم رجاله أنه يريد المبارزة بنفسه وأخذ عدّته ولبس زينته وخرج كأنه جبل ذهب يلمع ثم جمع إليه البطارقة والقسوس والرهبان، وقال لهم: إن الملك هرقل كان أعلم منكم بهذا الأمر وأنه أراد الصلح فخالفتموه فها أنا أبرز إليهم بنفسي! فتقدم إليه بطريق من بطارقة السرير وكان فيه نسك ودين وكان يعظم الكنائس والرهبان ويتبع ما فرض عليه في الإنجيل وكان يقرب من جرجير في النسب، فلما علم بقتله عظم عليه وقال: وحق الصليب لأبرزن إلى المسلمين وآخذ بالثأر، فإما أن ألحق به وإما أن أقتل قاتله.. ثم قال لماهان: قد تعين عليَّ الجهاد وأنا أؤدي فرض المسيح ولابد لي من المبارزة!

فتركه ماهان فخرج وكان اسمه "جرجيس" وكان عليه درع، وعلى الدرع ثوب حديد متقلد بسيفه ومعه قنطارية وعوَّذته القسوس وبخروه ببخور الكنائس وأقبل إليه راهب عمورية وأعطاه صليباً كان في عنقه وقال: هذا الصليب من أيام المسيح يتوارثه الرهبان ويتمسحون به فهو ينصرك! فأخذه جرجيس ونادى: البراز بكلام عربي فصيح حتى ظنَّ الناس أنه عربي من المتنصرة، فخرج إليه ضرار بن الأزور كأنه شعلة نار، فلما قاربه ونظر إليه وإلى عظم جثته ندم على خروجه بالعدة التي أثقلته فقال في نفسه: وما عسى يغني هذا اللباس إذا حضر الأجل ثم رجع مولياً فظن الناس أنه ولى فزعاً.

فقال قائل منهم: إن ضراراً قد انهزم من العلج وما ضبط عنه قط أنه انهزم وهو لا يكلم أحداً حتى صار إلى خيمته ونزع ثيابه وبقي بالسراويل وأخذ قوسه وتقلد بسيفه وحجفته وعاد إلى الميدان كأنه الظبية الخمصاء فوجد مالكاً النخعي قد سبقه إلى البطريق وكان مالك من الخطَّاط إذا ركب الجواد تسحب رجلاه على الأرض فنظر ضرار فإذا بمالك ينادي العلج تقدم يا عدو الله يا عابد الصليب إلى الرجل النجيب ناصر محمد الحبيب، فلم يجبه العلج لما داخله من الخوف منه! فجال عليه وهمَّ أن يطعنه فلم يجد للطعنة مكاناً لما عليه من الحديد فقصد جواده وطعنه في خاصرته فأطلع السنان يلمع من الجانب الآخر فنفر الجواد من حرارة الطعنة وهمَّ مالك أن يخرج الرمح فلم يقدر لأنه قد اشتبك في ضلوع الجواد، وهو على ظهره لم يقدر أن يتحرك لأنه مزرر في ظهر الجواد بزنانير إلى سرجه، فنظر المسلمون إلى ضرار وقد أسرع إليه مثل الظبية حتى وصل إليه وضربه بسيفه على هامته فشطرها نصفين وأخذ

سلبه فأتاه مالك وقال: ما هذا يا ضرار تشاركني في صيدي!! فقال: ما أنا بشريكك، وإنما أنا صاحب السلب وهو لي. فقال مالك: أنا قتلت جواده. فقال ضرار: "رب ساع لقاعد آكل غير حامل" فتبسم مالك، وقال: خذ صيدك هنَّاك الله به. قال ضرار: إنما أنا مازح في كلامي خذه إليك فوالله ما آخذ منه شيئاً وهو لك وأنت أحق به مني! ثم انتزع سلب العلج وحمله على عاتقه وما كاد أن يمشي به وهو يتصبب عرقاً. قال زهير بن عابد: ولقد رأيته وهو يسير به وهو راجل ومالك فارس حتى طرحه في رحل مالك. فقال أبو عبيدة: بأبي وأمي والله قوم وهبوا أنفسهم لله وما يريدون الدنيا!

فلما قتل البطريق قُصَّ جناح ماهان فصاح بقومه وجمعهم إليه وقال لهم: اسمعوا يا أصحاب الملك وبلِّغوه عنِّي أنِّي ما تركت جهدي في نصرة هذا الدين وحاميت عن الملك وقاتلت عن نعمته وما أقدر أن أغالب رب السماء، لأنه قد نصر العرب علينا وملكهم بلدنا والآن ما لي وجه أرجع به إلى الملك حتى أخرج إلى الحرب وأبرز إلى مقام الطعن والضرب وعزمت أن أسلم الصليب إلى أحدكم وأبرز إلى قتال المسلمين، فإن قتلت فقد استرحت من العار ومن توبيخ الملك لي، وإن رزقت النصر وأثرت في المسلمين أثراً ورجعت سالماً علم الملك أني لم أقصر عن نصرته! فقالوا: أيها الملك لا تخرج إلى الحرب حتى نخرج نحن إلى القتال قبلك فإذا قتلنا فافعل بعدنا ما شئت. فحلف ماهان بالكنائس الأربع لا يبرز أحد قبله، فلما حلف أمسكوا عنه وعن مراجعته، ثم إنه دعا بابن له فدفع إليه الصليب وقال: قف مكاني! وقدَّم لماهان عدة فأفرغت عليه.

قال الواقدي: بلغنا أنَّ عدته التي خرج بها إلى الحرب تقوَّمت بستين ألف دينار لأن جميعها كان مرصعاً بالجوهر! فلما عزم علي الخروج تقدم له راهب من الرهبان، فقال: أيها الملك ما أرى لك إلى البراز سبيلاً ولا أحبه لك. قال: ولم ذلك؟ قال: لأني رأيت لك رؤيا فارجع ودع غيرك يبرز. فقال ماهان: لست أفعل والقتل أحب إليَّ من العار! فبخَّروه وودعوه وخرج ماهان إلى القتال وهو كأنه جبل ذهب يبرق وأقبل حتى وقف بين الصفين ودعا إلى البراز وخوَّف باسمه فكان أول من عرفه خالد بن الوليد فقال: هذا ماهان! هذا صاحب القوم قد خرج، ووالله ما عندهم شيء من الخير. وماهان يرعب باسمه فخرج إليه غلام من الأوس وقال: والله أنا مشتاق إلى الجنة وحمل ماهان وبيده عمود من ذهب كان تحت فخذه فضرب به الغلام فقتله. قال أبو هريرة ﷺ: فنظرت إلى الغلام عندما سقط وهو يشير بإصبعه نحو السماء ولم يهله ما لحقه فعلمت أن ذلك لفرحه بما عاين من الحور العين.

فجال ماهان على مصرعه وقوي قلبه ودعا إلى البراز فسارع المسلمون إليه فكل يقول: "اللهم اجعل قتله على يدي"، وكان أول من برز مالك النخعي ﷺ وساواه في الميدان فابتدر مالك ماهان بالكلام وقال له: أيها العلج الأغلف لا تغتر بمن قتلته، وإنما اشتاق صاحبنا إلى لقاء ربه وما منا إلا من هو مشتاق إلى الجنة، فإن أردت مجاورتنا في جنات النعيم فانطق بكلمة الشهادة أو أداء الجزية وإلا فأنت هالك لا محالة. فقال له ماهان: أنت صاحبي خالد بن الوليد؟ قال: لا أنا مالك النخعي صاحب رسول الله ﷺ! فقال ماهان: لابد لي من الحرب ثم حمل على مالك وكان من أهل الشجاعة فاجتهدا في القتال فأخرج ماهان عموده وضرب به مالكاً على البيضة التي على رأسه فغاصت في جبهة مالك فشترت عينيه فمن ذلك اليوم سمي بـ"الأشتر" فلما رأى مالك ما نزل به من ضربة ماهان عزم على الرجوع ثم فكر فيما عزم عليه فدبر نفسه، وعلم أن الله ناصره والدم فائر من جبهته وعدو الله يظنُّ أنه قتل مالكاً وهو ينظره متى يقع عن ظهر فرسه وإذا بمالك قد حمل وأخذته أصوات المسلمين: "يا مالك استعن بالله يعينك على قرينك" قال مالك: فاستعنت بالله عليه وصليت على رسول الله ﷺ وضربته ضربة عظيمة فقطع سيفي فيه قطعاً غير موهن فعلمت أن الأجل حصين، فلما أحس ماهان بالضربة ولَّى ودخل في عسكره.

قال الواقدي: ولما ولَّى ماهان بين يدي مالك الأشتر منهزماً صاح خالد بالمسلمين: يا أهل النصر والبأس احملوا على القوم ماداموا في دهشتهم! ثم حمل خالد ومن معه من جيشه وحمل كل الأمراء بمن معهم وتبعهم المسلمون بالتهليل والتكبير فصبرت لهم الروم بعض الصبر، حتى إذا غابت الشمس وأظلم الأفق انكشف الروم منهزمين بين أيديهم وتبعهم المسلمون يأسرون ويقتلون كيف شاءوا! فقتلوا منهم زهاء من مائة ألف وأسروا مثلها وغرق في الناقوصة منهم مثلها وأمم لا تحصى وتفرق منهم في الجبال والأودية وخيول المسلمين من ورائهم يقتلون ويأسرون ويأتون من الجبال بالأسارى ولم يزل المسلمون يقتلون ويأسرون إلى أن راق الليل. فقال أبو عبيدة: اتركوهم إلى الصباح فتراجعت المسلمون وقد امتلأت أيديهم من الغنائم والسرادقات وآنية الذهب والفضة والزلازل والنمارق والطنافس. ووكَّل أبو عبيدة رجالاً من المسلمين بجمع الغنائم، وبات المسلمون فرحين بنصر الله حتى أصبحوا، فإذا ليس للروم خبر، ووقع أكثرهم في الناقوصة في الليل.

.... عن حامد بن مجيد قال: أراد أبو عبيدة أن يحصي عدد المشركين فلم يقدر أن يحصي ذلك فأمر بقطع القصب من الوادي وجعل على كل قتيل قصبة، ثم عدوا القصب فإذا القتلى مائة ألف وخمسة آلاف والأسارى أربعون ألفاً غير من غرق

في الناقوصة وقتل من المسلمين أربعة آلاف ووجد أبو عبيدة رؤوساً في اليرموك فلم يعلم أهم من العرب أم من الروم! قال: ثم إنه صلى على قتلى المسلمين وسار في طلبهم إلى الجبال والأودية وإذا هم براع قد استقبلهم فسألوه هل مر بك أحد من الروم. قال: نعم مر بي بطريق ومعه زهاء من أربعين ألفاً.

قال الواقدي: وكان ذلك ماهان -لعنه الله- فاتبعهم خالد بن الوليد وجعل يقفو أثرهم ومعه عسكر الزحف فأدركهم على دمشق، ولما أشرف عليهم كبر وكبر المسلمون وحملوا ووضعوا فيهم السيف فقتلوا مقتلة عظيمة، وكان ماهان قد ترجل عن جواده، وقيل إنه ترجل ينكر نفسه ويسلم من القتل فأتاه رجل من المسلمين فحامى عن نفسه فقتله الرجل، وكان قاتله النعمان بن جهلة الأزدي وعاصم بن خوال اليربوعي وقد اختلفوا في أيهما قتل ماهان.

وخرج أهل دمشق إلى لقاء خالد وقالوا له: نحن على عهدنا الذي كان بيننا وبينكم. قال خالد: أنتم على عهدكم! ومضى في طلب الروم يقتلهم حيث وجدوهم حتى انتهى إلى ثنية العقاب وأقام تحتها يوماً، ثم مضى إلى حمص ونزل بها وبلغ ذلك أبا عبيدة فسار حتى لحق به فيمن معه. والأمراء في طلب الروم من كل جهة من الشام ثم اجتمعوا وعادوا إلى دمشق وجمع أبو عبيدة الغنائم وأخرج منها الخمس وكتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ كتاب البشارة والفتح: بسم الله الرحمن الرحيم وصلوات الله على نبيه المصطفى ورسوله المجتبى ﷺ، من أبي عبيدة عامر بن الجراح: أما بعد فأنا أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأشكره على ما أولانا من النعم وخصنا به من كرمه ببركات نبي الرحمة وشفيع الأمة ﷺ، واعلم يا أمير المؤمنين أني نزلت اليرموك ونزل ماهان مقدم جيوش الروم بالقرب منا ولم ير المسلمون أكثر جمعاً منه فأقصى الله تلك الجموع ونصرنا عليهم بمنه وكرمه وفضله فقتلنا منهم زهاء من مائة ألف وخمسة آلاف وأسرنا منهم أربعين ألفاً واستشهد من المسلمين أربعة آلاف ختم الله لهم بالشهادة ووجدت في المعركة رؤوساً مقطوعة لم أعرفها فصليت عليها ودفنتها وقتل ماهان على دمشق قتله عاصم بن خوال، وقد كان قبل وقعة الانفصال نصب عليهم رجل منهم يقال له أبو الجعيد من أهل حمص حيلة فألقاهم في موضع يقال له الناقوصة فغرق منهم ما لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، وأما من قتل من المشركين في الأودية والجبال من المنهزمين وغيرهم وأخذت عدتهم فتسعون ألفاً! وقد ملكنا أموالهم وخيولهم وحصونهم وبلادهم وكتبنا إليك هذا الكتاب بعد الفتح ونزلنا في دمشق والسلام عليه ورحمة الله وبركاته وعلى جميع المسلمين. وطوى الكتاب وختمه ودعا بحذيفة بن اليمان ودفعه إليه وضم إليه عشرة من المهاجرين والأنصار وقال لهم: سيروا

بكتاب الفتح والبشرى إلى أمير المؤمنين وبشروه بذلك وأجركم على الله! فأخذ حذيفة الكتاب وسار هو والعشرة من وقتهم وساعتهم يجدون السير ليلاً ونهاراً حتى قربوا من المدينة.

.... قال عبد الله بن عوف المالكي عن أبيه قال: لما هزم الله الروم في اليرموك وكان من أمرهم ما كان رأى عمر بن الخطاب ليلة هزيمة الروم رسول الله ﷺ جالساً في الروضة ومعه أبو بكر الصديق ﷺ، وكان عمر يسلم عليهما ويقول: يا رسول الله إن قلبي مشغول على المسلمين وما يصنع الله بهم، وقد بلغني أن الروم في ألف ألف وستين ألفاً. فقال: يا عمر أبشر فقد فتح الله على المسلمين وقد انهزم عدوهم وقتل كذا وكذا، ثم تلا رسول الله ﷺ "تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ".

فلما كان من الغد صلى عمر بالناس صلاة الفجر وأعلم الناس بما رأى في منامه. فاستبشر المسلمون وفرحوا وعلموا أن الشيطان لا يتمثل بالنبي ﷺ وأرخوا تلك الليلة فكانت كما ذكره النبي ﷺ فسجد عمر لله شكراً! ووصله الكتاب فقرأه على الناس فارتفعت أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير. ثم قال: يا حذيفة فهل قسم أبو عبيدة الغنائم؟ فقال: يا أمير المؤمنين هو منتظر كتابك وأمرك. فدعا عمر بدواة وقرطاس وكتب إلى أبي عبيدة كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عامله بالشام سلام عليك. أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ وقد فرحت بما فتح الله على المسلمين من نصرتهم وانهزام عدوهم، فإذا وصل إليك كتابي هذا فاقسم الغنيمة بين المسلمين وفضل أهل السبق وأعط كل ذي حق حقه واحفظ المسلمين واكلأهم واشكرهم على صبرهم وفعالهم، وأقم بموضعك حتى يأتيك أمري، والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته، وطوى الكتاب وسلمه لحذيفة بن اليمان فأخذه حذيفة وسار حتى ورد على أبي عبيدة فوجده على دمشق، فسلم عليه وعلى المسلمين وناوله الكتاب.

فلما قرأه على المسلمين قسم الغنائم فأصاب الفارس أربعة وعشرون ألف مثقال من النصب الأحمر والراجل ثمانية آلاف وكذلك من الفضة وأعطى الفرس الهجين سهماً والفرس العتيق سهمين وألحق القادمين على الخيل بالعراب، فلما فعل أبو عبيدة ذلك. قال أصحاب الحمر: ألحقنا بالعراب. فقال أبو عبيدة: إني قسمت عليكم بما قسم النبي ﷺ الغنيمة بين أصحابه فلم يقبلوا قوله فكتب إلى عمر بذلك يعلمه باختلاف الناس في الخيل والهجين والعراب فكتب إليه عمر يقول: أما بعد فقد

عملت بسنة رسول الله ﷺ ولم تتعد حكمه، فأعط الفرس العربي سهمين والهجين سهماً، واعلم أن رسول الله ﷺ عرب العربين وهجن الهجين يوم خيبر فجعل للهجين سهماً وللعربي سهمين، فلما ورد الكتاب على أبي عبيدة وقرأه على المسلمين. قال: ما أراد أبو عبيدة أن يحقر رجلاً منكم، ولكن تبعت سنة رسول الله ﷺ.

قال الواقدي: فلما قسم أبو عبيدة الغنائم على المسلمين قال له خالد بن الوليد: إن رجلاً من المسلمين تشفَّع بي إليك أن تلحق فرسه الهجين بفرسه العتيق العربي وتعطيه سهمين. فأبى أبو عبيدة وقال: والله إنَّ سفَّ التراب أحب إليَّ من ذلك. وروى عثمان أن ابن الزبير قال: شهدت جدي الزبير بن العوام يوم اليرموك ومعه فرسان يتعقب عليهما للقتال ركب هذا يوماً وهذا يوماً، فلما كان وقت قسم الغنائم أعطاه أبو عبيدة ثلاثة أسهم له سهم ولفرسه سهمان. فقال الزبير: أما تصنع بي كما صنع بي رسول الله ﷺ يوم خيبر كان معي فرسان فأسهمني رسول الله ﷺ يوم خيبر خمسة أسهم لفرسي أربعة وأعطاني سهماً، وقال المقداد بن عمرو: كنت أنا وأنت يوم بدر ومعنا فرسان لا غيرهما فأعطى رسول الله ﷺ سهمين سهمين للفرسين، قال أبو عبيدة: إنك لصادق يا مقداد أنا أتبع فعل رسول الله ﷺ وأعطي الزبير وأقبل جابر بن عبد الله الأنصاري فشهد عند أبي عبيدة أن رسول الله ﷺ أعطى الزبير يوم خيبر خمسة أسهم، فلما فعل ذلك أتى رجال من رجال العرب لكل واحد منهم أربعة أفراس وخمسة أفراس فقالوا: ألحقنا بالزبير قال فاستأذن عمر في ذلك. فقال: صدق الزبير إن رسول الله ﷺ أعطاه يوم خيبر خمسة أسهم فلا تعط غيره مثله.

وروى عروة عن أبي الزبير قال: لقي الزبير غلاماً كان قد وقع بيده يوم غنيمة عمان فهرب منه، فلما كان يوم اليرموك قبل قسم الغنائم عرفه فقبض عليه وأخذ بيده فقال له الموكل على حفظ الغنيمة: لست أدعك فبينما هما في المحاورة إذ أقبل أبو عبيدة، فقال: ما بالكما. فقال الزبير: أيها الأمير هذا غلامي و صل إلي من غنيمة عمان وهرب مني وقد رأيته الآن فلابد لي منه فقال أبو عبيدة: صدق ابن عمة رسول الله ﷺ هو له وأنا سلمته له من غنيمة عمان فسلمه إليه فأخذه الزبير.

قال زيد المرادي: هربت منا جارية إلى العدو وظفرنا بها يوم اليرموك في قسم الغنائم فكلمنا أبا عبيدة فيها فكتب إلى عمر فرد إليه الجواب، إن كانت جارية حربية ففيها السهام وإلا فلا سبيل إليها وإن كان لم تجر فيها السهام فردُّوها فكأن القوم لا يرضون بهذا من أبي عبيدة. فقال أبو عبيدة: والله الذي لا إله إلا هو هذا كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يحكم بما أمرتكم! فقبل قوله ودفع الجارية إلى القسم.

قال الواقدي: لما هزم الله الروم باليرموك على يد أ صحاب رسول الله ﷺ وبلغ الخبر إلى هرقل بهزيمة جيشه وقد قتل ماهان وجرجير وغيرهما، قال: علمت أن الأمر يصل إلى هنا! ثم أقام ينتظر ما يجري من المسلمين.

ذكر فتـــح مدينـــة بيت المقـــدس

قال الواقدي: وأما ما كان من المسلمين فإنهم أقاموا على دمشق شهراً فجمع أبو عبيدة أمراء المسلمين وقال لهم: أ شيروا علي بما أ صنع وأين أتوجه؟ فاتفق رأي المسلمين إما إلى قيسارية وإما إلى بيت المقدس. فقال: فما الذي ترون منهما. فقالوا: أنت الرجل الأمين وما تسير إلى موضع إلا ونحن معك. فقال معا ذ بن جبل: اكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فحيث أمرك فسر وا ستعن بالله. فقال: أ صبت الرأي يا معا ذ. فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعلمه أنه قد عزم على قيسارية أو إلى بيت المقدس وأنه منتظر ما يأمره به والسلام، وأرسل الكتاب مع عرفجة بن نا صح النخعي وأمره بالمسير فسار حتى و صل المدينة فأرسل الكتاب لعمر ﷺ فقرأه على المسلمين وا ستشارهم في الأمر.

فقال علي ﷺ: يا أمير المؤمنين مر صاحبك أن يصير إلى بيت المقدس فيحدقوا بها ويقاتلوا أهلها فهو خير الرأي وأكبره، وإذا فتحت بيت المقدس فا صرف جيشه إلى قيسارية فإنها تفتح بعدها إن شاء الله تعالى كذا أخبرني رسول الله ﷺ. قال: صدقت يا أبا الحسن فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عامله بالشام أبي عبيدة. أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأ صلي على نبيه، وقد ورد علي كتابك وفيه تستشيرني في أي ناحية تتوجه إليها، وقد أ شار ابن عم رسول الله ﷺ بالسير إلى بيت المقدس فإن الله ﷻ يفتحها على يديك والسلام عليك، ثم طوى الكتاب و دفعه إلى عرفجة وأمره أن يعجل بالمسير.

فسار حتى قدم على أبي عبيدة فوجده على الجابية. فدفع الكتاب إليه فقرأه على المسلمين ففرحوا بمسيرهم إلى بيت المقدس، فعندها دعا أبو عبيدة بخالد بن الوليد وعقد له راية وضم إليه خمسة آلاف فارس من خيل الزحف وسرحه إلى بيت المقدس، ثم دعا بيزيد بن أبي سفيان وعقد له راية على خمسة آلاف وأمره أن يلحق بخالد إلى بيت المقدس، وقال له: يا ابن أبي سفيان ما علمتك إلا نا صحاً، فإذا أ شرفت على بلد إيلياء فارفعوا أ صواتكم بالتهليل والتكبير وا سألوا الله بجاه نبيه ومن سكنها من الأنبياء والصالحين أن يسهل فتحها على أيدي المسلمين، فأخذ يزيد الراية و سار يريد بيت المقدس. ثم دعا شرحبيل بن حسنة كاتب وحي النبي ﷺ وعقد له

راية وضم إليه خمسة آلاف فارس من أهل اليمن وقال له: سر بمن معك حتى تقدم بيت المقدس وانزل بعسكرك عليها ولا تختلط بعسكر من تقدم قبلك، ثم دعا بالمرقال بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وضم إليه خمسة آلاف فارس مع جمع من المسلمين وسرحه على أثر شرحبيل بن حسنة وقال له: انزل على حصنها وأنت منعزل عن أصحابك، ثم عقد راية خامسة فسلمها للمسيب بن نجبة الفزاري وأمره أن يلحق بأصحابه وضم إليه خمسة آلاف فارس من النخع وغيرهم من القبائل، وعقد راية سادسة وسلمها إلى قيس بن هبيرة المرادي وضم إليه خمسة آلاف فارس وسيره وراءهم، ثم عقد راية سابعة وسلمها إلى عروة بن مهلهل بن زيد الخيل وضم إليه خمسة آلاف فارسٍ وسيره وراءهم، فكان جملة من سرحه أبو عبيدة إلى بيت المقدس خمسة وثلاثين ألفاً وسارت السبعة أمراء في سبعة أيام في كل يوم أمير، وذلك كله يرهب به أعداء الله فبقي كل يوم ينزل عليهم أمير بجيشه.

فكان أول من طلع عليهم بالراية خالد بن الوليد، فلما أشرف عليهم كبر وكبر أصحابه، فلما سمع أهل بيت المقدس ضجيج أصواتهم انزعجوا وتزعزعت قلوبهم وصعدوا على أسوار بلدهم، فلما نظروا إلى قلة المسلمين استحقروهم وظنوا أن ذلك جميع المسلمين فنزل خالد ومن معه مما يلي باب أريحاء، وأقبل في اليوم الثاني يزيد بن أبي سفيان، وفي اليوم الثالث شرحبيل بن حسنة، وأقبل في اليوم الرابع المرقال، وأقبل في اليوم الخامس المسيب بن نجبة، وأقبل في اليوم السادس قيس بن هبيرة فنزل، وأقبل في اليوم السابع عروة بن مهلهل بن زيد الخيل فنزل مما يلي طرف الرملة. قال عبد الله بن عامر بن ربيعة الغطفاني: ما نزل أحد من المسلمين على بيت المقدس إلا وكبر وصلى ما قدره الله عليه ودعا بالنصر والظفر على الأعداء، ويقال إن خالداً كان هو وأبو عبيدة.

فلما مضى العسكر أقام أبو عبيدة وخالد وبقية المسلمين والذراري والسواد والغنم وما أفاء الله على المسلمين من المواشي والأموال فلم يبرحوا من مكانهمٍ. قال: وأقام العسكر على بيت المقدس ثلاثة أيام لا يبارزوهم حرباً ولا ينظرون رسولاً يأتي إليهم ولا يكلمهم أحد من أهلها! إلا أنهم قد حصّنوا أسوارهم بالمجانيق والطوارق والسيوف والدرق والجواشن والزرد الفاخرة. قال المسيب بن نجبة الفزاري: ما نزلنا ببلد من بلاد الشام فرأينا أكثر زينة ولا أحسن عدة من بيت المقدس! وما نزلنا بقوم إلا وتضعضعوا لنا وداخلهم الهلع وأخذتهم الهيبة إلا أهل بيت المقدس نزلنا بإزائهم ثلاثة أيام فلم يكلمنا منهم أحد ولا ينطقون غير أن حارسهم شديد وعدتهم كاملة! فلما كان في اليوم الرابع قال رجل من البادية لشرحبيل بن حسنة: أيها الأمير كأن هؤلاء القوم صم فلا يسمعون أو بكم فلا ينطقون أو عمي فلا يبصرون ازحفوا بنا إليهم.

فلما كان اليوم الخامس وقد صلى المسلمون صلاة الفجر كان أول من ركب من المسلمين من الأمراء لسؤال أهل بيت المقدس يزيد بن أبي سفيان فشهر سلاحه وجعل يدنو من سورهم وقد أخذ معه ترجماناً يبلغه عنهم ما يقولون، فوقف بازاء سورهم بحيث يسمعون خطابه وهم صامتون. فقال لترجمانه: قل لهم أمير العرب يقول لكم: ماذا تقولون في إجابة الدعوة إلى الإسلام والحق وكلمة الإخلاص وهي كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى يغفر لكم ربنا ما سلف من ذنوبكم وتحقنون بها دماءكم، وإن أبيتم ولم تجيبونا فصالحوا عن بلدكم كما صالح غيركم ممن هو أعظم منكم عدة، وأشد منكم، وإن أبيتم هاتين الحالتين حلَّ بكم البوار وكان مصيركم إلى النار.

فتقدم الترجمان إليهم وقال لهم: من المخاطب عنكم؟ فكلمه قس من القساوسة عليه مدارع الشعر وقال: أنا المخاطب عنهم ماذا تريد؟ فقال الترجمان: إن هذا الأمير يقول كذا وكذا ويدعوكم إلى إحدى هذه الخصال الثلاث: إما الدخول في الإسلام، أو أداء الجزية، وإما السيف. فبلغ القس من وراءه ما قال الترجمان فضجوا بكلمة كفرهم وقالوا: لا نرجع عن دين العزِّ والقبول وأن قتلنا أهون علينا من ذلك فبلَّغ الترجمان ذلك ليزيد. فمشى إلى الأمراء وأخبرهم بجواب القوم. وقال لهم: ما انتظاركم بهم؟! فقالوا: إن الأمير أبا عبيدة ما أمرنا بالقتال ولا بحرب القوم بل بالنزول عليهم ولكن نكتب إلى أمين الأمة فإن أمرنا بالزحف زحفناً، فكتب يزيد بن أبي سفيان إلى أبي عبيدة يعلمه بما كان من جواب القوم فما الذي تأمر؟ فكتب إليهم أبو عبيدة يأمرهم بالزحف وأنه واصل في أثر الكتاب، فلما وقف المسلمون على كتاب أبي عبيدة فرحوا واستبشروا وباتوا ينتظرون الصباح.

قال الواقدي: ولقد بلغني أن المسلمين باتوا تلك الليلة كأنهم ينتظرون قادماً يقدم عليهم من شدة فرحهم بقتال أهل بيت المقدس، وكل أمير يريد أن يفتح على يديه فيتمتع بالصلاة فيه والنظر إلى آثار الأنبياء، فلما أضاء الفجر أذن وصلت الناس صلاة الفجر فقرأ يزيد لأصحابه "يَـٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ"، فيقال إن الأمراء أجرى الله على ألسنتهم في تلك الصلاة أن قرأوا هذه الآية كأنهم على ميعاد واحد، فلما فرغوا من الصلاة نادوا: النفير النفير يا خيل الله اركبي. فأول من برز للقتال حمير ورجال اليمن وبرز المسلمون للحرب كأنهم أسود ضارية، ونظر إليهم أهل بيت المقدس وقد انشرحوا لقتالهم فنشطوا ورشقوا المسلمين بالنشاب فكانت كالجراد، فجعل المسلمون يتلقونها بدرقهم فلم ترای الحرب بينهم من الغد إلى الغروب يقاتلون قتالاً شديداً، ولم يظهروا فزعاً ولا رعباً ولم يطمعوهم في بلدهم!

فلما غربت الشمس رجع الناس و صلى المسلمون ما فرض الله عليهم وأخذوا في إ صلاح شأنهم وعشائهم، فلما فرغوا من ذلك أوقدوا النيران وا ستكثروا منها، لأن الحطب عندهم كثير فبقي قوم يصلُّون، وقوم يقرأون، وقوم يتضرعون، وقوم نائمون مما لحقهم من التعب والقتل، فلما كان الغد با در المسلمون إليهم و ذكروا الله كثيراً وأثنوا عليه و صلوا على ر سول الله ﷺ، وتقدم رماة النبل وأقبلوا يرمون ويذكرون الله وهم يضجون إلى الله بالدعا ء.

قال الواقدي: ولم يزل المسلمون على القتال عدة أيام وأهل بيت المقدس يظهرون الفرح وأنه ليس على قلوبهم من هم ولا جزع، فلما كان اليوم الحا دي عشر أ شرفت عليهم راية أبي عبيدة يحملها غلامه سالم ومن ورائها فر سان المسلمين وأبطال الموحدين وقد أحدقوا بأبي عبيدة وخالد عن يمينه وعبد الرحمن بن أبي بكر عن يساره وجا ءت النسوان والأموال وضج الناس ضجة واحدة بالتهليل والتكبير فأجابتهم القبائل ووقع الرعب في قلوب أهل بيت المقدس فانقلب كبارهم وعظماؤهم وبطارقتهم إلى البيعة العظمى عندهم وهي القمّامة، فلما وقفوا بين يدي جاثليقهم وكانوا يعظمونه ويبجلونه، فلما سمعوا تلك الضجة دخلوا عليه ووقفوا بين يديه وخضعوا له وقالوا: يا أبانا قد قدم أمير القوم إلينا ومعه بقية المسلمين وهذه الضجة بسببه، فلما سمع بتركهم وجاثليقهم تغير لونه وتغير وجهه وقال: هي هي. قالوا: ما ذلك أيها البترك والأب الكبير. قال: وحق الإنجيل إن كان قدم أميرهم فقد دنا هلاككم والسلام. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأنا نجد في العلم الذي ورثناه عن المتقدمين أن الذي يفتح الأرض في الطول والعرض هو الرجل الأ سمر الأحور المسمى بعمر صاحب نبيهم محمد، فإن كان قد قدم فلا سبيل لقتاله ولا طاقة لكم بنواله ولابد لي أن أ شرف عليه وأنظر إليه وإلى صورته، فإن كان إياه عمدت إلى مصالحته وأجبته إلى ما يريد، وإن كان غيره فلا نسلم إليه قط لأن مدينتنا لا تفتح إلا على يد من ذكرته لكم والسلام.

ثم إنه وثب قائماً والقسوس والرهبان والشمامسة من حوله وقد رفعوا الصلبان على رأ سه وفتحوا الإنجيل بين يديه و دارت البطارقة من حوله و صعد على السور من الجهة التي فيها أبو عبيدة فنظر إلى المسلمين وهم يسلمون عليه ويعظمونه، ثم يرجعون إلى القتال كأنهم الأ سد الضارية فنا داهم رجل ممن كان يمشي بين يدي البترك. فقال: يا معا شر المسلمين كفوا عن القتال حتى نستخبركم ونسألكم. قال فأمسك الناس عن القتال، فنا داهم رجل من الروم بلسان عربي فصيح: اعلموا أن صفة الرجل الذي يفتح بلدنا هذا وجميع الأرض عندنا، فإن كان هو أميركم فلا نقاتلكم بل نسلم إليكم وإن لم يكن إياه فلا نسلم إليكم أبداً.

قال الواقدي: فلما سمع المسلمون ذلك أقبل نفر منهم إلى أبي عبيدة وحدثه بما سمعوه. قال فخرج أبو عبيدة إليهم إلى أن حاذاهم، فنظر البترك إليه وقال: ليس هو هذا الرجل فأبشروا وقاتلوا عن بلدكم ودينكم وحريمكم، فلما سمعوا قوله رفعوا أصواتهم وأعلنوا بكلمة كفرهم وأقبلوا يقاتلون القتال الشديد وعاد البترك إلى القمامة ولم يخاطب أبا عبيدة بكلمة واحدة، بل أمر قومه بالحرب والقتال وعاد أبو عبيدة إلى أصحابه. فقال خالد: ما كان منك أيها الأمير. فقال: لا علم لي غير أني خرجت إليهم كما رأيت وأشرف عليَّ شيطان من شياطينهم الذي يضلهم، فما هو غير أن نظر لي وتأملني حتى ضجوا ضجة واحدة وولى عني ولم يكلمني. فقال خالد: يوشك أن يكون لهم في ذلك تأويل ورأي فنقف عليه ونعلم نبأه، ثم قال: شدوا عليهم الحرب والقتال فشد عليهم المسلمون.

قال الواقدي: وكان نزول المسلمين على بيت المقدس في أيام الشتاء والبرد وظنت الروم أن المسلمين لا يقدرون عليهم في ذلك الوقت. وزحف المسلمون إليهم وبرزت النبالة من أهل اليمن، وصمم أصحاب القسي ورشقوهم بالنبل وكانوا غير محترزين من النبل لقلة اكتراثهم به حتى رأوا النبل ينكسهم على رؤوسهم من وراء ظهورهم وهم لا يشعرون. قال مهلهل: لله در عرب اليمن فلقد رأيتهم يرمون بالنبل الروم فيتهافتون من سورهم كالغنم! فلما رأوا ما صنع بهم النبل احترزوا منه وستروا السور بالحجف والجلود وبما يرد النبل.

ونظرت الروم إلى ضرار بن الأزور وقد أقبل نحو الباب الأعظم وعليه بطريق كبير وعلى رأسه صليب من الجوهر وحوله غلمان وعليهم الطوارق وبأيديهم القسي الموترة والعمد وهو يحرض القوم على القتال. قال عوف بن مهلهل فنظرت إلى ضرار وقد قصد نحوه وهو يختفي ويستتر إلى أن قرب من البرج الذي عليه البطريق ثم أطلق إليه نبلة، قال عوف: فنظرت إلى النبلة مع علو هذا الجدار وقد خرجت من قوس ضرار والبرج عال رفيع. فقلت: وما تكون هذه النبلة مع علو هذا الجدار وما الذي تصنع في هذا العلج وعليه هذه اللأمة اللامعة؟! فأقسم بالله لقد وقعت هذه النبلة في فيه فتردى إلى أسفل برجه فسمعت للقوم ضجة عظيمة وجولة هائلة فعلمت أنه قتل.

ولم يزل أبو عبيدة ينازل بيت المقدس أربعة أشهر كاملة، وما من يوم إلا ويقاتلهم قتالاً شديداً والمسلمون صابرون على البرد والثلج والمطر، فلما نظر أهل بيت المقدس إلى شدة الحصار وما نزل بهم من المسلمين قصدوا القمامة ووقفوا بين يدي بتركهم وسجدوا بين يديه وعظموه وقالوا له: يا أبانا قد طال علينا حصار هؤلاء العرب ورجونا أن يأتينا مدد من قبل الملك، ولا شك أنه اشتغل عنَّا بنفسه من أجل

هزيمة جيشه، وأنهم أشهى منَّا للقتال وأنهم من يوم نزلوا علينا لم نخاطبهم بكلمة واحدة ولم نجبهم احتقاراً منَّا لهم، والآن قد عظم علينا الأمر وإنا نريد منك أن تشرف على هؤلاء العرب وتنظر ما الذي يريدون منا، فإن كان أمرهم قريباً أجبنا إلى ما يريدون ويطلبون، وإن كان صعباً فتحنا الأبواب وخرجنا إليهم فإما أن نقتل عن آخرنا وإما أن نهزمهم عنا فأجابهم البترك إلى ذلك واشتمل بلباسه وصعد معهم على السور وحمل الصليب بين يديه واجتمع القسوس والرهبان حوله وبأيديهم الأناجيل مفتحة والمباخر حتى أشرف على المكان الذي فيه أبو عبيدة فنادى منهم رجل بلسان فصيح العربية: يا معاشر العرب إن عمدة دين النصرانية وصاحب شريعتها قد أقبل يخاطبهم فليدن منا أميركم فأخبروا أبا عبيدة بمقالهم فقال: والله إني لأجيبه حيث دعاني، ثم قام أبو عبيدة وجماعة من الأمراء والصحابة ومعه ترجمان، فلما وقف بإزائه قال لهم الترجمان: ما الذي تريدون منا في هذه البلدة المقدسة. ومن قصدها يوشك أن الله يغضب عليه ويهلكه! فأخبره الترجمان بذلك فقال: قل لهم نعم إنها شريفة ومنها أسري بنبينا إلى السماء ودنا من ربه كقاب قوسين أو أدنى وأنها معدن الأنبياء وقبورهم فيها ونحن أحق منكم بها ولا نزال عليها أو يملكنا الله إياها كما ملكنا غيرها.

قال البترك: فما الذي تريدون منَّا؟ قال أبو عبيدة: خصلة من ثلاث: أولها أن تقولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، فإن أجبتم إلى هذه الكلمة كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا. قال البترك: إنها كلمة عظيمة ونحن قائلوها إلا أن نبيكم محمداً ما نقول إنه رسول. قال أبو عبيدة: كذبت يا عدو الله إنك لم توحد قط وقد أخبرنا الله في كتابه أنكم تقولون المسيح ابن الله: لا إله إلا الله ﷻ عما يقول الظالمون علواً كبيراً. قال البترك: هذه خصلة لا نجيبكم إليها فما الخصلة الثانية؟ فقال أبو عبيدة: تصالحوننا عن بلدكم وتؤدون الجزية إلينا عن يد وأنتم صاغرون كما أداها غيركم من أهل الشام.

قال البترك: هذه الخصلة أعظم علينا من الأولى وما كنا بالذي يدخل تحت الذل والصغار أبداً. فقال أبو عبيدة: ما نزال نقاتلكم حتى يظفرنا الله بكم، ونستعبد أولادكم ونساءكم ونقتل منكم من خالف كلمة التوحيد وعكف على كلمة الكفر. فقال البترك: فإنا لا نسلم مدينتنا أو نهلك عن آخرنا، وكيف نسلمها وقد استعددنا بآلة الحرب والحصار، وفيها العدة الحسنة والرجال الشداد، ولسنا كمن لاقيتم من أهل المدن الذين أذعنوا لكم بالجزية فإنهم قوم غضب عليهم المسيح فأدخلهم تحت طاعتكم ونحن في بلد من إذا سأل المسيح ودعاه أجاب دعوته! فقال أبو عبيدة: كذبت والله يا عدو الله "مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ

صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ"، فقال: أنا أقسم بالمسيح أنكم لو أقمتم علينا عشرين سنة ما فتحتموها أبداً وإنما تفتح لرجل صفته ونعته في كتبنا ولسنا نجد صفته ونعته معك أبداً، فقال أبو عبيدة: وما صفة من يفتح مدينتكم. قال البترك: لا نخبركم بصفته لكن نجد في كتبنا وما قرأناه من كلمنا أنه يفتح هذه البلدة صاحب محمد اسمه عمر يعرف بالفاروق وهو رجل شديد لا تأخذه في الله لومة لائم ولسنا نرى صفته فيكم! فلما سمع أبو عبيدة ذلك من كلام البترك تبسم ضاحكاً، وقال: فتحنا البلد ورب الكعبة! ثم أقبل عليه، وقال له: إذا رأيت الرجل تعرفه؟ قال: نعم وكيف لا أعرفه وصفته عندي وعدد سنينه وأيامه. قال أبو عبيدة: هو والله خليفتنا وصاحب نبينا. فقال البترك: إن كان الأمر كما ذكرت، فقد علمت صدق قولنا فاحقن الدماء وابعث إلى صاحبك يأتي فإذا رأيناه وتبيناه وعرفنا صفته ونعته فتحنا له البلد من غيرهم ولا نكد وأعطنا الجزية. فقال أبو عبيدة: فإني أبعث إليه بأن يقدم علينا أفتحبونا القتال أم نكف عنكم. فقال البترك: معاشر العرب ألا تدعون بغيكم.. أنخبركم بأننا قد صدقناكم في الكلام طلباً لحقن الدماء وأنتم تأبون إلا القتال! قال أبو عبيدة: نعم، لأن ذلك أشهى إلينا من الحياة نرجو به العفو والغفران من ربنا. قال فأمر أبو عبيدة بالكف عنهم وانصرف البترك.

قال الواقدي: فجمع أبو عبيدة الأمراء والمسلمين إليه وأخبرهم بما قال البترك فرفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير، وقالوا: افعل أيها الأمير واكتب إلى أمير المؤمنين بذلك فلعله يسير إلينا ويفتح هذا البلد علينا، فقال شرحبيل بن حسنة: اصبر حتى نقول لهم إن الخليفة معنا ويتقدم خالد إليهم. فإذا نظروا إليه فتحوا الباب وكفينا التعب وكان خالد أشبه الناس بعمر بن الخطاب ﷺ، فلما أصبح الصباح. قال له الترجمان: قد جاء الخليفة وكان قد قال أبو عبيدة لخالد فركبوا جميعاً، وقالوا: قد جاء الرجل الذي تطلبونه فعرفوا البترك فأقبل إلى أن وقف على السور، وقال له: قل له يتقدم بحيث نراه عياناً فتقدم خالد فتبينه، وقال: وحق المسيح كأنه هو ولكن باقي العلامات ما هي فيه فبحق دينك من أنت؟ فقال: أنا من بعض أصحابه. فقال البترك: يا فتيان العرب كم يكون هذا الخداع فيكم وحق المسيح لئن لم نر الرجل الموصوف ما نفتح لكم ولا يرجع أحد منا يكلمكم ولو أقمتم علينا عشرين سنة ثم ولى ولم يتكلم، فقال المسلمون عند ذلك: اكتبوا إلى أمير المؤمنين وعرفوه بذلك فعسى أن يأتي ويتشوف بهذه البقعة فكتب أبو عبيدة كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عامله أبي عبيدة عامر بن الجراح. أما بعد السلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ واعلم يا

أمير المؤمنين أنا منازلون لأهل مدينة إيلياء نقاتلهم أربعة أشهر كل يوم نقاتلهم ويقاتلوننا ولقد لقي المسلمون مشقة عظيمة من الثلج والبرد والأمطار إلا أنهم صابرون على ذلك ويرجون الله ربهم، فلما كان اليوم الذي كتبت إليك الكتاب فيه أشرف علينا بتركهم الذي يعظمونه، وقال: إنهم يجدون في كتبهم أنه لا يفتح بلدهم إلا صاحب نبينا واسمه عمر وأنه يعرف صفته ونعته وهو عندهم في كتبهم وقد سألنا حقن الدماء فسر إلينا بنفسك وانجدنا لعل الله أن يفتح هذه البلدة علينا على يديك، ثم إنه طوى الكتاب وختمه، وقال: يا معاشر المسلمين من ينطلق بكتابي هذا وأجره على الله فأسرع بالإجابة ميسرة بن مسروق العبسي، وقال: أنا أكون الرسول وأرجع مع عمر بن الخطاب ﷺ إن شاء الله تعالى.

قال أبو عبيدة: فخذ الكتاب بارك الله فيك فأخذه ميسرة واستوى على ناقة له كوماء ولم يزل سائراً إلى أن دخل المدينة فدخلها ليلاً، وقال: والله لا نزلت عند أحد من الناس، فأناخ ناقته على باب المسجد وعقلها ودخل المسجد وسلم على قبر رسول الله ﷺ وعلى قبر أبي بكر الصديق ﷺ، ثم أتى مكاناً في المسجد فنام وكان له ليال عدة لم ينم فأخذته عيناه فما استيقظ إلا على أذان عمر وكان يغلس في الأذان، فلما أذن دخل المسجد وهو يقول: الصلاة رحمكم الله. قال ميسرة: فقمت وتوضأت وصليت خلف عمر صلاة الفجر، فلما انحرف عن محرابه قمت إليه وسلمت عليه، فلما نظر إلي صافحني واستبشر، وقال: ميسرة ورب الكعبة! ثم قال: ما وراءك يا ابن مسروق؟ قلت: الخير والسلامة يا أمير المؤمنين ثم ناولته الكتاب فقرأه على المسلمين فاستبشروا به، فقال: ما ترون رحمكم الله فيما كتب به أبو عبيدة؟ فكان أول من تكلم عثمان بن عفان ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله قد أذل الروم وأخرجهم من الشام ونصر المسلمين عليهم وقد حاصر أصحابنا مدينة إيلياء وضيقوا عليهم وهم في كل يوم يزدادون ذلاً وضعفاً ورعباً فإن أنت أقمت ولم تسر إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخف ولقتالهم مستحقر فلا يلبثون إلا اليسير حتى ينزلوا على الصغار ويعطون الجزية! فلما سمع عمر ذلك من مقال عثمان جزّاه خيراً، وقال: هل عند أحد منكم رأي غير هذا؟

فقال علي بن أبي طالب ﷺ: نعم عندي غير هذا الرأي، وأنا أبديه لك رحمك الله. فقال عمر: وما هو يا أبا الحسن؟ قال: إن القوم قد سألوك وفي سؤالهم ذلك فتح للمسلمين، وقد أصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام وإني أرى أنك إن سرت إليهم فتح الله هذه المدينة على يديك وكان في مسيرك الأجر العظيم في كل ظمأ ومخمصة، وفي قطع كل واد وصعود جبل حتى تقدم إليهم. فإذا أنت قدمت عليهم كان لك وللمسلمين الأمن والعافية والصلاح والفتح ولست آمن أن

ييأسوا منك ومن الصلح ويمسكوا حصنهم ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم فيدخل فلا يتخلفون عنه، والصواب أن تسير إليهم إن شاء الله تعالى.

ففرح عمر بن الخطاب بمشورة علي ﷺ وقال: لقد أحسن عثمان النظر في المكيدة للعدو وأحسن علي المشورة للمسلمين فجزاهما الله خيراً ولست آخذ إلا بمشورة علي فما عرفناه إلا محمود المشورة ميمون الغرة، ثم إن عمر ﷺ أمر الناس بأخذ الأهبة للمسير معه والاستعداد فأسرع المسلمون إلى ذلك واستعدوا وتأهبوا وأمر عمر أن يكونوا خارج المدينة؟ ففعلوا ذلك وأتى عمر المسجد فصلى فيه أربع ركعات ثم قام إلى قبر رسول الله ﷺ فسلم عليه وعلى أبي بكر ﷺ واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب وخرج من المدينة وأهلها يشيعونه ويودعونه.

قال الواقدي: وخرج عمر من المدينة وهو على بعير له أحمر وعليه غرارتان في إحداهما سويق وفي الأخرى تمر وبين يديه قربة مملوءة ماء وخلفه جفنة للزاد! وخرج ومعه جماعة من الصحابة قد شهدوا اليرموك وعادوا إلى المدينة منهم: الزبير وعبادة بن الصامت، وسار عمر نحو بيت المقدس فكان إذا نزل منزلاً لا يبرح منه حتى يصلي الصبح فإذا انفتل من الصلاة أقبل على المسلمين وقال: الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام وأكرمنا بالإيمان وخصنا بنبيه عليه الصلاة والسلام وهدانا من الضلالة وجمعنا بعد الشتات على كلمة التقوى وألف بين قلوبنا ونصرنا على عدونا ومكن لنا في بلاده وجعلنا إخوانا متحابين فاحمدوا الله عباد الله على هذه النعمة السابغة والمنن الظاهرة. فإن الله يزيد المستزيدين الراغبين فيما لديه ويتم نعمته على الشاكرين. ثم يأخذ الجفنة فيملؤها سويقاً ويصف التمر حولها ويقرب للمسلمين ويقول: كلوا هنيئاً مريئاً فيأكل ويأكل المسلمون معه، ثم يرحل فلم يزل كذلك في مسيره.

قال عمرو بن مالك العبسي: كنت مع عمر بن الخطاب ﷺ حين سار إلى الشام فمر على ماء لجذام وعليه طائفة منهم نزول والماء يدعى ذات المنار فنزل بالمسلمين عليه، فبينما هو كذلك وأصحاب رسول الله ﷺ حوله إذ أقبل إليه قوم من جذام، فقالوا: يا أمير المؤمنين إن عندنا رجلاً له امرأتان وهما أختان لأب وأم. قال: فغضب عمر وقال علي به فأتي بالرجل إليه، فقال له عمر: ما هاتان المرأتان؟ قال الرجل: زوجتاي قال: فهل بينهما قرابة. قال: نعم هما أختان! قال عمر: فما دينك ألست مسلماً؟ قال: بلى. قال عمر: وما علمت أن هذا حرام عليك والله يقول في كتابه "وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ"؟! فقال الرجل: ما علمت وما هما عليَّ حرام! فغضب عمر وقال: كذبت والله إنه لحرام عليك ولتخلين سبيل إحداهما وإلا ضربت عنقك! قال الرجل: أفتحكم عليَّ. قال: أي والله الذي لا إله إلا هو! فقال الرجل: إن

هذا دين ما أصبنا فيه خيراً، ولقد كنت غنياً عن أن أدخل فيه! قال عمر: ادن منّي فدنا منه فخفق رأسه بالدرة خفقتين، وقال له: أتتشاءم بالإسلام يا عدو الله وعدو نفسه، وهو الدين الذي ارتضاه الله لملائكته ورسله وخيرته من خلقه؟! خلِّ يا ويلك سبيل إحداهما وإلا جلدتك جلدة المفتري. فقال الرجل: كيف أصنع بهما وإني أحبهما، ولكن أقرع بينهما فمن خرجت القرعة عليها كنت لها وهي لي، وإن كنت لهما جميعاً محباً فأمر عمر فاقترع فوقعت القرعة على إحداهما فأمسكها وأطلق سبيل الثانية، ثم أقبل عليه عمر، وقال له: اسمع يا ذا الرجل وعِ ما أقول لك: إنه من دخل في ديننا ثم رجع عنه قتلناه! فإياك أن تفارق الإسلام وإياك يبلغني أنك قد أصبت أخت امرأتك التي فارقتها فإنك إن فعلت ذلك رجمتك!

قال الواقدي: وسار عمر حتى مر على حي من بني مُرَّة فإذا بقوم منهم قد أقاموا في الشمس يعذبون فقال لهم عمر: ما بال هؤلاء يعذَّبون؟ فقيل: عليهم خراج فهم يعذبون. قال: فما يقولون؟ قال: يقولون: ما نجد ما نؤدي، فقال عمر: دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا تعذبوا الناس في الدنيا يعذبكم الله يوم القيامة" فخلى سبيلهم. ثم سار حتى إذا كان بوادي القرى أخبروه أن شيخاً على الماء وله صديق يوده، فقال له صديقه هل لك أن تجعل لي في زوجتك نصيباً أكفيك رعي إبلك والقيام عليها ولي فيها يوم وليلة ولك فيها يوم وليلة. قال له الشيخ: قد فعلت ذلك ورضي. فلما أخبر عمر بذلك أمر بهما فأحضرا. فقال: ويلكما ما دينكما. قالا: الإسلام. قال عمر: فما الذي بلغني عنكما قالا: وما هو. فأخبرهما عمر بما سمعه من العرب، فقال الشيخ: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. فقال عمر: أما علمتما أن ذلك حرام في دين الإسلام. قالا: لا والله ما علمنا ذلك. فقال عمر للشيخ: وما دعاك أن صنعت هذا القبيح. قال: أنا شيخ كبير ولم يكن لي أحد أثق به ولا أتكل عليه فقلت: يا هذا أتكفيني الرعي والسقي وتعينني على دوابي وأنا أجعل لك نصيباً في امرأتي والآن علمت أنه حرام فلا أفعله فقال عمر: خذ بيد امرأتك فلا سبيل لي عليها، ثم قال للشاب: إياك أن تقرب منها فإنه إن بلغني ذلك ضربت عنقك!

ثم ارتحل عمر يريد بيت المقدس حتى دنا من أول الشام وأشرف عليه. قال أسلم بن برقان مولى عمر، فلما أشرفنا على الشام وأشرف عليه المسلمون نظرنا إلى طائفة من خيل المسلمين. فقال عمر للزبير: أسرع وانظر ما هذه الخيل فأسرع الزبير إليها، فلما قرب منها وإذا هي خيلٌ من اليمن قد بعث بها أبو عبيدة يأخذون له خبر عمر رضي الله عنه، قال الزبير: فسلموا عليَّ وقالوا: يا فتى من أين أقبلت؟ فقلت: من مدينة رسول الله ﷺ قالوا: كيف خلفت أهلها. قلت: بخير، قالوا: فما فعل عمر هل قدم

علينا أم لا؟ قال الزبير: من أنتم؟ قالوا: نحن من عرب اليمن قد وجهنا أبو عبيدة لنأخذ له خبر عمر، فرجع الزبير إلى عمر وحدَّثه قال: أصبت يا أبا عبد الله، فأقبل علينا جمع آخر فسلموا علينا وسألونا عن عمر. فقال لهم: ها أنا عمر فما تريدون؟ قالوا: يا أمير المؤمنين قد ذرفت العيون وطالت الأعناق بطول قدومك فلعل الله أن يفتح بيت المقدس على يدك.

قال الواقدي: ثم رجعوا على أعقابهم حتى أشرفوا على عسكر المسلمين وأبي عبيدة ونادوا بأصواتهم: أبشروا يا مسلمون بقدوم عمر قال فارتج الناس وهموا أن يركبوا لاستقباله بأجمعهم. فقال أبو عبيدة: عزيمة على كل رجل أن لا يخرج من مركزه! ثم سار أبو عبيدة في أناس من المهاجرين والأنصار حتى أشرف بمن معه على عمر. قال: ونظر عمر إلى أبي عبيدة وهو لابس سلاحه متنكب قوسه وهو راكب على قلوصه مغطى بعباءة قطوانية وخطام قلوصه من شعر، فلما نظر أبو عبيدة إلى عمر ﷺ أناخ قلوصه وأناخ عمر بعيره وترجل كلاهما ومد أبو عبيدة يده فصافح عمر وتعانقا جميعاً وسلم بعضهما على بعض وأقبل المسلمون يسلمون على عمر ثم ركبا جميعاً وجعلا يسيران أمام الناس وهما يتحادثان ولم يزالا كذلك حتى نزلا ببيت المقدس، فلما نزل صلى عمر ﷺ بالمسلمين صلاة الفجر ثم خطبهم خطبة حسنة فقال في خطبته: الحمد لله الحميد المجيد، القوي الشديد، الفعال لما يريد، ثم قال: إن الله تعالى قد أكرمنا بالإسلام وهدانا بمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وأزاح عنا الضلالة وجمعنا بعد الفرقة وألف بين قلوبنا من بعد البغضاء فاحمدوه على هذه النعمة تستوجبوا منه المزيد فقد قال الله تعالي: "لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ"، ثم قرأ: "مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا".

فلما تلا عمر ذلك قام قس من النصارى كان حاضراً بين يديه. فقال: إن الله لا يضل أحداً! فلما كررها قال عمر: انظروا إن عاد إلى قوله فاضربوا عنقه فعرف القس ما قال عمر فأمسك ومضى عمر في خطبته.

فقال: أما بعد: فإني أوصيكم بتقوى الله ﷻ الذي يبقى ويفنى كل شيء سواه، الذي بطاعته ينفع أولياءه، وبمعصيته يفني أعداءه، أيها الناس أدوا زكاة أموالكم طيبة بها قلوبكم وأنفسكم لا تريدون بها جزاء من مخلوق ولا شكوراً. افهموا ما توعظون به فإن الكيس من أحرز دينه، وإن السعيد من اتعظ بغيره ألا إن شر الأمور مبتدعاتها وعليكم بالسنة سنة نبيكم ﷺ فالزموها فإن الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة والزموا القرآن فإن فيه الشفاء والثواب، أيها الناس إنه قام فينا رسول الله ﷺ كقيامي فيكم وقال: الزموا أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم

ثم يظهر الكذب حتى يشهد من لم يستشهد ويحلف من لم يحلف فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، وتعوذوا من الشيطان، ولا يخلون أحد منكم بامرأة فإنهن من حبائل الشيطان، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن، والصلاة الصلاة، فلما فرغ من خطبته جلس فجعل أبو عبيدة يحدثه بما لقي من الروم وعمر باهت، فتارة يبكي وتارة يهدأ فلم يزل كذلك إلى أن حضرت صلاة الظهر.

فقال الناس: يا أمير المؤمنين اسأل بلالاً أن يؤذن لنا، وكان بلال مقيماً ببلد، فلما بلغه أن عمر قد وصل سار مع أبي عبيدة حتى سلم علي عمر فعظم قدره، فلما حضرت صلاة الظهر وسأل المسلمون عمر أن يسأل بلالاً. فقال له: يا بلال إن أصحاب رسول الله ﷺ يسألون أن تؤذن لهم وتذكرهم أوقات نبيهم ﷺ فقال بلال: نعم فلما قال: الله كبر خشعت جلودهم واقشعرت أبدانهم، فلما قال: أشهد ألا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله بكى الناس بكاء شديداً حتى كادت قلوبهم أن تتصدع عند ذكر الله ورسوله.

فلما فرغ بلال من أذانه وجلس قال بلال: يا أمير المؤمنين إن أمراء المسلمين وأجناد الشام يأكلون لحوم الطيور والخبز النقي وما لا يلحق ضعفاء الناس وما لا تناله أيديهم وإن الكل يفنى ومآله إلى التراب ومصيرنا إليه. فقال له يزيد بن أبي سفيان: إن سعر بلادنا هذه رخيص وإنا لنصيب ما قاله بلال هاهنا مثل ما كنا نقوت به أنفسنا مدة من الزمان في الحجاز. فقال عمر: إن الأمر كما ذكرت فكلوا هنيئاً مريئاً، ولست أبرح من مكاني حتى تجمعوا إليَّ من في المنازل وأن تكتبوا إلى فقراء المسلمين ممن في المدن والقرى فأفرض لكل أهل بيت ما يجزيهم من البر والشعير والعسل والزيت وما يحتاجون إليه ولابد لهم منه، ثم قال عمر: هذا لكم من أمرائكم غير ما يأتيكم مني من بيت مال المسلمين، فإن قطعت عنكم أمراؤكم فآمروني حتى أعزلهم عنكم؛ ثم أمرهم بالرحيل، فلما همَّ بالركوب على بعيره وعليه مرقعة من صوف وفيها أربع عشرة رقعة بعضها من أدم. فقال له المسلمون: يا أمير المؤمنين لو ركبت بدل بعيرك جواداً ولبست ثياباً بيضاً؛ ففعل. قال الزبير: أحسب أنها كانت من ثياب مصر تساوي خمسة عشر درهماً وطرح على عاتقه منديلاً من كتان ليس جديداً ولا بالخلق دفعه إليه أبو عبيدة وقدم إليه برذون أشهب من براذين الروم.

فلما صار عمر على ظهره جعل البرذون يهملج به، فلما نظر عمر إلى البرذون وفعاله نزل عنه مسرعاً وقال: أقيلوا عثرتي أقال الله عثرتكم يوم القيامة، فقد كاد أميركم أن يهلك بما دخل قلبي من العجب والكبر وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من الكبر" ولقد كاد أن يهلكني ثوبكم الأبيض وبرذنكم المهملج، ثم إنَّ عمراً ﷺ نزع ما كان عليه ثم عاد إلى لبس مرقعته.

وسار عمر يريد العقبة ليصعد منها إلى بيت المقدس فلقيه قوم من المسلمين وعليهم ثياب الديباج مما أخذوه من اليرموك فأمر عمر أن يحثوا التراب في وجوههم، وأن تمزق عليهم، ولم يزل على ذلك حتى أشرف على بيت المقدس، فلما نظر إليها قال: الله أكبر، اللهم افتح لنا فتحاً يسيراً، واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً، ثم سار واستقبلته العشائر والقبائل وأصحاب العقود. وسار عمر حتى نزل بالموضع الذي كان فيه أبو عبيدة وضربت له خيمة من شعر وجلس فيها هناك على التراب، ثم قام يصلي أربع ركعات.

قال الواقدي: وعلَت للمسلمين ضجة عظيمة وصياح مزعج بالتهليل والتكبير، فسمع أهل بيت المقدس الضجة والجلبة، فقال لهم البترك: يا ويلكم ما شأن العرب قد ارتفعت لهم جلبة من غير شيء فاشرفوا عليهم وانظروا ما شأنهم. فأشرف عليهم رجل ممن يعرف العربية، فقال: يا معاشر العرب أخبرونا ما قصتكم؟ قالوا: إن أمير المؤمنين عمر قد قدم علينا من مدينة نبينا ﷺ، وهذه الضجة من فرح المسلمين به. فرجع وأعلم البترك فأطرق إلى الأرض ولم يتكلم.

فلما كان الغد وصلى عمر بالناس صلاة الفجر قال لأبي عبيدة: يا عامر تقدم إلى القوم وأعلمهم أني قد أتيت. فخرج أبو عبيدة وصاح بهم وقال: يا أهل هذه البلدة إن صاحبنا أمير المؤمنين قد ورد فما تصنعون فيما قلتم؟ فأعلموا البترك فخرج من كنيسته وعليه المسوح وترجل الرهبان والقسوس والأساقفة معه، وقد حمل بين يديه صليب لا يخرجونه إلا في عيدهم وسار معه الباطليق الوالي عليهم وهو يقول للبترك: يا أبانا إن كنت تعرفه معرفة حقيقية وإلا فلا تفتح له ودعنا وهؤلاء العرب فإما أن نبيدهم، وإما أن يبيدونا! قال البترك: أنا أفعل ذلك، ثم صعدا على السور ووقف الباطليق إلى جانبه والصليب أمامهم وأشرف على أبي عبيدة وقال: ما تشاء أيها الشيخ الباهي. قال أبو عبيدة: هذا أمير المؤمنين عمر وليس عليه أمير قد أتى فاخرجوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة وأداء الجزية.

فقال البترك: يا ذا الرجل إن كان صاحبك الذي ليس عليه أمير قد أتى فدعه يدن منَّا فإنَّا نعرفه بنعته وصفته، وأفردوه من بينكم، وليقف بإزائنا حتى نراه. فإن كان صاحبنا الذي نعته في الإنجيل نزلنا إليه وعقدنا معه الأمان وأقررنا له بالجزية، وإن كان غير الذي نجد نعته في الإنجيل وصفته فما لكم عندنا غير القتال! فرجع أبو عبيدة إلى عمر رضي الله عنه وأخبره بما قاله البترك فهمَّ عمر بالقيام. فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين تخرج إليهم منفرداً، وليس عليك آلة حرب غير هذه المرقعة وإنا نخشى عليك منهم غدراً أو مكراً فينالون منك. فقال عمر: "قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى

ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ"، ثم أمر ببعيره فقدم إليه فاستوى في ركوبه عليه، وعليه مرقعة ليس عليه غيرها وعلى رأسه قطعة عباءة قطوانية وقد عصب بها رأسه وليس معه غير أبي عبيدة ﷺ وهو سائر بين يديه حتى قرب من السور ووقف بإزاء السور والبترك والباطليق عليه، فتكلم أبو عبيدة وقال: يا هؤلاء هذا أمير المؤمنين قد أتى فمسح البترك عينه ونظر إليه وزعق بأعلى صوته: هذا والله الذي نجد صفته ونعته في كتبنا ومن يكون فتح بلادنا على يديه بلا محالة! ثم إنه قال لأهل بيت المقدس: يا ويحكم انزلوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة، هذا والله صاحب محمد بن عبد الله.

فلما سمعت الروم كلام البترك نزلوا مسرعين وكانوا قد ضاقت أنفسهم من الحصار ففتحوا الباب وخرجوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه العهد والميثاق والذمة ويقرون له بالجزية، فلما نظر إليهم عمر على تلك الحالة تواضع لله وخرّ ساجداً على قتب بعيره ثم نزل إليهم وقال: ارجعوا إلى بلادكم ولكم الذمة والعهد إذ سألتمونا وأقررتم بالجزية. فرجع القوم إلى بلدهم ولم يغلقوا الأبواب ورجع عمر إلى عسكره فبات فيه ليلة، فلما كان الغد قام فدخل إليها وكان دخوله يوم الاثنين وأقام بها إلى يوم الجمعة وخط بها محراباً من جهة الشرق وهو موضع مسجده فتقدم وصلى هو وأصحابه صلاة الجمعة فهمّت الروم بغدرهم وكان أبو الجعيد الذي احتال على الروم باليرموك ببيت المقدس هو وأهله وماله فقالوا: ما ترى في غدر هؤلاء العرب إذا هم اشتغلوا بصلاتهم وليس معهم آلة حرب ولا ما يحترزون به من الضرب والقتل؟

فقال لهم أبو الجعيد: يا قوم لا تفعلوا ولا تغدروا بهم فإن فعلتم ذلك أخبرتهم بما تريدون أن تفعلوا بهم فقالوا: وما الذي نصنع فقال أبو الجعيد: أظهروا للعرب ما لكم من الزينة ومتاع الدنيا فإن متاع الدنيا وما فيها لا يصبر صاحبهما عنهما، فإن طلبوهما بغدر فشأنكم وما تريدون! فأقبل القوم على ما كانوا يقدرون عليه من المال والمتاع الحسن فأظهروه وصفّوه في طريق المسلمين وشوارعهم، فجعل المسلمون ينظرون إلى ذلك في دخولهم وخروجهم وهم يعجبون منهم ولم يمل أحد منهم إليه ولم يلمسه وهم يقولون: الحمد لله الذي أورثنا ديار قوم مثل هذا، ولو ساوت الدنيا عند الله جناح بعوضة لما سقى كافراً منها شربة ماء! قال عوف بن سالم: فوالله ما من المسلمين من جعل يده على شيء من متاعهم ولا لمسه. فقال لهم أبو الجعيد: هؤلاء القوم الذين وصفهم الله في التوراة والإنجيل وأنهم لا يزالون على الحق ولا يقربهم أحد ما داموا على ما هم عليه.

قال شهر بن حوشب: سمعت كعب الأحبار يقول: إن عمر بن الخطاب لما صالح أهل بيت المقدس ودخلها أقام فيها عشرة أيام فأقبلت إليه وكنت في قرية من

فلسطين، وتقدمت إليه لأسلم عليه وأسلم على يديه، وذلك أن أبي كان أعلم الناس بما أنزل الله على موسى بن عمران وأنه كان لي محباً وعلي مشفقاً ولم يكتم علي شيئاً إلا أعلمني إياه مما كان يعلم الناس، فلما حضرته الوفاة، دعاني إليه وقال لي: يا بني إنك تعلم أني ما ادخرت عنك شيئاً مما كنت أعلمه لأني خشيت أن يخرج بعض هؤلاء الكاذبين وتتبعهم وقد جعلت هاتين الورقتين في هذه الكرة التي ترى فلا تتعرض لهما ولا تنظر فيهما إلى أن تسمع بخبر نبي يبعث في آخر الزمان اسمه محمد، فإن يرد الله بك خيراً فأنت تتبعه، ثم مات بعد وصيته إياي. قال كعب: فدفنته، فما كان شيء أحب إلي بعد انقضاء العزاء من النظر في الورقتين وقراءة ما فيهما ففتحتهما، فإذا فيهما: لا إله إلا الله محمد رسول الله خاتم النبيين لا نبي بعده، مولده بمكة، ودار هجرته طيبة، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب، أمته الحامدون الذين يحمدون الله على كل حال، ألسنتهم رطبة بالتهليل والتكبير، وهم منصورون على كل من عاداهم من أعدائهم أجمعين. يغسلون وجوههم ويسترون أوساطهم، أناجيلهم في صدورهم، تراحمهم بينهم تراحم الأنبياء بين الأمم، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم.

قال كعب الأحبار: فلما قرأت ذلك قلت في نفسي: وهل علمني أبي شيئاً أعظم من هذا! ثم مكثت بعد وفاة والدي ما شاء الله إلى أن بلغني أن النبي ﷺ الموصوف قد ظهر بمكة وهو يظهر مرة بعد أخرى. فقلت: هو والله لا محالة ولم أزل أبحث عن أمره حتى قيل إنه خرج ونزل بيثرب فجعلت أترقب أمره حتى غزا غزوات ونصر على أعدائه، فتجهزت أريد المسير إليه فبلغني أنه قد قبض ﷺ وانقطع الوحي. فقلت في نفسي: لعله ليس الذي كنت أنتظره حتى رأيت في منامي كأن أبواب السماء قد فتحت والملائكة تنزل زمرة بعد زمرة وقائل يقول: قد قبض رسول الله ﷺ وانقطع الوحي عن أهل الأرض فرجعت إلى دار قومي وجاءنا الخبر أنه تقدم أمته خليفة اسمه أبو بكر فقلت: أقدم عليه فلم ألبث حتى جاءتنا جنوده إلى الشام ثم جاءتنا وفاته، ثم قيل إنه استخلف عليهم رجل اسمه عمر. فقلت: لا أدخل هذا الدين حتى أحققه ولم أزل متوقفاً حتى قدم عمر بن الخطاب ﷺ بيت المقدس وصالح أهلها ونظرت إلى وفائهم بعهدهم وما صنع الله بأعدائهم، وقلت: إنهم أمة النبي الأمي فحدثت نفسي بالدخول في هذا الدين، فوالله إني كنت ذات ليلة على سطحي وإذا أنا برجل من المسلمين يقول "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً". فلما سمعت هذه الآية خفت والله أن لا أصبح حتى يحول وجهي فما كان شيء أحب إلي من الصباح

أن يرد، فلما أصبحت غدوت من منزلي وسألت عن عمر فقيل لي إنه ببيت المقدس فقصدت إليه وإذا به قد صلى بأصحابه صلاة الفجر عند الصخرة فأقبلت إليه وسلمت عليه فرد علي السلام، وقال لي: من أنت؟ فقلت له: أنا كعب الأحبار وإنني جئت أريد الإسلام والدخول فيه فإني وجدت صفة محمد ﷺ وأمته في الكتب المنزلة، وإن الله ﷻ أوحى إلى موسى عليه السلام أني ما خلقت خلقاً أكرم علي من أمة محمد ﷺ ولولاه ما خلقت جنة ولا ناراً ولا سماء ولا أرضاً، وأمته خير الأمم ودينه خير الأديان، بعثته آخر الزمان، أمته مرحومة، وهو نبي الرحمة، وهو النبي الأمي التهامي القرشي الرحيم بالمؤمنين، الشديد على الكافرين، سريرته مثل علانيته، وقوله لا يخالف فعله، القريب والبعيد عنده سواء، أصحابه متراحمون متواصلون، فقال عمر: أحقاً ما تقول يا كعب؟ قال: أي والله والله يسمع ما أقول ويعلم ما تخفي الصدور! فقال عمر: الحمد لله الذي أعزنا وأكرمنا وشرفنا ورحمنا برحمته التي وسعت كل شيء وهدانا بمحمد ﷺ فهل لك يا كعب في الدخول في ديننا؟

فقال كعب: يا أمير المؤمنين في كتابكم الذي أنزل إليكم في أمر دينكم ذكر إبراهيم. فقال عمر: نعم وقرأ "وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ". ثم قرأ "مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ"، ثم قرأ "أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ". ثم قرأ "وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ"، ثم قرأ "قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ"، ثم قرأ "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ".

قال كعب: فلما سمعت هذه الآيات قلت: يا أمير المؤمنين أنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. ففرح عمر بإسلام كعب الأحبار، ثم قال: هل لك أن تسير معي إلى المدينة فنزور قبر النبي ﷺ وتتمتع بزيارته. فقلت: نعم يا أمير المؤمنين أنا أفعل ذلك. وارتحل عمر بعد أن كتب لأهل بيت المقدس كتاباً -أي عهداً- وأقرهم في بلدهم على الجزية، وسار بمن معه من العساكر إلى الجابية فأقام بها، ودوّن الدواوين، وأخذ الخمس الذي لله مما أفاء الله على المسلمين، ثم قسم الشام قسمين فأعطى أبا عبيدة من حوران إلى حلب وما يليها وأمره بالمسير إلى حلب وأن يقاتلوا أهلها إلى أن يفتحها الله على يديه، وأعطى أرض فلسطين وأرض القدس

والساحل ليزيد بن أبي سفيان، وجعل أبا عبيدة والياً عليه وأمر يزيد أن يحارب أهل قيسارية إلى أن يفتحها الله على يديه، وكان قد أعطى أكثر الأجناد لأبي عبيدة مع خالد وسير عمرو بن العاص إلى مصر واستعمل على قضاء حمص عمرو بن سعيد الأنصاري ثم سار عمر ﷺ يريد مدينة الرسول ﷺ وأخذ كعب الأحبار معه وكان أهل المدينة يظنون أن عمر يقيم بالشام لما يرون من كثرة خيرها وطيب فواكهها ورخص أسعارها ولما يخبرون عنها أنها بلاد الأنبياء وهي الأرض المقدسة وفيها المحشر فبقي الناس يتطاولون نحوه ويخرجون في كل يوم ينظرونه حتى قدم عمر ﷺ فارتجت المدينة يوم قدومه واستبشر أصحاب رسول الله ﷺ برؤيته وسلموا ورحبوا به وهنئوه بما فتح الله على يديه، فأول ما بدأ بالمسجد سلم على قبر رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر الصديق ﷺ، ثم صلى ركعتين ودعا بكعب الأحبار. وقال: حدث المسلمين بما رأيت في الورقتين فازداد الناس إيماناً.

قال أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي: .... والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، ما اعتمدت في خبر هذه الفتوح إلا على الصدق وما حدثت حديثه إلا على قاعدة الحق لأثبت فضل أصحاب رسول الله ﷺ وجهادهم حتى أرغم بذلك أهل الرفض الخارجين على أهل السنة، إذ لولاهم بمشيئة الله تعالى لم تكن البلاد للمسلمين وما انتشر علم هذا الدين فلله درهم لقد جاهدوا في الله حق جهاده لا جرم، وقد قال فيهم الملك المقتدر "فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا".

قال الواقدي: وذلك أنه لما بعث عمر بن الخطاب أبا عبيدة وجعله أمير الشام وأمره بالمسير إلى حلب وأنطاكية والمفرق وما يليهم من الحصون بعث عمرو بن العاص إلى مصر ويزيد بن أبي سفيان إلى ساحل الشام فنزلوا قيسارية وهي آهلة بالخلق كثيرة الجند وكان عليها قسطنطين ابن الملك هرقل وكان معه ثمانون ألفاً من الروم والعرب المتنصرة والروسية، فلما نظر قسطنطين إلى نزول يزيد بن أبي سفيان عليه بعث إلى أبيه يستنجده فبعث إليه هرقل بصاحب مرعش وعشرين ألفاً من أبطال الروسية وأنفذ له المراكب بالزاد والعلوفة، فلما نظر يزيد إلى ذلك وأن لا قدرة له على ذلك كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، من يزيد بن أبي سفيان العامل على بعض الشام إلى عمر بن الخطاب ﷺ إني نازلت أهل قيسارية وهي مدينة آهلة بالخلق كثيرة الجند وليس إليها سبيل وإن قسطنطين قد استنجد بأبيه وقد أنجده بصاحب مرعش وعشرين ألفاً والمراكب ترد عليه كل يوم بالعلوفة والزاد وأريد النجدة والسلام. وبعث الكتاب مع عمرو بن سالم بن حميد

النخعي فلما ورد المدينة وسلم الكتاب إلى عمر بن الخطاب. قال عمر: من أين هذا الكتاب؟ قال: من عاملك يزيد بن أبي سفيان فقرأه، فلما أتى على آخره تفكر في أمر يزيد وما وقع له حتى دخل عليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فأراه كتاب يزيد من قيسارية الشام يطلب منه نجدة. فقال علي: لا تغتم على المسلمين فإن الله يفتحها على يديك رغماً فأنجد يزيد وأنفذ إليه الكتاب.

ذكر فتح مدينة حلب وقلعتها

قال الواقدي: كان مع أبي عبيدة عشرون ألفاً ومع كل من يزيد وعمرو بن العاص عشرة آلاف. فلما وصل كتاب عمر إلى أبي عبيدة أنفذ إلى يزيد ثلاثة آلاف فارس مع حرب بن عدي وبقي أبو عبيدة في سبعة عشر ألفاً وأكثرهم من اليمن، وكان أبو عبيدة قد صالح أهل قنسرين والعواصم على خمسة عشر ألف مثقال من الذهب ومثلها من فضة وألف ثوب من أصناف الديباج وخمسمائة وسق من التين والزيت، فلما تم الصلح وجاءوا بما ضمنوه من مدينتهم كتب لهم كتاباً وشرط فيه الشروط ودخل أبو عبيدة وخالد في رجال من المؤمنين وسادات المسلمين فخطُّوا بها مسجداً.

فبلغ ذلك أهل حلب من الصلح لقنسرين ومسير العرب فاضطربوا اضطراباً شديداً وكان عليهم رئيسان أخوان لأب وأم وكانا يسكنان في القلعة ولم تكن القلعة محيطة بالمدينة بل كانت المدينة منفردة بذاتها وكان البطريقان يقال لأحدهما يوقنًا والآخر يوحنًا وكان أبوهما ملك البلد وأعماله وضياعه ورساتيقه إلى حدود الدروب وإلى حدود الفرات، وقد ملك حلب سنين لا ينازعه فيها منازع. وكان هرقل طاغية الروم يهابه ويوقره ولا يحاربه كل ذلك لبقاء ملكهم واجتماع كلمتهم لأنه كان قد انتزع من رومية إلى أقصى البلاد لئلا يجيِّش عليه أحد جيشاً ولا ينازعه في ملكه لكثرة شره وتدبيره وشدة بني عمه، فلما نزل بالعواصم استخلص لنفسه قلعة حلب وبناها وحصنها ومكن في البلاد، فلما هلك آل الأمر بعده لولده يوقنًا وكان الكبير وكان شجاعاً بطلاً جامعاً للأموال مقداماً للحروب لا يصطلى له بنار ولا يدفع شره وكان أخوه يوحنًا ديناً قد نزع يده من الرياسة وترهب وكان أعلم الناس في أهل زمانه.

وأنه لما بلغهم الخبر أن أبا عبيدة قد قصد إليهم قال لأخيه يوقنًا: على ماذا عوَّلت؟ قال: على قتال العرب ولا أدعهم يقربون من أرضنا وبلادنا حتى يرى العرب أنِّي لست كمن لقوا من بطارقة الشام ولا من غيرها، وكان يوحنًا قد درس الإنجيل وقرأ المزامير، وليس له همة إلا عمارة الكنائس والأديرة وتشييد المواضع وكثرة الشمامسة والقسوس والرهبان والقيام بأمورهم، فلما بلغ هذين الأخوين فتح العواصم عنوة وقنسرين صلحاً، وأن العرب نازلون عليها وأن خيلهم تضرب إلى الفرات والعواصم

والبقاع؛ فأقبل يوحنًا على أخيه الأكبر يوقنًا وقال: يا أخي أريد أن أختلي بك الليلة وأشاورك وأطلعك على سري ورأيي وأشرف على سرك ورأيك. قال: نعم. فلما اجتمعا في الليل في دار كانت لأبيهما في القلعة وجلسا للمشورة أقبل يوقنًا على أخيه يوحنًا وقال: يا أخي ألا ترى ما نزل بنا من العرب الجياع الأكباد العراة الأجساد وما حل بأهل الشام منهم من القتل والنهب وأخذ الأموال! وأنهم لا ينزلون مدينة من مدن الشام إلا فتحوها وملكوا أهلها! فما ترى أن أصنع في أمر هؤلاء فكأنّي بهم وقد أشرفوا علينا؟

فقال يوحنًا: يا أخي إذ قد استشرتني في أمرك فإني أنصحك ولا أغشك إذا قبلت النصيحة وإن كنت أصغر منك سناً فإني أعلم عنك بصيرة، فوحق المسيح والقربان لئن قبلت مشورتي ليعلون أمرك ويسلم لك مالك ونفسك. فقال يوقنًا: يا أخي ما علمتك إلا ناصحاً فما عندك من الرأي. فقال: الرأي عندي أن ترسل رسولاً إلى العرب وتبذل لهم ما شاءوا وتسألهم الصلح وتتفق معهم على معلوم يدفع لهم في كل عام ما دامت الغلبة لهم! فلما سمع يوقنًا ذلك من كلام أخيه يوحنًا أقبل عليه وقد استوثق منه الغضب وقال: قبحك المسيح ما أعجز رأيك!! ما ولدتك أمك إلا راهباً أو قسيساً ولم أقلدك لا ملكاً ولا محارباً ولا مقاتلاً، والرهبان ليس لهم قلوب لأكلهم العدس والزيت والبقل ولا يأكلون اللحم ولا يعرفون النعيم وليس لهم بالقتال بصيرة ولا بملاقاة الرجال خبرة، وأما أنا فملك ابن ملك وليس بيني وبينهم إلا الحرب ولا ترى الملوك العجز. ويلك كيف نسلم ملكنا العرب ونعطيهم القياد من أنفسنا من غير حرب ولا قتال؟!

فلما سمع يوحنًا ذلك من أخيه تبسم من كلامه وتعجب كل العجب وقال: يا أخي، وحق المسيح إن أجلك قد اقترب لأنك صاحب بغي تحب سفك الدماء وقتل النفس، وما أظن جموعك أكثر من جموع الملك هرقل التي جمعها باليرموك مع ماهان ويوم أجنادين، وهؤلاء القوم قد أيدهم الله علينا فاتق الله ولا تسع في قتل نفسك.

فلما سمع يوقنًا كلام أخيه داخله الغضب وقال له: قد أكثرت وأطلت في مدحك العرب وإني لست كمن لاقوه من هذه الجموع التي ذكرتها ولا أقاس بهم ومع ذلك اعلم أن كل من ذكرت من أهل المدن وغيرها أسلم بلده عنوة أو صلحاً قبل أن يقاتل بلا عذر في القتال ويبذل المجهود عن نفسه، وإنّما جمعت الأموال من قبل إلى الآن لأدفع بها الأذى عن نفسي وإني مجمع على قتال العرب ومحاربتهم، فإن أظفرني الصليب بهم وأعانني المسيح عليهم طلبت العرب إلى أن أدخل خلفهم الحجاز

وأسود على سائر الملوك وأرجع إلى الشام ملكاً فلا يقدر هرقل أن ينازعني، وإن هزمتني العرب طلعت إلى قلعتي هذه ولزمتها فإني قد عبيت فيها من الزاد والأطعمة ما يكفيني طول دهري وأكون فيها عزيزاً إلى أن أموت ولا ألقي يدي إلى العرب ولا أبذل أموالي من غير طلب فلا تعارضني في شيء من أمر العرب ولا تدعني إلى الصلح وإلا بطشت بك قبلهم! واحتوى الشيطان على قلب يوقنّا وقد سولت له نفسه العمل. فلما سمع يوحنّا من أخيه يوقنّا هذا المقال قال له: كلامك عليٍّ حرام أبداً، حتى ترجع إلى رأيي وتعود إلى قولي ثم قام عنه مغضباً!

فلما كان من الغد جمع يوقنّا إليه جميع من التجأ إليه من العسكر من الأرمن والمتنصرة وغيرهم وعرضهم على نفسه، فمن أراد سلاحاً أعطاه وفرّق فيهم الأموال وجعل يهون العرب عليهم ويقول: إنما هم قليل ونحن أكثر منهم، لأن جموعهم قد تفرقت منها جماعة على قيسارية ومنهم من توجه إلى مصر. وعزم على قتال أبي عبيدة قبل أن يصل إليه وإلى بلده. ثم عمد إلى بطريق من بطارقته يقال له كراكس وضم إليه ألف فارس ووكله بحفظ بلده وسار يوقنّا بمن معه يريد أن يلقى جيش أبي عبيدة والمسلمين هو وقومه في اثني عشر ألف مدرع غير من كان معه بغير درع ونشرت أمامه الأعلام والصلبان وكان فيها صليب من الذهب والجوهر ومن حوله ألف غلام عليهم ثياب الديباج المنسوج بالقصب.

قال ابن ثعلبة الكندي: فأقام أبو عبيدة على مدينة قنسرين بعد أن فتحها بالصلح وبعد أن أتاه يزيد بكتاب عمر بن الخطاب ﷺ يأمره أن يبعث إلى يزيد بن أبي سفيان طائفة من جيشه فبعث له بثلاثة آلاف فارس لابسين السلاح الكامل وعوّل أبو عبيدة على المسير إلى حلب فدعا برجل من بني ضمرة وكان بطلاً مجرباً بشدة البأس وكان إذا ثبت على وجه الأرض للقتال لا يهاب الجحافل قلّت أو كثرت فضم إليه ألف فارس وصيره على مقدمته وقال: يا كعب لا تقاتل جيشاً لا تطيقه واختبر أمر هذا العلج واعرف خبره وأنا راحل من ورائك.

فسار كعب بن ضمرة يريد حلب وكان يوقنّا قدم أمامه عيوناً يأتونه بالأخبار فأتته جواسيسه يخبرونه أن خيول العرب قد أتت تريد بلده وقتاله. فقال لهم: في كم أتت العرب؟ قالوا: في ألف فارس وهم على ستة أميال من بلدك نزول. فكمن يوقنّا كميناً ثم سار إليهم بجيوشه وبطارقته، فلما أشرف عليهم وهم نزول على نهر يسقون خيلهم ويتوضئون فبينما هم كذلك إذ أشرف عليهم يوقنّا بجيوشه وبطارقته والصليب أمامه، فنادى المسلمون بعضهم بعضاً واستووا على متون خيولهم، وورد كعب بن ضمرة على فرسه وسبق في أول الخيل وأشرف على جيش يوقنّا فحزره أنه في خمسة آلاف

فارس وكان يوقنًا قد قسم عسكره شطرين النصف معه والنصف مع الكمين، فلما نظر كعب إلى يوقنًا وجيشه انقلب إلى أ صحابه وقال: يا أنصار دين الله إني نظرت عسكر عدوكم وحزرته فهو في خمسة آلاف وهم لكم مغنم ويقاتل الواحد منكم خمسة. قالوا: بلى والله، وأقبل أ صحابه يشجع بعضهم بعضاً فقربت الفئة من الفئة و صاح يوقنًا بأ صحابه ورجاله وغلمانه وعبيده وبطارقته وأمرهم بالحملة على المسلمين فحملوا بأجمعهم حملة صعبة وحمل عليهم المسلمون والتقى الجمعان وقاتلا قتال الموت وقد أيقن المسلمون بالظفر والغنيمة فطلع عليهم الكمين من ورائهم وأكبوا عليهم جميعاً.

قال مسعود بن عون العجي: شهدت الخيل التي بعثها أبو عبيدة طلائع مع كعب بن ضمرة وكنت فيها يوم التقى الجمعان وقد خرج علينا الكمين ونحن في القتال، ونحن لا نظن أن لهم كمينا يطلع من ورائنا وإذا بأ صوات حوافر الخيل أكبت علينا وأيقنا بالهلكة بعدما كنا موقنين بالغلبة و صرنا في وسط عسكر الكفار فلم يكن لنا بد من القتال فافترقت المسلمون ثلاث فرق فرقة منهم منهزمة وفرقة قصدت قتال الكمين وفرقة مع كعب بن ضمرة قصدت قتال يوقنًا ومن معه. فلله در كندة يومئذ لقد قاتلوا قتالاً شديداً وأبلوا بلاءً حسناً ووهبوا أنفسهم لله تعالى حتى قتل منهم ذلك اليوم مائة رجل في مقام واحد، وعمل أهل الكمين عملاً عظيماً، وكعب بن ضمرة قلق على المسلمين فجاهد عنهم وهو يجول بالراية وينادي: يا محمد يا محمد يا نصر الله انزل معاشر المسلمين اثبتوا إنما هي ساعة ويأتي النصر وأنتم الأعلون، فاجتمع المسلمون عليه والجراح فيهم فاشية! وقتل من المسلمين مائة وسبعون رجلاً، الأعيان: منهم عباد بن عاصم النخعي وزفر بن أم راضي وحازم بن شهاب المقري وسهل بن أشيم ورفاعة بن محصن وغانم بن برد، وسهيل بن مفلج وكان ممن شهد يوم السلاسل وتبوك بين يدي رسول الله ﷺ وشهد قتال اليمامة مع خالد بن الوليد.

قال مسعود بن عون: والله لقد تأسفنا على قتله ووجدنا فيه أربعين ضربة كلها في مقدمه رضي الله عنه ولم نجد واحدة في ظهره وكان الأعيان أربعين رجلاً، لأن الرجل منا ما قتل حتى قتل عدداً من المشركين، فلما نظروا إلى ثبات المسلمين مع قلتهم وما هالهم من قتل منهم، همَّ المشركون أن ينهزموا فثبتهم يوقنًا وقال: ويلكم ما العرب إلا مثل الذئاب إن صدمت ولت وإن تركت طمعت! ولما نظر كعب بن ضمرة إلى من قتل تحت رايته اغتم لذلك غماً شديداً فنزل عن فرسه ولبس درعاً من فوق درعه وشد وسطه بمنطقة ومسح وجه فرسه ومنخره وقبَّله بين عينيه وكان قد شهد معه المواطن وجاهد معه وبين يدي رسول الله ﷺ وكان قد سماه الهطال. فقال: يا هطال هذا يومك المحمود عاقبته فاثبت للقتال في طاعة الله، ولما استوى على متنه وقف أمام المسلمين وجعل ينظر إلى

القتلى وهو متفكر في أمره والراية بيده وهو ينتظر من أبي عبيدة جيشاً يقبل عليه أو طليعة تنجده فلم ير لذلك أثراً.

وذلك أن أبا عبيدة ما قطعه عن المسير إليه إلا قدوم أهل حلب عليه، وذلك أنه لما سار يوقنًا إلى حرب المسلمين اجتمع مشايخ أهل حلب والروسية بعضهم إلى بعض وقالوا: يا قوم تعلمون أن هؤلاء العرب قد أطاعهم أهل دين النصرانية والصليب ودخلوا في دينهم ومنهم من رجع إلى دينهم ومنهم من قاتلهم. فأما الذي قاتلهم فخسر فهل لكم أن تسيروا إلى أمير المؤمنين ونسأله الصلح ونصالح عن مدينتنا وندفع إليه ما أحب من أموالنا، فإن ظفر المسلمون بالبطريق يوقنًا نكن نحن آمنين غير وجلين منهم ونقر عينا من بأسهم، وإن صالح يوقنًا القوم نكن نحن قد سبقناه إلى الصلح، وإن غلب ورجع سالماً لم نبلغه ولم نعلمه، واستوى رأيهم على ذلك فخرج منهم ثلاثون رجلاً من رؤسائهم وسلكوا طريقاً غير طريق يوقنًا حتى أشرفوا على عسكر المسلمين فنادوا: الغوث الغوث، فلما سمع المسلمون منهم ذلك أسرعوا إليهم وأوقفوهم بين يدي أبي عبيدة فقال خالد: يوشك أن هؤلاء يطلبون الصلح والأمان لأنفسهم وهم أهل حلب. قال أبو عبيدة: أرجو ذلك إن شاء الله تعالى، وإن صالحوني صالحتهم! وهو لا يعلم ما أصاب طليعة كعب بن ضمرة من الحرب الشديد والقتل العتيد وكان قدومهم عليه ليلاً والنيران تضرم بين يديه وكان في العسكر رجال قيام في صلاتهم يتلون القرآن فجعل بعضهم يقول لبعض بهذه الفعال ينصرون علينا، فلما سمع الترجمان مقالهم أخبر أبا عبيدة بما قد تناجوا بينهم. فقال أبو عبيدة: إنَّا قوم قد سبقت لنا العناية من ربنا وإنَّا رجال لا نريد عن الله ورسوله بدلاً ولن نجزع من قتال الأعداء!

فأخبرهم الترجمان بذلك، ثم قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن سكان حلب من تجارها وسوقتها ورؤسائها وقد جئنا نطلب منكم الصلح. فقال أبو عبيدة: فكيف نصالحكم وقد بلغنا أن بطريقكم قد صمم على قتالنا وقد حصن قلعته وجعل فيها ما يقوته سنين واتخذ الجند وأكثر من ذلك وما لكم عندنا صلح؟ فقالوا: أيها الأمير إن صاحبنا قد خرج من عندنا يريد حربكم وقتالكم. قال أبو عبيدة: ومتى خرج. قالوا: خرج سحراً ونحن من بعده وسلكنا طريقاً غير طريقه وإنا نرجو أنه هالك لا محالة لأنه ركب البغي ولم يرض بالصلح وقد أطاع هواه فقد وقع في شرك الردى. فلما سمع أبو عبيدة بخروج البطريق خاف على طليعته منه فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم هلك والله كعب ومن معه إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ثم أطرق إلى الأرض فقالوا لبعض مشايخ أهل حلب: كلم لنا الأمير في الصلح فكلمه. فقال أبو عبيدة بضجر: لا

صلح لكم عندنا، فخاف الشيوخ على أنفسهم وقالوا: إنا قد اجتمع عندنا من القرى والرساتيق خلق كثير، فإن صالحتمونا عمرنا لكم الأرض وكنا لكم عوناً على عمارتها وعشنا في ظلكم أيام عدلكم، وإن أنتم أبيتم ذلك فر الناس عنكم وطلبوا أقصى البلاد وشاع الخبر عنكم أنكم لا تصالحون فلا يبقى حولكم أحد.

فأعلمه الترجمان بما قالوا فجعل ينظر إليهم وإذا قد برز من القوم وصاح رجل أحمر الوجه وكان من حكماء الروم فصيحاً بلسان عربي فقال: أيها الأمير اسمع ما ألقيه إليك من العلم الذي أنزل الله في الصحف على الأنبياء. قال أبو عبيدة: قل لنسمع فإن كان حقاً علمناه، وإن كان غير حق لا نسمعه ولا نعمل به! وكان اسمه دحداح. فقال: أيها الأمير إن الله ﷻ أنزل على أنبيائه يقول: أنا الرب الرحيم خلقت الرحمة وأسكنتها في قلوب المؤمنين وإني لا أرحم من لا يرحم، من أحسن أحسنت إليه، ومن تجاوز تجاوزت عنه، ومن عفا عفوت عنه، ومن طلبني وجدني، ومن أغاث ملهوفاً أمنته يوم القيامة وبسطت له في رزقه وباركت له في عمره وأكثرت له أهله ونصرته على عدوه، ومن شكر المحسن على إحسانه فقد شكرني! وإنا قد أتيناك ملهوفين خائفين فأقل عثراتنا وآمن روعاتنا وأحسن إلينا! فبكى أبو عبيدة من قوله وقرأ "إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ"، ثم قال: اللهم صل على محمد وعلى جميع الأنبياء، فبهذا والله أرسل نبينا أرسله الله إلى جميع الخلق والحمد لله على هدايته لنا، ثم أقبل على المسلمين وهم حوله وفيهم الرؤساء من المهاجرين والأنصار وقال لهم: الحمد لله على هدايته، ثم قال: إن هؤلاء أهل متجر وسوقة وضياع وهم مستضعفون وقد رأينا أن نحسن إليهم ونصالحهم ونطيب قلوبهم ومتى كانت المدينة في أيدينا والسوقة معنا فإنهم يميروننا بالعلوفة ويعلموننا بما يعزم عليه عدونا ويكونون عوناً لنا عليه.

فقال رجل من المسلمين: أصلح الله الأمير إن مدينة القوم بالقرب من القلعة، ولا نأمن أن القوم يدلون على عوراتنا ويخبرون بأحوالنا وما أتى القوم إلا ليخدعونا ألا ترى إلى بطريقهم وقد خرج يبغي قتالنا وحربنا فكيف يطلب هؤلاء الصلح منا؟! ولا شك أنهم مكروا بكعب بن ضمرة ومن معه من المسلمين!س فقال أبو عبيدة: أحسن ظنك بالله وثق بالله فإن الله ينصرنا ولا يسلط علينا عدونا، فرحم الله من قال خيراً أو صمت وإذاً أشرط عليهم النصيحة في صلحهم للمسلمين. ثم أقبل على القوم وقال: إني أريد أن تبذلوا في صلحكم ما بذله أهل قنسرين. فقالوا: أيها الأمير إن قنسرين أقدم من مدينتنا وأكثر جمعاً ومدينتنا خالية من السكان لجور صاحبنا لأنه قد أخذ أموالنا وغلاتنا وأصعد الكل إلى قلعته وما بقي عندنا إلا الضعفاء ومن لا مال له! وإنا نسألك الترفق بنا والعدل فينا والإحسان إلينا. فقال أبو عبيدة: فما الذي تريدون أن تبذلوا في صلحكم؟

قالوا: نعطي نصف ما أعطى أهل قنسرين! فقال أبو عبيدة: قد قبلت منكم ذلك على أننا إذا نزلنا بصاحبكم أعنتمونا بالميرة والعلوفة وتبيعون وتشترون في عسكرنا ولا تكتموا عنا خبراً تكونون تعلمونه من أعدائنا ولا تتركوا جاسوساً يتجسس علينا وإن رجع إليكم بطريقكم منهزماً تمنعوه أن يصل إلى القلعة. فقالوا: أيها الأمير أما قولك هذا أن نمنع البطريق أن لا يصعد إلى القلعة فما نجد إلى ذلك من سبيل ولا نقول لك ما لا نفعله، ما لنا به طاقة ولا بمن معه من أعوانه وجنوده.

قال أبو عبيدة: فلا تمنعوه من الصعود إلى القلعة وعليكم عهد الله وميثاقه والأيمان المؤكدة الغليظة أن لا تقولوا هذا القول وأن توفوا لنا كل شرط تم عليكم، ثم حلفهم بالأيمان التي يعرفونها فحلف القوم عن آخرهم وصالحوا عن رجالهم ودوابهم وأبنائهم ونسائهم وعبيدهم وسائر أهاليهم وانتهوا على ذلك. فقال أبو عبيدة: إنكم قد حلفتم وقد قبل قولكم وأيمانكم فإن أصبنا أحداً قد أخلف أو علم من البطريق علماً ولم يعلمنا به فقد وجب عليه القتل، وأخذ ماله وولده حلال لنا لا يطلبنا الله بذمته، ومتى نقضتم ما شرطنا عليكم فلا عهد لكم عندنا ولا ذمة لكم علينا ولنا عليكم الجزية في العام المتقبل. فرضي أهل حلب بما شرطه عليهم أبو عبيدة وأخذوا عهدهم وكتب أسماءهم وعزم القوم على الانصراف إلى ديارهم، وقال لهم أبو عبيدة: على رسلكم حتى أبعث معكم من يسير معكم إلى مأمنكم فقد وجب علينا حفظكم إلى أن تعودوا سالمين إلى بلدكم. فقال له الدحداح: أيها الأمير! إننا نرجع من الطريق الذي جئنا منه وما نريد أحداً يسير معنا، فتركهم أبو عبيدة وبات بقية ليلته قلقاً على كعب بن ضمرة ومن معه.

قال الواقدي: ورجع القوم من ليلتهم إلى حلب وانفجر الصبح ولم يصلوا، فلما أشرفوا على حلب نظر إليهم بعض أعلاج البطريق وهم راجعون فأقبل إليهم وسألهم: من أين أقبلتم، وما صنعتم؟ فظنوا أنه من أهل حلب فأخبروه بصلحهم مع أبي عبيدة فتركهم ومضى. وأنَّ القوم استقبلهم أهل حلب فسألوهم فأخبروهم بالصلح ففرحوا بذلك! وأقبل العلج حتى أشرف على عسكر يوقنّا وهو نازل على أصحاب رسول الله ﷺ وقد أحاط بهم وهو يظن أنه قد ملكهم إذ أتى عليه العلج فقال له: أيها البطريق إنك غافل عما نزل بك ودهمك! قال له: وما ذاك ياويلك؟ قال له: إن أهل بلدك قد صالحوا العرب وكأنك بهم وقد ملكوا القلعة وأخذوا الأموال والنسوان، فلما سمع يوقنّا ما أخبر به العلج خشي على قلعته أن يملكوها في غيبته فانعكس عليه ما كان يؤمل أن يفوز به من الظفر بأصحاب رسول الله ﷺ، وكان قد قتل من المسلمين نيف عن المائتين، وكعب قد أجهد نفسه في الحرب وأيقنوا أنهم هالكون لا محالة.

قال كعب بن ضمرة: وكنت ذلك اليوم صاحب القوم وأنا أثبتهم في الحرب، وإلى الحرب أنهض بهمتي وأدفع عنهم بمهجتي فإذا أجحفني القتال وركبني الحرب التجأت إلى أصحابي وأنا مع ذلك أتوقع فرجاً من الله تعالى وأترقب راية أبي عبيدة أن تطلع فبعد علينا ذلك ولم تزل الحرب بيننا يوماً وليلة إلى الصباح من اليوم الثاني، فأقسم بالله إن كان أحدنا ليصلي ولا حصل له زاد يأكله ولا ماء يشربه وأنا بين اليأس والرجاء أترقب طريق قنسرين أن تطلع منه علينا راية الإسلام فما أرى لها أثراً، فرأيت عند الصباح جيش العدو وقد اضطرب من جوانبه وقد علت لهم ضجة عظيمة من جميع جوانبه فقلت: ما هذا إلا مدد لحقهم من البلد أو من الملك فالتجأت إلى كلمة الشدائد، وهي لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال كعب بن ضمرة: ... ما قلت الكلمة حتى رأيت جيش العدو وقد انكشف عنا على عقبه فقلت: الحمد لله حمد الشاكرين وإني أظن أن صائحاً صاح بهم من السماء فبددهم أو ملائكة نزلت عليهم كيوم بدر فلم أر لهم أثراً! فهممت أن أتبعهم فصاح المسلمون إلى أين يا كعب؟! أما كفاك ما نحن فيه انزل بنا إلى الأرض وارض بما نحن فيه من التعب والنصب، ونؤدي فرضنا ونريح خيولنا فما رد الله هؤلاء القوم إلا بمشيئته وقدرته.

قال الواقدي: وأبطأ خبر كعب على أبي عبيدة، فلما صلى الصبح انفتل من صلاته وأقبل على المسلمين وخاطب من بينهم خالداً، وقال: يا أبا سليمان إن أخاك أبا عبيدة ما رقد الليلة غمًّا، وإنه كان يجب علينا الشكر بما فتح الله علينا، وأن نفسي تحدثني بأنَّ ألفاً مع كعب بن ضمرة قد قتلوا لما أخبرني هؤلاء الذين يسألون الصلح أن صاحبهم يوقنًا قد سار إليهم ولم أر أثراً وأظن أنه صادف أصحابنا وقتلهم وأفناهم عن آخرهم! فقال خالد: والله إنِّي ما نمت مثلك من الغم عليهم فما الذي عزمت أن تصنع؟ قال: الرحيل، ثم أمر الناس بالرحيل، وارتحلوا، وساروا يريدون حلب، وعلى المقدمة خالد بن الوليد، وعلى الساقة أبو عبيدة، فما كان غير بعيد حتى أشرف خالد على المسلمين وهم نيام، وقد أقاموا لهم من الديدبان من يحرسهم.

فلما أشرف عليهم خالد والراية في يده رفعها فوق رأسه، فلما رآها الديدبان صاح: النفير يا أنصار الدين فثاروا عن مضاجعهم كأنهم أسد ثائرة واستووا في متون خيولهم واستقبلوا صاحب الراية فعرفوه فصاح بعضهم ببعض: هذه والله راية الإسلام والمسلمين، فنزل خالد وسلم عليهم واتصلت بهم الساقة وأقبل أبو عبيدة فلما نظر كعب بن ضمرة حمد الله وأثنى عليه ونظر إلى موضع القتلى مطروحين وما كان من المسلمين ورأوهم، فلما نظروا إلى ذلك عاد فرحهم ترحاً واسترجعوا وقالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم إنا لله وإنا إليه راجعون، وسأل كعباً: كيف قتل

أصحابك هؤلاء ومن قتلهم؟ فأخبره كعب بقتال يوقنًا وأنه أشرف هو وقومه ومن كان معه على الهلاك حتى لم يبق فيهم حركة ونمنا ليلتنا هذه، فلما أصبحنا وإذا هم قد صاحوا وانقلبوا راجعين عنًا من غير قتال، فقال أبو عبيدة: فسبحان مسبب الأسباب ليت أبا عبيدة قتل أمامهم ولم يقتلوا تحت رايته، ثم أمر بدفن المسلمين بعدما جمعهم زمراً زمراً و صلى عليهم و دفنوهم بأسلابهم و دمائهم، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يحشر الله الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يوم القيامة ودماؤهم على أجسادهم: اللون لون الدم، والريح ريح المسك، والنور يتلألأ عليهم ويدخلون الجنة"!

فلما واروهم في حفرهم قال لخالد: إن كان عدو الله يوقنًا رجع إلى القوم، وعلم بصلحهم لنا فيلقون منه تعباً عظيماً فالحق بهم فقد وجب علينا أن نذب عنهم لأنهم تحت ذمتنا! وارتحل أبو عبيدة يريد حلب، فلما وصل إليها رأى البطريق وجنوده قد أحدقوا بأهل البلد وهم يريدون قتلهم، ويقول لهم: يا ويلكم صالحتم العرب عن أنفسكم و صرتم عوناً لهم علينا؟! قالوا: قد فعلنا ذلك وأنهم قوم منصورون! فقال: يا ويلكم إن المسيح لا يرضى بفعلكم فوحق المسيح لأقتلنكم عن آخركم أو تخرجون معي إلى قتالهم وتنقضون ما بينكم وبينهم من العهد والميثاق فأخبروني من بدأ بهذا الأمر حتى أبدأ به، فلم يطيعوه على ذلك. فقال لعبيده ادخلوا عليهم وائتوني بهم لأقتلهم، فقد أخبرني فلان أنه لقيهم وعرفني بهم، فهجم العبيد عليهم وجعلوا يقتلونهم على فرشهم وأبواب منازلهم! فسمع أخوه يوحنًا الضجة في البلد وهم في القلعة فنظر إلى أخيه وقد قتل من أهل البلد ثلثمائة، فصاح بهم وبأخيه: على رسلك لا تفعل فإن المسيح يغضب عليك وقد نهانا أن نقتل عدونا فكيف بمن هو على ديننا؟

فقال يوقنًا لأخيه: إنهم صالحوا العرب عن البلد و صاروا لهم عوناً علينا. فقال يوحنًا: وحق المسيح لا أبقت عليك العرب أبداً وأنَّ لهم من يقتص منك. قال: ومن يقتص مني؟ قال: المسيح يقتلك كما قتلتهم بغير ذنب! فقال يوقنًا: أنت حملتهم على ذلك وأنت أول من أبطش به، ثم عمد إلى أخيه وقبض عليه وجرد سيفه ليعلوه به، فلما نظر يوحنًا إلى أخيه وقد جرد سيفه وعلم أنه هالك رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم اشهد على أني مسلم وأني مخالف لدين هؤلاء القوم، وأنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ثم قال لأخيه: اصنع ما أنت صانع فإن كنت قاتلي فإني صائر إلى جنات النعيم! فورد على يوقنًا من إسلام أخيه مورد عظيم ومن أهل بلده ومن فزعه من المسلمين فحمله الغيظ على أن يرمي برأس أخيه عن جسمه والتفت إلى أهل البلد فوجدهم يستغيثون فلا يغاثون ويسألونه فلا يجيبهم ولا يكف عنهم فكثر

منهم الضجيج وعلت الجلبة، وقد أخذوا عليهم البلد من سائر جوانبها، وقد أيس أهل حلب من نفوسهم، وإذا بالفرج وقد أتى، والمعونة وقد أدركتهم وأشرفت عليهم رايات المسلمين وأبطال الموحدين وهم ينادون بكلمة التوحيد ويقدمهم خالد بن الوليد، فلما نظر خالد إلى أهل حلب ولهم ضجيج بالصياح والبكاء قال لأبي عبيدة: أيها الأمير هلك والله أهل صلحك وذمامك كما ذكرت فصاح بجواده وحمل الراية وزعق في القوم وقال: أفرجوا معاشر الأعلاج عن أهل صلحنا ثم أجاد فيهم الطعن وحمل المسلمون معه، وبذلوا السيف في الأعلاج، فلما نظر يوقنًا إلى ذلك انهزم إلى القلعة ومعه بطارقته.

قال محصن بن عترة: فرج الله عن أهل البلد بقتل الأعلاج يوم حلب في البلد فمن لجأ إلى القلعة سلم ومن طلب الهرب قتلناه، فكان جملة من قتل يوقنًا من أهل صلحنا ثلثمائة، وقتلنا نحن من أصحابه ثلاثة آلاف أو يزيدون فكانت وقعة عجيبة فرح المسلمون بها.

قال الواقدي: صعد يوقنًا إلى القلعة هو ومن معه من جنده واستعد للحصار ونصب المجانيق ونشر السلاح على الأسوار وكثر آلة الحصار، وأما أهل حلب فإنهم أخرجوا لعساكر المسلمين أربعين أسيراً من البطارقة. فقال لهم أبو عبيدة: لأي سبب أسرتم هؤلاء؟ قالوا: لأنهم من أصحاب يوقنًا هربوا إلينا فلم نر أن نخفيهم عنك لأنهم ليسوا منا ولا معنا في الصلح قال فعرض عليهم الإسلام فأسلم منهم سبعة، أما الباقون فأبوا فضرب رقابهم وقال لهم: لقد نصحتم في صلحكم وسترون منا ما يسركم وصار لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وهذا بطريقكم قد تحصن في هذه القلعة فهل تعرفون لها عورة تدلونا عليها حتى نقاتلهم منها فإن فتحها الله علينا جعلناها لكم غنيمة مع ما غنمتم من قومكم حتى نكافئكم بفعلكم الجميل؟

فقالوا: أيها الأمير: والله ما نعرف لها عورة وأن يوقنًا قد شحن طرقاتها وقطع مسالكها، ووعَّر فجاجها، وهذا ما نعلمه ولولا أنه قتل يوحنًا لكان أخذها سهلاً لكم. فقال أبو عبيدة: وما جرى له؟ فأخبروه بخبره وحديثه مع أخيه وأنه أسلم بعدما رفع يديه إلى السماء وما ندري ما قال غير أننا سمعنا طرف كلامه وهو يقول: اللهم إني أشهد ألا إله إلا أنت وأن عيسى عبدك ورسولك ومحمداً عبدك ورسولك ختمت به الأنبياء وجعلته سيد المرسلين ولا دين أعلى من دينه فاصنع ما أنت صانع، فلما أسلم قتله. فلما سمع أبو عبيدة ذلك قال: في أي موضع قتله؟ ثم وثب وأخذ خالداً معه وجماعة من المسلمين وأتوا إلى موضع قتله وهو رأس سوق الساعة فوجده ملقى على ظهره وكأنه البدر ليلة تمامه مشيراً بإصبعه إلى السماء وقد مات وأصبعه قائمة فأخذه أبو

عبيدة وكفنه و صلى عليه و دفنه في مقام إبراهيم. فلما واروه أتى إلى أبي عبيدة رجل من المسلمين، فقال: أ صلح الله الأمير انظر إلى هؤلاء القوم فإن كانوا من حزبنا نصحوا و دلونا على عورات قومهم. فقال: لا والله ما يفعلون ذلك أبداً! فعندها أقبل أبو عبيدة على المسلمين، وقال: أ شيروا عليَّ رحمكم الله، فقال له ذلك الرجل وكان ا سمه يونس بن عمرو الغساني وكان رجلاً بصيراً بالشام وجباله ومدنه وجميع أرضه وعارفاً بطريق الشام: أ صلح الله الأمير انظر إلى ما أعرفه من البلد وما عندي من الرأي. قال أبو عبيدة: تكلم يا أبا عمرو فأنت عندنا نا صح للمسلمين. فقال: إن الله قد فتح على يدك الشام و سهله وجبله وحزنه ووعره وقتل طاغية الكفر وحاميته، وأما بقايا عساكرهم فهي من وراء الدروب وهي جبال وعرة ومضايق والقوم قد رعبت قلوبهم مما أباد الله منهم، وليس لهم قلوب يقاتلون بها المسلمين فحا صر هذه القلعة وبث الخيل و شن الغارات في بقايا البلاد و شاطئ الفرات فما لهم زاد يقوم بهم.

فتبسَّم خالد من كلام الغساني، وقال: هذا والله هو الرأي وأنا أ شير عليكم بمشورة أخرى: أن نزحف نحو القلعة فلعل الله أن يفتحها في وقتنا هذا فإني أخشى إن طال بنا المقام أن تعطف علينا جيوش الروم من جهة أخرى فيحولوا بينها وبيننا. قال أبو عبيدة: يا أبا سليمان لقد أ شرت فأحسنت وقلت فصدقت! ثم أمر أبو عبيدة بالزحف إلى القلعة فترجلت الفرسان عن خيولهم واختلط العبيد والسادات وافتخرت القبائل وانبثت العشائر وتجاوبوا بالأ شعار وتداعوا بالأنساب.

قال مسروق بن مالك: فوالله ما رأيت في قتال حصون الشام يوماً كان أعظم من ذلك اليوم لأننا كنا نشبه دوران الحرب كدوران الرحى تهشم ما دارت عليه وقد برزنا إليهم في أول حربهم، وتبادرت أبطال اليمن و سادات ربيعة ومضر يتلو بعضهم بعضاً وجعلوا يطلبون القلعة من حيث لا طريق عليها. فإذا دنوا منها أخذتهم الحجارة من كل جانب ورموهم بالمجانيق والغرازات، وكنت أنا وأ صحابي أقرب الناس إلى الأرض ففزعنا راجعين على أعقابنا يدفع بعضنا بعضاً لا نظن أن ينجو منا أحد فوقعت الخذلة في المسلمين وقد شدخت منا الحجارة خلقاً كثيراً، فقتلت بعضنا وبعضنا رمته فكان من جملة من قتل يوم حصار قلعة حلب بالحجارة عامر بن الأ صلع الربعي، ومالك بن خزعل الربعي وحسان بن حنظلة ومروان بن عبد الله و سليمان بن فارغ العامري وعطاف بن سالم الكلابي و سراقة بن مسلم بن عوف العدوي ورجال من أهل اليمن من آل عامر ومن بني كلاب وغيرهم و سبعة من بني عبد الله.

فعندها نصب أبو عبيدة رايته خارج المدينة وجعل ينادي بالمسلمين فاجتمعوا إليه. فقال: أيها الناس إنكم قاتلتم اليوم على غرَّة فادفنوا الشهداء و شدوا كل من

أ صابه جرح فانتدب المسلمون إلى ذلك وفرح الروم بهزيمة المسلمين وما قد نزل بهم. فقال لهم يوقنّا: إن العرب لا تدنوا من القلعة بعد هذا اليوم أبداً، وإن حا صرونا فلأكيدنهم ولأهبطن إلى عسكرهم. ثم انتخب ألفين من خيار بطارقته وأبطاله، وقال لهم: انزلوا مسرعين وليحذر بعضكم بعضاً وميلوا على طرف عسكر المسلمين إذا خمدت نيرانهم واغتنموا غرتهم وأمر عليهم وزيره، فنزلوا ليلاً من القلعة وجعلوا يدورون حول العسكر إلى أن أتوا إلى مكان، وقد خمدت نيرانهم، وكان القوم با دية من أهل اليمن مثل مرا د وبني كلاب وعبيدهم.

قال عبد الله بن صفوان البكي: كنا تلك الليلة غا دين من عدونا آمنين لكثرتنا وقد غفل حر سنا، فلم نشعر إلا وجماعة الروم قد هجموا علينا وهم ينا دون بلغتهم وقد أعلنوا التبهرج بزينتهم فلا نعلم ما يقولون ووضعوا السيف فينا فكان النجيب منا من ا ستوى على جوا ده وطلب النجاة وهو لا يعلم من أين هي ولا كيف يخلص، وقد وقعت الجندلة في أبطال المسلمين وعساكرهم والقوم ينا دون النفير النفير دهينا ورب الكعبة، وهم يسرعون إلى خيمة أبي عبيدة وينا دون: أيها الأمير كبسنا يوقنّا، فعندها ركب الأمير في بعض الرجال وجعل يدور حول العسكر فنظر صاحب الروم إلى العرب وقد لحقته، فصاح بأ صحابه: من كان أخذ شيئاً فليتركه ويطلب نجاة نفسه. وأخذوا من رجالنا نحو خمسين رجلاً من أخلاط الناس وأكثرهم من ربيعة ومضر ومضوا يجمع بعضهم بعضاً ويطلبون القلعة! فلما نظر خالد إلى ذلك حمل في أ صحابه واقتطع من الروم زهاء من مائة رجل ووضع فيهم السيف فقتلهم عن آخرهم فلما و صل أ صحاب يوقنّا إلى القلعة فتح لهم وأ دخلهم.

فلما أضاء الفجر وطلعت الشمس دعا يوقنّا بالمسلمين الخمسين رجلاً وهم موثقون بالحبال، فقربهم إلى موضع ينظرهم المسلمون ويسمعون أ صواتهم وهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى قتلوا عن آخرهم! فلما نظر أبو عبيدة إلى ذلك أمر منا دياً ينا دي في عسكره عزيمة من الله ورسوله ومن الأمير أبي عبيدة: على كل رجل لا يكل حرسه إلى غيره، وليكن كل رجل منكم حارس نفسه، ولا يتكلم بعضكم مع بعض. فأخذ القوم حذرهم وأعدوا حرسهم، وأقبل يوقنّا يدبر أمره في مكيدة أخرى ليكيد بها المسلمين إذ علم أنهم محا صرون ومع ذلك جوا سيسه تأتيه بالأخبار في الليل والنهار وكان أعظم جوا سيسه من متنصرة العرب لأنهم كانوا يحسنون لسان الرومية.

فبينما يوقنّا ذات يوم جالس في قلعته والبطارقة من حوله وقد أضر بهم الحصار وأ شد ما كان عليهم من أهل المدينة لأنهم لا ينظرون إلى رجل من أ صحابه

يعرفونه إلا أخذوه وسلموه للمسلمين، وإذا بجاسوس قد أقبل وهو من عيونه، فقال له: أيها السيد إن أردت أن تكيد العرب فهذا وقتك، فقال له يوقنًا: وكيف ذلك. وما الذي عندك من الخبر؟ قال: إن العلافة منهم قد خرجوا إلى وادي بطنان وقد صالحوا أهله وعلوفة العرب وميرتهم منه، وقد رأيت منهم جمالاً وبغالاً ومعهم طائفة منهم وعليهم القمصان الخلقة وبأيديهم الرماح المشبعة وهم يقصدون القرى في طلب الميرة وهم قليلون وليس هم في كثرة. فلما سمع يوقنًا ذلك من جاسوسه، اختار ألفاً من أصحابه وقال لهم: أصلحوا شأنكم فوحق المسيح لأضيقنَّ على العرب مسالكهم! ولأقطعنَّ عليهم طرقاتهم! فلما أقبل الليل فتح لهم الباب، وسار الجاسوس أمامهم حتى استقاموا على الجادة وجعلوا يسيرون تحت جنح الليل فبينما هم كذلك، إذا هم براع ومعه سرح من البقر يريد بها بلده، وهو يسير بها سيراً عنيفاً، فلما نظروا إليه أسرعوا نحوه وقالوا: أحسست بأحد من العرب قد عبر عليك؟ قال: نعم والشمس عند الغروب قد اصفرّت وهم نحو مائة رجل على خيول وهم مسرعون ومعهم جمال وبغال وهم يريدون الميرة من هذا الوادي ممّن هم في صلحهم ولسنا نخاف منهم.

فقال له المقدم عليهم: الآن قد ألقيت علينا من صلح أهل هذا الوادي ما لم يكن عندنا منه خبر فبحق المسيح أخبرنا بأي طريق ذهبت العرب؟ فقال: من هاهنا وأومأ بيده إلى الشرق فصار البطريق بمن معه ولم يعرفوا أن صاحب البقر منهم حتى إذا قرب الصبح أشرفوا على خيل المسلمين وكان الأمير عليها يقال له مناوش، فلما نظر مناوش إلى خيل الروم قد أقبلت أقبل على أصحابه وقال: يا بني العرب هذا بطريق من بطارقة الروم قد أقبل إلينا فدونكم إياه والجهاد والصبر على الشدة تنالوا الجنة ثم حمل وحمل معه أصحابه فحملت عليهم الروم فثبت لهم المسلمون واقتتلوا قتالاً شديداً وقتل مناوش بن الضحاك والغطريف بن ثابت ومنيع بن ثابت ومنيع بن عاصم وكهلان بن مرة فقتل من المسلمين ثلاثون رجلاً كلهم من طيء وانهزم الباقون وملكت الروم ما كان مع المسلمين من الإبل والبغال وعاد المسلمون منهزمين! فعند ذلك أقبل البطريق على أصحابه، وقال: ارموا الأحمال عن هذه الدواب واعقروها وسوقوا بقية الدواب بما عليها فإنها لنا ميرة واطلبوا الجبل واختفوا عن أعين العرب وإلا ففي هذه الساعة تطلع علينا خيول العرب كالرياح تهزمكم فاكمنوا حتى إذا جاء الليل طلبنا القلعة واعتصمنا بها ففعلوا ذلك وقتلوا الجمال وساقوا الدواب والتجؤوا في الجبل إلى قرية فأقاموا بقية يومهم يرقبون الليل ليرجعوا إلى القلعة وأقاموا لهم ديدباناً.

قال عوف بن صباح الطائي: كنت في الخيل لما قتل عمي مناوش، ونحن في قلة وقد دهمتنا الخيل، فلما نظرنا إلى كثرة الروم وشدة بأسهم مع قلتنا أخذنا على

أنفسنا وأتينا المسلمين فبادر إلينا أبو عبيدة، وقال لنا: ما وراءكم؟ قلنا: الحرب والطعان، قتل منا مناوش وقتل معه خلق كثير من فرساننا وأخذ ما كان معنا من الزاد والدواب. فقال أبو عبيدة: وما الذي دهاكم وقد حاصر الله الروم وما يجسر أحد أن يخرج منهم؟ قالوا: لا علم لنا غير أنا رأينا بطريقاً عظيماً قد أشرف علينا وهو في عدة حسنة وخيول كثيرة مستعدين للقتال لا نعلم عددهم ولا من أين أتى مددهم فهجموا علينا ونحن سائرون فأصيب أميرنا وقتل رجالنا وأخذوا ما كان معنا من الدواب والزاد!

فلما سمع أبو عبيدة ذلك دعا بخالد بن الوليد إليه وقال: يا أبا سليمان أنت لها والمعد لمثلها وأنا واثق بالله ثم بك مع أني أستخير الله في جميع أموري، سر على بركة الله تعالى وخذ معك من المسلمين من أردت لعلك أن تقفو القوم وتعاني موضع أثر الوقعة وتتبع آثارهم عسى الله أن يوقعنا بهم واطلبهم أينما كانوا وحيث ساروا لعلك تأخذ بثأر المسلمين، واعلم أننا صالحنا أهل الوادي وأننا لا ننقض عهدنا ولا نحول عن قولنا إلا أن يكون القوم قد مكروا بنا فنجد إلى قتالهم سبيلاً فاتق الله فيهم، سر يرحمك الله. فأسرع خالد إلى خيمته ولبس سلاحه واستوى على متن جواده وهم بالمسير وحده. فقال له أبو عبيدة: إلى أين يا أبا سليمان؟ قال له: أسارع إلى ما أمرتني به. فقال له: خذ من أردت معك من المسلمين. فقال خالد: أنا أمضي وحدي وما أريد أحداً! فقال له أبو عبيدة: كيف تمضي وحدك وعدوك في عدد كثير. قال خالد: لو كانوا في ألف أو ألفين ألقاهم بمعونة الله تعالى. فقال له أبو عبيدة: إنك كذلك ولكن خذ معك رجالاً قال فأخذ ضراراً وأمثاله وسار حتى أتى إلى موضع الوقعة فرأى القتلى مطروحين ورأى حولهم أهل الوادي وهم يبكون خوفاً من المسلمين على أنفسهم وذراريهم وأن العرب تطالبهم بهم.

فلما طلع عليهم خالد ومن معه كأنهم شعلة نار تصارخ القوم في وجهه وألقوا أنفسهم بين يديه، فقال لهم خالد: من هؤلاء القوم الذين قتلوا أصحابنا. قالوا: إنا نحن بريئون من دماء أصحابكم ونحن في صلحكم فاستحلفهم خالد أنهم لا يعلمون من قتلهم فحلفوا له فقال لهم: من الذي أوقع بأصحابي. فقالوا: بطريق بعثه يوقنّا من القلعة ومعه ألف فارس من أشد قومه وأن لهم في عسكركم عيوناً يخبرونه بما أنتم فيه كل ساعة، فقال لهم: وفي أي طريق قصدوا. قالوا: في هذا الطريق، فقال خالد: أو ما حلفتم أن ما عندكم علم بهم، قالوا: هذا الذي يخبرك من أهل حلب قد أتى يشتري طعاماً ولولا أنك أقبلت في هذه الساعة ما كنا عرفنا من قتلهم، فقال له خالد: أعلى هذا الطريق أخذوا؟ فقال له الرجل: نعم ورأيتهم يطلبون الجبل، فقال خالد لأصحابه

إن القوم علموا أنهم لابد لهم من خيل تطلبهم وتتبعهم وقد عدلوا عن طريقنا حتى إذا هجم عليهم الليل رجعوا إلى قلعتهم فعوَّلوا على المسير في طلبهم. ثم إنهم أرخوا الأعنة وخالد يقدمهم وقد أخذ معه رجالاً من المعاهدين يقفون بهم أثر الطريق والقوم، فلما حصلوا على الطريق. قال خالد لواحد من المعاهدين: ألهم طريق إلى قلعتهم غير هذا؟ قال: نعم ولكن كن هاهنا فإنك تفوز بهم إن شاء الله تعالى.

فنزل خالد ومن معه في الوادي، وهم يرقبون الطريق فما مضى من الليل إلا قليل إذ سمع وقع حوافر الخيل والبطريق أمامهم والخيل من ورائه وهو يزجرهم ويحثهم على المسير، فلما توسطوهم صاح خالد صيحة شديدة ووثب خالد كأنه الأسد وخرج عليهم هو وأصحابه فما كان قصد خالد غير البطريق وظن أنه يوقنَّا فضربه ضربة رماه نصفين وقد وضعوا السيف فيهم وجعلوا يطلبونهم وهم في الهرب فلم ينج منهم إلا من أطال الله أجله وحازوا جميع ما معهم وأتوا برأس البطريق إلى أبي عبيدة على رأس رمح فوجدوه متلهفاً على قدومهم، فلما أشرف خالد بمن معه من الأسارى والأسلاب والدواب هللوا وكبروا، فأجابهم العسكر بالتهليل والتكبير. قال وأتى خالد ومن معه بالرأس والأسلاب ورؤوس القتلى سبعمائة، وأما الأسارى فكانوا أزيد من ثلثمائة أسير فعرضوا عليهم الإسلام فأبوا، وقالوا: نحن نعطيك الفداء.

فقال خالد: نضرب رقابهم قبال القلعة لنوهن بذلك عدو الله. قال فضربت رقابهم قبال القلعة. فقال خالد: إنا كنا نظن أنا محاصرون القوم وإذا نحن بخلاف ذلك وهم يرقبون غفلتنا وينتظرون غرتنا، وقد قتلوا جمالنا والدواب والصواب أن نجعل عليهم حرساً في كل طريق يمكننا ولا يمكنهم أن يخرجوا من قلعتهم ونضيق عليهم ما استطعنا، وقال أبو عبيدة جزاك الله خيراً يا أبا سليمان ما أبصرك بالأمور!

فلما كان من الغد وصلى أبو عبيدة بالناس صلاة الفجر دعا بعبد الرحمن بن أبي بكر وضرار بن الأزور وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وقيس بن هبيرة وميسرة بن مسروق ففرقهم حول القلعة ومعهم من اختاروا وأمرهم أن يمسكوا الطريق والمسالك على يوقنَّا حتى لو طار طائر منها أو إليها اقتنصوه وأقام القوم على ذلك مدة، فلما طال عليهم ذلك ضجر أبو عبيدة لطول مقامه فأمر الناس بالرحيل عنهم وعزم أن يتباعد عنهم: أي عن القلعة لعل أن يجد منهم غفلة فينتهزها. فبعد عن المدينة فنزل بقرية بقرب منها يقال لها النيرب وهو يريد حيلة يصل بها إلى يوقنَّا. ويوقنَّا لا ينزل من القلعة ولا يفتح بابها. ففكر أبو عبيدة غاية الفكرة، وقال لخالد: يا أبا سليمان إن جواسيس عدو الله تكشف أخبارنا وتوصل إليه وتخوفه فإني أقسم عليك يا أبا سليمان إلا ما جلت في عسكرنا جولة واختبرت أمم الناس فلعلك تقع بأحد من جواسيسه. فركب

خالد وأمر الناس إن يدوروا في عسكرهم وأن يقبضوا على كل من أنكروه. فبينما خالد في طوافه إذ نظر إلى رجل من العرب المتنصرة وبين يديه عباءة يقلبها فجعل خالد يرقبه فاستراب الرجل منه فناداه، وقال: من أي الناس أنت يا أخا العرب؟ قال: أنا رجل من اليمن. قال: من أيها؟ فأراد أن يقول وينتمي إلى غير قبيلته فجرى الحق على لسانه، فقال: أنا من غسان، فلما سمع خالد كلامه قبض عليه، وقال له: يا عدو الله أنت عين علينا لعدونا! قال: وما أنا متنصر وأنا مسلم! فأتى به إلى أبي عبيدة، وقال: أيها الأمير قد رابني أمر هذا لأنني ما رأيته قط إلا يومي هذا وقد ذكر أنه من غسان ولا شك أنه من عباد الصليب. فقال أبو عبيدة: اختبره يا أبا سليمان. قال: وكيف أختبره؟ قال: اختبره بالقرآن والصلاة، فإن أجابك وإلا فهو كافر. فقال له خالد: فصل ركعتين واجهر بالقراءة فيهما! فلم يدر ما يقول. فقال له خالد: أنت يا عدو الله عين علينا. ثم استخبره عن شأنه فأخبره وأقر أنه عين عليهم، فقال له خالد: أنت وحدك. قال: لا ولكنا ثلاثة أنا أحدهم والاثنان قد ذهبا إلى القلعة ليخبرا يوقنًا بخبركم، وأنا قد تخلفت لأنظر ما يكون من أمركم. فقال أبو عبيدة: أخبرني أيهما أحب إليك: القتل أو الإسلام؟ فليس بعدهما شيء. فقال الغساني: أنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. ثم رجع أبو عبيدة إلى حلب وما زالت القلعة محاصرة أربعة أشهر، وقيل خمسة أشهر.

وأبطأ خبر أبي عبيدة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فكتب إلى أبي عبيدة يقول: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر إلى عامله أبي عبيدة سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ، يا أبا عبيدة أن بانقطاع كتابك وإبطاء خبرك يكثر قلقي ويضنى جسدي على إخواني المسلمين وما لي ليل ولا نهار إلا وقلبي عندكم ومعكم، فإذا لم يأت منكم خبر ولا رسول فإن عقلي طائر وفكري حائر، وكأنك لا تكتب إلي إلا بالفتح أو الغنيمة، واعلم يا أبا عبيدة أنني وإن كنت غائباً عنكم فإن همّتي عندكم وأنّي داعٍ لكم، وقلقي عليكم كقلقِ الوالدة الشفوقة على ولدها، فإذا قرأت كتابي هذا فكن للإسلام والمسلمين عضداً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعث الكتاب إلى أبي عبيدة. فلما ورد عليه وقرأه عليهم. قال: معاشر المسلمين: إذا كان أمير المؤمنين داعياً لكم وراضياً عنكم في فعالكم فإن الله ينصركم على عدوكم.

ثم كتب جواب الكتاب يقول: بسم الله الرحمن الرحيم: إلى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، من عامله بالشام أبي عبيدة: سلام عليك، وإني أحمد الله تعالى وأصلي على نبيه، وبعد يا أمير المؤمنين فإن الله تعالى له الحمد قد فتح على

أيدينا قنسرين، وقد شننا الغارة على العواصم وقد فتح الله علينا مدينة حلب صلحاً، وقد عصت علينا قلعتها وبها خلق كثير مع بطريقها يوقنا، وقد كادنا مراراً وذكر له ما جرى له مع أخيه يوحنًا وأنه قتل منا رجالاً ورزقهم الله الشهادة على يديه. ثم إنه ذكر له من قتل والله تعالى من ورائه بالمرصاد، وقد أردنا الحيلة عليه فلم نقدر وأردت الرحيل عنه وعن محاصرته إلى البلاد التي بين حلب وأنطاكية، وأنا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى جميع المسلمين. وبعث الكتاب مع عبد الله بن قرط وجعدة بن جبير فسارا إلى أن أخذا في طريق "هيشت" العتيقة وجدًّا في السير حتى قطعا أرض الجفار إلى سكاسكة وهي حصن العرب قريبة من "تيما"، فلما وصلا إليها عارضهما فارس وعليه درع سابغ وعلى رأسه بيضة تلمع، وهو معتقل برمح كأنه قد برز إلى عدوه أو قاصد إلى قتال. فلما نظر إليهما قصدهما. فقال عبد الله بن قرط لجعدة بن جبير: يا ويلك أما ترى هذا الفارس، وقد عارضنا في مثل هذا المكان على مثل هذه الحالة؟! فقال له جعدة: وما عسى أن نتخوف من فرسان العرب ورجالها، وليس في هذا الموضع من رفع عموداً أو ضرب وتداً إلا وأصبح معنا ودخل تحت طاعتنا وفي شريعتنا؟!

فلما قرب الفارس منَّا سلم علينا، وقال: من أين أقبلتما وإلى أين قاصدان؟ فقالا له: نحن رسولان من الأمير أبي عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ فمن أنت أيها الرجل؟ قال: أنا هلال بن بدر الطائي. فقالا له: ما لنا نرى عليك آلة الحرب! قال: إني خرجت في طوائف من قومي وجماعة من أصحابي نريد الشام للجهاد، لكتاب ورد علينا من عمر بن الخطاب. فلما رأيتكما في بطن الوادي قصدتكما لأنظر ما قصتكما، ولي أصحاب من ورائي مقبلون. ثم سلم عليهما وولى فركبا مطيتيهما وسارا وإذا بالخيل قد أشرفت، والإبل قد أقبلت تتبع هلال بن بدر أرسالاً يتبع بعضها بعضاً إلى أن لحقوه فأخبرهم بقصة صاحبي رسول الله ﷺ ففرحوا بذلك وساروا يريدون الشام. وأما عبد الله بن قرط وجعدة بن جبير فإنهما وصلا المدينة ودخلا المسجد وسلما على عمر بن الخطاب وعلى المسلمين ودفعا له الكتاب، فلما قرأه استبشر ورفع كفيه إلى السماء، وقال: اللهم اكف الناس شر كل ذي شر. ثم أمر منادياً في الناس الصلاة جامعة. فلما اجتمع الناس قرأ عليهم كتاب أبي عبيدة، فلما قرأه قدم عليه من حضرموت وأقاصي اليمن من همدان ومدان وسبأ ومأرب يسألونه أن ينفذهم إلى الشام، فقال لهم عمر: في كم أنتم بارك الله فيكم؟ قالوا: نحن زهاء من أربعمائة فارس وثلثمائة مطية مردفين ومعنا أناس يمشون على أقدامهم لا ركاب لهم، فإن كان عند أمير المؤمنين ما يحملهم عليه حتى نصل إلى عدونا! فقال لهم عمر: وكم يبلغ

الرجال الذين معكم؟ قالوا: أربعين ومائة رجل، فقال لهم: عرب أو موال؟ قالوا: عرب وموال أذن لهم ساداتهم في الجهاد والمسير إلى الأعداء، فعندها دعا عمر بعبيد الله ابنه رضي الله عنه، وقال: امض إلى مال الصدقات فأت القوم بسبعين راحلة ليعتقبوا عليها ويحملوا زادهم وميرتهم على ظهورها. فأسرع عبيد الله بن عمر وأتى بسبعين بعيراً وسلمها إليهم، وقال لهم: جدوا رحمكم الله إلى إخوانكم المسلمين وأسرعوا إلى حرب عدوكم.

ثم كتب إلى أبي عبيدة: أما بعد فقد ورد علي كتابك مع رسلك فسرني ما سمعت من الفتح والنصر على أعدائكم ومن قتل من الشهداء، وأما ما ذكرته من انصرافك إلى البلاد التي بين حلب وأنطاكية وتترك القلعة ومن فيها فهذا رأي غير صواب تترك رجلاً قد دنوت من دياره وملكت مدينته، ثم ترحل فيبلغ إلى جميع النواحي أنك لم تقدر عليه ولم تصل إليه فيضعف ذكرك ويعلو ذكره ويطمع من يطمع ويجترئ عليك أجناد الروم خاصتهم وعامتهم، وترجع إليه الجواسيس وتكاتب ملوكها في أمرك! فإياك أن تبرح عن مجاهدته حتى يقتله الله أو يسلم إليك إن شاء الله تعالى أو يحكم الله، وهو خير الحاكمين. وبثّ الخيل في السهل والوعر والضيق والسعة... وأكناف الجبال والأودية... وشن الغارات في حدود المفازات، ومن صالحكم منهم فاقبل صلحه ومن سالمك فسالمه والله خليفتي عليك وعلى المسلمين. وقد أنفذت كتابي إليك ومعه عصبة من حضرموت وغيرهم وأهل مشايخ اليمن ممن وهب نفسه لله تعالى ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموال فرسان ورجال والمدد يأتيك متواتراً إن شاء الله تعالى والسلام. وختم الكتاب وسلمه لابن قرط وجعدة.

وجعل القوم يجدون في سيرهم ومع ذلك يسألون عبد الله بن قرط وصاحبه عن بلاد الشام وفتح البلاد، وقتل الروم إلى أن سألوهما عن مستقر العسكر، فقال لهم عبد الله: إن جميع المسلمين وأميرهم محاصرون قلعة حلب وفيها عظيم من عظماء الروم ومعه أعلاج من أصحابه، وقد تحصنوا في رأس قلعته، فقالوا له: يا ابن قرط ما لهؤلاء لا يدخلون في جملة من صالح من أصحابهم، فقال لهم: يا معاشر العرب إنا لم نر بعد وقعة اليرموك رجالاً أشجع من هذا فلقد قتل رجالاً وجندل أبطالاً! وإنه ليغير على أطراف العسكر في وقت صلاتهم فيقتل رجالهم وينهب أموالهم ويرجع إلى قلعته وربما أنه يستتر في سواد الليل في طلب العلافة فيقع بهم فيأمر بهم ويأخذ دوابهم وجميع زادهم وميرتهم، ثم يعود إلى قلعته ونحن لا نعلم به، وأن المسلمين له محاصرون ومنه خائفون حذرون.

وكان فيمن سمع كلامه وفهمه مولى من موالي بني طريف من ملوك كندة ويقال له دامس ويكنى بـ"أبي الهول" مشهور باسمه وكنيته وكان أسود كثير السواد بصا صاً كأنه النخلة السحوق، إذا ركب الفرس العالي من الخيل تخط رجلاه بالأرض، وإن ركب البعير العالي تقارب ركبتاه رجلي البعير! وكان فارساً شجاعاً قوياً قد شاع ذكره وفشا أمره وعلا قدره في بلاد كندة وأودية حضرموت وجبال مهرة وأرض الشجرة وقد أخاف البادية ونهب أموال الحاضرة، وكان مع ذلك لا تدركه الخيل العتاة! وكان إذا أدركته العرب في باديتها تعجبت من صولته وشجاعته وبراعته.

فلما سمع دامس أبو الهول ذكر يوقنّا وما فعل بالمسلمين كاد أن يتمزق غيظاً وحنقاً، وقال لعبد الله بن قرط: أبشر يا أخا العرب فوالله لأجتهدن في أن يخذله الله على يدي! فلما سمع عبد الله كلامه جعل ينظر إليه شزراً، وقال: يا ابن السوداء! لقد حدثتك نفسك آمالاً لا تبلغها وأشياء لا تدركها! ياويلك ألم تعلم أن فرسان المسلمين وأبطال الموحدين بأجمعهم له محاصرون ولأصحابه محاربون ومع ذلك لا يقدر أحد له على شر وقد كاد ملوكاً وقهرها؟! فلما سمع دامس كلام عبد الله بن قرط غضب، وقال: والله يا عبد الله لولا ما يلزمني لك من أخوة الإسلام لبدأت بك قبله فاحذر أن تزدري بالرجال وإن أحببت أن تعرفني فسل عنّي من حضر من أهلي وما قد تقدم من فعلي الذي من ذكره تطيش العقول وتضيق الصدور! كم من عساكر قتلتها وجموع فرقتها ومحافل بددتها وغارات شننتها ولا يضام لي جار ولا يلحقني عار وبحمد الله أنا فارس كرار غير فرار. ثم تركه مغضباً وسار أمام الناس!

وإن قوماً من العرب قالوا لعبد الله بن قرط: يا أخا العرب ارفق بنفسك فإنك وايم الله تخاطب رجلاً يقرب إليه البعيد ويهون عليه الصعب الشديد وإنه لجليد فريد لا تهوله الرجال، ولا تفزعه الأبطال إن كان في حرب كان في أوله لا يدركه من طلب ولا يفوته من هرب، فقال عبد الله: لقد كثر وصفكم وأطنبتم في ذكركم وأرجو أن يجعل الله فيه خيراً وفرجاً للمسلمين! ثم أخذ القوم في جد السير حتى قدموا حلب إلى أبي عبيدة، وهو منازل أهل قلعة حلب ومحاصرها وقد أحاط المسلمون بالقلعة من كل جانب. فلما أشرف القوم عليهم أخذوا في زينتهم وجردوا سيوفهم وأشهروا سلاحهم ونشروا راياتهم وكبروا بأجمعهم وصلوا على نبيهم ﷺ. فأجابهم أهل العسكر بالتكبير من كل جانب واستقبلهم أبو عبيدة وسلم عليهم وسلموا عليه ونزل كل قوم عند بني عمهم وعشيرتهم.

ويوقنّا ما زال في كل ليلة ينشط إليهم برجاله ويناوشهم وذلك أنه كان لا يقاتلهم إلا قليلاً ولا يظهر من القلعة نهاراً أبداً وكان أكثر خروجه في وقت خروج الناس، فلما

بات المسلمون القادمون في تلك الليلة ونظرت طيء وشنبس ونبهان وكندة وحضرموت إلى شدة الحرس وعظم حرسهم وحذرهم أقبل دامس أبو الهول على أهله الذين نزل عليهم من طريف وكندة، فقال لهم دامس: والله ما أنتم محاصرون لا محالة؟ فقالوا له: وكيف ذلك؟ قال: لأن العدو في رأس قلعة وأنتم قدام العدو من الأرض لقربكم ولا عسكر بإزائكم تخافونه فما هذا الخوف؟ قالوا: يا أبا الهول إن صاحب هذه القلعة علج ميشوم يرتقب غفلتنا ويغير على أطرافنا ويأتينا من مأمننا! فبينما دامس يخاطب القوم وإذا بالضجة قد وقعت في طرف عسكر المسلمين ولها جلبة عظيمة فوقف دامس منتضياً حسامه متنكباً حجفته وطلب الناحية التي سمع منها الصوت حتى بلغ إليها وإذا بيوقنّا في خمسمائة رجل أبطال أنجاد وليوث شداد وقد وجد فرقة من القوم، فلما نظر دامس إلى الروم وقع في وسطهم، وجعل يقول:

أنا أبو الهول واسمي دامس ... أكر في جمعهم مداعس
ليث هزبر بطل ممارس ... مدمر كل عدو ناكس

وجعل يضرب في أعراضهم بسيفه ومعه طائفة من بني طريف من شجعانهم وفرسانهم، فلما نظر يوقنّا ما نزل به تقهقر إلى ورائه، وقد قتل من رجاله مائتان ودامس يكر عليهم ويتبعهم إلى رأس درب القلعة وكندة من ورائه فناداهم أبو عبيدة: عزيمة مني عليكم أن لا يتبعهم منكم أحد في ظلمة هذا الليل، فقال الناس: يا أبا الهول إن الأمير يعزم علينا وعليك بالرجوع فارجع رحمك الله فرجع دامس إلى رحله، وتراجع القوم إلى رحالهم، وقد أبلت كندة بلاءً حسناً والناس قد خرجوا. فلما أصبح الناس اجتمعوا للصلاة مع أبي عبيدة، فلما قضيت الصلاة تفرّقوا ولم يبق إلا نفر يسير من أمراء المسلمين فجعلوا يذكرون ليلتهم. فقال خالد: أصلح الله الأمير لقد رأيت كندة وقد أبلت بلاءً حسناً، وقد تقدمت رجالها وثبتت أبطالها، وما زالت تضرب حتى أزالت عنّا حامية الكفر والعدو، فقال أبو عبيدة: صدقت والله يا أبا سليمان! والله لقد أسعدت الناس كندة بثباتها والله لقد سمعتهم يقولون: أحسن دامس وأجاد أبو الهول! فقام إلى أبي عبيدة رجل من رؤساء كندة يقال له سراقة بن مرداس بن يكرب، فقال: أصلح الله الأمير "دامس" هو "أبو الهول"، وهو مولى ظريف قدم مع هذا الوفد الذي ورد بالأمس، وهو رجل يفخر ويهول على الأبطال ويفضح الشجعان ويذل الأقران، لا يهوله جمع ولا يصعب عليه غارة! فقال أبو عبيدة لخالد: أما تسمع كلام سراقة في عبدهم دامس؟!

فقال خالد: يوشك أن يكون صادقاً في قوله، ولقد سمعت بذكره وحديثه وشجاعته وبراعته، ولقد أخبرني رجل يقال له النعمان بن عشيرة المهري أن دامساً قد

أغار وحده وهم على ساحل البحر في سبعين رجلاً من أهل مهرة، وكان دامس هذا يطلبهم لأجل ثأر كان له عند القوم، وكانوا يخافون منه ومن شره وبأسه فكانوا مع ذلك يفتدون بأموالهم ودوابهم ويهربون إلى أطراف الجبال وسواحل البحر حذراً منه، وكان مع ذلك يسأل عن أخبارهم ويطلع على آثارهم، فلما صح عنده نزولهم على ساحل البحر استصرخ قومه للغزو فتشاغلوا ولم ينفر منهم أحد معه، وكان خبيراً بالبلاد سهلها ووعرها، برها وبحرها، فلما أيس من قومه دخل إلى خبايته واحتمل رزمة على عاتقه فأتاه أناس من قومه وقالوا له: إلى أين تريد وما هذا الذي معك؟ فقال: يا قوم أنا أريد الغارة على بني الشعر وآخذ بالثأر وأكشف العار. فقال له مشايخ الحي: ما رأينا أعجب من أمرك وأنت تعلم أن بني الشعر سبعون، فمن يريد أن يغير عليهم وحده ويأخذ منهم بالثأر؟! وما سمعنا بهذا أبداً، وإنا نرى أن تقصد جواداً، وكانت جواد هذه أمة لبني حياس من الحضارمة، وكانت بقرية من قرى حضرموت يقال لها أسفل، وكان دامس هذا يهواها وكل ما يأخذه من الأموال والخيل والإبل يدفعه إليها ولا يعظم عليه كثرته، وكان لا يرضى لها بالقليل ولا يشبع لها بالكثير؛ فظن القوم أنه ماض إليها وقاصد نحوها بحملته التي معه من رزمته، فقال لهم: وايم الله إني بطل فما تظنون؟! وسوف تعلمون أن ما أفعله الحق واليقين.

فرجع قومه وتركوه وسار إلى أن أتى إلى مرعى قومه فأخذ راحلته من إبلهم ورحَّلها وأخذ سيفه وحجفته، وجعل الرزمة تحته وسار بقية يومه وليلته، حتى إذا كان آخر الليل عطف بالراحلة إلى بعض الأودية فأبركها وحل رحلها وعقلها، ودوَّرها ترعى معقولة، ثم كمن بين حجرين، وكان قريباً من القوم ويخاف أن يدوروا به، فلما مضى عليه نهاره وأقبل ليله أتى إلى راحلته وأبركها ورحَّلها واستوى في كورها، وسار حتى أشرف على نار القوم فعدل بناقته حتى أشرف على الحي، وكان في ذلك الشرف شجر من الطلح فأبرك ناقته وزمَّ شدقها لئلا ترغو فيسمع القوم رغاءها؛ ثم عمد إلى رزمته فحلها واستخرج منها الثياب، وأتى إلى تلك الشجرة فجعل على كل عود منها مثل عمامة الرجل، ويأتي بالعود ينصبه ويسنده بالحجارة ويطرح عليه الإزار، ولم يزل حتى أقام أربعين عوداً على هذه الصفة، وجعل عليه حلة حمراء أرجوانية وهبط من ذلك الشرف الذي عليه الثياب وقصد الحي ودار حول بيوتهم وتفكر في أمره، وكيف يحتال وقد مضى أكثر الليل. ثم صبر إلى أن طلع الفجر وسار نحو الساحل، فلما قرب منهم صاح فيهم وقال: دنا أجلكم! أنا أبو الهول ولقد أصبحتم بالويل وأخذتم من البر والبحر، وجعل ينادي: يا لثأر طريف يا آل طريف يا آل كندة، فلما وقع صوته في أسماعهم ذهلت رجالهم وتصارخت نساؤهم وفزع القوم بين يديه

من البيوت هاربين وإلى الساحل نحو الجبل طالبين وهو من خلفهم، فلما رأوه وحده شجع بعضهم بعضاً ورجعوا إليه يقاتلونه وطمعوا فيه لما لم يروا أحداً من ورائه أخذوا في طلبه، فجعل يكرُّ عليهم ويرجع عنهم ويقتل رجلاً بعد رجل!

فلما نظروا إلى شدة بأسه وعظم مراسه وهول صولته وشدة حملته، أرادوا أن يسبقوه إلى الشرف ليأتوا إليه من ورائه، فلما علم أنهم قد قاربوا الأعواد التي عملها وعليها الثياب خاف أن ينظروا إليها ويعلموا ما فعله من المكر، فسبقهم إلى الشرف وسار أمامهم وأقبل على الأعواد مخاطباً لها كأنه يخاطب الرجال وهو يقول: "يا أهل كندة يا أهل طريف إياكم والقوم، قد أتتكم الرجال فلا تحملوا عليهم وأنا أفديكم بنفسي، فإن رأيتم علي الحيف فاحملوا على القوم"، فمدَّ القوم أبصارهم إليه فوجدوا عنده الثياب على الأعواد في انشقاق الفجر فلم يشكُّو أنهم رجال فانقلبوا راجعين نحو البحر، وجعل دامس ينادي: "ألا يا قوم أقسمت عليكم أن لا تبرحوا من أماكنكم وأنا أكفيكم مؤنة القوم وحدي فرجعت بنو مهرة ناكصين على أعقابهم". هذا قد أردف زوجته، وهذا أولاده، وهذا أمته، وهذا أخذ ما قدر عليه من أثاثه! ورجع أبو الهول إلى الحي، فلم يصادف فيه إلا العبيد والصبيان والمشايخ والعجائز فأمر العبيد أن يوقروا الجمال فحمَّلوها وكتفهم وساق الجميع قدامه، وعاد وأخذ الثياب من على الأعواد ولحقهم وأتى بهم ديار قومه فعجبوا منه ومن فعاله!

فلما سمع أبو عبيدة ذلك من خالد أقبل على سراقة وقال له: ادع لي عبدكم حتى أنظر إليه وأسمع كلامه. فأتى به سراقة فقال له أبو عبيدة: أنت دامس؟ قال: نعم أصلح الله الأمير. فقال له: بلغني عنك عجائب وأنت وايم الله أهلها، لأنك جزل من الرجال واعلم أنك وقومك تقاتلون في بلاد سهلة لا تأتون الجبال ولا القلاع، ولقد اقتحمت البارحة أثر القوم اقتحاماً منكراً فارفق بنفسك واحذر من هذا البطريق يوقنًا.

فقال له دامس: أصلح الله الأمير لقد غزوت مهرة وأخذت أموالها، وأن جبالها منيعة شامخة رفيعة ذات وعر وحجر، وما هذه بأمنع من تلك الجبال، فقال أبو عبيدة: أنا أراك نجيباً فهل حدثتك نفسك من أمر هذه القلعة بشيء؟ فقال دامس: أصلح الله الأمير إني لما قدمت عليك في هذا الوقت كنت رأيت في نومي رؤيا! فقال أبو عبيدة: وما الذي رأيت؟ أراك الله الخير. قال: رأيت كأني سائر في وطأة من الأرض وأني مجد أطلب قومي، فبينما أنا في مسيري إذ أشرفت عليهم وهم حائرون لا يتقدمون ولا يتأخرون فناديتهم: يا قوم ما شأنكم وأي شيء عرض لكم في طريقكم؟ فقال لي القوم: ما ترى هذا الجبل كيف قد عرض لنا في آخر هذا الطريق وليس لنا

فيه مسلك ولا مطلع؟! فقلت: على رسلكم ألا ترون هذه الفجوة في هذا الجبل. فقالوا: هيهات ليس لنا فيه مسلك ولا مطلع، فقلت: ولم ذلك؟ قالوا: لأن فيه ثعباناً عظيماً لا يمر به أحد إلا وأهلكه، فقلت: يا قوم ألا تهجمون عليه بأجمعكم؟ قالوا: لا نقدر على ذلك لأن النار تخرج من أنفاسه وليس لنا عليه من سبيل، فقلت لهم: فالتمسوا لكم طريقاً من وراء ظهره. فقالوا: لا نقدر على ذلك من عظم جثته فتركتهم والتمست لي طريقاً فلم أجد إلا طريقاً صعباً حرجاً فاقتحمته فما سلكته إلا بعد المشقة وأتيت إلى الثعبان من ورائه فقتلته، ثم أشرفت على قومي فاتبعوني، فما وصلوا إلا بعد جهد جهيد وهم آمنون من عدوهم، ثم استيقظت فرحاً مسروراً.

فقال أبو عبيدة: خيراً رأيت وخيراً يكون يا دامس. أما رؤياك هذه فإنها للمسلمين بشارة، ولعدونا خسارة، ثم قال له: اجلس مكانك. وأمر أبو عبيدة أن ينادى المسلمون فحضر رؤساء المسلمين وأعيانهم، فلما حضروا قال أبو عبيدة: الله أكبر فتح الله ونصر، وحبانا بالظفر، وخذل من كفر، ثم قال: يا معاشر المسلمين اسمعوا رؤيا أخيكم دامس فإنها عبرة لمن اعتبر. فأقبلوا يسمعون له، فعندها قام أبو عبيدة على قدميه وقال: الحمد لله وصلى الله على رسوله وسلم، ثم قال: يا معاشر الناس إن الله ﷻ له الحمد قد وعدنا في كتابه على لسان نبيه محمد ﷺ الغلبة على أعدائنا والظفر بمرادنا، وما كان الله ليخلف وعده، وإني نذرت إن فتح الله هذه القلعة على يدي أصنع من البر ما استطعت، والآن قد هجس في نفسي ووقع في قلبي أنا ظافرون بهذه القلعة ومن فيها إن شاء الله تعالى، لأنه قد دلني على ذلك رؤيا هذا الغلام، ثم قبض بكفه على زند أبي الهول وقال له: رحمك الله حدث إخوانك بما رأيت في منامك فقام دامس قائماً وقال: اعلموا أني رأيت في منامي كذا وكذا وجعل يقص على الناس رؤياه من أولها إلى آخرها، فلما فرغ منها أقبل المسلمون على أبي عبيدة قالوا له: أيها الأمير ما تأويل رؤياه؟

قال أبو عبيدة: اعلموا رحمكم الله، أما الجبل الذي رآه عالياً شامخاً شديد الامتناع بين الشعاب والقلاع فذلك دين الإسلام بلاشك وسنة محمد ﷺ، وأما الثعبان الذي رآه وقد منع الناس وقد هجم عليه بسيفه فأمر حسن هو أن يفرج الله على يديه على المسلمين! ففرح الناس بتأويل أبي عبيدة. وقالوا: أيها الأمير فما الذي تأمرنا به؟ فقال: آمركم بتقوى الله سراً وجهراً. ثم المكيدة على الأعداء طوعاً وصبراً فارجعوا إلى رحالكم حفظكم الله وأصلحوا شأنكم وآلة حربكم وما تحتاجون إليه فإني أقدمكم غداة غد إلى أعاديكم إلى أن يحدث لي رأي غير هذا، فإني لست أدع الاجتهاد في الرأي والمشاورة لمن أثق به وبرأيه من المسلمين، فقالوا بأجمعهم: وفق الله رأيك أيها

الأمير وظفرك بأعدائك إنه سميع عليم، فعّال لما يريد. ومضوا إلى رحالهم، فجعل هذا يحد سيفه، وهذا يصلح آلة حربه وفرسه، وهذا يتفقد درعه، وهذا قوسه ونشابه، وما زالوا كذلك بقية يومهم، فلما أصبحوا دعا أبو عبيدة بدامس، فقال له: أيها الولد المبارك! ماذا ترى في أمر هذه القلعة وما عندك من الحيلة؟ فقال دامس: اعلم أيها الأمير أنها قلعة منيعة شامخة حصينة تعجز الوافد وتمنع القاصد، في أهلها محاصرة ولا تضيق صدورهم من قتال، غير أني أفكر في حيلة أحتالها أو بلية أعملها وأرجو من الله أن يتم ذلك عليهم، فيكون تبديدهم، ونملك بمشيئة الله ديارهم، ونقلع آثارهم، فقال أبو عبيدة: يا دامس وما هي؟ فقال: أصلح الله الأمير أنت تعلم ما في إذاعة الأسرار من الشر والإضرار، "ومن كتم سره كانت الخيرة فيما لديه"، ويقال إن دامساً هذا أول من تكلم بهذه الكلمة فصارت مثلاً.

فقال أبو عبيدة: فما الذي تشير إليه، وما الذي تعتمد عليه؟ قال: تزحف بعسكرك وجملة من معك من أصحابك حتى تنزلوا بإزاء القلعة ليظهر لهم منك الحرص والهيبة واعلم أن في ذلك من الحيل ما أرجو من الله أن يتمها إن شاء الله تعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فأمر أبو عبيدة عسكره بالرحيل فارتحلوا ونزلوا تحت القلعة وهللوا وكبروا وأظهروا سلاحهم وأرهبوا أعداء الله تعالى، قال فأشرف عليهم الروم ونظروا إلى جمعهم فهابوهم وألقى الله الرعب في قلوبهم حتى أنهم اضطربوا في قلعتهم وماجوا وجعل كبراؤهم يستشيرون فيما بينهم: فقال قوم نقاتلهم، وقال قوم بل نقعد في قلعتنا فإنهم لا يقدرون علينا، ثم اجتمع رأيهم على القتال من فوق القلعة وقعدوا على الأبراج والبنيان وجعلوا يرمون المسلمين بالحجارة والسهام وقد أقاموا على ذلك ليلاً ونهاراً ودامس مع ذلك يعمل حيلة يصل بها إليهم بسوء. فلما كان بعد السبعة والأربعين يوماً أقبل دامس على أبي عبيدة وقال له: أيها الأمير قد عجزت وأنا أعمل حيلاً فما صدر من يدي في حقهم شيء وقد افتكرت في شيء وأرجو من الله أن يكون به الظفر والظهور على أعداء الله. فقال أبو عبيدة: وما الذي دبرت؟ قال: تضيف إليّ من صناديد الرجال ثلاثين رجلاً وتأمرهم بالطاعة وترك المخالفة والاعتراض علي فيما آمرهم به وأفعله وأراه.

فقال أبو عبيدة: سأفعل ذلك، ثم ضم إليه ثلاثين رجلاً من الشجعان حتى إذا اجتمعوا قال لهم أبو عبيدة: معاشر المسلمين إني قد أمّرت دامساً عليكم وأمرتكم بالطاعة والقبول لأمره واعلموا رحمكم الله أني ما أمّرته عليكم لكونه أجل منكم حسباً ونسباً ولا أعظم موكباً ولا أشد بأساً ولا أكثر مراساً فلا يقل أحدكم إني قد أمّرت عليكم عبداً احتقاراً بكم، وبالله أحلف مجتهداً لولا ما يلزمني من تدبير هذا العسكر

لكنت أول من ينطلق معه في جمعكم وأنا أرجو من الله أن يفتح على أيديكم، فأقبلوا عليه بجمعهم، وقالوا: أصلح الله الأمير ما نشك في إعظامك لنا ومعرفتك بسابقتنا، ولقد كان كلامك الأول أثر في نفوسنا، وها نحن لك وبين يديك ولو أمّرت علينا علجاً أغلف لم نخرج لك من أمر ولا رأي إذ علمنا أنك لا تريد إلا نصحاً للدين وحياضه، فالسمع والطاعة لله ثم لك ثم لمن وليّته علينا من قبلك كائناً من الناس أجمعين. ففرح أبو عبيدة بما قالوه ووثق بكلامهم وجزّاهم خيراً، وقال لهم: اعلموا رحمكم الله تعالى أن نفسي تحدثني أن الله تعالى يفتح هذه القلعة على يد هذا العبد المقبل لأنه دقيق الحيلة حسن البصيرة فسيروا معه وثقوا بالله وتوكلوا عليه وقد تعلمون أن رسول الله ﷺ قد ولى قوادا على سادات العرب من المسلمين والأشراف من عشيرته.

ثم أقبل على دامس فقال له: يا دامس ما الذي تحب بعد هذا؟ قال: ترحل أنت بجيشك من وقتك هذا فتكون منا على مسيرة فرسخ فتنزل بالعسكر وتأمرهم بقلة الحركة وأن يختفوا ما استطاعوا أو يكون لك رجال تثق بشدتهم ونصحهم للمسلمين يتجسسون عن أخبارنا وآثارنا من غير أن يعلم بهم وبنا أحد ويكونون بغير سلاح سوى الخناجر، فإذا عاينوا منّا الظهور على أعدائنا والظفر بهم لحقوك ويشروك بذلك فتلحق بنا إن شاء الله تعالى وليكونوا متفرقين في موضع واحد، فإن ذلك أسلم لهم وأبلغ لما يريدون من أمورهم والله المستعان في جميع الأمور والأحوال. فعلم أبو عبيدة أنه نصيح من الرجال صاحب رأي وبصيرة. ثم إن دامساً أقبل على رفاقه الذين وليّ عليهم وقال لهم: يا فتيان العرب انهضوا بنا بارك الله فيكم حتى نكمن في بعض هذا الوادي ما دام الناس عازمين على الرحيل لئلا تشرف الروم فينظروا إلى رحيلنا فلا يتفق لنا أن نطلب لنا مكمناً إذا أشرفوا من أعلى حصنهم وليكن مع كل رجل منكم سيفه وحجفته وخنجره لا غير.

ففعلوا ذلك، فلما تكاملوا لبس دامس لأمة حربه وجعل خنجره تحت أثوابه وأخذ جماعته وخرج بهم حتى إذا فارق العسكر جعلوا يخفون آثارهم وأشخاصهم وهو سائر بهم حتى أتى بهم كهفاً في الجبل فأمرهم بالدخول إليه وجلس على بابه.

قال: وأما أبو عبيدة فإنه أمر الناس بالرحيل بعدما رتب الرجال كما وصاه أبو الهول فارتحل العسكر وأشرف عليهم أهل القلعة فرأوهم يرحلون ففرحوا بذلك وسروا سروراً عظيماً وصاروا يصيحون على المسلمين من أعلى القلعة وقالوا لبطريقهم: أيها السيد افتح لنا الباب حتى نخرج وراء العرب فلعل أن نقتل أحداً أو نأسره فنهاهم عن ذلك. وداموا بقية يومهم إلى العشاء. فقال دامس لأصحابه: من فيكم ينهض إلى تحت القلعة ويأتينا بخبر منها إذ يقدر على رجل يأسره فيأتينا به فنأخذ

منه خبراً؟ فلم يجبه أحد، فقال: أنا أعلم أن ما في هذه الجماعة إلا من هو ضنين بنفسه كاره للموت وأنا لكم الفداء فانظروا كيف تكمنون. ثم تركهم دامس ومضى فغاب عنهم ساعة وإذا به قد أتى ومعه علج وقال لهم: يا فتيان العرب دونكم هذا فاسألوه! فسألوه فلم يفقهوا قوله. فقال: على رسلكم فغاب غير بعيد وأتى بثلاثة أخر، فلم يكن فيهم من يفهم بلغة العرب! فقال دامس: لعن الله هؤلاء ما أفظع لغتهم وأكثر طمطمتهم! ثم أوثقهم كتافاً وغاب إلى أن مضى من الليل نصفه ولم يأت فقلق عليه أصحابه قلقاً شديداً واغتموا عليه وقال بعضهم لبعض: أنا أقول إن دامساً قد فطن به فقتل أو أسر وماجوا في ذكره وهموا أن يرجعوا إلى العسكر فبينما هم في ذلك إذ دخل إليهم دامس وهو يقود رجلاً من الروم فتواثبوا إليه وقبّلوه بين عينيه وسألوه عن إبطائه وقالوا له: يا دامس لقد حدثتنا نفوسنا بالعظائم وصعب علينا إبطاؤك عنا. فقال: اعلموا رحمكم الله تعالى أني لما فارقتكم سرت إلى قريب من سور القلعة وكمنت لهم وهم يمرون علي وهم يرطنون بلغتهم وأنا لا أتعرض للقوم كل ذلك، وأنا أطلب من يتعرض للعربية ويتكلم بها فلم أر أحداً حتى أيست وهممت بالرجوع خائباً إذ سمعت هدة شديدة قد وقعت من أعلى السور فأسرعت إليها لأنظر إليها ما هي فإذا أنا بهذا الرجل وقد ألقى بنفسه من القلعة إلى أسفل السور فبادرت إليه وأخذته وأتيت به إليكم فانظروا ما هو. فدنوا إليه وخاطبوه فلم يكلمهم إلا بلغته وإذا به قد انفتحت جبهته. فقال لهم دامس: اعلموا أن له شأناً وأي شأن؟! وإني أظنه هارباً من القوم وليس فيكم من يفهم ما يقول ولكن على رسلكم فأنا آتيكم بمن يتكلم بلسانه وبالعربية.

ثم أسرع دامس من عندهم فلم يكن إلا قليل وإذ به قد عاد ومعه رجل قد نزلت عمامته في رقبته وهو يقوده حتى مثله عندنا. فقالوا له: من المدينة أنت أم من القلعة؟ فقال له دامس: ممن أنت تكون أمن الروم أم من العرب المتنصرة؟ قال: ولكني مع العرب المتنصرة. فقالوا: يا هذا هل لك أن تطلعنا على عورات القلعة أو عورة من عوراتها، ونحن نطلق سبيلك ولا يتعرض إليك أحد بسوء. فقال: يا هؤلاء لست أعرف لهذه القلعة عورة ولا طريقاً ولو عرفت لما وسعني في ديني ولا رأيت أن أدلكم عليها وحق المسيح. قال فاغتاظ منه دامس وقال له: اسأل هؤلاء الأسارى هل فيهم أحد من أهل الربض فإن بيننا وبينهم صلحاً. قال: فسألهم فلم يجد فيهم أحداً من أهل الربض بل كلهم من أهل القلعة وأنا أعرفهم.

فقال له دامس: فاسأل هذا الرجل لم طرح نفسه من السور وما دعاه إلى ذلك؟ فسأله فقال له: إنه يقول إن الملك يوقنّا غضب على أهل الربض لأجل صلحهم لكم وبعث يتهددهم، فلما انصرفت العرب نزل يوقنّا فجمع رؤوسهم وأصعدهم إلى القلعة

وأنا في جسملتهم وطلب منا من الأموال ما لا طاقة لنا به ولا نقدر عليه، فلما رأيت ما قد نزل بنا هربت وألقيت نفسي من القلعة أطلب الفرج وأنجو من العقوبة فلم أشعر إلا وأنت قد قبضت عليَّ وأنا من أهل الربض، فإن كنتم من العرب فأنا في ذمتكم وأمانكم فلا تنكثوا ولا تغدروا وإن كنتم من غيرهم، فاطلبوا مني ما أردتم من الفداء فإني قد هربت من العقوبة. فقال له دامس: قل له نحن من العرب ولا بأس عليك ولا خوف ولا ينالك منا سوء! وأراد دامس أن يرى الربض ما يفعل بأعدائه، فأخرج الروم والمتنصرة وضرب رقابهم ولم يدع غير الربضي، ثم أطلقه!

واستمروا إلى الليل وعمد دامس إلى مزوده فاستخرج منه جلد ماعز وألقاه على ظهره وأخرج كعكاً يابساً وقال لأصحابه: بسم الله استعينوا بالله وتوكلوا عليه وأخفوا نفوسكم وقدموا الحزم في أموركم فإنِّي معوِّل على فتح هذه القلعة إن شاء الله تعالى. فقالوا: سر على بركة الله تعالى. فقاموا مسرعين، وتقدم دامس وبعث رجلين من أصحابه يعلمان أبا عبيدة بشأنهم ويقولان له: ابعث الخيل عند طلوع الفجر. فانطلق الرجلان وصعد دامس ومن معه تحت الظلام ودامس على المقدمة يمشي على أربعة والجلد على ظهره وكلما أحس بشيء قرض في الكعك كأنه كلب يقرض عظماً وهم من ورائه يقفون أثره، وهم يستترون بين الأحجار فلا زالوا كذلك حتى لاصقوا السور وسمعوا أصوات الحرس وزعقات الرجال من أعلى القلعة والحرس شديد، فلم يزل دامس دائراً بهم حول السور إلى أن أتى إلى مكان لم يجد به حساً وإذا بحرسه قد ناموا وراء المكان ولم يروا في السور أقرب منه.

فقال دامس لأصحابه: أنتم ترون هذه القلعة وعلوها وتحصينها وليس فيها حيلة لشدة الحرس ويقظة القوم فما الذي ترون من الرأي أن نصنع بها؟ وكيف الحيلة في الصعود إليها إلى أن نحصل في وسطها؟ فقالوا: يا دامس إن الأمير أمَّرك علينا وأنت أدرى منَّا وأجرأ جناناً ونحن لك بين يديك فمهما رأيت فيه الصلاح للمسلمين فلا تأخر عنه ووالله إن قتل نفوسنا وذهاب أرواحنا أسهل علينا من الرجوع بغير فائدة فمنك الأمر ومنا السمع والطاعة فليس منا من يتأخر عنك ولا نموت إلا تحت ظلال السيوف وفي طاعة الله ونصرة دين الإسلام. فقال دامس: شكر الله فضلكم ورزقكم النصر على أعدائكم، فإن كانت هذه نيتكم فالتصقوا بنا إلى هذا المكان. وكانوا ثمانية وعشرين رجلاً واثنان كانوا أرسلوهما إلى الأمير.

فقال لهم دامس: أفيكم من يقدر على الصعود إلى هذه القلعة؟ فقلنا له: يا أبا الهول وكيف لنا أن نرقى إليها وعلى أي شيء نصل إلى أعلاها بغير سلم؟! فقال: على رسلكم، ثم إنه اختار منا سبعة رجال كالأسد الضواري لو كلفوا حمل ذلك البرج

على مناكبهم لما عظم ذلك عليهم، ثم جلس على قرافيصه وقال لأحد السبعة: اجلس على منكبي وارم بحبلك إلى الجدار واجلس كما أنا جالس ففعل الرجل ما أمر به، وأمر آخر أن يفعل ويصعد على منكبي الآخر وأن يرمي بقوته على الجدار، قال ففعل، ثم إنه لم يزل يصعد واحد بعد واحد إلى أن صعد الثامن بقوته على الجدار وهم متمسكون به، فعند ذلك أمر الأعلى أن يقوم قائماً وان يطرح حبله على الجدار فقام الأول وقام الثاني ثم قام الثالث ثم قام الرابع والخامس والسادس وكل واحد منهم قد طرح نفسه على الجدار، ثم قام دامس آخرهم فإذا الأعلى قد وصل إلى شرافة السور وتعلق بها فاستوى على السور، ونظر إلى حارس ذلك المكان فوجده نائماً وهو ثمل من الخمر فأخذ بيده ورجله ورماه، فلما وصل إلى الأرض قطعوه وأخفوا جسده ووجد من أصحابه اثنين سكارى وهم رقود فذبحهم بخنجره ورمى بهم، ثم أرخى عمامته لصاحبه ونشله إليه فإذا هو معه على السور وكان دامس قد أعطاه حبلاً فبقوا ينشلون به بعضهم، إلى أن تكاملوا على السور وأصعدوا من بقي معهم على الأرض، وكان آخر من صعد أبو الهول.

فقال لهم: مكانكم حتى أقفو الخبر وأكشف لكم الأثر، ثم إنه أتى إلى دار البطريق وهو في وسط القلعة وإذا عنده سادات البطارقة وأكابرهم وهم جلوس وبين أيديهم بواطي الخمر، ويوقنّا جالس في وسطهم على بساط من الديباج منسوج من الذهب وعليه بدلة من اللؤلؤ ومعصب بعصابة من الجوهر، والقوم يشربون، والمسك والبخور يفوح عندهم فعاد دامس إلى أصحابه وقال: اعلموا أن القوم خلق كثير وإن هجمنا عليهم فلا نأمن الغلبة من كثرتهم ولكن ندعهم فيما هم فيه، فإذا كان وقت السحر هجمنا على يوقنّا ومن معه من الملوك نقتلهم بسيوفنا، فإذا ظفرنا بهم وذللهم الله لنا وعلى أيدينا فهو الذي نريد، وإن كان غير ذلك فيكون الصباح قد قرب، ولا شك أن الرجلين من أصحابنا قد أعلما خالد بن الوليد فيأتينا. فقالوا: ما نخالف لك أمراً ونحن قد صرنا في قلعة هؤلاء الأعداء وليس ينجينا إلا صدق جهادنا والعزم والشدة من قوتنا. فقال لهم: مكانكم فلعل أن يفتح الباب.

وكان للقلعة بابان وبينهما دهليز والبوابون داخلهما والرجال تنام عندهم بالنوبة، فلما وصل دامس إلى الباب وجده مغلقاً وإذا بالقوم رقود من السُكر فعاجلهم بالذبح، ثم فتح البابين وتركهما مردودين ورجع إلى أصحابه وقد قرب الفجر، فقال لهم: أبشروا فإني قد فتحت البابين وقتلت من كان وراءهما فدونكم والباب فاسبقوهم إليه وخذوه عليهم فقد بقي القوم حصيداً بأسياف المسلمين إن شاء الله تعالى. وأرسل من يستعجل خالداً ويبشره بذلك، ثم أرسل خمسة من أصحابه يمسكون الباب وأخذ

الباقين ومشى نحو دار يوقنّا فصاحوا عليه ووقع الصياح في القلعة فرجعوا بأجمعهم إلى الباب وأخذ كل واحد منهم مكاناً يحميه فعندها جاءت الأبطال و صاحت الروم ويلاه كيف تمت علينا هذه الحيلة و صرخ يوقنّا بأ صحابه فأتوا من كل جانب. فعندها كبر المسلمون ونادوا بلسان واحد: الله أكبر فخيِّل للروم أن القلعة ملآنة منهم. قال ابن أوس: وقاتلت الروم قتالاً شديداً، وأما المسلمون فكانوا كالأسد الضارية فما رأيت أقوى بأساً ولا أشد مراساً من دامس أبي الهول في ذلك اليوم فلقد عددنا في بدنه بعدما انفصلنا ثلاثة وسبعين جرحاً كلها في مقدم بدنه. فبينما نحن في أشد القتال ونحن يحمي بعضنا بعضاً وقد بقي منا ثلاثة وعشرون وقتل منا أربعة وهم أوس بن عامر الحزمي من بني حزم وأبو حامد بن سراقة الحميري والفارع بن مسيب التميمي وفزارة بن مراد العوفي.

قال الواقدي: حدثني نوفل بن سالم عن جده غويلم بن حازم وكان ممن صحب دامساً في قلعة حلب قال: لما قتل من قتل منا، وقد قتل أيضاً ملاعب بن مقدام بن عروة الحضرمي وكان ممن حضر مع رسول الله ﷺ الحديبية وتبوك ومرارة بن ربيعة العامري وهلال بن أمية وهو ابن أخي كعب الذي تخلف عن رسول الله ﷺ في تبوك، قال وبقينا عشرين رجلاً وتكاثرت الروم علينا في أزيد من خمسة آلاف وهم سد من حديد، قال ونحن قد أيسنا من الحياة إذ دخل علينا خالد بن الوليد ومعه جيش الزحف فوجدنا ونحن في أشد ما يكون من القتال، فلما دخلوا علينا صاح فيهم خالد فجفلت الروم عنّا. قال أوس: فلما رأينا ذلك وانفرج عنّا ما كنّا فيه اشتدت قلوبنا فعندها كبرت المسلمون. ودخل ضرار وأمثاله يضربون رقابهم، فلما رأى الروم ذلك وعلموا أنهم لا طاقة لهم بما وقع بهم ألقوا السلاح ونادوا الغوث الغوث، وكفوا أنفسهم عن القتال فكفت المسلمون أيديهم عنهم؛ فبينما هم كذلك إذ أقبل أبو عبيدة ومعه عساكر الإسلام فأخبروه أن الروم يطلبون الأمان وأن المسلمين قد رفعوا عنهم القتل إلى أن تأتي وترى فيهم رأيك، فقال أبو عبيدة: قد وفقوا وسددوا فأمر بإحضار رجالهم ونسائهم وعرض عليهم الإسلام فكان أول من أسلم بطريقهم "يوقنّا" وجماعة من ساداتهم. فرد عليهم أموالهم وأهاليهم واستبقى منهم الفلاحين وعفا عنهم من القتل والأسر وأخذ عليهم العهود أن لا يكونوا إلا مثل أهل الصلح والجزية وأخرجهم من القلعة.

ثم أخرج المسلمون من الذهب والأواني ما لا يقع عليه عدد فأخرج منه الخمس وقسم الباقي على المسلمين، وأخذ الناس في حديث دامس وحيله وعجائبه

وعالجوا جراحته حتى برأت قال وأعطاه أبو عبيدة سهمين؛ ثم إن أبا عبيدة طلب أمراء المسلمين وأكابرهم و شاورهم في أمره وقال: إن الله وله الحمد قد فتح هذه القلعة على أيدي المسلمين وما بقي لنا موضع نخافه، فهل نقصد أنطاكية، وهي دار الملك وكرسي عزهم وفيها بقية ملوكهم مع هرقل فما ترون من الرأي؟ قال فعندها قام البطريق يوقنًا وتكلم بلسان عربي فصيح وقال: أيها الأمير إن الله تبارك وتعالى قد أيدكم وأظفركم بعدوكم ونصركم وما ذاك إلا أن دينكم هو الدين القويم والصراط المستقيم ونبيكم هو المشهور في الإنجيل، وهو لا محالة الذي بشر به المسيح ولا شك فيه ولا مراء، وهو الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل وهو النبي الكريم اليتيم الذي يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه فهل كان ذلك أم لا أيها الأمير؟

فقال أبو عبيدة: نعم هو نبينا ﷺ وإنِّي يا يوقنًا قد حِرْتُ في أمرك وأنت بالأمس تقاتلنا ومرادك أن تكسر عسكرنا وتقطع الطريق على علوفتنا واليوم تقول مثل هذا القول، وقد بلغني أنك لا تفهم بالعربية شيئاً فمن أين لك حفظها؟ فقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله وإنك تعجب أيها الأمير من هذا الأمر؟ قال: نعم! قال له: اعلم أيها الأمير أني كنت البارحة مفكراً في أمركم وقد وصلتم إلى قلعتنا ونصرتم علينا وإنه لم يكن عندنا أمة أضعف منكم وتوسوست في ذلك، فلما نمت رأيت شخصاً أبهى من القمر وأطيب رائحة من المسك الأذفر ومعه جماعة فسألت عنه فقيل لي: هذا محمد رسول الله فكأني أقول إن كان نبياً حقاً فليسأل ربه أن يعلمني العربية وكان يشير إليَّ وهو يقول: يا يوقنًا أنا محمد الذي بشر بي المسيح وأنا لا نبي بعدي وإن أردت فقل لا إله إلا الله وإنِّي محمد رسول الله فأخذت يده فقبلتها وأسلمت على يديه واستيقظت وفمي من تلك الليلة كالمسك الأذفر وأنا أتكلم بالعربية!

ثم إني قمت إلى منزل أخي يوحنًا وفتحت خزانة كتبه فوجدت في بعض الكتب صفة محمد ﷺ وما يكون من أمره ووجدت كل الصفات صحيحة وإن أبغض الخلق إليه اليهود أكان ذلك أيها الأمير أم لا؟ فقال أبو عبيدة: نعم كانت اليهود تطلبنا أشد الطلب حتى نصرنا الله عليهم وأخذنا حصونهم وقتلنا أبطالهم. قال يوقنًا: وجدت هذا في سيرته وجملة أخباره وأن الله تعالى كان يوصيه بأصحابه وبالمسلمين وبالأيتام والمساكين أكان ذلك أم لا؟ قال أبو عبيدة: نعم، أما وصيته من الله على أصحابه. فقد قال الله تعالى: "وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ"، وقال في حق اليتيم والمسكين: "فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ". فقال يوقنًا: هكذا قرأته في كتب أخي يوحنًا وهو مذكور في الإنجيل والتوراة ثم خرَّ ساجداً وقبَّل الأرض شكراً، وقال: الحمد لله الذي هداني إلى هذا الدين ووالله لقد رسخ هذا الدين في قلبي

وعلمت أنه الحق، وسأقاتل في الله كما كنت أقاتل في طاعة الشيطان! ووالله لأنصرن هذا الدين حتى ألحق بأخي يوحنًّا! ثم إنه بكى بكاء شديداً على ما فرط في أمر أخيه. فقال له أبو عبيدة: قال الله في حق إخوة يوسف "لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ"، وقال له: إن أخاك في عليين مع الحور العين، وأما أنت فساعة أسلمت خرجت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك! فبكى لذلك وقال: أشهد المسلمين أنِّي كلما جاهدت وقتلت من المشركين فثوابه في صحيفة أخي يوحنًّا! ولابد أن أقاتل في سبيل الله وأمحو ما سلف من الفعال.

فقال أبو عبيدة: يا عبد الله دلنا أين نسير. فقال يوقنًّا: اعلم أيها الأمير أن حصن عزاز حصن منيع وهو قوي بالرجال والعدد والزاد وفيه ابن عم لي اسمه دراس بن جوفناس وهو ذو شدة وبأس وقوة ومراس، جلد في الحرب قوي عند الطعن والضرب! وإن أنتم تركتموه ومضيتم إلى نحو أنطاكية أغار على حلب وقنسرين وأذاقهم شراً. فقال أبو عبيدة: يا عبد الله قد أنطق الله لسانك بالحق والصواب فما عندك من الحيلة؟ فقال يوقنًّا: عندي من الرأي أن أركب جوادي وتضم إليَّ مائة فارس من المسلمين ولنكن على زي الروم ولباسهم وأتقدم بهم، ثم يتقدم أمير من العرب ومعه ألف فارس على خفاف الخيل وأنا في المقدمة بالمائة فارس على مقدار فرسخ كأننا هاربون منكم وأوائل الخيل الألف في طلبنا فإذا أشرفنا على عزاز نلقي الصوت، فإذا نظر إلينا صاحبها دراس لابد أن ينزل إلينا ويلقانا، فإذا سألني أخبرته أني أسلمت زوراً ثم هربت فخرجت العرب في طلبي فإذا سمع مني ذلك يصعد بنا إلى حصنه وليكن مقدم الألف بالقرب منَّا في قرية هناك فإذا كان نصف الليل سرنا في وسط الحصن ونضع السيف في أعدائنا فإذا كان عند صلاة الفجر يأتينا أمير العرب بالألف الذي معه.

فلما سمع أبو عبيدة ذلك استنار وجهه واستشار خالداً ومعاذاً في ذلك فقالا: يا أمين الأمة رأي سديد إن لم يغدر هذا الرجل ويرجع إلى دينه. فقال أبو عبيدة "إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ". فقال يوقنًّا: أنا والله رجعت عن ديني إلى دينكم بعدما كنت أعظم من تلك الصور والصلبان وما بقي في قلبي سوى محبة الرحمن ومحمد سيد ولد عدنان والجهاد عن أفضل الأديان والله على ما أقول وكيل، وحق الذي لا إله إلا هو، وحق محمد عبده ورسوله ﷺ الذي رأيته وعاينته في المنام إن كنتم تظنون في غير ذلك فلا تتركوني أفعل شيئاً مما ذكرته لكم. فقال أبو عبيدة: يا عبد الله إن أنت نصحت للمسلمين ولم تغدر بهم كان الله لك معيناً في كل ما تحاوله فاتبع الصدق تنج به فإن ديننا مبني على الصدق، واتبع سنن إخوانك المؤمنين، واعلم أن المؤمن الصادق

قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكنه ما وجد فلا يحزنك ما تركت من ملكك وحكمك وإمارتك فإن الذي تركته فان، والذي تطلبه باق لأن نعمة الدنيا فانية والآخرة خير وأبقى.

قال شهر بن حوشب عن جده عامر بن زيد قال: كنت ممن شهد فتوح الشام وكنت في فتوح قنسرين وحلب مع أبي عبيدة وكنت كثيراً ما أصحب الروم الذين دخلوا في ديننا فلم أر منهم أشد اجتهاداً، ولا أخلص اعتقاداً، ولا أعظم نية ولا أحسن في الجهاد حمية ولا أبلغ في قتال الروم من يوقنًا! ولقد نصح والله للمسلمين وجاهد في الكافرين وأرضى رب العالمين، ولقد فعل في الروم ما لم يقدر أحد عليه من أبناء جنسه من بعدما قاسى المسلمون منه على قلعة حلب وما تركهم ينامون ولا يقرّون ليلاً ولا نهاراً وما قتل من المسلمين ﷺ أجمعين.

ذكر فتح عزاز

قال الواقدي: لما وعظ أبو عبيدة يوقنًا وفرغ من وعظه ضم إليه مائة فارس وألبسهم زي الروم قال: وكان كل عشرة من قبيلة وهم من طيء وفهر وخزاعة وشنيس ونمير والحضارمة وحمير وباهلة وتميم ومراد وجعل على كل عشرة نقيباً، فلما كملوا قال لهم أبو عبيدة: اعلموا رحمكم الله أني مرسلكم مع هذا الرجل الذي وهب نفسه لله ورسوله وكل طائفة منكم عليها نقيب وقد وليته عليكم فاسمعوا له وأطيعوا ما دام في مرضاة الله ﷻ، فلبسوا وركبوا وساروا معه، فلما بعدوا بفرسخ أرسل وراءهم ألف فارس وأمّر عليهم مالكاً الأشتر النخعي وقال له: سر في أثر القوم وانظر ما يكون من أمر هذا العبد الصالح فإذا قربت من هذا الحصن فاكمن إلى وقت السحر ثم تظاهر لإخوانك، سر وفقك الله وأرشدك! فسار مالك يقدم قومه فساروا بقية يومهم، فلما جن عليهم الليل كمنوا في قرية بالقرب من الحصن وهي خالية من السكان. وأما ما كان من يوقنًا فإنه أخذ على غير طريق وسار طالباً عزاز.

قال الواقدي: حدثني سليمان بن عبد الله اليشكري حدثني الشديد بن مازن عن جده خزعل بن عاصم قال: كنت في خيل يوقنًا لما وجهنا أبو عبيدة معه. فلما شارفنا عزاز قال لنا يوقنًا: اعلموا يا فتيان العرب أنّا قد شارفنا هذا العدو فإياكم أن يتكلم أحد منكم فإن لغتكم لا تخفى على الروم وأنا المترجم عنكم وكونوا على يقظة من أمركم. فإذا رأيتموني وقد بطشت بصاحب الحصن فثوروا على اسم الله تعالى، ثم ساروا وليس عنده خبر من تواتر القدر. .... حدثني الأكوع بن عباد المازني قال: كنت مع مالك الأشتر من جملة الألف حين سرنا في أثر يوقنًا صاحب حلب حتى إذا كنا في تلك القرية ونحن ننتظر الصباح، وإذا نحن بجيش من ورائنا من غربي القرية فسار

مالك وقصد الحصن فغاب عنا غير بعيد وعاد ومعه رجل من العرب المتنصرة وقد أقبل به، فلما صار بيننا قال: يا فتيان اسمعوا ما يقول هذا الرجل. فقلنا: وما الذي يقوله؟ قال: اسألوه فإنه يخبركم. فسألناه وقلنا: من أي الناس أنت؟ قال: من غسان من بني عم جبلة بن الأيهم. فقال له مالك: ما اسمك؟ قال: اسمي طارق بن شيبان. فقال له: يا طارق بحق ذمة العرب لا تكتمنا أمراً تعرفه من أعدائنا قال: والله لا أكتم أمراً أعرفه ولكن خذوا على أنفسكم قبل قدوم عدوكم. قال مالك: وكيف ذلك؟ قال: لأن البارحة ورد علينا جاسوس من عندكم وهو منّا اسمه عصمة بن عرفجة، وكان يسمع ما تناجيتم به من الحيلة التي أرادها يوقنّا على صاحب عزاز، فلما سمع الجاسوس منكم ذلك كتب رقعة وربطها تحت جناح طير كان معه وأطلقه إلى صاحب عزاز، فلما قرأها أرسلني إلى صاحب الراوندات لوقا بن شاس يستنجده عليكم فمضيت إليه بالرسالة وهو قادم في خمسمائة فارس وكأنكم بهم، وقد هجموا فخذوا حذركم.

وأما ما كان من أمر يوقنّا فإنه سار حتى وصل إلى الحصن فوجد صاحبه قد تجهز بنفسه ومعه أصحابه وهو خارج الحصن وكان اللعين يركب في ثلاثة آلاف فارس من الروم وألف من العرب المتنصرة غير من التجأ إليه من السواد، فلما قدم عليه يوقنّا لم يوهمه في شيء من أمره بل استقبله وترجل إليه وأقبل كأنه يقبّل ركابه وكان في يده سكين أمضى من القضاء فقطع به حزام فرس يوقنّا وجذبه إليه وإذا به قد وقع على أم رأسه فأطبق الأربعة آلاف على أصحاب رسول الله ﷺ ولم يمهلوهم حتى أخذوهم قبضاً بالكف وشدوهم كتافاً وبصق دراس في وجه يوقنّا، وقال: لقد غضب عليك المسيح والصليب إذ فارقت دينك ودخلت في دين أعدائك، وحق المسيح لابد لي أن أبعثك إلى الملك الرحيم هرقل يصلبك على باب أنطاكية بعدما أضرب رقاب هؤلاء العرب، ثم إنه أصعدهم إلى الحصن.

قال الواقدي: ومن خيرة الله للمسلمين أن الجاسوس لم يكتب لصاحب عزاز في مكاتبته بسير مالك الأشتر. قال: وإن مالكاً الأشتر لما سمع كلام المتنصر أيقظ أصحابه وربط المتنصر عنده وأقاموا ينتظرون صاحب الراوندات، فلما راق الليل سمعوا وقع حوافر الخيل فلم يكلمهم مالك حتى توسطوا الكمين وأطبقوا عليهم، فكل اثنين ربطوا واحداً من الروم وأخذوهم بالكف ولم ينفلت منهم أحد، ولبسوا ثيابهم ورفعوا رايتهم وصليبهم كما كانت، ثم إن مالكاً قال للمتنصر: هل لك أن ترجع إلى دين الله ﷻ ودين نبيه محمد ﷺ فيمحو عنك ما سلف من الكفر بالإيمان وتبقى لنا من جملة الإخوان. فقال: إن قلبي ولبي عندكم فلا جزى الله من ألجأنا إلى الدخول في هذا الدين خيراً وأنا والله من الطائفة التي هي أول من أسلم على يد عمر بن

الخطاب وقد سمعنا عن محمد ﷺ أنه قال: من بدّل دينه فاقتلوه. فقال له مالك: لقد صدقت في قولك ولكن انسخ هذا الحديث بقول لا إله إلا الله، فقد قال الله تعالى: "إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍ"، وقبل رسول الله ﷺ توبة وحشي قاتل عمه حمزة فأنزل الله فيه الآيات، فلما سمع الغساني ذلك فرح وقال: أنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله والآن والله يا مالك قد طاب قلبي وانجبر كسري أخذ الله بيدك وأنقذك الله يوم القيامة. ففرح مالك بإسلامه، وقال له: وفقك الله وثبت إيمانك! ثم قال له: يا عبد الله إني أريد أن تمحو ما سلف منك بما تفعله. فقال: وما تريد أيها الأمير؟ قال: تمضي إلى صاحب عزاز وتبشره بقدوم صاحب الراوندات إلى نصرته. فقال: أفعل ذلك إن شاء الله تعالى وإن كنت في شك من أمري فأرسل معي من تثق به حتى يسمع ما أقول فإن الليل قد تنصف والحرس شديد وباب الحصن مقفول وأنا أخاطبهم من شفير الخندق، فأرسل معه مالك ابن عم له يقال له راشد بن مقبس ووصاه أن يكون مستيقظاً فسارا جميعاً إلى أن وصلا إلى الحصن فوجدا الحرس شديداً والروم تضرب بوقاتها والصوت عال في وسط الحصن. فقال طارق لابن عم مالك: ما هذا وحق أبي إلا قتال وضرب وحرب فأنصتا فإذا هو كما قال طارق.

قال الواقدي: وكان السبب في ذلك أن ابن صاحب عزاز شاب شجاع يقال له لاوان كان أبوه دراس في وقت يرسله إلى يوقنّا بالهدايا والتحف لما بينهم من القرابة وكان يقيم عنده أشهراً في أعز مكان، وإنه حضر عنده في بعض المرات في عيد الصليب في البيعة التي هي اليوم الجامع، وكان يدخل في كل وقت فرأى يوما ابنة يوقنّا وهي بين جواريها وخدمها وحشمها فوقع بقلبه حبها فكتم أمرها وعاد إلى عزاز وشكا حاله إلى أمه وما كان لأبيه ولد غيره وهي تجد له محبة عظيمة فقالت له: أنا أخاطب أباك في ذلك وألزمه أن يرسل ليخطبها من أبيها ويزوجك بها ونبذل له من المال ما أراده وطلبه، واشتغل قلب الشاب بحب الجارية، وفي أثناء ذلك جاءت العرب إلى بلادهم واشتغلت خواطرهم، فلما وقع يوقنّا في يد أبيه وكان من أمره ما كان وقبض عليه وعلى المائة من المسلمين وحبسهم جميعاً في دار ولده لاوان ووصاه بحفظهم.

فقال لاوان في نفسه وحق ديني إن ابن عمنا يوقنّا أعلم من أبي بالأديان ولولا أنه رأى الحق مع هؤلاء العرب ما تبعهم بعدما قاتلهم أشد القتال وأيضاً إن جيوش الملك ما ساوتهم، وإن الله قد نصرهم على ضعفهم، وأنا قلبي متعلق بابنته وإني أرى

من الرأي السديد أن أحل هؤلاء القوم من الوثاق وأرجع إلى دينهم بعد أن أثق من ابن عمي أن يزوجني ابنته فإنه على الحق، وأنال ما أطلب بعدها وأتزوج ابنته، فلما حدثته نفسه بذلك أقبل إلى يوقنًا وجلس بين يديه وقال له: يا عم إني عولت على أن أحل وثاقك أنت وأ صحابك، وقد اخترتك على أهلي وأبي وملكي وأنت تعلم أن فراق الأهل صعب واخترت الإيمان على الكفر وقد علمت أن دين هؤلاء صحيح، ولكن لي عليك شرط أن تزوجني ابنتك ومهرها عتقك أنت وهؤلاء الناس الذين معك.

فقال يوقنًا: يا بني ما لك إلي زواجها من سبيل إذا كنت تدخل فيه لأجل غرض الدنيا، وليكن دخولك فيه خالصاً من قلبك حتى إن الله يأجرك على ما تفعله وأنا إن شاء الله تعالى أبلغك ما ترومه وتنال عزّ الدنيا والآخرة. فقال: وأنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله! ثم حل وثاق يوقنًا وأعطاه سلاحه وحل المائة وأعطاهم سلاحهم، وقال لهم: كونوا على أهبة وأنا أمضي إلى أبي وهو ثمل بالخمر فأقتله وثوروا على بركة الله تعالى! فعندها قال يوقنًا للمائة: اشهدوا علي أني زوجته ابنتي وجعلت صداقها عتقنا، فقبل منه ومضى إلى دار أبيه فوجد أباه مقطوع الرأس وإخوته عنده، فقال لهم: من فعل هذا بأبي؟ قالوا: نحن. قال: ولم ذلك؟ قالوا: أردنا بذلك وجه الله وقد سمعناك وما تحدثت به مع يوقنًا وأ صحابه فخفنا عليك أن لا يتم لك هذا الأمر ويتكاثر الجمع على القوم ويبلغ أبانا خبرك فيقتلك فبطشنا به قبلك!

ففرح لاوان بذلك ورجع إلى يوقنًا وأ صحابه وأعلمهم بما جرى فخرجوا من دار لاوان وتوسطوا الحصن ورفعوا أ صواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير والسراج المنير ووضعوا السيف في الروم، ووقع الصائح في الحصن كما وصفنا وتبادرت الروم لقتال المسلمين، وفي تلك الساعة قدم طارق ورفيقه فسمعنا الأ صوات فرجعنا إلى مالك وأعلمناه بما سمعناه. فقال مالك لأ صحابه اركضوا لأ صحابكم فركّضوا خيولهم وخلف منهم مائة يحفظون الأسرى، فلما قربوا من الحصن وكان يوقنًا قد قال للاوان: إن نجدة من المسلمين تأتينا فأتى لاوان فرأى المسلمين قد أتوا ففتح لهم باب الحصن من باب السر وأدخلهم، فلما حصل مالك الأشتر في حصن عزاز نادى هو ومن معه الله أكبر فتح الله ونصر وخذل من كفر، فلما رأى أهل الحصن ذلك رموا سلاحهم ونادوا الغوث الغوث فرفعوا عنهم السلاح وأخذوهم أسارى وشكروا ليوقنًا ومن معه، فحدَّث يوقنًا مالكاً الأشتر بحديث الغلام لاوان فقال مالك: إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه.

.... عن جبير عن أبيه قال: سألت أبا لبابة بن المنذر وكان ممن حضر فتوح الشام كيف كانت فتوح عزاز وقتل دراس فإن نفسي تنكر هذا وأريد صحته. فقال: لما

وضعت الحرب أوزارها وجمع مالك الأشتر الأسارى والمال والثياب والذهب والفضة والآنية، وأمر بإخراج ذلك من الحصن وكَّل به قيس بن سعد، وكان ممن حضر وأصابه سهم فعوره، وكذلك أبو لبابة بن المنذر وكلاهما حضر بدراً مع رسول الله ﷺ فلم يبق أحد في عزاز. ثم قام مالك فمشى في الحصن وتفقد دراساً فوجده مقتولاً، فقال: من قتل هذا اللعين؟ فقال لاوان: قتله أخي لوقا وهو أكبر مني سناً فأمر مالك بإحضاره، وقال: لم قتلته وهو أبوك؟ وما سمعنا ولداً قتل أباه من الروم سواك؟

فقال: حملني على ذلك محبة دينكم، لأن في بيعة هذا الحصن قساً من المعمرين، وكنا نقرأ عليه الإنجيل ويعلمنا بعلم الروم، وإني كنت في بعض الأيام في البيعة أنا وهو وليس عندنا أحد وكان اسمه أبا المنذر، فقلت له: يا أبا المنذر ألا ترى إلى بلاد الشام كيف استولت عليها العرب وملكوا أكثرها وهزموا جيوش الملك؟ وما كنا نظن أن العرب تقدر على ذلك لأنه ليس في الأمم أضعف منهم وأن الله تعالى نصرهم على ضعفهم، فهل قرأت ذلك في كتب الروم أو ملاحمهم أو ملاحم اليونانيين. فقال: يا بني نعم إني قرأت ذلك، ولقد أخبرنا الملك هرقل بذلك قبل وقوع هذا الأمر! وجمع إليه الملوك والأساقفة والبطارقة وغيرهم، وأخبرهم أن العرب لابد أن يملكوا ما تحت سريري هذا! ولقد بلغنا عن نبي القوم أنه قال: "زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها"، فقلت له: يا أبانا فما تقول في نبي القوم؟ قال له: يا بني إن في كتبنا أن الله تعالى يبعث نبياً بالحجاز وقد بشر به المسيح عيسى بن مريم، ولا ندري أهو هذا أم لا! فعلمت أنه كتم عني أمره مخافة أن أذيع سره فكتمت ما قال لي البارحة!

فلما رأيت يوقنَّا وأصحابه أسرى قلت: هذا يوقنَّا قد قتل أخاه يوحنَّا وعاند العرب وقاتلهم، ثم إنه رجع إلى دينهم، وما ذاك إلا أنه قد علم أن الحق معهم، فقلت أنا لنفسي: قم أنت واقتل أباك وخلص يوقنَّا وأصحابه وارجع إلى دين هؤلاء فهو الدين الحق لا شك فيه! فلما نام أبي بعدما شرب الخمر وسكر قتلته وسرت إلى خلاص يوقنَّا ومن معه فوجدت أخي لاوان قد سبقني إلى ذلك، فقال له مالك: يا غلام لم فعلت ذلك؟ قال: محبة في دينكم وأنا أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال له مالك: قبلك الله ووفقك. ثم خرج مالك من الحصن وولاه سعيد بن عمرو الغنوي وترك معه المائة الذين كانوا مع يوقنَّا، وقدَّموا إليه صاحب الراوندات ومن معه فعرض عليهم الإسلام فأبوا فضرب رقابهم.

قال الواقدي: ثم إن مالكاً الأشتر أراد أن يرحل فعُرض عليه سبي عزاز فكان ألف رجل من الشباب ومائتين وخمسة وأربعين رجلاً من الشيوخ والرهبان وألفي امرأة

من النساء والبنات ومائة وثمانين عجوزاً، ونظر إلى شيخ من الرهبان مليح الشيبة واضح الهيبة، فقال: إن صدقت الفراسة فهذا القس الذي أخبرني به لوقا وأخوه لاوان فدعا بهما وقال: هذا هو القس الذي أخبرني به لوقا؟ فقال: نعم فقال له: يا شيخ إذا كنت عن علماء أهل الكتاب فكيف تكتم الحق عن مستحقيه؟ فقال: والله ما كتمت الحق عن مستحقيه، وإني خفت من الروم أن يقتلوني، لأن الحق ثقيل وقد قتلوا الأبناء والإخوة وذلك لأجل الحق فكيف أنا. فقال له مالك: أفتدخل في ديننا؟ فقال: لست أدخل فيه إلا إذا سألتكم عن مسائل وجدتها في الإنجيل. فقال له مالك: هات ما عندك.

فلما أراد القس أن يتكلم وقع الصياح في الحصن فارتاع الناس ووثب مالك لينظر ما خبر الناس، وظن أن الروم قد غدرت بهم وإذا بأناس من المسلمين الذين بالحصن يقولون: أيها الأمير خذوا حذركم فإنا نرى غبرة على طريق منبج وبزاعة ولا ندري ما هي؟! فركب مالك ومن معه ووقفوا ينتظرون ما ذاك وإذا قد لاح من تحتها خيول الإسلام وهم يسوقون السبايا والأموال والرجال وهم مشدودون في الحبال ووراءهم ألف فارس من المسلمين وأميرهم الفضل بن العباس ﷺ، وكان قد أرسله أبو عبيدة حتى غزا منبج والباب وبزاعة فوقع الكثير في الفريقين وسلم بعضهم على بعض وسأل الفضل مالك عن قصته فحدثه أن الله قد فتح عزاز وأذل من فيها، وحدثه بما كان من حديث يوقنًا، وأنني ما منعني من الرحيل إلا هذا القس وسؤاله.

فقال له الفضل: أيها القس قل ما أنت قائل. فقال القس: أخبرني عن أي شيء خلقه الله تعالى قبل خلق السموات والأرض. فقال الفضل: أول ما خلق اللوح والقلم ....فلما سمع القس ذلك من كلام الفضل بن العباس قال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، هذا هو العلم الذي استأثر به أنبياء الله تعالى. فلما نظر أهل عزاز إلى قسهم وقد أسلم أسلموا عن آخرهم إلا قليلاً منهم والله أعلم.

.... عن دارم بن عياش عن جده قال: لما أسلم أهل عزاز بإسلام قسهم الذي كان معتقدهم عوّل الفضل ومالك على المسير إلى حلب، فقال يوقنًا. أنا والله ما لي وجه أقابل به المسلمين، لأني كنت قلت قولاً ودبرت أمراً فلم يتم لي وإني سائر إلى أنطاكية فلعل الله أن يظفرني بالأعداء وينصرني عليهم، فقال له الفضل: إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ "لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ"، فلا تحمل قلبك هماً، فقال: ودين الإسلام لا أرجع إلا بأمر يبيض الله به وجهي عند إخواني المسلمين، فنظر وقد صحبه مائتان من بني عمه كان قد رسخ في قلوبهم الإيمان ولهم عيال وأولاد في حلب فأخذهم يوقنًا وسار يريد أنطاكية، فلما قرب من أرضها أخذ منهم أربعة وأمر الباقي أن يتعوقوا خلفه أربعة أيام، ثم يأتوا كأنهم هاربون من العرب ليتم ما دبره في خاطره وسار هو والأربعة

على طريق حارم والباقي على طريق أرناح، وقال لهم: الميعاد بيننا أنطاكية فافعلوا ذلك، وساروا وسار هو إلى أن أشرف على دير سمعان المشرف على البحر، فوجد هناك خيلاً ورجالاً يحفظون الطرقات، فلما رأوا يوقنًا والأربعة معه بادروا إليهم واستخبروهم عن حالهم فقال لهم يوقنًا: أنا صاحب حلب وقد هربت من العرب فوكل بهم صاحب الدرك جماعة وأمرهم أن يسيروا بهم إلى الملك فأخذتهم الخيل وأتوا بهم إليه فوجدوه في كنيسة الفتيان يصلي، فوقفوا حتى فرغ من صلاته فأوقفوا يوقنًا بين يديه، وقالوا: أيها الملك إن بطرس صاحب الحرس الذي عند دير سمعان قد وجه بهذا ومن معه إليك ويزعم أنه صاحب حلب!

فلما سمع هرقل ذلك قال له: يا يوقنًا ما الذي أتى بك وقد بلغني أنك دخلت في دين العرب؟! فقال: أيها الملك لقد بلغك الحق، وذلك أني ما أسلمت إلا لمكيدة القوم حتى أتخلص من شرهم ومن كراهة منظرهم ونتن رائحتهم، وإني قلت لهم: أسلم إليكم حصن عزاز وأقتل صاحبها وأخذت منهم مائة سيد من ساداتهم وسرت بهم، وأمرت أن ينفذ ورائي ألف حتى إذا صاروا داخل الحصن أقبض عليهم وأرسلهم إليك فعجل دراس عليَّ ولم يفهم ما أضمرته ووثق بكلام جاسوسه ولم يثق بكلامي، فقبض علينا فأتت العرب ووضعت السيف في أهلها، فلما اشتغلوا بالقتال والنهب هربت أنا وهؤلاء الأربعة وجئنا إليك، ولولا محبتي في ديني ما كنت قتلت أخي يوحنًا وصبرت على قتال العرب وحصارهم سنة كاملة. فأعانته البطارقة والملوك الذين كانوا حاضرين، وقالوا: صدق يوقنًا أيها الملك، وسيظهر لك فعله وعمله وجهاده! فانبشَّ وجه الملك لذلك وخلع عليه من لباسه الذي هو عليه وسوَّره ومنطقه وتوَّجه، وقال له: إن كانت حلب أخذت منك فإني وليتك على أنطاكية وأعطاه وظيفة دمستقها يعني واليها. فسمع يوقنًا له ودعا له.

فبينما هو كذلك إذ أتى إليه الموكل بجسر الحديد وأخبر الملك أنه قد قدم عليهم مائتا بطريق من فرسان حلب، وهم يزعمون أنهم من بيت واحد من الرومية من بني عم يوقنًا، وأنهم قد هربوا من العرب، فلما سمع ذلك قال ليوقنًا: أيها الدمستق والسكندر قم واركب وأشرف على هؤلاء القوم، فإن كانوا من بني عمك فأهلَّ بهم وضمهم إليك ليكونوا عسكرك، وإن كانوا غير ذلك فأت بهم لأرى فيهم ما أرى، وإياك أن يكونوا من قبل العرب ممن رجع إلى دينهم من أهل سيجر وحماة والرستن وجوسية وبعلبك ودمشق وحوران! فقال: نعم أيها الملك فركب وركبت معه الفرسان من الملكية والسريرية، وأتوا إلى جسر الحديد وأمر أصحاب الدرك أن يأتوا بالمائتين، فلما رآهم يوقنًا رحب بهم ونظروا إليه وهو في ذلك الزي والحشمة وخلعة

الملك عليه، فترجلوا وقبلوا ركابه، فقال لهم: كيف خلصتم من أيدي العرب؟ فقالوا: أيها السيد إننا خرجنا مع أمير من أمرائهم وأغرنا على منبج وبزاعة، فلما رجعنا نريد حلب أخذنا على عزاز فوجدناهم قد ملكوها، فلما كان الليل تركناهم وأتينا.

هذا كله وحجَّاب الملك يسمعون، فلما حضروا أخبروا الملك بذلك ودخل يوقنًا بهم على الملك فخلع عليهم وأنزلهم وأمرهم أن يكونوا في خدمة يوقنًا وأعطاه داراً بإزاء قصره، فقال يوقنًا: أيها الملك أنت تعلم أن هذه الدار لا يدوم نعيمها، وأن السيد المسيح شبهها بالجيفة، وطلابها بالكلاب يتجاذبونها. كما روي عن المسيح أنه رأى طائراً حسناً مزيناً بكل زينة، فنزع جلده فرآه أقبح ما يكون منظراً، فقال له: من أنت؟ قال: أنا الدنيا ظاهري مليح وباطني قبيح، وإنما ضربت لك هذا المثل أيها الملك لتعلم أنه ما خلا جسد من حسد، وإذا أقبلت الدنيا على أحد كثرت حساده، وأنا أخاف من الحساد أن يتكلموا فيَّ عند الملك ويرموني بالبهتان وبما لا أفعله، فإن كان الملك ينفر مني فليول هذه الوظائف غيري وأنا ما أبرح على ركابك. ثم إنه بكى!

فقال له الملك: أيها الدمستق ما وليتك هذا الأمر إلا وقلبي وخاطري واثق بك، ومن تكلم فيك بشيء سلمته إليك تفعل به ما تريد. فشكره يوقنًا وأراد الخروج إلى وظيفته التي ولاه إياها، وإذا بخيل البريد قد أقبلت من مرعش وهم رسل ابنته زيتونة، وأنها خائفة من العرب، وهي تريد القدوم عليك حتى ترى ما يؤول من الأمر، وأنها تسألك أن ترسل لها جيشاً يوصلها إليك، فلما سمع الملك ذلك قال: ليس لهذا الأمر إلا الدمستق يوقنًا، فقبَّل الأرض وقال: السمع والطاعة لأمرك فضم إليه ألف فارس ومائتين من أصحابه من المدبجة والقياصرة. فسار بهم وقد رفع الصليب فوق رأسه وجنبت الجنائب عليها الرخوة المذهبة، وسار يجد السير إلى أن وصل إلى مرعش وأخذ زيتونة بنت هرقل الصغرى، وكان الملك قد ولاها على تلك البلاد وزوجها "بنوسطير بن حارس"، وكانوا يسمونه سيف النصرانية لشجاعته، وكان قد قتل في اليرموك من جراحات أصابته.

فلما أخذ يوقنًا ابنة الملك وعاد يطلب بها أنطاكية أخذ على الجادة العظمى لعله يلقى أحداً من جواسيس المسلمين أو يرى معاهداً فيرسله ليعلم أبا عبيدة أنه قد تمكن من الملك ومن البلد، فلما وصل مرج الديباج، وكان ليلاً وإذا بخيله التي على مقدمته قد أتته وهم مذعورون، فقال لهم: ما بالكم؟ فقالوا له: أيها السيد الدمستق هناك عسكراً نازلاً فقربنا منهم فإذا هم عرب وهم نيام ولا شك أنهم مسلمون! فقال لهم: خذوا أهبتكم وأيقظوا خواطركم وانصحوا لدينكم وجاهدوا عدوكم وقاتلوا عن

ابنة الملك ولا تسلموها إلى أعدائها وكونوا خير جند قاتل عن نعمة صاحبه، وإذا تمكنت الحرب بيننا وبينهم فاعتمدوا على الأسر وإياكم والقتل واعلموا أن العرب وأميرهم لابد لهم أن يقصدوا الملك ومن معه، فإن أسروا منا أحداً يكن عندنا الفداء، فقد وجدت في كتاب حرفناس الحكيم: "إن من نظر في عواقب زمانه توشح بوشاح أمانه، ومن أهل أمره خاف حذره، ومن أكثر الغدر حل به الأمر، سيروا على بركة الله".

قال الواقدي: فقصدوا ذلك العسكر، فلما أحسوا بهم بادروا إليهم واستقبلوهم وهم ينادون بعيسى ابن مريم والصليب المفخم: من أنتم؟ فقال لهم يوقنّا: ومن أنتم؟ فقالوا: نحن أصحاب جبلة بن الأيهم. فلما سمع يوقنّا ذلك ترجل عن دابته وسلم عليهم وسلمت العرب المتنصرة على الروم فقال جبلة: من أين جئتم؟ فقال له: من مرعش ومعي ابنة الملك وأنتم من أين جئتم؟ فقال جبلة: من العمق وقد أتينا بميرة أهلها فلما رجعت ووصلت إلى مرج دابق لقيت كتيبة من فرسان المسلمين وهم زيادة عن مائتي فارس وهم لابسون زينا فلما وصلنا إليهم ابتدرونا بعزم شديد وحرب عتيد وإذا مقدمهم لا يصطلى له بنار، فلقد أباد منا رجالاً وجندل منا أبطالاً ونحن في ألفي فارس وهم مائتان وكان فينا كالنار المحرقة فما زلنا نقاتلهم حتى أسرناهم بعدما قتل الفارس منهم الفارس والاثنين والثلاثة منا وبقي أميرهم إلى آخر الناس فقصدنا جواده بالسهام حتى قتلناه ووقع فهجمنا عليه وأخذناه أسيراً فإذا هو من أصحاب محمد وهو ضرار بن الأزور ونحن قاصدون بهم إلى الملك هرقل ليرى فيهم رأيه فأظهر لهم يوقنّا الفرح وقال: وحق ديني لقد فزت بالفخر بأسرك لهؤلاء وهذا الغلام فلقد بلغني عنه ما فعل بأبطال الشام وفرسان الروم، ثم سار القوم جميعاً يطلبون أنطاكية.

قال الواقدي: لما فتح المسلمون حصن عزاز وترك مالك الأشتر عليها سعيداً بن عمرو الغنوي والتقى بالفضل بن العباس ورجعا بالغنائم إلى حلب استبشر أبو عبيدة بسلامة الناس وبفتح عزاز فسأل مالكاً عن يوقنّا فحدثه فيما بينه وبينه سراً وأنه قصد أنطاكية ليدخل على كلب الروم بحيلة ولم يكن له وجه يعود إليك به، فقال أبو عبيدة: الله ينصره ويظفره ويغفر له، فلقد ظهر لنا منه ما لم يكن لنا في حساب!

ثم إنه كتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي عبيدة عامر بن الجراح إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سلام عليك. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ أما بعد: فإن الله سبحانه له المنة علينا التي يستوجب بها الحمد من جميع المسلمين إذ فتح علينا

مستصعب قلاع الكفر وحصونه وأذل لنا ملوكهم وأورثنا أرضهم وديارهم وأنه سبحانه قد فتح علينا قلعة حلب وأردفها بحصن عزاز وأن البطريق يوقنًا صاحب حلب قد أسلم وحسن إسلامه وقد صار عوناً للمسلمين على الكافرين من بعد ما قاسينا منه ما الله عالم به فالله يجازيه فلقد نصر الله به الدين ونصح للمسلمين وأباد المشركين، وقد دخل أنطاكية يدبر حيلة على كلب الروم، وقد ألقى بنفسه إلى الهلاك في طاعة الله ورسوله، ولقد كتبت هذا الكتاب ونحن معوِّلون على المسير إلى أنطاكية نقصد طاغية الروم فما بقى حصن سواه لأعدائنا قريباً منَّا ونحن طامعون في أخذه وأخذ سريره وكنوزه كما وعدنا رسول الله ﷺ فزوِّدنا بالدعاء منك فإنه سلاح المؤمنين ودمار الكافرين، والسلام عليك وعلى من معك عن المسلمين ورحمة الله وبركاته.

ثم إنه أخرج الخمس وسلمه إلى رباح بن غانم اليشكري وضم إليه مائتي فارس من المسلمين فيهم قتادة وسلمة بن الأكوع وعبد الله بن بشار و......ومثل هؤلاء ﷺ فأخذوا الخمس وساروا.

ثم إن أبا عبيدة دعا بضرار بن الأزور وضم إليه مائتي فارس وأمره أن يشن الغارة فركب ضرار وكان معهم سفينة مولى رسول الله ﷺ عين ولم يزل ضرار سائراً هو ومن معه ومعهم رجال من المعاهدين يدلونهم على الطرق حتى وصلوا إلى مرج دابق، وكان وقت السحر، فقال لهم المعاهد: ارفقوا على خيولكم فنزلوا وأراحوها بقية يومهم وليلتهم حتى إذا كان وقت السحر فما شعروا إلا وجبلة كبسهم، فلما وقع الصياح ركب ضرار وركب معه نحو مائة فارس وأما المائة الأخرى فقد دهمتهم خيول المتنصرة فلم يتمكنوا من الركوب فقاتلوا رجالاً فنفرت خيولهم ووصل إليهم عدوهم حتى إنه قتل كل واحد خصمه وتكاثرت عليهم الخيل فأسروا المائة وأما ضرار فإنه صاح بالمائة الثانية، وقال: يا فتيان العرب إن أعداءكم قد هاجموكم على حين غفلة منكم وهم عرب مثلكم وهذه أفضل الساعات عند الله فقووا عزمكم ولا تفشلوا فأنتم تعلمون أن النبي ﷺ قال: "الجنة تحت ظلال السيوف" وقد قال الله تعالى: "كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ".

قال ميسرة بن عامر: وكان من جملة من حضر معنا في مرج دابق ربيعة بن معمر بن أبي عوف وهو ابن عمر بن ربيعة الشاعر وكان ربيعة من فصحاء العرب لا يتكلم إلا بالسجع كلامه ينظم بحسن مقاله وكنا نصغي إليه إذا سجع ونحفظ منه، فلما سمع ضراراً وهو يحرضنا قال: يا فتيان العرب لن تنالوا الجنة إلا بالصبر على المكاره، ووالله لن يدخلها من هو للجهاد كاره! ولله في عرض السموات جنة ... ولكنها

محفوفة بالمكاره وأعلى الدرجات درجة الشهادة، فأرضوا عالم الغيب والشهادة! فهذا الجهاد قد قام على ساقه وكسد النفاق في أسواقه واختفى بنفاقه في أنفاقه. أما أنتم أصحاب نبي العصر؟ ولم يئستم من الثبات والنصر؟! بشّروا روح المصطفى بثباتكم وقووا العزم بصفاء نياتكم، وإياكم أن تولوا الأدبار فتستوجبوا غضب الجبار، واعلموا أن النصر والثبات جندان منصوران، فمن طلب دار البقا هان عليه الملتقى، فصححوا طلبتكم تنالوا رحمة ربكم، وحققوا حملتكم تنالوا بغيتكم واطعنوا النحور تنالوا الحور وتسكنوا القصور، وقوموا الأسنة تنالوا الجنة واعتمدوا على الصبر تنالوا النصر، وإياكم أن توافقوا الكفار في حالهم واعدلوا عن طريق قولهم. قال العالم بحالهم وفعلهم "وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ". قال سمرة بن غانم: والله لقد دهشت أنفسنا بقوله وحملنا على المتنصرة وضرار ينشد:

ألا فاحملوا نحو اللئام الكواذب ... لترووا سيوفاً من دماء الكتائب
وردوا عن الدين المعظم في الورى ... وأرضوا إله العرش رب المواهب
فمن كان منكم يبتغي عتق ربه ... من النار في يوم الجزا والمآرب
فيحمل هذا اليوم حملة ضيغم ... ويرضي رسولاً في الورى غير كاذب

ثم حمل ضرار ونحن من ورائه وبذلنا نفوسنا وروينا سيوفنا ورماحنا من المتنصرة وجرى الحرب بما لا يوصف وضرار فيهم كأنه النار في الحطب اليابس، وجبلة بن الأيهم يتعجب من حملاته وضرباته فأمر قومه أن يقصدوا جواده بسهامهم ففعلوا ذلك فانصرع الجواد ووقع ضرار فتكاثروا عليه وأخذوه أسيراً وأخذوا بقية أصحابه وساروا يريدون أنطاكية فالتقوا بيوقنا وابنة الملك كما ذكرنا.

.... عن خزامة بن عمرو وعن أبي المنذر أن سفينة مولى رسول الله ﷺ كان في حرب ضرار بن الأزور أسيراً، فلما كان الليل انطلق هارباً يلتمس الوصول إلى أبي عبيدة، فإذا هو بأسد عارضه. فقال سفينة: يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله ﷺ وكان من أمري كيت وكيت فقرب منه وهو يبصبص بذنبه حتى وقف إلى جانبه وأشار إليه برأسه أن سر فسرت وهو إلى جانبي حتى أتى بي إلى بلد من صلحنا فتركني ومضى. فلما وصل سفينة الجيش حدث الناس بأسر ضرار ومن معه فصعب ذلك على المسلمين وبكى أبو عبيدة وخالد بن الوليد على أسرهم، وقالا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وبلغ ذلك أخته خولة فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، يا ابن أمي ليت شعري في السلاسل أوثقوك، أم بالحديد قيدوك، أم في البيداء طرحوك، أم بدمائك خضبوك!

قال الواقدي: ولما ورد الخمس على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وكتاب أبي عبيدة مع رباح بن غانم اليشكري وقع الصائح في المدينة بقدومه، فاجتمع الناس إلى المسجد ليسمعوا ما تجدد من أمر المسلمين، فلما دخل رباح المسجد بدأ بالسلام على قبر رسول الله ﷺ وعلى قبر أبي بكر وصلى ركعتين وأتى عمر وقبل يده وعرض عليه الكتاب فقرأه على المسلمين فضجوا بالتهليل والتكبير وصلوا على البشير النذير، وأخذ الخمس وكتب إلى أبي عبيدة يأمره بالمسير إلى أنطاكية ولا يصده عن ذلك شيء ورد الجواب مع رباح اليشكري.

قال الواقدي: .... عن مروان بن الجرير أن الجواب لما ورد على أبي عبيدة سار من يومه يطلب أنطاكية. وأما ما كان من أمر يوقنًا -رحمه الله تعالى- وجبلة بن الأيهم -لعنه الله- فإنهم ساروا إلى أنطاكية وسبق البشير إلى الملك هرقل بقدوم ابنته مع يوقنًا وقدوم يوقنًا ومعه المائتا أسير من المسلمين فأمر بتزيين البلد والبيع، فأظهرت الروم زينتها ودفعت الصدقات إلى الفقراء، وأخرج موكب الروم إلى لقائهم مع ابن أخيه في زينة عظيمة ودخل القوم وهم في زيهم وحشمهم وكان يوماً مشهوداً وقد ترجلت الملكية والسريرية بين يدي ابنة الملك وخرج كل من بأنطاكية وقدموا أصحاب رسول الله ﷺ أمامها وهم مشدودون والروم تشتمهم وتبصق عليهم وقد دارت بهم الرجال والبطارقة ودخلت ابنة الملك إلى قصر أبيها.

ودخل جبلة بن الأيهم ويوقنًا على الملك فخلع عليهما وعلى كبار أصحابهما، ثم إنهم أحضروا الصحابة وأوقفوهم بين يديه وهم في الحبال، فلما وقفوا صاحت بهم الحجاب اسجدوا إلى الأرض تعظيماً للملك فلم يلتفتوا إلى قولهم ولا اعتنوا به. فقال لهم الحاجب الكبير: ما منعكم أن تعظموا الملك بالسجود بين يديه؟ فقال لهم ضرار: لا يحل لنا أن نسجد لمخلوق وقد نهانا نبينا ﷺ عن ذلك. ولما وقف ضرار والصحابة بين يدي هرقل خاطبهم من غير ترجمان وأراد الملك أن يسمع بطارقته وحجابه بما كان يحدثهم به حين بعث النبي ﷺ، وذلك أنه جمعهم إليه لما بلغه أن النبي ﷺ قد ظهر وقال: هذا هو النبي المبعوث الذي بشر به عيسى بن مريم وهو صاحب الوقت ولابد لدينه أن يظهر حتى يملأ المشرق والمغرب! ثم إن هرقل دعاهم لأداء الجزية فأرادوا قتله فأراد ذلك اليوم أن يبين لهم حقيقة قوله وأنه أراد بذلك الإصلاح لهم ولحالهم.

فقال لضرار ومن معه: من يخاطبني منكم عما أسأله من العلم؟ فأشاروا إلى قيس بن عاصم الأنصاري ﷺ وكان شيخاً معمراً وقد شاهد جميع أحوال رسول الله ﷺ ومعجزاته وغزواته، فلما أشاروا إليه قال للملك: قل ما أنت قائل أيها الملك. قال هرقل: كيف نزل على محمد الوحي أول مبتدأ أمره؟ فقال قيس: سأل هذا السؤال لنبينا

ﷺ رجل من مكة يقال له الحارث بن هشام. فقال لرسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: "يأتيني أحيانا مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فينفصم عني وقد وعيت عنه، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول".

قال قيس: ولقد كان ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقاً، فأول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -أي يتعبد- الليالي ذوات العدد، فلم يزل كذلك حتى جاءه الملك وقال له: اقرأ. فقال: لست بقارئ! قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني وقال لي: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني وقال لي: اقرأ. فقلت: لست بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: "ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ"، فرجع رسول الله ﷺ يرجف بها فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. فقال: زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فأخبر خديجة وقال لها: لقد خشيت على نفسي، فقالت له خديجة: كلا لا يخزيك الله أبداً إنك تصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر والحق، وذكر الحديث بطوله.

قال رسول الله ﷺ: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا أنا بالملك الذي جاءني بحراء وهو جالس على كرسي بين السماء والأرض فخشيت منه رعباً فرجعت إلى خديجة فقلت: دثروني دثروني فأنزل الله تعالى "يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ"، ثم حمى الوحي وتتابع! فقال هرقل: بحق دينك ما الذي رأيت من معجزاته؟ قال: كنت معه في سفر فأقبل إليه أعرابي فدنا منه، فقال له النبي ﷺ: أتشهد ألا إله إلا الله وأني محمد رسول الله. قال الأعرابي: ومن يشهد بما تقول؟ فقال النبي ﷺ: هذه الشجرة، ثم إن النبي ﷺ دعا الشجرة وهي بشاطئ الوادي فأقبلت إليه وهي تخط الأرض حتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاث مرات؛ فقالت: أنت محمد رسول الله، ثم أمرها فرجعت إلى منبتها.

فقال هرقل: إنا نجد في كتابنا أن الرجل من أمته إذا عمل السيئة كتبت عليه واحدة وإن عمل الحسنة كتبت له عشراً. قال قيس بن عاصم: هذا في كتابنا. قال الله تعالى: "مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا"، فقال هرقل: اعلم أن النبي الذي بشر به عيسى المسيح هو الشاهد على الناس يوم القيامة. فقال قيس: هو نبينا، قال الله تعالى في كتابه العزيز: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا

ﵟ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا"، أما شهادته في العقبى فهو قول ربنا في كلامه القديم: "وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا". فقال هرقل: إن الذي و صفته لك هو الذي يأمر العباد أن يمضوا إليه في حياته ويصلوا عليه في حياته وبعد وفاته. فقال قيس: هو نبينا ﷺ. قال الله تعالى في كتابه العزيز: "إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا"، قال هرقل: إن الذي و صفه المسيح يعرج به إلى السماء ويخاطبه العلي الأعلى. فقال قيس: هو والله نبينا ﷺ. قال ﷻ في حقه: "سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا".

وكان في ذلك الوقت بترك الروم وهو رأس دينهم جالساً يستمع هذا الكلام فالتفت هذا البترك إلى الملك وقال له: أيها الملك إن الذي ذكره عيسى لم يبعث بعده ولا قبله بل هي تأويل كاذبة. فقال ضرار بن الأزور: كذبت في وجهك وكذبت هذه اللحية الملعونة المخزية يا كلب الروم أنت من أمثالك من يكذب عيسى عليه السلام وينكر بعث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، أما تعلم أن عيسى قرأه في الإنجيل وموسى قرأه في التوراة وقرأه داود في الزبور؟! وأن نبينا المبعوث بخير الأديان المشهود له بالنبوة والرسالة في كتاب الله العزيز وجميع الكتب المنزلة على الأنبياء من قبله، وهو نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب المكي، ولكن حجاب الكفر منعكم عن معرفته! فلما أن سمع هرقل من ضرار هذا الكلام قال له: لقد أسأت الأدب في المجلس إذ خرقت بعمدة دين النصرانية فمن أنت؟ فقال له قيس بن عامر: هذا صاحب رسول الله ﷺ هذا ضرار بن الأزور لا تتكلم في حقه بكلام قبيح! فقال الملك: هذا الذي بلغني عنه أنه يقاتل مرة راجلاً ومرة فارساً ومرة عارياً ومرة لابساً! قال: نعم فعندها سكت ولم يتكلم.

قال الواقدي -رحمه الله-: ولقد بلغني أن البترك لما سمع خرق ضرار به أبدى الغضب بعد الابتسام ولحقه غيظ شديد ما عليه من مزيد وقام من حضرة الملك! وغضب البطارقة والحجاب لغضب البترك فلما رأى الملك غضبهم خاف على نفسه منهم فقال: قطعوه بسيوفكم وامحوا أثره! فنزلوا عليه بالسيوف وضربوه ضربات شديدة وكانت عدة تلك الضربات مائة وأربع عشرة ضربة إلا أنها غير قاتلة لما يريده الله من لطفه الخفي في حياته ونجاته فلما رأى البترك هذه الفعال سكن غضبه وقال: اقطعوا لسانه! فلما أن رأى يوقنًا ذلك الأمر وتحقق هذا الكلام منهم قال في نفسه: والله لا أترك هذا اللعين يتمكن من أصحاب رسول الله ﷺ وتقدم إلى الملك وقبَّل الأرض ودعا بدوام الملك والنعم، وقال: أيها الملك! إن هذا ليس بصواب وإن من الرأي السديد عندي أن تترك هذا الغلام حتى يصح فإذا عاد إلى صحته أخرجناه إلى باب

المدينة و صلبناه لتشفى صدور الروم لأنه قد أثر فيهم كلامه الذي تكلمه، وقد قتل من آبائهم وأبنائهم وإخوانهم، وأيضاً يبلغ الخبر إلى المسلمين بإهانته وضربه فيوهنوا بذلك. وإنما أراد يوقنّا بذلك أن يخلص ضراراً منه، وقال في نفسه إذا بات تلك الليلة انكسرت حدة الغيظ من الملك فيطلقه! فقال الملك ليوقنّا: خذه واحفظه إلى غد فأخذه يوقنّا إلى داره وافتقد جراحاته فإذا بها كلها سليمة ما قطع له عصب ولا عرق و ذلك من لطف الله الخفي.

ولما أن رأى يوقنّا جراحاته خاطها و داواها وأطعمه وأسقاه ففتح عينيه فرأى يوقنّا وولده ولم يكن عنده علم بأن يوقنّا قد أتى إلى هذا المحل ليحتال على الملك؛ فلما أن رآهما قال لهما: إن كنتما كافرين فقد سخركما الله لي حتى داويتماني! وإن كنتما مؤمنين فمرحباً بكما وهنيئاً لكما ولعل الله ببركتكما يجمع شملي بعجوز في الحجاز قد أعلّها البكاء والعويل ليلاً ونهاراً من أجلي وأجل أختي خولة وهي في العسكر ولقد كانت تحسب هذا الحساب لأنني بقية من مضى لها من الأحباب ولقد خفي عليها خبري وأمري فإن قدرتما أن تبلغاها سلامي وتعلماها مقامي وكيف كان للكافرين كلامي فهي ترسل وتعلم أمي وتكاتبها بأمري فلما استراح في الليل قال بالله عليكما اكتبا عني ما أقول لكما فكتب عنه ابن يوقنّا وهو يملي له ويكتب حرفاً بحرف شعرا:

ألا أيها الشخصان بالله بلغا ... سلامي إلى أهلي بمكة والحجر
تلقيتما ما عشتما ألف نعمة ... بعز وإقبال يدوم مع النصر
ولا ضاع عند الله ما تصنعانه ... فقد خف عني ما وجدت من الضر
بصنعكما لي نلت خيراً وراحة ... كذلك فعل الخير بين الورى يجري
وما بي وايم الله موتي وإنّما ... تركت عجوزاً في المهامة والقفر
ضعيفة حال ما لها من جلادة ... على نائبات الحادثات التي تجري
وإني أردت الله لا شيء غيره ... وجاهدت في جيش الملاعين بالسمر
وأرضيت خير الخلق أعني محمداً ... لعلي أنال الفوز في موقف الحشر
فمن خاف يوم الحشر أرضى إلهه ... وقاتل عباد الصليب بني الكفر
كذا جلت يوم الحرب في كل كافر ... وجندلته بالطعن في الكر والفر
تقول وقد حان الفراق لحينه ... ألا يا أخي ما لي على البين من صبر
ألا يا أخي هذا الفراق فمن لنا ... بحسن رجوع قادم منك بالبشر
إذا سافر الإنسان عن أرض أهله ... فإمّا رجوع أو هلاك مدى الدهر

قال الواقدي: لما كتب ابن يوقنّا هذه الأبيات كتب أبوه يوقنّا إلى أبي عبيدة يعلمه بما يريد أن يدبره وسلمه إلى رجل يثق به وبعثه إلى المسلمين.

.... حدثني جابر بن عمران الدوسي ونحن في أرض يقال لها البلاط إذ جاء معن بن أوس من آل مخزوم، ولقد تركه أبو عبيدة في المقدمة فجاء برجل من الروم فقال لأبي عبيدة: خذ هذا إليك فهو يزعم أنه رسول فاستخبره أبو عبيدة في السر. فقال: أنا رسول إليك بكتاب. فقال: ممن؟ قال: من يوقنّا ومن أسير لكم بأنطاكية يقال له ضرار بن الأزور، فأخذ أبو عبيدة الكتاب وقرأه على من يعز عليه فبكوا من أبيات ضرار وبلغ الخبر أخته فأتت إلى أبي عبيدة وقالت: يا أمين الأمة أسمعني أبيات أخي فقرأ البعض عليها ولم يتمها فاسترجعت وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فوالله لآخذن بثأره إن شاء الله تعالى، وحفظ الناس أبيات ضرار وتداولوها بينهم فكان أشد الناس عليه حزناً خالد بن الوليد.

.... عن دارم بن عياش أن أهل حازم فتحوا قلاعاً كثيرة وحصوناً منها الراوندات وما سواها من قورص وباسوطا، ولم يزل أبو عبيدة سائراً بالمسلمين إلى أن نزل على جسر الحديد وبلغ الخبر هرقل فتمكن الخوف من قلبه وأمر بطارقته بالتأهب للقتال ونصب سرادقاته مما يلي جسر الحديد، وضربت الملوك خيامها، وفتح الملك هرقل خزائن السلاح وفرَّقها على رجاله وأبطاله وخلع على يوقنّا وقال له: أيها الدمستق قد وليتك على جيشي هذا كله فكن أنت مدبره وسلم إليه صليباً كان في بيعة القيسان لا يخرجونه إلا في الأيام العظام عندهم وقال له: أيها الدمستق قدِّم هذا الصليب بين يديك واعتمد على نصرته فهو ينصرك فأخذه وسلمه إلى ولده وأمره أن يحمله بين يديه.

فعندها ركب الملك هرقل إلى كنيسة القيسان ومعه الملوك والحجاب حتى يصلي صلاة النصر، فلما وصلوا وصلى الملك جلس وأمر بإحضار المائتين من أصحاب رسول الله ﷺ ليقربهم قرباناً فقبَّل يوقنّا يده وقال له: يا عظيم الروم ما ولاك الله على البلاد والعباد إلا وقد علم أن عقلك يسع ذلك وقد قال ديسقور الحكيم: إن العقل مرقى جليل وصاحبه نبيل، لأنه عز الإنسان ومصباح الأنام، واعلم أيها الملك أن العرب قد قصدتنا بعددها وعديدها وقد نزلوا على جسر الحديد ولابد لنا من القتال والمصاف معهم ولا ندري على من تكون الدائرة، فإن قتلت هؤلاء الأسرى ووقع أحد منا بأيديهم فإنهم لا يبقون عليه، والصواب تركهم إلى أن نرى ما يؤول من أمرنا، فإن أسروا من أصحابنا أحداً أو من أعياننا نفاديه، فقال أرباب الدولة: صدق الدمستق في قوله.

قال البترك: أيها الملك أحضرهم إلى هذه الكنيسة فإنها أحسن كنائس بلدنا وأمر النساء والبنات يتزين ويحضرن هنا فإذا هم نظروا إلى نسائنا وحسنهن وجمالهن وطيب رائحتهن مالت أنفسهم إليهن فيرجعون إلى ديننا فيكون ذلك وهناً على المسلمين. فأمر بذلك، فلما حضروا رفعت القسوس أصواتهم بقراءة الإنجيل فرفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير وقالوا: كذب الجاحدون وضلوا ضلالاً بعيداً ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله. وكان في الأسرى رجل من اليمن من فضلائهم وعلمائهم ممن علم علم الحميريين وقرأ الكتب السالفة وكان اسمه رفاعة بن زهير يقول الشعر وينظم الكلام وأنه لما نظر الكنيسة ملآنة بأهل الكفر ورآهم يعظمون الصلبان ويسجدون للصور قال: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله كذب العادلون عن الله أصحاب الشيطان ولا إله إلا الله الواحد الرحمن الذي ليس له أب محسوب، وأنه فرد صمد لا إلى شيء منسوب، ليس له ضد ولا ند ولا حد. أوجد الموجودات، وصوَّر المخلوقات، وخلق الكائنات، ودبر الأرض والسموات. أول لا افتتاح لوجوده، وآخر لا عدم لشهوده، لا يموت ولا يفنى، ولا يزول ولا يبلى، لا شريك له، ولا وزير له، ولا صاحب له، ولا مشير له، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فاضطربت الكنيسة لقوله ومالت القسوس بعكاكيزها إليه فأشارت الحجاب إليهم أن لا يكلموه ويتركوه فتفرقوا عنه.

فقال له الملك هرقل: ما اسمك يا أخا العرب؟ قال: أيها الملك وما تريد من اسمي ولست من جنسكم فتستخبروني؟! فقال البترك: صدق أيها الملك ليس هو من جنسنا ولا له علم ولا خبرة فعلام تسأله إنما هو بدوي يعلم بسكنى القفار وصحبة الأشرار والحكمة من بلادنا ظهرت، وفي حكمائنا اشتهرت، لأنها نبعت من اليونانيين ووعاها جدودنا السريانيون من أين للعرب حكمة يتوارثونها وعلوم يتدارسونها والفضائل كلها من علمائنا والعدل في ملوكنا؟! وإنّما تكلم البترك بهذا الكلام بين يدي هرقل وهو يظنّ أنه يطعن في العرب ليسمع جبلة بن الأيهم حكمته، وكان جبلة وولده حاضرين؛ وكان بين البترك وبينه عداوة سببها أن البترك كان بنى له ديراً عظيماً وجعل له عيدا في السنة تقصده الروم من كل مكان بالنذور والأموال والستور والشموع، وكان ذلك كله برسم البترك فأعطى الملك لجبلة تلك الأرض التي فيها الدير فتغلب جبلة على الدير وبنى حوله مدينة وسماها باسمه وهي جبلة هذه.

.... أخبرني يحيى بن عمارة بن أبي الحسن قال: لما سمع رفاعة بن مهير كلام البترك تبسم من قوله وقال: أيها البترك لقد مدحت أقواماً ليس لهم إلى الفضل سبيل، ولا فيهم فاضل ولا نبيل، ولا من وحد الملك الجليل الذي ليس له مثيل ولا

عديل، وما الفضل إلا لولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، الذين لهم البيت الحرام وزمزم والمقام والمشعر الحرام، ومنهم التبابعة والأقيال والحماة والأشبال الذين ملكوا الأرض في الطول والعرض، .... وقد ختم الله شرفنا ورفع قدرنا إذ جعل محمداً ﷺ منا فنحن السادة وأنتم العبيد.

قال الواقدي: وكان لرفاعة بن زهير الجرهمي ولد جاهل. وكان قد أسر معه وكان قلبه يميل إلى الكفر وكان رفاعة يدعو عليه، فلما حضر الأسارى في كنيسة القيسان واشتغل رفاعة مع البترك بالمناظرة أقبل ولد عامر يحدق بنظره إلى البيعة وزينتها وصورها وصلبانها ويتأمل نساء الروم وزينتهن فبادر إلى تقبيل الصلبان والإشراك بالرحمن، فلما رأى أبوه رفاعة ذلك بكى، وقال: يا ويلك أكفرت بعد الإيمان؟! يا ويلك طردت عن باب الرحمن، يا ويلك كفرت بالملك الديان؟! فقيل له: إن ولدك قد أغلق الباب عليه وأرخى الحجاب، فأمر به البترك فحل من الوثاق، وأمر به إلى جرن ماء المعمودية فغمسوه فيه، ودارت به القسوس والشمامسة وبخروه ووقعت عليه الخلع من البطارقة والملوك، ووهب له البترك مركباً وجارية ومنزلاً وضمه إلى عسكر جبلة بن الأيهم. ثم قال البترك: يا هؤلاء ما منعكم أن تدخلوا في ديننا كما فعل صاحبكم؟ قالوا: منعنا من ذلك صحة ديننا وثبات يقيننا، وما نحن من الذين يبدِّلون إيمانهم بالكفر ولو قتلنا! فقال لهم البترك: طردكم المسيح عن بابه وأبعدكم عن جنابه. فقال له رفاعة: الله يعلم أينا المطرود ومن هو عن رحمة ربه مبعود.

فقال هرقل: يا معاشر العرب قد وصل إلينا أن خليفتكم وأميركم يلبس مرقعة وقد وصل إليه من أموالنا وذخائرنا ما يكل عنه الوصف فما منعه أن يتزيا بزي الملوك؟! فقال رفاعة: يمنعه من ذلك طلب الآخرة والفزع من جبار الجبابرة. فقال هرقل: ما صفة دار إمارته؟ فقال رفاعة: مبنية بالطين خالية من الحجاب آنسة بالفقراء والمساكين. قال: فما بساطه؟ قال: العدل والتمكين. قال: فما سريره؟ قال: العقل واليقين، قال: فما بدلة ملكه؟ قال: الزهد والدين. قال: فما خزائنه؟ قال: الثقة برب العالمين. قال: فمن جنده؟ قال: أبطال الموحدين. أما علمت أيها الملك أن جماعته قالوا له: يا عمر قد ملكت كنوز القياصرة وذللت البطارقة والأكاسرة فهلا لبست ثياباً فاخرة؟! قال: أنتم تريدون زينة الحياة الظاهرة، وأنا أريد رب الدنيا والآخرة، فلما أبدى هذا القول وأضمر أشار إليه منادي القدرة وبشر "ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ". ثم إن الملك هرقل أمر بهم إلى السجن الذي هو في كنيسة القيسان وخرج إلى عسكره ليشرف على الخيام فرأى السرادقات قد

ضربت لأن البطارقة ضربت سرادقاتها عند خيامه ونونية الملوك قد نصبت بإزاء كل نونية كنيسة من الخشب المدهون بسائر الأصانيع والنواقيس على أبوابها وكان زي الروم ذلك، وهذه البيع والخشب كانوا يتنافسون فيها وفي صنعتها وتكون معهم في أسفارهم وعساكرهم. وطاف هرقل على عسكره جميعه وأراد الدخول إلى أنطاكية وإذا بفوارس تركض إليه، فقالت لهم الحجاب وأصحاب السرير ما وراءكم؟ قالوا: ملك جسر الحديد منّا وقد حصلت العرب على داخل الجسر. فأيقن الملك بزوال ملكه، وقال: وكيف ملكت العرب الجسر والبرجين وفيها ثلثمائة من البطارقة الشداد؟! قالوا: أيها الملك إن المقدم الذي على الأبراج هو الذي سلمهم.

قال الواقدي: ومن حسن لطف الله بالمسلمين أن صاحب الملك كان في كل يوم يمضي إلى الجسر ويوصي من في البرجين باليقظة والحرس الشديد وأنه مضى في بعض الأيام على عادته فوجدهم يشربون الخمر وليس عندهم حفظ ولا حرس فأخذهم وضرب كبراءهم وهمّ بقتل مقدمهم. ثم إنه أمسك عنه خوف الملك فعمل الحقد في قلوبهم فجاءهم يوقنّا في بعض الأيام يتجسس ليدبر فيه حيلة فرآهم حانقين من صاحب الملك فسألهم فأنكروا منه، فقال لهم: أطلعوني على خبركم، فقالوا له: أتعطينا منك أماناً؟ فأعطاهم، فقالوا: نحن نسلم هذا الجسر للعرب. فلما صح عنده ذلك، قال لهم: ما مرادكم؟ قالوا: نأخذ أماناً من المسلمين، فقال يوقنّا: أنا أكتب لكم كتاباً إلى أميرهم بأن يعطيكم أماناً، وإن دخلتم في دينهم فهو خير لكم! فقالوا له: وكيف أنت دخلت في دينهم. ثم رجعت، فقال: حاش لله وإنما أتيت أدبرهم على تسليم أنطاكية لهم، فلما صح عندهم ذلك. قالوا: ونحن نسلم إليهم الجسر، فلما وافقهم على ذلك كتموا أمرهم، فلما قدم المسلمون مضى إليهم صاحب الجسر من غير أن يعلم به أحد وأخذ له ولمن معه أماناً وناوله كتاب يوقنّا ففرح المسلمون بذلك بأن يأخذوا جسر الحديد من غير قتال فأعطوا للمقدم أماناً، فلما وصل عسكر المسلمين إلى الباب الذي على الجسر فتح لهم فدخلوا، فلما سمع هرقل بذلك أمر الناس أن يتأهبوا للحرب ففعلوا ذلك.

.... عن منازل بن نزاف الصيدلاني وكان أعرف الناس بفتوح الشام قال: بلغني أنه لما صار المسلمون بأرض أنطاكية. قال أبو عبيدة لخالد: يا أبا سليمان قد صرنا بأرض أنطاكية بلد كلب الروم والساعة يأتينا عسكره فما ترى من الرأي؟ قال خالد: إن الله ﷻ قال: "وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ"، فأمر أصحابك أن يتأهبوا ويظهروا زينة الإسلام وقوة الإيمان وسيِّر كل أمير بجيشه ولتكن الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضاً. ففعل أبو عبيدة ذلك، وأول من سيَّر سعيد بن زيد أحد العشرة ومعه ثلاثة آلاف

فارس فيهم المهاجرون والأنصار وجعله على مقدمة الجيش، وسيَّر وراءه رافع بن عميرة الطائي ومعه ألف فارس، وسيَّر وراءه ميسرة بن مسروق العبسي في ثلاثة آلاف فارس، وسار وراءه خالد في جيش الزحف.

وسار وراءهم أبو عبيدة في بقية العسكر، وكان معه عمرو بن معد يكرب الزبيدي وذو الكلاع الحميري وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر ومثل هؤلاء السادات وسار وراءهم النساء اللاتي لهن الأسرى وفيهم خولة بنت الأزور وعفيرة ابنة عفان ومزروعة ابنة عملوق وأم أبان بنت عتبة وليس فيهم أشد حزناً من خولة بنت الأزور. فسار أبو عبيدة في مواكبه كما ذكرنا، فبينما الروم في خيامها وعسكرها إذ وقع فيهم الصائح بقدوم العرب، فركزوا خيولهم وصفوا صفوفهم، فأول من أشرف عليهم برايته سعيد بن زيد وبعده المسيب بن نجبة الفزاري، وبعده ميسرة بن مسروق العبسي، وبعده أتى خالد بن الوليد، وبعدهم أبو عبيدة في مواكبه، فنزل كل أمير بقومه فلما نظر هرقل إليهم وأنهم قد نزلوا بفنائه وبنائه ترك على حفظ جيشه صاحبه الأكبر "نسطاروس بن روميل" وكان من شجعان الروم، ودخل إلى كنيسة القيسان وجمع الملوك والبطارقة والسريرية والحجاب، وقام هرقل فيهم خطيباً وقال: يا أهل دين النصرانية ويا بني ماء المعمودية قد قرب ما حذرتكم منه من زوال ملككم وذهاب عزكم من أرض سورية، وقد كنت حذرتكم من زوال ملككم ومن هذا المقام فلم تقبلوا مني وأردتم قتلي، وهؤلاء القوم قد دخلوا بدار ملككم ورياح عزكم فقاتلوا عن حريمكم وأموالكم وأنفسكم، وإياكم والفشل لا يلحقكم في الجهاد فقد جاهدت عنكم جهدي وأتلفت أموالي وخزائني ورجالي عن ديني وملككم، فلم تصادفني مساعدة، ولا أدركت من القوم فائدة!

فإن أنتم فشلتم وتقاعستم ولم تجردوا لهؤلاء العرب سيوف العزم، وإلا كان العار عليكم، والذلة تصل إليكم، أين أبناؤكم ومن سلف من آبائكم؟ ماتوا كراماً غير لئام وسكنت ديارهم العرب اللئام، وكنائسهم صيروها جوامع، وأخربوا البيع والصوامع وأذلوا ملوككم واستعبدوا أبناءكم ونساءكم وملكوا قلاعكم واستولوا على حصونكم ومدائنكم، وقد مضى ما مضى فاستأنفوا الأمر وقاتلوا: فكم هلك من الأمم قبلكم على ممالكهم وعلى الغيرة على حريمهم، ولقد كانت حكمتي أنتجت لكم أن تنسجوا على منوال المصالحة بينكم وبين هؤلاء العرب فأبيتم ذلك، لأن ظلمة جهلكم قد أطفأت نور الحكمة. أما علمتم أنه قد وجد لوح من الحجر على قبر "طيماون تلميذ أفيانوس" وفيه مكتوب: الحكمة سلم العالم الأعلى، من عدمها فقد عدم القرب إلى بارئه، الحكمة حياة القلوب، وبغية الأذهان، ونزهة النفوس، ونور العقول، من لم

يكن حكيماً لم يزل سقيماً، من تدبر نظر، ومن نظر عرف، ومن عرف عمل، ومن عمل انفتح ذهنه وعقله، ومن انفتح عقله صفت نفسه.

.... عن شهر بن عباس البيروتي أنَّ عمراً حدَّثه عن نزول أبي عبيدة بالمسلمين على أنطاكية قال: وعظ هرقل قومه بكنيسة القيسان واستحلفهم أنهم لا ينهزمون أو يموتوا عن دم واحد فحلفوا وخرجوا مع الملك إلى عسكره، وقد رفعت الصلبان وقرأت القسوس والرهبان وارتفع الضجيج من أهل الكفر والطغيان واصطفوا للقتال، وكان المسلمون قد رتبوا صفوفهم وأوقفوا كل أمير في مكانه ونشرت الرايات والأعلام. قال الواقدي رحمه الله: ......كان أول من خرج من الروم للبراز شجاع الروم "نسطاروس بن روبيل" وهو كأنه برج من حديد، فلما توسط الميدان طلب البراز فخرج إليه دامس أبو الهول مولى بني طريف فاتح قلعة حلب، وهو يومئذ فارس غطريف فحملا على بعضهما، فلما اشتعلت نار الحرب بينهما عثر جواد دامس فسقط على ظهره فانقض عليه نسطاروس وأخذه أسيراً ورجع إلى الميدان، فخرج عليه الضحاك بن حسان الطائي، وكان يشبه خالداً في حملاته وخفَّته، فلما برز قال قائل من الروم -ممَّن شاهد قتال خالد في المواطن وعرفه-: هذا فارس الشام والمسلمين الذي فتح بلادنا! فصار كل من في أنطاكية ينظر إليه وهم يظنون أنه خالد، فازدحمت خيل المشركين من كثرة النظر إليه فقطعت حبال السرادقات التي لنسطاروس وغيروا سريره!

فخاف الغلمان على أنفسهم وسرادقاته على ذلك وإذا رآها على تلك الحالة قتلهم، ولم يجدوا أحداً يعينهم على رفع السرادق لأن كل من في العسكر مشغول بالفرجة على نسطاروس مع خصمه فاتفق اثنان من الفراشين وكانوا ثلاثة على حل دامس أبي الهول، وقالوا له: نحن نحلك من وثاقك وتعيننا على شيل عمود هذا السرادق ونعيدك إلى الوثاق، فإذا جاء البطريق نشفع فيك فإنه يخلي سبيلك. فقال: نعم فحلوه من وثاقه، فعندها قبض على الاثنين كل واحد بيد وضرب واحد بواحد فصرعهما فماتا فهجم على الثالث فقتله وفتح صندوقاً من الصناديق فوجد فيه ثياب نسطاروس فلبسها وركب من الطوالة جواداً من خيارها وأخذ بيده قنطارية وسيفاً ولثَّم وجهه وقصد عسكر المتنصرة ووقف إلى جانب حازم بن عبد يغوث وهو ابن عم جبلة، وكان قدمه على عسكر المتنصرة وجبلة وولده وبنو عمه في موكب الملك.

قال الواقدي: ولم يزل القتال بين نسطاروس والضحاك بن حسان إلى أنْ كلَّ الجوادان ولم يقدر أحد منهما على صاحبه فافترقا، وعاد نسطاروس إلى سرادقاته

ليستريح فوجد السرادق على الأرض والفراشين قتلى ولم ير دامساً فعلم أن المصيبة من قبله فمضى إلى الملك وأعلمه بذلك، فقال: وحق المسيح ما هؤلاء العرب إلا شياطين! قال: وهرج العسكر بصنع أبي الهول، فقال الملك: هو الآن في عسكرنا وما رأيناه خرج وما هو إلا مختف في عسكر المتنصرة لأنه من جنسهم، فلما رأى دامس هرج عسكر الروم، وأن ذلك بسببه انتضى سيفه على حين غفلة وضرب به حازم بن عبد يغوث فرمى رأسه عن بدنه فبهتت المتنصرة من فعله وأمسك الله عنه أيديهم ودهشوا لذلك وأطلق جواده وطلب عسكر المسلمين، فلما رأوه صاحوا بالتهليل والتكبير فأتى إلى أبي عبيدة وأخبره بما وقع له مع القوم. فقال: لا شلت يداك. قال: وبلغ الخبر جبلة من قتل ابن عمه حازم فغضب وأتى إلى هرقل وصقع له، وقال: يا عظيم الروم أنا لا أقدر على الصبر ولابد لنا من الحملة على هؤلاء الذين قد تعدوا طورهم وجهلوا قدرهم!

فأراد الملك أن يأمرهم بالحملة، وإذا قد أقبلت عليه خيل تركض، فقال لهم: ما وراءكم؟ قالوا: أيها الملك إنه قد قدم إلى نصرتك "فلنطانوس بن سطانيوس بن أرمونيا" صاحب المدائن ورومية الكبرى وقد اختار من جيشه في رومية ثلاثين ألفاً وهم الكرجية وولى في موضعه ولده "استفليوس". وركب الملك هرقل في موكبه إلى لقائه وضربت سرادقاته بازاء سرادقات هرقل وفرحت الروم وتفاءلت بالنصر وضربت النواقيس ووقعت ضجة عظيمة في جيوشهم وارتفعت أصواتهم وجاءت عيون المسلمين فأخبروهم بقدوم صاحب رومية فرفع أبو عبيدة كفه إلى السماء، وقال: اللهم إن أعداءك يستنصرون علينا بكثرة عددهم وتزايد مددهم فشتت كلمتهم ودمر جيوشهم وزلزل أقدامهم وعسر أيامهم واجعل كلمتنا العليا وكلمتهم السفلى وانصرنا كنصر نبيك ﷺ في يوم الأحزاب: اللهم رد كيدهم في نحرهم وانصرنا عليهم قال: وأمنت المسلمون على دعائه.

.... عن جعفر بن ميسرة قال: قال لي عمي لما قدم صاحب رومية بجنوده خاف المسلمون ولكن ثبتهم الله وبعث أبو عبيدة معاذ بن جبل ومعه ثلاثة آلاف وقال له: يا صاحب رسول الله إن الروم قد تجمعت من سواحل البحر لنصرة دينها فانهض وشن الغارات على بلاد السواحل واحتفظ أن تؤتى المسلمون من قبلك! ففعل ذلك معاذ وسار إلى جبلة واللاذقية فاحتوش أموالها، وأخذ غنائمها، ووجد على باب جبلة عنان بن جرهم الغساني ابن عم جبلة بن الأيهم ومعه ألف دابة محملة براً وشعيراً لعسكر الكفر، وقد جمعها من طرابلس وعكا وصور وصيدا وقيسارية وقد بعث بها قسطنطين بن هرقل إلى أبيه، فلما وصلت مدينة جبلة سلمها العرب المتنصرة لابن عم

جبلة وعادوا فوقع بها معاذ ﷺ فأخذها ورجع قافلاً إلى عسكر المسلمين، فلما رأوها رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير!

فسأل هرقل عن ذلك فأخبروه بما وقع فغضب على أخذ الميرة التي تتقوت بها عسكر أعدائه. فقال لبطارقته ما بقي بيننا وبين هؤلاء إلا المصاف ويعطي الله النصر لمن يشاء. ثم إنه أمر عساكره بالأهبة للقتال ثم إنه ركب وإلى جانبه فلنطانوس صاحب رومية وصاحب مرعش وصاحب قلعة اسكبادنيس وهي قلعة الروم وصاحب طرطوس وصاحب مصيصة وصاحب قونية وصاحب ماصر وصاحب اقصرا وصاحب قيسارية الروم الأقصى وصاحب قوماط وصاحب انطرانه وصاحب طبرزند وجبلة بن الأيهم. وأقبل يوقنًا يرتب الصفوف في الحرب، فلما وقف كل ملك بجيشه وكل بطريق بأصحابه؛ أراد فلنطانوس ملك رومية أن يتقرب إلى هرقل بمبارزة العرب فصقع له على قربوس سرجه وقال: أيها الملك ما تركت ملكي وأتيت إلى خدمتك من مائتي فرسخ إلا حتى أرضي المسيح وأخدمه بين يديك وأن كل عسكرك قد قاتلوا وجاهدوا وأريد أن أبرز في هذا اليوم إلى هؤلاء المحمديين وأشفي فؤادك وفؤادي منهم! فأراد الملك أن يطيب قلبه فقال له: الزم مكانك ولا تخرق بحرمتك وحشمتك حشمة الملوك فأنت أقدم مني في المملكة فدع غيرك يكون لهذا الأمر فما بلغ من شأن العرب أن تخرج أنت إليهم بنفسك.

فقال فلنطانوس: أيها الملك وأي حشمة بقيت لنا مع هؤلاء وقد أهملوا عزنا وأذلوا أعز ديننا والجهاد مفروض على كبيرنا وصغيرنا، أما علمت أيها الملك أنه لما علم القديم الأزلي بركون أنفسكم المحجوبة بحجاب الغفلة إلى طلب ما يفنى سلط عليكم أضعف أمة قد أخرجتكم من دياركم وأبعدتكم عن أوطانكم، وما ذاك إلا لخلودكم إلى الأهواء الجاذبة إلى مهاويكم وإلى إدراك المهالك لأنكم حكمتم بغير الحق واجترأتم على الرعية بطلبكم منهم ما ليس لكم بحق، والجور في أخذ أموالهم وفساد أحوالهم وكثرة الزنا واتباع الخنا فلأجل ذلك لم تنصروا، ودارت دائرة السوء عليكم!

فتكلم صاحب الملك هرقل الكبير واسمه سروند وصاح عليه وقال له أيها السيد لا تحمل على قلب الملك من كلامك ما لا يطيق في مثل هذه الساعة، فقد وعظه من هو أكبر منك فلم يسمع قوله. قال فغضب فلنطانوس من صياح الحاجب عليه وكتم أمره إلى الليل، فلما مضى من الليل ربعه طلب حجابه وخواصه، وقال لهم: أرضيتم أن يزعق عليَّ حاجب هرقل ويوبخني بين الملوك وأنتم تعلمون أن بيتي أعظم

من بيته ونسبه أدنى من نسبي وملكي أقدم من ملكه!! ولقد قال قسيس حكيم بلاد الذكر المشهور بحكمته: لا تسع بقدمك إلى من يراك دونه فتصغر عنده واجعل عز نفسك في مقابلة كبرياء عجبه، فإن عزة النفوس تقابل جاه الملوك ولا تصنع صنيعك لغير مستحقه لأنها تجلب عليك السوء من قبل ذلك، فإن ذلك الإحسان لا يزكو إلا عند ذوي الأصول فإنه يندمج عند السفهاء والأرذال لا تصنع إليهم النصيحة، فإنك أنت تطلب منفعته وهو يريد هوى نفسه بأذيتك وقد جئنا من مائتي فرسخ وأكثر إلى خدمة رجل يرى أننا قد قصدنا داره وتاج عزّه وأننا نحن من جملة خدمه!

وقد عوّلت أن أسير إلى هؤلاء العرب واختبر ملتهم فإنها هي الملة الواضحة بالحق المؤيدة بالصدق، ومن كان عليها أمن في معاده من الهول الأكبر فما أنتم قائلون؟ قالوا: أيها الملك وكيف تطيب نفسك بترك دينك وملكك وعزك وتتبع هؤلاء وهم لا فضل لهم ولا عندهم حكمة؟! فقال فلنطانوس: أما الحكمة البالغة فعندهم مقرها وفي نفوسهم موطنها.... فلما سمعوا قوله قالوا: أيها الملك نحن ما نمنعك من عز دائم يخرجنا من الذل ومهانة الغلبة، فإذا كنت تطلب بنا طريقاً يؤدي إلى البقاء ويذهب بالشقاء فالحق اتباع الحق ونفي الباطل فنحن لك وبين يديك. قال: فخذوا على أنفسكم فإذا كانت ليلة غد ركبنا كأنّا نطوف حول البيت نحرسه ونطلب جيش العرب. ففعلوا ذلك وأخذ فلنطانوس في أمره.

.... عن أبي موسى الأشعري قال: لما عزم فلنطانوس أن يسير إلى جيش المسلمين أتى إليه يوقنّا برسالة الملك هرقل، فلما أدى الرسالة وهمّ بالقيام قال له فلنطانوس: من أنت من الحجاب؟ قال: أنا يوقنّا صاحب حلب. قال: وكيف تركت بلدك؟ قال: استولت عليها العرب وحدّثه بحديثه. فقال فلنطانوس: وما الذي ظهر لك من هؤلاء العرب؟ قال: أيها الملك إني دخلت في دينهم واطلعت على أمرهم وكشفت سرهم فرأيت القوم لا يستمعون إلى الباطل ولا يحيدون عن الحق ولا ينامون الليل من كثرة اجتهادهم ولا يتكلمون بغير ذكر ربهم ينصفون المظلوم من الظالم ويواسي غنيهم فقيرهم، الأمراء منهم في زي المساكين، والعزيز والذليل عندهم سواء. فقال له فلنطانوس: فإذا وقفت على سرهم ورأيت فضلهم فما منعك أن تقيم عندهم وبينهم؟! فقال يوقنّا: منعني من ذلك صحة ديني وصحبة قومي لأني لم أر فراقهم. قال فلنطانوس: إن النفوس الزكية الباقية إذا رأت الحق جذبها جاذب اليقين إلى حضرة طلب الإخلاص من المعيشة الذميمة إلى أن ترقى إلى أعلى عليين. فخرج يوقنّا وقد رسخ كلام فلنطانوس في قلبه، فقال: والله ما تكلم بشيء إلا وهو منقوش على صفحة صدري وكلامه يشهد بقبول عقله لصحة دين الإسلام! وأقام يوقنّا على قلق من ذلك حتى أقبل الليل فأتى إلى فلنطانوس فرآه وهو على نية الركوب إلى ما ذكرناه، فلما

وقف بين يديه صقع له. فقال له فلنطانوس: بأي حجاب حجب الله الظالمين عن اتباع سبيل المتقين فالحق واضح لمن طلبه والباطل خفي عمن اتبعه؟! فقال يوقنّا: أيها الملك ما معنى هذا الكلام الذي أشرت إليه؟ فقال: لو أنك رأيت بعين البصيرة لما رجعت عن ملتهم ولا أردت بدلاً غيرهم وإنما أنت طلبت نعيماً يؤول إلى الزوال ويفضي بصاحبه إلى النكال.

فسكت يوقنّا وخرج من عنده وجعل يتجسس عليه ومضى ووقف على الطريق الذي يمضي إلى المسلمين فركب فلنطانوس وخرج من سرادقه فوجد بني عمه قد أخذوا أهبتهم وهم أربعة آلاف فارس وقدموا عزمهم وساروا يداً واحدة يطلبون جيش الموحدين وقد تركوا عزهم وفارقوا دينهم، فلما قربوا من جيش المسلمين ظهر لهم يوقنّا وبنو عمه المائتان. فقال يوقنّا لفلنطانوس: أيها الملك عوّلت على أن تكبس المسلمين؟ فقال: لا والقديم الأزلي وإنما أنا قاصد إليهم وداخل في دينهم وملتهم وأكون من جملتهم، فمن نظر إلى الدنيا بعين الفناء عمل للآخرة فما الذي يمنعك يا يوقنّا مما نحن عوّلنا عليه؟!

فقال يوقنّا: أيها الملك لقد جذبك جاذب الحق عن طريق الضلال ثم إنه حدثه بحديثه وأنه عازم على أن يغدر بالروم فقبّله فلنطانوس وفرح بمقالته، وقال له: كيف تقدر على ذلك وما أرى معك إلا نفراً يسيراً؟ فقال: أيها الملك إن في داخل بيتي مائتين من المسلمين من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ في مقام عشرين ألفاً من الروم! ولقد رأيت أن تعود أنت وقومك ولا تستعجل ونبعث رجلاً إلى أمير المسلمين يخبره بما نحن معوّلون عليه فإذا كان غداً تقف أنت وجيشك حول الملك هرقل وأدخل أنا البلد وأطلق المائتي أسير وأعطيهم سلاحاً، ويحمل جيش العرب، وتحمل أنت وعسكرك على موكب هرقل وتقصده بنفسك فتقبض عليه وتكون قد جاهدت، وأسير أنا ومن معي في داخل البلد فنملكها إن شاء الله تعالى. وإن أردت أن ترجع إلى دار ملكك ويكون أمرك مكتوماً علينا فحوّل أمر جيشك لمن تثق به من بني عمك. قال فلنطانوس: ما فعلت هذا ولي نية في ملكي ولا في ملك الدنيا، بل إذا قضي هذا الأمر ونصر الإسلام قصدت مكة فأحج وأزور قبر النبي ﷺ، ثم أرجع إلى بيت المقدس فأقيم فيه إلى أن أموت، فمن يذهب إلى أمير العرب برسالتي ويخبرهم بما قد عوّلنا عليه؟ فقال له يوقنّا: اعلم أن لهم عندنا عيوناً وجواسيس ممن هم تحت ذمتهم وأنا أعلمهم بما قد وقع. فبينما هم في الكلام تحت ستر الليل وإذا بشيخ قصد إليهما فتأمله يوقنّا فإذا هو عمرو بن أمية الضمري ساعي رسول الله ﷺ فسلم على يوقنّا وعلى من معه، وقال ليوقنّا: إن الأمير أبا عبيدة يقول لك: جزاك الله خيراً عن الإسلام وإنه رأى

في المنام رسول الله ﷺ وهو يقول: "يا أبا عبيدة أبشر برضوان الله ورحمته وغداً تفتح أنطاكية صلحاً وإن صاحب رومية والمدائن الكبرى قد جرى من أمره كيت وكيت هو ويوقنّا صاحب حلب وهما بالقرب منك فأنفذ إليهما بنجاز الأمر" فتهلل وجه فلنطانوس فرحاً واقشعر جلده وارتعدت فرائصه وقال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأشهد أن هذا الدين هو الحق اليقين!

ثم إنهم عادوا وطافوا بجيش الملك كأنهم يحرسون! فبينما قد ذهب يوقنّا بأصحابه من عند صاحب رومية وقد قوي عزمهم على ما ذكرنا من أمر كبسهم الملك، إذا بالحاجب قد لقيه والمشاعل بين يديه وقد خرج من أنطاكية، ومعه ضرار بن الأزور ورفاعة بن زهير والمائتا أسير، وقد عوَّل على قتلهم وأن يرمي غداً برؤوسهم إلى المسلمين! فلما سمع يوقنّا ذلك ضاقت الدنيا عليه وقال له: أيها الحاجب الكبير أنت تعلم أن المصاف غداً واقع بيننا وبينهم فإن أنتم قتلتم هؤلاء ورميت برؤوسهم إلى المسلمين فإنهم لا يقعون بأحد منّا فيبقون عليه فاتق الله ولا تعجل بذلك ودعهم عندي وراجع الملك في أمرهم إلى أن نرى ما يؤول أمرهم إليه. قال: فتركهم الحاجب عند يوقنّا ومضى إلى الملك وأخبره بما قال يوقنّا. فقال له: دعهم عند الدمستق فرجع إليه وقال له: الملك يقول لك احتفظ عليهم فأمرهم لك، فأخذهم يوقنّا وسار بهم إلى خيمته وصعب عليه إخراجهم من أنطاكية لأنه كان قد عوَّل على أن يملك بهم البلد، فلما حلوا في خيمته حلهم من الوثاق وسلم إليهم العدد وأخبرهم بما قد عزم عليه هو وصاحب رومية من القبض على الملك هرقل. فقال ضرار: والله لأرضين الرب غداً بجهادنا، وكانت قد ختمت جراحاته لأنه كان في الأسر ثمانية أشهر، وفرقهم مع بني عمه.

قال الواقدي: حدثنا أبو محمد عن سعيد بن أبي مريم عن يحيى بن أيوب عن عبد الله بن مسعود أن الذي أمر بإخراج الأسرى لم يكن هرقل وإنما كان مملوكه الخاص واسمه تاليس بن ربنوس وكان قد ألبسه تاجه ومنطقته وكان أشبه الخلق به وقال له: كن غداً مكاني فإني أريد أن أكيد العرب وأكمن خلفهم وما ذاك إلا أنه رأى في نومه كأن شخصاً قد نزل من السماء وقلبه عن سريره وكأن تاجه قد طار من على رأسه، وكأن شخصاً يقول له: قد قرب ما بعد وقد زال ملكك من سورية وقد ذهبت دولة الشقاق والنفاق وجاءت دولة الوفاق! وكأن ذلك الشخص قد نفخ في عسكره فأوقد ناراً! فاستيقظ مرعوباً وفسَّر منامه على نفسه بزوال ملكه، وكان قبل نزول العرب قد عبى خزائنه وجمع ما يخاف عليه من التحف ووضعها في المراكب من حيث لا يعلم بذلك أحد من دولته وعبى الزاد والماء، ثم إنه أرسل أهل بيته في تلك الليلة

بعدما رأى في المنام ولم يدع من حريمه وأولاده وعياله أحداً وبعده أمر مملوكه تاليس بن رينوس بما أمره أن يفعله. فلما ركب تاليس ما كان من أمره إلا أن قال للحاجب أخرج الأسارى واضرب رقابهم، فأخرجهم وأخذهم يوقنًا كما وصفنا.

قال الواقدي: وأما ما كان من أمر تاليس، فإنه لما أصبح ركب ورتب عساكر الروم عن آخرها ودارت المواكب حوله، وكان كل من رآه يظن أنه هرقل ولا يشك فيه ودار بمواكبه عسكر فلنطانوس صاحب رومية وركب يوقنًا ومن معه وهم متنكرون تحت السلاح، فكان أول من حمل خالد بن الوليد بجيش الزحف، وتبعه سعيد بن زيد ثم قيس بن هبيرة ثم ميسرة ثم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وذو الكلاع الحميري وأمثالهم وأطبق الناس بعضهم على بعض! فلما اشتبكت الحرب هجم يوقنا ومن معه، وحمل ضرار فلله دره لقد أعطى السيف حقه وأخذ بثأره من الروم، وكلما قتل واحداً صاح: واثارات أسر ضرار بن الأزور! وكان قد قصد عسكر المتنصرة هو وأصحابه ورفاعة بن زهير يشجعهم ويوبخهم ويقول: خذوا بثأركم ممن أسركم واحملوا، وإياكم أن تفشلوا واعلموا أن الجنة قد فتحت أبوابها! ثم صاح: يا فتيان العرب أيكم يرغب في زواج الحور فإن بذل النفوس هي المهور؟! من يريد عرشاً في الجنان ويقوم في خدمته الولدان؟! من يرغب فيما قال الملك الديان "مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ"؟!

قال الواقدي: فبينما ضرار يحمل في الأعداء ويذيقهم شراب الردى وإذا هو بفارس يطحطح الكتائب ويفرِّق المواكب ويصيح واثارات ضرار بن الأزور، فتأمله فإذا هو أخته خولة فناداها: " دارك يا بنت الأزور أنا والله أخوك"، فأقبلت لتسلم عليه فقال لها: إليك عنِّي ما هذا وقت سلام! وإن قتال الكفر أفضل من كلامك يا بنت الأزور فاجعلي عنانك مع عناني وسنانك مع سناني وجاهدي في سبيل الله، فإن قتل أحدنا فالملتقى في الحشر عند حوض سيد البشر، فبينما هم في ذلك إذ نظر إلى جيوش الروم وقد تقهقرت وفرسانهم قد انهزمت، وكان السبب في ذلك أن صاحب رومية -رحمه الله- لما رأى الحرب قد أضرمت نيرانها وعلا دخانها حمل بأصحابه وقصد تاليس بن رينوس فقبض عليه وهو يظن أنه هرقل فصاح الصائح: إن الملك هرقل قد قبض عليه فلنطانوس ملك رومية وغدر به فولَّت الروم الأدبار، وقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها إلا بأجنادين واليرموك، وقتل من العرب المتنصرة زهاء من اثني عشر ألفاً وطلب جبلة ولده فلم ير لهم خبراً فقيل إنهم وأكابر قومهم ركبوا مع الملك هرقل في المراكب، وكان جملة من هرب من سادات المتنصرة مع جبلة وابنه خمسمائة فسكنوا جزائر البحر فمن نسلهم هذه الإفرنج.

قال: وأخذ المسلمون ما كان من السرادقات والخيام والديباج والمتاع والخزائن وأسروا ثلاثين ألفاً، وقتلوا من الروم سبعين ألفاً، وولت العرب المتنصرة منهزمين، فمنهم من أخذ نحو الدروب ومنهم من طلب قيسارية إلى قسطنطين بن هرقل! فلما وضعت الحرب أوزارها وخمدت نارها جمعوا الأموال والأثقال والأسرى بين يدي أبي عبيدة، فلما نظر إلى ذلك سجد لله شكراً وسلم المسلمون بعضهم على بعض، وجاء ضرار وأصحابه ويوقنًا وفلنطانوس وأصحابهما وسلموا على المسلمين وفرحوا بهم، فلما وصل فلنطانوس قام إليه المسلمون وقال كبار الصحابة: سمعنا نبينا ﷺ يقول: "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه". فنظر فلنطانوس إلى تواضعهم وحسن سيرتهم وكثرة عبادتهم فقال: هؤلاء والله القوم الذين بشر بهم عيسى عليه السلام، فأسلم بنو عمه عن آخرهم، وبعدها مضى فلنطانوس إلى مكة فحج، وزار قبر النبي المختار ﷺ، وسلم على عمر رضي الله عنه، فلما رآه وثب إليه قائماً وصافحه هو وجميع المسلمين، وعاد إلى بيت المقدس فجلس يعبد الله فيه حتى أتاه اليقين.

قال الواقدي: ونظر أبو عبيدة إلى جيش أنطاكية وقد تحصنوا فيها وهم لا يحصون فقال: اللهم اجعل لنا إلى فتحها من سبيل وافتح لنا فتحاً مبيناً. قال: وكان على أنطاكية بطريق اسمه صليب بن مرقس، وكان جاهلاً في رأيه فعزم على القتال من داخل السور فاجتمع أكابر البلد إلى البترك في الليل وقالوا له: اخرج إلى هؤلاء العرب وصالح بيننا وبينهم على ما تقدر عليه. قال: فخرج البترك إلى أبي عبيدة وحدثه في الصلح فأجابه إلى ذلك، فكان جملة ما صالح عليه أهل أنطاكية ثلثمائة ألف مثقال من الذهب! فلما تقرر الصلح قال له أبو عبيدة: احلف لنا أنكم لا تغدرون بنا فإن مدينتكم مانعة كثيرة الجبال والوعر. فقال خالد: ومن يحلّفه؟ فقال أبو عبيدة: يوقنًا. فوضع يوقنًا يده على رأس البترك فوق يده وقال: قل والله والله والله أربعين مرة، ...... إننا لا نغدر بكم ولا كنّا إلا معكم. فعندها قام أبو عبيدة ودخل أنطاكية وكان دخوله لخمسة أيام مضين من شعبان سنة 17 من الهجرة فدخلها وبين يديه اللواء الذي عقده له أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعن يمينه خالد بن الوليد وعن يساره ميسرة بن مسروق ودخلها والقراء بين يديه يقرؤون سورة الفتح، فلم يزل سائراً حتى وصل إلى باب الجنان فنزل هناك وخط هناك مسجداً وأمر ببنائه وبه يعرف إلى يومنا هذا.

قال ميسرة بن مسروق فنظرنا إلى بلد رطب طيب الهواء كثير الماء والخيرات، فاستطابه المسلمون وودنا لو أقمنا فيه شهراً لنستريح، فما تركنا أبو عبيدة فيه غير ثلاثة أيام، ثم إنه كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سلام عليك وإني أحمد الله إليك

الذي لا إله إلا هو، وأصلى على نبيه محمد ﷺ وأشكره على ما فتح علينا ورزقنا من الغنيمة والنصر وأعلمك يا أمير المؤمنين أن الله ﷻ قد فتح على المسلمين كرسي النصرانية -مدينة أنطاكية-، وكسر الله عسكرها، ونصرنا الله عليهم وهرب هرقل في البحر وإنِّي لم أقم بها لطيب هوائها، وإنِّي خشيت على المسلمين أن يغلب حب الدنيا على قلوبهم فيقطعهم عن طاعة ربهم، وإنِّي معوِّل على المسير إلى حلب وإنِّي منتظر أمرك، فإن أمرتني أن أسير إلى داخل الدروب فعلت، وإن أمرتني بالمقام أقمت، واعلم يا أمير المؤمنين أن العرب قد نظرت إلى بنات الروم فدعتهم أنفسهم إلى التزوج فمنعتهم من ذلك، وإني أخشى عليهم الفتنة -إلا من عصمه الله-، فعجل إليَّ بأمرك والسلام عليك وعلى جميع المسلمين. وطوى الكتاب وختمه.

وقال: معاشر المسلمين من يسير بكتابي هذا إلى أمير المؤمنين؟ فأسرع بالإجابة زيد بن موهب مولى عمير بن سعيد مولى عمرو بن عوف، فقال: أنا أيها الأمير أوصله إن شاء الله تعالى، فقال أبو عبيدة: يا زيد أنت لست مالك نفسك، فإن أردت المسير فسل مولاك أن يأذن لك في ذلك! فأسرع زيد إلى مولاه عمير فانكب على يديه يقبلهما فمنعه من ذلك، وذلك أن عميراً كان رجلاً زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة ما يملك من الدنيا سوى سيفه ورمحه وفرسه وبعيره ومزادته وقصعته ومصحفه، وكان الذي يصيبه من الغنائم لا يدخر منه ولا يأخذ إلا ما يقوته، وكان يفرق الباقي على قرابته وقومه، فإن فاض شيء يرسله إلى عمر ﷺ يفرقه على فقراء المسلمين المهاجرين والأنصار. فلما أراد زيد أن يقبل يد سيده منعه، وقال له: ما الذي تريد؟ فقال: يا مولاي تأذن لي أن أكون رسولاً للمسلمين بشيراً إلى عمر بن الخطاب ﷺ. فقال عمير بن سعيد: تريد أن تكون بشيراً للمسلمين وأمنعك من ذلك. إني إذاً لآثم، امض فأنت حر لوجه الله تعالى، وأرجو بعتقك أن يجيرني الله من النار. ففرح زيد بذلك وعاد إلى أبي عبيدة فأخبره أن ببركة كتابه صار حراً فسر أبو عبيدة وسار زيد على نجيب من نجب اليمن دفعه إليه وكان سابقاً. فجعل زيد يطلب أقرب الطرق حتى قدم المدينة ودخلها، وإذا بها ضجة عظيمة ولأهلها ضجيج وهم يهرعون نحو البقيع وقباء، فقلت لنفسي: إنَّ لهم أمراً فتبعتهم لأرى ما شأنهم وأنا أحسب أنهم يريدون حرباً فرأيت رجلاً فعرفته فسلمت عليه فعرفني، وقال: أنت زيد؟ قلت: نعم. قال: الله أكبر ما وراءك يا زيد؟ قلت: البشارة والغنيمة والفتح.

قلت: ما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب؟ قال: إنه خارج يريد الحج ومعه أزواج النبي ﷺ يحج بهن والناس يشيعونه. قال زيد: فأنخت بعيري وعقلته وأسرعت مهرولاً حتى وقفت بين يدي عمر ﷺ وهو يمشي راجلاً ووراءه مولاه يقود بعيره وقد

رحله بعباءة قطوانية وزاده وجفنته عليه، والهوادج بين يديه سائرة، وعن يمينه علي بن أبي طالب، وعن يساره العباس بن عبد المطلب، ومن ورائه المهاجرون والأنصار وهو يوصيهم بالمدينة. فلما وقفت بين يديه ناديت: السلام عليك يا أمير المؤمنين أنا زيد بن وهب مولى عمير بن سعيد أتيتك بشيراً. قال عمر: بشرك الله بخير فما بشارتك؟ قلت: هذا كتاب من عاملك أبي عبيدة يخبرك أن الله قد فتح على يديه أنطاكية. فلما سمع عمر ذكر أنطاكية وأن الله فتحها خرَّ لله ساجداً يمرغ خديه على التراب، ثم إنه رفع رأسه من سجوده وقد تترب وجهه وشيبته، وهو يقول: اللهم لك الحمد والشكر على نعمك السابغة، ثم قال: هات الكتاب رحمك الله فناولته إياه، فلما قرأه بكى، فقال له عليٌّ كرم الله وجهه: مم بكاؤك؟! قال: مما صنع أبو عبيدة بالمسلمين وبما استعقب رأيه في الموحدين، ثم قال: إن النفس لأمارة بالسوء ودفع الكتاب إلى عليٍّ فقرأه على المسلمين إلى آخره.

قال زيد بن وهب: ثم رأيت عمراً قد هدأ من بكائه، وقد زاد فرحه وأقبل عليٌّ وقال: يا زيد إذا عدت فأمعن النظر في أتيانها وأعنابها واحمد الله كثيراً، فقلت: يا أمير المؤمنين ليس هذا أوانه! ثم جلس عمر على الأرض ودعا بدواة وقرطاس وكتب إلى أبي عبيدة كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر إلى عامله بالشام أبي عبيدة عامر بن الجراح، سلام عليك وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه، وأشكره على ما وهب من النصر للمسلمين، وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل بنا لطيفاً معيناً. وأما قولك لم نقم بأنطاكية لطيبها، فإن الله ﷻ لم يحرم الطيبات على المؤمنين الذين يعملون الصالحات، فقال: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا"، وقال: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ"، فكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويريحون أبدانهم من نصب القتال مع من كفر بالله، وأما قولك إنك منتظر أمري فالذي آمرك به أن تدخل وراء العدو وتفتح الدروب فإنك الشاهد وأنا الغائب، وقد يرى الشاهد ما لا يراه الغائب، وأنت بحضرة عدوك وعيونك تأتيك بالأخبار، فإن رأيت أن دخولك إلى الدروب بالمسلمين صواب فابعث إليهم بالسرايا وادخل معهم إلى بلادهم وضيق عليهم المسالك، ومن طلب منك الصلح فصالحهم ووفِّ لهم بما تقدر.

وأما قولك إنَّ العرب أبصرت نساء الروم فرغبت في التزوج، فمن أحبَّ ذلك فدعه إن لم يكن له أهل بالحجاز، ومن أراد أن يشتري الإماء فدعه فإنَّ ذلك أصون لفروجهم وأعف لنفوسهم! وما تحتاج أن أوصيك في أمر فلنطانوس صاحب رومية أوسع عليه في النفقة وعلى من معه فإنه قد فارق أهله وملكه وأمره ونهيه والسلام عليك

وعلى جميع المسلمين. وطوى الكتاب ودفعه لزيد بن وهب، وقال له: انطلق رحمك الله وأشرك عمر في ثوابك! فأخذ زيد الكتاب وهمَّ أن يسير فأمره أن يقف، وقال له: على رسلك حتى يزودك عمر من قوته، ثم أناخ راحلته وأخرج له تمراً وأعطاه صاع تمر وصاع سويق وقال: يا زيد اعذر عمراً فهذا ما أمكنه! ثم إنَّ عمر قبَّل رأس زيد بن وهب فبكى زيد، وقال: يا أمير المؤمنين أوبلغ من قدري أن تقبِّل رأسي وأنت أمير المؤمنين وصاحب سيد المرسلين، وقد ختم الله بك الأربعين!! فبكى عمر وقال: أرجو أن يغفر الله لعمر بشهادتك. قال زيد بن وهب: فاستويت على كور ناقتي وهممت بالمسير فسمعته يقول: اللهم احمله عليها بالسلامة واطو له البعيد وسهل له القريب إنك على شيء قدير.

قال زيد بن وهب: ففرحت بدعوة عمر ﷺ وعلمت أن الله لا يرد دعوته إذ كان لربه طائعاً ولنبيه تابعاً، فجعلت أسير والأرض تطوى لي تحت أخفاف مطيتي فكنت والله في اليوم الثالث عند أبي عبيدة، وقد رحل عن أنطاكية وقد نزلت على حازم. فلما وصلت إلى عساكر المسلمين سمعت ضجة وجلبة وقد ارتفعت الأصوات فسألت رجلاً من أهل اليمن: ما سبب ذلك؟ قال: فرحاً بما فتح الله على المسلمين. وهذا خالد قد أتى وكان قد ضرب على شاطئ الفرات وأغار بخيله، وقد صالحه أهل منبج وبزاعة وبالس وأتى برجالهم وأموالهم وافتتحها صلحاً، في العشر الأوسط من المحرم سنة ثماني عشرة من الهجرة وصالحهم بعد رد أموالهم على مائة ألف وخمسين ألف دينار وأخذها بعد أن نزل صاحبهم جرفناس وسار بأموالهم وعبيده وخيوله إلى بلاد الروم وولى على منبج عباد بن رافع التميمي، وعلى الجسر نجم بن مفرج، وولى على بزاعة أوس بن خالد الرابعي، وعلى بالس بادر بن عوف الحميري، وبنى له بها قلعة إلى جانب بالس من الشرق وسماها باسمه، وعاد خالد بالأموال والأثقال يوم قدوم زيد بن وهب. قال: فأتيت أبا عبيدة وهو جالس وخالد إلى جانبه، وقد قدم مال الصلح فأنخت ناقتي وسلمت عليهم ودفعت الكتاب إلى أبي عبيدة ففضه وقرأه على المسلمين، فلما سمعت المسلمون ما فيه. قال أبو عبيدة: معاشر المسلمين إن أمير المؤمنين قد جعل أمر الدخول إلى الدروب إليَّ، وقال: أنت الشاهد وأنا الغائب وأنا لا أفعل شيئاً إلا برأيكم فما تشيرون عليَّ أن أفعل رحمكم الله؟ فلم يجبه أحد، وأعاد القول ثانية فلم يجبه أحد، والله أعلم.

ذكر غزوة مرج القبائل داخل الدروب

فقال أبو عبيدة: معاشر المسلمين هذا الشام قد ملكتموه وملككم الله إياه وأخرج عدوكم منه بالذل والهوان، وأورثكم أرضهم وديارهم، كما قال الله تعالى في كتابه

العزيز، فما تشيرون به عليَّ؟ أندخل في هذه الدروب وراء أعدائنا؟ فلم يجبه أحد فأعاد كلامه، ثم قال: ما هذا السكوت؟! أفشل بكم بعد الشجاعة، أم كسل بعد النشاط؟! أم قد انتقيتم من الحسنات ولم يبق عليكم من الذنوب، وإن الحسنات لكم كثيرة، ولم يبق لديكم خطيئة؟! فالرغبة إلى الله أن يعينكم على الجهاد، فهو خير لكم من الدنيا وما فيها!

فكان أول من تكلم ميسرة بن مسروق العبسي، فقال: أيها الأمير إنا لم نسكت لجزع لحقنا ولا لفزع رهقنا، وإنما بعضنا ينتظر بعضاً إجلالاً وأدباً، واعلم أيها الأمير أنه ما لنا تجارة ولا عمل غير الجهاد في أعداء الله، وها نحن لك وبين يديك، ومنك الأمر ومنا الطاعة لله ولرسوله ولك، وأما أنا فلا أملك إلا نفسي فوجهني حيث شئت تجدني طائعاً! فقال أبو عبيدة: معاشر المسلمين من له رأي وحضرته مشورة فليقلها ويظهر ما عنده، فقال خالد: أيها الأمير إن إقامتنا عن طلب القوم وهن وعجز منا في ديننا وطلبهم هو الغنيمة، والنصر من عند الله، والذي أشير به أيها الأمير أن تبعث الجيوش في كل درب من هذه الدروب؛ فإن ذلك يوهن العدو وتقر به أعين المسلمين. فجزَّاه أبو عبيدة خيراً، وقال: يا أبا سليمان! إني قد رأيت أن أعقد لميسرة عقداً وأسير معه رجالاً لأنه هو أول من سارع إلى هذا الأمر وأشار به، فيفتح الله لهم الدروب ويغير على ما قرب من البلاد، ويرجع فيخبرنا عن خبرها فنعمل على حسب ما نرى. فقال خالد: هذا الصواب.

فعقد لميسرة وانتخب له من القبائل ثلاثة آلاف فارس من الشجعان وألف عبد من السودان، وجعل من كل قبيلة نقيباً، وجعل على العبيد دامساً أبا الهول، وقال: فلبسوا أكمل السلاح وكل منهم يقول إنه يلقى الكتيبة وحده، وجعل أمير القوم ميسرة، وقال أبو عبيدة: يا أبا الهول كن أنت بجماعتك في أوائل العسكر ولا تخالف ميسرة فيما أشار به، فإنه مبارك الطلعة. فقال: سمعاً وطاعة. وتجهز القوم. ثم إن خالداً قال: أيها الأمير أرسل معهم أدلاء يعرفونهم الطريق ويكونون لهم عيوناً على أعدائهم، فطلب لهم من أهل حلب من المعاهدين من يكون ناصحاً لهم، فاختاروا لهم أربعة وأعطاهم أبو عبيدة وأحسن إليهم وطرح عنهم الجزية، وقال لهم: في أي درب يكون دخول المسلمين في طلب العدو؟ فاجتمع رأيهم على أن يدخلوا في الدرب الأعظم من بلد "قورص". ثم إنهم قالوا: أيها الأمير إن هذه الدروب ليست كمثل البلاد التي فتحتموها بل هي بلاد شديدة البرد، كثيرة الشجر والمدر والحجر، وفيها مضايق وشعاب وأودية وكهوف وعقبات، فقال أهل اليمن: سيروا أنتم أمامنا فإنكم ترون منا عجباً، فسار أبو الهول والمعاهدون أمامه، وسار ميسرة في أعقابهم بعدما ودعوا الناس ومضوا وهم بالتهليل والتكبير وقراءة القرآن، والمسلمون يدعون لهم بالنصر والسلامة.

قال عطاء بن جعيدة: وسرنا والدليل أمامنا حتى أتينا عقبة "حنداس" فقطعناها، وعبرنا نحو "الساجور" وأتينا "قورص" فنزلنا فيها وبتنا، فلما أصبحنا ودخلنا الدروب وجدنا بها أرضاً وعرة وأشجاراً ومياهاً جارية ومضايق ليس للفرس فيها مجال، فهالنا وحشة ذلك المكان إذ ليس للعرب فيه مجال ولا فسحة، فقلت في خاطري: إن طالت علينا هذه الأودية خشيت على المسلمين أن يظفر بهم عدوهم، والأدلاء أمام المسلمين، وقد تعلقوا في جبال شامخة صعبة الصعود فلم يبق أحد إلا وترجل عن فرسه! ومشينا حتى تقطعت نعالنا وسال الدم من أرجلنا، فلم نزل على ذلك ثلاثة أيام والأدلاء يقولون لنا: كونوا على يقظة، فإن أخذ عليكم المجاز هلكتم، فلما كان في اليوم الرابع خرجنا إلى أرض واسعة، وكان دخولنا إلى بلاد الروم في أول الصيف ونحن مخففون من الثياب ولما دخلنا إلى تلك الأرض وجدنا برداً كثيراً، ونظرنا إلى الثلج وهو على الجبال عن يميننا وشمالنا. وكان دامس أبو الهول لم يأخذ معه ثياباً تدفئه فحصل له من البرد فقال الدليل : يا أبا الهول ما لي أراك ترتعد؟ فقال: أخذني البرد وليس معي ما يدفئني. فدفع إليه فروة فلبسها فدفئ. فقال: كساك الله من ثياب الجنة.

قال الواقدي: وساروا إلى أن وصلوا إلى أرض طيبة كثيرة المياه قليلة الشجر فنزلوا فيها، ثم إنهم ساروا فلم يروا أحداً لأن الروم كانوا قد نزحوا عن البلاد لحذرهم من المسلمين. فلما كان في اليوم الخامس ونحن سائرون إذ لاحت لنا قرية فقصدها المسلمون... وإذا هي خالية ولكن سمعوا أصوات الديوك والغنم فدخلوها فلم يجدوا عندها مانعاً ولا دافعاً فعرفنا أنهم تواروا عنَّا فصاح ميسرة، وقال: خذوا حذركم فإن القوم قد انهزموا. فدخل الناس إلى القرية فأخذوا ما كان فيها من طعام وأثاث ومتاع. قال سعيد بن عامر: فرأيت أبا الهول، وهو يحمل على عاتقه ثلاثة أكسية وقطعتين. فقلت له: يا أبا الهول ما هذا؟ فقال: أستعد به لبرد هذه البلاد الخبيثة فما أنساها أبداً. وأخذوا ما كان في القرية من طعام وعلوفة وساروا إلى أن وصلوا إلى مرج يقال له مرج القبائل، وهو مرج واسع، فانبعثت الخيل فيه يميناً وشمالاً ونزل الجيش هناك، وميسرة يراود نفسه في الرجوع إلى حلب، وذلك أن أبا عبيدة كان قد أمره أن لا يبطئ عنه، وأن يكون حذراً.

فبينما هو كذلك والخيل منبثة والناس آمنون من عدو يدهمهم، إذ أقبل بعض الخيالة ومعه علج يقوده. فلما وصل إلى ميسرة، قال له: ما شأن هذا ومن أين أخذته؟ فقال: اعلم أيها الأمير أنِّي سبقت أصحابي فرأيت شخصاً يلوح مرة ويختفي مرة فأسرعت إليه، فإذا هو هذا فأتيته وسقته إليك. فتقدم إليه رجل من المعاهدين فسأله

فحدَّثه فأطال معه الكلام والناس سكوت، فلما أطال، قال ميسرة: ويلك ما الذي يقول هذا العلج؟ فقال: أيها الأمير إنه يقول إن الملك هرقل لما ركب البحر وخرج من أنطاكية وو صل إلى قسطنطينية قصدته الروم من كل مكان من المنهزمين وغيرهم، وبلغه أن أنطاكية قد فتحت صلحاً وأنه قتل من كان فيها من المقاتلة فصعب عليه وبكى ثم قال: "السلام عليك يا أرض سوريا إلى يوم اللقاء"، وقد تجمع عنده من البطارقة والحجاب وغيرهم خلق كثير، فقال لهم: إنِّي أخاف من العرب أن ترسل في طلبنا. ثم إنه جهز ثلاثين ألفاً مع ثلاثة بطارقة وأمرهم أن يحفظوا له الدروب. فقال له ميسرة: قل له كم بيننا وبينهم؟ قال: يقول لكم فرسخان. فلما سمع ذلك ميسرة أطرق إلى الأرض لا يرد جواباً ولا يبدي خطاباً.

فقال له رجل من آل سهم يقال له عبد الله بن حذافة السهمي، وكان من أبطال الموحدين وشجعانهم، وكان له عمود من حديد، لا يقل في الحرب سواه وكان ذميم الخلقة، فقال لميسرة بن مسروق: ما لي أراك أيها الأمير مطرقاً إلى الأرض إطراق الحصان لصلصلة اللجام والرجل منا يقابل ألفاً من الروم؟! فقال: والله يا عبد الله ما أطرقت خوفاً ولا جزعاً، ولكن خوفاً على المسلمين أن يصابوا تحت رايتي وهي أول راية دخلت الدروب فيلومني عمر بن الخطاب، وكل راع مسؤول عن رعيته. فقال المسلمون: والله ما نبالي بالموت ولا نفكر في الفوت لأننا قد بعنا أنفسنا بجنة ربنا ومن يعلم أنه ينقل من دار الفناء إلى دار البقاء فلا يبالي بما وصل إليه من الكفار، ثم إنه قال: أيها الناس أترون أن نلقاهم في موضعنا هذا أو نسير إليهم؟ فسألوا المعاهد، وقالوا: إن كان موضعهم أفسح من هذا رحنا إليهم. فقال: ليس في هذه البلاد بعد عمورية أفسح من هذا المكان، فإن عوَّلتم على لقائهم فاثبتوا مكانكم، وإن عدتم إلى ورائكم كان خيراً لكم من قبل أن يشرف عليكم عدوكم. فعرض ميسرة على العلج الإسلام فأبى، فضرب عنقه. فبينما هم على ذلك إذ أشرفت عليهم الروم فنزلوا بإزائهم وكانوا كالجراد المنتشر. وكان قد مضى النهار فأضرمت النيران.

فلما أصبح الصبح صلى ميسرة بالناس صلاة الفجر، فلما فرغ قام في الناس خطيباً، فقال: أيها الناس هذا يوم له ما بعده، وإن رايتكم هذه أول راية دخلت الدروب، واعلموا أن إخوانكم مطاولون لفعلكم، واعلموا أن الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر واسمعوا ما قال نبينا ﷺ: "الجنة تحت ظلال السيوف" ولا تنظروا إلى قلتكم وكثرة أعدائكم، فقد قال تعالى: "كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ". فقال المسلمون: اركب بنا يا ميسرة على بركة الله والقهم بنا، وإنا لنرجو من الله النصر عليهم.

فاستبشر بقولهم وركبوا وانفصلت العبيد من العرب ووقفوا تحت راية أبي الهول وأخذوا على أنفسهم قتال عدوهم واستنصروا بربهم، وميسرة يوصيهم، وجعل علي الميمنة عبد الله بن حذافة السهمي وعلى الميسرة سعد بن أبي سعيد الحنفي وقدم العبيد مع أبي الهول فلم ينطق بكلمة، وركب جيش الروم ومدوا صفوفهم ثلاثة صفوف كل صف عشرة آلاف وأمامهم الصلبان وهم في عددهم وعديدهم، فلما استوت الصفوف خرج رجل من الروم من المتنصرة وقرب من المسلمين، وقال: إن الباغي بغيه يرديه، أما كفاكم ما ملكتموه من الشام العظيم حتى اقتحمتم هذه الجبال؟! وإنما ساقتكم الآجال وهنا ثلاثون ألف عنان، وقد حلفوا بالصلبان أن كلاً منهم لا ينهزم وإن وقع "ميتا"، فإن أردتم أن نبقي عليكم فاستسلموا للأسر حتى يحكم الملك هرقل فيكم بما يريد.

فخرج أبو الهول والراية بيده، وقال له: صدقت في قولك إن الباغي يرديه بغيه. وأما قولك: إنا نلقي إليكم بأيدينا لتبقوا علينا فأنت إذاً باغ بقولك هذا إذ نطقت بغير تجربة منكم وها أنا عبد من عبيد العرب لا قدر لي ولا قيمة عند ذوي الرتب فاقرب مني حتى أجندلك صريعاً تخور في دمك، ثم إن دامساً همز حصانه إليه وطعنه فأرداه عن فرسه قتيلاً. ثم جال على فلوه وهز رايته، وقال: الله أكبر فتح الله ونصر وجاءنا بالظفر. ونظرت الروم إلى أبي الهول، وقد قتل صاحبهم وكان من شجعانهم، فغضبوا لذلك فخرج إليه آخر فما تركه يقرب منه حتى طعنه في نحره فأخرج السنان من ظهره. ونظر الروم إلى ذلك، فقالوا: هذا عبد من عبيد العرب قد فعل ما ترون! فلم يجسر أحد أن يخرج إليه فأغار عليهم وقتل من القلب واحداً ورجع. فحمل عليه صف من الصفوف وهم عشرة آلاف ودهموه بالخيل فحمل العبيد وحمل المسلمون والتقى الجمعان. قال ميسرة: فلله در العبيد لقد أبلوا بلاءً حسناً واستنقذوا أبا الهول من عين الهلاك وهم يقولون: "نحن عبيد لعباد الله، وضربنا مثل الحريق في سبيل الله، ونقتل من كفر بالله"، ولم تزل الحرب بينهم حتى قامت الشمس في قبة الفلك وحمي عليهم الحر وافترق الجمعان. والمسلمون موقنون بالظفر والنصر، والروم قد أيقنوا بالهلاك، وقد قتل منهم زهاء من ألف وأسر تسعمائة.

فلما انفصل الجمعان افتقد المسلمون أبا الهول فلم يجدوه، فقال ميسرة: إن كان أبو الهول قد قتل أو أسر فقد أصبنا به وإلى الله تعالى أشكو ما أصبنا من فقد أبي الهول! وأسر من المسلمين عشرة. ثم إن ميسرة قال: من فيكم يكشف لنا خبرهم؟ وإذا بالروم قد عادوا للقتال وحملوا بأجمعهم فقاتلوا قتالاً شديداً فكان الرجل من المسلمين يجتمع عليه العشرة والعشرون والخمسون إلى أن يقتلوه أو يأسروه وكانت العرب في أربعة آلاف والروم في ثلاثين ألفاً، فعظمت بينهم الحرب وهاج الطعن

والضرب، فلله در ميسرة بن مسروق العبسي، لقد جاهد في الله حق جهاده وهو مع ذلك ينادي: أيها الناس اذكروا الدار الآخرة واعلموا أنها أقرب لأحدكم من رجوعه لأهله، فاستقبلوها استقبال الوالدة لولدها ولا تولوا الأدبار عنها، فإن أصاب القوم منا فإني أخشى أن ذلك وهن بنا. ثم إنه نادى: حطموا أجفرة سيوفكم فذلك طريق النجاة. فلم يبق أحد من المسلمين حتى رمى بجفير سيفه، فلما رأت الروم ذلك فعلوا مثلنا ورمى كل منهم بجفير سيفه. وسميت تلك الواقعة باسمين: "وقعة مرج القبائل" و"وقعة الحطمة"، لأجل حطم أغمدة السيوف. واقتتلوا حتى أن الرجل يقول إن سيفه ما بقي يقطع، والمسلمون يبتهلون إلى الله والكفار تعبئ بكلمة كفرهم. والمسلمون يطلبون الفرج من الله، والسودان تقاتل قتال الموت! وكان شعار العرب في ذلك اليوم النصر النصر، وشعار السودان يا محمد يا محمد. قال ابن ثابت: وكنت قد أخذني القلق على المسلمين، ونحن في ركب عظيم إذ سمعت في الروم ضجة هائلة وإذا بهم يقاتلون أناساً من ورائهم وهم في وسط عسكرهم والزعقات منهم قد علت وسمعت قائلاً يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فقلت: هذه أصوات الملائكة فاتبعت الصوت، فإذا هو صوت دامس أبي الهول، وهو بارك تحت حجفته ومعه العشرة المأسورين وهم يقاتلون معه ويحمون بعضهم إلى أن خلصوا من بينهم، وسمعته يقول هذه الأبيات:

يوثقني الأعداء في الحديد ... ونا صري وسيدي المبيد
مهلك عاد وبني ثمود ... أغاثني بعونه الشديد
محمد الطاهر الرشيد ... فحل عني القيد والحديد
ذاك رسول الملك المجيد ... صلى عليه النا صر الحميد

فحمل المسلمون وكشفوا عنهم فخرجوا وكأنهم قد غرقوا في بحر دم، ووالله ما قتل من المسلمين أكثر من خمسين رجلاً بواحد أو باثنين، وقتل من المشركين نيف عن ثلاثة آلاف غير ما قتله أبو الهول وأصحابه في وسط عسكر الكفر. فلما نظر ميسرة إلى دامس أراد أن يترجل إليه فأقسم عليه أن لا يفعل وافترق الجيشان فضم ميسرة دامس إلى صدره وقبّله بين عينيه وقال له: كيف كان أمركم؟ قال: اعلم أيها الأمير أن الروم كانوا قد تكاثروا على فرسي فقتلوه ووقعت فأخذوني أسيراً وجعلوني في الحديد وفعلوا بأصحابي مثلي وقد أيسنا من أنفسنا، فلما جن الليل رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول: "لا بأس عليك يا دامس اعلم أن منزلتي عند الله عظيمة ثم إنه أمرّ يده الكريمة على الحديد فسقط مني وفعل ذلك مع أصحابي وقال لنا: "أبشروا بنصر الله فأنا نبيكم محمد رسول الله". وقال لي: "أقرئ عني ميسرة السلام وقل له جزاك الله خيراً"، ثم

غاب عني فانتبهت فوجدت الموكلين بنا نياماً مما لحقهم من التعب وقد رموا سلاحهم فأخذنا سيوفهم وطوارقهم وقتلناهم وحملنا فيهم ونصرنا الله عليهم ببركة رسول الله ﷺ، فقتلنا منهم من قتلنا، وخرجنا من بينهم سالمين وهذا حديثنا. فضج المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير.

النَّجـــــدة

قال الواقدي: ثم إن بطريق الروم كان اسمه "جارس"، فلما رأى ما قد حل بأصحابه قال: وحق المسيح خاب ملك أنتم حماته، فإن لم تقاتلوا بعزم وشدة وإلا قتلتكم! فتحالفوا أن لا ينهزموا أو يقتلوا عن آخرهم! فلما وثق منهم أمر أن تضرم النيران على شواهق الجبال وأمر أن ينفذ النفير إلى البلاد بأسرها، فأتت إليه الروم من كل جانب فأتى إليه عشرون ألفاً، ولكن المسلمين لم يكترثوا بذلك. فلما كان الغد صلى ميسرة بالمسلمين صلاة الخوف وهو أول من صلاها داخل الدروب، وأول راية دخلت كانت رايته، فلما فرغ من صلاته قام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه وقال: أيها الناس اثبتوا لما نزل بكم فالصبر عند نزول المصائب، وهذه رحمة من الله لنا إذ نحن في صدور الأعداء وقد دارت بنا هذه الجيوش، ونحن لا نقاتل إلا بنصر الله لنا وأن الأمير أبا عبيدة كان قد أمرني أن لا أبعد بكم عنهم ولنا منهم الآن سبعة أيام وما يظن أبو عبيدة أننا نلاقي جيشاً.

فقال له سعيد بن زيد: يا ميسرة ما الذي تريد بهذا الكلام؟ إن كنت تريد أن تحرِّضنا فنحن أشوق إلى لقاء الله من الظمآن إلى الماء البارد. فقال ميسرة: ما أردت بذلك إلا مشورتكم، وقد رأيت أن ننفذ إلى أمير المسلمين رجلاً نعلمه بما قد بلينا به وأن مدد القوم يزيد فلعله ينجدنا بإخواننا. فقال سعيد: نعم ما قد أشرت به. فدعا برجل من الأربعة المعاهدين ووعده بكل خير وأمره أن يأخذ معه آخر وأن يسير إلى أبي عبيدة ويعلمه أن نفير القوم قد لحقنا من الحصون والقرى وسائر البلاد، وقد نزلوا بإزائنا وأن يحدِّثه بما قد رأى. فسار المعاهد والرجل إلى حلب وأجهدا نفسيهما في السير في طرق يعرفانها إلى أن وصلا جيش المسلمين فسقطا كأنهما البغال الهرمة من شدة السير والتعب، فأمروا أن يرشق عليهما الماء، فلما أفاقا قال لهما: ما وراءكما أَهَلَكَت الكتيبة؟ قالا: لا والله ولكن نفر عليهم العدو من كل مكان... وأخبراه بما كان من الحرب والقتال وكيف حطموا أجفرة سيوفهم وكيف أسر أبو الهول وكيف خلص وما هم فيه. فقلق أبو عبيدة عند ذلك وقام مسرعاً وأتى قبة خالد بن الوليد فوجده يصلح درعه، فلما رآه قام إليه قائماً وقال له: خيراً أيها الأمير فأخذ بيده وسار به إلى

أن أتى رحله وقال للرجلين: قوما فحدثا الأمير بما عاينتما فحدثاه بما كان من أمر المسلمين. فقال خالد: إن الله ﷻ منذ نصرنا ما خذلنا فلله الحمد على ذلك وقد أمرنا بالصبر على الشدائد فقال عزَّ من قائل: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"، وقال: "إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ". وأما أنا فأحبس على الجهاد في سبيل الله ولا أبخل على الله ورسوله فلعل الله أن ينجيني من النار ويرزقني الشهادة! ثم أسرع إلى خيمته ولبس لأمته وقلنسوته المباركة وركب جواده، فوقع النفير في الناس. قال: فأقبلوا من كل جانب فلولا أن منعهم أبو عبيدة كانوا ساروا بأجمعهم. فانتخب منهم ثلاثة آلاف فارس وأردفهم بألفين آخرين.

.... عن عياض عمَّن حدثه قال: لما سار خالد بالجيش لمعونة ميسرة بن مسروق ومن معه، رفع خالد يديه إلى السماء وقال: "اللهم اجعل لنا إليهم سبيلاً واطو لنا البعيد ويسر لنا كل صعب شديد"، وسار نحو الدروب. وأما أبو عبيدة فقد سجد سجدة أطال فيها، وقال: "اللهم إني أسألك بمن جعلت اسمه مع اسمك وعرَّفت فضله لأنبيائك ورسلك إلا طويت لهم البعيد، وسهلت لهم كل صعب شديد، وألحقتهم بأصحابهم يا قريب يا مجيب". وأما ميسرة ومن معه فإنهم دارت بهم الروم من كل جانب وهم يقاتلون في كل يوم أشد القتال إلى أن يقبل الظلام فيفترقون، وفي كل يوم يزيد عددهم وملأهم وقد لحق المسلمون من التعب والجراح ما لحقهم ولكن من غير فشل، وكأنهم قوم قد حجب عنهم الموت بإذن الله تعالى.

.... عن سليمان بن عامر الأنصاري قال: كنت مع ميسرة في وقعة مرج القبائل ويوم حطمنا أغمدة السيوف والروم تقبل من كل جانب ومكان إلى المسلمين ونحن نباكر القتال ونروح رواحاً! فخرج يوماً من الأيام بطريق من الروم قد لبس درعين وعليه سواعد من الحديد وعلى رأسه بيضة تلمع فوقها صليب من الجوهر وبيده عمود من الحديد كأنه ذراع بعير فجال بين الصفوف وطلب البراز وكان أحد الثلاثة المقدمين على الثلاثين ألفاً. فجعل يدعو إلى البراز ويطمطم، فقال ميسرة للترجمان: ما يقول هذا الأغلف؟ قال: إنه يذكر أنه فارس شديد ويطلب شجعانكم وأبطالكم. فقال ميسرة: من يبرز إليه؟ فأسرع إليه رجل من المسلمين من قبيلة النخع وعليه درع من دروع الروم وثياب من ثيابهم. فقلنا: إنه من المتنصرة وقد عاد إلى الإسلام. فجعل العلج يتكلم وهو يظن أنه يفهم كلامه، فلما رآه لا يبرز إليه حمل عليه وضربه بعموده فزاغ النخعي عنها وعطلها عليه فوقع العمود على رأس جواده فصرع الجواد براكبه، وسار النخعي على قدميه فناداه ميسرة: يا أخا النخع ارجع، فرجع القهقرى والعلج يطلبه، والنخعي

راجل والعلج فارس، فسار إليه عبد الله بن حذافة السهمي و صاح بالعلج فأدهشه، فالتفت إليه وسار النخعي إلى أن وصل عسكر المسلمين. وحمل عبد الله بن حذافة على العلج وحمل العلج عليه وصعب بينهما المجال وصار عبد الله كلما ضرب العلج لا يقطع فيه شيئاً والعلج كلما ضرب عبد الله يأخذها بحجفته فتوهن ساعده من ثقل العمود وطال بينهما القتال والتقيا بضربتين فبادر عبد الله بالضربة تحت لحيته فطلب بها نحره فلحق رأس سيفه رقبة العلج فطار رأسه عن بدنه، وأراد الفرس أن يرجع إلى عسكر الروم فأخذه عبد الله ونزل إليه وأخذ سلبه ورجع إلى المسلمين فعظم ذلك على الروم وكان عندهم وعند الملك معظَّماً! فبرز بطريق آخر وقال: هذا صاحب الملك قد قتل ولابد لي من أخذ ثأره من الذي قتله إما بقتله أو أسره وأبعث به إلى الملك يصنع به ما يريد. ثم أنه أتى البطريق المقتول ورأسه طائح عن بدنه فبكى عليه وقال بلسان فصيح: معاشر العرب لا شك أن الله سيهلككم ببغيكم علينا وفعالكم بنا فليبرز إليَّ قاتل هذا البطريق حتى آخذ منه بثأره. فلما همَّ عبد الله بن حذافة بالخروج منعه ميسرة شفقة عليه لأجل راحته فإنه تعب، وأراد أن يلقاه بنفسه. فقال عبد الله: يدعوني أيها الأمير باسمي وأتخلف، إنني إذاً لعاجز! فقال له ميسرة إنني أشفق عليك. فقال عبد الله: أتشفق عليَّ من تعب الدنيا ولا تشفق عليَّ من حر النار؟!

ثم برز إليه وتحته فرس المقتول وما غيَّر من لأمته شيئاً وبيده سيفه وحجفته، فلما التقيا ورأى البطريق فرس صاحبه علم أنه قاتله فلم يمهله حتى نفر إليه وحمل على عبد الله كأنه جبل قد انهدَّ من علو وتشبث به وجذبه فأخذه أسيراً وذهب به إلى قومه وقال: "أوثقوه بالحديد واحملوه على خيل البريد واذهبوا به إلى الملك في هذه الساعة"، ففعلوا ذلك وساروا به، ورجع البطريق إلى الميدان وهو يفتخر بما صنع فأراده ثلاثة من المسلمين كل منهم يريد أن يخرج إليه فقال ميسرة: ما يخرج لهذا اللعين غيري واستدعى سعيد بن زيد وسلم الراية إليه، وقال له: كن للراية حافظاً حتى أخرج إلى هذا اللعين، فإن عدت أخذتها، وإن قتلني فأجري على الله. فأخذ سعيد الراية وخرج ميسرة إلى البطريق، وهو يقول:

قد علم المهيمن الجبار ... بأن قلبي قد كوي بالنار
على الفتى القائم بالأسحار ... سيعلم العلج أخو الأشرار
أني منه آخذ بالثار

وحمل عليه وتجاولا طويلاً وعظم الأمر بينهما وتدانيا وتقاربا وتباعدا وغابا عن الأبصار تحت الغبار وكل فرقة تنظر إلى صاحبها وتدعو له، ثم انكشفا وهما للتفرق أقرب

منهما للتقارب فقال العلج لميسرة: بحق دينك ما هذه الراية التي طلعت من وراء عسكركم فلم يلتفت إلى كلامه بل قال له: "وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ" إبراهيم **20**، فقال: وحق ديني ما قلت إلا حقاً -وهو يحلف كاذباً- فالتفت ميسرة لحرصه أن يأتي الله بالفرج وينظر تحقيق ما قاله اللعين فحمل البطريق عليه ومكنَّ يده منه ليأخذه أسيراً، وإذا قد طلعت راية وهي مشرقة بالنور وهي في يد خالد بن الوليد. وكبر المسلمون تكبيرة واحدة فمن عظم تكبيرهم ارتجت يد العلج فقبض عليه ميسرة وهمَّ أن يقلعه فلم يقدر لأنه كان مرفلاً في السرج، فجعل يجذبه فلم يقدر وقرب خالد منهما، فرفع البطريق سيفه يريد أن يضرب به ميسرة ليطلقه من يده فحاد السيف عن ميسرة ووقع على يد العلج الشمال فقطعها، وانتخع ميسرة، وانثنى البطريق إلى أصحابه ويده مقطوعة وهو يئن فالتقى به غلمانه فأخذوه وكووه، وأما خالد فإنه التقى بميسرة وتسالما وحدثه بما وقع له من الروم وكيف أسروا عبد الله بن حذافة السهمي فتأسف خالد واسترجع وقال يؤسر مثل عبد الله بن حذافة والله لا يفارقهم خالد أو يخلصه إن شاء الله تعالى.

وأقام خالد بقية ذلك اليوم، فلما كان من الغد أتاهم من جيش الروم شيخ وعليه مسوح السواد حتى وقف بإزائهم وأومأ بالسجود فمنعه خالد، وقال: ما الذي تريد؟ قال: إن كبير هؤلاء القوم يريد صلحكم ويطلق أسيركم ويدفع ما تريدون وترجعون. فقال خالد: ما نرجع إلا على انفصال، وأما الأسير فإذا لم تطلقوه طوعاً أطلقتموه كرهاً. قال: أنت أمير هؤلاء؟ قال: نعم. قال: وإن رأيت أن تؤخر القتال بقية يومنا هذا وليلتنا فافعل لندبر ما بيننا وبينكم ويبرد وجع هذا البطريق ونجيبكم إلى ما تريدون. قال له: أجبناكم إلى ذلك. فرجع الشيخ إلى قومه، وقال للبطريق: قد أجابوا ووضعت الحرب أوزارها، ونزل خالد والمسلمون بإزائهم في أماكنهم، وأضرم الروم النيران وزادوا فيها وحملوا أثقالهم وساروا من أول الليل، فلما كان الغد ركب المسلمون فلم يجدوا للروم أثراً فعلموا أنهم قد ولوا الأدبار. فتأسف خالد على ما فاته فأراد أن يتبعهم فمنعه ميسرة، وقال له: إنها بلادهم وهي وعرة وإن الصواب رجوعنا إلى عسكر المسلمين. فأخذوا ما تركه الروم ورجعوا منصورين ولكنهم حزينون على أسر عبد الله بن حذافة السهمي وساروا حتى أتوا حلب فلقيهم أبو عبيدة وفرح بسلامتهم، وأقبل ميسرة يحدثه بما جرى لهم وكيف أسر عبد الله بن حذافة، فتأسف عليه، وقال: اللهم اجعل له من أمره فرجاً ومخرجاً. وكتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ يخبره بما وقع له من أمر السرية إلى الدروب وما كان من المسلمين وأخبره بأسر عبد الله بن حذافة وبعث الكتاب.

كتـــاب عمـــــر

فلما وصل الكتاب إلى عمر بن الخطاب ﷺ فرح بسلامة المسلمين واغتمّ على عبد الله بن حذافة وأسره لأنه كان يحبه حباً شديداً، فقال: ... لأكتبن إلى هرقل بأن يرسل عبد الله بن حذافة، فإن لم يفعل وإلا سرت إليه بالجيوشٍ والعساكر. ثم إنه كتب: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وصلى الله على نبيه محمد المؤيد، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين. أما بعد، فإذا وصل إليك كتابي هذا فابعث إليّ بالأسير الذي عندك وهو عبد الله بن حذافة. فإن فعلت ذلك رجوت لك الهداية، وإن أبيت بعثت إليك رجالاً -وأي رجال-؟! رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، والسلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى. ثم إنه طوى الكتاب وبعث به إلى أبي عبيدة وأمره أن ينفذه إلى هرقل. فلما وصل الكتاب إلى هرقل، قال له: من أين كتابك هذا؟ قال: من أمير المؤمنين أمير العرب. فقرأه، فإذا هو من عند عمر بن الخطاب. فدعا بعبد الله بن حذافة إليه. قال عبد الله بن حذافة: فدخلت عليه والتاج على رأسه والبطارقة حوله، فلما وقفت بين يديه، قال لي: من أنت؟ قلت: رجل من المسلمين من قريش. قال: أنت من بيت نبيك؟ قلت: لا أنا من بني عمه. قال: هل لك أن تتبع ديننا وأزوجك ابنة بطريق من بطارقتي وأجعلك من أخصائي؟ فقلت: لا والله الذي لا إله إلا هو، لا فارقت دين الإسلام أبداً وما جاء به محمد ﷺ. فقال: أجب إلى ديننا، وأنا أعطيك من المال كذا وكذا، ومن الغلمان كذا وكذا، ومن الجواري كذا وكذا.

قال عبد الله: ثم دعا بسفط من الجوهر وقال: إذا دخلت في ديني أعطيتك إياه. فقلت: لا والله لو أعطيتني ملكك وملك قومك ما فارقت دين الإسلام أبداً ولو أعطيتني كل ما تملكه. فقال: إذا لم ترجع إلى ديني قتلتك شر قتلة. فقلت: لست أفعل ولو قطّعتني قطعاً ولو أحرقتني بالنار لا رجعت عن ديني فاصنع ما أنت صانع! فغضب من كلامي وقال: اسجد لهذا الصليب سجدة وأخلي سبيلك! فقلت: لست أفعل. قال: فكل من لحم الخنزير وأنا أطلقك. قلت: حاشا لله ما كنت بالذي أفعل. قال: فاشرب من هذا الخمر شربة واحدة وأطلقك. قلت: لا والله لا أشرب أبداً. قال: وحق ديني لتأكلن وتشربن قهراً. ثم أمر بي فجعلني في بيت، وجعل عندي من ذلك اللحم والخمر، وقال: إذا أضر به الجوع والظمأ أكل وشرب. وأغلقوا عليّ الأبواب.

.... عن سفيان بن خالد عمن يثق به أن هرقل كان قد مات بعد هزيمته في أنطاكية بأيام قلائل مما دخل على قلبه من القهر ويقال إنه مات مسلماً والذي فعل ذلك بعبد الله بن حذافة ولده نسطيوس وكانوا لقبوه باسم هرقل. فلما كان في اليوم الرابع

طلب عبد الله بن حذافة وقال للغلمان: ما فعل؟ قالوا: لم يأكل شيئاً ولم يشرب وهو على حاله. فقال له وزيره: أيها الملك اعلم أن هذا الرجل شريف في قومه لا يرى الذل فكل ما تفعله في هذا الرجل تفعله المسلمون إذا قبضوا على ملك منّا. قال: فاستدعاه، وقال له: ما فعلت باللحم؟ قال: هو على حاله. فقال: ما منعك أن تأكل؟ قال: فزعاً من الله ورسوله، وأيضاً إنّه قد حل لي بعد ثلاثة أيام، ولكن ما أردت أن يشمت بي الملحدون. وورد كتاب عمر بن الخطاب ﷺ فلما قرأه أعطى عبد الله مالاً كثيراً وثياباً، وأعطاه لؤلؤاً كثيراً هدية لعمر بن الخطاب، وبعث معه خيلاً إلى أن أخرجوه من الدروب ووصل إلى حلب، ولقي المسلمين ففرحوا به. ثم إنه سار إلى عمر بن الخطاب، فلما رآه سجد لله شكراً وهنأه بالسلامة وحدثه بما كان من هرقل وأخرج له اللؤلؤ، فلما رآه عمر عرضه على التجار، فقالت التجار له: هذا ما يقوّم ومن جاءك به؟! فقالت له الصحابة: خذه إليك بارك الله لك فيه. فقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، إذا كنتم قد جعلتموني منه في حل فكيف أصنع بمن غاب من المسلمين ومن في بطون الأمهات وأصلاب الرجال من أولاد المهاجرين والأنصار والمجاهدين في سبيل الله، ولا طاقة لعمر بمطالبتهم يوم القيامة؟! ثم باعه وجعل ثمنه في بيت المال.

.... عن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله، قالوا جميعاً: إنه لما فتح أبو عبيدة أنطاكية صلحاً، وكان من أمر سرية ميسرة بن مسروق ما ذكرناه أقام أبو عبيدة بحلب ينتظر ما يأتي إليه من عمرو بن العاص لما مضى إلى قيسارية في خمسة آلاف من المسلمين فيهم عبادة بن الصامت وعمرو بن ربيعة وبلال بن حمامة وربيعة بن عامر.

فتح قيسارية الشام بساحل البحر

قال سبيع بن ضمرة الحراني: كنت مع عمرو بن العاص حين سار إلى قيسارية فدخلنا قرية من قرى الشام، وكان البرد شديداً ونظرنا إلى كرومها ونظرت إلى كرمة في دار من دور القرية وفيها عناقيد مدلاة أكبر ما يكون فأخذنا منها وأكلنا فبردنا ولحقنا البرد الشديد من شدة برد ذلك العنقود. فقلت: قبّح الله هؤلاء الملاعين بلدهم بارد وعنبهم بارد وماؤهم بارد وأنا أخاف الهلاك من شدة برد بلادهم! فسمعني رجل من أهل البلد فأراد أن يقرب إليّ لأداعبه، فقال لي: يا أخا العرب إن كنت تجد البرد من العنب فاشرب من مائه. قال سبيع: ثم إنه دلنا على دن كبير فيه خمر فشربت أنا وجماعة من عرب اليمن فسكرنا فجعلنا نتمايل سكراً فأخبر بذلك عمرو بن العاص، فكتب إلى أبي عبيدة يعلمه بذلك فكتب إليه أبو عبيدة: أما بعد، فمن شربها فحدّه عليها

وأقم حدود الله كما أمر، ولا تخش لومة لائم. فلما وصل الكتاب إلى عمرو دعا بسبيع بن ضمرة وأصحابه فجلدهم بالسياط.

قال سبيع: فلما ضربني عمرو وأوجعني قلت: والله لأقتلن العلج الذي دلنا على الخمر حتى شربناها وأكلنا الحد! فأخذت سيفي ودخلت القرية أطلب العلج فلما رأيته ووقعت عيني عليه أردت قتله فولى هارباً فتبعته وهو يقول: ما ذنبي عندك؟ فقلت: أنت دللتني على ما يغضب الله حتى أكلت الضرب، فقال: والله ما علمت أنه محرم عليكم. فناداني عبادة بن الصامت وقال: يا سبيع إياك أن تقتله فإنه تحت الذمة. فتركته ومضى العلج وأتى إليَّ بتين وجوز وزبيب وقال: كل هذا بذاك فإنه يدفئك. فأكلته فوجدته طيباً فقلت: لحاك الله أين هذا كان قبل أن أضرب بالسياط؟

قال الواقدي: ثم إن عَمْراً ارتحل فنزل بموضع يقال له "محل" وبلغ الخبر فلسطين بن هرقل، وكان قد أتاه المنهزمون من عسكر أبيه ولجؤوا إليه واكتمل جيشه في ثمانين ألفاً، ثم إنه دعا برجل من المتنصرة وقال له: امض واحزر لي عسكر العرب واكشف لي أخبارهم، فوصل إليهم ولجأ إلى قوم من اليمن وهم يصطلون حول النار، فجلس بينهم يسمع حديثهم، فلما أراد القيام عثر في ذيله فقال: باسم الصليب كلمة أجراها الله على لسانه، فلما سمعوا قوله علموا أنه متنصر جاسوس للروم فوثبوا إليه وقتلوه ووقع الصائح في العسكر فسمع عمرو الضجة. فقال: ما الخبر؟ قيل: إن قوماً من اليمن وقعوا بجاسوس من الروم فقتلوه. فغضب عمرو وطلبهم، وقال: ما حملكم على قتل الجاسوس، وهلا أتيتموني به لأستخبره؟ فكم من عين تكون علينا ثم إنها ترجع فتصير لنا، لأن القلوب بيد الله يقلبها كيف شاء. ثم إنه نادى في جيشه: من وقع بغريب أو جاسوس فليأت به إليَّ.

وإنَّ فلسطين استبطأ الجاسوس فعلم بقتله فأرسل غيره فأشرف على القوم من فوق شرف عال وحزرهم وعاد إليه فأخبره أنهم في خمسة آلاف، إلا أنهم كالأسود الضارية أو كالعقبان الكاسرة، فلما سمع ذلك قال: وحق المسيح والقربان لابد من قتالهم. فإما أن أبلغ المراد أو أموت صبراً، ثم إنه جمع عسكره واختار منهم عشرة آلاف فارس شداداً وولى عليهم بطريقاً اسمه "بكلاكون" وهو صاحب جيشه وقال: سر بهؤلاء فأنت طليعة جيشي! فسار من ساعته. ثم إنه عقد صليباً آخر وسلمه إلى دمستق العسكر واسمه "جرجيس بن باكور" وضم إليه عشرة آلاف وقال له: الحق بصاحبك. فسار في أثره. فلما كان في اليوم الثاني خرج فلسطين ببقية الجيش وترك ابن عمه "قسطاس" في قيسارية يحفظها وترك عنده عشرة آلاف. قال بشار بن عوف: فبينما نحن نازلون إذ أشرف علينا البطريق الأول في عشرة آلاف فارس، فلما قربوا منَّا

رأيناهم فحزرناهم فإذا هم عشرة آلاف. ففرحنا وقلنا: نحن خمسة آلاف وعدونا في عشرة آلاف، فكل رجل منّا يقاتل اثنين.

فبينما نحن كذلك إذ أشرف علينا البطريق الثاني في عشرة آلاف، فقال عمرو ﷺ: اعلموا أن من أراد الله واليوم الآخر فلا يرتاع من كثرة العدو ولو تزايد المدد، فإن الجهاد أوفر متجراً وأعز قدراً، وأي فخر عند الله ممن يقتل في سبيل الله و صفوف الكفار ويكون حياً عند الله يرتع في مروج الجنة وينال من الله سابغ النعمة والمنة؟! فقد قال الله تعالى: "وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَاۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ...."، ولو أن الجاسوس الذي قتلتموه لم تعجلوا عليه لأخبرنا بمسير هذا الجيش إلينا وكثرته، وكنا قد أخذنا حذرنا على أنفسنا واحتطنا، ولكن أمر الله لا يرد. ثم إنه جمع أبطال الموحدين، وقال: قد رأيت أن ننفذ إلى أبي عبيدة نعلمه ليمدنا بالخيل والرجال، فإن هذا جيش عظيم. ثم قال: أيها الناس من يركب ويسير إلى الأمير أبي عبيدة ويعلمه بما قد صرنا إليه، فلعله أن ينجدنا كما أنجد يزيد بن أبي سفيان وهو محاصر قنسرين وأجره على الله.

المعارك في فلسطين

فقال له ربيعة بن عامر: يا عمرو الق بنا العدو وتوكل على الله، فإن الذي نصرنا في مواطن كثيرة ونحن في قلة ينصرنا اليوم على بقية القوم الكافرين. فقنع عمرو بكلام عامر بن ربيعة، وقال: والله صدقت! وأمر الناس بالتأهب إلى لقاء العدو، فركب المسلمون ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير.. فأجابتهم الجبال والتلال والأوعار والأشجار والأحجار، فارتاع عسكر الكفار لما سمعوا في الجو هذه الأصوات، وكان فلسطين قد أتى وسمع ذلك ونظر إلى جيش العرب وقد زاد في عينيه أضعافاً فقال: وحق ديني لما أشرفت على القوم ما كانوا في هذه الكثرة وما كانوا أكثر من خمسة آلاف، وقد زاد الآن عددهم وتزايد مددهم، ولا شك أن الله قد أمدهم بالملائكة، ولقد كان أبي هرقل على بصيرة من أمر هؤلاء العرب، وليس جيشي هذا بأعظم من جيش ماهان الأرمني لما لقيهم باليرموك في ألف ألف، ولقد ندمت على خروجي إليهم، ولكن سوف أدبر حيلة على هؤلاء العرب! ثم إنه دعا بقس عظيم القدر عند النصرانية، وهو قس "قيسارية" وعالمها وقال له: اركب إلى هؤلاء القوم وكلمهم بالتي هي أحسن، وقل لهم: إن ابن الملك يسألكم أن تنفذوا إليه أفصحكم لساناً وأجرأكم جناناً فابعثوا به ولا يكون من طغام العرب. فركب القس وعليه ثوب من الديباج الأسود وعليه برنس من الشعر فركب بغلة شهباء وأخذ بيده صليباً من الجوهر وسار حتى وصل إلى المسلمين فوقف بحيث يسمعون كلامه. فقال: يا معشر العرب إنّي رسول

إليكم من الملك فلسطين بن هرقل يسألكم أن تنفذوا إليه أفصحكم لساناً وأجرأكم جناناً، وإنه والله يريد صلحكم ولا يبغي قتالكم، لأنه عالم بدينه بصير بأموره، وليس يحب سفك الدماء ولا فساد الصور، فلا تبغوا علينا فالباغي مقهور والمبغي عليه منصور، وقد قال لنا المسيح: لا تقاتلوا إلا من بغى عليكم، وإن الملك يريد أن تبعثوا إليه رجلاً من أفصحكم لساناً وأجرأكم جناناً، ثم سكت. فلما سمع عمرو كلامه قال: أيها الناس قد سمعتم ما قاله هذا الأغلف، فمن منكم يبادر إلى مرضاة الله تعالى ورسوله وينظر ما يتكلم به مع ملك الروم؟

فتقدم إليه بلال بن حمامة مؤذن رسول الله ﷺ، وكان غلاماً أسود طويلاً من الرجال كأنه النخلة السحوق بصاص من السواد، عيناه جمرتان كأنهما العقيق، جهوري الصوت، عريض المنكبين كأنه من رجال شنوءة، وكان من عظم خلقته إذا نظر إليه أحد يهابه. فقال: يا عمرو أنا أسير إليه، فقال: يا بلال إنك قد حطمك الحزن على رسول الله ﷺ، وأيضاً إنك من جنس الحبش ولست من العرب، لأن العرب لهم الكلام الجزل والخطب والفصاحة. فقال بلال: بحق رسول الله ﷺ إلا تركتني أمضي إليه. فقال عمرو: لقد أقسمت عليَّ بعظيم اذهب واستعن بالله ولا تهبه في الخطاب وأفصح في الجواب وعظم شرائع الإسلام. فقال بلال: ستجدني إن شاء الله حيث تريد. فخرج بلال نحوهم وكان لابساً يومئذ قميصاً من كرابيس الشام وعلى رأسه عمامة من صوف متقلداً بسيف ومزودة على عاتقه وبيده عصا.

فلما برز بلال من عسكر المسلمين ونظر إليه القس أنكره، وقال: إن القوم قد هنَّا عليهم فإنا دعوناهم نخاطبهم فبعثوا إلينا بعبيدهم لصغر قدرنا عندهم. ثم قال: أيها العبد أبلغ مولاك وقل له إن الملك يريد أميراً منكم حتى يخاطبه بما يريد، فقال بلال: أيها القس أنا بلال مولى رسول الله ﷺ ومؤذنه ولست بعاجز عن جواب صاحبك، فقال له القس: قف مكانك حتى أعلم الملك بأمرك وعاد القس إلى الملك، وقال له: أيها الملك إنهم قد بعثوا بعبد من عبيدهم يخاطبك، وما ذاك إلا استصغاراً لأمرنا عندهم، وهو عبد أسود. فأرسل له رجلاً يقول له: أيها العبد أبلغ مولاك وقل له إن الملك إنما يريد أميراً منكم حتى يخاطبه. فقال له بلال: أيها الرجل أنا بلال بن حمامة مولى رسول الله ﷺ ولست بعاجز عن جواب صاحبكم. فقال فلسطين: ارجع إليهم وقل لهم بعث إليكم ملك النصرانية أيليق أن تبعثوا له بعبد من عبيدكم. فرجع الترجمان إلى بلال وقال له يا أسود: إن الملك يقول لك: لسنا ممن نخاطب العبيد بل يأتينا صاحب جيشكم أو المؤمر عليكم، فرجع بلال وهو منكسر وأخبر عمراً بذلك. فقال لشرحبيل: أنا أمضي إليه. فقال شرحبيل: يا عبد الله إذا مضيت أنت فلمن تدع

المسلمين؟ فقال عمرو: الله لطيف بعباده وهو أرحم الراحمين بخلقه، ولكن خذ الراية واخلفني في قومي؛ فإن غدر الروم فالله الخليفة عليكم، فوقف شرحبيل في مقام عمرو وأخذ الراية.

وخرج عمرو نحو القوم وعليه درعه ومن فوقه جبة صوف وعلى رأسه عمامة من صنع اليمن مصبوغة صفراء قد أدارها على رأسه كوراً وأرخى لها عذبة، وفي وسطه منطقة، وقد تقلد سيفه واعتقل رمحه وسار عمرو حتى وقف بإزاء الترجمان الذي أرسله "فلسطين بن هرقل"، فلما رآه الترجمان ضحك، فقال: مم تضحك يا أخا النصرانية؟ قال: من دناءة رؤيتك وحملك هذا السلاح، ما الذي تصنع به ولم تحمله معك وما نريد حرباً؟ فقال عمرو: إن العرب حمل السلاح شعارهم ووطاؤهم ودثارهم، وإنما حملت السلاح معي استظهاراً، ولعلي أن ألقى عدواً فيكون ذلك حصناً من عدوي وأحامي به عن نفسي. قال الترجمان: شيمتكم أيها العرب الغدر والمكر فكن مطمئن الجانب. ثم عطف الترجمان إلى فلسطين بن هرقل وأخبره بما سمع من مقالة عمرو بن العاص، وقال: أيها الملك إن أمير العرب قد قدم علينا وعليه من اللباس كذا وكذا فتبسم الملك من قول القس، وقال: قل له يتقدم إلينا.

فلما قدم أخذ الملك في التأهب لقدوم عمرو عليه، وزين ملكه وأوقف القسوس عن يمينه وشماله والحجاب بين يديه، وأقبل عليه الترجمان، وقال له: يا أخا العرب قد أذن لك الملك، فسار عمرو على جواده وعسكر قيسارية تتعجب منه ومن زيه إلى أن وقف على قبة الملك، ثم ترجل ومشت الحجاب أمامه حتى وقعت عينه على عين فلسطين فأدناه ورحب به وبش في وجهه، وقال: مرحباً بأمير قومه، وأراد أن يجلسه على السرير فامتنع عمرو من ذلك، وقال: بساط الله أطهر من بساطك، لأن الله تعالى جعل الأرض بساطاً وأباحنا إياها فنحن فيها سواء، وما أريد أن أجلس إلا على ما أباحه الله، ثم جلس على الأرض باركاً وترك رمحه أمامه وسيفه على فخذه الأيسر، فقال له فلسطين: ما اسمك؟ قال: اسمي عمرو وأنا من العرب الكرام أرباب الحزم المعظمين في القوم. قال فلسطين: إنك لفتى كريم من عرب كرام، يا عمرو إن كنت من العرب فنحن من الروم وبيننا قرابة وأرحام متصلة، ونحن وأنتم في النسب متصلون ومن يكونون متصلين في النسب ما لهم يسفك بعضهم دم بعض**!!**

فقال عمرو: إن أنسابنا لاحقة من أبينا ونسبنا الأعلى هو دين الإسلام، وإذا كان أخوان قد اختلفا في الدين كان حلالاً أن يقتل أحدهما أخاه، وقد انقطع النسب بيننا**!** وقد ذكرت أن نسبك لاحق بنا فكيف يكون نسبك ونسبنا واحداً ونحن قريش وأنتم بنو

الروم.. قال: يا عمرو أليس أبونا آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم وعيصو بن إسحاق وإسحاق أخو إسماعيل وكلاهما ولد إبراهيم، ولا ينبغي للأخ أن يبغي على أخيه بل يجود عليه. فقال: إنك لصادق في قولك الذي قلت وإن عيصو ونحن بنو أب واحد وأبونا نحن إسماعيل صلوات الله عليه وإن نوحاً عليه السلام قسم الأرض بين أولاده الثلاثة سام وحام ويافث وأعطى ولده ساماً الشام وما حوله إلى اليمن إلى حضرموت وإلى غسان، والعرب كلهم ولد سام، وأعطى حاماً الغرب والساحل وأعطى يافث ما بين المشرق والمغرب و"إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ"، ونريد أن نرد هذه القسمة فنأخذ ما في أيديكم من العمارة والأنهار عوضاً عما نحن فيه من الشوك والحجارة والبلد القفر، فلما سمع فلسطين كلام عمرو بن العاص علم أنه رجل ماكر. فقال له: صدقت في قولك إلا أن القسمة قد جرت، فإن نقضتموها كنتم من الباغين علينا، واعلم أنه ما حملكم على ذلك وأخرجكم من بلادكم إلا الجهد العظيم.

فقال له عمرو: أيها الملك أما زعمك أن الجهد أخرجنا من بلادنا، فنعم كنا نأكل خبز الشعير والذرة فإذا رأينا طعامكم واستحسناه فلن نبارحكم حتى نأخذ البلاد من أيديكم وتصيروا لنا عبيداً ونستظل تحت أصول هذه الشجرة العالية والفروع المورقة والأغصان الطيبة الثمار، فإن منعتمونا مما ذقناه من بلادكم من لذيذ العيش، فما عندنا إلا رجالاً أشوق إلى حربكم من حبكم الحياة، لأنهم يحبون القتال كما تحبون أنتم الحياة. قال: وأفحم فلسطين من جوابه، فرفع رأسه إلى قومه وقال: إن هذا العربي صادق في قوله وحق .... ما لنا معهم ثبات!

قال عمرو: فوجدت إلى وعظهم سبيلاً، وقلت: معاشر الروم إن الله عز وجل قد قرب عليكم ما كنتم تطلبون. إن كنتم تريدون بلدكم فادخلوا في ديننا و صدقوا قولنا، فإن الدين عند الله الإسلام. قال فلسطين: يا عمرو إنا لا نفارق ديننا وعليه مات آباؤنا وأجدادنا. قال عمرو: فإن كرهت الإسلام فأعطنا الجزية منك ومن قومك وأنتم صاغرون. قال فلسطين: لا أجيبك إلى ذلك، لأن الروم لا تطاوعني إلى أداء الجزية ولقد قال لهم أبي ذلك من قبل فأرادوا قتله! فقال: هذا ما عندي من الأعذار، ولقد حذرتكم ما استطعت ولم يبق بيننا حكم إلا السيف، والله يعلم أني دعوتكم إلى أمر فيه النجاة فعصيتموه! .....فقال له: يا عمرو وهل في أصحابك رجل بيِّنٌ كلامه سريع الجواب إذا سئل. فقال له: اعلم أني والله أحب أن أمضي وآتيك بهم لتقف على صحة قولي، ثم وثب وسار إلى عسكره وأتى جيشه فحمد الله المسلمون على سلامته وباتوا يتحادثون، فلما صلى عمرو بالناس صلاة الفجر أمرهم بالركوب إلى قتال عدوهم. فأسرعوا إلى ذلك واستووا على متون خيولهم، واصطفوا للحرب والقتال.

المعــركة

قال الواقدي: حدثنا عروة بن زيد عن موسى مولى الحضرميين عن موسى بن عمران وابن الصباح لما كان يوم الحرب صف فلسطين جيشه ثلاثة صفوف وقدم المشاة وعدل الميمنة والميسرة، ورفع الصليب أمامه وتقدم أمام الجيش، فنظر عمرو إلى فلسطين وقد رتب عساكره وعزم على الحرب فهيأ المسلمين، وصفَّهم صفاً واحداً وجعل في الميمنة الحماة من أصحاب رسول الله ﷺ ومعهم شرحبيل بن حسنة كاتب الوحي وصابوب بن جباية الليثي عن شماله وكان أحد فرسان المسلمين. فبينما الناس كذلك إذ خرج فارس من الروم وعليه ديباج ودرع وجوشن، وفي عنقه صليب من الذهب فحمل حتى خطى برمحه من الميمنة إلى الميسرة ومن الميسرة إلى الميمنة، ثم إلى القلب ثم وقف بإزاء جيش المسلمين وركز رمحه بازائه وأخذ القوس بيده وفوَّق سهمها ورمى رجلاً من الميمنة فأثبت السهم فيه فجرحه، ورمى آخر من الميسرة فقتله!

فنظر إليه عمرو وما قد صنع فصاح بالمسلمين: ألا ترون هذا العلج اللعين وما يصنع بقوسه؟! فمن يكفينا أمره ويزيل عن المسلمين شره، فخرج إليه رجل من ثقيف وعليه بردة دنسة وبيده قوس عربية قد فوَّق سهمها، وخرج إلى العلج يريده فنظر إليه العلج وليس عليه شيء من الحديد يستره إلا فروة دنسة، وما معه من السلاح غير القوس فازدرى به وبلبسه وأطلق سهماً من كبد قوسه فوقع سهمه في صدره فاشتبك في الفروة ووقع غير مصيب، فغضب لذلك وهمَّ أن يرميه بسهم ثان فامتعط الثقفي نبلة ورمى بها نحوه فلم يرها لصغرها وخفاء موقعها فاشتبكت النبلة في حلق العلج فخرجت من قفاه، فما تمالك العلج إلا أن وقع صريعاً فأسرع الثقفي إلى جواده فأخذه واستوى على متنه ونزع بيضة المشرك عن رأسه، وجعل يسحبه نحو جيش المسلمين فاستقبله ابن عم له وكلمه فلم يجبه من فرحه بما صنع. ثم أقبل إلى عمرو فأعطاه إياه فنظرت الروم إلى فعل الثقفي فغاظهم ذلك، وجعلوا يشيرون إلى السماء فعلمنا أنهم يقولون إن الملائكة تنصرنا.

ونظر فلسطين إلى ذلك فعظم عليه وقال لبعض البطارقة: اخرج إلى هؤلاء العرب وحام عن دينك فخرج البطريق وعليه ديباجة خضراء ودرع حصين ومن تحت الدرع جوشن منيع وفي عنقه صليب من الذهب الأحمر ومعه غلام من ورائه يجنب جنيبة وعليه سيفه ودرقته فخرج حتى وقف بين الصفين فجعل يسأل القتال، فلما نظر المسلمون إليه لم يخرج إليه أحد! فقال عمرو: معاشر العرب من يخرج إليه ويهب نفسه لله ﷻ؟ فخرج إليه رجل من العرب وهو يقول: أنا أكون ذلك. فقال عمرو: بارك

الله فيما تريد. وحمل صاحب المسلمين عندما خرج مصمماً واستقبله البطريق وجعلا يتجاولان ساعة وهما يتعانقان بالسيوف إلى أن خرجت لهما ضربتان فسبقه البطريق بالضربة فأخذها الرجل بالدرقة فقدّها نصفين وكانت جلد بعير بطانة واحدة فلم يصل إليه من الضربة شيء وجعل الرجل ضربة في أثرها فقطعت البيضة وسلكها فتقهقر البطريق إلى ورائه ولم يصل إليه أذى، فلما رجعت إليه روحه حمل على المسلم وضربه فجرحه جرحاً فاحشاً فألوى إلى أصحابه فصاح به رجل من العرب: من وهب نفسه لا يرجع من بين يدي عدوه! فقال الرجل: أما كفاك هذه الضربة حتى توبخني إن الله ليلومني بأن ألقي بيدي إلى التهلكة، ثم شدّ جراحه، وعظم عليه ما قال ابن عمه، فلما خرج قال له الذي خاطبه: ارجع فخذ هذه البيضة واجعلها على رأسك. فقال: ثقتي بالله أعظم من حديدك، ثم دلف نحو البطريق وهو يقول:

يقول لي عند الخروج للقا ... دونك هذا الترس فاجعله وقا
من علج سوء قد بغى وقد طغى ... أقسمت بالله يميناً صادقا
لأتركن البيض فوق المرتقى ... وأدخل الجنة دار الملتقى

فدعا له المسلمون بالنصر، وحمل على البطريق وضربه ضربة هائلة فوقعت على عاتقه وخرجت من علائقه ثم حمل في جيش الروم فقتل رجالاً وجندل أبطالاً ولم يزل كذلك حتى قتل رحمه الله تعالى. فقال عمرو: هذا رجل اشترى الجنة من الله بنفسه: اللهم أعطه ما تمنى.

البطريق "قيدمون"

قال الواقدي: وكان هرقل حين بعث ولده فلسطين إلى قيسارية بعث معه بطريق كل البطارقة وكان اسمه "قيدمون" وكان من أفرس الروم ويقال إنه خال فلسطين، وقد كان لقي عسكر الفرس وعسكر الترك وعسكر الجرامقة. وكان يحفظ سائر اللغات. فقال لفلسطين: لابد لي من قتال العرب! وخرج وعليه لأمة مبارزاً، فلما رآه المسلمون قد خرج وكأنه جبل قد انهد من أعلاه إلى أسفله وهو يلمع من بريق الجوهر ضج المسلمون بقول "لا إله إلا الله"، فلما وقف في الميدان أقبل يرطن بلغته ويطلب البراز فأقبل العرب يهرعون إليه من كل جانب ومكان يريدون قتاله لأجل ما عليه، فقال عمرو: ثواب الله خير لكم مما عليه فلا يخرج أحد لطلب سلبه فيكون خروجه لأجل ذلك، وإن قتل مات في سبيل ما خرج إليه، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه"!

وكان غلام قد خرج من اليمن ومعه أمه وأخته يريدون الشام، وأخته تقول له: يا ابن أمي جد بنا في السير لنصل إلى الشام فنأكل من خيره ونعمه. فقال لها أخوها: إنما أذهب لأقاتل لمرضاة الله ﷻ. وقد سمعت معاذ بن جبل ﷺ يقول: إن الشهداء عند ربهم يرزقون. فقالت له أخته: كيف يرزقون وهم أموات؟! قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله تعالى يجعل أرواحهم في حواصل طيور الجنة فتأكل تلك الطيور من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها فتغدو أرواحهم في حواصل تلك الطيور، فهو الرزق الذي جعله الله لهم". فلما كان قتال قيسارية خرج ذلك الغلام إلى القتال بعد أن ودع أمه وأخته وداع الموت وقال لهم: نجتمع على حوض رسول الله ﷺ ثم خرج وبيده قناة وهي موصولة كثيرة العقد وتحته جواد هجين. فلما خرج الغلام حمل على البطريق من ساعته وطعنه بسنانه، فاشتبك السنان في درع البطريق فلم يقدر على انتزاعه فضرب البطريق قناة الغلام بسيفه فقطعها وحمل على الغلام وضربه على هامته فشطرها فوقع الغلام "ميتا" -رحمه الله- وجال قيدمون على مصرعه، ثم طلب البراز، فخرج إليه ابن قثم فقتله البطريق.

فلما نظر إلى ذلك شرحبيل بن حسنة ﷺ أقبل يعاتب نفسه ويقول: تتفرجين على قتل المسلمين! ثم خرج والراية بيده التي عقدها له أبو بكر ﷺ يوم خروجه إلى الشام، فلما رآه عمرو قد عول على الخروج قال: يا عبد الله اركز الراية لئلا تشغلك. فركزها شرحبيل فوقفت كالنخلة وغاصت في حجر كأنها منه فتفاءل بالنصر، وخرج إلى لقاء قيدمون والمسلمون يدعون له بالنصر على عدوه فلما رآه البطريق ضحك من زيه، وكان للملعون صوت عال وهو ضخم من الرجال، وكان شرحبيل نحيف الجسم من كثرة الصيام والقيام بالليل والبطريق في ميدانه فحمل كل واحد منهما على صاحبه واختلفا بضربتين، وكان السابق شرحبيل فلم يعمل السيف في لأمة البطريق شيئاً وثبت السيف في بيضته وحمل قيدمون على شرحبيل فشجه ثم تجاولا على الجوادين. قال سعيد بن روح: وكان ذلك اليوم كثير البرد والسحاب فبينما هما في المعركة إذ نزل المطر كأفواه القرب! فنزلا عن الجوادين وجالا يتصارعان في وسط الطين وذلك أن قيدمون حمل على شرحبيل فضرب يده في مراق بطنه فاقتلعه من الأرض، ورمى به على ظهره ثم استوى على صدره وهمَّ أن ينحره فنادى شرحبيل: يا غياث المستغيثين فما استتم كلامه حتى خرج إليه فارس من الروم وعليه لأمة مذهبة ومن تحته جواد من عتاق الخيل، فقصد موضع البطريق وشرحبيل فظنَّ قيدمون أنه إنما خرج ليعطيه جواده ويعينه، فلما قرب منهما ترجل وأمال البطريق برجليه عن صدر شرحبيل. وقال: يا عبد الله قد أتاك الغوث من غياث المستغيثين فوثب شرحبيل قائماً ينظر إليه

متعجباً من قوله وفعله، وكان الفارس متلثماً ثم جرد سيفه وضرب البطريق ضربة قطع بها رأسه، وقال: يا عبد الله خذ سلبه.

فقال شرحبيل: والله ما رأيت أعجب من أمرك! وإني رأيتك جئت من عسكر الروم فقال: أنا الشقي المبعد أنا طلحة بن خويلد الذي ادَّعى النبوة بعد رسول الله ﷺ وكذب على الله وزعم أن الوحي كان ينزل عليه من السماء. فقلت له: يا أخي "إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ"، وقد وسعت رحمته كل شيء ومن تاب وأقلع وأناب قبل الله توبته وغفر له ما كان منه، والنبي ﷺ يقول: "التوبة تمحو ما قبلها" أما علمت يا ابن خويلد أن الله ﷻ لما أنزل على نبيه "وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ"، طمع فيها كل شيء حتى إبليس فلما نزل قوله تعالى: "فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ"، قالت اليهود: نحن نؤتي الزكاة ونتصدق، فلما نزل قوله تعالى: "وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ"، قالت اليهود: نحن مؤمنون بما أنزل الله في الصحف والتوراة فأراد الله أن يعلمهم أنها خاصة بأمة محمد ﷺ بقوله: "ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ".

فقال طلحة بن خويلد: ما لي وجه أرجع إلى الإسلام وهمَّ أن يسير على وجهه فمنعه شرحبيل وقال له: يا طلحة لست أدعك تمضي، بل ترجع معي إلى العسكر قال: ما يمنعني من المسير معك إلا الفظ الغليظ خالد بن الوليد، وإني أخاف أن يقتلني! فقلت: يا أخي إنه ليس معنا وهذا الجيش لعمرو بن العاص. فرجع معي فلما قربنا من المسلمين تبادروا إلينا وقالوا: يا شرحبيل من هذا الرجل معك فلقد صنع معك جميلاً! ولم يعرفوه! لأنه كان متلثماً بفضل عمامته. فقلت: هذا طلحة بن خويلد الذي ادَّعى النبوة فقالوا: أَوَتاب ورجع إلى الله؟ فقال: أنا تائب إلى الله ﷻ. قال شرحبيل: فأتيت به إلى عمرو بن العاص فسلم عليه وبش في وجهه ورحب به.

حدثنا حسان بن عمر الربعي عن جده أن طلحة بن خويلد لما ادَّعى النبوة وجرى له ما جرى من الحرب مع خالد بن الوليد رضي الله عنه وسمع أن خالداً قتل مسيلمة الكذاب وقتل الأسود العنسي أيضاً لأنه قال إنه نبي خاف طلحة على نفسه من خالد فهرب بالليل ومعه زوجته للشام واستجار برجل من آل كلب فأجاره الكلبي وأنزله في داره، وكان الكلبي مؤمناً وبقي عنده مدة أيام إلى أن استخبره عن حاله فحدثه طلحة بجميع أحواله مع خالد بن الوليد ووقائعه معه وكيف ادعى النبوة فغضب الكلبي لكلامه وطرده من جواره فأقام طلحة بالشام وقد تاب من أمره، فلما بلغه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قد قبض قال: ذهب من جردت السيف في وجهه فمن ولي بعده. قالوا: عمر بن الخطاب، قال: الفظ الغليظ!.. وهاب أن يمضي إليه وفزع من خالد بن الوليد أن يراه بالشام فيقتله، فقصد قيسارية ليركب في المراكب ويطرح نفسه في بعض جزائر

البحر، فلما نظر إلى جيش فلسطين قد خرج إلى قتال العرب قال: أسير مع هذا الجيش فلعلي أنكب نكبة وأغسل بها شيئاً من أوزاري وتكون لي قربة إلى الله تعالى وإلى المسلمين، فلما نظر شرحبيل في عين الهلكة قال: لا صبرٍ لي عنه فخرج واستنقذه كما ذكرناه، فلما وقف بين يدي عمرو بن العاص شكره وبشّره بقبول التوبة.

فقال: يا عمرو إني أخاف من خالد بن الوليد أن يراني بالشام فيقتلني! فقال عمرو: فإني أشير إليك بشيء تصنعه وتأمن به على نفسك في الدنيا والآخرة. قال: وما هو؟ قال: أكتب معك كتاباً بما صنعت وشهادة المسلمين فيه وتنطلق به إلى عمر بن الخطاب وتدفعه إليه وأظهر التوبة فإنه يقبلها وسيندبك إلى الفتوح وقتال الروم فتمحو عنك ما سلف من خطاياك. فأجابه طلحة إلى ذلك فكتب له عمرو كتاباً إلى عمر بن الخطاب ﷺ بما صنع وأخذه طلحة ومشى به إلى مدينة رسول الله ﷺ فلم يجد عمراً في المدينة وقيل له هو بمكة فمضى حتى وردها فوجد عمر متعلقاً بأستار الكعبة فتعلق معه وقال: يا أمير المؤمنين إنّي تائب إلى الله ﷻ وحق رب هذا البيت مما كان مني. قال عمر: من أنت؟ قال: أنا طلحة بن خويلد. فنفر عمر منه وقال: يا ويلك إن أنا عفوت عنك فكيف الأمر غداً بين يدي الله ﷻ بدم ابن محصن الأسدي؟! قال طلحة: يا أمير المؤمنين عكاشة رجل أسعده الله على يدي وشقيت أنا بسببه وأرجو أن يغفر الله لي بما عملته قال عمر: وما عملت؟ فأخرج له كتاب عمرو بن العاص، فلما قرأه عمر وفهم ما فيه فرح به وقال: أبشر فإن الله غفور رحيم وأمره عمر أن يقيم بمكة حتى يرجع إلى المدينة فأقام معه أياماً، فلما رجع عمر إلى المدينة وجه به إلى قتال أهل فارس.

قال الواقدي: لما قتل البطريق قيدمون على يد طلحة ونجا شرحبيل مما كان قد لحقه ورجع إلى عمرو وكان المطر شديداً، فقطع الناس القتال ولحق الناس الأذى لأن أكثرهم بلا أخبية ولا بيوت، والتجؤوا إلى الجابية وتستروا بدورها. وكان من رحمة الله بالمسلمين أن وقع في قلب فلسطين الفزع والرعب لما قتل قيدمون البطريق وكان ركنه ودعامته فشاور أصحابه في الرجوع إلى قيسارية وقال: يا معاشر الروم أنتم تعلمون أن جيوش اليرموك ما ثبتت لهؤلاء العرب، وإن أبي قد ولى إلى القسطنطينية من خوفهم وقد ملكوا الشام جميعه وما بقي غير هذا الساحل وإني أخاف أن ندهى من قبلهم ويملكوا قيسارية والرحيل أوفق من المقام هاهنا فأجابوه إلى ذلك، فلما كان الليل ارتحل القوم والمطر ينزل.

قال سعيد بن جابر الأوسي: وكان ذلك كله رحمة للمسلمين من الله ﷻ. فلما كان في اليوم الرابع ارتفع المطر وطلعت الشمس فخرجنا من الجابية نطلب قتال الروم فلم نر لهم أثراً، فوالله لقد فرحنا بطلوع الشمس أكثر من فرحنا برحيل الروم، فكتب

عمرو بذلك إلى أبي عبيدة كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص السهمي إلى أمير جيوش المسلمين أبي عبيدة عامر بن الجراح، سلام عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد فيا صاحب رسول الله ﷺ، فإن فلسطين بن هرقل قد أخرج إلى لقائنا ثمانين ألفاً من الروم وكان لقاؤنا معهم على موضع يقال له نخل وأخذ شرحبيل بن حسنة وكان الذي ملك أسره قيدمون ابن خالة هرقل، ثم خلَّصه الله على يد طلحة بن خويلد الأسدي وقتل قيدمون، ثم وجهته بكتاب إلى عمر بن الخطاب وقد انهزم عدو الله فلسطين، وأنا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته. وبعث الكتاب مع جابر بن سعيد الحضرمي، فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب فرح بسلامة المسلمين وسير الجواب وقال: إذا قرأت كتابي فانزل على قيسارية وأنا في أثر الكتاب معوِّل على السير إلى صور وعكاء وطرابلس والسلام. ثم سلم الكتاب إلى جابر بن سعيد وأمره بالرجوع.

فتح صور وعكاء وطرابلس الشام وقيسارية

وعوَّل أبو عبيدة على النهوض إلى الساحل، فقام إليه عبد الله يوقنًا وقال: أيها الأمير اعلم أن الله ﷻ قد أباد المشركين ورفع علم الموحدين وإني أريد أن أسير قبلك إلى الساحل لعلي أفوز من القوم بغزوة. فقال: يا عبد الله إن أنت عملت شيئاً يقربك إلى الله تجده بين يديك فافعل. فوثب يوقنًا قائماً وأخذ أصحابه وكان قد انضاف إليه من كان يخدمه بحلب وكلهم رجعوا إلى الإسلام وكانوا أربعة آلاف، وفي عسكر العرب أيضاً ممن أسلم من البطارقة ما يزيد عن ثلاثة آلاف فارس من البطارقة المعدة وعليهم وال يقال له "جرفاس". ولما انهزم فلسطين إلى قيسارية وتحصن بها بعث إلى أهل طرابلس أن يبعثوا له بنجدة فبعثوا له بثلاثة آلاف فارس.

وساروا يطلبون قيسارية، فلما كانوا بالقرب منها نزلوا في مرج ليعلقوا على خيولهم، فبينما هم كذلك إذ أشرف عليهم "يوقنًا" وأصحابه وكان قد صحبهم "فلنطانوس" صاحب رومية وأصحابه وكانوا معوِّلين على زيارة بيت المقدس والمقام بها، فلما أشرفوا على المرج وهم بزيهم ما غيروا منه شيئاً ورآهم جرفاس ركب بنفسه يختبر حالهم، فلما قرب منهم سلم عليهم ورحب بهم وقال: من أنتم؟ قالوا: نحن الذين لجأنا إلى هؤلاء العرب واستكفينا شرهم وظننا أنهم على شيء فإذا هم طغاة لا دين لهم فهربنا بديننا ونحن أصحاب حلب وقنسرين وعزاز ودارم وأنطاكية ونحن قاصدون إلى الملك هرقل لنكون في جانبه. فلما سمع "جرفاس" من القوم ذلك فرح بهم وأنس لكلامهم، وقال انزلوا عندنا كي تستريحوا ساعة من التعب فلاشك أنكم سرتم الليل والنهار وخافت أنفسكم من العرب، قال يوقنًا: أين أنتم سائرون؟ قال:

بعث إلينا فلسطين لنكون في طرابلس. فقال يوقنّا: تيقظوا لأنفسكم فإن أمير العرب أبا عبيدة تركناه على نية القدوم إلى الساحل. فقال جرفاس: وماذا ينفع حذرنا ودولتنا قد اضمحلت وأيامنا قد ولت ولسنا نرى الصليب يغني عن أهله شيئاً؟! فنزلوا عندهم ساعة وقدّموا لهم أزواد فأكلوا ثم ركبوا، وهمّ جرفاس أن يركب لركوبهم فقال يوقنّا: اشتغل بأصحابك وألبسهم أفخر ثيابهم، فإن ذلك مما يظهر الرعب في قلوب أعدائكم.

قال الواقدي: .... عن جرير بن البكاء وكان أعرف الناس بفتوح الشام، قال: ما دخل يوقنّا إلى ساحل البحر حتى أتقن الحيلة! وذلك أنه قد نزل فيه الحرث بن سليم مع بني عمه يرعون إبلهم وكانوا في مائتي بيت من العرب فأغار عليهم يوقنّا وأخذهم وشدهم كتافاً ودخل بهم إلى بلاد الساحل. فلما جن الليل جمعهم إليه وقال: لا تظنوا أني رجعت عن الإسلام وإنما فعلت بكم هذا كي تسمع الروم بسواحلها أني غدرت بالعرب وأخذتهم! قال: فاطمأنت العرب إلى كلامه وقالوا له: إن كنت تريد إقامة دين الله فالله ينصرك وبالأعداء يظفرك، قال: ووكل يوقنّا رجالاً تسوق الأموال وإنما اطمأن جرفاس وأصحابه إلى يوقنّا لما رأى الأسارى من العرب والجمال والأنعام، فلما ركب يوقنّا وأصحابه ورأى أنهم طالبون لساحل البحر نكب عن طريق طرابلس وكمن في الليل على طريق القوم، قال: وإن جرفاس فرق خزائنه التي كانت عنده على أصحابه وقعد حتى جن الليل وأكلت الخيل عليقها ثم ركبوا واستقاموا على الطريق، فلما توسطوا أطبق عليهم يوقنّا وأصحابه وداروا بهم ولم يمهلوهم بالقتل وأخذوهم أخذاً بالكف وانتشرت الخيل في تلك الأرض لئلا يكون قد انفلت من الروم أحد!

فلما حصلوا في قبضتهم وتحت أسرهم أرادوا أن يطلقوا الحرث بن سليم وأصحابه فقال الحرث: إني أرى من الرأي أن تتركونا على حالنا فإن ثواب الله قد حصل وصبحوا بنا بلاد العدو فإنكم ما تشرفون على بلد من بلاد الساحل إلا فتحه الله لكم. قال يوقنّا: هذا رأي صحيح. ثم أمر أصحابه أن يستوثقوا من الأسرى، وكمن ألفين من أصحاب فلنطانوس مع الأسرى وهم ثلاثة آلاف فارس وقال: إذا جاءتكم رسلي فاقدموا. ثم ألبس أصحابه زي الروم مثل أصحاب قيسارية الذين أخذوهم وساروا نحو طرابلس فلما خرج كل من في البلد إلى لقائهم كان كتاب فلسطين قد وصل إليهم إني قد بعثت إليكم بثلاثة آلاف فارس مع "جرفاس بن صليبا" ودخل يوقنّا مع أصحابه حتى استقر قراره ودخل عليه دار الإمارة ودخل عليه شيوخ طرابلس والبطارقة وأهل الحشمة منهم.

فلما حصلوا عنده أمر بهم وقبض عليهم وقال: يا أهل طرابلس إن الله سبحانه قد نصر الإسلام وأهله وقد كنَّا في عيش مظلم نسجد للصلبان ونعظم الصور والقربان ونجعل لله زوجة وولداً حتى بعث لنا هؤلاء العرب فهدانا وألحقنا بهم ببركة نبيهم ﷺ وهو النبي المبعوث الذي ذكره الله في التوراة وبشر به عيسى المسيح! وإن الإسلام حق وقوله الصدق. يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وينطقون بالحق ويتبعون الصدق، ويوحدون الله وينزهونه عن الصاحبة والولد، ويجاهدون في سبيله، وهو الذي أمر به أنبياءه ورسله! فإما أن ترجعوا إلى دين الإسلام أو تؤدوا الجزية وإلا بعثتكم عبيداً للعرب، وهذا ما عندي والسلام. فلما سمعوا كلامه علموا أن يوقنَّا اجتاز عليهم وأخذ أصحاب الملك في الطريق، فقالوا: أيها السيد نحن نفعل ما أمرتنا به، فمنهم من أسلم ومنهم من رضي بالجزية وعدل يوقنَّا وبعث إلى أصحاب الكمين فحلوا الأسرى فعرض عليهم الإسلام فأبوا فأمر بحبسهم وبعث إلى أبي عبيدة بالخبر وما جرى له وبعث الكتاب مع الحرث بن سليم من وادي بني الأحمر وقال: يا عبد الله كن للأمير مبشراً بهذا الفتح. قال: سأفعل ذلك إن شاء الله تعالى وسار بالكتاب حتى وصل إلى أبي عبيدة وسلم عليه وناوله الكتاب، فلما قرأه وعلم معناه فرح وقال للحرث بن سليم: ألم تستأذني أن تسير أنت وبنو عمك إلى وادي بني الأحمر فمن أوصلك إلى طرابلس؟ قال: أوصلني القضاء والقدر، وذلك أن يوقنَّا أغار علينا وأخذنا أسرى .. وحدثه بحديثهم فعجب من ذلك أبو عبيدة وقال: اللهم ثبتهم وأيدهم بنصرك.

.... حدثني موسى بن مالك قال: إنَّ عمرو بن العاص لما ارتفع المطر رحل من الجابية ونزل على أبواب قيسارية، وأما ما كان من أمر يوقنَّا فإنه لما ملك طرابلس واحتوى عليها واستوثق من سورها وأبوابها ترك أصحابه على الأبواب وقال: لا تدعو أحداً يخرج من الأبواب! وكان في المرسى مراكب كثيرة فرفع آلاتها وأخذها كل ذلك ولا يعلم أحد من أهل الساحل بما صنع، قال: وبعد أيام جاءت مراكب كثيرة زهاء من خمسين مركباً، فتركهم يوقنَّا حتى نزل أكثرهم إلى المدينة فأمر بهم إليه فاستخبرهم عن حالهم وقال: من أين جئتم؟ قالوا: جئنا من جزيرة قبرص ومن جزيرة أقريطش. وقالوا: معنا العدد والسلاح مضروبة للملك فلسطين فأراهم الفرح والسرور وسلم عليهم وقال: إني أريد أن أسير معكم! ثم أمر بهم إلى دار الضيافة وبعث إلى قواد المراكب فأنزلهم وقدم لهم السماط، فلما أكلوا قال إني أريد أن أسير إليكم الزاد والعلوفة وعدة السلاح إلى خدمة الملك ولكن تقيمون عندي ثلاثة أيام. فقالوا: أيها البطريق إنَّا على عجل من أمرنا نخاف من لوم الملك ولسنا نقدر على ذلك ولم يزل بهم حتى أذعنوا له.

فقال: أريد أن تنزلوا الشراعات والمقاذيف فتكونوا في المدينة ليطمئن قلبي بذلك ففعلوا وألصقوا المراكب بالسور ونزل كل من في المراكب وما بقي في المراكب إلا ثلاثة رجال، فلما دبر هذا التدبير قبض على الجميع فلما كان الليل سلم طرابلس لبني عمه وللحرث بن سليم وفلنطانوس وعمَّر المراكب برجاله وهمَّ بالصعود إليها وإذا عند غروب الشمس قد أقبل خالد بن الوليد ﷺ في ألف فارس من أصحابه، فلما رآهم يوقنًا سجد لله شكراً وسلم على خالد وسلم له المدينة وحدثه بما جرى له وما قد عزم عليه فقال: نصرك الله وأيدك! ثم إن يوقنًا ركب من ليلته وسار وكان على سور دمشق جيش فلسطين وهو "أرمويل بن نشطة" ومعه أربعة آلاف فما أصبح يوقنًا إلا وهو في مدينة صور فأمر بالبوقات فضربت والرايات فنشرت ووقف الدمستق يختبر خبرهم فعاد صاحب البحر إليه فقال: هؤلاء أهل قبرص وجزيرة أقريطش قد أقبلوا بالعلوفات والطعام والعدد يريدون قيسارية في خدمة الملك، ففرح أهل صور بذلك وأمروهم بالنزول فنزل يوقنًا وأصحابه فصنع لهم الدمستق طعاماً ومد لهم سماطاً عظيماً وأحضر لقوادهم الخلع ويوقنًا ينتظر الليل حتى يثور بأصحابه، وكان جملة من نزل معه تسعمائة رجل وترك الباقين في المراكب، وقال: إن لم يتم لنا ما نريد ولم نظفر بهم فلا تبرحوا من مراكبكم وأنفذ إلى خالد وأخبره بالقصة.

.... عن عمار بن ياسر الربعي قال: لما حصل يوقنًا والتسعمائة بمدينة صور وأكلوا سماط الملك وخلع على كبرائهم... أقبل عليهم في السر رجل من بني عم يوقنًا ممن استحكمت الضلالة قلبه واحتوى الكفر على أقانيم جسده فأقبل إلى الدمستق وحدثه بأمر يوقنًا وما قد عزم عليه وأنه مسلم وأنه يقاتلكم مع العرب وقد فتح طرابلس وأخذ البطريق "جرمانس" صاحب الملك، فلما سمع الدمستق بذلك لم يكذب خبراً دون أن ركب بأصحابه وقبض على يوقنًا وأصحابه ووقع الصياح وكثر الضجيج وسمع بذلك أصحاب يوقنًا فعلموا أن ذلك بسبب أصحابهم وأنه قبض عليهم فاغتموا لذلك غمًّا شديداً وأخذوا على أنفسهم من عدو يقبل عليهم قال: فلما استوثق عليهم الدمستق أرمويل بن نشطة وكل بهم ألف رجل وقال: سيروا بهم إلى الملك يفعل فيهم ما يريد، وأقبلوا يعنفون يوقنًا وأصحابه ويقولون لهم: ما الذي رأيتم في دين العرب حتى تبعتموهم وتركتم دينكم ودين آبائكم؟! قد طردكم المسيح عن بابه وأبعدكم عن جنابه، فلما هموا أن يسيروا بهم وقع الصياح من الأبواب ونفر أهل القرى، ومن كان بالقرب من صور فسألوهم عن أخبارهم. فقالوا: قدمت العرب عليكم.

وكان عمرو بن العاص لما نزل على قيسارية وجه يزيد بن أبي سفيان في ألفي فارس إلى صور، فلما سمع الدمستق أمر بالأبواب فأغلقت وصعدت الرجالة على الأسوار وعمروا الأبراج ونصبوا المجانيق، وأدخل الدمستق يوقنًا إلى قصر صور

واستوثق منهم لئلا يتم عليه أمر منهم، وبات القوم يحرسون وأضرموا نيرانهم على الأسوار فأقبلوا يرقصون ويشربون طول ليلتهم، فلما كان الغد أشرف عليهم يزيد بن أبي سفيان فنظر إليهم الدمستق، فلما رآهم قليلاً استحقرهم وطمع فيهم وقال: "وحق المسيح لابد لي من الخروج إليهم وهزم هذه الشرذمة اليسيرة". ثم لبس اللباس وأمرهم بالخروج وترك على حفظ يوقنًا وأصحابه ابن عمه باسيل.

وكان باسيل هذا ممن قرأ الكتب السالفة والأخبار الماضية وكان قد رأى النبي ﷺ في دير بحيرا الراهب وكان باسيل قد مضى إلى زيارة بحيرا، فلما قدمت عير قريش وجمال خديجة بنت خويلد وفيها رسول الله ﷺ نظر بحيرا إلى القافلة ورسول الله ﷺ في وسطها والسحابة على رأسه تظله من حر الشمس، فلما تبينه قال: والله هذه صفة النبي الذي يبعث من تهامة ثم انتظروا وإذا بالركب قد نزل ورسول الله ﷺ نزل وحده تحت شجرة يابسة واستلقى إليها فأورقت الشجرة بين يدي رسول الله ﷺ! فلما عاين بحيرا ذلك صنع طعاماً لقريش واستدعاهم فدخلوا الدير وبقي هو مع الإبل ليرعاها، فلما نظر بحيرا إليهم ولم يره في جملتهم قال: يا معشر قريش هل بقي منكم أحد؟ قالوا: نعم بقي فينا من تخلف لحفظ القافلة ورعي الإبل. قال: ما اسم من يرعى الإبل؟ قالوا: محمد بن عبد الله. قال: هل مات أبوه وأمه؟ قالوا: نعم. قال: هل كفله جده وعمه. قالوا: نعم، قال: يا قريش هو والله سيدكم وبه يعظم في الدنيا مجدكم، قالوا: من أين علمت ذلك؟ قال: لما أشرفتم عليٍّ من البرية لم يبق صخر ولا مدر إلا خرّ له ساجداً. فبقي باسيل في حيرة من أمره وكتم سره وعلم أن بحيرا لا يتكلم إلا بالحق، فلما وقع يوقنًا وأصحابه ووكله الدمستق على حفظهم قال: إن الإسلام هو الحق وقد بشر به بحيرا الراهب، ولعل الله يغفر لي إذا حللت هؤلاء القوم.

وكان من حسن تدبير الله لعباده المؤمنين أنه لما خرج الدمستق إلى لقاء يزيد بن أبي سفيان لم يتأخر أحد من شباب المدينة لا صغير ولا كبير إلا وخرج معه وبقيت العوام ينتظرون على الأسوار ما يكون بينهم وبين العرب، فلما نظر باسيل إلى المدينة وخلوها واشتغال أهلها بالحرب أخذ رأيه على خلاص يوقنًا ومن معه فأقبل إليهم بالليل والتفت إلى يوقنًا وأصحابه وقال: أيها البطريق كيف تركت دين آبائك وأجدادك من قبل وعولت على دين هؤلاء العرب وما الذي رأيت من الحق حتى تبعتهم وقد كانت الروم تتخذك عضداً لها وعوناً؟ قال له يوقنًا: يا باسيل ظهر لي من الحق ما ظهر لك من الحق فعرفته وقد هتف بي هاتف يقول لي: إن الذي هداك إلى دينه يخلصك وبشرني بالخلاص على يديك. فلما سمع ذلك زاد إيقانه وتحقق إيمانه وقال ليوقنًا: لقد أنطق الله لسانك بالحق وإن الله كشف حجاب الغفلة عن قلبي منذ رأيت نبي هؤلاء القوم بدير بحيرا الراهب وهو في قافلة لأهل مكة ورأيت من دلائله أنه

لا يسير على الأرض إلا والشجر تسير إليه والسحابة على رأسه تظلله ولقد استند إلى شجرة يابسة فأورقت في الحال وأنبأني بحيرا الراهب أنه وجد في العلم أن جماعة من الأنبياء استندوا إليها وجلسوا حولها فلم تورق، فلما استند بظهره إليها أورقت أغصانها وأينعت فعجبت من ذلك، وسمعت بحيرا يقول: هذا والله الذي بشر به المسيح فطوبى لمن تبعه وآمن به وصدقه، فلما عدت من زيارة بحيرا سافرت إلى القسطنطينية بتجارة وطفت في بلاد الروم وأقمت ما شاء الله. ثم عدت إلى قيسارية فرأيت الروم في هرج ومرج فسألت عن أحوالهم فقيل قد ظهر نبي في الحجاز اسمه محمد بن عبد الله وقد أخرجه قومه من مكة. وقد أتى إلى المدينة التي بناها تبع وقد ظهر على قومه ونصر عليهم فما زلت أسأل عن أخباره وهي في كل يوم تنمو وتزيد حتى مات، ثم ولي صاحبه أبو بكر الصديق وأنفذ جيوشه إلى الشام فلم يلبث إلا يسيراً ثم مات! وولي هذا الرجل عمر بن الخطاب ففتح بلادنا وهزم جيوشنا وأنا مع ذلك أنتظر قدومهم إلى هذا الساحل حتى أتى الله بهم.

فقال له يوقنّا: وما الذي عزمت عليه؟ قال: عزمت والله أن أفارق قومي وأتبعكم فإن الحق بينٌ؛ ثم حل يوقنّا وأصحابه وسلم إليهم العدد والسلاح وقال ليوقنّا: اعلم أن مفاتيح الأبواب عندي والعسكر خارج المدينة مشتغل بقتال العرب، وليس في المدينة من يخاف جانبه فانهض على اسم الله. فقال يوقنّا: جزاك الله خيراً فلقد هداك الله إلى دينه وسلك بك طريق النجاة وختم لك بخير. ويجب الآن علينا أن نظهر أنفسنا ونبعث في المراكب حتى ينزلوا إلينا ونكون نحن يداً واحدة. فقال باسيل: سأفعل ذلك! ثم إنه خرج في حال الخفاء وفتح باب البحر ومعه رجل من بني عم يوقنّا وركبا زورقاً حتى وصلا إلى البحر والمراكب وحدثاهم بما قد كان فأقبل كل مركب برجاله إليهما وساروا إلى أن نزل الجميع وحصلوا داخل المدينة -أعني مدينة صور- وأعمى الله أبصار الكفار، فلما هموا أن يثوروا قال يوقنّا: ليس هذا من الرأي وأين من يهب نفسه لله عز وجل ويخفي أمره ويخرج من الباب ويدور إلى عسكر المسلمين ويتوصل إلى أميرهم ويعلمه بما كان منا ويكون على أهبة، وإذا سمع بنا أحد لا يهوله وليصدم جيش العدو؟

فقال رجل من القوم: أنا أكون ذلك الرجل، ثم خرج متنكراً وأغلق باسيل خلفه الباب، ووصل إلى يزيد بن أبي سفيان وحدثه بالأمر على حقيقته وبما كان من أمر يوقنّا فسجد لله شكراً وبعث من ساعته إلى المسلمين ليأخذوا على أنفسهم في الكبسة على القوم ففعلوا ذلك. وأما يوقنّا -رحمه الله-، فلما علم أن الخبر وصل إلى المسلمين قال لأصحابه: ليصعد منكم خمسمائة رجل إلى السور ويقتلوا من عليه. قال باسيل: ليس هذا رأياً فإن العوام لا اعتبار لهم ولعل الله أن يهديهم إلى الإسلام ولكن

مر أصحابك أن يلزموا مطالع السور حتى لا ينزل أحد منهم ويزعقوا بالأمان. فاستصوب رأيه! ووكَّل الرجال بالمطالع ثم زعق يوقنًا وأصحابه بصوت مزعج وقالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله!

فسمع كل من في المدينة ومن على السور ذلك فعلموا أن يوقنًا وأصحابه تخلصوا من الأسر ووثبوا في المدينة، وطارت عقولهم وانزعجت أفئدتهم على أولادهم وأهاليهم، فبقوا في حيرة! فسمع يزيد بن أبي سفيان الضجة فعلم أن المسلمين قاموا في المدينة فكبر وكبرت المسلمون وهلل الموحدون فسمع الدمستق الضجة من المدينة فعلم أن يوقنًا وأصحابه تخلصوا من الأسر وهم الذين فعلوا ذلك فوقع الرعب في قلوبهم ونظروا إلى النيران قد اشتعلت في عسكر المسلمين وتأهبوا للحملة عليهم فلم يبق لهم صبر وقد انقطعت قلوبهم من أجل أموالهم وأولادهم الذين في داخل المدينة وقيسارية محاصرة، وليس لهم مدد من ولد الملك فولَّوا الأدبار، واتبع المسلمون آثارهم وملكوا خيامهم وما كان فيها.

فلما أصبح الصباح فتح يوقنًا باب المدينة ودخل يزيد بن أبي سفيان ومن معه من المسلمين واحتووا على أموال الروم ونادى من كان على السور: الغوث! فأمَّنهم المسلمون ونزلوا بأجمعهم، فقال لهم يزيد: إن الله ﷻ قد فتح لنا مدينتكم عنوة وأنتم الآن لنا عبيد، فما شئنا حكمنا فيكم، ولكن نحن إذا عاهدنا وفينا، وإذا قلنا صدقنا، وقد أعطيناكم الأمان من أنفسنا ولكن عليكم الجزية على من لم يدخل في ديننا، ومن أسلم منكم فله ما لنا وعليه ما علينا، فأجاب القوم إلى ذلك وأسلم أكثرهم وبلغ الخبر إلى فلسطين بأن صور قد فتحت، فعلم أنه لا بقاء له فأخذ الفرصة وانهزم وأخذ خزائنه وأمواله وذخائره وخدمه وأركبهم في المراكب بالليل وأقلع يريد اللحوق إلى القسطنطينية. فلما نظر أهل قيسارية إلى ذلك خرجوا إلى عمرو بن العاص وصالحوه على أن يسلموا له المدينة فصالحهم على مائة ألف درهم وما ترك الملك من خزائنه ورجاله فأجابوه إلى ذلك وكتب لهم كتاب الصلح فعندها دخل عمرو بن العاص إلى قيسارية وأخذ بقية ما ترك الملك وضرب الجزية عليهم من السنة الآتية كل رجل أربعة دنانير. وبعث عمرو جيشاً إلى صور مع ياسر بن عمار بن سلمة وكان شيخاً كبيراً قد شهد مع رسول الله ﷺ حنيناً والنضير فبعثه عمرو إلى صور ومعه رجل من أصحابه، قال: ودخلها يوم الأربعاء في العشر الأول من رجب الفرد سنة تسع عشرة من الهجرة ووصل الخبر إلى الرملة وعكاء وعسقلان ونابلس وطبرية فعقدوا كلهم صلحاً مع المسلمين وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية، وملَّك الله الشام كله للمسلمين ببركة سيد المرسلين ﷺ.

تم الجزء الأول

والحمد لله رب العالمين

فهـرس المحتـويات

إقبـــال الجنـــد ص1
وصيـــة أبـي بكـــر ص3
وصيـــة الصــديق لعمـرو بن العــاص ص10
عمـــرو بن العـــاص في فلســـطين ص12
كتـاب عمـــرو بن العـــاص إلى أبي عبيـــدة ص16
خـــالد بن الوليـــد في الشـــام ص18
معــــارك الشــــام ص30
خـــولة بـنت الأزور ص38
معـــركة حــــول دمشـــق ص43
بطـــولة النســـــاء ص46
نصيحــــة خـــــالد ص49
معركـــة أجنــــادين ص57
كتـــاب أبو بكـــر إلى خالـــد ص60
حــــول دمشـــــق ص61
بطـــــولة المـــرأة ص64
القتـــال من فـــوق الأســــوار ص68
كـتب خــــالد بالفتــــح ص82
توليـــــة أبي عبيـــدة ص85
ذكـر حــديث وقعـــة أبي القـــدس ص88
معــــركة ضـــــرار ص95
ذكـــر فتــــح حمـــص ص98
ذكــــر حــديث سرية خــــالد بن الوليــد ص100
ذكـــر فتــــح قنســــرين ص101
جبـــلة يحـــارب خـــالداً ص110
ذكــر حـــديث نـزول المســـلمين على حمـــص ص130
ذكـــر فتـــح الرســـــتن ص137
معـــــركة حمــــص ص144
ذكــر وقعـــة اليـرمـــوك ص147
جبــــلة بن الأيهـــــم ص158

نسـاء المسـلمين في المعـركـة ص184
الشـعـار ص196
ذكـر فتـح مـدينة بيت المقـدس ص219
ذكـر فتـح مدينـة حـلب وقـلعتها ص236
ذكـر فتـح عـزاز ص267
ذكـر غـزوة مـرج القبـائل داخـل الـدروب ص297
النجـدة ص303
كتـاب عمـر ص307
ذكـر فتـح قيسـارية الشـام بسـاحل البحـر ص308
المعـارك في فلسـطين ص310
المعـركـة ص314
البطـريـق "قيـدمـون" ص315
ذكـر فتـح صـور وعكـاء وطرابلس الشـام وقيسـارية ص319